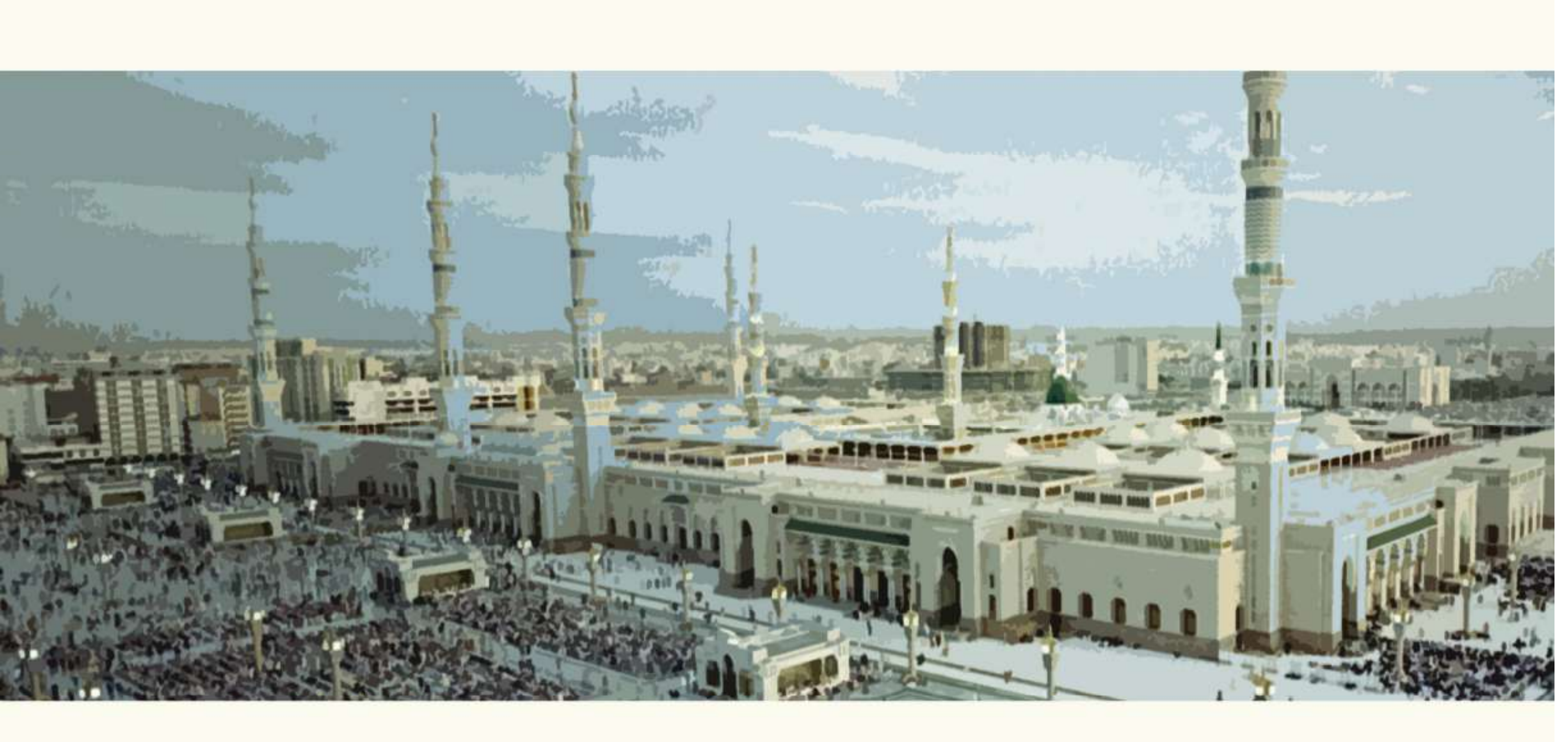


براهين النبوة

والرد على اعتراضات المستشرقين والمنصرين



د. سامي عامري

لماذا أنا مسلم؟ (٢)

براهين النبوة

والرد على اعتراضات المستشرقين والمنصّرين


بسم الله الرحمن الرحيم

براهين النبوة

والرد على اعتراضات المستشرقين والمنصّرين

د. سامي عامري

براهين النبوة

والرد على اعتراضات المستشرقين والمنصّرين

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ/٢٠١٨م



Business center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith,
London W6 9DX, UK

www. Takween-center.com
info@Takween-center.com

تصميم الغلاف :



+966 5 03 802 799
المملكة العربية السعودية – الخبر
eyadmousa@gmail.com

الإهـــــداء

To Omar W

A friend is the one who comes in when the whole world has gone out.

إلى أم عز الدين

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزُّخرُف: ٦٨ ـ ٧٠]

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تمهيد

بسم الله الرحمٰن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله..

كنّا قد التقينا في الكتاب الأول من ثنائيّة (لماذا أنا مسلم؟) للنظر في النصف الأوّل من شهادة التوحيد الإسلاميّة، وهو الشهادة بألّا إلٰه إلا الله؛ أي: إثبات وجود الله ووحدانيّته في باب الربوبيّة. وقد تحدّثنا عن وحدانيته في بعض باب الألوهيّة والأسماء والصفات في كتاب آخر[1]. وآن الآن أوان الحديث عن النصف الثاني المكمّل لشهادة الإسلام التي يقوم الإسلام على أصلها، ويفارق المنتمي لهذا الدين كلّ دين آخر بها، وهي أنّ محمدًا رسول الله.

وقد يسأل سائل في مُبتدأ النظر: قد أُلِّفت في مبحث دلائل النبوّة كتب كثيرة منذ القرن الثاني الهجري، فهل نحن في حاجة إلى مزيد؟ وهل في التأليف في هذا الباب غير التكرار واستحضار عَين الأفكار القديمة دون جِدَةٍ!

---

(١) سامي عامري، العالمانية طاعون العصر، كشف المصطلح وفضح الدلالة (الرياض: مركز تكوين، ٢٠١٧م).

وجواب السؤال هو: أنّ هذا الكتاب وإن كان لا يقطع مع كلّ ما سبق، بل ويقرّ صاحبه أنّه أفاد مما سلف وانتشر، إلّا أنّه يسعى إلى التجديد في وجهيه؛ أي: طرافة القالب وحداثة المضمون.

طرافة القالب هي في عرض رأيَيْ المسلم وغير المسلم في صدق نبي الإسلام ﷺ، ثم اختبار أدلّة المسلم في ضوء اعتراضات مخالفه؛ لبيان الكفّة الراجحة عند إعلان الحكم، والبتّ في الاشتجار بعدل. والغاية من ذلك دفع وهم العرض البارد لبراهين الإسلام دون النظر أو التعريج على نقود المخالفين؛ فللمخالف حقّ إبداء الاعتراض، وعلى المسلم واجب بيان الجواب.

ولسنا نكتفي بذلك، وإنّما نعرّج على النصرانيّة، فننظر في متانتها وقوّة حجتها في المبحث نفسه وعلى الميزان نفسه؛ فإنّ التدافع الديني في العالم العربي مسرحه الأكبر الجدل الإسلامي ـ النصراني. وفي بيان حقيقة النصرانية بعد عرض دلائل الربانية في القرآن والسُّنَّة كشف لما بين حجّة أهل الدينين من تباعد ولحالهما من تنافر. ومعلوم أنّ كثيرًا مما يُقال في النصرانية يصدق حكمه في اليهودية لاشتراكهما في الإيمان بالعهد القديم (التوراة مجازًا).

ويسبق ذلك البحث في الحاجة إلى النبوّة والإشكاليات المعرفية والحجاجيّة للربوبي الذي يقرّ بالخالق وينكر وحيه إلى البشر. وبذلك نكون قد ختمنا رحلة التطواف مع أبرز العقائد التي تعني القارئ العربي في مسألة النبوّة المحمّدية بعد أن ناقشنا الملحد واللاأدري والمشرك في حديثنا عن وجود الله ووحدانيته.

وأما ما تعلّق بحداثة المضمون، فالكتاب يضمّ بين دفّتيه مباحث تاريخية، وعلمية، وفلسفية، مع اهتمام بأهم ما نشره المستشرقون والمنصّرون في الاعتراض على نبوّة محمّد ﷺ، وأبرز ما انتهت إليه الدراسات النقديّة للتوراة والإنجيل، بعيدًا عن الإجمال المخلّ والنقل غير الموثّق أو الاقتباس من الكتابات الشعبيّة الغربية الملتحفة برداء الإثارة.

غاية الكتاب هي نظم البراهين الجادة والدلائل اللائحة لبيان حقيقة انتهى إليها الباحثُ، وهي أنّ إنكار نبوّة محمّد ﷺ خيارٌ غير منصف، مهما أسرف المرء على نفسه في الشكّ ـ غير المَرَضِيّ ـ. ولا يمنع ذلك من القول: إنّ خطة البحث تلتزم الموضوعية والإنصاف في عرض الشهادات والمعترضات؛ فإنّه لا يجلس كاتب ليخطّ كتابًا في مسألة عقدية إلا وقد انتهى قبل الكتابة إلى رأي في الموضوع. وموضوعيّته في كتابه ـ عندها ـ ليست في التزامه الحياد السلبي في النتائج، وإنما في عرض الآراء بأمانة، ونقل أبرز الاعتراضات بدقّة وإنصاف، وضرب الأفكار ببعضها لتضيء باحتكاكها الحاد شرارة الحقيقة، وينكسر عند تدافع الآراء أوهنها بُنية.

هذا الكتاب، خلاصة تجربتي، وصريح شهادتي.. شهادة ألزمتني أنا نفسي ـ على ما في عقلي من نزوع إلى الارتياب في كلّ دعوى لم تسطع براهينها وتَثقل موازينها ـ أن أقول: إنّ إجلال العقل والاستسلام لداعي القرآن قرينان لا يفترقان، بل التلاحم بينهما شديد وسديد. وقد نظرت في أبرز العقائد الكبرى اليوم في العالم؛ فوجدتها تسقط صريعة النقد في مبدأ الشكّ الهادئ، ولم أجد قريعًا للإسلام وشهاداته الوفيرة، ولا قريبًا من ذلك.

ولستُ أدعوك ـ مع ذلك ـ أن تُسلم عقلك لعقلي، فليس ذلك من شيم العقلاء، وأمرك عندي أعظم من أن أدعوك إلى لفظ الإيمان التقليدي إلى أن تصير إلى تقليدي، وإنّما أرجو لك أن ترتفع عن سهل التقليد بلا برهان إلى يفاع الاستسفار واليقين المدلّل.. كما أدعوك أن تُعمل النظر فيما سَتَمُرُّ عليه عيناك وتتنسّمه روحك الناقدة في هذا الكتاب. قَلِّبه على أوجه النقد الرصين، واعرضه على شمس الفهم الرصين، ثم زنه بقسطاس العدل المستقيم.

الكتاب قائم على مباحثة الأوجه التي من الممكن أن تُختبر فيها نبوّة محمّد ﷺ، مع عرض وجهة نظر المسلم، ووجهة نظر مخالفه من خلال عرض الصورة المتوقّعة لحقيقة الشخصيّة المحمّدية ورسالتها وكتابها المقدس،

ثم محاكمة وجهتَي النظر إلى حقائق التاريخ، والسُّنن النفسيّة والكونيّة والتاريخية.

وقد سعى الكتاب إلى أن يحافظ على مستوى عالٍ من الشك، وألّا يجعل الأصل في الحديث قبول الدعوى الإسلاميّة، وإنّما هو يستدعي الاعتراضات المخالفة ما وجد إلى ذلك سبيلًا، دون إسراف يدخل في حدّ الوسواس القهري الذي يشكّ لأجل إرضاء نهمة الشكّ وداعي المغالبة، ولا إقتارٍ يجحف المخالف حقّه في الاستعلان بريبته وشكّه.

والنصيحة الكبرى التي أريد أن ألزم بها نفسي والقارئ ونحن نتنقّل في كلّ طور إلى مبحث جديد، هي جمع المادة التاريخيّة الموثوقة بعيدًا عن هوس القراءة التآمريّة ـ كما عند طائفة المستشرقين ـ، أو القراءة التمجيديّة الشاعريّة ـ كما عند بعض الوعّاظ المسلمين ـ، وإنّما ليكن بحثنا على سُنَّة النظر في الواقع كما يبدو للناظر، لا نجمّله بما لا يزيّنه، ولا نشنَأه بما لم يُفسده.

وإذا كان سبيلنا الأوّل للبحث في وجود الله عند النظر في النفس والكون هو «**الاندهاش**» الذي هو أصل النظر الفلسفي ـ كما يقوله (أرسطو) ـ، فإنّ أصل النظر في نبوّة «صاحب القرآن» الذي عاش في القرن السابع الميلادي هو «الانسلاخ». والمقصود «بالانسلاخ» هو أن يتخلّص الباحث ما استطاع من ثقافة العصر ليعيش بعقله وروحه في جزيرة العرب، مع ثقافة العرب منذ ما يقارب خمسة عشر قرنًا.

ولا أقصد «بالانسلاخ» أن تتبنّى ضرورةً أخلاق عرب القرن السابع، أو رؤاهم العلمية، وإنّما أن تعيش عصر البعثة لتتمكّن من تقديم تفسير مَرْضيّ لظهور الإسلام وانبجاس القرآن، جوابًا عن سؤال: هل ظاهرة «النبوّة المحمّدية» تقبل التفسير المادي الطبيعي ضمن ثقافة العصر، لتكون الرسالة صَنعة البيئة وبِنت المجتمع، أم تأباه؛ فلا سبيل لتفسيرها إلا باستدعاء الخارقة الطبيعية المتمثّلة في السلطان الإلٰهي الذي عطّل طبائع السنن الكونيّة الرتيبة بظاهرة النبوّة العجيبة.

الطريق لاختبار نبوّة محمّد ﷺ هو استحياء (ملكة الانسلاخ)؛ بأن تعيش بعقلك وقلبك في القرن السابع الميلادي، وتزِن دلائل النبوّة بميزان ذاك العصر وظروفه ورؤى أهله وملكاتهم..

هي رحلة البحث عن حقيقة الرسالة الخاتمة، نرجو أن نلتزم فيها الإنصاف في النقد، والاعتدال في الوزن والحكم.

ربِّ أسألك رحمة فوق الأرض، ورحمة في القبر، ورحمة عند العرض!

ربّ اغفر لي حظّ النفس من هذا الكتاب!

آمين!

الباب الأول

مدخل إلى اختبار صدق الإسلام

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ﴾
[سبأ : ٤٦]

تنمو الحكمة في الأماكن الهادئة.

(Austin O'malley)

تمهيد

لا يَعبُر الباحث في صدق الرسالة المحمّدية ـ بعد العلم بوجود الله ووحدانيّته ـ إلى مناقشة دقيق خبر حال نبيّ الإسلام ﷺ وبراهين نبوّته، وامتحان ذلك في ضوء حقائق الوجود العقليّة والنفسيّة والتاريخية حتّى يمرّ على أسئلة أوّلية تتطلّب أجوبة، واعتراضات تواجه التصديق بكلّ نبوّة، تقتضي عرضًا منصفًا ونقضًا حاسمًا.

والخصم الأوّل في مبدأ النظر في النبوّة هو المذهب الربوبي الذي يسلّم بوجود الله لكنّه يرفض رسالات الوحي؛ فإلٰهه مفارق بالكليّة لهذا الكون. كما يشاركه التصوّر الإلحادي عددًا من نقوده للمذهب الإلوهي الذي يؤمن بالربّ الذي يرعى الكون بعد خلقه، ويهدي الخلق بعد أن أنبتهم في الأرض.

ولعلّ الاعتراضات الكبرى التي تقتحم على الساعي إلى تصديق النبوّة بحثهُ لتمنعه من مواصلة المسير إلى النظر في صدق نبوّة محمّد ﷺ خصوصًا، **هي ما يلي:**

١ ـ الإنسان لا يحتاج النبوة؛ إذ الطريق إلى حقائق الوجود ـ المبدأ والمنتهى والطريق ـ دانٍ، يدركه كلّ عاقل بعقله دون مدد من وحي.

٢ ـ الكون يدلّ على وجود «مهندس عظيم»؛ خلقَ وصوّر، ولا يشفّ عن إلٰه رحيم كالذي تدعو إليه كثير من الأديان في رسالة الوحي.

٣ ـ الدليل الوحيد على صدق رسالات الوحي هو المعجزة، والمعجزة فكرة سخيفة وبدائية لا يمكن تصديقها في عصر العلم. وحتّى لو صحّ إمكان

حدوث المعجزة، فإنّ العلم بحدوثها مستحيل؛ لأنّنا لن نكذّب شهادة العلم والتجربة البشرية على انتظام القوانين الكونية لنصدق إشاعات يروّجها قلة من الناس.

٤ ـ التسليم بالحاجة إلى الوحي، وإمكان حدوث المعجزة والعلم بها، لا يعطيان المسلم فضيلة البدء في البحث عن الطريق إلى الله بدراسة صدق النبوّة المحمّدية؛ إذ العدل والموضوعيّة يقتضيان البحث في جميع الأديان التي تزعم أنّها موصولة بالسماء، لا أن يكون البحث متجهًا بصورة أوّليّة إلى النظر في صدق الإسلام، لا النصرانية أو اليهوديّة مثلًا..

مع الأسئلة السابقة وما يتفرّع عنها سيكون حديثنا في الباب الأوّل من هذا الكتاب.

الفصل الأول

الحاجة إلى النبوة

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]
كلّما كان الناس إلى الشيء أحوج، كان الربّ به أجود
(ابن تيمية)

النبوة بين خيارين.. هداية أم كسب؟

بعد أن علمنا في رحلتنا الباحثة في أصل الوجود أنّ لهذا الكون خالقًا، وأنه بالغ العلم والحكمة، تتشوّف النفس بحسّ البداهة وهاجس الشوق إلى معرفة غاية الخالق من إنبات الإنسان في الأرض.. فكيف المسير؟ وإلى أين المصير؟

للعقل أن يتصوّر سبلًا متنوعة لاتصال الخالق الأحد بالبشر لإعلامهم بالحكمة من بثّهم على هذه الأرض، وهذه السبل على نوعين؛ سبل هداية سماويّة بعطيّة النبوّة أو ما قاربها؛ كأن يصطفي الإلٰهُ حكيمًا نبيلًا صادقًا من البشر ليبلّغ الناس الخبر... وسبل أخرى طابعها الكسب؛ باجتهاد ذاتي من الإنسان، كأن يحصّل المرء العلم بالله عن طريق الرياضة النفسية، كما هو ظنّ الغنوصيين[١]، حيث العلم اللدنّي هو بوابة المعرفة وكوّتها الضيّقة، وهنا يستغرق المرء في ذاته ولذّاته لعلّه - في ظنّه - يقترب من الذات المطلقة المبرّأة

---

(١) الغنوصية Gnosticism: كلمة مشتقة من عبارة «معرفة» (γνωσις) اليونانية. ليس هناك اتّفاق على معنى المصطلح، لأسباب تاريخية، ولكنّه إجمالًا يشير إلى أنّ المعرفة محلّها الاستبصار النفسي (الكشف أو الإلهام) لا النظر العقلي، وأنّ الإنسان ثنائية متصارعة، جسد نزّاعٌ إلى السفول، وروح أسيرة هذا المسلاخ ترجو العلو

Karen L. King, *What Is Gnosticism?,* Cambridge, Massachusetts; London: Belknap, 2005.

من حدود الماديّة وعيوبها... كما قد يكون ذلك عن طريق النظر العقلي، كما هو ظنّ طائفة من قدماء الفلاسفة..

العلم عن الله بالكسب والنظر:

البحث عن حقيقة الوجود الكبرى والغاية النهائية للحياة تتنازعه مناهج مختلفة يسعى كلّ منها إلى إثبات أنّه يملك مفاتيح خبر السماء أو أنّه هو السبيل الرئيس للعلم بما لا تدركه عقول عوام الناس.

شاع بين الغنوصيين أنّ الطريق إلى معرفة حكمة الربّ من خلق البشر الإزورار عن الناس، والإدبار عن الملذّات، ومخاصمة مطامع الجارحة والقلب في هذه الدنيا حتى تصفو النفس؛ فإذا صفت انكشفت لها حقائق الوجود سافرة، واستقرّ في القلب العلم بالله دون حجاب.

ودعوى الغنوصيين بادية الفساد؛ لأنّها لم تقدّم على هذا الطريق برهانًا، ولم تعلن حجّتها في أنّ بين الروح والجسد أضغانًا، وأنّ إهمال الملذّات كليّة طريق المعارف، فنحن هنا إزاء دعوى مجرّدة بلا برهان.

ثمّ إنّ الغنوصيّة شائعة في عامة الأمم، قد سلك طريقها رجال في كلّ النِّحل؛ فقادتهم إلى نهايات مختلف وعقائد متنافرة، فكيف يكون الطريق إلى الحق واحدًا وتتناقض صوره؟!

كما أنّ الناظر في مقولات الغنوصيين، يرى أنّها تخالف في كثير من أوجهها بداهات العقول وما تطمئنّ إليه النفوس، بل لعل المرء إذا قرأ مثلًا في أدبيات غنوصيّي النصرانيّة المبكّرة يشكّ في سلامة عقول أصحابها من مسّ الجنون لما في كلامهم من تخليط بما لا ترضاه العقول والنفوس كحديثهم عن أساطير أصل الخلق وصراع آلهة الخير وآلهة الشر، وعباراتهم الغامضة التي لا سبيل لفكّ شفرتها، بما يجعلها أشبه بعبارات أهل الهلاوس، وهو ما نعرفه في التراث الإسلامي بشطحات[1] الصوفيّة.

---

(١) الشطحات: كلمات يقولها الصوفي في ذهول عقلي وعدم الشعور، مردّها شدّة الوجد أو خلل في العقل أو مسّ من الشيطان، تقترن عادة بمخالفات عقديّة جسيمة قد تبلغ ادّعاء وَحدة الوجود.

واختار طائفة من الفلاسفة طريق النظر العقلي سبيلًا لإدراك كلّ كليّات الوجود ومبادئه، فزعموا أنّ التفكر كفيل بفك الحجب ورفع الستر؛ فيرى الفيلسوف ببرهان العقل حقائق الكون التي لا يدركها عوام الناس. وتحدّث هؤلاء الفلاسفة عن فيض العقل الفعّال على القوّة المتخيّلة، وارتشاف الفيلسوف من ذات معين النبوّة من خلال العقل والتأمّل. وذهب فلاسفة آخرون إلى نفي النبوّة، وإثبات اختصاص الفلاسفة بالعلم الإلٰهي بما نالوه من ملكات عقليّة نافذة.

وكمال طريق الفلاسفة لإدراك ما يعزب عادة عن العقل وهمّ يُكذّبهُ واقع الفلاسفة الذين لم يجتمعوا على فكرة واحدة دون معارض، وينقضه علمنا أنّ العقل لا يدرك مما هو وراء العالم غير ما تدلّ عليه منه آثار العالم، ولذلك فالعقل عاجز عن أن يدرك ماهيات ما وراء العالم، ولا أن يعرف الحكمة من وجود المخلوق، بل العقل عاجز عن إصابة تفاصيل حقائق التشريع والسلوك، وهو أمر أدنى. وأقصى ما يملك الفلاسفة إصابته العلم بحقائق كبرى للوجود، دون حقائق كبرى أخرى، ودون تفصيل في عامة الأحيان. . فالعقل يهدي إلى حقٍّ، ولا يهدي إلى العلم بكلّ الحق، وقد اعترف بذلك الفيلسوف الربوبي (جون جاك روسو)[1] بقوله: «الكون آلة عظيمة لا نعرف موازينها ولا نستطيع تحديد مقاديرها. نجهل مبادئها وأهدافها، كما نجهل نفس الإنسان، نوعها ومحرّكها، بل لا نكاد نعرف بدقّة هل هي بسيطة أم مركّبة. تحيط بنا الألغاز من كلّ جانب. . .»[2]

النبوة.. حبل النجاة وطريق الفهم:

لم تقدّم نماذج الرياضة النفسية أو البحث العقلي المجرّد سبيلًا للنجاة، فعامة كلام الغنوصيين شطط وغموض وتيه. والغنوصيون طرائق قِددًا لا يكاد يجمعهم مذهب محدّد الأصول. وعقل الفيلسوف في حقيقته عقول لاختلاف

(١) جون جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨): أحد أعلام عصر التنوير. اشتهر بفلسفته السياسية التي أثّرت في عامة أوروبا، والداعية إلى منح الشعوب سلطان تنظيم أمورها التشريعية. من مؤلفاته: «Du contrat social».

(٢) جان جاك روسو، دين الفطرة، تعريب: عبد الله العروي (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢)، ص٢٧ ـ ٢٨.

مبادئ النظر فيه وتأثّره بغيره عند صناعة البرهان والقصد إلى كشف الحقيقة، ولا يمكن أن يقود ـ بذلك ـ إلى طريق واحد غير ذي عوج.

والإنسان ـ لذلك ـ لا يستغني عن المدد الإلٰهي، **لأسباب عدّة**:

أولها: أنّ الكثير من القضايا تنأى بطبعها عن جنس مُدركات العقول؛ كالبعث، والنشر، والحساب، وما غاب كليّة عن مدارك العقل والحس، وهو ما يقضي بالحاجة إلى تطلّبها عن طريق الجواب الخارجي؛ كخبر نازل من علٍّ لا كفكرة مختمرة بعدَ نظر.

وثانيها: أنّ الكثير من مسائل النظر والخلاف قد تتكافأ فيها الأدلّة، ولا ينحسم فيها القول؛ إذ الأدلة تكاد تتعادل، والتميّز البرهاني متعذّر؛ ولذلك يحتاج العقل الذي يسعى إلى اكتساب الحق والفضيلة والسعادة إلى ما يبلّغه رجاؤه بأمان ويقين.

وثالثها: أنّ حاجة الناس لتنظيم معايشهم، ودفع الاختصام، وتنظيم حقوقهم وواجباتهم، أمرٌ أعقد من أن يحسنه البشر الذين تقصر مداركهم عن ربط الأمور ببعضها على أسلم صورة في ظلّ تداخلها المعقد، وأثر الثقافات والعوائد على عقول الناس عند تأسيسهم لقوانينهم، وسلطان حظوظ النفس والانتصار للكبراء والأصفياء عند رسم حدود الحقوق وخطّ الواجبات.

إنّ رجاء تحقّق العدالة هو جزء من منظومة الخلق البديعة؛ فالظنّ أنّ الله قد خلق البشر والشجر والزهر بهذا الجمال الخلّاب، ثم ترك الخلق بلا هداية، بل أوقعهم في عِماية، هو إهدار لمعنى الجمال، ليعود الأمر إلى معنى القبح؛ إذ إنّ الأشياء الجميلة إذ انتظمت على شكل قبيح، مشوّش، لا يقود إلى تناغم، تسفح بذلك معنى الجمال في أصل صورتها ومرمى غايتها.

إنّ إسلام صولجان الحكم لناب الغريزة الجارح، لا يورث البشر غير الدم والظلم، ولا يزرع في حياة الناس غير الحيف والاضطراب؛ ولذلك فالإنسان فقير ضرورة إلى من يرسم له حدود المباح والمحظور والواجب، وإلّا فالبديل هو شريعة الغاب وسطوة القوي الغاصب.

قال ابن تيمية: «ولولا الرسالة لم يهتدِ العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار في المعاش، فمن أعظم نعم الله على عباده، وأشرف منّنه عليهم، أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبيّن لهم الصراط المستقيم، ولولا

ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام وأشر حالًا منها. . . ولا بقاء لأهل الأرض إلا بآثار الرسالة الموجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض، وانمحت معالم هداهم؛ أخرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة»[1].

إنّ الحاجة إلى النبوّة ضرورة لجبر نقص العقل؛ إذ العقل نور لا يستغني عن سراج الوحي في وجود تكتنفه الظلمات من كلّ حدب، وتحفّه سحب الظنّ والريبة في كلّ فجّ، وضرورة؛ لأنّ العقل ليس بمنأى عن مكر الهوى ودواعي الفتنة المزلّة، وضرورة؛ لأنه يوسّع الآفاق الضيقة للعقل، ويمدّها إلى أبعاد واسعة، ويروي ظمأ النفس إلى إدراك ما ينأى عن الفهم.

لم يوجد عن بعثة الرسل مَعْدَلٌ، ولا منهم في انتظام الحق بَدَلٌ (الماوردي)

ورابعها: أنّ معرفة الله تورث الطاعة والحبّ، وليس كالنبوّة في بيان عظيم جلال الله وجماله. والعقل أهلٌ لأن يكتشف شيئًا من ذلك، لكنّ الرسالة الواردة من الخالق والمخبرة عنه بكلامه الجليل أوسع كشفًا، وأوضح بيانًا، وأروى للقلب المتعطّش لمعرفة ربّه. ومعلوم ـ للممارس ـ أنّ المعرفة الفلسفيّة المجرّدة للخالق لا تورث في القلب المعاني الجليلة التي تعمّق في القلب الإحساس الصاحي بمعنى الألوهيّة.

وخامسها: أنّ النفس سريعة الميل إلى الهوى وفيها بذرة الكبر على الحق، ولذلك تحتاج من يصدّها من خارجها عن نكران الحق والإقبال على الباطل، ولذلك قال نبيّ الإسلام ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا**»[2].

وسادسها: أنّ إقامة الحجّة على الخلق ببلاغ من رسول أوضحُ في الإبانة عن الحق، وأعدل في تنبيه الخلائق على تنوّعٍ فيهم وتباين، ولذلك يقول

(١) ابن تيمية، النبوات، تحقيق: عبدالعزيز بن صالح الطويان (الرياض: أضواء السلف، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م)، ١/ ٢٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (ح/ ٦١١٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمّته (ح/ ٢٢٨٤).

القرآن الكريم في قطع حجّة غير المهتدين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤].

وسابعها: أنّ تأييد النبيّ بالخوارق أدعى للقبول وإقامة الحجّة على المخالف؛ فإنّ آيات الأنبياء تلزم العقل الواعي أن يلحق بالركب فلا يتيه في معترك الاجتهادات التي لا ضمانة على صوابها.

وثامنها: أنّ النبوّة طريق عملي للسير في سبل الحياة، والضرب في مفاوزها ومضائقها. والنبيّ هو المثال والقدوة. وحاجة الخلق إلى قدوةٍ أمر معلوم في كلّ باب؛ فبالقدوة تنكشف أيسر الطرق إلى منتهى رحلة النجاح في حياة المكابدة والامتحان، ويمتلئ القلب أملًا في إمكان النجاة.

وللمرء أن يتصوّر طُرقًا مختلفة لإبلاغ الربّ عباده بما يريده منهم، وما يريده لهم، ولكن تبقى صورة تبليغ الرسالة عن طريق بشر عاقل من خيرة قومه، يجمع بين الصدق ووفرة العقل والخوارق الدالة على صلته بمالك الملك، أقرب الصور لتحقيق أغراض الرسالة بإقناع الناس وتفصيل الخبر لهم بحكمة وعدل.

خلاصة الكلام.. الإنسان محتاج إلى النبوّة، ولا يستغني عنها بعقله؛ لأنّه بلا نبوّة يزلّ عقل العاقل، وينحرف خُلُق الطامع في الاستقامة، وتذبل الروح؛ إذ تشقى بظمئها الصادي إلى معرفة خالقها..

أو قل: بغير النبوّة يفقد الإنسان ذاتيّته كإنسان، وينتكس إلى مستوى «الشيء».. شيءٌ بلا وجهة، ولا غاية، ولا إحساس.. شيء جميلٌ شكلًا في كون دقيق نَظْمًا، لكنّه شيء كلا شيء، بلا شيء؛ لأنه مجرّد أبعاد فيزيائية منفعلة، بلا غاية!

وفي ما سبق من بيان ردّ على **الربوبيين** الذين يزعمون أنّ الله ـ سبحانه ـ قد خلق الخلق، ثم تركهم هملًا بلا رعاية ولا توجيه، تنخرهم الأسئلة وتأكل حواشيهم الشكوك. ومن عجيبٍ أنّ الربوبي يهتدي إلى وجود خالق للكون من خلال بديع تنظيم الكون على صورة معجبة رائقة، تجمع بين القدرة على الإبداع، ومتانة البناء المدهش، وجمال المخلوقات، ثم يقفز الربوبي بعد ذلك ـ فجأة ـ قفزة واسعة منتكسة إلى الوراء، ليقول: إنّ الأمر الجلل قد يتمخّض عن عدم، وإنّ الحكمة الفائقة قد تقترن بالعبث!

الربوبية والوعي المبتور:

يقوم المذهب الربوبي على عدد من الأصول التي باجتماعها تتجلّى الرؤية الكونيّة الكبرى لأنصاره، **وأهمها**:

- الإلٰه واحد ليس له شريك، وهو ذات مفارقة للطبيعة، فاعلة ومريدة.
- الكون محدود، ويعمل ضمن ناموس ميكانيكي داخلي مستغنٍ عن العناية الإلٰهية للبقاء والسيرورة.
- الكون هو المظهر الوحيد لمعرفة الله، فهو كتابه المقدّس. ومعرفة الإنسان إلٰهه ـ بذلك ـ أشبه بمعرفتنا بالرسّام وذوقه بعد النظر في اللوحة.
- العقل هو المصدر الوحيد لمعرفة الله، ومبدأ الوجود والغاية منه، والأخلاق التي يرضاها الخالق.
- المعجزات لا تحدث؛ لأنّ الإلٰه غير قادر على إحداثها إذ إن قوانين الكون لا تتغيّر أو لأنه لا يريد ذلك.
- يؤمن جلّ الربوبيين بحياة بعد الموت للجزاء، إثابة أو عقابًا[١].

الخلل الأكبر في اللاهوت[٢] الربوبيّ كامن في زعمه أنّ الله ـ سبحانه ـ قد خلق، فأتقن ما بدع ـ وإن أنكر بعضهم عليه أمور الألم في الكون ـ، ثم أدبر عن هذا الوجود وأهمله، منشغلًا بحديث أمره عمّا يَجدُّ لخلقه. وهو تصوّر طفوليّ للإلٰه، ومن مظاهر طفوليّته مشابهته، أو قل مطابقته للتصوّرات الوثنية للآلهة القديمة في مصر وبابل واليونان. فهذا التصوّر ليس ببعيد عن صورة الإنسان إذ يصنع كرسيًّا أو مشبك ملابس، فيتقن صورته، ثم هو يواريه أحد الأدراج أو يضعه في المخزن، ليلفّه النسيان بلِحاف الإهمال... هو تصوّر بليد، ميت، بلا روح؛ إذ يعدم كلّ ما اهتدى إليه العقل من معرفة شائقة بكمال قدرة الربوبية.

---

(١) See Norman L. Geisler and William D. Watkins, *Perspectives: understanding and evaluating today's world views* (Wipf and Stock Publishers, 2003), pp.177 - 179.

(٢) اللاهوت Theology: مصطلح أصله إدغام كلمتين يونانيتين (Θεος) و(λογια)، ومعناهما الحرفي: علم الإلٰه. وهو علم متعلق بدراسة حقيقة الإلٰه أو الأمور الإلٰهية.

إنّ الألوهي الذي يتشوّف إلى رسالة السماء من بوّابة النبوّة هو وحده الذي يسير على سكّة سهلة غير متعرّجة ولا متدحرجة إلى أسفل؛ إذ يترقّى من العلم بوجود الربّ إلى طلب العلم بحقيقته ومراداته؛ فالقاعدة عنده أنّ الحكمة الكاملة لا تنتحر، وإنّما هي حبلى بالمعنى والأمل، وكمال الصفات عنده وجهٌ لكمال الذات.

والربوبي الذي يرى قداسة العقل، وأنّه مصدر العلم بالربّ والخلق والمآل، أسيرُ سكرة الإعجاب بما فُتح له من زوايا المعرفة؛ إذ العقل لا يملك من آفاق المعرفة بالربّ غير بعضها؛ كالخلق، والقدرة، ثم تنيخ ركائبه؛ ولذلك فالتصوّر الربوبي يقضي عليه بالأسر في قفص الجهل بالخالق، كما يقضي على الخالق أن يتسربل بصفة الشحّ على الخلق بالمعرفة، ويرميه بنقيصة الاستمتاع بحيرة الإنسان وتيهه...

والربّوبي ـ في حقيقة الأمر ـ شرٌّ حالًا من الملحد؛ إذ الملحد لا يرى في الوجود غير ركام من الأشياء بلا غاية، وآكام من النُظُم مبعثرة؛ فيبني على ذلك أنّ الكون عبثٌ بلا هدف، بلا حكمة، وأمّا الربوبي فيرى الحكمة في خلق الذرة والمجرّة، ويدرك مظاهر العظمة فيهما، ثم هو ينتكس بعد ذلك إلى مذهب الملحد نفسه؛ فلا يرى في الوجود غير أشياء تسير إلى حتفها رغم أنفها.

والربوبيّة ـ على الصواب ـ مظهر من مظاهر الكسل المعرفي؛ لأنّها وقوف على تُخوم الإيمان والإلحاد؛ فلا الباحث أكمل المسير إلى نهاية الغاية من الخلق، ولا هو أدبر إلى نقطة الإنكار لقيمة الأشياء المتراكمة في حيّز الوجود.

وهي ـ الربوبيّة ـ في تاريخها الحديث، أثرٌ عن الكفر بالنصرانيّة وعقائدها ومؤسساتها الدينيّة المفسدة في الأرض. فقد أدّى الكفر بالنصرانيّة في عصر الأنوار[١] في أوروبا إلى الكفر بكلّ دين؛ لأنّ فساد النصرانيّة يلزم

(١) عصر الأنوار Enlightenment: هو عصر ظهور تيّار فكري متنوع الاهتمامات (فلسفة، فن، إصلاح =

منه فساد كلّ الأديان، فلن تكون أديان الشرق، وخاصة دين الترك (اسم «الإسلام» في تلك الفترة) أفضل حالًا من النصرانيّة.. وهذا احتكام من فلاسفة الأنوار إلى الجهل، وفرع عن آفة التعالي الذي هيمن على العقل الغربي بظنه أنّ الشرق أدنى من الغرب في كلّ شيء.

أنا لا أصدّق أن نفسًا ترى هذا الكون وعظيم صنعه، والعطايا ولذيذ طعمها، والجمال ودقيق ملمحه؛ ثم تكتفي بالإيمان «بمهندس عظيم» وراء ذلك، خلق وصوّر، ثم أدبر..! سيظلّ الإبهار والإمتاع في الكون مصدر قلق للربوبيّ الصاحي يجذبه إلى مصدر النور الخفيّ، ويستحث عقله المتقلّب نظره في الآفاق البعيدة ليستعجل فكّ شفرة (المبدأ) و(الغاية).

خصوصيّة النبوّة والعدل الإلٰهي:

يعترض بعضهم على مفهوم النبوّة أنّه يضيّق رحمة الله، وأنّه بذلك أقرب للظلم منه للعدل؛ إذ يختصّ الله برسالته بعض البشر، ويهبهم العلم اللدنّي، ويذرّ الباقين أسرى البحث والنظر.. وهي الفتنة!

الاعتراض السابق غافل عن مفهوم النبوّة، وحقيقة الاختبار؛ فإنّ النبوّة ليست فعلًا اعتباطيًّا مجرّدًا عن الحكمة والعدل، وإنّما يجتبي الله من البشر أصفياءه، وهم النخبة الذين تزّكت أنفسهم، وعقولهم، وقلوبهم، وهو يعلم دخيلة النفوس وأفعال الجوارح، وما كان منهم وما يكون.

قال (الغزالي): «اعلم أن الرسالة أثرة علوية، وحظوة ربانية، وعطية إلٰهية، لا تكتسب بجهد، ولا تنال بكسب ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]... فليس الأمر فيها اتفاقيًّا جغرافيًّا؛ حتى ينالها كل

= سياسي، واقتصادي، وديني) في أوروبا في القرن الثامن عشر. قام هذا التيّار على الدعوة إلى التحرّر العقلي وتعظيم الإنسان وحقوقه بمختلف أنواعها، والدعوة إلى فكّ أغلال التقليد والوصاية ضمن رؤية خارجة عن الدين. من أبرز رموزه: (فولتير) و(مونتسكيو) و(جون جاك روسو).

من دب ودرج، أو مرتبًا على جهد وكسب؛ حتى يصيبها كل من فكّر وأدلج، وكما أن الإنسانية لنوع الإنسان، والملكية لنوع الملائكة ليست مكتسبة لأشخاص النوع، وأن العمل بموجب النوعية ليس يخلو عن اكتساب واختيار لإعداد واستعداد، كذلك النبوة لنوع الأنبياء ليست مكتسبة لأشخاص النوع، وأن العمل بموجب النبوة ليس يخلو عن اكتساب واختيار لإعداد واستعداد»[1].

والأنبياء يتعرّضون إلى المحن قبل الاصطفاء وبعده.. بل الأنبياء أعظم الناس ابتلاءً، وحياتهم مكابدة وعَنَت؛ فقد سُئل النبيّ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟»، فأجاب: **«الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ»**[2].

وبذل «الوحي الخاص» لكلّ البشر ليس من أفعال الحكمة؛ إذ الطريق إلى الجنّة سبيله التصديق والعمل، وأصل التصديق الإيمان بما جاء به الخبر القابل للتكذيب؛ ولو أنّ الناس ألزموا بالتصديق إكراهًا بما يرونه من وحي يتنزّل عليهم لانتفت عامة أوجه المحنة، واستوى الناس في مقام التفاضل.

ومنع «الوحي الخاص» (special revelation) عن غير الأنبياء لا ينفي حقيقةَ أنّ الله قد جعل البشر مشتركين فيما يسمّيه اللاهوتيون «الوحي العام» (general revelation) أو «اللاهوت الطبيعي» (natural theology) بدلالة حقائق العقل وطبائع الوجود الطبيعي على وجود خالق، ومصوّر، ومنعم، واجب الوجود. والإنسان لا يحاسِب يوم القيامة على أصل إيمانه الفطري وحده، ولا على أساس اللاهوت الطبيعي وحده، وإنّما يحاسب على فعله في الدنيا بعد أن تبلغه الحجّة الرسوليّة عن طريق نبيّ أو رسول.

---

(١) أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس (بيروت: دار الآفاق، ١٩٧٥م)، ص١٣٠.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الصبر على البلاء (ح/٢٣٩٨)، صحّحه الألباني.

إنّ أصل الشبهة التي تقرّر أفضلية عموم «الوحي الخاص» للبشر على انتخاب الأنبياء للبلاغ هو الظنّ أنّ كمال الله سبحانه يقتضي منع الخلق من الخطأ والخطيئة، وإلزامهم طريق التقوى دون عناء بأن تسوقهم يد القهر إلى مراتع النجاة.

وحقيقة الألوهيّة ـ على الصواب ـ لا تقتضي ضرورة وجود خلق بلا إرادة حرّة تختار طريقها؛ فإنّ معنى العدل هو ألّا يعذّب الإله من لم يزلّ، وأن يرفع الصالحين فوق من ضلّ عن طريق الحق؛ فالجزاء رهين أفعال العباد، إلّا أن يعفو الخالق تكرّمًا أو يزيد تفضّلًا.

والإنسان إذا امتلك عقلًا، وإرادة حرّة، وجارحة على الفعل قادرة، وبلغه خبر النبيّ، لزمه تصديق النبي فيما أخبر، والعمل بما جاء به وشرع، وإذا قصّر في ذلك فهو مذنب، وإنزال الوعيد به هو عين العدل.

المذهب الربوبي ومشكلة مصداقية العقل والكمال الأخلاقي:

من إشكالات الإلحاد المعلومة أنّ إنكار وجود الله يلزم منه القول: إنّ الدماغ مادة ناجمة في تركيبيّتها ووظيفيتها ـ ضمن التصوّر البيولوجيّ التطوّري ـ عن حاجة الإنسان إلى تحقيق البقاء ومقاومة عوامل الانقراض؛ ولذلك لا يُوثق في العقل لإصابة الحقيقة؛ لأنّ الدماغ لم يُجهّز لمعرفة حقيقة الواقع وإنّما تطوّر ليضمن الحفاظ على حظوظ الأكل والشرّب والمأوى والتكاثر، ولذلك قال الفيلسوف الملحد (جون غراي)[1]: «مذهب الإنسانية الحديثة هو إيمانٌ أنّه عبر العلم بإمكان البشريّة أن تعرف الحقيقة، وبالتالي أن تكون حرّة، ولكن إذا كانت نظرية داروين في الانتخاب الطبيعي صحيحة، فإنّ ذلك سيكون محالًا. العقل البشري يخدم نجاحًا تطوّريًّا لا [بلوغ] الحقيقة»[2].

وليست الربوبيّة بمنأى عمّا اعتُرض به على الملاحدة هنا، رغم إقرار

---

(١) جون غراي John Gray (١٩٤٨م ـ): فيلسوف بريطاني. له عناية خاصة بالفلسفة السياسية. عمل أستاذًا للفكر الأوروبي قبل تقاعده. من مؤلفاته:
"Black Mass: Apocalyptic Religion and the Death of Utopia".

(٢) John Gray, *Straw Dogs* (London, Granta Books, 2002), p.26.

الربوبي بوجود خالق؛ إذ إنّ الربوبيّ ـ بتصوّره الجاف للإلٰه النائي عن العالم، والسلبي في موقفه من شرور الكون ـ لا يملك ضمانةً ضمن تصوّره اللاهوتيّ لأن يكون الخالق كامل الرحمة أو العدل؛ بل إنّ الربوبيّة في الأغلب تقوم على إنكار صفات الكمال في الإلٰه، وتتخّذ من وجود الشرّ في الكون عنوان اعتراض متجهّم على صورة الإلٰه الرحيم العادل.

وإذا كان الإلٰه بلا عدل ولا رحمة؛ كانت الثقة في العقل بلا مستند أوّليّ؛ لأنّ الخالق السلبي أو الشرير لا يمتنع أن يصنع عقولًا لا تهتدي إلى الصواب، وتقيم كلّ فكرها على مبادئ أوّلية فاسدة.

وقد أدرك الفيلسوف (ديكارت)[1] في تأسيسه للمعرفة الإنسانيّة اليقينيّة من الصِفر المعرفي أنّه لا سبيل لتصديق العقل قبل الإيمان بالله؛ ولذلك لمّا بدأ نظره بالشكّ في العقل، قائلًا: إنّ ما يحسبه الإنسان حقًّا بدلالة العقل عليه، قد يكون ـ في حقيقته ـ مجرّد أثر عن تلاعب شيطان بدماغه[2]، سعى إلى إبطال فساد العقل من خلال إثبات وجود إلٰه كامل (انطلاقًا من برهانه الأنطولوجي)، قبل أن يستردّ ثقته في عقله؛ فأسّس بذلك الثقة في العقل على الثقة في خيريّة الإلٰه؛ فلولا كمال الإلٰه ـ وخيريّته من كماله ـ لما أمكن الثقة في العقل.. وذاك برهان العجز عن الثقة في العقل دون تأسيس أنطولوجي معرفيّ أوليّ يقوم على الإيمان بخيريّة الإلٰه.

قال (ديكارت) في التأمّل الثالث من تأمّلاته الفلسفيّة: «عليّ أن أبحث إن كان هناك إلٰه... وإذا وجدتُ أنّ هناك واحدًا، فعلي عندها أن أبحث إن كان مخادعًا؛ لأنّه **بغير معرفة هاتين الحقيقتين لا أرى أنه بإمكاني البتّة أن أكون واثقًا في أيّ شيء**»[3].

فالثقة في عقل الربوبيّ ـ إذن ـ معلّقةٌ قبل الانتهاء إلى إثبات وجود الإلٰه

---

(١) رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م): فيلسوف وعالم رياضيات فرنسي. رائد الفلسفة الحديثة، ومذهب الفلسفة العقلية. من أهم مؤلفاته: "Discours de la M"éthode.

(٢) René Descartes, *Les Méditations Métaphysiques* (Paris: Pierre Huet, 1724), p.xl-xli.

(٣) المصدر السابق، ص١١ ـ ١٢.

الكامل. ولما كانت الربوبيّة ـ عامة ـ لا تؤمن بالكمال في صفات الإلٰه؛ كان جدل الربوبيّ في الدفاع عن مذهبه انطلاقًا من جدله العقليّ مؤسسًا على غير أرض ثابتة. فالعقل حجّة غير جديرة بالتصديق في كون أنشأه خالق غير كامل الصفات؛ لأنّ **تصديق آلة التفكير هو من تصديق أنّ الذي خلقها عدلٌ**.

ومن الممكن تلخيص الأمر في التالي:

١ ـ يؤمن الربوبي أنّ الإلٰه الخالق غير كامل الصفات.

٢ ـ العلم أنّ «المذهب الربوبي» حقٌّ سبيله البرهان العقلي.

٣ ـ لا سبيل للثقة في العقل إلّا بالثقة في خالقه.

٤ ـ إنكار كمال الإلٰه يمنع الثقة في العقل.

٥ ـ الربوبية إمكانية فلسفيّة مستحيلة.

وممّا يؤكّد أزمة الربوبيين هنا، أنّهم ـ عامة إلّا ما ندر ـ يؤمنون بالتطوّر العشوائي للإنسان؛ وبالتالي فإنّ أزمتهم في تصديق العقل ذات وجهين؛ أزمة آلةٍ تطوّرت عن غير حاجة لمعرفة حقيقة العالم، وأخرى ناجمة عن اعتقاد أنّ الخالق دون مرتبة الكمال، بل هو عندهم لا يبالي بمعاني الخير والحق في الكون ابتداءً. وفي كلتا الحالتين، لا ثقة في العقل عند الربوبيّ.

ثم إنّ النموذج التقليدي للربوبيّة (في عصر الأنوار) يستلزم ضرورة الإيمان بكمال الله؛ لأنّ الإنسان يستمدّ حافزه إلى الاكتمال الأخلاقي من كمال الله؛ فقد كتب (توماس باين) ـ أحد أعظم «منظّري» الربوبيّة ـ[١]: «الدين الحقّ هو دين الربوبيّة، وأقصد بذلك سابقًا والآن الإيمان بإلٰه واحد، والتخلّق بصفاته الأخلاقيّة، أو ممارسة ما سُمِّيَ بالفضائل الخلقيّة»[٢]. فالربوبيّ لا يستغني عن كمال الله مقدمّة فلسفيّة لنزوعه نحو التعالي الأخلاقي. وكمال الإلٰه من كمال صفاته، ومن كمال العلم والرحمة والقدرة أن يخاطب الربّ

---

(١) توماس باين Thomas Paine (١٧٣٧ ـ ١٨٠٩م): فيلسوف ومناضل سياسي إنجليزي، وأحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكيّة. ساهم في الثورة الفرنسيّة. يعتبر أحد أهم رموز التيّار الربوبي.

(٢) Thomas Paine, *The Theological works of Thomas Paine* (Boston: Boston Investigator, 1858), p.133.

عبيده بما يعرّفهم به ـ سبحانه ـ ويخبرهم بما يريدهم منهم، ويعلّمهم ما يُحقّق سعادتهم.

المذهب الربوبي ومشكلة الشر!

يجد المذهب الربوبي أنفاسَ الحياة ـ وإنْ في قلقٍ وكربٍ وحيرةٍ ـ في أمرين اثنين، أولّهما: فساد الأديان المؤسَّسيّة (institutional religions)، وهو الذي الذي حفّز ازدهار المذهب الربوبي في ما يُعرف بعصر الأنوار في القرن الثامن عشر، وثانيهما: مشكلة وجود شرٍّ يشوّه جمال هذا العالم، ويمنع كماله، وهي مشكلة كثير من ربوبيي عصرنا، خاصة في العالم العربي، وإن لم يقل بها عدد من أعلام الربوبية مثل (توماس باين) و(مارتن جاردنر)[1]...

رفضُ الدين المؤسَّسيّ في عصر الأنوار سببه الرئيس والمباشر فساد الكنيسة: معتقداتها، وتاريخها، وسلطانها الذي يخنق الفكر ويسمّم نبعه، ويمتهن الفرد ويحطّ قدره.. ونحن لا ننكر ذلك، بل لنا على الكنيسة مؤاخذات أشدّ من ذلك وأعمق في تاريخ النقد الإسلامي للنصرانية، لكنّنا نضيف أنّ فساد «دين»؛ ليس هو فساد «الدين». فالنصرانية انحرافٌ فاحش عن عقيدة التوحيد إلى رؤية وثنيّة مشوّشة تكتنفها التناقضات من كلّ جهة، وسلطة كهنوتية طاغوتيّة تعتدي على عقائد الناس بسيف الخرافة ونهمة جباية المال الحرام.

وأمّا مشكلة الشرّ، فهي الشبهة التي صِيغت في أوّل قالب برهاني معروف على لسان الفيلسوف اليوناني (إبيقور)[2] ـ وإن كنّا ننكر نسبتها إلى (إبيقور) الذي كان مؤمنًا بالله، بل كان يرى هذا الإيمان من بداهات

---

(١) مارتن جاردنر Martin Gardner (١٩١٤ ـ ٢٠١٠م): مفكر أمريكي واسع التأليف، له عناية بتبسيط العلوم للعامة، والكتابة في الفلسفة والدين.

(٢) إبيقور Epicurus (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق م): فيلسوف يوناني تُنسب إليه الإبيقورية. من أنصار المادية التجريبية. تقوم فلسفته على أنّ غاية حياة الإنسان هي السعادة التي مردّها غياب الألم البدني والاضطراب العقلي. من مؤلفاته: «حول الطبيعة».

العقول ـ[1]. وقد تناولناها بتفصيل في غير هذا الكتاب[2]، ولنكتفِ هنا بتقرير بعض الأمور الخاطفة في شأن حجيّة وجود الشر لنفي تدخّل الإلٰه في عالمنا بإرسال الأنبياء:

أولًا: القول بامتناع وجود الله لوجود الشر؛ لأنّ الإلٰه كامل الخيريّة والعلم والقدرة فلا يرضى بوجود الشرّ، هو ما يُعرف «بالمشكلة المنطقية» (The logical problem) للشر، وقد انتهى أبرز فلاسفة الإلحاد في الغرب ممن تخصصّوا في مشكلة الشرّ إلى الإقرار أنّ هذا الاعتراض فاسد؛ لأنّه يقوم على افتراض أنّه يمتنع أن يكون الشرّ طريقًا إلى خير يربو عليه. ولذلك قال (ويليام رو)[3] ـ أحد أبرز الفلاسفة الملاحدة الذين كتبوا في هذا الاعتراض في العقود الأخير ـ: «لم ينجح أيّ أحد في تقديم تقرير يُعلم أنه صادق بالضرورة وأنه إذا أُضيف إلى [منظومة عقائد الألوهية التقليدية] فسيمكّننا من استخلاص نتائج متناقضة صراحة. في ضوء ذلك، من المعقول أن نستنتج أنّ **الشكل المنطقي لمشكلة الشرّ ليس مشكلة ذات بال بالنسبة لمذهب الألوهية**. إنّ طرحه المركزي، والمتمثّل في أنّ [منظومة عقائد الألوهية التقليدية] متناقضة منطقيًّا، هو طرح **لم يتمكّن أحد من إقامة حجّة مقنعة عليه**»[4].

فالإنسان ـ كما يقول (رو) ـ لا يتناقض بالإيمان أنّ الله الكامل موجود، وأنّه قد سمح للشرّ بالوجود؛ لأنه يملك أن يجعل من هذا الشرّ وسيلة لخير أعظم منه.

---

(١) وهو ما صرّح به (إبيقور) في رسالته إلى (Menoeceus)؛ إذ قال له عن أول شيء عليه أن يفعله ليحيى حياة سليمة: «آمن أنّ الله هو كائن حي خالد ومبارك، وفقًا للفهم البشري السليم لمفهوم الإلٰه؛ وبذاك الإيمان، لا يجوز لك أن تنسب إليه أي شيء مضاد لخلوده أو بركته».
رابط الرسالة:
Http://www.epicurus.net/en/menoeceus.html

(٢) سامي عامري، مشكلة الشر ووجود الله (الرياض: مركز تكوين، ٢٠١٦م).

(٣) ويليام رو William Rowe (١٩٣١ ـ ٢٠١٥م): فيلسوف متخصص في فلسفة العلوم. بدأ دراسته في اللاهوت ليصبح قسيسًا ثم ترك النصرانية بسبب إشكالات الكتاب المقدس. من مؤلفاته: "The Cosmological Argument" و"Can God Be Free?".

(٤) William Rowe, *Philosophy of Religion: An Introduction* (Encino, Calif.: Dickenson, 1978.), p. 117.

ثانيًا: الإنسان بين خيارين لا ثالث لهما في نظرته إلى الوجود والشر، إمّا أنّ الشرّ موجود لحكمةٍ، أو أنّ الوجود كلّه بلا قيمة.

(أ) في التصوّر الألوهي (الإسلامي) حيث (١) يخلق الإلٰهُ الإنسانَ ليبتليه، ويجعل النقص دلالة الحاجة إلى كامل، وغير ذلك من حكم الخَلقِ. . . (٢) عِلم الإنسان أدنى من علم الله بصورة عظيمة لا تبلغ تقديرها العقول؛ إذ لا يحيط الإنسان إلّا بالقليل جدًّا من علم الله. . فالمتوقّع ضرورة هو أن:

- يوجد الشر في الكون.
- يبلغ الإنسان معرفة الحكمة من بعض الشرّ، وتفوته الحكمة من بعضه الآخر أو الكثير منه.

فالتصوّر اللاهوتي والوجودي الإسلاميّ ليس في مشاقة مع وجود الشرّ في الكون؛ إذ المسلم لا يرى الشرّ ضمن الإطار الكلّي للرؤية الإسلامية في منافرة مع كمال الله، وإنّما هو شيء يحقّق الحكمة الكبرى من وجود الحياة، وهو زادٌ لحركتها، بل ولفهمها. والحكمة التي تنأى عن الإنسان من بعض الشرور، لا تُنكَر حقيقتها؛ لأنّ الإنسان لم يُؤت من العلم إلّا قليلًا، ولازم قلّة العلم ـ وهي قلّة لا ينكرها مسلم ولا ملحد ـ هو ضرورة أن يفوتنا الوعي بشيء من أشياء الكون ونسيج معانيه التي تربط أحداثه.

(ب) في التصوّر الإلحادي، لا يوجد شرّ ولا خير؛ لأنّ الوجود في حقيقته هو «مادة وطاقة في حركة دؤوبة عمياء». فلا شرّ ولا خير في عالم بلا قيم أصيلة في الأشياء والأفعال، وهو ما اعترف به أئمة الإلحاد الجديد، وعلى رأسهم (داوكنز) بقوله: «في كونِ القوى الفيزيائية العمياء والتضاعف الجيني، سيُجرح أناس ويكون آخرون أوفر حظًّا، ولن تجد أيّ تناسق أو رُشد فيه. الكون الذي نلاحظه يحمل بصورة دقيقة الخصائص التي ينبغي أن نتوقعها إذا لم يكن هناك. . تصميم، ولا غاية، **ولا شر ولا خير**، ولا شيء سوى البرود الأعمى والقاسي»[١].

(١) Richard Dawkins, *River Out of Eden: A Darwinian View of Life* (New York, NY: Basic Books, 2008), p.133.

(ت) في التصوّر الربوبيّ، لا معنى للخير والشرّ؛ لأنّ الخالق أقرب للذات الشيطانيّة منه إلى الإلٰه الكامل؛ فهو مهندس عظيم، لكنّه لا يأبه بشرور العالم، بل هو قد أغرق بها حياة الإنسان لغير حكمة.

(ث) الوجود والحياة في الرؤية الإلحاديّة والربوبيّة بلا معنى أصيل وذاتي، فلا شرّ عندها ولا خير، وإن اختلفت الرؤية الربوبيّة عن الرؤية الإلحاديّة في قولها بأنّ الكون الماديّ أثرٌ عن هندسة حسابيّة ذكيّة.

= لا توجد مشكلة للشرّ عند الملحد والربوبي إلا أن يقولا بوجود الإلٰه الكامل.

ثالثًا: نحن في عجز عن معرفة الحِكَم المخصوصة وراء كلّ شرّ في الوجود، لكن دلّنا النظر العقلي وصريح النصوص القرآنيّة والحديثيّة إلى مجموع حِكَم يرضاها العقل، مثل حريّة الإرادة، وإنماء الشخصيّة وتهذيبها، ومعرفة صفات الربّ، والحاجة إلى نواميس كونيّة ينتج عنها خير وأذى، وعقاب المفسدين، وتنبيه الغافلين... وغير ذلك مما أفضنا فيه في الكتاب الخاص بمشكلة الشرّ.. والنظر في أعيان الشرور الموجودة يجعلنا نقول: إنّنا رغم قصورنا عن الإحاطة بالحكمة من كلّ أفعال الله سبحانه، إلّا أنّنا نملك أن نقول للملحد: إنّك لا تملك أن تأتي بنوع معين من الشرور لا يمكن أن يُقال: إن وراءه شيء من الحكمة من الحِكم التي ذكرناها سابقًا.

رابعًا: الإنسان ـ بتركيبيّته الحاليّة ـ لا يستغني عن الشرّ لتحقيق معنى **لحياته الأرضيّة**؛ إذ الحياة من غير شرّ (ممثلًا في النقص والألم..) مُرّة؛ لا تطيق مرارتها الصدور، وتدفع لذاعتها النفس إلى الانتحار؛ ممّا اضطرّ (نيتشه)[1] ـ الذي تُجمع القراءات الفلسفيّة على اعتباره أبرز أعلام الفلسفة العدميّة ـ إلى الهروب إلى الشر لصناعة معنى للحياة ـ متنكرًا لعدميّته ـ؛ (فالسوبرمان) عنده هو الذي يرفض معاني الارتخاء والكسل على أرض

(١) فردريك نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م). فيلسوف وعالم لغويات ألماني. بشّر بفلسفة ما بعد الحداثة. من أهم مؤلفاته: «هكذا تحدّث زرادشت»، و«عدو المسيح».

الوجود، هو ذاك الذي يرتقي المخاطر، ويتسنّم معالي المكاره، ويبني بيته على سفح بركان؛ ولذلك تحدّث عن (Amor fati) [لاتينية: حبّ القدَر/حبّ المرء قدَره] بأن يرضى المرء بقدره؛ خيره وشرّه؛ إذ به يستخرج من أغوار النفس معاني القوّة والتسامي.. حتّى قال: «الألم العظيم هو وحده المحرّر النهائيّ للروح... أنا في شكّ أنّ هذا الألم سيجعلنا «أفضل»؛ لكنّني أعلم أنّه سيجعلنا أعمق»[1]. واللذة في حقيقة أمرها حصيلة الانتصار على الألم والشرّ، والألم هو الذي يمدّنا بدافع التقدّم وزاد المغالبة لتجاوز أوضاع النقص في حياتنا وإرادة الوجود. وكلّ انتصار يفترض مسبقًا عقبة أو عائقًا يتم التغلّب عليه؛ إذ النصر يقتضي مدافعةً ومغالبةً قبل الظفر[2]. إنّ أوجه النقص في الحياة هي التي تهيّج في النفس الرغبة في الإحساس بالوجود، وتجعل الحياة ذات لون ومذاق شائقين.

لسنا ملزمين بمتابعة (نيتشه) ولعه بالألم، لكنّنا لا نجد سبيلًا لمعارضة قوله: إنّ الألم يكشف ثراء أرواحنا وعمق دواخلنا وإمتاع عبق التجربة والمغامرة، وذاك الكشف هو زاد الحياة في الحياة.

لقد انتهى (نيتشة) ـ رغم عدميّته، بل ربّما بسببها أيضًا ـ إلى أنّ «فقدان الإحساس بقيمة الشرّ والألم»، لعنةٌ؛ فقد كتب: «لا معنى المعاناةِ ـ لا المعاناةُ نفسها ـ كان اللعنة التي أصابت البشريّة إلى الآن»[3]. إنّ العجز عن إدراك قيمة الشرّ في وجودنا، لعنة مهلكة. ولا يملك الشرّ أن يمسح عن ظاهره وباطنه حرج اللعنة حتّى يؤمن الإنسان أنّ للكون إلٰهًا؛ ليكتسب الشرّ حلاوة المعنى النهائي في وجود هو أعظم من مادة عمياء عابثة.

---

(١) Friedrich Nietzsche, *The Gay Science: With a Prelude in Rhymes and an Appendix of Songs* (tr. Walter Kaufmann, New York: Vintage books, 1974), p.36.

(٢) فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، من فشته إلى نيتشه، تعريب: إمام عبد الفتاح إمام ومحمود سيد أحمد (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦م)، ٧/ ٥١١.

(٣) Friedrich Nietzsche, *On the Genealogy of Morals*, tr. Walter Kaufmann (New York: Random House, 1989), p.28.

وماذا عن النصرانية؟

ما سبق من حديث في تعريف النبوّة وأهميّتها وفائدتها خاص بالأديان التي تؤمن بالنبوّة طريقًا للبلاغ عن الربّ، ومنها الإسلام، ولا تدخل فيه الأديان التي لا ترى النبوة واسطة للعلم عن الله سبحانه، مثل الهندوسية. وتخرج النصرانية ـ أيضًا ـ عن حديثنا السالف لفساد مفهوم النبوّة فيها.

تؤمن النصرانية بالحاجة إلى النبوّة، وأنّها طريق بيان حقيقة الربّ والحكمة من الخلق، غير أنّه يلزم من رسائل (بولس) أنّ النبوّة كانت فاشلة؛ لأن نبوّة السابقين قامت على أمرين، أوّلهما: أنّ الله واحد، وثانيهما: أنّ من أراد الصلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة فعليه العمل بالشريعة.

تزعم الكنيسة أنّ الإلٰه واحد، ومثلث، ووحدانيته ـ في حقيقة الحال ـ مجرّد عنوان لا دلالة له؛ لأنّ إلٰه الكنيسة على الحقيقة هو ثالوث يتكوّن من ثلاث ذوات: الآب (وهو في الحقيقة إلٰه التوراة)، والابن (المسيح عليه السلام) وروح القدس (جبريل عليه السلام). وقد نصّ الأنبياء في التوراة وغيرها من أسفار العهد القديم أن الله واحد أحد لا شريك له (التثنية ٦/ ٤، ٦/٥، إشعياء ٤٣/ ١٠ ـ ١٢، المزمور ٨٦/ ١٠...)، ولم يصرّح أيٌّ منهم بثالوثيّة الإلٰه، وهو ما يُعتبر إخلالًا عظيمًا في البلاغ عن الرب وتعريف الناس معبودهم.

ثم إن رسالة الأنبياء منذ (موسى) عليه السلام قائمة على أنّ استقامة الناس في الدنيا، ونجاتهم في الآخرة، مردّهما إلى الإيمان بالله والعمل بشريعة التوراة، مع التأكيد على أبديّة هذه الشريعة (مزمور ١١٩/ ١٦٠)، لكنّ الكنيسة اختارت القول: إنّ السبيل القديم للنجاة فاسد باطل بعد أن اكتشف الإلٰه أنّ العهد القديم القائم على العمل بالشريعة للنجاة باطل؛ لأنّ البشر في عجز تام عن الصلاح والعمل بأوامر الله؛ ولذلك اختار الإلٰه الآب أن يُرسل الإلٰه الابن ليموت فداء عن خطايا الناس لينالوا الخلاص والنجاة. وهو ما يظهر في قول (بولس): «فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها؛ إذ الناموس لم يكمل شيئًا. ولكن يصير إدخال رجاء أفضل به نقترب إلى الله» (الرسالة إلى العبرانيين ٧/ ١٨ ـ ١٩).

خلاصة النظر:

• لا سبيل لبلوغ مرتبة النبوّة أو تحقيق أغراضها دون اصطفاء إلٰهي.

• العقل محدود في آفاقه المعرفية، ولا يملك أن يتجاوز في معرفته تحقيق بعض أغراضه الحياتيّة الماديّة وإدراك بعض حقائق الوجود الكبرى.

• لا سبيل البتّة للثقة في العقل لإدراك الحقيقة دون الإيمان بوجود إلٰه خَيِّر.

• لا سبيل للاستدلال بالشرّ لنفي وجود الله ضمن التصوّرين الربوبي والإلحادي. ووجود الشرّ متناغم بصورة محكمة مع وجود الإلٰه الكامل ضمن اللاهوت الإسلامي.

• النصرانية أهدرت الحكمة من وراء النبوّة لإهدارها دعوة الأنبياء السابقين لبعثة المسيح.

مراجع للتوسع:

ابن تيمية، النبوّات (الرياض: أضواء السلف، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م).

عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات (عمان: دار النفائس، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن (جدّة: الدار السعودية للنشر، ١٣٨٧هـ).

الفصل الثاني

المعجزة وبرهان النبوة

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٦٦﴾ [البقرة: ٢٦٦].

الآيات والبراهين التي دلّت على صحّة نبوته وصدقه أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل، فليس لنبيّ من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلّا ولمحمّد ﷺ مثلها.

(ابن القيم)

قبل أن نبحث في دلائل نبوة محمّد ﷺ في السيرة والقرآن، علينا أن نتناول مسألة «المعجزة»، فقد زلّ بسبب الالتباس في مقامها في الحجية وإمكان حدوثها أو العلم بها أقوام ضيّقوا واسعًا وأنكروا واضحًا. وجوهر الجدل حول المعجزة وصدق النبوّة يكمن في اعتراضين اثنين:

الاعتراض الأوّل يقول أصحابه: لا نسلّم لنبوّة الرجل حتى ندرك خوارقه التي تتحدّى القانون الطبيعي. وضيّق المعترضون هاهنا بذلك واسعًا، وأهملوا كلّ باب آخر غير الخوارق لإدراك صدق النبوّة.

الاعتراض الثاني أشدّ عنتًا، وقد اختار أصحابه متابعة الفلاسفة الشكّاكين المتأخرين، **فآل أمرهم إلى**:

١ ـ إنكار المعجزة ابتداءً، بالقول: إنّ العلم يرفضها لشهادته أنّ السنن الكونية ثابتة فلا تتعثّر ولا تتمهّل؛ فالمعجزة والعلم الطبيعي (science) ـ بذلك ـ في تنافر حاسم، ولمّا لم نجد ما يدعو إلى إنكار العلم الطبيعي وردّه، لزم إنكار المعجزة؛ لأنّها أضعف النقيضين.

٢ ـ أو إنكار إمكان العلم بصدق خبر المعجزة؛ لأنّه يلزم من تصديق المعجزة تكذيب ما تواتر خبره في تاريخ البشر من أنّ قوانين الطبيعة لا تنخرم.

٣ ـ أو القول: إنّ المعجزات مُدّعاةٌ في كلّ دين تقريبًا، وبما أنّ هذه الأديان يُبطل بعضها بعضًا؛ وجب إنكار صدق هذه المعجزات جميعًا.

ومع ما مضى سيكون حديثنا هنا:

هل المعجزة شرط للنبوة؟

ما هي النبوة؟

النبوّة في جوهرها بلاغ عن الربّ ـ سبحانه ـ رسالته للخلق لهدايتهم من بعد جهالة أو ضلالة، وإصلاح حالهم، وتقويم عوجهم، أو تذكيرهم بخبر النبوّات التي أدركوها أو أدركوا خبرها. فالنبوّة ـ إذن ـ هي في جوهرها بلاغ لخبر صادق. وشرط قبول الخبر هو العلم أنه عن صادق يُخبر بما لا تمنعه العقول ويوافق الواقع؛ ولذلك فكلّ برهان يقيم الحجّة على أنّ المبلّغ صادق وأنّ خبره موافق للعقل والواقع؛ هو حجّة معتبرة.

والحجج على صدق مبلّغ الخبر لا يحصرها نوعٌ واحد؛ فنحن نصدق من اختبرنا صدقه ما لم يقم مانع يدحض خبره. وبرهان الصدق هو كلّ حال للنبيّ لا يشاركه فيه دجال يفتري نسبة قوله إلى الربّ جلّ وعلا، ويدخل في ذلك مألوف فعل الداعي بالتزامه الاستقامة ومنافرته الخديعة والكذب في جليل أمره ودقيقه، وفي حال بسط الأقدار وقبضها، وكذلك ما يكون منه من آيات، تسمّى عند المتأخّرين بـ«المعجزات»، وهي خوارق الطبيعة الخارجة عن قدرة الإنس والجن ـ من قول وفعل ـ، والمقترنة بالتحدّي أو دون لصيق تحدٍ.

فالمعجزة ـ الخارقة ليست البرهان الفرد الذي لا يُسلّم لداعي النبوّة ما ادّعى دونه. قال (ابن تيمية): «إنّ آيات الأنبياء ليس من شرطها استدلال النبي بها ولا تحديه بالإتيان بمثلها بل هي دليل على نبوته وإن خلت عن هذين القيدين»[1].

(١) ابن تيمية، النبوات، ١/٤٩٨.

واشتراط التحدّي شرط بلا حجّة؛ فإنّ الآية التي تدلّ على النبوّة حجّة لنبوّة النبيّ لكشفها إجابة الله طلبه أو بيان منزلته أو نصره بالخارق من الآيات، وكلّ ذلك لا يلزم أن يقترن بالتحدّي فإنّ طبيعة الآية واقترانها بحقيقة حال النبيّ وصلاح خبر رسالته حجّة لأصل صدق الآية وحجيّتها على النبوّة. بل لا يُشترط في دليل النبوّة أن يستدلّ به النبيّ صراحة لنبوّته؛ إذ **الاحتجاج بالدليل لا يقوّيه**.

وبالعلم بما سبق يتّضح أنّ سبيل البحث في نبوّة محمّد ﷺ هو النظر في سيرته، وموافقتها لسيرة الصادقين، ولآياته وموافقتها لبراهين الخوارق الصادقة. ولو اكتفى المرء بالنظر في السيرة لكفى؛ فهي حجّة مستقلّة على النبوّة. وقد انتهى الإمام (ابن حزم) ـ على شدّة فيه وحدّة عقل ـ إلى القول: «إنّ سيرة محمّد ﷺ لمن تدبّرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنّه رسول الله ﷺ حقًّا، **فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى**»[(١)].

على الباحث أن ينظر في كلّ حجّة مباشرة أو قرينة على طبيعة الصدق في دعوى النبوة؛ فإنّ براهين النبوّة ليست محصورة في المعجزات.

هل المعجزة ممكنة ومدركة؟

لم يكن موضوع إمكان المعجزة باعتبار المعجزة خرقًا لعمل القوانين الطبيعيّة من مواضيع الجدل الديني/الفلسفي الكبرى قبل كتابات الفيلسوفين (سبينوزا)[(٢)] ثم (هيوم)[(٣)]؛ فالعالم القديم غارق في الإيمان بالطبيعة الخارقية لأحداث الوجود، بل ونُظُمه.

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمٰن عميرة (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ٢/ ٢٣١.

(٢) باروخ سبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م): فيلسوف هولندي من أسرة يهودية. يُنسب إلى الاعتقاد بوحدة الوجود. اعتبره (نيتشه) علامة فارقة في الفلسفة المعاصرة. كان له اهتمام خاص بنظرية المعرفة والأخلاق وفلسفة الدين. من أهم مؤلفاته «الأخلاق» و«في اللاهوت والسياسة».

(٣) ديفيد هيوم David Hume (١٧١١ ـ ١٧٧٦م): مؤرخ وفيلسوف تجريبي إسكتلندي. يُعرف بنزعته الشكوكيّة الغالية. من مؤلفاته:
"A Treatise of Human Nature" و."Dialogues Concerning Natural Religion"

اعتراضات الفيلسوف سبينوزا:

كتب (سبينوزا) في القرن السابع عشر معترضًا على إمكان المعجزة وحقيقة الخوارق الكتابيّة في مؤلفه الشهير «في اللاهوت والسياسة»، والذي نال به صيتًا مدويًّا لأثره في حركة نقد الكتاب المقدس لليهود، غير أنّ جدله في المعجزات لم يحفر بصمته في النقد الفلسفي واللاهوتي الغربي للخارقة، لما فيه من ضعف بيِّن في الأصول والاستنباط، **وهو ما يظهر في أمور:**

أولًا: اهتم (سبينوزا) ببيان أنّ قوانين الطبيعة أقوى دلالة من المعجزات على وجود الله؛ معتبرًا أنّ الالتجاء إلى المعجزات أثرٌ عن سذاجة العقل اليهودي القديم[١]. وليس ذلك بسديد؛ إذ إنّ القدماء كانوا يرون كلًّا من سُنن الطبيعة وما يخرقها حجةً على وجود الله؛ فلا شقاق بين القانون والمعجزة في الكشف عن صاحب السلطان الأعلى في هذا الوجود، فقانون الطبيعي دال على خالق الكون وبديعه، والمعجزة دالة على المتصرّف في الكون بعد خلقه، والمهيمن على الطبيعة بسلطانه.

ثانيًا: زعم (سبينوزا) أنّ المعجزة لا تكشف ماهية الله أو لا تثبت وجوده؛ فهي لا تدلّ على العناية الإلٰهية (divine providence)، على خلاف دلالة القانون الطبيعي على ذلك[٢]. وهذا تعسّفٌ أيضًا في استخراج تضاد بين القانون الطبيعي والمعجزة؛ إذ المعجزة تدلّ بوحدها على ذاتٍ قادرة تملك أن توقف دفق الناموس الطبيعي، وقد تدلّ أيضًا على العناية الإلٰهية، وإن بصورة أضيق من دلالة القانون الطبيعي، بنصرة نبي أو أُمّة من المؤمنين عند محنة أو إكرامهم بعطاء أو تأييدهم ببرهان... ونصرة الصالحين أصلٌ للرعاية الإلٰهية الكبرى التي تقيم العدل في هذا الوجود.

ثالثًا: جعل (سبينوزا) ثقل حجّته في أنّ قوانين الكون ثابتة لا تتغيّر؛ إذ المعجزة تعارض طبيعة الله الذي لا يتغيّر. وهذا اعتراض لا يسلّم له ضمن

---

(١) Benedict Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus* (London: Trubner, 1862), pp.12-122.

(٢) المصدر السابق، ١٢٤ ـ ١٢٨.

الرؤية اللاهوتية الإسلامية أو حتّى الألوهية (theistic) عامةً؛ لأنّ لله مشيئة مفارقة لعمل الطبيعة، تفعل في الطبيعة بالطبيعة وبما هو فوقها؛ فقوانين الطبيعة مثل خوارقها أثرٌ عن مشيئة الله.

رابعًا: مذهب (سبينوزا) ـ في أشهر قراءاته ـ يقول: إنّ الله والطبيعة واحد (مذهب وَحدة الوجود)؛ وهو ما يمنع ضرورةً القول بالمعجزة؛ إذ إنّ المعجزة أثرُ تسلّط ذاتٍ قديرة على الطبيعة من الخارج. والقول: إنّ الله والطبيعة واحدٌ مذهبٌ لم يَعرف في تاريخ الغرب انتشارًا ولا قبولًا، وهو وجه من أوجه الإلحاد على الحقيقة..

خامسًا: زعم (سبينوزا) أنّ المعجزة حجّة أنّ الله قد خلق كونًا معيبًا ممّا يضطره إلى أن يصلح أعطاب المادة كلّ مرّة[1]. وهو اعتراض واه؛ لأنّ معجزات الأنبياء ليست لإصلاح ما في الكون من خلل، وإنما لإظهار أنّ من أرسل الأنبياء هو خالق الكون وقوانينه، وهو الذي إذا أراد للقانون الطبيعي أن يسير بانتظام كان ما شاء، وإذا أراد تعطيل ذلك نفذ أمره.

سادسًا: زعم (سبينوزا) أنّ سبب نسبة حوادثَ ما إلى جنس المعجزات جهل الأمم السابقة بعللها الطبيعية. وهو اعتراض فيه تكلّف؛ فإنّ تحويل العصا إلى حيّة تسعى، وإبراء الأكمه الذي ولد أعمى، وانشقاق القمر.. كلّها أحداث بعيدة بالكلية عن نواميس الكون الرتيبة، والحجّة على منكر خارقيّتها.

سابعًا: زعم (سبينوزا) أنّ الكتاب المقدس لا يذكر خبر معجزاتٍ، وإنما القول بذلك أثرٌ عن شروح اليهود، وليس ذلك في النصّ[2]. وهو تكلّفٌ محض بردّ صريح النصوص الكتابيّة.

بسبب التهافت الظاهر بجلاء لاعتراضات (سبينوزا) على حقيقة المعجزة، لم يبدأ الجدل الجاد في معقوليّة المعجزة وإمكان العلم بها مع

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٠ ـ ١٣٤.

كتاب «في اللاهوت والسياسة»، وإنّما تأخّر إلى زمن نشر (هيوم) كتابه: «بحث في العارفة الإنسانية».

اعتراضات الفيلسوف هيوم:

عرّف (هيوم) المعجزة أنّها «خرق لقوانين الطبيعة»[1]، ثم استرسل في بيان فساد القول بحدوث المعجزة. وعامة قوله يعود إلى أنه لمّا كانت قوانين الطبيعة مطّردة، ويشهد عليها تكرّر عملها على الصورة نفسها ما لا يُحصى عددًا، كان القول بخرقها غير جدير بالتصديق؛ لأنّ على الإنسان أن يؤمن بصدق المطّرد لا الشاذ.

كما أشار (هيوم) إلى أنّ الأحداث فوق الطبيعية تحتاج برهانًا فوق طبيعي لإثباتها؛ ونظرًا لغياب البرهان فوق الطبيعي؛ لزم البقاء على القول الأول الذي يشهد له القانون الطبيعي؛ وهو أنّ القانون الطبيعي لا ينخرم.

وأضاف أنّ وجود المعجزات في غيرما دين حجّة لفساد القول بالمعجزة لسببين، أوّلهما: أنّ أمر هذه القصص مستشرٍ في الأمم المتخلفة، وهو أدنى من ذلك في الأمم المتحضرة، وذاك برهان ارتباطه بسذاجة العقول المولعة بالغرائب، وثانيهما: أنّه إذا كانت المعجزة برهان صدق الدين؛ فلا يمكن أن تصحّ في أكثر من دين، وهو ما يسقط كلّ الدين.

ولعلّه يحسن بنا أن نتناول هذه الاعتراضات بتفصيلٍ بعيدًا عن الإجمال حتّى لا نُتّهم بالإخلال.

شهادة القانون الطبيعي ضد المعجزات:

يقوم الاعتراض الهيومي الأساسي على المعجزات على القول: إنّ الطبيعة مطّردة في نظامها، ولا يمكن قبول خبر المعجزة؛ لأنّ الشهادة عليها لا ترتقي في قوّتها لشهادة المعروف المألوف من انتظام الطبيعة بلا انخرام؛ فنحن نعلم بالتواتر المفيد لليقين انتظام القوانين دون تغيّر أو اختلال، فكيف ينتقض هذا اليقين بأخبار شاذة عن معجزات خارقة لهذه القوانين؟

(١) David Hume, *An Inquiry Concerning Human Understanding* (London: T. Cadell, 1772), p.130.

والردّ على ذلك من أوجه:

أولًا: الجدل في المعجزة يبدأ بتحديد الإطار المفاهيمي (conceptual framework) الذي يُدرِك من خلاله الباحث (الممكنات) و(الواجبات) و(المحالات) ضمن فهمه لحقيقة الكون وطبيعة أجزائه.

المعجزة في الفهم الألوهي[1] (ومنه الإسلامي) لا تختلف في شيء عن القوانين المطّردة، فكلاهما أمر عادي من خلق الله. الكون بدأ بإرادة الله، وتعمل قوانينه بأمر الله، وتحدث الخوارق فيه بمشيئة الله. وقد أراد الله أن يظهر وجوده وجليل صفاته من خلال القوانين المبهرة والجميلة، كما أظهر صفاته وصدق بعض خلقه في خرق هذه القوانين بالفعل المدهش.

وفي المقابل ينطلق الملحد المادي من فلسفة «الطبيعانية المنهجية»[2]؛ فالكون لا يتجاوز في مجموعه المادة والطاقة والحركة العابثة، ولا شيء بعد ذلك. وفي هذا الإطار لا مجال للحديث عن إعجاز ومعجزات؛ لأنّ القانون والنشوز يُفسَّران ضمن آلية المادة الصمّاء داخل صندوق العالم الذي لا شيء وراءه؛ إذ الطبيعة منظومة تفسّر نفسها بنفسها (self-explanatory system).

ولذلك نقول: الحديث عن المعجزات فرع عن الإيمان بالله؛ إذ إنّ وجود الله هو المشكّل الأساسي للإطار المفاهيمي الكوني؛ فإذا صدق القول بوجود الله، صحّ إمكان المعجزة ضرورة.

النظام الكامل للأشياء (= القوانين الكونية) أمر مثيرٌ كأيّ معجزة من الممكن أن تنتهكه (G.K. Chesterton).

ثانيًا: قوانين الطبيعة لا تفيض من الخالق ضرورة حتّى تكون واجبة الوجود على الصيغة التي هي عليها، وإنّما هي أثر من آثار مشيئة الله الكونيّة، ومشيئة الله ليست مقيّدة من خارجٍ، فالله يفعل ما يريد بقدرته ويحكم ما يشاء

---

(١) Theistic.

(٢) Methodological naturalism.

بعزّته؛ فله ـ سبحانه ـ أن يترك القانون يمضي في عمله أو أن يعطّله إلى حين أو أبدًا.

ثالثًا: المعجزات مخالفة (contraria) لتجربة الإنسان مع الطبيعة، وليست مناقضة (contradictoria) لهذه التجربة؛ فهي من الممكنات العقليّة التي لم يشهدها عامة الناس؛ وإثبات المعجزة بذلك مسألة تاريخيّة وليس مسألة فلسفيّة، وجوابها في امتحان شهادات التاريخ لا البحث في الماهيّات.

رابعًا: يرى (هيوم) أنّ خبرتنا تُعلّمنا أنّ قوانين الطبيعة لا تنخرم[١]. والحقيقة هي أنّه لا يوجد برهان قاطع أنّ الطبيعة مطّردة بلا استثناءات، وإنّما هذا أمر إيماني أصله التجربة المتكرّرة وليس الاستقراء التام أو اللزوم العقلي. ولسنا بذلك ننفي مبدأ السببيّة ـ كما هي القراءة الكلاسيكية لما كتبه (هيوم)[٢] ـ، وإنما نحن ننفي لزوم اطّراد عمل الأسباب وعدم تعطّلها لعارض.

خامسًا: القوانين واصفة لعمل الطبيعة (descriptive) وليست ذات إرادة تسلّطية على الكون (prescriptive)؛ فنحن نصنع صورة القانون في أذهاننا من خلال وصف عمل الطبيعة؛ وليس في ما هو وصفي ما يمنع من أن يتغيّر حاله أو يتعطّل لعارض.

سادسًا: (هيوم) هو أشهر فيلسوف في التاريخ يُنسب إليه نفي القانون الطبيعي وضرورة الاقتران بين (الأسباب) المادية و(الآثار) التي تظهر دائمًا ـ في خبرتنا ـ بعدها. وهنا يظهر السؤال: كيف يمكن الجمع بين القول بانتفاء القانون الطبيعي لانتفاء السببيّة من جهة، وحجيّة القانون الطبيعي ضد المعجزة من جهة أخرى؟! فإذا كان (الاطّراد) الظاهر في تتالي الأحداث ليس حجّة لعدم إمكان انخرام النظام في المستقبل؛ فكيف يكون هذا الاطّراد نفسه حجّة نافيّة لإمكان المعجزة في الماضي؟!

---

(١) David Hume, *An Inquiry Concerning Human Understanding*, p.130.

(٢) هناك خلاف في تحرير الموقف الحقيقي (لهيوم) من مبدأ السببية. انظر:
Don Garrett, *Cognition and Commitment in Hume's Philosophy*, New York, Oxford University Press, 1997;
Helen Beebee, *Hume on Causation*, New York: Routledge University Press, New York, 2006;
وسامي عامري، فمن خلق الله؟ (الرياض: مركز تكوين، ٢٠١٥م)، ص٣٠ ـ ٣٢.

سابعًا: يزعم (هيوم) أنّ شهادة الطبيعة لنفسها أن قوانينها لا تنخرم، كاملةٌ[1]؛ وهو بذلك يبدأ من المسلَّمة التي يريد إثباتها؛ فهو يفترض أنّ (١) الطبيعة: المادة = كلّ شيء، و(٢) وأنّ قوانينها لا تنخرم؛ ليثبت أنّ قوانين الطبيعة لا تنخرم؛ وهذه مصادرة على المطلوب؛ فهو يفترض النتيجة في مقدمته.

دعوى (هيوم) قائمة على أنّ الطبيعة هي كلّ شيء؛ ولذلك لم يفتح لنقض السنن الكونية بابًا من خارجها. وجدل «المعجزة» قائم في أصله على القول بوجود ذات مباينة للطبيعة تعمل في الطبيعة ما تشاء، وأنّ العقل ـ متسلحًا بمبادئه وكشوف العلم ـ قد دلّ على وجود هذه الذات.

ثمّ إنّ افتراض أنّ السنن الكونيّة لا تنخرم مصادرة على المطلوب، أو كما يقول (سي. أس. لويس): «لن نعلم أنّ تجارب التاريخ الشاهدة ضد المعجزات موحّدة، إلّا إذا علمنا أنّ كلّ الروايات عن المعجزات كاذبة. ولن يكون في وسعنا أن نعرف أنّ جميع هذه الروايات كاذبة إلا إذا كنّا نعرف بالفعل أن المعجزات لم تحدث البتّة. في الواقع، نحن واقعون في التفكير الدائري ـ الدَّور ـ»[2]. بعبارة أخرى: لن نجزم أن القوانين الكونية مطّردة لا تنخرم أبدًا حتّى نعلم أنّ ما يخرم هذا الاطّراد لم يوجد أبدًا؛ ولذلك لا يجوز أن نبدأ في الاستدلال لعدم إمكان خرم نظام الطبيعة من نتيجته التي هي عدم ثبوت انخرامها.

ثامنًا: إذا كان القانون الطبيعي هو كلّ ما يقع في الكون، فلا معنى عندها للقول: إنّ المعجزات تنقض قانون الكون؛ إذ القانون هو وصف لكلّ ما هو واقع في الكون، فالانتظام والشذوذ جزء من قانون الكون؛ ولذلك فمفهوم القانون الكوني الهيومي لا يتعارض تحليليًّا مع المعجزة.

تاسعًا: إذا كان خرق القوانين الكونيّة ليس من محالات العقل وإنّما من نوادر الأحداث، كان تصديق المعجزة مردّه صدق الشهود؛ فإنّ الأحداث

(١) David Hume, *An Inquiry*, p.130.

(٢) C.S. Lewis, *Miracles* (New York: The Macmillan Co., 1947), p. 123.

تَصدق بمعاينتها أو بالإخبار الصادق عنها وبآثارها. وقد ذهب (هيوم) إلى أنّ التجربة هي مصدرنا الوحيد لمعرفة مسائل الواقع؛ مسلّمًا بأصل حجيّة الخبر[1].

عاشرًا: سلّم (هيوم) للقول: إنّ على العقل أن يجعل إيمانه خاضعًا للبرهان[2]، لكنّه عاد فاشترط في البرهان على الحادث فوق الطبيعي أن يكون فوق طبيعي[3]. ونحن نقول: إنّ الأصل في تصديق المعجزات هو ثبوت **عدد من الأمور:**

(أ) ألّا يمكن تفسير الحدث بأسباب طبيعيّة.

(ب) أن يكون سبب التفسير فوق الطبيعي غير محالٍ عقلًا (مثال = فكرة متناقضة أو ذات يمتنع عقلًا وجودها).

(ت) أن تكون الأسانيد الناقلة للخبر على القوّة التي توافق غرابتها، فما يُروى أنّه قد حدث أمام جمّ غفير من الناس، ثمّ لا يرويه إلّا واحد رغم توافر الهمم لنقله عن كثيرين، لا يكون محل تصديق. ولا تُشترط الكثرة إذا قامت قرائن أخرى على صحّة الخبر وإن كان غير مألوف.

إذا توافرت الشروط الثلاثة السابقة، كان ردّ خبر المعجزة تكلّفًا دون حجّة. فالمعجزة إذا كانت هي التفسير الوحيد المعقول لحادثة ما، وجب المسير إليها، دون إلغائها من مساحة الحلول الممكنة بصورة أوّليّة.

ثمّ إن القول: إنّ حجّةَ تاريخيّة الحدث فوق الطبيعي يجب أن تكون فوق طبيعية، بمعنى خارقة، مصادرة على المطلوب ممن يرفض الخارقة ضمن فهمه المادي للكون. فالمطلوب من المخالف هو إثبات امتناع إثبات تحقّق الخارقة، والمصادرة هي في مقدمته التي لا يعترف فيها ببرهان خارج جنس

---

(١) David Hume, *An Inquiry*, p.126.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٣١ ـ ١٣٢.

عبارة: "Extraordinary claims require extraordinary evidence" أشهَرها حديثًا عالم الفلك الملحد (كارل ساغان) (توفي ١٩٩٦م).

الخارقة لإثبات إمكان وقوع الخارقة؛ فمقدّمته بذلك تنطلق ـ على الحقيقة ـ من تعذّر إثبات الخارقة، وهو محلّ النزاع!

فرقٌ ـ إذن ـ بين أن تكون الحجّة المطلوبة صلبة وذات قدرة تفسيريّة متناسقة وعالية ـ وهو ما نراه نحن لإثبات المعجزة ـ، وأن يكون تفسير خوارق الطبيعة خارقًا للطبيعة، خاصة أنّ تفسير **الخوارق بالخوارق يؤول إلى التسلسل**، وهو ـ بذلك ـ باطل؛ لأنّه محال!

والبحث في الأحداث النادرة يقوم اليوم ـ بصورة ما ـ على نظرية الاحتمال[١] التي تدرس الأحداث العشوائية؛ أي: حساب احتمال حدوث الأشياء التي يفسّرها الحدث النادر إذا لم يكن هذا الحدث قد وقع، فإذا كان الاحتمال ضعيفًا جدًّا؛ كان القول بقبول شهادات حدوث الحدث الفريد وجيهًا[٢].

الحادي عشر: زعم (هيوم) أنّه حتّى بعد توفّر برهان فوق طبيعي للمعجزة، لا يمكن إثبات حدوث المعجزة؛ لأننا سنصل هنا لمرحلة الدحض المتبادل بين القوانين الكونية والمعجزة بما سينتهي إلى دحض الواحدة للأخرى[٣]؛ فإنّ كلّ واحد منهما يوفّر شهادة كاملة لنفسه، ولكنّها شهادة تعارض الشهادة الأخرى، بلا سبيل للالتقاء. وهي دعوى متكلّفة ومتعنّتة؛ لأنّه بالإمكان الجمع بين القوانين وما يخرقها بالقول: إنّ الخوارق استثناء للأصل الذي هو عمل القوانين الطبيعيّة؛ فالعلاقة بين القانون والمعجزة هي علاقة قاعدة واستثناء، لا علاقة تناقض بين شيء ومقابله.

الثاني عشر: افترض (هيوم) قيام كلّ القرائن التي تثبت معجزة ما، وعقّب بقوله: إنّه لن يصدّق مع ذلك خبر المعجزة لاعتقاده أنّ مكر الناس وحمقهم سبب ظهور هذا الخبر[٤]. و(هيوم) بذلك يكشف أنّ رفضه لتصديق

---

(١) Probability theory.

(٢) S. L. Zabell, "The Probabilistic Analysis of Testimony," Journal of Statistical Planning and Inference 20 (1988): 327 - 54.

(٣) David Hume, *An Inquiry Concerning Human Understanding,* p.131.

(٤) المصدر السابق، ص١٤٥.

حدوث معجزة سببه أنّه **لا يريد أن يصدّق خبر المعجزة** لا أنّه لم تقم شواهد لحدوث المعجزات؛ فإنّه إذا كانت الحقائق تدلّ عليها شواهدها؛ لزم القول بالحقائق عند توافر ما يشهد لها.

الثالث عشر: يرى (هيوم) ضرورة القول: إنّ الأحداث الفرديّة غير المتكرّرة لا يصحّ تصديقها. وهي دعوى منه منكرة؛ إذ إنّ حدوث الكون من عدم ـ مثلًا ـ هو أمر فردٌ، ومع ذلك يشهد له العقل والعلم(١). ثم إنه لا يشهد للقاعدة المعرفية التي وضعها (هيوم) هنا شاهد من مبدأ عقلي أو لزوم تجريبي؛ فلا العقل يمنع الأحداث غير المألوفة أن توجد، ولا التجربة في الماضي تقضي بامتناع تبدّل الحال لطارئٍ.

وعلماء الطبيعة لا يعترفون بالقسمة التي ادّعاها (هيوم)، ولذلك يردّ عليها الفيزيائي وفيلسوف العلوم (ستانلي جاكي)(٢) بقوله: «من حسن حظ العلم أنّ العلماء نادرًا ما يستبعدون التقارير المتعلقة بحالة جديدة بتعليق: «لا يمكن أن تكون حقيقةً مختلفة عن الألف حالة الأخرى التي تمّ بحثها»»(٣).

الرابع عشر: تقوم شبهة (هيوم) على أنّ المعرفة العلمية التجريبيّة تقوم على ظاهرة التكرار في الطبيعة، وهذه دعوى من الممكن التسليم بصحّتها، لكنّ (هيوم) قد أخطأ باستنباطه من ذلك عدم إمكان إثبات حدوث الأحداث الفردية التي ليس لها نظائر، أو لها نظائر قليلة. ووجه الخطأ هو في **خلطه بين (أصل المعرفة) و(موضوع المعرفة)**؛ فإنّ أصل المعرفة هو ملاحظة تتابع

---

(١) انظر في تفصيل الرد على (هيوم):

R. Douglas Geivett and Gary R. Habermas, eds. *In Defense of Miracles: A Comprehensive Case for God's Action in History (Downers Grove, Ill: InterVarsity Press, 2002), pp.59-196.*

وهو الكتاب الذي قال فيه (أنتوني فلو) حامل لواء التشكيك في المعجزات فلسفيًّا في القرن العشرين: إنّه الكتاب الذي على الشكاكين الردّ عليه، لقوّته (شهادة نقلها عنه مشافهة غاري هبرماس:

Michael R. Licona, *The Resurrection of Jesus: A New Historiographical Approach* (Downers Grove, Ill: InterVarsity Press, 2011)., p.138.

(٢) ستانلي جاكي Stanley Jaki (١٩٢٤ ـ ٢٠٠٩م): كاتب مجري الأصل. حاصل على شهادة دكتوراه في الفيزياء وأخرى في اللاهوت. له عناية خاصة بعلاقة الإيمان بالعلم. مُنح الجائزة المرموقة Templeton Prize. من مؤلفاته: "God and the Cosmologists".

(٣) Stanley Jaki, *Miracles and Physics* (Front Royal. VA.: Christendom Press, 1989), p.100

الظواهر المتماثلة، لإدراك القوانين، وأمّا موضوع المعرفة فقد يكون قانونًا مطردًا، وقد يكون حدثًا فرديًا. ونحن بإمكاننا أن ندرك حقيقة الحدث الفردي من خلال القوانين، كما هو الحال مع حدث الانفجار العظيم؛ إذ توصّل إليه العلماء من خلال القوانين الكونيّة المطّردة. وهو الحكم نفسه الذي نطلقه على فهمنا لانفجار نجم أو سقوط نيزك أو غير ذلك من الظواهر الطبيعيّة. والعلماء ينفقون اليوم أموالًا ضحمة على مشروع (SETI)[١] بحثًا عن الحياة خارج كوكبنا، مدركين أنّ رسالة واحدة مفهومة من خارج الأرض تكفي لإثبات ظاهرة الحياة العاقلة خارجه[٢]. ولذلك يكفي أن نعلم بالشهادة عن العدول الحُفّاظ أنّ حدثًا ما قد وقع، ولا يمكن ردّه للأسباب الطبيعيّة؛ لندرك أنه خارقة[٣] مخالفة للسنن المألوفة.

الخامس عشر: عجز العلم الطبيعي عن إثبات صدق المعجزة؛ لأنّ ندرتها ترميها خارج مجال الرصد العلمي، يقابله عجز العلم الطبيعي أيضًا عن نفي حدوثها؛ فإنّ خروجها عن مجال الدرس العلمي يلزم منه العجز عن إدراك حدوث المعجزة وعدم إدراك ذلك؛ فلا إمكان للإثبات دون إمكان النفي.

السادس عشر: الصدام الذي عرضه (هيوم) بين شهادة الأغلبية أنّ القوانين الكونيّة لا تنخرم، وشهادة قلّة من الناس تزعم انخرامها بعض أحيان[٤]، هو عرض لثنائيّة تشاقيّة ضعيفة أراد منها (هيوم) نفي إمكان الشهادة للمعجزة. والحقيقة هي أنّ الخلاف في رصد النشوز الكوني في عمل الأسباب الرتيبة هو في اختلاف الشهود في إثبات المعجزة الواحدة؛ كأن يشهد قوم على انشقاق البحر، ويكذّب ذلك آخرون حضروا حين وقوع ما زُعم من انشقاق البحر أو عاشوا في عصر يتيح لهم متابعة تبعات انشقاق البحر.

بعبارة أخرى: القول إنّه لا يمكن إثبات حدوث المعجزة؛ لأن الشهادة

---

(١) Search for Extraterrestrial Intelligence

(٢) Norman Geisler, 'Miracles and the Modern Mind', Douglas Geivett and Gary R Habermas, eds. *In Defense of Miracles*, pp.81 - 82.

(٣) المعجزة أخص من الخارقة، وسيأتي الحديث عن حقيقة المعجزة لاحقًا.

(٤) David Hume, *An Inquiry Concerning Human Understanding*, p.129

لقوانين الكون المتكررة هي أعظم بكثير من الشهادة لحدوث المعجزة، هو تدليس في عرض حقيقة الخلاف؛ فالنزاع يجب أن يكون في حدوث معجزة بعينها لا إمكان كلّ معجزة؛ لأن جنس المعجزة ـ هنا ـ مجرّد تصوّر ذهني لآحادها.

وعند النقاش في المعجزات عينًا، يجب أن نقارن بين الشهادة لحدوثها ممن زعم معاينتها، والشهادة النافية لحدوث ذات المعجزة لمن كان في المكان والزمان المدعى حصول المعجزة فيهما، أو كان مدركًا لمقدمات حصول المعجزة أو آثارها إن وقعت؛ أي: عالمًا بالقرائن الدالة على الصدق أو الكذب. وقد كان على (هيوم) الحسيّ والتجريبيّ أن يسلك هذا الطريق في الحكم على صدق أعيان المعجزات.

يرى هيوم أن المعجزة لا يمكن إثبات حدوثها؛ لأن خبرة البشرية تشهد لانتظام عمل القوانين الكونية ولم يشهد على خلاف ذلك إلا قلة من شهود المعجزات. وهذا التعارض الذي يعرضه هيوم ليس هو محل الجدل، وإنما الجدل هو في شهادة قوم لحدوث معجزة، وإنكار آخرين لوقوع الحادثة نفسها؛ فهاهنا يحصل الترجيح.

السابع عشر: خلط (هيوم) ـ بصورة واضحة ـ بين طبيعة الأدلّة كمًّا، وطبيعتها قيمة، فالأدلة في كلّ شأن «توزن ولا تُعدّ»؛ ولذلك فإنّ شهادة جماعة واحدة لمعجزة لا تردّ؛ لأنّها شهادة قلّة من الناس في مقابل شهادة الأمم على انتظام الناموس الكوني، وإنّما لا بدّ من فحص هذه الشهادات وعدالة أصحابها وملابسات الحادثة.

وقد ألّف اللاهوتي وعالم المنطق (ريتشارد واتلي) كُتَيبه «شكوك تاريخية حول وجود نابليون بونابارت»[١] ليسخر من المنهج الشكوكي الذي بثّه (هيوم)، والذي يقوم على الشكّ في تاريخية القصص والشخصيات إذا وردتنا

---

(١) *Historic Doubts Relative to Napoleon Buonaparte* (New York, R. Carter & Bros., 1871).

عنها أخبار متضاربة. وطبّق ذات المنهج على أخبار (بونابارت) لينتهي إلى إلزام الشكوكي أن ينكر تاريخية هذا القائد الفرنسي المشهور. وهو الأمر الذي لا يجرؤ على القول به (الهيوميون) أنفسهم!

الثامن عشر: زعم (هيوم) أنّه لم توجد في التاريخ معجزة واحدة شهد لها عدد كاف من الشهود الذين سلمت حواسهم وأخلاقهم من عوارض الفساد[١]. وهذا منه جهل بما أثبت علماء الحديث صحّته من المعجزات النبويّة بعد أن اشترطوا في الرواة أن يكونوا ثقاتًا؛ أي: أن يتميّزوا بالعدالة والضبط. وهو ما سنراه في حينه.

خوارق أهل الديانات، هل تنفي أصل المعجزات؟

تحدّث (هيوم) عن انتشار خبر المعجزات، وأنّ ذاك برهان كذبها؛ لأنّ كثرتها وتناقلها بين «الأمم الجاهلة البربريّة» حجّة لأسطوريتها[٢]، كما أنّ لأهل الملل المتخالفة خوارق شائعة بين الناس؛ فكيف تصحّ المعجزات وهي تنتهي إلى إثبات منظومات إيمانيّة متصادمة[٣]..

والردّ من أوجه:

أولًا: زعم (هيوم) أن خبر الخوارق منتشر في الأمم المتخلفة، قليل جدًّا في الأمم المتحضّرة. ونحن لا ننكر هيمنة العقلية العجائبية على الأمم المتخلّفة بسبب ضعف الإيمان بالسنن الكونية. ومع ذلك نقول: إنّ «التحضّر» الذي يتحدّث عنه (هيوم) لم يَحُل ـ مثلًا ـ دون شيوع الإيمان بالخوارق والعجائب الناقضة للسنن الكونية الرتيبة بين الأمريكان اليوم، إذ تزدهر عندهم مهنة العرافة، ويشيع عند طائفة الخمسينيين[٤] ـ الكبيرة عددًا ـ الإيمان بخوارق

---

(١) David Hume, *An Inquiry*, p.132.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص١٣٧ ـ ١٣٨.

(٤) الطائفة الخمسينية Pentecostalism: فرقة نصرانية بروتستانتية حديثة محافظة، يبلغ أتباعها في العالم أكثر من نصف بليون نصراني. من أصولها وجوب الميلاد الجديد والتعميد بالروح القدس.

التكلّم بألسنة[1]، وغير ذلك مما هو مشهور معلوم.

ثانيًا: يقعّد (هيوم) هنا لأصل منهجي في التعامل مع الأخبار التاريخيّة، وهو أنّ تعارض الأخبار حجّة لفسادها جميعًا. وهو مذهب يرفضه جميع المؤرخين؛ لأنه يلزم منه ألا يصحّ خبرٌ؛ فإنّ تعارض الأخبار هو الظاهرة الأبرز في محفوظات التاريخ، وإنكار الخبر لوجود آخر يعارضه، ليس من التحقيق التاريخي الجاد في شيء. والعجيب أنّ (هيوم) نفسه يسلّم أنّه عند تعارض الأدلّة ينظر في أقواها؛ ككثرة الشهود لها وغير ذلك من المعضّدات[2]. كما أنه يناقض نفسه مرّة أخرى بقوله ـ أيضًا ـ: إنّه إذا تعارضت شهادة السنن الكونية وشهادة الناس، فعلينا الأخذ بشهادة الطبيعة؛ لأنها الأقوى، وهو هاهنا يرجّح الأقوى ولا يردّ الشهادتين معًا[3].

ثالثًا: وضع علماء الحديث المسلمين منهجًا أدقّ وأعدل في التعامل مع الأخبار المتعارضة ظاهرًا أو حقيقة، وهو تقديم الجمع بين الخبرين إذا أمكن إبطال التعارض الظاهري، ولهم في ذلك قاعدة تقول: «الإعمال أولى من الإهمال» أو «الجمع مقدَّم على الترجيح». وإذا امتنع الجمع بين الأخبار من كلّ طريق مَرْضيّ غير متعسّف، كان الترجيح هو الخيار. وعندها يكون النظر في متون الأخبار وأسانيدها، فيقدّم البريء من العلل على المعتلّ، وهو ما يُقدّم المحفوظ على الشاذ والمعروف على المنكر[4].

رابعًا: زعم (هيوم) أنّ أفضل سُبل انتشار خبر المعجزات ـ الكاذبة ضرورة ـ هو انتشارها في غير موطنها؛ إذ ليس هناك ـ عندها ـ من يملك حجّة لبيان أنّها خرافة[5]. وهو قول صحيح لكنّه لا يمسّ أصالة معجزات نبيّ

---

(١) Glossolalia: ظاهرة أن يتكلّم المرء بمقاطع صوتية توحي وكأنّها كلمات لها معنى في لغة غير مفهومة، وهي في الحقيقة بلا دلالة لغويّة.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٤٤.

(٤) انظر: الشافعي، اختلاف الحديث (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م).

(٥) David Hume, *An Inquiry*, p.136.

الإسلام ﷺ؛ إذ قد انتشر خبر معجزاته منذ عصر الصحابة الذين عايشوا تفاصيل حياته عن كثب، وتداولوا فيما بينهم ذكرها.

خامسًا: علماء أهل السُّنَّة لا يردّون بإطلاق ظاهرة «الخوارق» في الأمم ذات العقائد الفاسدة، فرغم تقريرهم أنّ جلّ ما يُروى منها لا صحّة له من جهة الرواية، غير أنّ تواتر جنس خبر ظاهرة الخوارق فيهم حجّة أنّ لها أصلًا، ولذلك فأهل السُّنَّة يردّون هذه الظواهر إلى تلاعب الشيطان بأهل الغواية، ويسمّونها «أحوالًا شيطانيّة»؛ إذ هي تقترن غالبًا بعبادة القبور وأهلها، وإتيان المنكرات من كل جنس. وبذلك فالفرق بين المعجزة الدالة على صدق النبوّة والخارقة الشيطانية في حال من يجري على يديه أمر الخارقة يُردّ أولًا إلى طبيعة الخارقة؛ فإنّ خوارق الأنبياء لا يُؤتى بمثلها «فلا يملك غير الأنبياء قلب الأعيان إلى ما ليس في طبعها الانقلاب إليه؛ كقلب العصا حيّة تسعى، وأما الساحر والمارق الذي تتلاعب به الشياطين فيتصرّف بالأعراض؛ كإمراض الصحيح»[1]، وتردّ أيضًا إلى حال المتلبّس بالخارقة، أإلى الصالح من القول والعمل يدعو، أم إلى الشرك والغواية هو أقرب[2]؟ وحال النبيّ لا يلتبس على طالبه. قال شارح «الطّحاويّة»: «النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما. . . وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد

---

(١) ابن تيمية، الصفدية، تحقيق: محمد رشاد سالم (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٦هـ)، ١/١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) قال ابن تيمية: «فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان، فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة، والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك، مثل دعاء الميت، والغائب، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات؛ كالحيات، والزنابير، والخنافس، والدم، وغيره من النجاسات ومثل الغناء، والرقص، لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان، فيرقص ليلًا طويلًا، فإذا جاءت الصلاة صلّى قاعدًا، أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن، وينفر عنه، ويتكلّفه، ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذّة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد، فهذه أحوال شيطانية». (مجموع الفتاوى، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م، ١١/٣٠١ ـ ٣٠٢).

ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإنّ الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بد أن يفعل أمورًا يبيّن بها صدقه. والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبيّن به كذبه من وجوه كثيرة»[١].

خلاصة النظر:

• النبوّة مقام بلاغ للحق عن الربّ على لسان بشر، ولذلك فكلّ برهان على صدق المبلّغ حجّة لنبوّته، وما المعجزة إلا واحدة من هذه الآيات.

• القانون الطبيعي والمعجزة من خلق الله سبحانه، والله لا يعجزه أيّ منهما، وهما ليس من نقائض العقول.

• إنكار المعجزات فرعٌ عن الإلحاد وليس أصلًا له.

• الإيمان بالمعجزة فرع عن الإيمان بالله، وإنكار المعجزات أصله ـ عامة ـ مبدأ فلسفي أوّل سابق للنظر في المعجزة، وهو الإيمان بالماديّة ورفض كلّ غيب وراء المادة والطاقة والحركة العمياء.

• الحكم على صدق خبر المعجزة هو بفحص طبيعة الخبر (هل يذكر شيئًا من محالات العقول..؟)، وصدق المخبرين، ولا يضرّه أن تكون المعجزة نادرة في مقابل التكرّر العظيم عددًا لعمل السنن الكونيّة، فإنّه لا تعارض بين القانون والمعجزة، وإنّما هذا استثناء من ذاك، ولولا الندرة ما كانت المعجزة حجّة في كونٍ سُنَنيّ.

• كثرة خبر الخوارق عند أهل الديانات ليس حجّة ضد صدقها؛ لأنّ جلّ ما يُروى غير صحيح، كما أنّ من الخوارق ما يدلّ بطبيعة الخارقة ودعوى من جرت على يديه أنّها فعل شيطانيّ.

---

(١) ابن أبي العز، شرح الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد الله بن المحسن التركي (بيروت: الرسالة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م)، ص١٤٠ ـ ١٤١.

مراجع للتوسّع:

ابن تيمية، النبوات (الرياض: أضواء السلف، ٢٠٠٠م).

R. Douglas Geivett and Gary R. Habermas, eds. *In Defense of Miracles: A Comprehensive Case for God's Action in History* (Downers Grove, Ill: InterVarsity Press, 2002).

Norman L. Geisler, *Miracles and the Modern Mind: a defense of biblical miracles* (Baker Book House, 1992).

James F Sennett and Douglas R Groothuis, eds. *In Defense of Natural Theology: A Post-Humean Assessment* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2005).

Richard Swinburne, *The Concept of Miracle* (London: Macmillan, 1970).

C.S. Lewis, *Miracles* (London: Collins, 2012).

الفصل الثالث

نبوة محمد ﷺ على محك الاختبار

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ.

(إنجيل متّى ٨/ ٣٢)

بين خيارين.. محمدّ ﷺ أم غيره؟

قد يسأل سائل: لماذا يبدأ حفدنا في الطريق إلى الله ببحث نبوّة محمّد ﷺ؟ لماذا لا يكون البدء باختبار دينٍ غير دين الإسلام؟ أليس في ذلك انحياز أوّلي إلى الإسلام في مقام يقتضي الحياد البحثي؟!

لماذا اختبار نبوة محمّد ﷺ أولًا؟

يقوم الاعتراض المخالف على مُسلَّمة منهجية تقول: إنّه «عند بدء النظر، يستوي أمام الباحث كل خيار لم يُفحص بعد». وهي مقدّمة لا تُسلّم في مقامنا؛ لأننا لا نبدأ هنا من **العدم المعرفي**، بل نحن نسلك على أرض لها ملامحها الخاصة، والرِجلُ تقف في طريق يستدعينا إلى أن نسير إلى وجهة لائحة؛ فقد انتهينا في بحثنا[1] عن وجود الله وصفاته إلى وجوده وكماله، فسقط كلّ تصور كونيّ عشوائي لا يؤمن بوجود الله، كالإلحاد الدهري البادي في المذهب المادي أو البوذيّة أو أيّ دين لا يعترف بإلٰه... كما دلّنا البرهان أنّ الإلٰه واحد أحد؛

(١) في الكتاب الأول من هذه الثنائية.

فسقط كلّ تصوّر ديني تعدّدي. ونظرنا في الطريق إلى الإله الأحد، فوجدنا أنّ خير طريق إليه ـ فيما نعرف ـ هو طريق النبوّة.. ولو نظرنا في النبوّات المدّعاة؛ فسنجد أنّه لا سبيل لفحص خبرها نقديًّا؛ لأنّه لم تسلم لها وثيقة أصلية من التحريف الفاحش أو الضياع التام، إلا نبوّة محمّد ﷺ؛ فقد حُفظت لنا آثارها. وإذا انتفى إمكان العلم بتفاصيل خبر النبوّة (أي: ما جاءت به من عقيدة في الألوهية، ونظرة كونية، ومنظومة تشريعيّة، ونسق أخلاقي) امتنع إمكان نجاحها في اختبار الصدق والقداسة؛ لامتناع فحص ما لا يقبل الفحص.

ولا يلزم من سقوط ما سبق من خبر النبوّات أن تكون نبوّة محمّد الرجل ﷺ صادقة ضرورة؛ إذ إنّ الصدق لا يثبت بمحض فشل الخصوم أو البدائل، وإنّما ضعف ما سبق يقدّم ـ ضرورة ـ نبوّة محمّد ﷺ ورسالته إلى المحلّ الأوّل لمن علِم الحاجة إلى النبوّة للوصول إلى معرفة الله وحكمته من خلق الخلق.. إنّ البدء في النظر في النبوّة الصادقة بتتبّع رسالات «الأنبياء» الآخرين هو رمي في عماية؛ لأننا لا نملك بدءًا معرفة حقيقة دعوتهم، فكيف سنجتني من تتبّع رسوم آثارهم علمًا بصدق خبرهم؟!

ثمّ إنّ النبوّة المحمّدية تعرّض نفسها للامتحان بأكثر من سبيل، كما سيأتي معنا في هذا الكتاب... بل هي تقول لنا: افحصوا صدقي هنا وهناك، وحاولوا نقض حجتي بكلّ برهان متاح!

هل يلغي البحث في نبوّة محمّد ﷺ البحث في نبوة غيره؟

ولكن.. هل يلغي البحث في نبوّة محمّد ﷺ النظر في نبوّة غيره؟! أي: هل علينا أن نكمل مسير البحث في كلّ نبوّة ادُّعِيَت بعد البحث في نبوّة محمّد ﷺ حتى نطمئنّ إلى أننا قد بلغنا شاطئ اليقين؟ هو سؤال جوابه في حقيقة: أنّ «الحق واحد لا يتعدّد»، وتعدّد الحق يجعل اجتماع المتناقضات ممكنًا، وذاك محال. فإذا كان الواقع خارج أذهاننا واحدًا، وكان الشيء ونقيضه لا يجتمعان، وكان الحقّ أحاديًّا لا يتعدّد ـ إذ إنّ تعدّده ينفي عن جميعه صفة الصدق؛ فالحقيقة هي «مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان» ـ

لزم عندها أن تكون الحقيقة المنطبعة عنه ـ بصدق ـ في أذهاننا واحدة.

عمليًّا، إذا كانت نبوّة محمد ﷺ صادقة، لزِم أن تبطل كلّ نبوّة تخالف هذه النبوّة. وأمّا النبوّات التي لا تخالف نبوّته ﷺ بسبب دخولها تحتها؛ لأنّ نبوّة محمد ﷺ تشهد لها بالصدق (كنبوّة المسيح وموسى عليهما السلام)، فهي لا تمسّها بنقض، وإنّما تعضّدها.

إذا ثبتت نبوّة محمد ﷺ؛ سقطت الحاجة إلى البحث في كلّ نبوّة أخرى مخالفة؛ لأنّ الحق واحدٌ لا يتعدّد.

معالم الكشف عن النبيّ الحق:

قبل أن ننظر في تفاصيل نبوّة نبيّ الإسلام ﷺ، علينا أن نحدّد سلفًا شروطًا موضوعية صارمة لاختبار دعوى النبوّة حتّى لا نستسلم لعواطفنا أو موروثاتنا في الحكم في هذا الأمر الجليل. **ولعلّ أهم الشروط هي ما يأتي:**

- أن نعلم حياة من يدّعي النبوّة بدقائقها، حتى لا تفلت من أيدينا خيوط الخديعة أو المكر في حياته إن وُجِدت، وتتبيّن لنا معالم الصدق والحق إن ثبتت.

- أن تكون براهين نبوّته ظاهرة ساطعة يطمئنّ إليها القلب؛ فإنّ الإيمان لا يكون بغير استقرار التصديق في القلب.

- أن تكون هذه الرسالة مستعلية على الواقع الفكري والثقافي والديني المهيمن على زمن هذا الرجل الذي ينسب نفسه إلى النبوّة؛ فإنّ ربّانية الرسالة تظهر في استعلائها على الظَرفي، فهي متسلّطة على الواقع وليست أثرًا له، وإن كانت تراعي ظرفية البيئة في فقه الدعوة وأحكام الشريعة.

- ألّا تخالف عقائد هذا الرجل ودعواته الخلقية والسلوكية الفِطر وبدهيات العقول؛ فإنّ العقل المستقيم صنعة الربّ الذي أنزل الرسالات، وأوحى بالمحكمات. والعقل سبيل العلم بالنبوة وحقيقتها.

• أن تكون دعوة هذا الرجل، صالحة، مصلحة، غير خيالية ولا مثالية متنكّرة لأرضيّة الإنسان وحدود ملكاته وطبائع ميوله وغرائزه الأصيلة في نفسه.

ويلزمنا مع ما سبق أن ننأى في بحثنا عن الحقّ في نبوّة محمّد ﷺ عن عدد من الأمور، **ومنها**:

• الشكوكيّة العِناديّة التي تبحث عن مهرب من الإقرار بالحقّ إذا قامت عليه البراهين، تحت دعوى إمكان ـ مجرّد الإمكان الذهني ـ للمذهب المخالف؛ فطالب الحقّ يتّبع الدّليل حيث يقوده، ولا يستبطن الرفض المبدئيّ تحت دعوى أنّ الشكّ هو أصل البحث ومنتهاه.

• الماديّة المبدئيّة برفض كلّ تفسير فوق طبيعي وإن تعاضدت البراهين لنصرته وتقاصرت الاعتراضات المادية أن تفسّر طبيعة الحال المحمّديّة.

• الإلزامات اللاهوتيّة الواهمة التي تريد قسر الإلٰه على مخاطبة خلقه على صورة مخصوصة بسبيل مخصوص دون غيره. والأصل هو النظر في البعثة المحمّدية وحقيقة دلالتها على الأصل العلوي غير البشري، لإدراك ربّانيّتها دون التخوّض في أوهام جدليّة ميتافيزيقية ليس وراءها طائل.

البحث في نبوّة محمّد ﷺ قائم على الأخذ بأحد خيارين، صدق أو دجل؛ فلا يكفي لدفع نبوّته أن يردّ المخالف خيار النبوّة، وإنّما عليه أيضًا أن يدفع نكارة الخيار المخالف الذي سنسوقه في مبدأ كل مبحث.

الباب الثاني

دلالة السيرة على نبوّة محمّد ﷺ

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾ [المؤمنون: ٦٩].

لقد بحثت في التاريخ عن الإنسان النموذج، ووجدته في محمّد.

(الشاعر الألماني الكبير Goethe)

تمهيد

معرفة دلالات سِيَر الشخصيات العامة المؤثّرة في مجرى حركة التاريخ ومبدَؤُها الإجابة عن الأسئلة الثلاثة التالية:

- كيف عاش؟
- ماذا قدّم من براهين لإثبات صدقه؟
- ماذا جنى الناس من سعيه وحَفده؟

سنطلق العنان في الصفحات القادمة ليد البحث تحفر في أرض التاريخ بعد أن عفّرها تراب الأيام، وتنصب محاكم النقد والتحقيق في أمر حقيقة السيرة النبويّة ودلالتها على ظاهر حال نبيّ الإسلام ﷺ وطويّته.. فلنصخ السمع لرهائف الكلام وحفيف الهمس في أغوار الماضي.

طريق اختبار السيرة لاختبار صدق نبوة محمد ﷺ هو النظر في حال الداعي، وبراهين دعواه، وثمرة رسالته.

الفصل الأول

الشرط الأول لإثبات النبوة
حفظ السيرة ومضمون الدعوة

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجُرات: ٦].

لو لم يكن الإسناد وطلب هذه الطائفة له، لظهر في هذه الأمة من تبديل الدين ما ظهر في سائر الأمم، وذاك أنه لم يكن أمّة لنبيّ قطّ حفظت عليه الدين عن التبديل ما حفظت هذه الأمة.

(ابن حبان)

بين خيارين.. سيرة محفوظة للسائلين أم جهالة وأساطير؟

يقرّ المسلمون أنّ «الحكم على الشيء، فرع عن تصوّره»؛ فالحكم على الشخص ومذهبه، وما يفرح به من ينتسبون إليه وإلى فكرته، فرعٌ عن معرفة الشخص ومعرفة دعوته، ولذلك فعُمدة المسلمين في إثباتهم النبوّة لمحمّد ﷺ أنّ حياة نبيّ الإسلام ﷺ ودعوته والآيات التي أظهرها حجّةً لنبوّته محفوظةٌ بعناية في سِفر التاريخ. ويرتّب المسلمون على ذلك قولهم: إنّ حفظ التراث النبوّي بعناية على أصول علميّة منضبطة، يلزم منه الإقرار بصحّة هذه النبوّة لدلالة مضمون المحفوظ على المطلوب.

ويرى خصوم الإسلام أنّ التراث النبويّ قد خلقته الأجيال الإسلاميّة اللاحقة، وأنّ المحفوظ لا تقوم به حجّة في محكمة التاريخ.

والحُكم العدل في هذا النزاع أثرٌ عن النظر في المنهج الإسلامي لحفظ السيرة ومدى إمكانيّة تسلّل التحريف والتزييف إلى صحائف التراث الإسلامي.

ولكن قبل ذلك علينا أن ننظر في دعوى المسلمين أنّه «يلزم من حفظ السيرة المحمديّة، صحّة النبوّة»؛ فإنّها دعوى مثيرة، ولوازمها عظيمة.

حفظ السيرة.. نهاية الجدل لا أوّله:

يتّفق عامة النقّاد أنّه لو سلّمنا صحّة تاريخية كلّ ما في الأناجيل أو عامة ما فيها، فسيبقى هناك باب واسع للجدل في حقيقة رسالة المسيح (التوحيد، وجوب العمل بالشريعة، الفداء...)، ومبلغ فهمنا لها، ولذلك فتوثيق سيرة المسيح بداية النظر للوصول إلى حقيقة المسيح، وليس نهاية المطاف؛ فإنّ النصوص لا تشفّ عن حقيقة الرسالة بصورة أوّليّة.

وأمّا نبيّ الإسلام ﷺ، فالمتّفق عليه بين عامة المستشرقين ـ وإن دون تصريح ـ أنّ التسليم بحجيّة المحفوظ في السيرة، سواء دون إعمال قواعد النقد الحديثية أو بعد ذلك، لا بدّ أن يؤول إلى التسليم بنبوّته ﷺ؛ ولذلك فإنّ مسألة حفظ السيرة النبويّة ـ بمعنى حجيّتها التاريخية ـ هي نهاية الجدل وخاتمة البحث في نبوّة نبيّ الإسلام ﷺ.

وقد بلغ استشعار المستشرقين والمنصّرين الحرج من القيمة الدلالية لمحفوظ السيرة كما في الكتب التراثية أن سلّطوا على هذا التراث النقدَ العنيف في أشدّ أوجه التعنّت، وسوء الظنّ، وإعمال الحدس وإرسال الخيال، مكان الحجة المُحكمة والروايات المُسندة؛ حتى ظهرت بينهم دعاوى تنكر وجود نبيّ الإسلام ﷺ، وتجعل الإسلام امتدادًا لفرقٍ نصرانية قديمة، أو تجعل اسم (محمد) لقبًا للمسيح لا اسم عَلَمٍ لرجل عاش في القرن السابع[١]. وهي دعاوى يكفي فسادها لإفسادها.

ولذلك، لنا أن نقول بكلّ ثقة: إنّك إنْ سلّمت بصدق المذكور في هذا

---

(١) كما هو قول المستشرق الألماني (Karl-Heinz Ohlig). ومن نوادره قوله: إنّ القرآن قد ظهر في بلاد الرافدين (!)

Der frühe Islam: eine historisch-kritische Rekonstruktion anhand zeitgenössischer Quellen (Hans Schiller Verlag, 2008).

الفصل؛ فيلزمك ـ ضرورة ـ التسليم لنبوة محمّد ﷺ ـ بإقرار عامة المستشرقين والمنصّرين ـ.

وليست المسألة هنا متعلّقة بالجدل في وجود اختلاقات أو حتّى أساطير في السيرة صنعتها الأجيال الأولى، فهذا أمر يسلّمه كلّ علماء الحديث للمستشرقين؛ فقد قال التابعي (ابن سيرين) ـ المتوفّى سنة ١١٠هـ ـ: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا: سمُّوا لنا رجالكم، فيُنْظَرُ إلى أهل السُّنَّة فيُؤْخذ حديثُهم، ويُنْظَر إلى أهل البدعة فلا يؤخذ حديثهم»[١]، بما يُظهر أنّ التحقّق من صدق المرويات قد ظهر منذ القرن الأوّل الهجري لمّا نجمت في الأمّة طوائف وطبقات من الناس تستحلّ الكذب، نصرة لمذهبهم، أو نصرة للدين بزعمهم، فوجود المكذوب المصنوع في التراث الإسلامي أمر كشفه علماء الحديث منذ القرون الأولى، قبل أن يُعرف للاستشراق وجود أو تظهر للمخالفين للإسلام أدبيات النقد لآثار السيرة النبويّة؛ فإنّ علم الحديث لم يظهر إلّا ليميز الصحيح من خبر نبيّ الإسلام ﷺ عن واهيه وزائفه.

نبي الإسلام.. معلوم بين مجاهيل:

شهد كثير من المؤرّخين أنّ الشخصية الوحيدة من الأنبياء التي يملك التاريخ ـ بمحفوظاته ـ أن يحدّثنا عنها تفصيلًا، هي شخصية (محمد) ﷺ؛ لتوافر الوثائق التاريخية القابلة للنقد والناطقة بالحق. ومن ذلك قول الباحث الألماني الشهير والطعّان في تاريخية أخبار أناجيل النصارى (جورج ألبرت ويلز)[٢]: «الأدلّة المتعلّقة [بتفاصيل سيرة] عيسى غير شافية. لو كانت سيرته لها شهادات جيّدة كما هو الأمر مع يوليوس قيصر، **ومحمّد**، والملكة آن، لما احتاج أحد إلى تشويه الأدلّة المتعلّقة بذلك باعتبارها تؤسّس لمحض

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

(٢) جورج ألبرت ويلز George Albert Wells (١٩٢٦ ـ ٢٠١٧م): باحث بريطاني. من أهم الذين دافعوا عن دعوى أسطوريّة شخصية المسيح وأنها لم توجد، ثم غيّر مذهبه إلى القول: إنّ المسيح قد عاش في القرن الأول لكنّ عامة ما يُنسب إليه أسطوري. من مؤلفاته:
"Cutting Jesus Down to Size: What Higher Criticism Has Achieved and Where It Leaves Christianity".

احتمالات وأن يبحث في مكان آخر عن اليقين»[1].

إنّ كلّ الأنبياء الذين يؤمن بهم اليهود والنصارى لا سبيل لإثبات وجودهم التاريخي استقلالًا من وثائق محايدة، حاشا المسيح ويحيى عليهما السلام[2]، وإن كانت الشهادة قاصرة على وجودهما التاريخي دون قطع في شأن المسيح وإنما بمحض ترجيح. أمّا (محمّد) ﷺ، فيضطر كل منصف قرأ دواوين سيرته، ونظر في أسانيدها ومتونها، أن يشهد أنه يعرف عنه ما لا يعرفه هو نفسه عن كثير من معاصريه.

وقد أحسن (ابن تيمية) إذ قال ـ صدقًا ـ: «ليس في الدنيا علمٌ مطلوبٌ بالأخبار المتواترة إلّا والعلم بآيات الرسول وشرائع دينه أظهر من ذلك، وما من حال أحدٍ من الأنبياء والملوك والعلماء والمشايخ المتقدّمين وأقواله وأفعاله وسيرته إلّا والعلمُ بأحوال محمّد ﷺ أظهرُ من العلم به»[3].

لا سبيل لامتحان صدق الدعوة الأولى للمسيح عليه السلام؛ لأنّها غير قابلة للاختبار بسبب ضياع الأسانيد وضعف كلّ الشواهد الأخرى لحياته ورسالته.

وقد شهد لميزة حفظ السيرة النبويّة في تاريخ الأنبياء المستشرق (بنيامين بوزمورث سمث) ـ أحد **أساقفة**[4] الكنيسة المشيخية في أمريكا ـ بقوله في كتابه: «محمد والمحمديّة»: «كلّ ما يُقال في الدين يغلب فيه الجهل ببدايته.

---

(١) George Wells, *Belief and Make-Believe: Critical Reflections on the Sources of Credulity* (New York: Open Court, 1991), p.121.

(٢) ذكر المؤرخ اليهودي (يوسيفوس) الذي عاش في القرن الأول خبر مقتل (يحيى) عليه السلام على يد (هيرودس) (*Antiquities of the Jews*, book 18, chapter 5). وروايته مخالفة في تفاصيلها لما جاء في إنجيل مرقس ٦/١٧ ـ ٢٩؛ إذ ردّ (يوسيفوس) قتل (يحيى) عليه السلام لخوف (هيرودس) من اندلاع ثورة يقودها هذا الرجل صاحب الصيت والقبول بين الناس، على خلاف ما ادّعاه مؤلّف إنجيل مرقس من أنّ سبب قتل هذا النبي أن ابنة زوجة (هيرودس) قد طلبت من (هيرودس) ذلك بإيعاز من أمّها (بعد أن رقصت أمامه) لرفض (يحيى) عليه السلام زواج (هيرودس) من زوجة أخيه. وعامة النقاد على فساد الرواية الإنجيلية Robert H Eisenman, *James the brother of Jesus and the Dead Sea Scrolls. II*, (Nashville: Grave Distractions Publications, 2012), p.22.

(٣) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ٦/٣٤٩.

(٤) أسقف: رتبة كنسيّة عالية لرجل دين نصراني قائم على عدد من الكنائس.

ومما يؤسف عليه أنّ هذا يصحّ إطلاقه على جمهور الديانات وعلى أصحابها الذين نعدّهم تاريخيين؛ لأنّنا لا نعلم وصفًا أحسن من هذا الوصف؛ فإنّنا قلّما نعلم شيئًا عن الذين كانوا في طلائع الدعوة. والذي نعلمه عن الذين جاؤوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن أصحاب الدعوة الأوّلين؛ فالذي نعلمه من شؤون زرادشت وكونفوشيوس أقلّ من الذي نعلمه عن سولون وسقراط. والذي نعلمه عن موسى وبوذا أقلّ مما نعلمه عن أمبروز وقيصر. **ولا نعلم من سيرة عيسى إلّا شذرات تتناول شُعبًا قليلة من شُعب حياته المتنوّعة والكثيرة.**

ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شؤون ثلاثين عامًا في تمهيد واستعداد لثلاثة أعوام لنا علم بها من حياته؟! **وكثير من صفحات حياته لا نعلم عنها شيئًا أبدًا.** وما الذي نعلمه عن أمّ المسيح، حياته في بيته، وعيشته العائلية؟ وما الذي نعلمه عن أصحابه الأوّلين وحوارييه، وكيف كان يعاملهم، وكيف تدرّجت رسالته الروحية في الظهور، وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته؟ وكم من أسئلة تجيش في نفوسنا لن يستطيع أحد أن يجيب عنها إلى يوم القيامة.

أمّا الإسلام فأمره واضح كلّه، ليس فيه سرّ مكتوم عن أحد، ولا غُمّة يَنبهم أمرها على التاريخ؛ **ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح**، وهم يعلمون من أمر محمّد ﷺ كالذي يعلمونه من أمر لوثر[1] وملتون[2]. وإنّك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأوّلون أساطير ولا أوهامًا ولا مستحيلات، وإذا عرض لك طرفٌ من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة؛ فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره، والأمر كلّه واضح وضوح النهار؛ كأنّه الشمس وقت الضحى، يتبيّن أشعة نورها كلّ شيء»[3].

---

(١) مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م): قسيس. لاهوتي ألماني. أحد أبرز روّاد الخروج عن الكنيسة الكاثوليكية وتأسيس التيّار البروتستانتي.

(٢) جون ملتون John Milton (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤م): شاعر من أعظم شعراء الإنجليز. صاحب القصيدة الشهيرة: "Paradise Lost".

(٣) Benjamin Bosworth Smith, *Mohammed and Mohammedanism* (London: John Murray, 1889), p.47.

وبعبارة المستشرق والمؤرّخ ـ العنصري ـ الفرنسي (إرنست رينان)[1] الذي ألّف كتابه المثير «حياة يسوع»[2]، ودشّن به مرحلة جديدة في القراءة النقدية لتاريخيّة الأناجيل بسلبها كثيرًا من المصداقية الموروثة: «نشأت جذور الإسلام في مرأى التاريخ **على خلاف الغموض الذي تغلّفُ به الأديان الأخرى أصولها**، إنّ جذور الإسلام ظاهرة على سطح التاريخ. **وسيرة مؤسّسه معروفة لنا كمعرفتنا بسِيَر أيٍّ من مصلحي القرن السادس عشر**»[3].

إنّنا أمام أمرٍ فَرْدٍ في تاريخ من انتسبوا إلى النبوّة!

مصادر السيرة الأساسية:

الحديث الشعبي لخصوم الإسلام في الغرب يختصر الجدل حول توثيق السيرة النبويّة في القول: إنّ الحديث في تأريخ حياة نبيّ الإسلام ﷺ قد بدأ في القرن الثالث من كتّاب متّأخرين دافعهم الرغبة في تمجيد نبيّهم.. إنّها ـ عندهم ـ كتابات رجال حبّروا الأوراق من وحي خيالهم، أو ترديدًا لخرافات سيّارة دون تحقيق.. **فهي**:

١ ـ مصادر متأخرّة.

٢ ـ غير محقّقة.

والقارئ للتاريخ، ممن يحسنون الرجوع إلى الوثائق ويعرفون خبرها، لا يجد شيئًا أبعد عن الحقيقة من الدعوى السابقة؛ لأنّ التاريخ يشهد على بطلانها دون جمجمة.. وهاك ذكر أهمّ مصادر السيرة النبويّة:

القرآن الكريم:

يوفّر لنا القرآن الكريم الكثير من المعلومات والتفاصيل التي تعين

---

(١) إرنست رينان Ernest Renan (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م): مستشرق ولغوي ومؤرّخ فرنسي. كانت أطروحته للدكتوراه عن فلسفة (ابن رشد). من مؤلفاته: "Histoire des origines du christianisme".

(٢) *Vie de Jésus*, 1863

(٣) Ernest Renan, Mahomet et les Origines de l'Islamisme, *Revue des Deux Mondes, Nouvelle période*, tome 12, 1851 (p.1025).

الباحث على معرفة نشأة الدعوة، وخصومها، وتطوّراتها، وغير ذلك من الأمور التي تضيء درب القارئ في السيرة. والقرآن بذلك أعظم مصدر تأريخيّ لحياة نبيّ الإسلام، سواء آمن القارئ بربّانيته أم جحدها، فالقرآن يصوّر الأحداث الآنية بتتابعها، ومآلاتها، ودوافعها، محايثٌ بخبره لمجرى الأحداث. . .

نحن نجد في القرآن حال نبي الإسلام ﷺ قبل الرسالة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضُّحى: ٦ ـ ٨].

وحاله ﷺ أوّل نزول الوحي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزَّمل: ١ ـ ٨].

وما أُمِر به في أوّل الأمر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدَّثر: ١ ـ ٣].

وحال خصوم الدعوة ولجاجتهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٦].

والمنافقين ومسالك فتنتهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

وما يعتلج في نفس نبيّ الإسلام ﷺ من حزن وكرب: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، و﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦].

وما يختلج في صدور أصحابه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، و﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟

﴿ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾ [الأنبياء: ٢ ـ ٣].

كما جاء في القرآن ذكر ما اتُّهم به نبي الإسلام ﷺ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾ [الزُّخرُف: ٣٠]، و﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ [الأنبياء: ٥]، و﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٢].

وجاء فيه أمر إذاية المشركين له ﷺ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾ [الأنبياء: ٣٦].

كما زخر القرآن ببيان موقف أهل الكتاب، وخصومتهم للدعوة، وتحدّيهم لها.

لقد تحدّث القرآن الكريم عن فجر الدعوة، وغربة المسلمين واستضعافهم، وعلاقتهم بالمشركين واليهود، وصبرهم وبلائهم، وخذلان الناس لهم وتآمر الماكرين بهم، وعن تميّزهم الديني وبراءتهم من عقائد خصومهم، وعن هجرتهم.. كما جاء فيه خبر الواقع العقدي والسياسي والاقتصادي في مكة والمدينة، وتدرّج الدعوة في مراحل البلاغ والتمكين..

ومما يتّصل بالقرآن الكريم في دلالته على السيرة، كتب التفسير المُسندة التي تروي الأخبار المتعلّقة بتفسير الآيات، وأسباب نزولها وظروفها التاريخية، ومنها «التفسير» للإمام (ابن وهب) ـ المتوفّى سنة ١٩٧هـ ـ، وتفسير (يحيى بن سلام) ـ المتوفّى سنة ٢٠٠هـ ـ، وتفسير الإمام (عبد الرزّاق) ـ المتوفّى سنة ٢١١هـ ـ، وتفسير (عبد بن حميد) ـ المتوفّى سنة ٢٤٩هـ ـ، وتفسير الإمام (النسائي) ـ المتوفى سنة ٣٠٧هـ ـ...

والمستشرقون ـ عامة ـ على قبول صحّة توثيق القرآن لأحداث السيرة، وقد قال بمرجعيّته أشدّ المستشرقين طعنًا في الحديث النبوي، مثل الراهب

والمستشرق البلجيكي (هنري لامنس)[1] الذي غلا في الشكّ حتّى إنّه عدّ كتب الحديث كلّها موضوعة لأجل تمجيد نبيّ الإسلام ﷺ[2]!

كتب الحديث والسيرة والشمائل والدلائل:

المصدر الأغزر للسيرة النبوية هو الدواوين العظيمة التي اهتمّت بعامة حياة الرسول ﷺ أو ببعض حياته أو صفاته. وقد اعتنى العلماء منذ بواكير الإسلام بنقل الخبر، ووضعوا لذلك القواعد وأصّلوا الأصول، ولم يكن همّهم تجميع الأخبار لقصد المتعة أو الإثارة.

وقد شهد للتميّز الإسلامي في حفظ السيرة منذ زمن مبكّر المستشرقُ اليهودي (برنارد لويس)[3] ـ المعروف بمواقفه السلبيّة من الإسلام ـ في قوله: «أدرك علماء الإسلام في مرحلة مبكّرة خطر الشهادات المزيّفة وبالتالي العقائد الباطلة؛ ولذلك طوّروا علمًا مفصَّلًا لنقد الحديث. يتميّز «علم الحديث» ـ كما كان يُسمّى ـ من عدّة نواح عن النقد المصدري التاريخيّ الحديث، وقد اختلف العمل العلمي الحديث دائمًا مع تقديرات العلماء التقليديين حول صحّة الروايات القديمة ودقّتها، ولكنّ نقد علماء الحديث الدقيق للأسانيد وجمعهم الدقيق للاختلافات واحتفاظهم بها في نقل الروايات يعطي لعلم التأريخ العربي في القرون الوسطى مِهنيّة ومراسًا لا نجد له نظيرًا في القديم ولا مماثلًا في القرون الوسطى في الغرب. وبمقارنة علم الحديث بعلم التاريخ في العالَم المسيحي اللاتيني، يبدو الثاني فقيرًا وهزيلًا. بل حتّى علم التاريخ في العالم المسيحي اليوناني، والذي هو أكثر تقدّمًا وتعقيدًا، يقصر هو أيضًا عن مضاهاة

---

(١) هنري لامنس Henri Lammens (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧م): مستشرق يسوعي بلجيكي، متعصّب ضدّ الإسلام. من مؤلفاته: "L'Islam: croyances et institutions".

(٢) عبد الرحمٰن بدوي، موسوعة المستشرقين (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣)، ص٥٠٣

(٣) برنارد لويس Bernard Lewis (١٩١٦م ـ): أستاذ متقاعد من جامعة برنستون. له عناية خاصة بتاريخ الإسلام وعلاقة الإسلام بالغرب. متحالف مع اللوبيات المحرضة على البلاد ذات الأغلبية المسلمة. من مؤلفاته: "The Jews of Islam".

الأدبيات التاريخية الإسلاميّة من نواحي الحجم والتنوّع والعمق التحليلي»[١].

وأمّا المؤرخ النصراني اللبناني (أسد جبرائيل رستم) فقد كان أعظم إنصافًا في مقدمة كتابه «مصطلح التاريخ» لعلم الحديث؛ إذ قال: «أوّل من نظّم نقد الروايات التاريخية ووضع القواعد لذلك علماء الدين الإسلامي، فإنّهم اضطروا اضطرارًا إلى الاعتناء بأقوال النبيّ، وأفعاله لفهم القرآن وتوزيع العدل. . . فانبروا لجمع الأحاديث ودرسها وتدقيقها فأتحفوا علم التاريخ بقواعد لا تزال، في أسسها وجوهرها، محترمة في الأوساط العلميّة حتّى يومنا هذا»[٢]. وقد تعرّض بتفصيل ـ في ذات الكتاب ـ إلى النقد الإسلامي لأسانيد الأخبار ومتونها، لفظًا ومعنى.

وبعيدًا عن علم الدارسين بحقيقة علم الحديث، يذهب عامة خصوم الإسلام في الغرب إلى تكرار الشبهة الاستشراقية الأبرز، وهي القول: إنّ تدوين السيرة النبوية قد تأخّر إلى القرن الثالث الهجري، وداخَلَ السيرة لذلك كثيرٌ من الزيف والوهم. وهو زعم منتقض من **ثلاثة أوجه**:

الأوّل: أنّ السيرة ثابتة في القرآن كما سبق توضيحه، كما أنّه قد بدأ تدوينها منذ القرن الأول الهجري. .

الثاني: أنّ هذه الشبهة الاستشراقية توهم القارئ الغربي أنّ رجالًا من القرن الثالث قد قرّروا كتابة السيرة، فجمعوا الكلام الشائع، من مراسيل وأقاويل لا أصل لها، ثم صاغوها في قالب روائي (كما الأناجيل). والحقيقة هي غير ذلك؛ فإنّ نقل السيرة قد قام على أصل الإسناد، ومن ألّفوا في هذا الباب، سعوا جهدهم لجمع الروايات في خبر نبي الإسلام ﷺ، فليس الأمر عندها تأليفًا للسيرة في القرن الثالث، وإنّما قد ازدهر في القرن الثالث جمعُ أخبار الرسول ﷺ في مؤلّفات علميّة تخصّصية مرتّبة المواضيع بأسانيد يبلغ طرفها الآخر نبي الإسلام ﷺ، فقد كان الشائع قبل ذلك جمع المرويات دون

---

(١) Bernard Lewis, *Islam in History: Ideas, People, and Events in the Middle East* (Chicago: Open Court, 1993), p.105.

(٢) أسد رستم، مصطلح التاريخ (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م)، ص٥ ـ ٦.

ترتيب منهجي (في الأحكام والآداب...)، وأمّا السيرة فالنسق الروائي المنظم فيها قديم.

الثالث: هو أنّ دخول الضعيف والموضوع إلى السيرة معلوم، لم يبادر بكشفه المستشرقون، ولم يُصدم بالعلم به المسلمون المعاصرون؛ إذ قد قام علم الحديث منذ عصور الأجيال الإسلامية الأولى بتأسيس قواعد للتمييز بين الصحيح وما يُردّ لفساد سنده أو متنه.

وقد ابتدأ جمع الحديث منذ القرن الأول الهجري، وتطوّر الأمر إلى التصنيف بترتيب الأحاديث على المواضيع، وبلغ ذروته باقتصار عدد من العلماء على ذكر الأحاديث المقبولة ـ الصحيحة ـ فقط. وأُنجزت أهم المصنّفات الحديثية بداية من القرن الثالث.

والمصنّفات الحديثية المُسندة المقتصرة على قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره وصفته، مستوعبة لعامة خبر الرسول ﷺ الدعوي، والاجتماعي، والأُسَري، والشخصيّ... وهي مادة تاريخية غزيرة جدًّا تُنشئ في القارئ إحساسًا قهريًّا أنّه قد صار قريبًا من حياة نبي الإسلام ﷺ قرب أصحابه منها؛ فقد صار عليمًا بأدقّ تفاصيله الحياتية، ودفين هواجسه النفسيّة، وهو أمر لم تعرفه البشريّة مع أحد ممن حفظت ذكره صحائف التاريخ.

وبالإضافة إلى أنّ قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره، هو قلب المصنّفات الحديثية، أفرد العلماء أبوابًا في مؤلفاتهم لذكر خصائص الرسول ﷺ وشمائله ومعجزاته وغزواته، وكثير من خبره، فكانت بذلك مباشرة في نقلها للسيرة النبويّة ممّا يُغني السائل والباحث عن طلب المزيد.

ولنأخذ كمثالٍ صحيحَ (البخاري)، واسمه الذي اختاره له (البخاري) هو: «الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه»، فعنوان هذا المصنَّف كاشف عن ارتباطه العميق المباشر بالسيرة النبويّة، وهو داخل ضمن أجناس «الجوامع»، والجامع هو ما لا يقتصر على جانب واحد من النقل الحديثي، على خلاف «السنن» ـ مثلًا ـ الخاصة

بالأحكام حصرًا. وقد جمع (البخاري) في كتاب «المغازي» ـ مثلًا ـ ضمن صحيحه (٥٤٨) خبرًا ورواية، وهو كثير في هذا الموضوع وحده.

كما ألّف علماء الإسلام منذ زمن مبكرٍ في السيرة النبوية مفردةً، مثل: كتاب «السيرة الصحيحة» لـ(سليمان بن طرخان التيمي) ـ المتوفّى سنة ١٤٣هـ ـ، و(ابن إسحاق) ـ المتوفّى سنة ١٥١هـ ـ صاحب «السيرة» الشهيرة، وكتاب (ابن سعد) ـ المتوفى سنة ٢٣٠هـ ـ «الطبقات الكبرى» ـ الجزء الأول ـ. . .

واعتنى العلماء أيضًا بالشمائل النبوية، فألّف الإمام (الترمذي) ـ المتوفى سنة ٢٧٩هـ ـ كتابه «الشمائل»، وللحافظ (أبي الشيخ) ـ المتوفّى سنة ٣٦٩هـ ـ كتاب «أخلاق النبي ﷺ وآدابه»، وللحافظ (المستغفري) ـ المتوفّى سنة ٤٣٢هـ ـ كتاب «شمائل النبي ﷺ». . .

وكتب عدد من العلماء في صفات مخصوصة لنبيّ الإسلام ﷺ أو بعض الأمور المخصوصة في السيرة، فألّف (أبو البختري وهب بن كثير القرشي) ـ المتوفى سنة ٢٠٠هـ ـ كتابه «صفة النبيّ ﷺ»، وألّف الحافظ (البرقي) ـ المتوفّى سنة ٢٤٩هـ ـ كتابه «أخلاق النبي ﷺ»، وألّف (الزبير بن بكار) ـ المتوفّى سنة ٢٥٦هـ ـ كتابه «مزاح النبي ﷺ»، وألّف الإمام (ابن المديني) ـ المتوفّى سنة ٢٣٤هـ ـ، كتابه «صلح النبي ﷺ»، وألّف الإمام (أبو داود السجستاني) ـ المتوفّى سنة ٢٧٥هـ ـ، كتابه «معيشة النبيّ ﷺ».

وأُلّفت في مراحل من حياة الرسول ﷺ كتبٌ مفردة، مثل: «المولد» (لمحمد بن عايذ القرشي) ـ المتوفى سنة ٢٣٣هـ ـ، و«مولد النبيّ ﷺ» للحافظ (أبي بكر الشيباني) ـ المتوفّى سنة ٢٨٧هـ ـ، و«المولد والوفاة» (لأبي القاسم حسين بن مفرج) ـ المتوفّى سنة ٣٠٨هـ ـ.

كما أُلّفت في خطب الرسول ﷺ مصنّفات، مثل: «خطب النبيّ ﷺ» للحافظ (أبي الحسن المدائني) ـ المتوفّى سنة ٢٢٥هـ ـ، وألّف كلّ من الحافظ (أبي نعيم الأصبهاني) ـ المتوفّى سنة ٤٣٠هـ ـ، والحافظ (المستغفري) ـ المتوفى سنة ٤٣٢هـ ـ مصنَّفين بالعنوان السابق نفسه.

وجُمعت مؤلفات كثيرة جدًّا في غزوات الرسول ﷺ، مثل ما كتبه (أبان)

ابن الخليفة (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، والي المدينة ـ المولود سنة ٢٠هـ، و(عروة) ابن الصحابي (الزبير بن العوّام)، ـ المتوفى سنة ٩٤هـ[١] ـ، و(موسى بن عقبة) ـ المتوفّى سنة ١٤١هـ ـ، و(معمر بن راشد) ـ المتوفّى سنة ١٥٤هـ ـ، و(محمد بن إسحاق) ـ المتوفّى سنة ١٥١هـ ـ، و(نجيح بن عبد الرحمٰن) ـ المتوفّى سنة ١٧٠هـ ـ، و(عبد الملك ابن حزم الأنصاري) ـ المتوفّى سنة ١٧٦هـ ـ، والحافظ (ابن وهب) ـ المتوفى سنة ١٩٧هـ ـ وغيرهم..

وأُلّفت في الأمور الشخصيّة للرسول ﷺ كتب مفردة، مثل: كتاب «أسلاف النبيّ ﷺ» (لمحمد بن إسحاق المسيبي) ـ المتوفى سنة ٢٣٤هـ ـ، و«تركة النبي ﷺ والسبل التي وجهها فيها» (لحماد بن إسحاق بن إسماعيل) ـ المتوفّى سنة ٢٦٧هـ ـ، و«أموال النبي ﷺ وكتّابه» للحافظ (أبي الحسن المدائني) ـ المتوفى سنة ٢٢٥هـ ـ...

كما صنّف علماء الإسلام كتبًا في دلائل النبوّة بالأسانيد منذ العصور الأولى، مثل «دلائل النبوة» للحافظ (أبي زرعة الرازي) ـ المتوفّى سنة ٢٦٤هـ ـ، و«أعلام النبوة» للإمام (أبي داود السجستاني) ـ المتوفّى سنة ٢٧٥هـ ـ، و«معجزات النبي ﷺ» للإمام (ابن قتيبة) ـ المتوفّى سنة ٢٧٦هـ ـ، و«أعلام النبوّة» للحافظ (أبي حاتم الرازي) ـ المتوفّى سنة ٢٧٧هـ ـ، و«دلائل النبوة» للحافظ (ابن أبي الدنيا) ـ المتوفّى سنة ٢٨١هـ ـ، و«دلائل النبوة» للحافظ (إبراهيم بن إسحاق الحربي) ـ المتوفّى سنة ٢٨٥هـ[٢] ـ...

وألّف العلماء مصنّفات في تاريخ الإسلام عامة، بدءًا من البعثة النبوية، أو ما قبلها، أو في تاريخ بعض بلاد المسلمين الهامة. من الصنف الأول،

---

(١) جمعَ المحفوظ منه د. (محمد مصطفى الأعظمي)، ونشره تحت عنوان «مغازي رسول الله ﷺ برواية أبي الأسود يتيم عروة» (الرياض: مكتبة التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨١م).

(٢) انظر لمزيد إفاضة وبيان في مصادر السيرة: فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها (دمشق: دار القلم، ٢٠٠٤م)، ومحمد يسري سلامة، مصادر السيرة النبوية، ومقدمة في تدوين السيرة (القاهرة: دار الجبرتي، ١٤٣١هـ)..

نذكر «تاريخ» (خليفة بن خياط) ـ المتوفى سنة ٢٤٠هـ ـ، و«المعروف والتاريخ» (ليعقوب الفسوي) ـ المتوفى سنة ٢٧٧هـ ـ، ومن الصنف الثاني كتاب «أخبار مكة» (للأزرقي) ـ المتوفى سنة ٢٤٤هـ ـ، و«أخبار مكة» (للفاكهي) ـ المتوفى سنة ٢٧٢هـ ـ، و«تاريخ المدينة» (لعمر بن شبّة) ـ المتوفّى سنة ٢٦٢هـ ـ. . .

نحن إذن أمام مادة غزيرة، فضيلتها الأولى الجمع المستوعب للأخبار، وفضيلتها الثانية أنها منقولة بالأسانيد ـ حتى لو كان فيها انقطاع ـ؛ ولذلك كانت بهاتين الفضيلتين قابلة للفحص النقدي على الأصول التي وضعها عباقرة أهل الحديث[١].

عبقرية المنهج الإسلامي في الحكم على الروايات:

قد يقول معترض: كلّ ما سبق دال على جمع الرويات بأسانيدها. . وليس هذا هو ما نريد؛ إذ ليس من وراء ذلك طائل. ما نريده هو بيان صحّة هذه المرويات. والعقل لا يمنع أنّ يكون في الحديث النبوي الكثير من الروايات التي صنعتها الأجيال المسلمة انتصارًا لعقائدها، ومنها تمجيد نبيّ الإسلام ﷺ، والانتصار لنبوّته. وقد تعامل علماء الإسلام مع الروايات التي وصلتهم بتهاون شديد، وإحسان ظنّ واضح بالرواة؛ ولذلك لا يُسلَّم لهذه الروايات ما انتهت إليه في إثبات نبوّة محمّد ﷺ.

وجواب الاعتراض السابق يأتيك من أوجه:

الوجه الأول: جمعُ الروايات بأسانيدها أمر عظيم، وجليل، وهو من فرائد المسلمين؛ إذ ليس لليهود ولا النصارى أسانيد متّصلة إلى المسيح أو

(١) نحن نوافق من يميّز بين نقد أحاديث الأحكام ونقد روايات السيرة؛ إذ إنّ منهج فحص المرويات التاريخية لا يلغي صحّة الخبر التاريخي إذا كان في إسناده مقال؛ فعامة أخبار التاريخ لم تُنقل بالأسانيد السليمة من الآفات، ولكنّنا نضيف هنا أنّ البتّ في أمر النبوّة يقتضي مراعاة قدر عال من الشكوكية لعظيم قدر الموضوع ودقيق مباحثه؛ ولذلك لا يستغني الباحث في الأمر عن منهج المحدّثين لعدم وفاء منهج الأخباريين وعامة المؤرّخين بالمطلوب في مقام الحسم في نبوّة رجل عاش في زمان مضى.

(موسى) عليه السلام. ومعلوم أنّه لا سبيل للعلم بصحّة المرويات قبل جمعها، **فالتحقيق تابع للتجميع**. وما قام به علماء الأمّة من جمع ذاك الكمّ الهائل من المرويات، بما فيه الروايات المكذوبة الموضوعة، لهو من المفاخر التي تصل إلى حدّ الإبهار.

وإنّ في جمع الروايات الضعيفة والموضوعة مع الروايات الصحيحة مزيّة جليلة لا يقدّرها حقّ قدرها غير من مارس صناعة «قراءة التاريخ»؛ إذ إنّ الروايات باطلة المتون تفضح بعض رواتها، وترفع عنهم ستر الجهالة، وهو ما يفيد أيضًا في الحكم على الروايات إذا تعارضت، فيُطرح المنكر ويقبل مخالفه إذا استوفى شروط الصحّة.

الوجه الثاني: نظرُ العلماء في خبر السيرة النبويّة من خلال المصنّفات المسندة ليس ساذجًا غريرًا ـ كما زعم المستشرقون ـ؛ فقد علِم علماء المسلمين أنّ روايات السيرة تجمع الصحيح والضعيف قبل قرون من ظهور الاستشراق ومدارسه؛ ولذلك قال الحافظ (العراقي) ـ المتوفّى سنة ٨٠٦هـ ـ في «ألفيته» في السيرة:

وليعلم الطالب أنّ السِّيرا تَجمَع ما صحَّ وما قد أُنكرا
والقصدُ ذِكرُ ما أتى أهل السِّيَر بهِ وإنْ إسناده لم يُعتَبَر

ويُشترط لقبول الرواية التي تقوم بها الحجّة عند المحاججة في النبوّة **خمسة شروط، وهي**:

١ ـ **عدالة الراوي**: ألا يكون الراوي متّصفًا بالفسق؛ إذ يأتي المأمورات وينتهي عند النواهي، مجتنبًا لخوارم المروءة من الصغائر الدالة على الخسّة، والمباحات التي يحتقر الناس من يقربها.

٢ ـ **ضبط الراوي**: أن يكون الراوي حافظًا لمروياته عن ظهر قلب أو بتوثيقها كتابة.

٣ ـ **اتّصال السند**: أن ينقل الحديث كلّ راوٍ عمّن أخذه منه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤ ـ **ألا يكون المتن شاذًّا**: ألّا يخالف الراوي من هو أوثق منه.

٥ ـ **ألا يكون السند أو المتن مشوبًا بعلّة خفيّة**: أي: ألّا يتّصف السند أو المتن بقادح خفيّ يطعن في صحّة الرواية.

الوجه الثالث: أبعد الناس عن إحسان الظنّ برواة الأخبار هم علماء الحديث؛ إذ إنّ علم الحديث قائم في الحكم على الرواة على **الاحتياط** في الرواية، وإن شئت فقل على **سوء الظنّ** بالرواة لا التسليم الأوّلي بعدالتهم؛ حتّى قال الإمام المحدّث (عبد الرحمٰن بن مهدي) في القرن الثاني الهجري: «خصلتان لا يستقيم فيهما حسن الظنّ: الحكم والحديث»(١)؛ ويظهر ذلك مثلًا في أمور، **منها**:

- الراوي المجهول، روايته ضعيفة حتى يُعرف (على خلاف منهج مؤرِّخي النصرانية، بل منهج عامة المؤرّخين)(٢).
- الراوي الذي أصابه الاختلاط(٣) (بما يذهب بدقّة حفظه) تُردّ كلّ أحاديثه إذا لم يُعرف متى أصابه الاختلاطه للتمييز بين مرويات ما قبل الاختلاط وما رُوي بعده(٤).
- إذا اجتمع جرح وتعديل في راوٍ، يميل جمهور العلماء إلى تضعيفه(٥)

---

(١) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (بيروت: دار إحياء التراث، ١٢٧١هـ ـ ١٩٥٢م)، ٢/ ٣٥.

(٢) ميّز العلماء بين (مجهول العين)، وهو من لم يروِ عنه غير راو واحد، و(مجهول الحال)، وهو من روى عنه أكثر من واحد لكن لم تُعرف عدالته ولم يتيسّر معرفة حاله من مروياته، وكلّ منهما مردود الحديث إذا انتفت القرائن الدالة على العدالة. قال (الذهبي): «لا حجّة فيمن ليس بمعروف العدالة، ولا انتفت عنه الجهالة» (ميزان الاعتدال، تحقيق: علي البجاوي، بيروت: دار المعرفة، د.ت.، ٢/ ٢٣٤).

(٣) الاختلاط: قال (السخاوي) في تعريفه: «فساد العقل وعدم انتظام الأقوال والأفعال إما بخرف أو ضرر أو مرض أو عرض». (فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث، ألفية الحديث، تحقيق: عبد الكريم الخضير ومحمد آل فهيد، الرياض: دار المنهاج، ١٤٢٦هـ، ٤/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩).

(٤) قال (ابن الصلاح): «ولا يقبل حديث من أخذ عنه بعد الاختلاط أو أشكل أمره فلم يدر هل أخذ عنه قبل الاختلاط، أو بعده». (المقدمة، فاروقي كتب خانة، باكستان، ص١٩٥).

(٥) قال (الخطيب البغدادي): «الذي عليه جمهور العلماء أنّ الحكم للجرح والعمل به أولى». (الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، القاهرة: دار الهدى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م، ١/ ٣٣٦). وقال (النووي): «وَلَوْ تَعَارَضَ جَرْحٌ وَتَعْدِيلٌ، قُدِّمَ الْجَرْحُ، عَلَى الْمُخْتَار الَّذِي قَالَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَالْجَمَاهِير». (شرح النووي على مسلم، دار الخير، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ١/ ١٠٧).

إلا إذا كان التعديل مفصّلًا والجرح مجملًا، أو كان المجرّح من المتشدّدين.

- الرواية المنقطعة ضعيفة حتى يُعرف الساقط من السند.
- إذا سمع الراوي كتابًا حديثيًّا، وشكّ في واحد من أحاديثه لكنّه نسي تعيين هذا الحديث، امتنع عليه رواية كامل الكتاب...[1].

وكان علماء الحديث على إدراك أنّ الرجل الخيّر قد يقع في الخطأ الفاحش في الرواية؛ إذ قد يروي الصالح الأخبار دون ضبط ودقّة أو عن غير ثقة، ولذلك قال الإمام (ابن القطّان): «لم نرَ أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث»[2].

لم يكن ـ إذن ـ همّ المحققين من المحدّثين تصحيح روايات أهل الورع والصلاح، وإنّما كان عملهم موجّهًا إلى البحث عن العورات المخفيّة للروايات والرواة دون الوقوف عند صلاح حال الراوي لمنع دخول الضعيف وما هو أدنى منه إلى سجلّ الأحاديث المقبولة.

الوجه الرابع: بلغت الدقّة بعلماء الإسلام في الحكم على الرواة مبلغًا عجيبًا؛ حتّى إنّهم ميّزوا بين روايات بعض الرواة؛ فلا يقبلونها كلّها، ولا يردّونها كلّها، وإنّما ينتقون منها انتقاءً بناء على قواعد علميّة واضحة بعد سبر هذه الروايات، ومقارنتها بروايات الثقاة؛ **ومنها أنْ**:

- تُقبل رواية الراوي عن رجال دون آخرين.
- تُقبل روايته عن أهل بلد دون بلد آخر.
- تُقبل روايته في مرحلة من عمره دون مرحلة أخرى.

---

(١) قال الإمام (الخطيب البغدادي) (توفي ٤٦٣هـ): «إذا شكّ في حديث واحد بعينه أنّه سمعه وجب عليه اطّراحه، وجاز له رواية ما في الكتاب سواه، وإن كان الحديث الذي شك فيه لا يعرفه بعينه لم يجز له التحديث بشيء مما في ذلك الكتاب». ثم ذكر ممثلًا لذلك قول (الحسين بن حريث المروزي): سألت (علي بن الحسن الشقيقي): هل سمعت كتاب الصلاة من (أبي حمزة)؟ قال: الكتاب كله، إلا أنه نهق حمار يومًا فخفي علي حديثٌ أو بعضُ حديث، ثم نسيت أيّ حديثٍ كان من الكتاب، فتركتُ الكتابَ كلَّه». (الخطيب، الكفاية في علم الرواية، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧هـ، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(٢) رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

• تُقبل روايته إذا تُوبع ولا تقبل إذا تفرّد.

• لا تُقبل روايته إذا كانت في موضوع ما[1]، وتقبل في غير ذلك.

• تُقبل روايته إذا حدّث من كتابه الذي دوّن فيه الأحاديث التي أخذها عن غيره، ولا تقبل إذا حدّث عن حفظه.

وقد ميّز أهل الجرح والتعديل بين طبقات الرواة؛ فلم يقتصروا على القسمة الكبرى: ثقاتٌ وضعفاء؛ وإنما ميّزوا الثقات إلى طبقات، والضعفاء رتبوهم في دركات؛ للترجيح عند تخالف الروايات، والاعتضاد عند تآلفها وتقوية بعضها بعضًا.

فالمجروحون أفضلهم من كان ليّن الحدث أو فيه مقال، ثم مَن كان منكر الحديث ولا يُحتج به، وتحته مَن كان مردود الحديث أو واه بمرّة، وأدنى منه من كان مُتّهمًا بالكذب أو الوضع، وبعده من كان كذّابًا أو وضاعًا، وأدنى الجميع من قيل فيه: «أكذب الناس» أو «إليه المنتهى في الكذب».

وأمّا المُعَدَّلون، فأفضلهم من وُصِف بما يدلّ على المبالغة، مثل: «أوثق الناس»، وبعده ما كُرِّر فيه أحد ألفاظ التعديل، مثل «ثقة ثقة»، ويليه من قيل فيه: «ثقة» أو «ثبت» أو «حجّة». . . ، ثم من قصر عن ذلك بدرجة، فهو «لا بأس به» و«صدوق» أو «محلّه الصدق»، ثم من نزل عن ذلك إلى أن يُكتب حديثه ويُنظر فيه، ثم من يُكتب حديثه للاعتبار[2].

الوجه الخامس: الراوي الذي يكذب لأجل نصرة الإسلام وتمجيد النبيّ ﷺ، روايته مردودة إجماعًا، بل من ثبت عنه الكذب في حديث واحد؛ تسقط جميع مروياته. ولم يميّز العلماء بين ما رُوِي لنصرة الدين وما رُوي للطعن فيه، فإنّ قيام القادح المعتبر في السند أو المتن برهان لردّه دون اعتبار لموضوعه. وقد ردّ العلماء نسخة (بشر بن حسين الأصبهاني) عن (زكريا بن عدي) عن (أنس بن مالك) رضي الله عنه، رغم أنّ فيها أحاديث أخرجها (البخاري)

---

(١) كأن تنصر البدعة التي يدعو إليها. وهذا أمر فيه تفصيل ليس هنا مقامه.

(٢) انظر: محمد أبو شهبة، الوسيط في علوم الحديث (جدة: عالم المعرفة، ١٩٨٣م)، ص٤٠٨ ـ ٤١٢.

و(مسلم)؛ لأنّ (بشرًا) وضّاع[١].

الوجه السادس: لم يغترّ العلماء بصلاح حال الرواة للقول: إنّ رواياتهم مقبولة بإطلاق؛ فهم يقرّرون بوضوح أنّ صلاح الراوي بأن يكون صادقًا في نفسه، وصاحب ذاكرة جيّدة تحفظ الرواية، لا يكفيان لصحّة الرواية، فلا بدّ أن تكون سلسلة الرجال متّصلة بلا انقطاع، ولا تقبل رواية الثقة إذا خالفت رواية من هو أوثق منه.

الوجه السابع: تَوَفُّرُ كلّ الشروط الظاهريّة لصحّة إسناد الحديث لم يمنع العلماء من بيان وجوب خلوّ الحديث من القوادح في متنه؛ فرواية الثقات لا تصحّ إذا كان الخبر الذي تنتهي إليه لا يُسلَّم لقادح فيه. ولهم في ذلك قاعدة مشهورة هي: «صحّة الإسناد لا يلزم منها صحّة المتن». ومن أسباب ردّ الخبر المسند في سيرة نبيّ الإسلام ﷺ وإن رواه ثقات، أو من كان ظاهر حالهم كذلك، ما ذكره (ابن القيم) ـ وغيره ـ من علل، **وخلاصة أهم القوادح**:

• مخالفة الرواية الحسّ.. ويدخل في الحسّ ـ اليوم وسابقًا ـ مخالفة الحديث لليقينيّ من العلوم[٢].

• مخالفة المعلوم من التاريخ الصحيح.

• مخالفة المتواتر من السيرة.

• أن يكون الحديث خبرًا عن أمر عظيم تتوفّر الدواعي على نقله بحضرة الجمّ الغفير، ثمّ لا ينقله إلا الواحد منهم.

• مخالفته العقل الصريح[٣] بأن يكون باطلًا في نفسه بتقريرة أمورًا محالة.

---

(١) عمر فلاتة، الوضع في الحديث (بيروت: مناهل العرفان، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م)، ٢/ ٩٧.

(٢) لا بدّ من التمييز بين يقينيّ العلوم، وما يُتوهّم يقينيّته. وهذا باب دقيق. والعلم الذي يمتنع أن يخالفه الحديث هو ما كان وصفًا صحيحًا للواقع الطبيعي؛ فإذا كانت السُّنَّة المعصومة هي من خبر الوحي الإلٰهي، فالعالم الطبيعي هو خلق إلٰهي، ولا يمكن أن يتخالف وحي الله مع خلق الله.

(٣) العقل الصريح هو اليقين العقلي الذي يلزم من ردّه محالٌ، وليس هو الذوق الشخصي، ولذلك قال (ابن تيمية): «ما خالف العقل الصريح فهو باطلٌ. وليس في الكتاب والسُّنَّةِ والإجماع باطل، ولكن فيه =

• مخالفته صريح القرآن.

• سماجة الحديث[1].

الوجه الثامن: زعم المشكّكون في حفظ السيرة أنّ من حكموا على الأحاديث قبولًا وردًّا لم يردّوا الأحاديث المخالفة للعقل أو العلم. وهو زعم فاسد تكذّبه قواعد الحكم على الأحاديث كما سبق ذكره. ومن صريح أقوال أهل العلم في ذلك، قولهم: إنّ من جملة دلائل الوضع أن يكون مما «**تدفع العقول صحته**... ويلتحق به ما يدفعه **الحس والمشاهدة**»[2]. وأما (ابن الجوزي) فيقول: «كلّ حديث رأيته **يخالف المعقول**... فاعلم أنه موضوع، فلا تتكلّف اعتباره»[3].

الوجه التاسع: لم يقبل العلماء الأحاديث التي تمجّد الرسول ﷺ أو تثبت له معجزات لما تدلّ عليه من صدق الرسالة النبويّة، بل أخضعوها هي أيضًا إلى المحاكمة، ولم تتميّز لذلك بأدنى فضيلة على بقيّة الروايات. وقد جعل الإمام (ابن الجوزي) قِسمًا في كتابه «الموضوعات» ـ وهو في الأحاديث المكذوبة ـ تحت عنوان «أبواب في فضائل نبيّنا ﷺ»[4]. كما أنّ من عادة علماء الحديث إذا ذكروا روايات شمائل نبي الإسلام ﷺ ومعجزاته أن يشيروا إلى أنّها وردت من طرق صحيحة، وأخرى لا تصحّ؛ فلم تدفعهم كثرة الطرق لتصحيحها كلّها.

الوجه العاشر: تناقل المسلمون منذ زمن النبوّة الحديث النبوي: «**من**

= ألفاظ قد لا يفهمها بعضُ النَّاس، أو يفهمون منها معنى باطلًا، فالآفةُ منهم، لا من الكتاب والسُّنَّة». مجموع الفتاوى (١١/ ٤٩٠).

(١) ابن القيم، المنار المنيف في الصحيح والضعيف (تحقيق: يحيى بن عبد الله الثمالي، دار عالم الفوائد، ١٣٢٨هـ)؛ الكناني، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة (تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله الصديق، بيروت: دار الكتب العلمية، ص٥ ـ ٨).

(٢) ابن حجر، النكت على ابن الصلاح (المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، ص٨٤٥.

(٣) ابن الجوزي، الموضوعات، تحقيق: عبد الرحمٰن عثمان (المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م)، ١/ ١٠٦.

(٤) المصدر السابق، ١/ ٢٧٩ ـ ٣٠٨.

كذب علي متعمدًا فليتبوّأ مقعده من النار». وقد رواه بضعة وسبعون صحابيًّا[١]، منهم العشرة المبشّرون بالجنّة[٢]. ولم يُروَ حديث عن النبيّ ﷺ بهذه الكثرة ـ ولا قريب منها ـ؛ فقد كان يتداوله الصحابة تعليمًا وتنبيهًا، وحظّ انتشاره بين التابعين وتابعيهم أعظم من ذلك بكثير. وهو حديث قد عظُم انتشاره في أمّة تعظّم الصدق حتّى في جاهليّتها. وقد فهم جماعة من العلماء[٣] من هذا الحديث كفر من تعمّد الكذب. كما تواتر[٤] عن الصحابة روايتهم حديث: «**نضَّرَ الله عبدًا سَمِع مقالتي فوعاها، فبَلَّغها مَن لَم يَسْمعها**». وهو في الحضّ على الرواية الصادقة التي تذيع خبر الوحي.

ما الذي يملك العقلاء أن يضيفوه إلى ما سبق من شروط صارمة لقبول المتن السليم والإسناد المتين؟! ليس عندي علمٌ بإضافة حتّى اليوم إلّا الذوق الشخصي الخاضع لمزاج العصر، والذوق أكذب الحديث!

إنّ النظر في الأحاديث التي صحّحها علماء الإسلام يكشف أنّها ليست مؤلفات مطبوعة بلون واحد يظهر عليها أثر التركيب والرغبة في صياغة صورة واحدة محكمة الملامح من أوّل وهلة، ولذلك ذهب المستشرق (رينهارت دوزي)[٥] أنّ الإشكالات أو التناقضات التي تبدو في الأحاديث المصحّحة عند المسلمين حجّة أنّ المسلمين لم يختلقوا هذه الأحاديث، فليس من صنيع الكَذَبَةِ فتح باب للجدل في ما يسعون لنصرته أو تجميله[٦].

= منهج النقد الحدِيثي الإسلامي استوفى شروط فحص صحّة الخبر التارخي على أعلى صورة:

---

(١) لو بحثتَ في نفسك عن خبر سمعتَه من أكثر من سبعين رجلًا فلن تجده ـ على الأرجح ـ، وذاك مخبر عن عظيم انتشار هذا الحديث النبوي.

(٢) محمد بن آدم، شرح ألفية السيوطي في الحديث (مكتبة الغرباء الأثرية)، ص٢٢٣.

(٣) منهم شيخ الشافعيّة (أبو محمّد الجويني)، والد إمام الحرمين.

(٤) رواه أربعة وعشرون صحابيًّا (عبد المحسن العبّاد، دراسة حديث: «**نضّر الله امرءًا سمع مقالتي..**»، رواية ودراية، رسالة ماجستير مطبوعة).

(٥) رينهارت دوزي Reinhart Dozy (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣م): مستشرق هولندي من أصل فرنسيّ. درّس العربيّة والتاريخ في الجامعة. من مؤلّفاته: "Histoire des Musulmans d'Espagne".

(٦) Reinhart Dozy, *Essai sur l'Histoire de l'Islamisme* (Leyde, Paris: 1879).

١ ـ النظر في الرواية: الرواية متعلّقة برجال الإسناد وفي طبيعة تداولهم للخبر، وقد اهتم النقد الإسلامي لقبول الرواية بعدد من الأمور، **من أهمها**:

- صدق الراوي.
- حفظ الراوي: الذاكرة والكتابة.
- دقة الراوي.
- مصلحة الراوي الشخصية أو المذهبية من رواية الخبر.
- تلقي الراوي الخبر عمّن فوقه بصورة متّصلة.
- أن يجيز من يروي عنه الراوي رواية روايته...

٢ ـ النظر في المروي: لا يكفي أن يكون الخبر مرويًّا عمّن لا مطعن في عقولهم وصدورهم وأخلاقهم، وإنّما لا بدّ أن يَسْلَم المرويّ من عدد من الآفات، **أهمها**:

- ألّا يخالف التاريخ الصحيح.
- ألّا يخالف العقل الصريح.
- ألّا يخالف المحسوس.
- ألّا يُخالف أدبيًّا المحفوظ من أسلوب نبي الإسلام ﷺ في الكلام.

هي إذن قواعد تحيط بجميع جوانب الخبر، وتسدّ كلّ باب ممكن للكذب أو الوهم.

قد يقول معترض: لكنني أرى هذا الحديث، أو ذاك وذاك ممّا صحّحه علماء الإسلام، مخالفًا للعقل أو التاريخ!

قلت: **هذا آخرُ أمرِ المعترض ونهاية إقدامه**، وهو أن يستنكر متون بعض الأحاديث التي لا يتجاوز عددها بضعة آحاد، لكّنه لا يملك أن ينكر منهج الحكم على مجموع الأحاديث الألفيّة عددًا؛ فمآل الاعتراض لا يملك أن يجاوز إنكار صدق بعض الروايات إلى ردّ الموروث الحديثيّ المنقّى كلّه أو جلّه أو كثيره، وهو الذي يرسم معالم السيرة النبويّة: حياة النبيّ ﷺ ومضمون رسالته.

ولذلك لزم بيان أنّنا في هذا البحث في نبوّة محمّد ﷺ ننحاز مع المتشكّك ـ تنزّلًا ـ إلى أقصى مدى ممكن. ونقول له: سنسلّم لك صحّة اعتراضك على صدق المرويات التي تستنكرها، وسنسير معك إلى آخر الشوط الذي تسحبنا إليه، فماذا كان؟ ستبقى الحقيقة الكبرى التي لا يملك المخالف أدنى داع لإنكارها هي أنّ الصورة الكبرى للسيرة النبويّة، مع خطوطها العريضة، ثابتة، لا يزحزحها داعي الشكّ ولا عارض الريبة. وهذه الخطوط العريضة تنتهي بالمخالف ضرورة إلى العلم بنبوّة محمّد ﷺ؛ إذ إنّنا لا نرهن صدق الإسلام لبعض أحاديث ـ التي نرى صدقها وسلامتها من المنكرات، ويرى مخالفنا ضعفها ـ، وإنّما هو تراكم الأخبار الذي يلزم الشكّاك أن يقرّ أنّ اللون النهائي للصورة الكليّة للسيرة النبويّة لا يخدشه الشكّ في بعض الأخبار أو حتّى اطّراحها.

إنّنا ـ ونحن نتنزّل مع الشاك في بعض روايات السيرة النبويّة ـ لا نجد أدنى اعتراض جديّ على تأصيل منهج الحكم على الأحاديث، بل إنّنا نرى المستشرقين الذين يردّون تراث السيرة لا يرتفعون في عملهم النقديّ في باب الحكم على المرويات، وإنّما قد تردَّوا إلى قاع النظر والحكم؛ معتمدين أضعف أدوات النقد، وهما حدس الباحث، والحدس تسير به الريح حيث تشاء إذا لم يقم على قواعد موضوعيّة ثابتة، وبقايا محفوظات التاريخ من حجارة ومنحوتات لا تنير طريقًا مظلمًا ولا تسوّي طريقًا متعرّجًا. إنّه استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخروج من ضابط التحقيق وحاقِ الصرامة إلى مضائق الوهم.

دلالة السيرة على نبوّة محمّد ﷺ معلّقة على صحّة المنهج النظري التأصيلي في الحكم على الأحاديث لا على صواب تطبيق هذه القواعد عند النظر في بعضها؛ فإن افتراض بعض الخطأ في التطبيق لا يقدح في (١) أصل التأصيل (٢) ومُجمل التطبيق.

البديل المنهجي للمستشرقين:

عَلِم المستشرقون[١] ـ بداهةً ـ أنّ قبول السيرة كليّة، أو بالجملة، لا بد أن يؤول إلى الإقرار بنبوّة محمّد ﷺ؛ ولذلك كان مبدأ النظر الاستشراقي في السيرة البحث عن بدائل غير الميراث الحَديثيّ، والاكتفاء من التراث الحديثي بالنادر أو العمومات. وقد تولّى كبر هذا الأمر المستشرق (إجناتس جولدتسيهر)[٢]، ثم اتّسع الأمر وتفرّعت مسالكه.

وباختصارٍ يناسب المقام، ننبّه أنّ المستشرقين اليوم على مذهبين في التعامل مع السيرة، تيّار المراجعين (Revisionists) ـ وعلى رأسه (ونسبرو) وتلاميذه ـ، وهو القائل: إنّ مراجع السيرة ساقطة لا اعتبار لها؛ فهي أثرٌ عن اختلاق الأجيال الإسلاميّة المهتاجة في تديّنها. ويقابله التيّار التقليدي ـ وعلى رأسه (مونتجمري وات)[٣] الذي يرى أنّ بعض خبر السيرة مقبول[٤]، وفي حدوده يبدأ العمل النقدي[٥].

ولا يملك القارئ الجاد إلّا العجب من البدائل التي يطرحها المستشرقون بعدما ردّوا الروايات المسندة المصفّاة من كدر الشبهة، فهي مراجع صامتة لا تُبين، أو مشبوهة لا تُستأمن على خبر التاريخ، **وعلى رأسها**:

---

(١) التعميم لا يلغي وجود قلة ـ نادرة ـ من المستشرقين المسلمين. ولا يشملهم حديثنا هنا.

(٢) إجناتس جولدتسيهر Ignác Goldziher: مستشرق مجري. من أهم المشككين في أصالة الحديث النبوي والشريعة الإسلامية. عمل ممثلًا للجالية اليهودية في بودابست. من مؤلفاته: "Muhammedanische Studien".

(٣) مونتجمري وات (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٦م): قسيس إنجليكاني ومستشرق بريطاني معمَّر. له عناية خاصة بالسيرة والتاريخ الإسلامي. من مؤلفاته: "Muhammad at Mecca".

(٤) لم يكن هذا التيّار أمينًا في دعواه؛ إذ إنّه كان متعسّفًا في شكّه أيضًا، ومارس الانتقائية في تحديد الملامح العامة للسيرة.

(٥) See Gregor Schoeler, *The Biography of Muhammad: Nature and Authenticity* (New York, NY: Routledge, 2011), pp.8 - 12.

يقسّم الباحث في الاستشراق النصراني (وائل حلّاق) المستشرقين في موقفهم من صحة التراث الحديثي إلى ثلاثة اتّجاهات: (الغلاة) المشايعون لـ(جولدتسيهر)، ومنهم (ونسبرو) و(مايكل كوك)، و(مخالفيهم) الذين كتبوا لنقض دعاويهم، ومنهم (نبيهة عبود)، و(سزكين)، و(الأعظمي)، و(يوهان فوك)، والفريق (الوسط) بينهما، ويمثّله (موتزكي)، و(ستتلانا)، و(جيمس روبرسون)

Wael Hallaq, The authenticity of Prophetic Hadith: A pseudo-problem, *Studia Islamica*, No: 89 (1999), p.76.

١ ـ الكتابات المبكّرة لغير المسلمين: أسّس كِتاب «الهاجريون»[١] للمستشرقين (باتريشيا كرون)[٢] و(مايكل كوك)[٣] لبدعة استشراقية حديثة في التعامل مع المصادر الأوثق للسيرة؛ إذ ذهب المؤلّفان إلى أنّ المسلمين ـ الذين كانوا يُسمّون بالهاجريين، نسبة إلى «هاجر» ـ قد اختلقوا تراثهم الديني الأوّل أكمله، وكانوا متأثرين في صناعة رؤيتهم الدينية بالتراث اليهودي ـ المسيحي الشرقي، كما زعم المؤلفان أنّ مكّة لا توجد في مكانها المعروف اليوم، وإنّما محلّها بلاد الشام، وغير ذلك من الدعاوى المتطرّفة التي تهدم ثوابت تاريخية عدّها جميع المؤرخين سابقًا من المسلّمات المعرفيّة.

وقد اعتمد المؤلّفان على الكتابات غير الإسلامية التي تحدّثت عن الإسلام في العصر الإسلامي المبكّر. ورغم إغراء العثور على مصدر تاريخي خارجي «محايد» في قراءة التاريخ الإسلامي، إلّا أنّ هذا المذهب فاسد من أوجه كثيرة، **أهمها:**

• المصادر غير الإسلامية المبكّرة لا تكاد تقدّم معلومات تاريخية تذكر عن الإسلام، وإنّما هي عبارات قليلة جدًّا، وعامة جدًّا، لا يكاد يوجد فيها تفصيل، ولا تُبنى عليها معارف تاريخية صلبة. ولعلّ النظر في أكبر مؤلَّف اليوم قام بجمع الشهادات غير الإسلامية المبكّرة، وهو: (Seeing Islam As Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam)، يشهد بوضوح لما نقول؛ فرغم جمعه شهادات متفرقة من مصادر سريانية ويونانية وعبرية وفارسية وأرمينية ولاتينية وقبطية وأثيوبية من القرن الأول الهجري، إلّا أنّ هذه الشهادات فقيرة المحتوى بصورة بالغة، لا تكاد تدلّ على غير وجود دين جديد ظهر في بلاد العرب، وأنّ أصحاب هذا الدين يغزون الأمم المجاورة.. ثمّ إنّ الجامع لهذه

---

(١) *Hagarism: The making of the Islamic world (Cambridge: Cambridge University Press, 1976).*

(٢) باتريشيا كرون Patricia Crone (١٩٤٥ ـ ٢٠١٥م): مستشرقة ومؤرّخة دنماركية. درّست في جامعة برنستون. من مؤلفاتها: "Meccan Trade and the Rise of Islam".

(٣) مايكل كوك Michael Cook (١٩٤٠م ـ): مستشرق مؤرخ بريطاني، درّس في «مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية». من مؤلفاته: "Ancient Religions, Modern Politics".

الشهادات قد انتهى إلى أنّ شهادة التراث الإسلامي توافق كثيرًا من هذه الشهادات. ولخّص قيمة هذه الشهادات بقوله: «لا يمكن للمصادر غير الإسلامية أن تقدّم قصة كاملة ومتناسقة للإسلام المبكّر، فضلًا عن دعم رواية بديلة لتطوّره»[١].

وقد سعى المنتصرون لحجية هذه الكتابات إلى استغلال مساحات الصمت الواسعة فيها لتمرير اجتهاداتهم البعيدة التي يقوم أفضلها على «الإمكان» لا «الرجحان».

• التفاصيل التاريخية المذكورة قائمة على السماعات البعيدة والإشاعات، وليس فيها تقريبًا شيء من البحث التاريخي، والتحقيق العلمي المعتبر، خاصة أنّها كتبت بيد رجال عاشوا خارج دولة الإسلام، لم يخالطوا المسلمين مخالطة مباشرة، ولا يعرفون اللغة العربية، ولم يؤهلهم واقع المعاصرة لتحصيل معلومات متنوعة ومستقرة تسمح بتكوين صورة حقيقية عن الإسلام والمسلمين.

• المعلومات المذكورة في هذه المراجع غير محايدة؛ إذ إنّ مؤلّفِي المقاطع المتعلقة بوصف الإسلام والمسلمين ـ عامتهم ـ خصوم للإسلام، منهم رجال دين نصارى، وأصحاب مصالح سياسية وعرقية يرفضون الفتح الإسلامي برمّته. كما يبدو في عدد من هذه الكتابات النَفَس الإسخاطولوجي لقراءة الفتح الإسلامي؛ إذ يصوّر الكتّابُ الفتحَ على أنه العذاب الأخير الذي أرسله الربّ على أمّة النصارى التي لم ترعَ الوحي الإلٰهي وحدود الكتب المقدّسة، وفي مثل هذا السياق التصويري، لا ينتظر المؤرّخون دقة تاريخية في عرض صورة الإسلام والمسلمين؛ ولذلك أنكر (ونسبرو) نفسُه على (كرون) و(كوك) اعتمادهما الساذج على مراجع لمؤلفين أجانب عن الحضارة الإسلامية ومعادين لها[٢].

---

(١) Robert G. Hoyland, *Seeing lslam as Others Saw It. A Survey and Evoluation of Christian, Jewish and Zoroastrian writings on Early Islam* (Princeton, NJ: The Darwin press, 1997), p.598

(٢) John Wansbrough, Review of *Hagarism*, by Crone and Cook, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies 41)* 1978: 156.

ومن المفيد هنا ملاحظة أنّ (باتريشيا كرون) نفسها قد تخلّت قبل وفاتها عن بعض أصول قراءتها المتطرّفة للإسلام[١].

٢ ـ الآثار القديمة المعاصرة للبعثة أو القريبة منها زمنًا، قبلًا أو بعدًا: لم تحفظ الطبيعة الصحراوية للجزيرة العربيّة شيئًا ذي بال عن تاريخ المنطقة، مع قيام الحياة فيها على المساكن البسيطة من خيام وغيرها ممّا لا يورّث الأمم التالية شواهد واسعة من نقوش ومنحوتات تؤرّخ للحضارات وعقائدها، إلا ما ندر في اليمن. ولم يخرج الجهد الاستشراقي من وراء سعيه إلى الآن بشيء مهم في عموم حال الجزيرة زمن البعثة، فكيف يفلح في تعقّب تاريخ سيرة رجلٍ واحدٍ عاش قبل قيام الدولة مغمورًا أو محارَبًا، وبعدها في زهد بعيدًا عن العمائر والدواوين الإدارية؟!

٣ ـ الخيال والوهم التآمري: ذهب عدد من المستشرقين إلى ردّ جميع التراث التاريخي الإسلامي، واعتباره مجرّد مراسيل وأساطير بلا قيمة؛ فهو محض أوهام تاريخية مختلقة لصناعة أصول تاريخية تتميّز بالأصالة والقداسة، حتّى ذهب فريق من هؤلاء، من المتأثّرين بأطروحة المؤرّخ الأمريكي (ونسبرو)[٢]، ومنهم الكاتب الأمريكي (روبرت سبنسر)[٣] في كتابه الأخير «هل وُجِد محمّد؟»[٤]، إلى إنكار الوجود التاريخي لنبي الإسلام ﷺ رأسًا، كما ذهب المستشرق المعروف (جوزيف شاخت)[٥] إلى الطعن في التراث الفقهي برمّته، واصفًا إيّاه أنه مجرّد اختلاق من أنصار المذاهب الفقهية مع

(١) See Patricia Crone, "What do we actually know about Mohammed?", *Open Democracy*, June 10, 2008 <https://www.opendemocracy.net/faith-europe_islam/mohammed_3866.jsp>.

(٢) جون ونسبرو John Wansbrough (١٩٢٨ ـ ٢٠٠٢م): مؤرخ أمريكي له اهتمام خاص بالتاريخ المبكّر للإسلام وتقديم مراجعة راديكالية لأصوله. من مؤلفاته: "Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation".

(٣) روبرت سبنسر Robert Spencer (١٩٦٢م ـ): كاتب أمريكي وناشط على النت بكثافة، كاثوليكي المذهب. له اهتمام بالتحريض على الإسلام والمسلمين في المنابر المعادية للإسلام في الغرب. من مؤلفاته: "Islam Unveiled".

(٤) Did Muhammad Exist?

(٥) جوزيف شاخت Joseph Schacht (١٩٠٢ ـ ١٩٦٩م): مستشرق ألماني. درّس اللغة العربية والدراسات الإسلامية في عدد من الجامعات الأوروبية. من مؤلفاته: "An Introduction to Islamic Law".

بداية القرن الثاني بحثًا لاجتهاداتهم الفقهية عن سند نصّيّ من الوحي[١].

وقد «اجتهدت» (باتريشيا كرون) لهدم كامل التراث الإسلامي في كتابها «Meccan Trade and the Rise of Islam» (١٩٨٦م) لبناء صورة أخرى للإسلام، من أغرب ملامحها إبعاد مكّة التي نعرفها عن مكانها مئات الأميال. وكان عمدة بحثها نفي العلاقات التجارية للبضاعة العزيزة أو الثمينة بين جنوب الجزيرة العربية والبلاد المجاورة، وأنّ التجارة ـ إن وُجدت ـ فهي في البضاعة الرخيصة؛ لتقفز من ذلك إلى ضرب حجيّة التراث الإسلامي!! وقد جاء بحثها مثقلًا بتحريف النصوص الظاهرِ في سوء الترجمة المتعمّدة للوثائق القديمة، وتقديم نصوص مبتورة، وإهمال الشواهد التاريخيّة التي تخالف نظريّتها[٢]. وقد أرادت أن تدسّ مزاعمها بالإشارة إلى تضارب المصادر الإسلاميّة، ولكن رغم أنّ «ذكر تناقضات المصادر أمر مفيد، إلا أنّ الادّعاء ـ من خلال ثبوت التناقضات ـ أنّه علينا ألّا نصدّق أيّ رواية من الروايات المتناقضة، يقودُ إلى نوع من العدَميّة التاريخية، وهي عقيمة بصورة جوهريّة»[٣]. وقد أدرك علماء الحديث ذلك، فرفضوا الاستسلام لفوضى الأخبار، وحاربوا العدميّة التاريخيّة بالسبر والانتقاء على أسس علميّة منضبطة. بحثُ (كراون) كما وصفه المستشرق (روبرت سرجينت)[٤] دراسة جدليّة أرادت منها صاحبتها أن تصدم المستشرقين بنظريات غريبة عن تاريخ مكّة قبل الإسلام، وهو بحث كُتب بلغة استعلائية، وفكر مشوّش وغير عقلاني يفتقد الحسّ النقدي، مع ليّ أعناق النصوص التاريخية الواضحة، وصاحبته تفتقد معرفة البنية الاجتماعية للبلاد العربية.

---

(١) انظر في الرد على شاخت:
Mustafa Azami, *On Schacht's Origins of Muhammadan Jurisprudence*. (Riyadh: King Saud University, 1985).

(٢) آمال الروبي، الرد على كتاب باتريشيا كرون (تجارة مكّة وظهور الإسلام)، ص٤.
الدكتورة (آمال الروبي) أستاذ مشارك في قسم التاريخ اليوناني الروماني، جامعة الملك عبد العزيز، جدة. رابط الكتاب:

(٣) Hugh Kennedy, Reviewed Work: Meccan Trade and the Rise of Islam by Patricia Crone, Middle East Studies Association Bulletin, Vol. 22, No. 1 (July 1988), p.55.

(٤) روبرت برترام سرجينت Robert Bertram Serjeant (١٩١٥ ـ ١٩٩٣): إسكتلندي، من أعلام المستشرقين في القرن العشرين. درّس التاريخ الإسلامي في جامعة كمبردج.

وختم (سرجينت) تعليقه بقوله إنّه بحث يليق بطالبٍ داهية في سنواته الأولى في الجامعة في مناظرة مع طلبة آخرين. وأنّ الكتاب قد يحقّق لصاحبته الشهرة التي تسعى إليها، لكنّه لن يُساهم أبدًا في تطوير فهمنا للأصول المبكّرة للإسلام[1].

درهم سكّ سنة ٦٦هـ



لا تحظى المدارس التآمرية بدعم جمهور المستشرقين، وإن كان جمهور المستشرقين على مذهب القراءة الانتقائية غير المنضبطة للتراث الإسلامي؛ إذ يأخذون من السيرة ما يوافق ما يستبطنون من تصوّرات ومقولات عن الإسلام، وعلى رأسها: ردّ النبوّة المحمّدية[2]، وإنكار الإعجاز القرآني، وإثبات معرفة نبي الإسلام بالتراث الديني اليهودي والنصراني عن دراسة أو مدارسة.

النقد الاستشراقي لموقف أهل السُّنَّة من التراث الحديثي يخلط بين جمع المرويات وحفظها من جهة، ونقدها وتمحيصها من جهة أخرى. أهل السُّنَّة لا يزعمون أنّ الجمع برهان الأصالة، وإنّما يرونه مقدّمة ضرورية للنقد المثمر. النقد الاستشراقي طال الجمع الحديثيّ ـ بالإيهام أنه يلزم منه قبول المرويات ـ ولم يتعرّض لقواعد الحكم عليها عند علماء أهل السُّنَّة.

بين منهجين:

عِلم التاريخ الإسلامي منهجٌ في التحقيق عريق وثريّ حتّى قال فيه

---

(١) R. B. Serjeant, Review: Meccan Trade and the Rise of Islam: Misconceptions and Flawed Polemics, *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 110, No. 3 (Jul. - Sep., 1990), pp.472-486

(٢) أشهر مثال على ذلك ولعهم الشديد بقصّة الغرانيق، رغم نكارتها متنًا وضعفها سندًا!

المستشرق المتخصص في منهج التأريخ الإسلامي (فرانز روزنتال)[1]: «إنّنا قد نشك في وجود أي مكان في التاريخ الأوّل كانت فيه المؤلّفات التاريخية تعادل في كثرتها ما كان للمسلمين. إنّ مؤلفات المسلمين التاريخية قد تعادل في العدد المؤلفات اليونانية واللاتينية، ولكنّها بالتأكيد تفوق في العدد مؤلّفات أوروبا والشرق الأوسط في العصور الوسطى. ولا شكّ أنّه لم يكن بالإمكان إخفاء مكانتها الممتازة في الحركة الأدبيّة الإسلاميّة عمّن اتّصل بالعرب من علماء الغرب»[2].

وأعظم مسالك التأريخ الإسلامي ما قعّد قواعده علماء الحديث، فقد بسطوا في ذلك الكلام، ودققوا العبارة، وحدّدوا أوجه المسير حتّى انتهوا إلى ضبط معالم واضحة لطريق بيِّنةٍ حدوده.

والفروق بين منهج التوثيق الإسلامي للسيرة ـ على سُنَّةِ المحدّثين ـ ومنهج جمهور المستشرقين واسعة، **ومنها**:

• ينطلق المنهج الإسلامي من مادة السيرة للحكم عليها، في حين يقوم المنهج الاستشراقي على توجيهات أوّليّة ماديّة رافضة لأيّ دلالة حقيقيّة لنبوّة محمد ﷺ، ومن أهم مضمرات هذا المنهج الانطلاق من القول: إنّ القرآن نسخة يهوديّة (وكَنسيّة عند بعضهم) معدّلة.

• قواعد نقد الأسانيد والمتون عند علماء المسلمين قائمة على أصول منضبطة ومطّردة، في حين يقوم نقد المتون عند المستشرقين أساسًا على الحدس.

• المنهج النقدي الإسلامي قائم على الاحتياط وسوء الظن بالراوي حتى يقوم البرهان على خلاف ذلك، والمناهج الاستشراقية قائمة على سوء الظن بكامل الموروث الحديثي إلا ما وافق غرض الباحث.

---

(١) فرانز روزنتال Franz Rosenthal (١٩١٤ ـ ٢٠٠٣م): مستشرق يهودي ألماني، درّس في الجامعة اللغات السامية واللغة العربية. ألّف في أبواب مختلفة في معالم الحضارة الإسلامية. أنجز أوّل ترجمة إنجليزية كاملة لمقدمة (ابن خلدون)، كما ترجم مجلّدين من تاريخ الطبري.

(٢) فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، تعريب: صالح أحمد العلي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ط٢)، ص٢٧٠.

• اهتم المنهج الإسلامي بنقد طريق وصول خبر السيرة (الإسناد)، ومضمون الخبر (المتن).. أمّا المستشرقون فاهتموا بنقد المتن دون إسناده.

• دائرة نقد المتون عند المسلمين أوسع منها عند المستشرقين.

• المنهج الإسلامي يصنع الصورة الكبرى للسيرة انطلاقًا من أفراد الأحاديث، والمناهج الاسشراقية تصبغ أفراد الأحاديث بالصورة الكليّة للسيرة التي يختارها بدءًا الباحث.

• عَلِم علماء الإسلام تضارب طائفة من الروايات المتداولة؛ فأقاموا منهجًا موضوعيًّا للحكم على الأسانيد والمتون لتمييز سليمها من سقيمها؛ فإذا تضاربت الأخبار انتُخب منها ما يهدي إليه النظر النقدي المعتدل، دون المسارعة إلى ردّ الجميع؛ إذ لو اطّرد حال الحكم على الروايات إذا تضاربت باطّراحها كلّها؛ لصار علم التاريخ عقيمًا ينتهي ـ ضرورة ـ إلى اليأس البحثي والعَدَم المعرفي. واختار المستشرقون التشكيك في السيرة لقيام الشكوك في حفظ عدد منها، فردّوا أغلبها لعارض الشك.

إنكار المخالف حفظ السيرة النبويّة يُلزمه ألا يُصدِّق شيئًا من خبر التاريخ؛ فإنّه لا يوجد من أخبار التاريخ ما حقّق ما يوازي ما في التراث الإسلامي أو يقاربه جمعًا ونقدًا.

وماذا عن النصرانية؟

أسّس عدد من العلماء الغربيين المهتمين بالتاريخ النصراني المبكّر مناهج مختلفة للبحث في تاريخية الأخبار المنقولة عن المسيح عليه السلام. وقد عُرف أبرز تيّار نقدي بالموجة الأولى «للبحث التاريخي عن يسوع» (Quest for the historical Jesus)، ثم تلته موجتان ثانية وثالثة إلى اليوم. وهي مدارس متنوّعة الرؤى إلى حدّ بعيد ومزعج، ولا يجمعها غير الإيمان بالوجود التاريخي للمسيح، وكلّ ما عدا ذلك فهو محلّ جدل، ونزاع؛ محوًا ونقضًا، وإعادة تأسيس.

وقد شاع بين دارسي حياة المسيح في الغرب التمييز بين «يسوع[(١)] الإيمان» (Jesus of Faith)؛ أي: المسيح كما هو في المخيال الإيمانيّ للنصارى، و«يسوع التاريخ» (Jesus of History)؛ أي: المسيح الذي عاش على الأرض، حتّى قال (جيمس دان)[(٢)]: إنّه ليس بإمكاننا «إنشاء يسوعٍ ـ من خلال المادة التاريخية المتاحة ـ يكونُ هو نفسه يسوع الحقيقي»[(٣)]؛ فـ(يسوعنا) الممكن رسم ملامحه من وثائق التاريخ المتاحة لا يتأهّل على الحقيقة ليطابق (يسوع) الذي دبّ على الأرض وتنفّس هواءها.

«نعرف ما فيه الكفاية عن حياة محمد، أما حياة المسيح فمجهولة تقريبًا، وإنّك لن تطمع أن تبحث عن حياته في الأناجيل» (Gustave Le Bon)

إشكاليات القيمة التاريخية للعهد الجديد؛ كمصدر لمعرفة المسيح الذي عاش على الأرض كثيرة جدًّا، **منها**:

١ ـ الكتاب المقدس، وفقدان الأسانيد: يتكوَّن الكتاب المقدس من ٦٦ سفرًا (عند البروتستانت) أو أكثر (عند الكاثوليك والأرثودكس). وهذه الأسفار كلّها بلا استثناء فاقدة للإسناد المتّصل، بل هي عند التحقيق بلا إسناد أصلًا.

٢ ـ الكتاب المقدس وتوثيق النص: يعتمد النصارى لتوثيق النص المقدس أساسًا على المخطوطات المكتشفة للكتاب المقدس، علمًا أن هذه المخطوطات مجهولة الناسخ، ولا يعرف عن ملابسات نسخ أهمّها شيء، والأعظم من ذلك غياب أيّ تراث شفهي أوّل مواز لها.

٣ ـ تأخّر أهم المخطوطات: أهم مخطوطة توراتية يعتمد عليها النصارى

---

(١) يسوع: اسم (عيسى) عليه السلام في التراث النصراني العربي، وهو تعريب للاسم العبري (יֵשׁוּעַ) [يشوَع] أو (יְהוֹשֻׁעַ) [يَهُوشُوَعْ].

(٢) جيمس دان James Dunn (١٩٣٩م ـ): قسيس. لاهوتي وناقد متخصص في دراسات العهد الجديد. عضو الأكاديمية البريطانية، ورئيس سابق لمؤسسة: "Studiorum Novi Testamenti Societas" التي تجمع علماء العهد الجديد في العالم.

(٣) James Dunn, *Jesus Remembered* (Grand Rapids; Cambridge: William B. Eerdmans Publishing Company, 2003), p.126.

لتوثيق التوراة هي «مخطوطة حلب»[1]، وهي تعود إلى القرن العاشر؛ أي: بعد أكثر من ٢١ قرنًا من زمن (موسى) عليه السلام. وتفتقد هذه المخطوطة الكتب المنسوبة إلى (موسى) عليه السلام إلا بعض فصول من سفر التثنية. ويلي هذه المخطوطة ـ بل ربما يفوقها ـ أهميّة مخطوطة لينن‌جراد[2] وهي تعود إلى سنة ١٠٠٨م[3].

وأما الأناجيل فأقدّم المخطوطات تعود إلى بداية القرن الثالث[4]، باستثناء قطعة صغيرة فيها عشرات الحروف اليونانية، وتدعى «البردية ٥٢».

٤ ـ مؤلفو الأناجيل ليسوا شهود عيان: الأناجيل هي وحدها التي تتضمن قصة حياة المسيح، وأمّا بقية أسفار العهد الجديد فتتضمّن حديثًا في ما بعد رفع المسيح إلى السماء أو هي مجادلات في اللاهوت وتأريخ لعصر الرسل وحواشي المسائل في اللاهوت... وعامة النقاد على أنّ مؤلّفي الأناجيل الأربعة مجهولي الهويّة[5].

مثال: إنجيل متّى هو أطول الأناجيل الأربعة وأهمها. يقول النصارى إنّ أقوى أسانيد إنجيل متّى: شهادة المؤرخ (يوسابيوس) في القرن الرابع أنّ (بابياس) في القرن الثاني قال إنّ (متّى) كتب الإنجيل[6].

الإشكالات:

• هذا ليس إسنادًا على الحقيقة لأنه لا ينقل نص الإنجيل، وإنما هو خبر عن أنّ متّى ألّف إنجيلًا.

• هذا الإسناد فيه انقطاع (إعضال) بين (يوسابيوس) المُتوفّى سنة ٣٣٩م و(بابياس) المتوفى سنة ١٦٣م، وانقطاع بين (بابياس) و(متّى) الذي تزعم الكنيسة أنّه كان تلميذًا للمسيح بداية القرن الأوّل.

• (يوسابيوس) نفسه طعن في (بابياس)؛ إذ قال عنه: «يبدو أنّه كان

---

(١) Aleppo Codex.

(٢) Codex Leningradensis.

(٣) لم يغيّر اكتشاف مخطوطات البحر الميت من أهميّة هاتين المخطوطتين شيئًا.

(٤) طبقا لتأريخ المخطوطات كما جاء في آخر مراجعة لنص: نستلي ـ ألاند: NA28

(٥) Eusebius, *Historia Ecclesiastica*, 3.39.16

(٦) Eusebius, *Historia Ecclesiastica*, 3.39.13

رجلًا ضعيف العقل بصورة بالغة»[١]. واتّهمه أنه نقل أمثالًا غريبة عن المسيح، وأساطير كثيرة[٢]. وهو مذهب النقّاد اليوم في (بابياس)، حتّى قال (بارت إيرمان)[٣] عند حديثه عن الشهادة الباطلة التي قدّمها (بابياس) عن إنجيل مرقس: «عمليًا، كلّ شيء آخر قاله بابياس ردّه العلماء بصورة واسعة وبحقٍ لأنّه خيال ديني لا حقيقة تاريخيّة»[٤].

• (بابياس) لم يقل إنّ متّى ألّف إنجيلًا، وإنما قال:

«Ματθαιος μευ ουν Εβραιδι διαλεκτω τα λογια συνεταξατο»

التعريب: «متّى باللغة العبرية τα λογια [تا لوجيا] συνεταξατο [سُنِتاكسِتو]».

قلتُ:

أ ـ كلمة [تا لوجيا] تعني «الأقوال»، وليست هي مرادفة لكلمة «إنجيل» «ευαγγελιου» [أفَنْجِلْيونْ]؛ فليست هذه الشهادة في شأن كتابة إنجيلٍ.

ب ـ كلمة [سُنِتاكسِتو] تعني «جمع»، وإنجيل متّى رواية سرديّة واحدة وليس جمعًا لمقاطع مشتّتة كإنجيل توما.

ت ـ النصّ التالي يقول فيه (بابياس): «ηρμηνευσεν δ αυτα ως ην δυνατος εκαστος» أي: «وكلّ واحد فسّرها[٥] ηρμηνευσεν [هِرمِينُوسِن] في حدود قدرته». وهذا لا يستقيم وصفًا لما فعله النصارى في إنجيل متّى.

• (بابياس) وجميع آباء الكنيسة[٦] اتّفقوا أنّ إنجيل متّى قد كُتب باللغة

---

(١) Eusebius, *Historia Ecclesiastica*, 3.39.7

(٢) بارت إيرمان Bart Ehrman (١٩٥٥ ـ): ناقد أمريكي من أبرز أعلام المتخصصين في دراسات النقد النصي للعهد الجديد ويسوع التاريخي اليوم. له عدد كبير من المؤلفات الأكاديمية المرجعية في تخصصه.

(٣) Bart Ehrman, *Peter, Paul and Mary Magdalene: The Followers of Jesus in History and Legend* (Oxford: Oxford Univ. Press, 2008), p.9.

(٤) فسّر هذه الأقوال.

(٥) (إيرانيوس)، و(أوريجانوس) و(جيروم) و(كيرلس الأورشليمي) و(يوحنا ذهبي الفم)...

(٦) قلّة هامشيّة تقول بخلاف ذلك اليوم، ولا يعتد العلماء بقولها.

العبريّة، والإجماع[1] بين النقاد اليوم أنّ إنجيل متّى قد كُتب باليونانية بسبب طبيعة لغته، وغياب قرائن الترجمة عن أصلٍ سامي، واقتباسه من التوراة على غير صورة النص العبري، بالإضافة إلى الاقتباس الحرفي لإنجيل متّى من إنجيل مرقس الذي أجمع القدماء ومن تلاهم على يونانيته[2].

- (بابياس) ذكر أنّ (يهوذا الإسخريوطي) قد توفي بعد معاناة بسبب ضلاله؛ فقد انتفخ بدنه حتى إن رأسه لا يستطيع أن يمرّ من مكان يتّسع لعربة، كما انتفخ جهازه التناسليّ بصورة كبيرة، واخترق الدود جميع بدنه لمّا كان حيًا[3]. ورغم حرص (بابياس) في هذا المقطع أن يذكر التراث المتعدّد الذي تلقّاه عن حال (يهوذا الإسخريوطي) قبيل موته[4] إلا أنه لم يشر إلى ما جاء في إنجيل متّى ٢٧/ ٥ من أنّ (يهوذا الإسخريوطي) قد قتل نفسه خنقًا، وهو ما يوحي أنه لم يقرأ إنجيل متّى الذي نعرفه اليوم؛ إذ إنّ خاتمة الانتحار جديرة بأن تُنقل في هذا المقام.

٥ ـ **الجهالة التامة بظروف تدوين الأناجيل**: النقاد على جهل تام بزمن تأليف الأناجيل الأربعة والظروف الأولى لنسخها وتداولها. وكلّ ما يُقال مجرّد تخمينات ليس لها أصل تاريخي مباشر.

٦ ـ **غياب معيار منضبط لاختيار الأناجيل الأربعة**: لا يفيدنا البحث التاريخي بشيء عن سبب اختيار الأناجيل الأربعة دون بقية الأناجيل المتداولة في القرنين الأول والثاني. غاية ما نعرفه هو أنّ هذه الأناجيل كانت مقدسة عند طوائف من النصارى (الذين سينتصرون في المعركة اللاهوتية لاحقًا في

---

(١) D. A. Carson and Douglas J. Moo, *An Introduction to the New Testament* (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2009), 99.143-144.

(٢) Papias, frag. 4:2-3.

(٣) التراث الذي وصلنا عن (بابياس) في بعضه أنّ (يهوذا الإسخريوطي) قد تُوفي إثر مرور عربة على جسده، لكنّ هذا المقطع محلّ جدل في أصالته بين النقّاد.

Jesse E. Robertson, *The Death of Judas: The Characterization of Judas Iscariot in Three Early Christian Accounts of His Death,* pp.189-199, Ph.D dissertation, manuscript

< https://baylor-ir.tdl.org/baylor-ir/bitstream/handle/2104/8168/jesse_robertson_phd.pdf?sequence=1 >.

(٤) Mitchell Reddish, *An Introduction to The Gospels* (Nashville, Tenn. Abingdon Press, 1997), p.42.

مجمع نيقية في بداية القرن الرابع[١] في القرن الثاني)، ولا نعرف عن دواعي الانتقاء الكَنَسي لهذه الأناجيل شيئًا.

٧ ـ **بولس وتاريخية رسائله**: الجزء الأكبر من العهد الجديد يضم رسائل بولس (١٤ رسالة)، وهي وثائق بلا إسناد إلى (بولس). وقد أجمع النقاد على أنّ رسالة بولس إلى العبرانيين ـ وهي واحدة من أطول رسائله ـ لا تصحّ نسبتها إلى (بولس)[٢]، واختلفوا في نسبة بقية الرسائل إليه إلا سبعة فقط[٣][٤]. علمًا أنّ (بولس) لم ير المسيح، كما أنّه لم يكن مهتمًا بعرض صورة تاريخية تفصيلية لحياته، بالإضافة إلى أنّ فهمه لرسالة المسيح يخالف بوضوح ما جاء في الأناجيل[٥].

٨ ـ **مسيحيات مجهولة من القرون الأولى**: لم تكن هناك كنيسة واحدة أو نظرة لاهوتية واحدة للنصارى في القرون الثلاثة الأولى، وإنما كانت هناك فسيفساء لاهوتية مهيمنة على المشهد العقدي، وكانت كلّ كنيسة تزعم أنّها الصورة البِكر لرسالة المسيح؛ ولذلك فالتمييز التاريخي بين جمهور النصارى والحواشي من الهراطقة قبل مجمع نيقية ليس صوابًا؛ فقد كان التشتت هو الحاكم، وكانت كلّ كنيسة هي «الكنيسة»[٦].

٩ ـ **الاعتماد على قواعد نقديّة منهجية ضعيفة**: انتهى النقّاد إلى مجموعة من المعايير الموضوعيّة التي يُراد منها أن تعين على الفصل بين الأصيل من

---

(١) وهم أنصار العقيدة التي يسميها (بارت إيرمان): "proto-orthodox"
Bart D. Ehrman, *Lost Christianities: The Battle for Scripture and the Faiths We Never Knew*, (New York: Oxford University Press, 2003).

(٢) Paul Ellingworth, *The New International Greek Testament Commentary: The Epistle to the Hebrews* (Grand Rapids, MI: Wm. B. Eardmans, 1993), p.3.

(٣) الرسائل التي لا يميل النقاد عادة إلى التشكيك في أصالتها هي: الرسالة إلى روما، والرسالة الأولى والثانية إلى كورنثوس، والرسالة إلى غلاطية، والرسالة إلى فيلبي، والرسالة الأولى إلى تسالونيكي، والرسالة إلى فليمون.

(٤) Stanley E. Porter, "Pauline Authorship and the Pastoral Epistles: Implications for Canon," *Bulletin for Biblical Research* 5 (1995): 105 - 123.

(٥) Douglas Del Tonto, *Jesus' Words Only* (Infinity Pub, 2006).

(٦) أفضل من تناول هذه الظاهرة التاريخية بالتحليل من خلال تتبع العقائد النصرانية الأولى في المناطق الجغرافية المختلفة:
Walter Bauer, *Orthodoxy and Heresy in Earliest Christianity* (Philadelphia: Fortress, 1971).

خبر المسيح والدخيل، وهي كلّها محلّ جدل ونزاع. ويعتبر «معيار الإحراج» (Criterion of embarrassment) ـ الذي يقرّر أنّ القصص والمواقف التي هي مصدر إحراج للكنيسة وللجماعة النصرانية الأولى يبعد أن تكون مختلقة؛ إذ هي تخدم مصلحة خصوم الكنيسة ـ أكثر معيار مقبول بين النقّاد، وهو في حقيقته دون الصلابة المتوهّمة؛ لأنّ ما قد يراه الناقد اليوم محرجًا، قد لا يكون كذلك في الزمن الأول، كما أنّ الأناجيل الأبوكريفية التي لا تعترف بها الكنيسة، أو النصوص القديمة المتعلقة بحياة المسيح والتي لا يرى لها النقاد اليوم وزنًا تاريخيًّا، تضم كثيرًا من «القصص المحرجة». أضف إلى ذلك أنّ الذين يختلقون القصص الديني قد يفتعلون «قصصًا محرجة» للإثارة المحضة، أو لتوظيفها لأغراض تاريخية أو لاهوتيّة[١].

ومن المفاجئ للقارئ ـ بالإضافة إلى ما سبق بيانه من ضعف القيمة التاريخية للأناجيل ـ أنّ الأناجيل لا تعرّفنا عن المسيح إلّا أقلّ قليل، خاصة إنجيل مرقس الذي هو أوّل الأناجيل الأربعة تأليفًا، ومصدر المادة التاريخية الأكبر لمؤلّفَي إنجيل متّى ولوقا.

وقد كتب الناقد (دنيس نينهام)[٢] في مقدمة تفسيره لإنجيل مرقس: «إنّها لحقيقة تصدمنا أنّهم (كَتَبة الأناجيل) لم يُخبرونا بأي شيء عن هيئة يسوع وبنيته الجسميّة وصحّته، كما لم يخبرونا عن شخصيّته، وعمّا إذا كان ـ على سبيل المثال ـ سعيدًا مبتهجًا رابط الجأش، أم أنّه كان على العكس من ذلك.

إنّهم لم يفكّروا حتّى أن يخبرونا بطريقة ما عمّا إذا كان قد تزوّج أم لا.

كذلك فإنّهم لم يعطونا معلومات محدّدة عن طول فترة دعوته أو عمره حين تُوفيَ، كما أنّه لا توجد أقلّ نبذة عن تأثير بيئته الأولى عليه أو عن أي تطوّر في نظرته ومعتقداته.

---

(١) Stanley E. Porter, *The Criteria for Authenticity in Historical-Jesus Research* (London; New York: T & T Clark International, 2004).

(٢) دنيس إريك نينهام Dennis Eric Nineham (١٩٢١ ـ ٢٠١٦م): قسيس. رئيس قسم اللاهوت في جامعة بريستول. من مؤلفاته: "The Use and Abuse of the Bible".

لقد أمكن حساب الفترة التي تلزم لإتمام الأحداث التي يرويها مرقس، فوُجد أنّها لا تتعدّى ثلاثة أو أربعة أسابيع، عدا الفقرة (١٣/١) التي تقول: «وكان هناك في البريّة أربعين يومًا يُجرَّب من الشيطان». . . لقد دفعت هذه الحقيقة «ستريتر» أن يقرّر في كتابه «الأناجيل الأربعة» (ص٤٢٤) أنّ المجموع الكليّ للأحداث التي سجّلها الإنجيل صغير جدًّا لدرجة أنّ **الثغرات الموجودة في الرواية لا بد أن تكون هي الجزء الجدير بالاعتبار**»[1].

الخلاصة:

• الإقرار بحفظ السيرة النبويّة، يلزم منه ـ ضرورة ـ الإقرار بنبوّة محمّد ﷺ.

• نبيّ الإسلام ﷺ هو الشخصية الدينيّة الوحيدة التي تَقبَل روايات سيرته الفحص التاريخي الذي يقود إلى نتائج حاسمة تاريخيًّا.

• قبول دلالة السيرة على نبوّة (محمّد) ﷺ ليس رهين قبول آحاد من الأحاديث، وإنّما أصله التسليم لمتانة المنهج النظري لعلم النقد الحديثي.

• المؤلفات الإسلامية في السيرة ليست مجرّد نقول متأخرة عن حياة نبيّ الإسلام ﷺ، وإنّما هي مؤلفات منها المبكّر ومنها المتأخّر، وهي كثيرة جدًّا، ومتنوّعة جنسًا، وقائمة على نقل الخبر بأسانيده.

• الطعن الاستشراقي في روايات السيرة بالقول: إنه قد داخلها الزيف لا يُثبت شيئًا في ذاته؛ إذ إنّ علم الحديث قائم على التسليم بوجود الروايات الضعيفة، وقواعده قد أقيمت للتمييز بين المقبول والمردود من الروايات.

• المنهج الاستشراقي في دراسة السيرة قائمٌ أساسًا على الرؤية التآمريّة، والحدسيّة الغالية، على خلاف المنهج النقدي الحديثي القائم على قواعد موضوعيّة مطّردة، وهي وسط بين تسامح غَرّ وشكوكيّة مَرَضيَّة.

---

(١) نقله أحمد عبد الوهاب، النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م)، ص١٩٨.

• العلم بحياة المسيح وأصول دعوته اعتمادًا على الكتب المقدسة للكنيسة أو المؤلفات التاريخية للقرن الأوّل متعذرٌ.

مراجع للتوسّع:

محمد يسري سلامة، مصادر السيرة النبوية، ومقدمة في تدوين السيرة (القاهرة: دار الجبرتي، ١٤٣١هـ).

جين سوفاجيه وكلود كاهين، مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ترجمة: عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م).

صلاح الدين المنجّد، معجم ما ألّف عن رسول الله ﷺ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٨٢م).

فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، تعريب: صالح أحمد العلي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ط٢).

شبلي النعماني وسيد سليمان الندوي، دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ، تعريب: يوسف عامر (حسن عباس زكي، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م) ـ المجلّد الأول ـ.

أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدّثين في نقد روايات السيرة النبوية (المدينة النبوية: مكتبة العلوم والحِكم، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م).

محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ـ صور مقتبسة من القرآن الكريم (صيدا: المكتبة العصرية).

الفصل الثاني

الشرط الثاني: الكمال الأخلاقي

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ربّما علينا أن نتساءل ـ إذا أخذنا في الاعتبار كل المعايير التي من الممكن أن تؤخذ في الحسبان لقياس عظمة الإنسان ـ إن كان هناك أحدٌ أعظمَ من محمّد.

(الشاعر الفرنسي الكبير Alphonse de Lamartine)

بين خيارين.. كمال أخلاقي أم خديعة انتهازيّ؟

الرجل الذي يُؤتى الرسالة من السماء، ويُؤتمن على البلاغ وهداية الناس، هو داعي الخير الذي يمثّل في وعي البشر ـ على اختلاف ثقافاتهم وميولهم ـ نموذج الإنسان الذي استجمع الفضائل من أطرافها، وأدّى الواجبات على أوصافها، واجتنب المساوئ وأوضارها.. والنفس لا تطمئن لأمانته وكفاءته حتى تعرف تفصيل سيرته ودخيلة صدره، فإنّ المقام جليل لا تغني فيه الأخبار العامة والتزكيات المجملة عن البحث في التفاصيل والتنقير عمّا قد يخفى عن نظر العابرين بلا تمحيص.

كيف كان خُلُق نبي الإسلام ﷺ كما تكشفه الوقائع الثابتة في حياته؟

يقول المسلم: «تاريخ السيرة النبويّة شاهد بعريض خبره ودقيق تفصيله أنّ نبيّ الإسلام ﷺ نموذجٌ أخلاقيّ فردٌ، وأنّ كلّ من يقرأ سيرته المحقّقة

بصدق؛ لا بدّ أن تأسره عظمة هذا النبل والمجد، وسيكتفي بما فيها من صدق وحُسن ليشهد لها بالنبوّة التي اعتَزَت إليها».

ويقول غير مسلم ـ المخالف ـ: «البيّنة على من ادّعى! قد لا أخالفك في أنّ نبيّ الإسلام هو أهم شخصيّة مؤثّرة في التاريخ ـ كما هو قول (مايكل هارت) في كتابه (The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History)[١]، والذي يحتفي به المسلمون ظنًّا منّهم أنّه يمجّد نبيّهم، رغم أنّ المؤلّف نفى أن يكون نبيّ الإسلام أعظم من المسيح! ـ إلّا أنّني لا أرى وجوب اقتران عِظم التأثير بعظم الشخصيّة من الناحية الأخلاقيّة».

ما انتهى إليه الطرفان حقٌّ في تَطلّب شهادة التاريخ على الفضل الخُلُقيّ لنبي الإسلام ﷺ، ولذلك فعلى المسلم أن يقيم البرهان على التميّز الإيجابي الفذّ لشخصيّة نبي الإسلام ﷺ، على أن يستوفي هذا البرهان شروطًا، **هي**:

١ ـ الاعتماد على الأحاديث الصحيحة دون غيرها.

٢ ـ أن تكون الشهادة ممن خالط نبيّ الإسلام ﷺ، فلا يُقبل محض الرأي عمّن لم يلاصقه مجالسةً، ويختبر فعله معاينةً، ويعرف خبيئة نفسه وحاله في خلوته أو بعيدًا عن صحبه.

٣ ـ أن يكون للشهادة ما يفسّرها من أحداث عينيّة في حياة نبي الإسلام ﷺ؛ فلا يُقبل الرأي الذي لا تشهد له الوقائع والتجربة.

جِماع ما سبق من شروط لقبول الشهادة يضمن للباحث في أمر السيرة الخُلُقيّة لنبي الإسلام ﷺ أن تسفر له عن وجهها دون طلاء تجميل يخفيها عن عين التاريخ الناقدة.

١ ـ الصلاح الخلقي:

تأبى الحكمة أن يُناط حملُ الرسالة الإلٰهية الهادية لصلاح المعاش ونجاة المعاد بمن لا يأمن الناس غوائله ولا يأنسون بطيب معشره، وصدق لهجته..

---

(١) عَرّبه (أنيس منصور) تحت عنوان: «الخالدون مائة، أعظمهم محمّد ﷺ».

وقد عاش نبيّ الإسلام ﷺ بين الناس يخالطهم مخالطة من لا يخشى كشف مخبوء، أو سَتر مدسوس، ولذلك تعلّق به من عرفه تعلّق من ينشد معلّمًا للخير ورائدًا في طريق الصلاح يدلّه على معالم طريق المدلجين إلى النجاة. . .

وإذا سألت: فكيف كانت فِعاله مخبرة عن حاله؟ فاعلم أنّ السؤال مجملٌ فقير إلى التفصيل؛ فإنّ ملامح الخير في نبيّ الإسلام ﷺ كثيرة وشفيفة، تحتاج إلى بيان. .

لقد عاش نبي ﷺ الإسلام في بيئة قاسية في طبيعتها الصحراوية، وهو ما يجعل الشدّة المَعْلَم الأوّل للشخصية العربيّة، وكانت أعراف البيئة تمجّد خصال القوّة المحضة وترفع شأن أهل البطش الذين يصولون على الخصم بالسيف والمكر، فكان جلال الشخصيّة ـ المستقيمة في الذهنية العربية ـ هو في حدّتها حتى في الحق، ولم يكن طابع اللين متآلفًا مع هذه الشدّة، ولذلك كانت مجامع خُلق نبيّ الإسلام ﷺ طرازًا على غير مألوف العرب؛ ففيها قوّة أهل الحق، ورقّة الودعاء، وسماحة أهل الفضل. . . وهي الخِلال التي جمّعت حوله أصحابه إجلالًا لعظمته، وخضوعًا لجاذبيّتة. لقد كان فيه ما يعظّمه العربيّ في الأكابر، وكان فيه فوق ذلك. .

ولعلّ من أفضل ما لُخّص به حال نبيّ الإسلام ﷺ ـ من غير المسلمين ـ قول المستشرق (بوسورث سمث)[(١)]: «لقد كان قيصر والبابا معًا، لكنّه كان البابا دون دعاوى البابا، وكان قيصرَ دون فيالق قيصر، ودون جيشه المتأهب، ودون حرسه، ودون قصره، ودون راتبه الثابت. وإذا حقّ لأيّ أحد أنّ يحكم بالحق الإلٰهي، فسيكون محمّدًا؛ لأنّه كان يملك كلّ السلطة دون أدواتها ولا معوناتها»[(٢)].

وبعيدًا عن شهادات المتأخّرين، علينا أن نسأل المقرّبين عن كلّ أمر نبي الإسلام ﷺ، فعندهم الخبر اليقين، فشهادتهم خبر عن معاينة، ووصف مباشر

---

(١) بوسورث سمث Bosworth Smith (١٨٣٩ ـ ١٩٠٨م): مؤلّف بريطاني، ونصراني متديّن. من أهم مؤلفاته: "Carthage and the Carthaginians".

(٢) Bosworth Smith, *Mohammed and Mohammadanism* (London: 1874), p. 92.

لحالٍ وفِعالٍ؛ ولذلك لا يرفع أحدٌ شهادته فوق شهادتهم، ومن مجموع قولهم يرتسم في الذهن دقيق خُلُق نبيّ الإسلام ﷺ. . وشهادتهم فوق تشكيك المشكّكين إذا جمعت بين النقل المباشر، والتفصيل في نقل الوقائع الدالة على الطبائع. . فما جوابهم إذا سئلوا بما ينفع المؤرّخ لأخلاق نبيّ الإسلام ﷺ في نحت ملامح الشخصية المحمّديّة أمام أعين الناظرين لتتحسّس فيها التفصيلات والنتوءات؟

إن سألتَ عن **كلام** نبيّ الإسلام ﷺ، فقد وصفه خادمه (أنس) رضي الله عنه بقوله: «لم يكن النبي ﷺ سبّابًا ولا فحّاشًا ولا لعّانًا. كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «**ما له ترب جبينه!**»»[(١)].

وإن سألت عن **صمته،** فعن (سماك بن حرب) ـ التابعي ـ، قال: «قلت لجابر بن سمرة (الصحابي): أكنت تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم كان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه ربما تناشدوا عنده الشعر والشيء من أمورهم، فيضحكون، وربما يتبسّم»[(٢)].

وإن سألت عن **شجاعته،** فاقرأ قول خادمه (أنس) رضي الله عنه فيه: «كان أشجع الناس. ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ (ليس عليه سَرْجٌ)، في عنقه السيف، وهو يقول: «**لن تراعوا**»»[(٣)].

وقال صاحبه (البراء بن عازب): «كنّا إذا احمر البأس نتّقي به، وإنّ الشجاع منّا الذي يحاذي به ـ يعني: رسول الله ﷺ ـ»[(٤)].

وإن سألت عن **عفوه،** فاسمع قول (جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ) رضي الله عنه: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا قَالَ: وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا (ح/ ٥٦٨٤).

(٢) رواه أحمد (ح/ ٢٠٨٢٩). وصحّحه الألباني.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، (ح/ ٢٠٣٣)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي عليه السلام وتقدمه للحرب، (ح/ ٢٣٠٧)

(٤) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، (ح/ ١٧٧٦).

الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**إِنَّ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ، قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ**» ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ[(١)].

ولـمّا جاءه (عكرمة) ـ عدوّه وابن رأس الكفر (أبي جهل) ـ يطلب الأمان؛ قال رسول الله ﷺ: «**أنت آمن**». فقال (عكرمة): «أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأنت عبد الله ورسوله، وأنت أبرُّ الناس، وأصدق الناس، وأوفى الناس». قال عكرمة: «أقول ذلك وإني لمطأطئ رأسي استحياء منه»، ثم قلت: «يا رسول الله، استغفر لي كلَّ عداوة عاديتكها، أو موكب أوضعت فيه أريد فيه إظهار الشرك». فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغفر لعكرمة كلَّ عداوة عادانيها، أو موكب أوضع فيه يريد أن يصدَّ عن سبيلك**»[(٢)].

وإن سألت عن **جوده**، فقد قال فيه تلميذه (ابن عباس) رضي الله عنه: «كان رسول الله أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن؛ فلَرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة»[(٣)].

وقال فيه (أنس) رضي الله عنه: «ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا إلا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإنّ محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة»[(٤)].

وإذا سألت عن **معاملته خادمه**، فاعلم قول خادمه (أنس) رضي الله عنه فيه: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا. فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب. وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ. قال: فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قابض بقفاي من

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق، من خزاعة، وهي غزوة المريسيع (ح/ ٤١٣٩)، رواه مسلم، كتاب الفضائل، بَابُ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَعِصْمَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ من الناس (ح/ ٤٣٥٣).

(٢) رواه الحاكم (ح/ ٥٠١١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان، (ح/ ١٨٠٣).

(٤) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه (ح/ ٢٣١٢).

ورائي. فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «**يا أنيس! اذهب حيث أمرتك!**». فقلت: «نعم أنا أذهب يا رسول الله». قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين، ما علمت قال لشيء تركت هلّا فعلت كذا وكذا»[١].

وإن سألت عن **حيائه**، فقد قال فيه صاحبه (أبو سعيد الخدري) ﵁: «كان رسول الله أشد حياء من العذراء في خدرها. وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه»[٢].

وإن سألت عن **لينه وإنكاره ذاته**، فاعلم أنّ زوجه (عائشة) ﵂ قالت: «ما خُيّر رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله»[٣].

وإن سألته عن **أدبه في التربية**، فسيخبرك (خَوَّاتَ بن جُبَيْر) ﵁ عن قصّة عظيمة، قال فيها: «نَزَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ. قَالَ: فَخَرَجْتُ مِنْ خِبَائِي فَإِذَا أَنَا بنسْوَةٍ يَتَحَدَّثْنَ، فَأَعْجَبْنَنِي، فَرَجَعْتُ فَاسْتَخْرَجْتُ عَيْبَتِي، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنهَا حُلَّةً فَلَبِسْتُهَا وَجِئْتُ فَجَلَسْتُ مَعَهُنَّ. وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ قُبَّتِهِ، فَقَالَ: **أَبَا عَبْدِ اللهِ مَا يُجْلِسُكَ مَعَهُنَّ؟** فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ هِبْتُهُ واخْتَلَطْتُ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ جَمَلٌ لِي شَرَدَ، فَأَنَا أَبْتَغِي لَهُ قَيْدًا. فَمَضَى وَاتَّبَعْتُهُ، فَأَلْقَى إِلَيَّ رِدَاءَهُ وَدَخَلَ الأَرَاكَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ مَتْنِهِ فِي خَضِرَةِ الأَرَاكِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ وَتَوَضَّأَ، فَأَقْبَلَ وَالْمَاءُ يَسِيلُ مِنْ لِحْيَتِهِ عَلَى صَدْرِهِ، أَوْ قَالَ: يَقْطُرُ مِنْ لِحْيَتِهِ عَلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ: **أَبَا عَبْدِ اللهِ مَا فَعَلَ شِرَادُ جَمَلِكَ؟**

ثُمَّ ارْتَحَلْنَا فَجَعَلَ لا يَلْحَقُنِي فِي الْمَسِيرِ، إِلّا قَالَ: **السَّلامُ عَلَيْكَ أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا فَعَلَ شِرَادُ ذَلِكَ الْجَمَلِ؟** فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ تَعَجَّلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ، واجْتَنَبْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُجَالَسَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ تَحَيَّنْتُ سَاعَةَ خَلْوَةِ الْمَسْجِدِ، فَأَتَيْتُ الْمَسْجِدَ فَقُمْتُ أُصَلِّي، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَعْضِ

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، (ح/ ٢٣١٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، (ح/ ٣٣٦٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، (ح/ ٢٣٢٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (ح/ ٣٣٦٧)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدة النبي للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، (ح/ ٢٣٢٧).

حِجْرِهِ، فَجْأَةً فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، وطَوَّلْتُ رَجَاءَ أَنْ يَذْهَبَ ويَدَعُنِي، فَقَالَ: **طَوِّلْ أَبَا عَبْدِ اللهِ مَا شِئْتَ أَنْ تُطَوِّلَ فَلَسْتُ قَائِمًا حَتَّى تَنْصَرِفَ،** فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللهِ لأَعْتَذِرَنَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ولأُبْرِئَن صَدْرَهُ، فَلَمَّا قَالَ: **السَّلامُ عَلَيْكَ أَبَا عَبْدِ اللهِ مَا فَعَلَ شِرَادُ ذَلِكَ الْجَمَلِ؟** فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا شَرَدَ ذَلِكَ الْجَمَلُ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ: **رَحِمَكَ اللهُ** ثَلاثًا، ثُمَّ لَمْ يُعِدْ لِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ»[1].

وإن سألت عن **صلاته بالليل،** فاعلم أنّ زوجه (عائشة) رضي الله عنها شهدت أنه «كان يصلّي إحدى عشرة ركعة (أي: في الليل) يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر، ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة»[2].

وقال صاحبه (ابن مسعود) رضي الله عنه: «صلّيت مع النبي ﷺ ليلة فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء، قيل: ما هممت؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه»[3].

وعن صاحبه (حذيفة) رضي الله عنه: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى. فقلت: يصلي بها ركعة (أي: بالبقرة) فمضى. فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها [وهذه السور تعدل سدس القرآن]، يقرأ مسترسلًا إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بتعوّذ تعوّذ، ثم ركع فجعل يقول: **سبحان ربي العظيم**. فكان ركوعه نحوًا من قيامه. ثم قال: **سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد**. ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: **سبحان ربي**

---

(١) رواه الطبراني، المعجم الكبير (ح/ ٤١٦٤). قال (الهيثمي): رواه الطبراني من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير الجراح بن مخلد، وهو ثقة.

(٢) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب طول السجود في قيام الليل (ح/ ١٠٧٠). كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل وأن الوتر ركعة وأنّ الركعة صلاة صحيحة (ح/ ١٢١٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل (ح/ ١١٣٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (ح/ ٧٧٣).

الأعلى. فكان سجوده قريبًا من قيامه»[1].

وقالت زوجه (عائشة) رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة (أي: قيام الليل) من وجع أو غيره صلّى من النهار اثنتي عشرة ركعة»[2].

وإن سألت عن **صومه**، فاعلم قول خادمه (أنس) رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئًا، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته، ولا نائمًا إلا رأيته»[3].

وإن سألتَ عن **أثر القرآن فيه**، فاسمع لصاحبه (ابن مسعود) رضي الله عنه قوله: «قال لي النبيّ ﷺ: **اقرأ عَلَيَّ القرآن**. فقلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: **إني أحب أن أسمعه من غيري**. فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت هذه الآية: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾**﴾ [النساء: ٤١] فقال: **حسبك**. فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان»[4].

وإن سألت عن مبلغ **ذكره لله**، فاسمع لقول (عائشة) رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»[5].

وإن سألت عن **استغفاره**، فأرخِ السمع لقول (ابن عمر) رضي الله عنه: «كنّا نعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: **رب اغفر لي، وتب عَلَيَّ، إنّك أنت التواب الرحيم**»[6].

وإن سألت عن **إعظامه لنعمة الله عليه**، فاعلم قول صاحبه (المغيرة بن شعبة) فيه لما قيل للنبيّ ﷺ بعد أن تورّمت قدماه من العبادة: «يا رسول الله،

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (ح/ ٧٧٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (ح/ ١٤٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل من نومه، وما نسخ من قيام الليل (ح/ ١١٤١).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك (ح/ ٤٧٨١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن (ح/ ١٣٣٢).

(٥) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (ح/ ٣٧٣).

(٦) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس (ح/ ٣٤٣٤). صحّحه الألباني.

قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك؟» قال: «**أولا أكون عبدًا شكورًا؟!**»[1].

وإن سألت عن **حاله مع الطعام**، فاعلم قول لصيقه (أبي هريرة) رضي الله عنه: «ما عاب رسول الله طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلّا تركه»[2].

وإن سألت عن **تواضعه**، فاعلم قول خادمه (أنس) رضي الله عنه عن حال الصحابة معه صلى الله عليه وسلم: «ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله. وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك»[3].

وقوله: «كانت الأَمَة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله فتدور به في حوائجها حتى تفرغ ثم يرجع»[4].

وقوله: «ما رأيت رجلًا التقم أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما رأيت رجلًا أخذ بيده فترك يده، حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده»[5].

وإن سألت عن **صبره على الجوع**، فاعلم قول زوجه (عائشة) رضي الله عنها: «ما شبع رسول الله ثلاثة أيام تباعًا من خبز برّ حتى مضى لسبيله»[6].

وإن سألت عن **صبره على شدة العيش**، فاعلم أنّه لما طلب منه (أبو هريرة) أن يجعل له بساطًا فوق الحصير الذي آذى جنبه الشريف، قال صلى الله عليه وسلم: «**ما لي وللدنيا. ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها**»[7].

وإن سألت عن **زهده في المال**، فاسمع لقول (عقبة بن الحارث) رضي الله عنه:

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا، (ح/ ٤٥٥٧)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، (ح/ ٢٨١٩)، واللفظ لأحمد، (ح/ ١٨١١٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما عاب النبيّ صلى الله عليه وسلم طعامًا، (ح/ ٥٠٩٣)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب لا يعيب الطعام، (ح/ ٢٠٦٤).

(٣) رواه الترمذي في الشمائل، (ح/ ٣٣٥). صححه الألباني.

(٤) البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر (ح/ ٦٠٧٢).

(٥) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة (ح/ ٤٧٩٤). حسّنه الألباني.

(٦) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتخليهم من الدنيا (ح/ ٦٠٨٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، (٢٩٧٠).

(٧) رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، (ح/ ٢٣٧٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

«صلّى بنا رسول الله ﷺ العصر، فأسرع، وأقبل يشق الناس حتى دخل بيته، فتعجب الناس من سرعته، ثم لم يكن بأوشك من أن خرج، فقال: **ذكرت شيئًا من تبر**[(١)] **كان عندنا، فخشيت أن يحبسني، فقسمته**»[(٢)].

وإن سألت عن **تعاهده من خفي حاله من عامة الناس،** فاسمع لشهادة (أبي هريرة) رضي الله عنه أنّ رجلًا أسود ـ أو امرأة سوداء ـ كان يقمّ[(٣)] المسجد فمات، ولم يعلم النبي ﷺ بموته، فذكره ذات يوم، فقال: «**ما فعل ذلك الإنسان؟**» قالوا: «مات يا رسول الله!» قال: «**أفلا آذنتموني؟!**» فقالوا: «إنه كان كذا وكذا قصته». قال: فحقروا شأنه. قال: «**فدلّوني على قبره!**» فأتى قبره، فصلّى عليه[(٤)].

وإن سألته عن **لطفه مع من أساء الطلب،** فاسمع قول (أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ) رضي الله عنه قوله: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ لَهُ: أُحَرِّجُ عَلَيْكَ إِلَّا قَضَيْتَنِي. فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ، وَقَالُوا: وَيْحَكَ! تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ؟ قَالَ: إِنِّي أَطْلُبُ حَقِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَلَّا مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ**». ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ، فَقَالَ لَهَا: «**إِنْ كَانَ عِنْدَكِ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّى يَأْتِيَنَا تَمْرُنَا فَنَقْضِيَكِ**»، فَقَالَتْ: نَعَمْ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَأَقْرَضَتْهُ. فَقَضَى الْأَعْرَابِيَّ وَأَطْعَمَهُ، فَقَالَ: أَوْفَيْتَ أَوْفَى اللهُ لَكَ، فَقَالَ: «**أُولَئِكَ خِيَارُ النَّاسِ، إِنَّهُ لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ**»[(٥)].

وإن سألت عن **معونته أهله،** فاعلم أنّ زوجه (عائشة) رضي الله عنها قالت: «كان يكون في مهنة أهله ـ تعني: خدمة أهله ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[(٦)].

وإن سألت عن **وفائه لزوجه،** فاسمع لقول (عائشة) رضي الله عنها عن زوجه الأولى (خديجة) رضي الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ

(١) تبر: ذهب.
(٢) رواه البخاري، أبواب صفة الصلاة، باب من صلى بالناس فذكر حاجة فتخطاهم (ح/٨١٣).
(٣) يقمّ: يكنس.
(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر بعد ما يدفن (ح/١٢٧٢).
(٥) رواه ابن حبّان، كتاب الصدقات (ح/٢٤٢٦). صحّحه الألباني.
(٦) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله، (ح/٥٦٩٢).

يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**»(١).

وإن سألت عن **رفقه بالنساء**، فاسمع لقول خادمه (أنس) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي سَفَرٍ وَكَانَ غُلَامٌ يَحْدُو بِهِنَّ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ**»(٢).

وكان من كلامه ﷺ في «خطبة الوداع» في عظيم النصائح قبل الرحيل إلى الرفيق الأعلى: «**أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**»(٣).

وإن سألت عن **رحمته كبار السنّ وتوقيره لهم**، فاعلم أنّه لما فُتحت مكة جاء (أبو بكر) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأبيه يحمله حتى بايع رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا كنتَ تركتَ الشيخ في منزله حتى نكون نحن الذي نأتيه؟**»(٤).

وإن سألت عن **رحمته بالأطفال، والأمهات**، فاشهد قوله ﷺ: «**إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من وجد أمه من بكائه**»(٥).

وإن سألت عن **ملاطفته الأطفال**، فاعلم قول (أنس) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: **يا أبا عُمَير ما فعل النُّغَير** (طائر صغير كالعصفور)»(٦). فكان يكنّي الطفل الصغير «أبا عُمير»، ويسأله عن طائره الصغير ملاطفة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب تزويج النبي ﷺ (ح/٣٥٥٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (ح/٥٧٠٧)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمة النبي ﷺ للنساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن (ح/٢٣٢٣).

(٣) رواه الترمذي، أبواب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (ح/١١٦٣)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج (ح/١٨٥١). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٤) رواه أحمد (٢٧٠٠١)، وابن حبان (٧٢٠٨)، والحاكم (٤٣٦٣)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال (شعيب الأرناؤوط): إسناده حسن.

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي (ح/٧٠٩)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (ح/١٩٢).

(٦) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس (ح/٥٧٧٨)، ومسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه وجواز تسميته يوم ولادته (ح/٤٠٠٣).

وإن سألت عن **رحمته بالحيوان**، فاعلم أنّ صاحبه (عبد الله بن مسعود) رضي الله عنه قال: «كنّا مع رسول الله في سفر فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان لها، فأخذناهما، فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) فلما جاء الرسول ﷺ قال: **من فجع هذه بولدها؟ ردّوا ولدها إليها!**»[1].

وإن سألت عن **جميع أمره**، فاعلم أنّ زوجه (عائشة) رضي الله عنها قالت: «خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ القُرآنَ»[2].

ماذا بقي من مناقب وجميل خصال ـ بعدما ذكرنا ـ غير الصدق، والصدق عظيم، فبه يُؤتمن الرسول على رسالته، والمبلّغ على ما بثّه فيه من بَعَثَهُ؟ وهو ما يأتيك بيانه بشهادة القريب والبعيد.

٢ ـ الصدق.. برهان النبوّة:

قلبُ النبوّة هو بلاغ عبدٍ مصطفى من الله لرسالة ربّانية إلى الناس لهدايتهم دروب العقائد والشرائع والأخلاق. ولما كان البلاغ هو أصل فعل النبيّ، كان الصدق أعظم مطلوب في الأنبياء.

والناظر في نبوّة محمّد ﷺ ملزم ألا يخرج عن واحد من خيارين، إمّا القول بصدق محمّد ﷺ، وأنّه آمن أهل الأرض في بلاغ ما أُدّي إليه، فما ادّعاه لنفسه من وساطةِ بلاغٍ بين الناس وخالقهم صدقٌ خالص، أو أن يرميه بأعظم أوجه الكذب والافتراء، وأنّه كان يزوّر كلّ قوله، وظاهر فعله، وأنّه كان يمكر كلّ المكر بمن يسمعونه، ويخادع عن إضمار صريح ناشب في قلبه[3]. فمدّعي النبوّة إمّا أن يكون ـ كما قيل ـ أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين.

ومن أراد أن يثبت خلاف ظاهر نبي الإسلام ﷺ فقد ارتقى ـ بطلبه ـ

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في قتل الذر (ح/٥٢٦٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (ح/٧٤٦).

(٣) هناك خيار ثالث سنتناوله لاحقًا، وهو: أنّ نبيّ الإسلام ﷺ كان مصروعًا، يتوهّم حاله المرضيّة حال نبوّة. وهو خيار يندر أن تجد له أنصارًا اليوم.

مرتقى صعبًا، وكلّف نفسه أن يثبت مرامًا عصيًّا، إلا أن يحشد لذلك البراهين، وينفي المعارضات، وذلك أنّ نفي الصدق عن (محمد) ﷺ يلزم منه أن يكون هذا الرجل أعظم مفتر ومخادع سعى على الأرض؛ إذ كان يفتعل القرآن عند كلّ حادثة، حتى إنه يأتي بأفعال وحركات شديدة بدعوى الاستجابة لعارض الوحي، كما كان يفتعل الإخلاص لإفراد الربّ بالعبادة والتمجيد، وكان يخدع من يلازمه من أصحابه، ويفتعل النزاهة في معاملاته، ويخدع حتى نساءه في بيته بافتعال الصدق والنزاهة. . . !

خلاصة البرهان المطلوب من منكر طابع الصدق في شخصية نبي الإسلام ﷺ هو أن يوضّح كيف استطاع رجل ظاهره الحماسة لإفراد الربّ بالطاعة، وتنزيه القلوب عن الشرك، والزهد في الملاذ، والسعي لصلاح معاش الناس ومعادهم ـ وهو الأمر الذي شهد به من عاشره في الليل والنهار، والحل والارتحال، والغضب والرضى، والسلم والحرب، والضيق والفرج ـ أن يبطن في قلبه عكس ذلك، فهو يحبّ الكذب، ويمعن فيه، ولا يجد سبيلًا لما يريد إلا به. . .

وحتّى تتضّح لك بعمقٍ وعورة الطريق الذي يريد منكر نبوّة (محمد) ﷺ أن يسلكه، عليك أن تقرأ بشيء من التفصيل شهادة التاريخ لصدق نبي الإسلام ﷺ.

أ ـ شهادة الحال:

يقول المستشرق الفرنسي (بول كازانوفا)[1] في كتابه «محمد ونهاية العالم» الذي طعن فيه في ربّانيّة القرآن وحفظ الصحابة له: «يهمني أن أعلن في البدء أنّني أرفض **ابتداءً** كلّ نظرية تذهب إلى الشكّ في صدق محمد. . . إنّه من **المخالف لكلّ روح علميّة** الزعم ـ دون حجّة ـ أنّ هناك دجلًا وحسابات [مصلحيّة]. إنّ **كل تاريخ النبيّ العربيّ** يُثبت أنّ شخصيّته إيجابيّة،

(١) بول كازانوفا Paul Casanova (١٨٦١ ـ ١٩٢٦م): أركيولوجي ومستشرق فرنسي، ولد في الجزائر، عمل أستاذًا للغة والآداب العربيتين في فرنسا. من مؤلفاته: "La Doctrine secrète des Fatimides d'egypte".

وجادة، ومخلصة»[1].

لقد كان نبي الإسلام ﷺ ملازمًا للصدق بين الناس، دون بادرة خديعة أو دسيسة مكر، في بيئة تعظّم الرجولة وتزدري الخيانة وتستقلّ صاحبها. وقد عُرف ﷺ في قومه بالصدق حتى لُقّب «بالصادق الأمين». وله في ذلك حوادث ومواقف؛ حتّى إنّ من ردّوا رسالته لم توحِ إليهم دواخل أنفسهم تكذيبه، وإنّما ساقتهم معاداتهم لدعوة التوحيد ومفارقة دين الأجداد إلى رفض رسالته دون الشكّ في نزاهته، يقول القرآن: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، فهم لم يشهدوا عليه بكذب، وإنّما أنكروا ـ عنادًا ـ نبوّته.

ومن الأحداث التي تُسفر عن موقف قومه من أمانته، أنّه لمّا أُمر بدعوة عشيرته، صعد على الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فهر! يا بني عدي!**» لبطون قريش حتى اجتمعوا. فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ؟**» قالوا: «نعم ما جرّبنا عليك إلا صدقًا». قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». قال أبو لهب: «تبًّا لك يا محمد ألهذا جمعتنا!» فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[2].

وقد كان لا يفارق الصدق حتّى في مزاحه، حتّى قال له (أبو هريرة) رضي الله عنه: «يا رسول الله! إنّك تداعبنا، قال: **إني لا أقول إلّا حقًّا**»[3]. ويذكر (أنس بن مالك) رضي الله عنه «أنّ رجلًا أتى النبي ﷺ فاستحمله، فقال رسول الله ﷺ: «**إنا حاملوك على ولد ناقة**». فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وهل تلد الإبل إلا النوق؟**»»[4].

---

(١) Paul Casanova, *Mohammed et la Fin du Monde: eitude critique sur l'Islam primitif* (Paris: Geuthner, 1911), p.5.

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد (ح/٤٥٢٣).

(٣) رواه الترمذي، كتاب البرّ والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في المزاح. قال (الترمذي): هذا حديث حسن صحيح.

(٤) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح (ح/٤٩٩٨)، والترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في المزاح (ح/١٩٩١). قال (الترمذي): حديث حسن صحيح غريب.

لقد صدق في الجد والمزاح، مع الصديق والعدو، وعند السلم والحرب، وبين الأهل والأباعد، وحين الاستضعاف وعند بسط التمكين، وإبّان إبرام العهود وعقد المواثيق.. لم يغيّره حال إلى غير حاله الأوّل..

وقد أقبل الرسول ﷺ على مشاق الدنيا برضا نفس، وردّ الإغراءات بثبات قلب، واختار الطريق الوعر الذي جناه الوحشة والدمع، حادِيهِ بلاغُ الحق وردّ الناس عن ميراث الآباء من عبادة الأصنام، ودفعهم عن مساوئ الأخلاق، وجمعهم على مساقي الخير والبر.. فكيف يجتمع ذلك مع الصورة المقابلة التي ينتصر لها غير المسلم، والتي هي لكاذب أُترِع قلبه حبّ الخديعة وأقفر قلبه من معاني الخير؟! كيف يأتلف النقيضان، وقد تباعدا كلّ التباعد؟!

لقد أحسن المستشرق النصراني (مونتجمري وات) إذ كشف أنّ الانحياز لقول المكذّبين، باب **للحيرة** وليس فاتحة جواب شافٍ، فقد قال عن نبي الإسلام ﷺ: «إنّ استعداده للتعرّض للاضطهاد بسبب عقيدته، ووجود شخصيات تقيّة آمنت به واتّخذته قائدًا، وعظيم إنجازاته النهائيّة.. كلّ ذلك حجّة لحقيقة صدقه. **إنّ افتراض أنّ محمّدًا كان دجالًا يطرح إشكالات أكبر من الأسئلة التي يجيب عنها**»[1].

ب ـ شهادة الأتباع:

اجتمعت شهادة الأتباع منذ العهد الأوّل للنبوّة على الشهادة لمحمّد ﷺ بالصدق في أصفى مظاهره وأنصع معانيه. وقد أقرّ له من آمنوا به بالصدق قبل أن تكون له دولة، ويحوز السلطان، وهو ما رأى فيه المستشرق المُنَصِّر المخاصم للإسلام (ويليام موير)[2] حجّة لبراءة ذمّة نبيّ الإسلام ﷺ من تقصّد الخديعة، قائلًا: «إنّ من أعظم معزّزات صدق محمد أنّ أوائل المعتنقين للإسلام كانوا أقرب أصدقائه إليه، وأهل بيته، وهم الذين لهم صلة وثيقة

---

(١) Montgomery Watt, *Mohammad at Mecca* (Oxford: Clarendon Press), p. 52.

(٢) ويليام موير William Muir (١٨١٩ ـ ١٩٠٥م): مستشرق ومنصّر اسكتلندي. أسّس جامعة «الله آباد» في الهند. وعمل عميدًا لجامعة إدنبره. من مؤلفاته:
" The Beacon of Truth, or, Testimony of the Coran to the Truth of the Christian Religion"

بحياته الخاصة فلا يخفى عليهم ملاحظة تناقض الحال الذي لا يخلو منه ـ بصورة كبُرت أو صغرت ـ المخادع المنافق عندما يكون في ملأ ويكون في بيته»[١].

ت ـ شهادة الخصوم:

كان هرقل رجلًا ذكيًّا، فطنًا، عركته الأيّام، وخبر حال الرجال، ولذلك سأل (أبا سفيان) **أيام كفره**، لمّا كانت العداوة بينه وبين (محمّد) ﷺ على أشدّها، إن كان يتّهمه بالكذب، فلمّا أجاب (أبو سفيان) بالنفي، قال هرقل: «سألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنّه لم يكن ليدعَ الكذب على الناسِ ويكذبَ على الله تعالى»[٢].

٣ ـ هل لنبي الإسلام غرض دنيوي؟

ما الذي يطمع فيه مدّعو النبوّة غير المجد الدنيوي والتسلّط على رقاب الناس، والتنعّم بخيراتهم؟! فهل في حياة (محمد) ﷺ من ذلك الشيء شيء؟

لا تبحر في الكتب بعيدًا، ولا تسمع لحسيس المشككين من المستشرقين الذين ألقوا بحماسة غاضبة ظلال التهمة على كلّ شيء حتى أُلجِئ بعضهم إلى إنكار الوجود التاريخي لنبيّ الإسلام ﷺ، وإنّما ولِّ وجهك ـ فعلًا ـ إلى المدينة المنورة، إلى المسجد النبوي، واسأل هناك عن الحجرة النبوية التي كان يسكنها النبيّ ﷺ مع زوجه (عائشة) رضي الله عنها، لمّا كان الأكاسرة والقياصرة يسكنون فواره العمائر، ويتقلّبون فوق البسائط والمياثر؛ فستكتشف أنّها ضيقة الأركان لا تتسّع لمن ملأت الدنيا وشهواتها قلوبهم... إنّها شاهد تاريخي ماثل أمام عينيك لتكون من المصدّقين.

لقد عاش نبي الإسلام ﷺ مقتصدًا في كلّ نعمة، ومنها المأكل والمشرب، حتى أخبر لصيقُه وصاحبُه (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه فقال: «لقد

---

(١) William Muir, *The Life of Mahomet: From Original Sources* (London: Smith, 1877), p.60

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة آل عمران، باب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (ح/٤٢٧٨)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (ح/١٧٧٣).

رأيت رسول الله ﷺ يظلّ اليوم يلتوي ما يجد من الدَقَل (التمر الرديء) ما يملأ به بطنه»[1].

وإذا طاف بذهنك طائف الريبة أنّ ذاك حال نبيّ الإسلام ﷺ في مكّة زمن الاستضعاف، والضيق، والحصار، فاعلم أنّ عزوفه عن الدنيا في حال إقبال النعمة كعزوفه عنها عند إدبارها، فلم تكن جوعة البطن أصل استقامته وهو مُكره، وإنما هي نزعة نفسٍ أصيلة في عميق قلبه. وقد شهدت (عائشة) رضي الله عنها أنّه «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعًا حتى قبض»[2]. كما تخبرنا رضي الله عنها أنّه في مرض موت النبيّ ﷺ، والألم قد أنهك زوجها، وأقعده، استجمع النبيّ ﷺ جهده، وأمر زوجه الساهرة على تمريضه أن تتصدّق بذهب كان عنده، ثم عاد بعد قليل فسألها عن الذهب، فقالت: إنها قد شُغلت بمرضه فلم تعاجل بالتّصدق بالذهب. فأمرها أن تحضره، وقال لها بنبرة مشحونة برغبة فائضة بالتخلّص من كلّ أثر يشدّه إلى زينة الدنيا: «**ما ظنّ محمّد لو لقي الله وهذه عنده، وما تنفي هذه من محمد ﷺ لو لقي الله وهذه عنده**»[3]. فهل يُقبل دَعِيُّ النبوّة على الموت ونفسه متعلّقة بالتخلّص من كلّ علائق الدنيا ولو كان ذلك بعض المال القليل الذي تحتاجه زوجه بعده؟! لقد غادر الدنيا، وما في البيت ـ كما تقول (عائشة) رضي الله عنها ـ: «شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفّ لي»[4].

وقد حيّر حاله أتباعه، حتّى طاشت منه العقول وذهلت منه النفوس، فهذا (عمر) رضي الله عنه يخبر بما شهده: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير. قال: فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ في ناحية الغرفة، وإذا إهاب معلق، فابتدرت عيناي فقال: «**ما يبكيك يا ابن الخطاب؟**» فقال

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق (ح/ ٢٩٧٧)

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق (ح/ ٦٠٨٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق (ح/ ٢٩٧٠).

(٣) رواه أحمد. قال (الهيثمي): رواه كله أحمد بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

(٤) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، (٦٠٨٦)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، (٥٢٨١).

(عمر): «يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانتك!» قال: **«يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟!»**»[1].

ومع رقّة الحال ـ عن غير طلب، لا عن غير مقدرة ـ، كان نبيّ الإسلام ﷺ سخيّ النفس لا يشحّ بالعطاء في رفاه وشدّة، حتى قال عنه صاحبه (جابر بن عبد الله) رضي الله عنه: «ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط، فقال: «لا»»[2].

إنّ عبيد الدنيا من السُّعاة إلى حظوظ النفس يعبّون من لذائذ الدنيا عبًّا، ثمّ يبذلون كلّ الجهد لأن يرث أولادهم عنهم المال الوفير والمسكن العظيم وكلّ أسباب النعيم والراحة، وليس في حياة (محمد) ﷺ شيء من ذلك، فقد مات ودرعه مرهونة عند رجل من أقليّة عاشت في دولته (يهودي)[3]، وقال موصيًا قبل موته: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة»**[4]. فلم ترثه بنته، ولا أزواجه... أترى الدجّال الذي يتّخذ الدين مركبًا لأغراض نفسه ووساوس أهوائه يعيش كفافًا، ويموت كفافًا، ويترك أهله على الكفاف؟!

وهل الدجّال الذي أُشربت نفسه هواها وحبّ العلو في الأرض يرضى أن يلبس مما يلبس الناس، ويأكل مما يأكل الناس، ويركب ما يركب الناس، ويزجر من يرفعه فوق مقام البشرية؟!

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ضجاع آل محمد ﷺ، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل (ح/٦٠٣٤)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا (ح/٢٣١١).

(٣) قالت أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير». رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (ح/٢٧٥٩).

(٤) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: **«لا نورث ما تركنا صدقة»** (ح/٦٣٤٦)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: **«لا نورث ما تركنا فهو صدقة»** (١٧٥٨).

لقد حسم القرآن كلّ جدل في طمع بشري أن يوضع نبي الإسلام ﷺ فوق مقامه؛ إذ يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فهي بشريّة لا مِرية فيها. وما هذا الرجل في قومه غير آدمي لم ينسلخ عن أعراض البشريّة، حتّى اتّخذ خصومه ذاك تكأة للنيل منه؛ إذ قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: ٧].

أقبل نبيّ الإسلام ﷺ على الزهد بقلب طيّع وقد جاءته الدنيا بملذّاتها في ذلّة وزينة.

تقول «الموسوعة الكاثوليكية»: «تمّ الادّعاء أنّ الإثراء الماليّ هو مصدر إلهام الثورة الدينية لمحمّد. تلك الدعوى لا توافق الحقائق المعلومة.» (New Catholic Encyclopedia, Vol. IX, p. 1001).

٤ ـ دعاء نبي الإسلام.. ودخيلة القلب:

قد يعجب القارئ بعد ما مضى من خبر خُلق (محمد) ﷺ وعميم جمال مظهره ومخبره، وحسن معشره، وصدق لهجته، وبياض صفحته، أن أقول: إنّ أعظم دلائل نبوّته في سيرته ـ عندي ـ هي دعاؤه، فإنّ دعاءه ليس دعاء دجّال مفتر، ولا كذّاب أشر، وإنّما فيض من العلم الإلٰهي، ومرآة صدق، وبرهان نبوّة، فإنّه ليس من كلام الأدعياء، ولا مسلك المفترين، ولا هو أَثَرٌ عن نباهة شخصيّة وفصاحة لسان.

وإنّي أدعوك ـ بصدق وحماسة ـ أن تراقب هذا الرجل الذي عاش في القرن السابع الميلادي، ونشأ بين قوم يعبدون الأصنام، وينوطون أمرهم بالأوهام والخرافات، ويسرفون في حبّ الذات والتعلّق بالأمجاد، كيف انخلع عن جاهليّة البيئة، وأفرغ نفسه من عوارض البشرية الحائدة عن طريق المعراج إلى الواحد الأحد، ذاكرًا ربّه بأعذب لسان، فكان ذكره نجوى، وتفكّر، وعبادة، حتّى إنّ موقع عبارات اللاهوتيين والفلاسفة في الحديث عن العبد وموقعه من ربّه، والربّ وسلطانه في خلقه، من كلمات دعائه، أشبه بعود

جاف ذابل في حديقة غنّاء نديّة تضوع عطرًا، أو هذرمة عجلة أمام قصيدة مسبوكة على السجيّة.

فهو ﷺ إذا استيقظ يقول: «**أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ للهِ وَالْحَمْدُ للهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِاِ اليَوم وَخَيْرَ مَا بَعْدَهُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِاِ اليَوم وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ. رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ. رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ**»[١].

وهو ﷺ إذا فرغ من الطعام يقول: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَفَانَا، وَأَرْوَانَا غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلا مَكْفُورٍ.. الْحَمْدُ للهِ رَبِّنَا غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلا مُوَدَّعٍ، وَلا مُسْتَغْنًى رَبَّنَا**»[٢].

وإذا سجد يقول: «**اللَّهُمَّ لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين**». ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «**اللَّهُمَّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدّم وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت**»[٣].

وإذا صلّى بالليل يقول: «**اللَّهُمَّ ربنا لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت مالك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللَّهُمَّ لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت**»[٣].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (ح/ ٢٧٢٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه (ح/ ٥١٤٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت**» (ح/ ٦٠٣٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (ح/ ٤٨٩٦).

وإذا سجد قال: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[1].

وإذا قام من مجلس مع أصحابه يقول: «**اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنّتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، اللَّهُمَّ متّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكثر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا**»[2].

وإذا أجمل في الطلب يقول: «**اللَّهُمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شر**»[2].

حال الدعاء الدائم، والذكر الحيّ، والبراءة من الحَول والطَول، وإفراد الربّ بالعظمة والمجد، في الليل والنهار، وعند الناس وفي الخلوة بالنفس، وعند الخوف والأمن، وعند الألم والفرح.. كلّ ذلك نشاز في حياة رجل يتّخذ الدين مغنمًا، والمجد لنفسه قِبلة.. فهل يلتقي النقيضان؟!

ولكن ماذا عن ما أُنكر من أخلاق نبي الإسلام ﷺ؟

قد يقول المعترض: سلّمنا أنّ ما سبق ذكره من أخلاق نبي الإسلام جميل وعظيم، وهذا لا يماري فيه أحد ولا يطعن في دلالته مخالف، فهي معان جليلة بلا مرية.. ولكن ماذا عن الاعتراضات التي يكرّرها المخالفون من دعاة النصرانية، ألّا تنقض الصورة التي رسمَتْها الروايات السابقة؟!

ونقول:.. **الجواب من وجهين:**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (ح/٤٨٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (ح/٢٧٢٠).

الوجه الأول: ثبوت الكمال البشري الخُلُقي، خاصةً خلّة الصدق، ينقض مخالفه ضرورة؛ فإنّه لا تجتمع في الإنسان أمانة تامة وخديعة ماكرة، وحرص على هداية الخلق وسعي لإضلالهم، وعناية بتطهير عقائدهم من الفساد وهمّ لصرفهم عن سُبل الرشاد.. ولذلك فثبوت الأمر الأوّل حجة على فساد نقيضه..

الوجه الثاني: النظر التفصيلي في شبهات المنصّرين يكشف أنّ الاعتراضات محدودة جدًّا، ولا تخرج عن **الأوجه التالية من المغالطات**:

الاستدلال بروايات لا تصحّ: كثيرًا ما يستدلّ الطاعنون في السيرة النبوية بالضعيف أو الموضوع من الروايات، مثل رواية همّ الرسول ﷺ بالانتحار(١)، وقصة الغرانيق(٢)، وجلوس الرسول ﷺ في حجر زوجه (خديجة) لاختبار ملك الوحي(٣)، وقتله ﷺ (عصماء بنت مروان)(٤)... وهي روايات تَكَرَّرَ من علماء الإسلام بيان ضعفها، ولم يجادل خصوم الإسلام في ذلك، وإنّما استغلوا جهل عامة الناس بعلوم الرواية لإيهامهم أنّ ورود الخبر في كتاب أو أكثر من كتب السيرة أو الحديث حجّة لصحّته!

تحريف اللغة: ضُعف الملكة اللغوية عند عامة المنصّرين العرب أصلُ شبهات لهم عجيبة المبنى والوجهة، ومنها إنكارهم على الرسول ﷺ

---

(١) روى (البخاري) عن (الزهري) قوله: «حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ؛ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ». وهذا إسناد منقطع لأنّ (الزهريّ) تابعيّ لم يذكر من حدّثه بهذا الحديث. ولذلك فعلماء الحديث على ردّ صحّة هذا الرواية عن (الزهري).

(٢) قال فيها (ابن العربي): باطلة لا أصل لها.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط». ضعفه الألباني. فيه (يحيى بن سليمان بن نضلة المديني)، متكلّم في حفظه.

(٤) رُوي من طريق (محمد بن الحجاج)، قال فيه (ابن معين): «كذاب خبيث». وروي من طريق آخر عن (الواقدي). قال فيه (ابن المديني): «الواقدي يضع الحديث».

اضطجاعه في قبر امرأة ماتت، وقد كان فعله أمام أصحابه[1]، فخلط المنصّرون بين «اضطجع» بمعنى استلقى، و«ضاجع» بمعنى جامع! زاعمين أنّ الرسول ﷺ قد جامع المرأة الميتة في قبرها أمام الناس! كما اتّهم المنصّرون نبيّ الإسلام ﷺ أنّه شرب الخمر لِما جاء في السُّنَّة من أنه ﷺ شرب نبيذًا. ومعلوم أنّ النبيذ هو ما يطرح في سائل، ويكون أوّل أمره حلوًا وغير مسكر وهو بذلك أشبه ببعض العصائر! ولذلك جاءت رواية (ابن عباس) في صحيح مسلم: «كان رسول الله ﷺ ينتبذ له أول الليل فيشربه إذا أصبح يومه ذلك والليلة التي تجيء والغد والليلة الأخرى والغد إلى العصر، فإن بقي شيء سقاه الخادم أو أمر به فصُبَّ» تحت باب «إباحة النبيذ الذي لم يشتد ولم يصر مسكرًا»[2].

التدليس في عرض الخبر التاريخي: توحي اعتراضات دعاة النصرانية أنّ نبيّ الإسلام ﷺ كان مولعًا بالقتل رغبة في سفك الدماء. والحقيقة هي أنّ طابع المسامحة والعفو على الخصوم كان هو الأصل في فعله مع مقدرته على الفتك والبطش، ويكفي أنّه عفا عن أهل مكّة عند الفتح رغم أذاهم الشديد له ولدعوته. وأمّا قتل الرسول ﷺ للذكور البالغين من بني قريظة ـ وهي الشبهة الأشهر ـ، فأصل الحادثة أنّه ﷺ قد عقد معاهدة مع يهود المدينة لما دخلها على التعايش الآمن، والبرّ والنصيحة، والدفاع المشترك ضدّ أيّ عدوان خارجيّ، غير أنّ اليهود مدّوا يد العون والتحالف إلى المشركين في غزوة الخندق للقضاء على المسلمين وإبادتهم، وقد كان المشركون عندها أضعاف المسلمين عددًا. لقد كانت لحظة فارقة في تاريخ أمّة الإسلام، وكان بين المسلمين وأن يُمحَوا ودعوتَهم من الأرض أن ينجح التحالف بين المشركين واليهود، ولكنّ الله سلّم. لم يكن أمر العقوبة ـ إذن ـ غير مجازاة بالمثل، للذكور البالغين فقط. وحكم الخيانة العظمى في عامة قوانين البشر، هو القتل.

وقد أدرك المستشرق (بودلي)[3] القيمة الحاسمة للحكم في خيانة بني

---

(١) الحديث ضعيف. قال (الهيثمي): «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سعدان بن الوليد، ولم أعرفه». (المجمع، ٩/ ٢٥٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب إباحة النبيذ الذي لم يشتد ولم يصر مسكرًا (ح/ ٢٠٠٤).

(٣) ر. ف. بودلي R. V. Bodley (١٨٩٢ ـ ١٩٧٠): ضابط في الجيش البريطاني ومستشرق.

قريظة، فقال: «ويجب ألّا يغيب عن البال كيف كان من الضروري بالنسبة إليه (الرسول) ألّا يدع أيّ شكّ يخامر الناس في سلطانه هذا . . . فلو أنّه أظهر ضعفًا، أو سمح بوقوع خيانات دون أن يقع الجزاء، لما عاش الإسلام أبدًا»[(١)].

الإنكار على ما لم ينكره المعاصرون لنبيّ الإسلام ﷺ: عددٌ من الاعتراضات الشائعة حول نبيّ الإسلام ﷺ هي من هذا النوع، ومنها زواجه من (عائشة) رضي الله عنها وهي صغيرة؛ إذ هو أمر لم يكن يخالف العرف، علمًا أنّ (عائشة) رضي الله عنها كانت مخطوبة قبل زواجها من الرسول ﷺ لـ(مطعم بن عدي). وما تجرّأ أحد من خصوم نبيّ الإسلام ﷺ المعاصرين له أو من أصحابه على استنكار زواجه من (عائشة) رضي الله عنها. وقد آمن النصارى طوال تاريخهم القديم ـ دون نكير ـ أنّ (مريم) عليها السلام قد تزوّجت (يوسف النجار) لما كان سنّها أربع عشرة سنة وسنّ (يوسف) تسعين سنة[(٢)]، كما كتب القسيس (جيم ويست) عن اليهود: «كانت الزوجة تُختار من الدائرة الكبرى للعائلة، عادة مع بداية البلوغ أو حوالي سنّ الثلاثة عشر»[(٣)]. ولذلك كتب (مونتجمري وات): «بالنظر إلى الأمر من زاوية عصر محمّد، لا يمكن قبول الاتهامات بالغش والشهوانية. لم يرَ معاصروه البتّة فيه سوأة أخلاقيّة. بل على العكس من ذلك، فإنّ بعض الأفعال التي انتقدها الغربيون المعاصرون تظهر أن المعايير الأخلاقيّة لمحمد كانت أعلى من تلك التي كانت في عصره»[(٤)].

الإنكار على ما ليس حقّه الإنكار: هيمنة الذوق الحادث أو المزاج الديني للطوائف المخالفة للإسلام مصدر من مصادر الطعن في السيرة النبويّة، ومن ذلك زعم المنصّرين أنّ حديث «**حُبِّبَ إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة**»[(٥)] دال على شهوانيّة نبي الإسلام ﷺ. وليس في

---

(١) ر. ف. بودلي، الرسول: حياة محمّد، تعريب: محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار (القاهرة: دار مصر، د.ت)، ص١٩٣.

(٢) *The Catholic encyclopedia*, Charles George Herbermann, ed. (Universal Knowledge Foundation, 1913), 8/505.

(٣) Jim West, Ancient Israelite Marriage Customs. <http://www/theology.edu/marriage.htm>

(٤) W. Montgomery Watt, *Muhammad: Prophet and Statesman* (Oxford University Press, 1961), p.229.

(٥) رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (ح/ ٣٩٤٠). صحّحه (ابن حجر).

الحديث شيء من «الشهوانيّة» التي يُقصد بها الإقبال الشديد على إرضاء الهوى دون اعتدال بما يؤول إلى اضطراب السلوك واختلال الشخصيّة. لقد كان نبيّ الإسلام ﷺ سيّد أمّة، ورجل دولة، وهو القاضي، والمعلّم، والقدوة.. ولم يتّهمه أحد من معاصريه بإخلال حبّه للنساء بمقاصد الرسالة أو الاستقامة على طريق الخير والعفّة. وهذه زوجه (عائشة) ﵂ تقول: «وأيّكم يملك إربه كما كان النبي ﷺ يملك إربه!»[1]، فقد كان ﷺ يملك شهوته ولا تملكه شهوته. ثمّ إنّ الحديث بذاته دال أنّ أمر العبادة (الصلاة) عند رسول الله ﷺ أعظم من كلّ ملاذ الدنيا، ومنها النساء والطيب، وذاك منافر ضرورة لطبع الشهوانيين. وأمّا أصل طبع ميل الرجال إلى النساء، فهو من استقامة النفس والبدن، ومن كان على غير ذلك عُدَّ ـ طبيًّا ـ مريضًا بالإجماع.

ويردّ الدكتور (نظمي لوقا)[2] ـ النصراني ـ على شبهة شهوانية نبي الإسلام ﷺ بقوله: «هؤلاء زوجاته اللواتي بنى بهن، وجمع بينهن، لم تكن واحدة منهن هدف اشتهاء كما يزعمون، وما من واحدة منهن إلا كان زواجه بها أدخل في باب الرحمة وإقالة العثار والمواساة الكريمة، أو لكسب مودة القبائل وتأليف قلوبها بالمصاهرة، وهي ـ بعد ـ حديثة عهد بالدين الجديد، هي ضريبة واجبة إذن أو ضريبة مكانة وزعامة.. وما كان من الهين على رسول قائد جيش وحاكم دولة محاربة أن يزيد أعباءه بما يكون في بيت كثير النساء من خلافات على صغائر الأمور... ولكنه الواجب: واجب الدعوة أو واجب النخوة»[3].

وأصدق ممّا سبق قول المستشرقة (لورا فيشيا فاغليري)[4]: «لقد أصرّ أعداء الإسلام على تصوير محمد شخصًا شهوانيًّا.. محاولين أن يجدوا في زواجه المتعدّد شخصية ضعيفة غير متناغمة مع رسالته. إنهم يرفضون أن يأخذوا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض (ح/٢٩٦).

(٢) نظمي لوقا (١٩٢٠ ـ ١٩٨٧م): كاتب مصري. عمل أستاذًا للفلسفة في كليّة الآداب، جامعة عين شمس. له مؤلفات روائية وشعرية مطبوعة.

(٣) نظمي لوقا، محمد في حياتِه الخاصة (القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٧٧م)، ص١١٠ ـ ١١١.

(٤) لورا فيشيا فاغليري Laura Veccia Vaglieri (١٨٩٣ ـ ١٩٨٩م): مستشرقة إيطالية، درّست في جامعة نابولي. لها عدد من الكتب والمقالات حول الإسلام واللغة العربيّة.

بعين الاعتبار هذه الحقيقة؛ وهي أنه طوال سني الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنّه عاش في مجتمع.. كان تعدّد الزوجات فيه هو القاعدة، وكان الطلاق سهلًا إلى أبعد الحدود، لم يتزوّج إلّا من امرأة واحدة ليس غير.. ولم يتزوج ثانية إلا بعد أن توفيت خديجة، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره. لقد كان لكل زيجة من زيجاته سبب اجتماعي أو سياسي.. وباستثناء عائشة تزوج محمد من نسوة لم يكنَّ عذارى ولا شابات ولا جميلات، فهل كان ذلك شهوانية؟! لقد كان رجلًا لا إلٰهًا، وقد تكون الرغبة في الولد هي التي دفعته إلى الزواج من جديد... ولكنّه التزم دائمًا سبيل المساواة الكاملة نحوهنّ جميعًا... لقد تصرّف متأسيًا بسُنَّة الأنبياء القدامى، مثل موسى وغيره الذين يبدو ألّا أحد من الناس يعترض على زواجهم المتعدّد»[1].

ومن المهمّ هنا العلم أنّ أصل طعن المنصّرين في الرسول ﷺ اعتمادًا على الحديث السالف هو أنّ الكنيسة طوال تاريخها كانت تُحقّر العلاقة الجسديّة بين الرجل والمرأة حتى لو كان الرجل متزوجًا زوجة واحدة؛ فإنّ غرائز الجسد ـ بزعم الكنيسة ـ تعارض ضرورةً حاجات الروح، حتّى قال قديس الكنيسة (كلمنت السكندري)[2]: إنّ الزوج لا يحافظ على طهارته إلّا إذا منع نفسه من التلذّذ بالجماع[3]!

---

(١) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، تعريب: منير البعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١م) ص٩٩، ١٠٠.

(٢) كلمنت السكندري Clement of Alexandria (١٥٠ ـ ٢١٥م): لاهوتي وفيلسوف نصراني. من مؤلفاته: "Paedagogus".

(٣) Arlene S. Skolnick, ed. *Family Transition* (Boston: Pearson Education), p.163.

ويقول القمّص المصريّ (مرقس عزيز): إنّ النصرانية «تدعو إلى التعفّف الزوجي، فمع أن الزواج يبيح ارتباط الرجل بإمرأته جسديًا، إلا أن المسيحية تدعو إلى التعفف حتى في الزواج نفسه، ويتم التعفف اللاإرادي خلال الأصوام، من خلال الاتفاق معًا (١ كولوسي ٧/ ٥)، كما أن التعفّف الإرادي يساعد اللاإرادي، مثل وجود أحد الزوجين في سفر، أو مرض، أو لكبر السن، أو لانشغال أحدهما بالخدمة، أو لموت أحدهما». (المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، ص١١٥)؛ فالموت يساعد الزوجين على التعفّف!

انظر في موقف الكنيسة من الجنس، وأفضلية المذهب الإسلامي:

Karen Armstrong, *The Gospel According to Woman* (London: Fount, 1996).

أدلّة استقامة نبي الإسلام ﷺ على الحق لا تلتقي نوعًا مع مطاعن خصومه فيه؛ فهما في تناقض بلا التقاء.. وأدلّة الاستقامة أعظم كمًّا من المطاعن، وأمتن منها كيفًا.

فساد ردّ نبوّة محمّد ﷺ دون ردّ نبوّة أنبياء النصارى:

قدّم الدكتور (مجيل إيرناندث) بحثًا في قرطبة بإسبانيا عام ١٩٧٧م في المؤتمر الثاني للحوار الإسلامي المسيحي الذي عقد سنة ١٩٧٧م بعنوان: «الجذور الاجتماعية والسياسية للصورة المزيفة التي كوَّنتها النصرانية عن النبي محمد»، وكان ما جاء فيه: «لا يوجد صاحب دعوة تعرَّض للتجريح والإهانة ظلمًا على مدَى التاريخ مثل محمد، وإنَّ الأفكار حول الإسلام والمسلمين ونبيِّهم محمد استمرَّت تسودُها الخرافات حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، ولَم يمنع الاحتكاك المباشر بين الطائفتين من انتشار هذه الخرافات.

لقد سبَق أن أكَّدتُ في مناسبة سابقة الاستحالة ـ من الوجهة التاريخية والنفسية ـ لفكرة النبي المزيَّف التي تُنسب لمحمد، **ما لَم نرفضْها بالنسبة لإبراهيم وموسى، وأصحاب النبوَّات الأخرى من العبريِّين الذين اعتُبِروا أنبياءَ.**

إنَّه لَم يحدثْ أنْ قال نبيٌّ بصورة بيِّنة وقاطعة أنَّ عالَم النبوَّة قد أُغْلِق، وفيما يتعلَّق بالشعب اليهودي، فإنَّ عالَم النبوَّة ما يزال مفتوحًا، ما داموا ينتظرون المسيح المخلِّص.

أمَّا فيما يتعلَّق بالنصرانية، فإنَّه لا يوجد تأكيد قطْعي يدلُّ على انتهاء عالَم النبوة، وأيُّ قارئ لرسائل القدِّيس بولس وآثار الحواريين وسفر الرؤيا، يعلم ذلك جيدًا[1].

---

(١) وردت نصوص في العهد الجديد تتحدّث عن أنبياء عاشوا بعد رفع المسيح: أعمال الرسل ٢٦/١١ ـ ٢٨، ١/١٣، ٣٢/١٥.

وفيما يتعلَّق بي، فإنّ لديّ يقين أنَّ محمدًا نبيٌّ لدرجة أنّي حاولت في دراسة لي كتبت سنة ١٩٦٨م أن أشرح أنّ محمّدًا كان نبيًّا حقًّا من وجهة النظر الدينية المسيحيّة»[١].

وماذا عن مسيح النصارى؟

لا ينكر الباحث المنصف أنّ الأناجيل تقدّم بعض الخصال الحميدة في سيرة المسيح عليه السلام، مثل لطفه، ودعوته إلى الإحسان إلى الخطاة، وتواضعه.. لكنّ هذه الخلال الطّيبة التي اختزل بها المنصّرون صورة مسيح الأناجيل لم تأخذ من أناجيل الكنيسة غير طرفٍ يسير من قصصها.. والناظر في صورة المسيح بكاملها في الأناجيل يفاجأ بصفات قبيحة رسمها المؤلفون تمنع عن المؤلَّهِ صفة الصلاح، فضلًا عن العصمة؛ حتّى قال (إليهو بالمر)[٢] في مؤلّفه الذي عُدّ في القرن التاسع عشر الكتاب المقدّس لربوبيي أمريكا: «قَدّم لنا العهد الجديد حقائق ومواقف تقف بقوّة ضد الطابع الأخلاقي العالي ليسوع. بالإضافة إلى طابع الازدواج العام الملازم لأجوبته للجموع، هو متهم أيضًا بإرسال تلاميذه سرًّا لأخذ جحش ليس له ولا لتلاميذه. مثل هذا الفعل يعتبر في العصور الحديثة سرقة حتى بين النصارى الأتقياء أنفسهم. إنّه متهم ببذر حَبّ الحرب الأسريّة والقوميّة، والإعلان أن ليس بإمكان أحد أن يكون تلميذًا له دون أن يبغض أباه وأمّه...»[٣].

قائمة الاعتراضات الأخلاقيّة على مسيح الكنيسة ـ مع تبرئتنا المسيح الحقّ منها ـ طويلة، **ومنها**:

---

(١) ملف الحوار الإسلامي المسيحي بقرطبة ـ سكرتارية المؤتمر، نقله أحمد عبد الوهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطوّرات هامة في المسيحيّة (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص٦٣ ـ ٦٤).

(٢) إليهو بالمر Elihu Palmer (١٧٦٤ ـ ١٨٠٦م): مفكّر أمريكي وناشط سياسي. من روّاد الربوبية في أمريكا. التحق بالتعليم الديني ليصبح قسيسًا، غير أنّه اختار بعد تخرّجه أن يتحوّل إلى المذهب الربوبي. من مؤلفاته: "The Temple of Reason".

(٣) Elihu Palmer, *Principles of Nature* (1806), pp.203-204.

شخصيّة مشتتة: أبرز ملمح لشخصية المسيح في الأناجيل هو أنه لا يمكن رسم صورة واحدة لها غير مشتتة التفاصيل، فما نُقِل عن المسيح من أقوال وأفعال لا يمكن أن يمنحنا صورة متناسقة لشخصيّة واحدة لها بُعدٌ واحد، ولأفعالها مذهب واحد، والأمثلة على هذا الشتات كثيرة، **منها**:

• يظهر الاضطراب الشديد في شخصية المسيح في موقفه من الشريعة الموسويّة، فهو في مرّات يؤكّد أنه يدعو إلى احترام الشريعة الموسويّة بحذافيرها: «حِينَئِذٍ خَاطَبَ يَسُوعُ الْجُمُوعَ وَتَلَامِيذَهُ قَائِلًا: «عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ، فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ»» (متى ٢٣/ ١ ـ ٣)، لكنه هو أيضًا القائل: «كَانَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ إِلَى يُوحَنَّا[1]» (لوقا ١٦/ ١٧)؛ فلا شريعة بعد (يحيى) عليه السلام، كما رفض المسيح إقامة الحدّ على الزانية رغم أمر الشريعة الموسوية بذلك (يوحنا ٨/ ٣ ـ ١١).

• المسيح يُدعى في الأدبيات النصرانية «أمير السلام»، وتعتبر دعوته للّين والعفو أعظم ما يفخر به النصرانيّ، لكنّ الأناجيل تضمّ أقوالًا للمسيح يظهر بها متشنجًا داعيًا إلى البغض والشدّة والحدّة، وهو ما فصّل فيه الناقد الكتابي (هكتور أفلوس)[2] في كتابه «يسوع القبيح: أخلاقياتُ أخلاقياتِ العهد الجديد».

• المسيح يقول: «إن كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ» (يوحنا ٨/ ١٤)، لكنه هو نفسه يقول: «إِن كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا» (يوحنا ٥/ ٣١).

• المسيح يقول: «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ» (متّى ١٩/ ١٩)، لكنّه يقول أيضًا: «فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا.» (متّى ١٠/ ٣٥).

• المسيح يأمر تلاميذه أن يحصروا دعوتهم في بني إسرائيل: «هؤُلَاءِ

---

(١) (يحيى) عليه السلام.

(٢) Hector Avalos, *The Bad Jesus: The Ethics of New Testament Ethics* (Sheffield: Sheffield Phoenix Press, 2015).

الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لَا تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لَا تَدْخُلُوا» (متّى ١٠/ ٥)، لكنّه قال لهم أيضًا: «فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ» (متّى ٢٨/ ١٩)...

وسبب هذا الشتات هو تضارب الأناجيل في مروياتها، وتضارب مصادر القصّة الواحدة في كلّ إنجيل.

قصور في البلاغ: كان المسيح يتعمّد أن يكون كلامه في التعريف بالدين الذي جاء به غامضًا حتى لا يفهمه أحد من السامعين إلّا تلاميذه: «اجتمع إليه جموع كثيرة، حتى إنه دخل السفينة وجلس. والجمع كله وقف على الشاطئ، فكلمهم كثيرًا بأمثال... فتقدم التلاميذ وقالوا له: لماذا تكلمهم بأمثال؟ فأجاب وقال لهم: لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات، وأما لأولئك فلم يعط، فإن من له سيعطى ويزاد، وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه» (متّى ١٣/ ٢ ـ ١٢). وهذا أمر عجَبٌ؛ إذ الحكمة تقتضي ضرورة أن يقترن البلاغ بحسن البيان وإفاضة العلم به، لا الغموض والإلباس!

فساد مضمون الرسالة الأخلاقية: أبرز ملمح أخلاقي في رسالة المسيح ـ مع ما في هذه الرسالة من تناقض ـ هو الدعوة لأن يكون المرء سلبيًّا أمام خصومه، خاضعًا عند الطغاة، أقصى أمره الهروب من المواجهة. يقول (تشارلز بردلو)[1]: «ما الذي علّمه [المسيح] على الحقيقة؟ ما الذي درّسه؟ الرجولة، الاعتماد على النفس لمقاومة الفساد، وممارسة ما هو حق؟ لا؛ حجر الأساس لتعليمه كله يمكن العثور عليه في نص: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ؛ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (متّى ٥/ ٣) هل فقر الروح رأس الفضائل حتّى يعطيه يسوع مكانة رئيسة في تعاليمه؟ بل هل هو فضيلة من الأساس؟ يقينًا لا! فُحُولة الروح، وصدقها، والامتلاء بالآمال المشروعة، تلك هي الفضائل. ففقر الروح جريمة. عندما يكون الرجال فقراء في الروح،

---

(١) تشارلز بردلو Charles Bradlaugh (١٨٣٣ ـ ١٨٩١م): سياسي إنجليزي، وأحد أعلام التيار العالماني في عصره. له عدد من الكتب والمناظرات في نقد النصرانية.

فعندها يضطدهم المغرورون والمتغطرسون»[1].

عاق لأمه: لم يخاطب المسيح أمّه البتّة بعبارة «أمي» أو «أُمّاه»، وإنما جاء عنه أنّه قال مرّة مغضبًا لأمّه لما أخبرته أنّ أهل العرس قد نفد عندهم الخمر (!): «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ؟ لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ» (يوحنا ٢/ ٤).

عنصري: ثبت في إنجيل (متى ١٥/ ٢٦) تشبيه المسيحُ من ليسوا من بني إسرائيل **بالكلاب**:

«ثُمَّ غَادَرَ يَسُوعُ تِلْكَ الْمِنْطَقَةَ، وَذَهَبَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَا؛ فَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ النَّوَاحِي، قَدْ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ صَارِخَةً: ارْحَمْنِي يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! ابْنَتِي مُعَذَّبَةٌ جِدًّا، يَسْكُنُهَا شَيْطَانٌ!

لكِنَّهُ لَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَجَاءَ تَلَامِيذُهُ يُلِحُّونَ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: اقْضِ لَهَا حَاجَتَهَا. فَهِيَ تَصْرُخُ فِي إِثْرِنَا!

فَأَجَابَ: مَا أُرْسِلْتُ إِلَّا إِلَى الْخِرَافِ الضَّالَّةِ، إِلَى بَيْتِ إِسْرَائِيلَ!

وَلكِنَّ الْمَرْأَةَ اقْتَرَبَتْ إِلَيْهِ، وَسَجَدَتْ لَهُ، وَقَالَتْ: أَعِنِّي يَا سَيِّدُ!

فَأَجَابَ: لَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ **الْبَنِينَ** وَيُطْرَحَ لِجِرَاءِ **الْكِلَابِ!**» (متّى ١٥/ ٢١ ـ ٢٦).

إنّه كلام تحقيري ـ صريح ـ لغير الإسرائيليين؛ حتّى إنّ (يسوع الكنيسة) قد اختار كلمة «كلب صغير» (χυναριον) لا «كلب» (χυων)؛ إمعانًا في تحقير من لا يشاركونه نَسَبَه إلى (يعقوب/ إسرائيل) عليه السلام[2]!

---

(١) Charles Bradlaugh, What Did Jesus Teach?, *Theological Essays* (A. and H. Bradlaugh Bonner, 1895), p.1.

(٢) قد يستغرب القارئ من هذا الوصف الوارد في الكتاب الذي يقدسه النصارى في حقّ غير الإسرائيليين، ويزداد العجب إذا عُلِمَ أنّه لم يقبل من بني إسرائيل النصرانية دينًا طوال تاريخها سوى قلّة قليلة.. والحقيقة هي أنّ العهد الجديد ـ كما وصفه الناقد (فردريك غرانت) (Frederick Grant) في كتابه "The Gospels: their origin and their growth" ص١٧ ـ هو شتات مُجَمّع لنصوص مختلفة من مصادر متنوعّة؛ ولذلك فهو يضم تناقضات داخلية ونصوصًا تتعارض صراحة مع دعاوى الكنيسة ومعتقدات النصارى.. وبسبب العلم بهذه الحقيقة؛ فقد ذهبت الدراسة النقدية الواردة في هامش ترجمة (The New American Bible) إلى أنّ نصّ متّى ١٥/ ٢٦ يعود في شكله وسياقه الأصليين إلى جماعة اليهود ـ المسيحيين الذين كانوا يرفضون مدّ دعوة المسيح إلى غير الإسرائيليين.

وقد علّق قديس الكنيسة (يوحنا ذهبي الفم)[1] على هذا الخطاب الاستخفافي العنصري الذي وجّهه (يسوع) إلى المرأة بعد أن تجاهلها في بداية الأمر استهانةً بها: «ولمّا تكرّم عليها بكلمة؛ آذاها بصورة أكثر حدّة من صمته»[2]!

أمّا (علّامة) الكنيسة وأحد أعظم لاهوتييها الأوائل (أريجن)، فقد قال في هذا الموضع من تعليقه على إنجيل متّى: «إنّ المرأة الكنعانيّة ما كانت تستحقّ إجابة من يسوع؛ بسبب جنسها... ولمّا اعترفت أنّ الأسياد هم من الجنس الأرقى؛ نالت إجابة ثانية تحمل شهادة لإيمانها أنّه عظيم»[3]!

وصف غير الإسرائيليين أنهم خنازير: اتهم (يسوع) غيرَ الإسرائيليين (ومنهم طبعًا النصرانيّات والنصارى) أنهم من جنس (الخنازير)، وذلك في قوله: «لَا تُعْطُوا مَا هُوَ مُقَدَّسٌ لِلْكِلَابِ، وَلَا تَطْرَحُوا جَوَاهِرَكُمْ أَمَامَ الْخَنَازِيرِ، لِكَيْ لَا تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وَتَنْقَلِب عَلَيْكُمْ فَتُمَزِّقَكُمْ». (متّى ٧/ ٦).. وقد قال الناقد (هاغنر)[4]: إنّ الكلمات التي قالها (يسوع) هنا هي «**من أشدّ الألفاظ التحقيريّة في المعجم اليهودي**»[5]. وأمّا (صموئيل لاكس)[6] فقد قال في كتابه الهام «تفسير أحباريّ للعهد الجديد» إجابة عن السؤال الذي طرحه هو نفسه: «من هم الكلاب والخنازير في هذا المقطع؟»: «إنّه من المعروف أنّهما الاثنان يستعملان كلفظين تحقيريين للأُمميين (غير الإسرائيليين)»[7].

---

(١) يوحنا ذهبي الفم John Chrysostom (٣٤٧ ـ ٤٠٧م): رئيس أساقفة القسطنطينية. من أبرز اللاهوتيين النصارى الأوائل. يعتبر من أهم قدّيسي الكنيسة الأرثوذكسيّة، كما أنّه من المراجع الكبرى للكنيسة الكاثوليكيّة. لقّب بـ(ذهبي الفم) لبلاغته في مواعظه وخطبه.

(٢) John Chrysostom, *The Homilies on the Gospel of Saint Matthew* (Oxford: J.H. Parker, 1844), 2/706.

(٣) Origen, 'Origen's Commentary on Matthew' in *Ante-Nicene Fathers* (New York: C. Scribner's Sons, 1890), 9/445-446.

(٤) دونالد أ. هاغنر Hagner: أستاذ العهد الجديد في Fuller Theological Seminary لمدة ٣٠ سنة.

(٥) Donald A. Hagner, *Matthew*, 1/171 (Quoted by Michael F. Bird, *Jesus and the Origins of the Gentile Mission*, New York: T & T Clark International, 2006, p.49).

(٦) صموئيل لاكس Samuel Lachs (توفي سنة ٢٠٠٠م): حبر يهودي. أستاذ تاريخ الأديان في كليّة برن ماور في أمريكا.

(٧) Samuel Tobias Lachs, *A Rabbinic Commentary on the New Testament: the Gospels of Matthew, Mark, and Luke* (New Jersey: KTAV Publishing House, Inc., 1987), p.139

كاذب: قال المسيح مرّة لأصحابه: «اِصْعَدُوا أَنْتُمْ إِلَى هذَا الْعِيدِ. أَنَا لَسْتُ أَصْعَدُ إِلَى هذَا الْعِيدِ، لأَنَّ وَقْتِي لَمْ يُكْمَلْ بَعْدُ» غير أنّه صعد بعد ذلك مباشرة: «لَمَّا كَانَ إِخْوَتُهُ قَدْ صَعِدُوا، حِينَئِذٍ صَعِدَ هُوَ أَيْضًا إِلَى الْعِيدِ، لاَ ظَاهِرًا بَلْ كَأَنَّهُ فِي الْخَفَاءِ» (يوحنا ٧/٨ ـ ١٠). وقد اضطرّ النُسّاخ النصارى إلى إضافة كلمة (ουπω) [أُوبُو] «بعد»؛ ليصبح النص «أَنَا لَسْتُ أَصْعَدُ **بعد** إِلَى هذَا الْعِيدِ» في جلّ المخطوطات، لكنّ الكلمة محذوفة من أفضل النسخ اليونانية النقدية اليوم (NA^{28}) و(UBS^{5})، وكذلك هي محذوفة من أهم الترجمات الحديثة مثل (The New International Version) وترجمة (The New American Bible). . .

المخطوطة السينائية (القرن الرابع)، دون «بعد»



صورة عن المخطوطة الفاتيكانية (القرن الرابع)، مع إضافة «بعد»

ΥΜΕΙϹΑΝΑΒΗΤΕΕΙϹΤΗΝ
ΕΟΡΤΗΝΕΓΩΟΥΠΩΑΝΑ
ΒΑΙΝΩΕΙϹΤΗΝΕΟΡΤΗΝ
ΤΑΥΤΗΝΟΤΙΟΕΜΟϹΚΑΙ
ΡΟϹΟΥΠΩΠΕΠΛΗΡΩΤΑΙ

ومن كذب المسيح ـ على رواية الكنيسة ـ أيضًا أنّه أخبر التلاميذ أنّ

(يحيى) عليه السلام هو (إيليّا)[1] المنتَظر (متّى ١٧/ ١٢ ـ ١٣)، في حين أنكر (يحيى) عليه السلام أنّه (إيليّا) (يوحنا ١/ ٢١).

جبان: تزعم الأناجيل أنّ المسيح قد أُرسِلَ ليموت على الصليب، وأنّه قال لتلاميذه: «لَا تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ، وَبَعْدَ ذلِكَ لَيْسَ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ أَكْثَرَ» (لوقا ١٢/ ٤). . غير أنّه لما حان وقت الصلب هرب، ودعا الله أن يعفيه من هذا المحنة[2]. وكان يصلّي بخوف شديد حتّى إنّ ملاكًا من السماء نزل لتثبيته. وقد اضطر كثير من النسّاخ إلى حذف نص: «وَظَهَرَ لَهُ مَلَاكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّيهِ» (لوقا ٢٢/ ٤٣) من إنجيل لوقا[3]؛ لأنه وصف يطعن في قصّة فداء المسيح وشجاعته. وقد دفعت صورة المسيح الباهتة (فولتير) ليقول ـ في مقارنة مسيح الكنيسة بنبيّ الإسلام ﷺ ـ: «إنّ أقلّ ما يُقال عن محمّد إنّه جاء بكتاب وقاتل، أمّا يسوع فلم يعرف الكتابة، ولم يُدافع عن نفسه. لقد امتلك محمّد شجاعة الإسكندر وحكمة نوما، وأمّا يسوعكم فقد نزف دمًا ما إن أُدين من القضاة»[4].

سبَّابٌ، من أهل النار: قال المسيح: «كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ» (متّى ٥/ ٢٢). لكنّ المسيح نفسه وصف أصحابه وخصومه أنّهم «أغبياء» (لوقا ١١/ ٤٠)، وأنّهم «الجهال والعميان» (متّى ٢٣/ ١٧)، و«أولاد الأفاعي» (متّى ٣/ ٧)، و«خنازير» (متّى ٧/ ٦)، ووصف (هيرودس) أنّه «ثعلب» (لوقا ١٣/ ٣٢)، وضجّ منه أحد اليهود العاملين في المحاماة لمّا رآه يكثر من شتم اليهود الفرّيسيّين، فقال له: «يَا مُعَلِّمُ، حِينَ تَقُولُ هذَا تَشْتُمُنَا نَحْنُ أَيْضًا!». ففاجأه المسيح بشتمه هو أيضًا وأصحابه: «وَوَيْلٌ لَكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّامُوسِيُّونَ!»، واسترسل في ذلك (لوقا ١٠/ ٤٦ ـ ٥٢). كما وصف معاصريه أنّهم

---

(١) (إلياس) في القرآن.

(٢) قال في لوقا ٢٢/ ٤٢: «وَظَهَرَ لَهُ مَلَاكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّيهِ».

(٣) «تقريبًا كل المخطوطات الأقدم لا تضمّ لوقا ٢٢/ ٤٣ ـ ٤٤»

Philip W. Comfort, *A Commentary on the Manuscripts and text of the New Testament*, Grand Rapids: Kregel, 2015, p.235.

(٤) Voltaire, *Oeuvres complètes de Voltaire* (A. Sautelet, 1827), 2/1207.

«زناة» لأنهم لم يؤمنوا به (متّى ١٦/ ٤)، وقد شعر أصحاب الترجمات العربيّة بفحش العبارة فغيّروها من «جيل شرير وزان» إلى «جِيل شِرِّيرٌ فَاسِقٌ» رغم أنّ النص اليوناني يستعمل كلمة «μοιχαλις» [مُويكَليس]، ويقابلها في الترجمات الإنجليزية «adulterous»، علمًا أنّ الترجمات العربيّة تعرّب ذات الكلمة بمعنى الزاني في الرسالة إلى روما ٧/ ٣: "فَإِذًا مَا دَامَ الرَّجُلُ حَيًّا تُدْعَى زَانِيَةً «μοιχαλις».

منافق: قال المسيح: «إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ **بَاطِلًا** يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ» (متّى ٥/ ٢٢)، لكنّه هو نفسه غضب على الآخرين: «فَنَظَرَ حَوْلَهُ إِلَيْهِمْ بِغَضَبٍ، حَزِينًا عَلَى غِلَاظَةِ قُلُوبِهِمْ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ: «مُدَّ يَدَكَ». فَمَدَّهَا، فَعَادَتْ يَدُهُ صَحِيحَةً كَالأُخْرَى» (مرقس ٣/ ٥).

قد تعترض هنا بالقول: إنّ المسيح كان يتحدّث في (متّى ٥/ ٢٢) عن من يغضب **باطلًا** لا من يغضب مطلقًا، ولذلك فهو لم يتناقض! وجواب ذلك هو: أنّ كلمة «باطلًا» (εικη) [إِيكِي] ليست أصلية، وإنما أضافها النسّاخ لاحقًا؛ فهي غير موجودة في أقدم المخطوطات؛ كالبردية ٦٤/ ٦٧، والقراءة الأصلية للمخطوطة السينائية، والمخطوطة الفاتيكانية؛ ولذلك حذفها متن (NA^{28}) و(UBS^5)، وأهم الترجمات الحديثة، مثل ترجمة (The New International Version) وترجمة (The New American Bible).

أحد النُسَّاخ المتأخرين أضاف كلمة «باطلًا»
في هامش المخطوطة السينائية التي تعود إلى القرن الرابع [داخل المربّع]



ومن نفاق مسيح الكنيسة أنه طلب من تلاميذه أن يتنازلوا عن كلّ أملاكهم (متّى ١٩/ ٢١، مرقس ١٠/ ٢١، لوقا ٣/ ١١، ١١/ ٤١، ١٢/ ٣٣،

١٤/ ٣٣، ١٨/ ٢٢)، لكنّه هو نفسه كان له منزل فسيح يملكه: «وَفِيمَا هُوَ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِهِ كَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ يَتَّكِئُونَ مَعَ يَسُوعَ وَتَلَامِيذِهِ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرِينَ وَتَبِعُوهُ» (مرقس ٢/ ١٥).

ومن نفاقه أيضًا أنّه قال: «لا تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا» (متّى ٥/ ٣٩)، ولكنّه لم يفعل ذلك في أيّ من قصص الأناجيل، بل لمّا لطمه أحد الخدّام، أجابه: «إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيًّا فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ، وَإِنْ حَسَنًا فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟» (يوحنا ١٨/ ٢٣)، ولم يُسلمه خدّه الآخر.

مزاجيّ، ينتقم من الطبيعة: كان المسيح مرّة مارًا في طريق، ولمّا رأى شجرة تين، اقترب منها، وفعل أمرًا عجبًا: «وَفِي الْغَدِ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ بَيْتِ عَنْيَا جَاعَ، فَنَظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهَا وَرَقٌ، وَجَاءَ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهَا شَيْئًا. فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهَا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا إِلَّا وَرَقًا؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَقْتَ التِّينِ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: لَا يَأْكُلْ أَحَدٌ مِنْكِ ثَمَرًا بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ!» (مرقس ١١/ ١٢ ـ ١٤). لم يكن الوقت وقت إثمار؛ فلِمَ يدعو المسيح على الشجرة ألّا تثمر مرّة أخرى؟!

داعية شقاق: قال المسيح: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلَا يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلَادَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا» (لوقا ١٤/ ٢٦). ليس الأمر متعلّقًا بتحقيق البراء من الضالين، وإنما هو في صريح بغض كلّ شيء، حتى نفس المرء ذاتها.. ولا يبلغ الإنسان ذلك حتّى يبتلى بالنظرة القاتمة لكلّ شيء؛ بما يجعله يمقت نفسه.

خائن لأصحابه: حرّض المسيح تلاميذه على أن يتّخذوا سيوفًا: «مَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا» (لوقا ٢٢/ ٣٦)، ولكن ما إن حاصره الأعداء حتى زعم أنّ اتّخاذ السيف مذمّة؛ إذ أنكر على تلميذ له «اسْتَلّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ» وقال له: «رُد سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ؛ لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ!» (متّى ٢٦/ ٥٢).

جاهل بالنصوص المقدّسة: يؤمن النصارى أنّ المسيح كامل العلم، وقد حاول كتّاب الأناجيل إظهار المسيح في صورة من يعلم نصوص العهد القديم

وحقيقة معناها، غير أنّ النظر في كثير من المواضع التي تزعم الأناجيل اقتباس المسيح فيها من أسفار العهد القديم أو الإحالة إليها كاشفٌ جهل مسيح النصارى بالنصوص المقدسة. وقد عقد القسيس الكاثوليكي والناقد الشهير (ريموند براون)[١] في كتابه «مقدمةُ مسيحانية العهد الجديد» مبحثًا في معرفة المسيح بالأسفار المقدسة. وذكر مجموعة خصائص لهذه الاقتباسات:

• **الخصيصة الأولى**: كما يقول (براون) هي «وجود حالات يتضمّن فيها الاقتباس من الأسفار ـ والمنسوب إلى يسوع ـ خطأً»[٢]. ومثّلَ لذلك بقول المسيح: «مَنْ آمَنَ بِي، كَمَا قَالَ الْكِتَابُ، **تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ**» (يوحنا ٧/٣٨)؛ إذ رغم أنّ المسيح قد أحال إلى «الأسفار» (ηγραφη) [هِي غرافي] إلا أنّ هذا النص لا وجود له في الأسفار المقدسة قبل المسيح. وقد حاول (براون) الفرار من الإشكال بالقول بوجود احتمال أن يكون الاقتباس من أسفار ضائعة أو هو شكل آخر لترجمة للأسفار لا نعلمها[٣]. القول إنه اقتباس من أسفار لا نعلمها يطعن في الأسفار المقدسة بتحريف الحذف، والقول: إنّنا إزاء ترجمة مختلفة يطعن في الأسفار بتحريف التبديل!

وأما المثال الأساسيّ المعبّر عن هذه الخصيصة، فهو قول المسيح موبّخًا الفرِّيسيين اليهود: «أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ احْتَاجَ وَجَاعَ هُوَ وَالَّذِينَ مَعَهُ؟ كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ اللهِ فِي أَيَّام أَبِيَأَثَارَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَأَكَلَ خُبْزَ التَّقْدِمَةِ الَّذِي لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلَّا لِلْكَهَنَةِ، وَأَعْطَى الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَيْضًا» (مرقس ٢/٢٥ ـ ٢٦). العجيب هنا أنّ المسيح، وهو يوبّخ جهل اليهود بالتوراة، أخطأ في الاقتباس. قال (براون): «في مرقس ٢/٢٦ يقول يسوع: إنّ داود قد دخل بيت الله عندما كان أَبِيَأَثَار رئيسًا للكهنة، وأكل خبز التقدمة. القصّة موجودة في سفر صموئيل الأوّل ٢١/٢ ـ ٧؛ ومع ذلك، فإنّ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ

---

(١) ريموند براون Raymond E. Brown (١٩٢٨ ـ ١٩٩٨م): عالم كتابي متخصص في النصوص المقدسة المنسوبة إلى يوحنا الحواري في العهد الجديد. يعتبر أحد أكبر علماء الكاثوليك في أمريكا في القرن العشرين. من أهم مؤلفاته: "Birth of the Messiah" و"Death of the Messiah".

(٢) Raymond E. Brown, *An Introduction to New Testament Christology* (New York: Paulist, 1994) p.37.

(٣) المصدر السابق.

ليس أَبِيَأَثَارَ وإنّما هو أخيمالك. يبدو أنّ متّى ولوقا قد انتبها لهذا الإشكال، إذ إنّ روايتهما لهذا القول ليسوع قد حَذَفَتْ أيَّ ذكرٍ لرئيس الكهنة (متّى ١٢/ ٤، لوقا ٦/ ٤). كان أَبِيَأَثَارَ أكثر شهرة من أخيمالك وأكثر ارتباطًا بداود في آخر حياته حتى إنّ التراث الشعبي ربّما خلط بين الاثنين بسهولة، ولكن إذا كانت القراءة صحيحة، فإنّ يسوع يكون عندها قد **أظهر عدم علمه أنّه يتّبع رواية غير دقيقة للقصّة**»[١]. وقد اضطرّ نسّاخٌ إلى تحريف النصّ بإضافة كلمة (τoυ) [تُو] قبل «رئيس الكهنة»[٢] حتّى لا يكون المعنى ضرورة أن القصّة قد حدثت الزمن الذي كان فيه «أَبِيَأَثَارَ» رئيسًا للكهنة[٣]. بل بلغ الأمر ببعض المخطوطات الهامة أن ألغت هذا المقطع برمّته[٤]؛ دفعًا للحرج.

• **الخصيصة الثانية**: يقول (براون): «وجود حالات حيث الاقتباس المنسوب إلى يسوع من الأسفار المقدسة لا يُظهر أيّ حسٍّ نقديّ وإنّما يعكس فكرة دقيقة لزمنه»[٥]. ومثّل لذلك بنسبة مؤلف إنجيل مرقس إلى المسيح قوله: «لأَنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي، حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ» (مرقس ١٢/ ٣٦)، وهذا النص إحالة إلى مزمور ١١٠/ ١، وتقريبًا كلّ العلماء، بمن فيهم الكاثوليك، ينكرون نسبته إلى (داود) عليه السلام[٦].

• **الخصيصة الثالثة**: «في حالات أخرى، الاقتباسات المنسوبة إلى يسوع من الأسفار تستعمل تفسيرًا يعتبر هامشيًّا اليوم»[٧]. ومثّل (براون) لذلك بدفاع المسيح عن نفسه بعد اتّهام اليهود له أنّه يدّعي الألوهيّة (يوحنا ١٠/ ٣٣

---

(١) المصدر السابق، ص٣٧ ـ ٣٨.

(٢) مثل نُسّاخ المخطوطة السكندرية A (القرن الخامس) والمخطوطة الإفرايمية C (القرن الخامس) والمخطوطة الكوردثيانية (Θ) (القرن التاسع)..

(٣) C. E. B. Cranfield, *The Gospel According to St. Mark,* Cambridge Greek Testament Commentary (Cambridge: CUP, 1959) p.116

(٤) مثل مخطوطة بيزا D (القرن الخامس)، ومخطوطة واشنطن W (القرن الخامس) والمخطوطة السينائية السريانية sy^s (القرن الرابع).

(٥) Raymond E. Brown, *An Introduction to New Testament Christology*, p.38.

(٦) المصدر السابق، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٧) المصدر السابق، ص٣٩.

ـ ٣٦)، باستدلاله بنص مزمور ٨٢/٢: «أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ». والتفسير المنسوب إلى المسيح هنا فاسد؛ لأنّ نص المزمور يقول: إنّ الربّ سمّى القضاة «أبناء الله»، وهذا لا حجّة فيه لدفاع المسيح عن ألوهيّته؛ لأنّ البنوّة هنا بمعنى الاصطفاء لا اتّخاذ القرين.

قلتُ: من جهل المسيح أيضًا قوله: «وَلَيْس أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ» (يوحنا ٣/ ١٣). وهذا غلط؛ لأنّ التوراة تنصّ على أن (إيليّا) قد صعد إلى السماء ـ قبل المسيح ـ (٢ الملوك ٢/ ١١).

ومن جهله أنّه قال: «وَالآبُ نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي يَشْهَدُ لِي، لَمْ تَسْمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ، وَلَا أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ» (يوحنا ٥/ ٣٧)، رغم أنّ اليهود قد سمعوا الربّ ورأوه مرّات كثيرة، منها: «فَكَلَّمَكُم الرَّبُّ مِنْ وَسَطِ النَّارِ وَأَنْتُمْ سَامِعُونَ صَوْتَ كَلَامٍ، وَلكِنْ لَمْ تَرَوْا صُورَةً بَلْ صَوْتًا» (التثنية ٤/ ١٢)، كما أنّ (موسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ وعشرات معه «رَأَوا إِلهَ إِسْرَائِيلَ، وَتَحْتَ رِجْلَيْهِ شِبْهُ صَنْعَةٍ مِنَ الْعَقِيقِ الأَزْرَقِ الشَّفَّافِ، وَكَذَاتِ السَّمَاءِ فِي النَّقَاوَةِ» (الخروج ٢٤/ ١٠).

غير نموذجي: الصورة المعروضة للمسيح في الأناجيل لا تقدّم منهجًا للسلوك والسير في الأرض؛ إذ إنّنا لا نرى في مجموع صفات المسيح صياغة للشخصيّة السويّة الواقعيّة، وإنما هي لقطات متفرّقة ولوحات متباعدة لشخصية متغيّرة المزاج، لا تمنحنا قدوة ولا نموذجًا يُهتدى بهديه.

خلاصة النظر:

- ترسم لنا شهادات من صاحبوا نبيّ الإسلام ﷺ عن كثب معالم شخصيّة بشريّة ملكت جماع الفضائل.

- أعظم خصائص النبوّة، الصدق، وقد شهد لنبيّ الإسلام ﷺ بالصدق الصاحب القريب، والشانئ البعيد من معاصريه.

• حال نبيّ الإسلام ﷺ مع ربّه، في عامة عبادته، وفي دعائه وإخباته لمعبوده خاصة، أبعد ما يكون عن حال أهل الدجل والفِرى.

• ردّ نبوّة محمّد ﷺ بعد العلم بسيرته يلزم منه ردّ نبوّة كلّ رجل آخر نسب نفسه إلى النبوّة أو نُسِب إليها.

• صفات المسيح كما تبديها أناجيل النصارى تمنع وصفه بالصلاح، فضلًا عن نسبته إلى النبوّة أو الألوهيّة.

مراجع للتوسع:

ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م).

همام عبد الرحيم سعيد ومحمد همام عبد الرحيم، موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة (الرياض: البيان، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

سعيد حوى، الرسول ﷺ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٧م).

عماد الشربيني، ردّ شبهات حول عصمة النبيّ ﷺ في ضوء الكتاب والسُّنَّة (دار الصحيفة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م).

Adil Salahi, *Muhammad: Man and Prophet* (Leicester: Islamic Foundation, 2012).

Lesley Hazleton, *The First Muslim: The Story of Muhammad* (London: Atlantic Books, 2014).

Ataur-Rahim Muhammed, *Jesus: A prophet of Islam* (Riyadh: Daru'l-Alemiyye, 1994).

الفصل الثالث

المعجزات المادية للرسول ﷺ

﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ٨٦]

أعدّ برهانًا قبل أن تجادل غيرك

(مَثَل يهودي)

بين خيارين.. معجزات موثّقة أم محض إشاعات؟

إذا انتهيتَ إلى العلم أنّ (محمدًا) ﷺ أبعد الناس عن فساد الذمّة أو اختلال العقل، لم يبق عندها باب لإنكار صدقه في قوله بنبوّته، غير أنني أضيف أنّنا نسعى لرفع السقف إلى أعلى درجة ليس دونها سوى سماء الشكوكيّة المَرَضيّة، مراعاة لحال الباحث الذي لا يرضى بغير البرهان الساطع الناصع الذي تتكاتف فيه الدلائل والقرائن لتمنع بارقة أيّ شكّ أن تصيب صدق دعوى النبوّة المحمّدية؛ إذ نزيد على شرط الصدق الواضح، قيام الإعجاز الناضح، بعرض براهين الخوارق في حياة (محمّد) ﷺ بما يروي غليل المدلج في طريق طلب الحقيقة الربّانيّة.

التواتر، البرهان الأعلى على وقوع المعجزة:

قد يقول معترض: «أنا لا أبحث عن برهان قاطع أنّ محمّدًا صادق.. أنا أريد آيات خارقة للعادة، مخالفة لقوانين الطبيعة تدلّ على نبوتّه!».

قلتُ: سبق لنا بيان حقيقة النبوّة، ولمّا كانت في بنائها اللغوي وجوهرها الدلالي من الإنباء عن الربّ سبحانه، كان كلّ برهان على صدق هذا الإنباء حجّة كافية لإثبات صدق ما أنبأ به النبيّ..

ولأننا نتنزّل مع المخالف في هذا الكتاب طلبًا لما يملأ صدره يقينًا، فسنتناول أمّر الخوارق الماديّة للرسول ﷺ. ونحن نتوقّع منه هذا الاعتراض التقليدي: «لا أريد قصّة يرويها فلان عن فلان.. فربّما أخطأ فلان، أو كذب فلان.. أريد شهادة تاريخيّة لا يمسّها شكّ ولا ريب، ولا تعلّق لها بصدق الرواة..».

وجواب الاعتراض السابق في الأوجه التالية:

أولًا: تعذّرُ بذل معجزة يراها الإنسان بعيني رأسه الآن لا يدلّ على عدم إمكان وقوع المعجزات، وليس حجّة أنّ الشهادات التاريخية على معجزات نبيّ الإسلام ﷺ غير كافية، وإنّما هو حجّة أنّ المعارض قد بلغ في الشكّ مبلغًا بعيدًا، والأمر بذلك آفة نفسيّة وليس براعة معارضة؛ إذ **لا يعترف المؤرخون البتة بقاعدة: إذا لم أره؛ فهو أمر لم يحدث!**

على طالب الحق أن يسير مع الدليل حيث يميل أو يُنيخ، وإذا كان من الممتنع ردّ الشهادة التاريخية لحدوث معجزة ما إلى أمر آخر غير الوقوع الفعلي لهذه المعجزة، فالواجب عندها التسليم لما دلّ عليه الدليل.

ثانيًا: الإسلام هو الدين الوحيد القادر على استظهار معجزة يملك جميع الناس رؤيتها رأي العين، وهي معجزة القرآن. وسيكون لنا حديث مطوّل في ذلك لاحقًا في الكتاب الذي بين يديك.

ثالثًا: قد يُفهم من كلام المعترض أنّ روايات الأحاديث التي لم تبلغ الكثرة الكاثرة لا يمكن أن تمنح الإنسان «العلم النظري»؛ أي: اليقين المُتوصّل إليه عن نظر واجتهاد[1]. وهذا أمر في التعقيب عليه تفصيل.

(١) دلالة الحديث المتواتر على العلم الضروري أو النظري فيها تفصيل ليس هنا مقامه. انظر مثلًا ابن حجر، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق: عبد الله الرحيلي، الرياض: ١٤٢٢هـ، ص٤١ ـ ٤٢).

الأحاديث بالنظر إلى سندها على ضربين:
١ ـ أحاديث متواترة، وهي: «ما رواه جمع لا يمكن تواطؤهم وتوافقهم على الكذب عن مثلهم، ومستند خبرهم الحس»، فمن أهم شروط المتواتر أن يكون في كلّ طبقة عدد من الرواة كبير يمتنع في العادة أن يجتمعوا على اختلاق كذبة ما.
٢ ـ وما دون الأحاديث المتواترة هو حديث الآحاد.

إذا كان القصد هو أنّ روايات الآحاد لا تفيد بمجرّدها اليقين، فهذا صواب، ولكنّ الأمر يُتعقّب من ثلاثة أوجه. وأصل التعقّب إلزام المخالف أن يكون أمينًا مع نفسه؛ فإنّنا نرى كثيرًا من المجادلين في الدين إذا عُرضت عليهم دلائل صدق الإسلام، اختلقوا معايير متطرّفة للحكم، لا يرتضون حدّتها في غير هذا الباب. ودعوتي لهؤلاء دائمًا، هي تنبيههم أن يلتزموا طريق الاتّساق مع أنفسهم.. أو بعبارة يردّدها أحد الدعاة الأمريكان المخالفين للإسلام في محاورته للمسلمين: (Be consistent!)[١]. ونحن نقول له، ولكلّ باحث في الإسلام: كن متّسقًا مع نفسك ومنهجك في عامة أمرك في الحكم على ما يطرق سمعك من أخبار، وسِر مع سُنَّته في محاكمة كلّ دعوى، ولا تصنع للإسلام ميزانًا خاصًّا، تحمله يد متشنّجة:

أ ـ روايات الآحاد إذا جاءت عن ثقات، وسلمت من العلل، تفيد غلبة الظنّ، ولا تفيد أدنى الظنّ، وهي بذلك أولى بالتصديق ممّا يخالفها. فوجود الرواية الصحيحة داع للميل إلى تصديق صحّة هذه النبوّة، ولا مجال هنا للحياد السلبي.

ب ـ صحيحٌ أنّ روايات الآحاد المجرّدة لا تفيد وحدها اليقين[٢]، لكننا جميعًا في حكمنا على الأخبار نلتزم **عمليًّا** مذهبَ أنّ أخبار الآحاد إذا احتفّت

---

(١) هو الكاتب الدفاعي (جيمس وايت) (James White).

(٢) قال (ابن تيمية): «ولا يقول عاقل من العقلاء إنّ مجرّد خبر الواحد، أو خبر كلّ واحد يفيد العلم» (شرح الأصبهانية، تحقيق: محمد السعوي، الرياض: دار المنهاج، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م، ص٥٤٥).

بها القرائن تنتهي بإفادة اليقين؛ فإنّه لو جاء الخبر على صورة مخصوصة في نقل الرواية أو احتفّت به قرائن خارجيّة تدعمه، فإنّنا عادة نلتزم القول: إنّ هذا الخبر يفيد العلم؛ أي: اليقين. ولذلك قال (ابن تيمية): «الذي عليه الجمهور أنّ العلم يختلف باختلاف حال المخبرين به؛ فربّ عدد قليل أفاد خبرهم العلم بما يوجب صدقهم، وأضعافهم لا يفيد خبرهم العلم، ولهذا كان الصحيح أن خبر الواحد قد يفيد العلم إذا احتفّت به قرائن تفيد العلم»[١]. وقال إمام أهل صنعة الحديث «ابن حجر العسقلاني»: «وقد يقع فيها [أي: أحاديث الآحاد] ما يفيد العلم النظريّ بالقرائن على المختار»[٢]. والحكم على روايات المعجزات من هذا الجنس؛ ولذلك يُردّ إلى أهل الصنعة في سبر الأخبار. وكثير من أخبار المعجزات، وإن جاءت من رواية العدد القليل من الرجال إلا أنّها تورث في النفس قناعة أنّ تكذيب الرواة تعنّت غير أمين[٣].

ت ـ إذا كان المخالف لا يصدّق غير الأخبار المتواترة، وهذا أعلى سقف للشك ممكن، ولا يمكن لباحث أن يردّ المتواتر؛ لأنّه إن فعل ذلك فيمتنع عليه عندها أن يصدّق أيّ خبر؛ لأنه لا يبقى له مجال للمعرفة غير ما يراه عيانًا، وهذا لا يطيقه أحد؛ إذ إنّ أكثر من ٩٥٪[٤] من معارفنا مردّها الأخبار.. بل إنّه عليه ألّا يصدّق حواسه نفسها؛ لأنّ علمه بمخرجاتها داخل في حدّ الحكم على «الشهادة» الآحادية أو المتواترة؛ فإنّ عقله هو الذي يحكم بالصحّة والكذب على الأخبار لا حواسه، وما الحواس إلّا شاهد في محكمة العقل.. ونحن نقول له: قد ثبت أنّ في خبر السيرة معجزات متواترة. وإنكار صدق هذه الأخبار لا بدّ أن يتقدّمه إنكار حجيّة المتواتر، وذاك جنون؛ لأنه يُفرغ الإنسان من كلّ معرفة مكتسبة.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٨/ ٤٠.

(٢) ابن حجر، نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق: عبد الحميد سبر (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م)، ص٨١.

(٣) من المؤلفات التي جمعت روايات المعجزات «دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة» (للبيهقي) من المتقدمين، ومن المعاصرين كتاب سعيد باشنفر، دلائل النبوة (جدة: دار الخراز، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

(٤) الأرجح أن يقال ٩٩٪.

والتواتر هو ما رواه جمع غفير عن مثله إلى منتهاه، تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، ويكون مستندهم الحس. وهو على نوعين: تواتر لفظي، وهو ما تواتر لفظه عن الرواة، كقول الداعية الحقوقي الأمريكي (مارتن لوثر كنج): «لي حلم» (I have a dream)، وتواتر معنوي، وهو تواتر معنى مشترك؛ ككرم (حاتم الطائي) وشجاعة (عنترة)، فهي أمور لا نشكّ فيها وإن كنّا لا نجزم بصحّة الأحداث الفرديّة لمواقف كرم حاتمية وبطولات عنتريّة مخصوصة. فالتواتر بهذا التعريف حجّة نسلم لها جميعًا في حياتنا؛ كتسليمنا بوجود الصين والموزمبيق وإن لم نزرهما، فإن كثرة من شهدوا وجودهما لا يمكن ردّها بسبب مرضي إلى الكذب.

وقد أثبت البحث في روايات معجزات نبيّ الإسلام ﷺ أنها في مجموعها تصل إلى التواتر المعنوي؛ إذ تمنع العادة أن يتواطأ هذا الجم الغفير من الرواة على الكذب في نقل خوارق نبي الإسلام ﷺ.

التواتر المعنوي لمعجزات نبيّ الإسلام:

العلم بخبر معجزات نبيّ الإسلام ﷺ هو كالعلم بكلّ خبر ذائع لا نرتاب في تحقّقه؛ فإنّ كثرة نقل خبر كرم الكريم، وشجاعة الشجاع، ونباهة النبيه من طرق كثيرة لأحداثٍ متنوعة مورثة لليقين في صدق الخبر. وهذا أمر لا يُجادل فيه أحد من الناحية **العمليّة** في حياتنا؛ فإننا نحكم على كثير من الناس بيقين أنّهم على صفة معيّنة، رغم أنّنا لا نملك يقينًا كاملًا في أيّ من الحوادث التي تنسب إلى هذا الشخص، وإنّما مجموع ما يُنقل عن هذا المعيّن لا يمكن أن يكون كلّه كذبًا.

من أعظم طرق امتحان شَكِّكَ، أمعتدلٌ هو أم مَرَضيٌّ؟ أن تقارن ما تطلبه من دليل عند النظر في أدلّة الإسلام وما ترضاه من دليل في بحثك عن الحق في غير ذلك..

وقد بلغت المعجزات الماديّة لنبيّ الإسلام ﷺ المئات، وإن تنوّعت في أخبارها. قال (ابن القيم) في مقام بيان أنه لا سبيل للتسليم بما نقل من

معجزات (موسى) و(عيسى) إلا بعد التسليم بمعجزات محمّد ﷺ: «وإذا كان هذا شأن معجزات هذين الرسولين مع بُعْدِ العهد وتشتت شمل أمتيهما في الأرض وانقطاع معجزاتهما، فما الظن بنبوة مَنْ معجزاته وآياته **تزيد على الألف** والعهد بها قريب، وناقلوها أصدق الخلق وأبرّهم، ونقلها ثابت بالتواتر قرنًا بعد قرن»[1].

وداخل جنس المعجزة النبويّة، تواتر بعض نوعها، مثل استجابة الدعاء. قال القاضي (عياض): «إجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة دعا لهم وعليهم **متواترة** على الجملة، معلومة ضرورة»[2].

والحجّة الآن على المكذّبين لهذا التواتر أن ينقضوا صدقه ببرهان ساطع يمنع دلالة اجتماع هذه الروايات على صدق أصل المعجزة النبويّة؛ إذ مهما توسّع الشاك في زيف آحاد هذه الرويات فلا يمكنه أن يردّ جنس خبر صدور معجزات عن نبيّ الإسلام ﷺ.

قال (ابن حجر) في تعليق نفيس في كثرة المعجزات النبويّة: «ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير، كما يُقطع بوجود جود حاتم وشجاعة علي، وإن كانت أفراد ذلك ظنيّة وردت مورد الآحاد مع أن كثيرًا من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير، وأفاد **الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك**، بل لو ادّعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كان مستبعدًا وهو أنه لا مرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدّثوا بهذه الأخبار في الجملة، ولا يحفظ عن أحد من الصحابة ولا من بعدهم مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك ولا الإنكار عليه فيما هنالك، فيكون الساكت منهم كالناطق؛

---

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي (بيروت: دار المعرفة، د.ت.)، ٢/٣٤٧.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م)، ص٣٢١.

لأنّ مجموعهم محفوظ من الإغضاء على الباطل، وعلى تقدير أن يوجد من بعضهم إنكار أو طعن على بعض من روى شيئًا من ذلك فإنما هو من جهة توقّف في صدق الراوي أو تهمته بكذب أو توقف في ضبطه ونسبته إلى سوء الحفظ أو جواز الغلط، ولا يوجد من أحد منهم طعن في المروي»[1].

وحاصل كلام ابن حجر:

- خبر معجزات الرسول ﷺ واسع؛ بما يمنع يقينًا أن يكون كلّه زيف.
- كثير من هذه المعجزات ثابت بيقين عند المتخصّصين في جمع الأسانيد وتمحيصها.
- جلّ أخبار المعجزات ممّا روي من طريق آحاديٍّ صحيحٍ مورثة لليقين بعد النظر والتدبّر في حال الرواية؛ لأنّه لم يثبت البتّة عن الصحابة أنّهم قد أنكروا على بعضهم رواية المعجزات، رغم أنّه قد صدر عنهم الخلاف في بعض الروايات الأخرى في الأحكام وغيرها؛ فرغم أنّ الأصل في روايات الآحاد أن تفيد الظنّ الغالب إذا سلمت من العلّة القادحة، إلّا أنّه إذا احتفّت بها القرائن أفادت العلم اليقينيّ.

ضريبة إنكار حجيّة التواتر المعنوي لمعجزات نبيّ الإسلام ﷺ = الشكّ في كلّ معارفنا المكتسبة؛ لأنّ أعلاها يقينًا مردّها التواتر.

تواتر معجزات مخصوصة:

لا يقتصر خبر معجزات نبيّ الإسلام ﷺ على تواتر جنس الخارقة، وإنّما ثبت بالتواتر عن نبي الإسلام ﷺ عدد من المعجزات المخصوصة بعينها، نقلها عدد كبير من الصحابة، وعنهم عدد أكبر من التابعين حتّى مؤلّفي الدواوين التي صُنفت لجمع الحديث النبوي، كثرة تقوم بها حجّة التواتر في كلّ طبقة.

(١) ابن حجر، فتح الباري (القاهرة: مطبعة الحلبي)، ٧/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

قتل عمار والفئة الباغية:

تواتر عن الرسول ﷺ قوله للصحابيّ «عمّار بن ياسر»: «**تقتلك الفئة الباغية**». ومعلوم بيقين أنّ «عمّارًا» قد قتلته طائفة (معاوية) رضي الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ، سنة ٣٧هـ، وقد بغت طائفته على الخليفة المبايع زمانه «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه.

قال (السيوطي): «هذا الحديث متواتر رواه من الصحابة بضعة عشر»[١]؛ فقد رواه (خزيمة بن ثابت) و(أبو سعيد الخدري) و(عمرو بن العاص) وابنه (عبد الله)، و(أم سلمة) و(أبو هريرة) و(معاوية)، و(عمرو بن حزم) و(حذيفة) و(أبو أيوب) و(أبو رافع) و(أبو اليَسَر) و(ابن مسعود)[٢].

ومن المهم هنا التذكير أنّ هذا الحديث ينقله أهل السُّنَّة عن الجمّ الغفير في كلّ طبقاته رغم خلافهم الكبير مع الشيعة. ومعلوم أن الشيعة يستدلون به للطعن في طائفة (معاوية) رضي الله عنه. **وقد نُقِل بصورة متواترة زمن الخلافة الأمويّة التي كان يُحتجّ المنكرون على حكامها الأشدّاء بهذا الخبر، فلِمَ تُرك دون نكير**، علمًا أنّ «معاوية» رضي الله عنه لما ذُكِّر بهذا الحديث عند قتل طائفته (عمّارًا) لم ينكر صحّته، فعن (حنظلة بن خُوَيْلد العنزي) قال: «بينما أنا عند معاوية، إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار، يقول كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال عبد الله بن عمرو: لِيَطب به أحدكما نفسًا لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقتله الفئة الباغية**»، قال معاوية: فما بالك معنا؟! قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: **أطع أباك ما دام حيًّا ولا تعصه، فأنا معكم، ولست أقاتل**»[٣]؟

بل ثبت أنّ (عمرو بن حزم) دخل على (عمرو بن العاص) فقال: قُتِل عمّار، وقد قال رسول الله ﷺ: «**تقتله الفئة الباغية**». فدخل عمرو على معاوية

---

(١) السيوطي، الخصائص الكبرى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م)، ٢/ ٢١٢.

(٢) هامش مسند أحمد (تحقيق: الأرناؤوط) ١١/ ٤٤.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (ح/٦٥٣٨). وصححه أحمد شاكر.

فقال: «قُتِل عمّار!». قال معاوية: «قُتِل عمّار؛ فماذا؟» قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **تقتله الفئة الباغية**». قال: «دحضت في بولك أو نحن قتلناه؟ إنما قتله عليّ وأصحابه»[(١)]. فلم يكن الجدل في صدق الراوية قائمًا بين طائفة (عمار) وخصومها، وإنّما حول فهم بعض دلالات الحديث.

انشقاق القمر:

جاء خبر انشقاق القمر معجزةً للرسول ﷺ في القرآن الكريم، توثيقًا للحادثة ولردّة فعل من شهدها من المشركين: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ [القمر: ١ ـ ٣].

ودلالة الآيات السابقة على حدوث الانشقاق في الزمن الماضي ظاهرة من إيراد فعل «انشق» في صيغة الماضي. ويؤكّد ذلك قراءة (حذيفة): «وقد انشق القمر»[(٢)].

كما ثبت عن جمع من الصحابة وقوع حادثة انشقاق القمر. قال صاحب «نظم المتناثر من الحديث المتواتر»: «قال التاج ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب الأصلي: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق من حديث شعبة عن سليمان بن مهران، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن ابن مسعود، ثم قال: وله طرق أخرى شتى بحيث لا يُمترى في تواتره. وقال في الشفا بعد ما ذكر أن كثيرًا من الآيات المأثورة عنه ﷺ معلومة بالقطع ما نصه: أمّا انشقاق القمر، فالقرآن نصّ بوقوعه، وأخبر بوجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلّا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة..

وفي «أمالي» الحافظ (ابن حجر): أجمع المفسرون وأهل السير على

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١٩٩(١٧٩٣١) و(٢٤٢٥٩).

(٢) ابن خالويه، مختصر شواذ القرآن (دار الهجرة، عن طبعة ليبزج، ١٩٣٤م للمستشرق برجستراسر)، ص١٤٧.

وقوعه. قال: ورواه من الصحابة: عليّ، وابن مسعود، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وابن عباس، وأنس.

وقال (القرطبي) في «المفهم»: رواه العدد الكثير من الصحابة، ونقله عنهم الجم الغفير من التابعين فمن بعدهم. وفي المواهب اللدنية: جاءت أحاديث الانشقاق في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة، منهم: أنس، وابن مسعود، وابن عباس، وعليّ، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وغيرهم.

وقال (ابن عبد البر): روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا، وتأيّد بالآية الكريمة.

وقال (المناوي) في شرحه «لألفيّة السير» (للعراقي): «تواترت بانشقاق القمر الأحاديث الحسان كما حقّقه التاج السبكي وغيره»[1].

حنين الجذع:

روى (جابر) ﵁ أنّه «كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخلٍ، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا؛ كصوت العشار حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكت»[2]. وزاد (أنس) ﵁: «لمّا قعد نبيّ الله ﷺ على المنبر خار الجذع خوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره حزنًا على رسول الله ﷺ، فنزل إليه رسول الله ﷺ من المنبر، فالتزمه وهو يخور، فلما التزمه رسول الله ﷺ سكت»[3].

وهي حادثة رواها جم غفير الصحابة. قال صاحب: «نظم المتناثر من

---

(١) الكتاني، نظم المتناثر من الحديث المتواتر، تحقيق: شرف حجازي (مصر: دار الكتب السلفية)، ص٢١٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (ح/ ٣٣٩٢).

(٣) رواه ابن خزيمة، كتاب الجمعة، باب ذكر العلة التي لها حن الجذع (ح/ ١٧٧٧). صحيح على شرط مسلم.

الحديث المتواتر»: «أورده في الأزهار من حديث: (١) سهل بن سعد (٢) وجابر بن عبد الله (٣) وابن عمر (٤) وأُبيّ بن كعب (٥) وبريدة (٦) وابن عباس (٧) وأبي سعيد الخدري (٨) وأنس (٩) وأم سلمة (١٠) والمطلب بن أبي وداعة السمهي، عشرة أنفس. قلت: قال عياض في الشفا: أمره مشهور منتشر، والخبر به متواتر؛ أخرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، ثم ذكر منهم العشرة المذكورين. وقال الحافظ ابن حجر في «أماليه»: طرقه كثيرة. قال البيهقي: أمره ظاهر؛ نقله الخلف عن السلف، وإيراد الأحاديث فيه؛ كالتكلّف؛ يعني: لشدة شهرته...

وقال في «فتح الباري»: «حديث حنين الجذع وانشقاق القمر نقل كل منهما نقلًا مستفيضًا يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث دون غيرهم ممن لا ممارسة له في ذلك، والله أعلم.اهـ. وفي شرح «ألفية السير» للعراقي للشيخ عبد الرؤوف المناوي، ورد حنين الجذع من طرق كثيرة صحيحة يفيد مجموعها التواتر المعنوي. ثم ذكر أنه ورد عن جمع من الصحابة نحو العشرين»[1].

الإسراء:

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: ١].

جاءت رواية خبر الإسراء بنبي الإسلام ﷺ من مكّة إلى أورشليم (القدس) عن جمع غفير من الصحابة. قال صاحب «نظم المتناثر من الحديث المتواتر»: «أورده فيها أيضًا من حديث: (١) أنس (٢) ومالك بن صعصعة (٣) وأبي ذر (٤) وجابر بن عبد الله (٥) وبريدة (٦) وحذيفة بن اليمان (٧) وابن عباس (٨) وأُبيّ بن كعب (٩) وأبي سعيد الخدري (١٠) وشداد بن

(١) ابن حجر، فتح الباري ٦/ ٥٩٢.

أوس (١١) وأبي هريرة (١٢) وعائشة (١٣) وابن مسعود (١٤) وعلي بن أبي طالب (١٥) وعمر بن الخطاب (١٦) وأبي حبة الأنصاري (١٧) وأبي ليلى الانصاري (١٨) وأبي الحمراء (١٩) وأبي أيوب (٢٠) وأبي أمامة (٢١) وسمرة بن جندب (٢٢) وابن عمرو (٢٣) وصهيب بن سنان (٢٤) وأسماء بنت أبي بكر (٢٥) وعبد الرحمٰن بن قرط (٢٦) وأم هانئ (٢٧) وأم سلمة، سبعة وعشرين نفسًا. قلت: عدّ الحافظ الشامي في «معراجه» الذين رووا قصة الإسراء والمعراج عنه ﷺ فبلغوا تسعة وثلاثين، وعدّ منهم ممن لم يذكره السيوطي هنا (٢٨) أسامة بن زيد (٢٩) وبلال بن حمامة (٣٠) وبلال بن سعد (٣١) وسهل بن سعد (٣٢) وابن عمر (٣٣) وابن الزبير (٣٤) وابن أبي أوفى (٣٥) وعبد الله بن أسعج بن زرارة (٣٦) وعبد الرحمٰن بن عابس (٣٧) والعباس بن عبد المطلب (٣٨) وأبا بكر (٣٩) وعثمان (٤٠) وأبا الدرداء (٤١) وأبا سفيان بن حرب (٤٢) وأبا سلمة (٤٣) وأبا سلمى الراعي (٤٤) وأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، وزاد في «شرح المواهب» نقلًا عن ابن دحية (٤٥) عياض... فمجموع ذلك خمسة وأربعون صحابيًّا...»[١].

اعتراض: ألم ينف القرآن عن نبي الإسلام المعجزات؟

يزعم المنصّرون أنّ القرآن قد نفى عن نبي الإسلام ﷺ كلّ معجزة ماديّة؛ إذ شهد أنّ معجزة نبيّ الإسلام ﷺ الوحيدة هي القرآن. واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٤].

---

(١) الكتاني، نظم المتناثر ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

وجواب هذا الاعتراض من أوجه:

أولًا: الجواب القرآني لم ينفِ المعجزات بإطلاق وإنّما هو متعلّق بواحد من **ثلاثة أمور:**

• رفض الاستجابة لطلب معجزات مخصوصة، لا فعل جنس المعجزات. والسياق دال على ذلك: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

• طلب خوارق من باب الملاججة وليس استجداءً للحق، وهو ما يعكسه قوله تعالى في هذه الطائفة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ...﴾ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٩ ـ ٩٣]. ويظهر عنادهم في قوله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الصافات: ١٤ ـ ١٥]، وهي آية تثبت المعجزة (الآية = المعجزة)، وتفضح عناد المخالفين الساخرين. ولذلك صرّح القرآن بصرف الآيات عمّن لا يطلبون الهداية بصدق، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال (الرازي) في تفسيره: إنّ القرآن «حكى أن اليهود سألوا الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، وذكر تعالى بعده أنهم لا يطلبون ذلك لأجل الاسترشاد ولكن لأجل العناد واللجاج، وحكى أنواعًا كثيرة من فضائحهم وقبائحهم... إصرار اليهود على طلب هذه المعجزة باطل، وتحقيق القول فيه أن إثبات المدلول يتوقف على ثبوت الدليل، ثم إذا حصل الدليل وتمّ فالمطالبة بدليل آخر تكون طلبًا للزيادة وإظهارًا للتعنت واللجاج، والله سبحانه وتعالى

يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا اعتراض عليه لأحد بأنه لَم أعطى هذا الرسول هذه المعجزة وذلك الرسول الآخر معجزًا آخر»[1].

• بعض الخوارق التي طلبها الكفار هي في حقيقتها عقوبة معجّلة على المنكرين. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: ٥٧ ـ ٥٨]. فما يطلبه المشركون هنا هو نوع من الاستخفاف بالنبوّة، والعناد البريء من طلب الحق، واستدعاء العذاب المعجّل الذي إذا أصاب قوم نبيّ أهلكهم؛ كصيحة قوم (صالح) عليه السلام؛ إذ طلب منه قومه آية، وكانوا لاهين معاندين: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٤]، ولما تمثّلت الآية أمامهم، استخفّوا بها، فجاءهم العذاب المهلك: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥ ـ ١٥٨].

وقد صحّ عن (ابن عباس) رضي الله عنه قوله: «قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: «ادع الله ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك!» قال: «**أو تفعلون؟**» قالوا: «نعم!» فدعا الله فأتاه جبريل، فقال: «إنّ ربّك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة؟» قال: «**يا ربّ باب التوبة والرحمة**»[2].

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م)، ١١/١١٠.

(٢) رواه أحمد (١/٢٥٨)، والحاكم (ح/٣٢٧٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه.

قال (الشوكاني) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]: «والمعنى: وما مَنَعَنا من إرسال الآيات التي سألوها إلاّ تكذيب الأولين، فإن أرسلناها وكذّب بها هؤلاء عوجلوا ولم يُمْهَلوا كما هو سُنَّة الله سبحانه في عباده. . . والحاصل: أن المانع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكُلِّي وهو الاستئصال، وقد عزمنا على أن نُؤَخِّر أمر مَن بُعِث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة»[1].

ثانيًا: القرآن نفسه يثبت معجزات ماديّة للرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فقد جاءتهم الآية الدالة على النبوّة، لكنّهم طلبوا معجزات مخصوصة من نفس عين معجزات الأنبياء السابقين أو أكثر عجبًا. وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢﴾ [القمر: ١ ـ ٢]، وقال سبحانه: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾ [آل عمران: ٨٦]. والبيّنات هي دلائل النبوّة، ويشهد لذلك خبرها في قصص النبيّين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٢﴾ [غافر: ٢٢]، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [النساء: ١٥٣]، كما نصّ القرآن على آيات للنبوّة لمحمّد ﷺ: قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: ٢١].

ثالثًا: لا يجوز للنصارى إلزام المسلمين أنّ عدم استجابة القرآن لطلب معجزات مخصوصة حجّة ألّا معجزة لنبيّ الإسلام ﷺ؛ إذ النصارى يؤمنون أنّ

---

(١) الشوكاني، فتح القدير ٣/ ٢٤٣.

للمسيح معجزات رغم أنّ كتبهم تخبر أنّ المسيح قد رفض أن يقوم بمعجزات طُلبت منه:

• قال جمع من الناس للمسيح: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا» (يوحنا ٦/ ٣٠ ـ ٣١)، فما كان جواب المسيح إلا أنّ حدّثهم بكلام غامض، ولم يستجب لطلبهم. ولما تكرّر الجواب المبهم نفسه منه «رَجَعَ كَثِيرُونَ مِنْ تَلَامِيذِهِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلَمْ يَعُودُوا يَمْشُونَ مَعَهُ» (يوحنا ٦/ ٦٦).

• جاء في خبر القبض على المسيح: «وَأَمَّا هِيرُودُسُ فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ فَرِحَ جِدًّا؛ لأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَنْ يَرَاهُ، لِسَمَاعِهِ عَنْهُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَتَرَجَّى أَنْ يَرَى آيَةً تُصْنَعُ مِنْهُ. وَسَأَلَهُ بِكَلَامٍ كَثِيرٍ **فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ**. وَوَقَفَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ بِاشْتِدَادٍ، **فَاحْتَقَرَهُ** هِيرُودُسُ مَعَ عَسْكَرِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسًا لَامِعًا، وَرَدَّهُ إِلَى بِيلَاطُسَ» (لوقا ٢٣/ ٨ ـ ١٠).

• وجاء في نفس القصّة أيضًا: «وَالرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا ضَابِطِينَ يَسُوعَ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَهُمْ يَجْلِدُونَهُ، وَغَطَّوْهُ وَكَانُوا يَضْرِبُونَ وَجْهَهُ وَيَسْأَلُونَهُ قَائِلِينَ: «تَنَبَّأْ! مَنْ هُوَ الَّذِي ضَرَبَكَ؟» وَأَشْيَاءَ أُخَرَ كَثِيرَةً كَانُوا يَقُولُونَ عَلَيْهِ مُجَدِّفِينَ» (لوقا ٢٢/ ٦٣ ـ ٦٥). فقد طُلب من المسيح أن يخبر بالغيب، فلم يفعل.

وماذا عن معجزات مسيح النصارى؟

لا تقف مشكلات المعجزات المنسوبة إلى المسيح في الأناجيل عند فقدان الأناجيل للأسانيد ـ وأنّها بذلك ـ روايات مجاهيل، مع ما في روايات المعجزات من اختلافات واضحة.. وإنّما تمتد إلى أكثر من ذلك..

هل للمسيح معجزات؟: جاء في مرقس ٨/ ١١ ـ ١٢ أنّه لما طلب اليهود الفرِّيسيون من المسيح معجزة، قال لهم: «لِمَاذَا يَطْلُبُ هذَا الْجِيلُ آيَةً؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: **لَنْ يُعْطَى** هذَا الْجِيلُ آيَةً!». فنفى أن تكون هناك معجزة

البتة. ولمّا كتب مؤلف إنجيل متّى إنجيله ـ معتمدًا على إنجيل مرقس، كما هو قول جمهور النقاد ـ غيّر النص إلى: «جِيلٌ شِرِّيرٌ فَاسِقٌ يَلْتَمِسُ آيَةً، وَلَا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ **إِلَّا آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ**» (متّى ١٦/ ٤)، فنسب إلى المسيح الوعد بمعجزة واحدة، وهي قيامة المسيح من الموت. وكلّ ذلك مخالف لما جاء من معجزات مذكورة في الأناجيل قبل القيامة المزعومة للمسيح من الموت. ثم إنّ المعجزة التي وعد بها المسيح الفرّيسيين، وهي قيامته من القبر، لم يرها الفريسيون، وإنما رآها عدد من المؤمنين بالمسيح!

ويظهر التناقض أيضًا في كلام (بولس)؛ إذ يُفهم من قوله: «لأَنَّ الْيَهُودَ يَسْأَلُونَ آيَةً، وَالْيُونَانِيِّينَ يَطْلُبُونَ حِكْمَةً، وَلكِنَّنَا نَحْنُ نَكْرِزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوبًا: لِلْيَهُودِ عَثْرَةً، وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً!» (١ كورنثوس ١/ ٢٢ ـ ٢٣) أنّه لم تكن للمسيح معجزات، على خلاف منصوص الأناجيل!

عجز المسيح عن صنع المعجزات: يخبرنا مؤلّف إنجيل مرقس أنّه لما كان المسيح في بلدته «لم يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلَا قُوَّةً وَاحِدَةً، غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ فَشَفَاهُمْ» (مرقس ٦/ ٥). وبعيدًا عن تناقض النص السابق؛ لأنه نفى المعجزة بالكلية ثم استدرك ببعضها (ولعلّ الاستدراك تحريف مبكّر للنصّ)، يبدو عجيبًا أن يكون المسيح إلٰهًا ثم يعجز عن صنع المعجزات!

وقد استشعر مؤلّف إنجيل متّى شناعة رواية مرقس فغيّرها إلى: «وَلَمْ يَصْنَعْ هُنَاكَ قُوَّاتٍ كَثِيرَةً لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ» (متّى ١٣/ ٥٨)؛ فحذف «لم يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلَا قُوَّةً وَاحِدَةً»، وجعل سبب قلّة المعجزات قلّة إيمان الناس لا عجز المسيح!

معجزات المسيح معلنة أم خفيّة؟: يفهم من قصص الأناجيل أنّ معجزات المسيح كانت تشهدها أمم من الناس، لكنّنا نقرأ أيضًا في يوحنا ٧/ ١ ـ ٥: «وَكَانَ يَسُوعُ يَتَرَدَّدُ بَعْدَ هذَا فِي الْجَلِيلِ، لأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي الْيَهُودِيَّةِ لأَنَّ

الْيَهُودَ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ. وَكَانَ عِيدُ الْيَهُودِ، عِيدُ الْمَظَالِّ، قَرِيبًا. فَقَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ: «انْتَقِلْ مِنْ هُنَا وَاذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، لِكَيْ يَرَى تَلاَمِيذُكَ أَيْضًا أَعْمَالَكَ الَّتِي تَعْمَلُ، لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْمَلُ شَيْئًا فِي الْخَفَاءِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عَلاَنِيَةً. إِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ هذِهِ الأَشْيَاءَ فَأَظْهِرْ نَفْسَكَ لِلْعَالَمِ». لأَنَّ إِخْوَتَهُ أَيْضًا لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ». وذاك برهان أنّ معجزات المسيح كانت خفيّة حتّى إنّ إخوته (!) لم يؤمنوا به.

اضطراب المسيح في حقيقة معجزاته: جاء في إنجيل لوقا أنّ المسيح سمع أنّ ابنة رئيس المجمع قد ماتت، فقال للنائحين: «لَا تَبْكُوا. لَمْ تَمُتْ لكِنَّهَا **نَائِمَةٌ**»، ثم اقترب من الفتاة المسجّاة، وأمسك يدها «فَرَجَعَتْ رُوحُهَا وَقَامَتْ فِي الْحَالِ. فَأَمَرَ أَنْ تُعْطَى لِتَأْكُلَ» (لوقا ٨/ ٥٥)؛ فكيف تعود الفتاة إلى الحياة إذا كانت نائمة**!** علمًا أنّه يفهم من (مرقس ٥/ ٤١ ـ ٤٢) و(متّى ٩/ ٢٥) أن الفتاة كانت نائمة حقيقة، ولم يرد ذكر أنّ «روحها عادت إليها». وهو ما يُظهر أن مؤلف إنجيل لوقا قد أراد أن يحوّل قصة مرقس إلى معجزة، وإن بدت متناقضة**!**

نكارة المعجزات: تذكر الأناجيل بعض المعجزات المنكرة التي قام بها المسيح، ومنها: أن أوّل معجزة للمسيح كانت في عرس، وقد كانت خارقة المسيح عندها أنه لما انتهى ما عند القوم من خمر حوّل لهم الماء خمرًا (يوحنا ٢/ ١ ـ ١١) لإسكار الحاضرين رغم نهي العهد القديم عن السكر (الأمثال ٢٠/ ١، لاويين ١٠/ ٩) وإخبار (بولس) أنّ من يسكرون «لا يَرِثُونَ مَلَكُوتَ الله» (غلاطية ٥/ ٢١).

من المعجزات الأخرى المنكرة للمسيح أنّ امرأة كانت تعاني نزيفًا لمّا رأته «مسّت ثوبه؛ لأَنَّهَا قَالَتْ: «إِنْ مَسَسْتُ وَلَوْ ثِيَابَهُ شُفِيتُ»، فَلِلْوَقْتِ جَفَّ يَنْبُوعُ دَمِهَا، وَعَلِمَتْ فِي جِسْمِهَا أَنَّهَا قَدْ بَرِئَتْ مِنَ الدَّاءِ. فَلِلْوَقْتِ الْتَفَتَ يَسُوعُ بَيْنَ الْجَمْعِ شَاعِرًا فِي نَفْسِهِ بِالْقُوَّةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ، وَقَالَ: «مَنْ لَمَسَ ثِيَابِي؟» فَقَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: «أَنْتَ تَنْظُرُ الْجَمْعَ يَزْحَمُكَ، وَتَقُولُ: مَنْ لَمَسَنِي؟» وَكَانَ يَنْظُرُ

حَوْلَهُ لِيَرَى الَّتِي فَعَلَتْ هذَا. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَجَاءَتْ وَهِيَ خَائِفَةٌ وَمُرْتَعِدَةٌ، عَالِمَةً بِمَا حَصَلَ لَهَا، فَخَرَّتْ وَقَالَتْ لَهُ الْحَقَّ كُلَّهُ» (مرقس ٥/ ٢٧ ـ ٣٣). وقد شعر مؤلّف إنجيل متّى بسذاجة هذه القصّة كما نقلها مؤلف إنجيل مرقس؛ إذ هي تظهر المسيح مشحونًا بقوّة إعجازية من الممكن سحب بعضها منه دون علمه، فقام مؤلف إنجيل متّى بنقل ما ذكره مرقس مع تحوير القصّة ليبدو المسيح عالمًا بالمعجزة أوّل وقوعها، وليكون شفاء المرأة بعد كلام المسيح لا أوّل لمسها له: «وَإِذَا امْرَأَةٌ نَازِفَةُ دَمٍ مُنْذُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً قَدْ جَاءَتْ مِنْ وَرَائِهِ وَمَسَّتْ هُدْبَ ثَوْبِهِ؛ لأَنَّهَا قَالَتْ فِي نَفْسِهَا: «إِنْ مَسَسْتُ ثَوْبَهُ فَقَطْ شُفِيتُ». فَالْتَفَتَ يَسُوعُ وَأَبْصَرَهَا، فَقَالَ: «ثِقِي يَا ابْنَةُ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ». فَشُفِيَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ» (متّى ٩/ ٢٠ ـ ٢٢).

نسبة المسيح معجزاته إلى فضل الله سبحانه: يستدلّ النصارى بمعجزات المسيح للقول بألوهيّته؛ إذ لا يقدر على هذه الخوارق غير إلٰه، وبعيدًا عن فساد ذلك من جهة أنّ الأنبياء يأتون بالمعجزات، ولم يرفعهم ذلك إلى مقام الألوهيّة، كانت الأناجيل صريحة أنّ المسيح لم يأت بهذه المعجزات عن قدرة ذاتيّة، وإنما هي محض فضل الله عليه، ومن ذلك ما جاء في يوحنا ١١/ ٤١ ـ ٤٢: «فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ؛ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي».

بل وضّح (بطرس) ـ زعيم الحواريين ـ نفسُه أنّ معجزات المسيح هي من عمل الله سبحانه لا عمل المسيح: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ **صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ** فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيْضًا تَعْلَمُونَ» (أعمال الرسل ٢/ ٢٢).

وهو الذي فهمه من حضروا معجزات المسيح: «فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الآيَةَ الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ قَالُوا: «إِنَّ هذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ!» (يوحنا ٦/ ١٤)؛ فكانت المعجزات حجّة عند قومه لنبوّته لا إلٰهيته المدّعاة!

«والنصارى لا تعرف الربوبية ولا تفرق بينها وبين الإنسانية. ولا يقوم على أحد حجة بنقلهم وادعائهم إلا بآيات للمسيح. ولولا شهادة رسول الله ﷺ للمسيح عليه السلام بالنبوة لما عرف أحد ذلك» (القاضي عبد الجبار).

خلاصة النظر:

- أخبار معجزات نبيّ الإسلام ﷺ ثابتة بروايات الآحاد التي احتفّت بها القرائن بما يلزم منه اليقين بوقوعها.
- ثبتَ لنبيّ الإسلام ﷺ عددٌ من المعجزات المخصوصة بالتواتر.
- مجموع معجزات نبيّ الإسلام ﷺ بلغ مجموع ما نُقل إلينا من معجزات نبيّ الإسلام ﷺ حدّ التواتر.
- إنكار المتواتر يلزم منه ـ ضرورة ـ ألا يبقى في ذهن الإنسان معرفة مكتسبة.
- ردَّ القرآن الاستجابة لنوع مخصوص من المعجزات، وأثبت لنبيّ الإسلام ﷺ غيرها.
- معجزات المسيح فاقدة للسند التاريخي، منكَرة المعنى، ولا تدلّ على ألوهيّته المزعومة.

مراجع للتوسّع:

ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر، وآخران (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م).

مقبل الوادعي، الصحيح المسند من دلائل النبوة (القاهرة: دار الحرمين، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م).

سعيد باشنفر، دلائل النبوة (جدة: دار الخراز، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

الفصل الرابع

ماذا ربح العالم ببعثة محمد ﷺ؟

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

العلم والفلسفة العربيان أعانا على إنقاذ العالم المسيحي من الجهل وجعلا فكرة وجود «الغرب» ممكنة.

(Jonathan Lyons)

بين خيارين.. أنوار وبراهين أم ظلمات وأضاليل؟

يقول المسلم: بعثة النبوّة رسالة هداية ونور، وإذا فُتحت لها أبواب التمكين في الأرض؛ فستظهر ثمرتها الحلوة التي تكشف أصلها الطيّب. وقد مُكِّنَت دعوة الإسلام لقرون في الأرض ـ على تفاوت في الالتزام بنصوص الوحي في تلك العصور ـ، ونقشت الرسالة المحمّدية حروف أسفارها على جدار التاريخ، وهو ما يفتح بابًا جديدًا لاختبار صدق هذه الرسالة بالنظر في جَناها، عملًا بالقول المنسوب إلى المسيح: «مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ» (متّى ٧/ ١٦)، أو كما يقول القرآن نفسه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

ومآل هذا الاختبار تأكيد حقيقة النبوّة المحمّدية. وقد صدق الكاتب البريطاني (جون دفنبورت) في قوله في مقدمته لكتابه «دفاعًا عن محمّد والقرآن»: «إذا أخذنا في الاعتبار ما كان عليه العرب قبل ظهور محمّد وما صاروا إليه بعد ذلك، وإذا فكّرنا ـ بالإضافة إلى ذلك ـ في الحماسة التي أُوقدت بعقيدته في

صدور أكثر من مئة وستين مليون إنسان، وبقيت حيّة.. [ستكون] **نسبة ظهوره إلى الصدفة العمياء ارتيابًا في السلطان الكليّ للعناية الإلٰهيّة**»[(١)].

وهو ما أقرّ به المستشرق القسيس (مونتجمري وات) بقوله في كتابه الذي أرّخ فيه السيرة النبويّة من القرآن: «أنا شخصيًا مقتنع أنَّ محمدًا كان صادقًا في اعتقاده أنّ ما جاء إليه هو الوحي، لا أنه اختلاق واع منه. أنا أعتقد أن محمدًا كان حقًا نبيًا، وأرى أنه يجب علينا نحن المسيحيين أن نقرّ بذلك على أساس المبدأ المسيحي «من ثمارهم تعرفونهم»؛ إذ إنّه عبر تاريخ الإسلام، أخرج هذا الدين رجالًا صالحين وقدّيسين. إذا كان محّمد نبيًا، فلنا أن نقول وفق العقيدة المسيحيّة التي تقرّر أن الروح القدس قد كلّم الأنبياء، إنّه من الممكن قبول الأصل الإلهي للقرآن»[(٢)].

يقول غير المسلم في المقابل: الإسلام «دعوى صحراوية» قامت على حبّ الأَثَرَة والسيطرة على البلاد البعيدة.. أعرابٌ غزوا بلاد الحضارات المجاورة، فانتهبوها وردّوها إلى حضيض المعرفة والقيم.. وليس بعد ذلك شيء يُذكر.. ليس الإسلام بشيء.. إنّه نوع صارخ من بداوة العقل البشريّ!

الحَكَم بين الفريقين هو التاريخ، وهو يشهد هنا لا بلسان الذوق والميل العاطفي، وإنما بصوت الوقائع والمشاهد والشواهد.. وفيه جواب سؤال: هل سَفُلَ العالم بالإسلام بعد رفعة؟ أم نهض الإسلام بالعقل والروح، وحرّك هوامدَ الوجود؟

التاريخ متكلمًا:

الحديث عن حقيقة الإسلام وأثره في التاريخ محاصر باعتراضين، أولهما: شرقيّ، وهو الإشارة إلى هوان أهل الإسلام اليوم، وموقعهم الدنيء في هامش الوجود، والثاني: غربيّ، وهو أنّ ما يُذكر من مآثر الحضارة الإسلاميّة، شذوذ في الدعوى وتحريف للتاريخ.

---

(١) John Davenport, *An Apology for Mohammed and the Koran* (London: J. Davy, 1881), p.iv.

(٢) Montgomery Watt, *Muhammad's Mecca: History in the Quran* (Quoted by Mahmut Aydin, *Modern Western Christian Theological Understandings of Muslims Since the Second Vatican Council*, Washington: The Council for Research in Values and Philosophy, 2002 p.178).

الاعتراض الأوّل واقع في أسر لحظة الضعف الحالية، غافل أنّ الحضارة الإسلاميّة كانت بلا شكّ، وباعتراف جميع المؤرّخين أعظم الحضارات حتى القرن الرابع عشر الميلادي، على الأقل. ولا أعلم مِن المؤرّخين الجادين من يجادل في ذلك.

ويشهد التاريخ أنّ البعثة النبويّة قد أدّت عمليًّا إلى الحيلولة دون هيمنة فكر الظلمات على بلاد المسلمين في ما يُعرف بالعصور الوسطى. يقول (نورمان دانيال) في مؤلفه الشهير عن الإسلام وصورته المشوّهة في الغرب: «بالنسبة للعرب ليست هناك قرون وسطى، هي فقط عصور مضيئة، تلتها عصور انحطاط نشأت بسبب سلطان الأجانب... وإهانة الاستعمار الغربي الذي كانت حضارته أجنبية عنه تمامًا وغير مرحب بها مهما كانت الأسباب»[١].

وأمّا الاعتراض الثاني: فهو غافل عن أصل الصورة النمطية للإسلام في المخيال الغربي. وحقيقة الأمر ـ كما تقول «موسوعة عصر الأنوار» ـ أنّ «الإسلام منذ القرون الوسطى كان أهمّ أعداء الكنيسة، وكان لا يُرى إلّا من خلال ضباب الأحكام المسبقة والتشويه»[٢].

والموضوع واسع، متفرّقة ذيوله في كلّ وادي، ولا يوفّيه حقّه فصل واحد في هذا الكتاب[٣]، ولذلك سنقتصر على إيراد أهم الأسئلة التي تشغل الإنسان اليوم بما يتّصل بما يرجوه من أثر حميد وجنى طيّب من رسالة سماويّة. **وسنسوق الخبر جوابًا عن الأسئلة التالية:**

- هل تغيّر العالم ـ إجمالًا ـ إلى الأفضل مع انتشار الإسلام؟
- هل للإسلام أثر إيجابيّ في تطهير العقائد البشريّة من ضلالات الوثنية والشرك؟
- هل ساهم الإسلام في تطوير المعرفة العلمية بالعقائد الكتابيّة (اليهودية والنصرانية)؟

---

(١) Norman Daniel, *The Arabs and Mediaeval Europe* (Longman Group, London, 1975), p.2.

(٢) Michel Delon, ed. *Encyclopedia of the Enlightenment* (Chicago, IL; London: Fitzroy Dearborn Publishers, 2001) p.714.

(٣) من الكتب المبسّطة التي تناولت هذا الموضوع: مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

- هل ارتفع الإسلام بقيم المعرفة في بلاد الإسلام وما جاورها؟
- هل ساهم الإسلام في تأسيس أو نشر المعرفة الصحيحة ـ غير الخرافيّة ـ بالعالم الطبيعي؟
- هل ارتقى الإسلام بقيمة المرأة أم انحطّ بها؟

الهدى والنور:

ذهب (يوهان ريسكه)[1] ـ الذي وصفه أحد مؤرّخي الاستشراق البارزين بأنّه «عبقريّ. . وأوّل مستعرب شهير أنجبته ألمانيا»[2] ـ في القرن الثامن عشر إلى أنّ البعثة المحمّدية ترفض التفسير التاريخي الماديّ؛ فهي طفرة تأبى قوانين المادة تفسيرها، وترفض سنن التاريخ تجذيرها. وقد استفزّ (ريسكه) بذلك الكنيسة الكاثوليكيّة التي اضطهدته، وسعت إلى منعه من التدريس، رغم تميّزه العلمي[3].

ومن أبرز ملامح ربّانيّة الدعوة النبويّة فتحها بابًا إلى الهدى في وجودٍ داكن الأرجاء، فلا نور، مجدبة أرضه، فلا زرع. قال ـ تعالى ـ في نبيّه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال في رسالته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، فالإسلام رسالة لإخراج الناس من كلّ ظلمة تلفهم بلحافها القاتم إلى إشراقات الخير والنور، وزرع خيرٍ يؤتي أُكُلَه كلّ حين. وهي دعوة لم تتمهّد لها الأسباب الماديّة، وإنّما قطعت انسياب التاريخ بلا استئذان، وفتحت للوجود الجديد آفاقه الخاصة.

يقول مؤرخو الحضارات إنّ العالم الغربي قد دخل بوّابة عصر الظلمات مع بداية ما يُعرف بالقرون الوسطى، وذلك في القرن الخامس، بعد مدّة قصيرة من تحوّل النصرانية المضطهدة إلى دين رسميّ للإمبراطوريّة الرومانيّة. كما أجمع

---

(١) يوهان ريسكه Johann Reiske (١٧١٦ ـ ١٧٧٤م): مستشرق وعالم لغة ألماني. حقّق في زمانه عددًا من الكتب الهامة. درّس الفلسفة واللغة العربية في الجامعة.

(٢) يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربيّة والإسلاميّة في أوروبا حتى بداية القرن العشرين (تعريب: عمر لطفي العالم، بيروت: المدار الإسلامي، ٢٠٠١، ط٢)، ص١١٠.

(٣) المصدر السابق، ص١١٠ ـ ١٢٣.

المؤرخون أنّ النبوّة المحمّدية قد أشعلت ضرام النور في الشرق، فلم يعرف أهلها ظلمات الغرب، بل أنشؤوا عصر العلم والمعرفة والكشف والصناعة.

لقد بُعِث نبيّ الإسلام ﷺ في عصر لم يكن فيه لليهود أدنى ظلّ في الأرض، وكان حملة (الحضارة!) في الأرض هم النصارى، ولكن كيف كان حال النصرانّية عندها؟ يجيبنا (إسحاق تيلور)[١]: «إنّ ما وجده محمّد وخلفاؤه في جميع الاتّجاهات، أينما مهدت لهم قوّتهم طريقًا إلى أهلها، لا يعدو أن يكون خرافة مدقعة، ووثنيّة فاحشة ووقحة، ومذاهب كنسيّة متعجرفة، وممارسات كنسيّة منحلة وصبيانيّة؛ حتّى إنّ العرب النبهاء قد شعروا أنّهم مكلّفون بإصلاح انحرافات العالم؛ كرسل من الله... لقد خرج ابن الأَمَة[٢] من صحرائه «ليسخر» من ابن الحرّة و«يؤدّبه»»[٣].

وقد دفع الإنجاز الإسلامي الكبير في تغيير تاريخ العالم بسبب دعوة رجل واحد المستشرقَ والقسيس (منتجمري وات) إلى أن يقول: «كلّما تأمّل المرء في تاريخ محمّد والإسلام المبكّر، اتسّع عجبه من سعة إنجازاته»[٤].

إنّها ظاهرة تاريخيّة تنأى بنفسها عن التشكيك؛ لأنّ آثارها منحوتة على جدار التاريخ، لقد حوّل رجل واحدٌ أمّةً من الرعاع السوقة إلى حملة مشاعل العلم والهدى.. رجل لم يُعرف بدراسة وتأليف، في أمّة لم تعرف غير الرعي والتجارة في صورها البدائيّة.

لقد أعاد الإسلام صياغة الوعي العربي البدائي بصورة جديدة ليقيم رواسيه على أساس نظرة كونية جديدة تنطلق من أساس ركين، هو إفراد الربّ بالسلطان الأعلى في الخلق والأمر، ثم السير في الأرض للكشف والبناء والنفع.

لقد كان الإسلام ثورة في المعرفة والفعل حتّى بين غير المسلمين؛ إذ نقلهم من ضيق همّ القبيلة والانغماس الطقوسيّ الذاهل عن الوجود إلى سعة

---

(١) إسحاق تايلور Isaac Taylor (١٧٨٧م ـ ١٨٦٥م): فيلسوف ومؤرّخ إنجليزي.

(٢) ابن الأَمَة: ابن (هاجر)، في مقابل ابن الحرة: ابن (سارة)!

(٣) Isaac Taylor, *Ancient Christianity and the Doctrines of the Oxford Tracts* (Philadelphia: Herman Hooker, 1840), 1/364-365.

(٤) William Montgomery Watt. *Muhammad at Madina* (Oxford University Press,1981), p. 335.

الكون، ورحابة الوجود الإنساني الذي يطلب أصولًا للتفكير معقولة، وعلائق بين الأمم محمودة، وصدورًا ترقى بهمومها إلى آفاق الاستخلاف في الأرض. لقد فتح الإسلام لليهود والنصارى مساحات للنظر والأمل أكبر مما أُورِثوه من أسلافهم. وبلغ أثر الإسلام في نصارى الأندلس في القرن الثالث الهجري مبلغًا عجيبًا، حتّى قال (موزاراب ألفارو) (Mozarab alvaro) القرطبي سنة (٢٤٠هـ ـ ٨٥٤ م) في كتابه «Luminoso Indiculo»: «إنَّ الشبان المسيحين الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون أدبًا أو لغة سوى العربية! ذلك أنَّهم يُقبلون على كتب العرب بنهم وشغف، ويجمعون منها مكتبات كاملة بالأموال الطائلة، ويتغنون في كل مكان بمدح المعارف والعلوم العربية، وعلى العكس من ذلك، ما أن تذكر أمامهم الكتب المسيحية حتى يحتجوا بازدراء بأن مثل هذه الكتب ليست جديرة باهتمامهم، وا أسفاه! لقد نسى المسيحيون لغتهم، ولا يوجد واحد في الألف يستطيع أن يكتب خطابًا لصديقه بلغة لاتينية سليمة، أما عن الكتابة باللغة العربية، فما أكثر من يجيدون التعبير بها عن مكنوناتهم وبأروع أسلوب، بل ويقرضون أشعارًا تبزّ في سلامة قوالبها قصائد العرب أنفسهم»[(١)].

وقد هيمن على التصوّر الإسلامي الجمع بين ثنائية وجوب البلاغ وحرمة الإكراه في الإقناع، وهو ما جعل الإسلام رسالةً متاحة للنظر بين غير المسلمين، يأخذون من خيرها ما شاؤوا دون إلزامهم قهرًا أن يأخذوا الدين كلّه[(٢)]، ولذلك بقي منهم من شاء على ملّته، لكنّ الجميع قد طُبعوا بطابع الحضارة القرآنية، على كثرة أو قلّة، فكان ما ازدهر من حضارتهم ـ في العالم الإسلامي ـ بعد ركود أو انحراف عن الاستقامة، في أغلبه أثر عن حضارة المسلمين؛ فقد دفعهم الإسلام لترك ضلالات أو تخفيف غلواء شطحات والأخذ بمناهج جديدة في النظر والنقد والإبداع؛ فهم يحملون من الإسلام بعضًا من روحه وإن لم يستقيموا على جادة التوحيد ولم يستسلموا لرسوم القرآن والسُّنَّة النبويّة.

---

(١) جورج مقدسي، نشأة الكليات، معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب، تعريب: محمود سيّد محمّد (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٥)، ص٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٢) الإسلام دعوة إلى الدين كلّه كما جاءت به الرسالة الخاتمة، لكن يَحرُمُ إكراه الناس على اعتناق الإسلام. ومن أخذ ببعض الإسلام لا يكون مسلمًا.

لقد أصاب الجو العلميّ الإسلاميّ المتميّز بالانفتاح والتحفيز على التفكير اليهودَ بوهجه؛ فنقلهم إلى **عصرهم الذهبي** في ظلّ دولة الإسلام. وفي ذلك كتب الرحّالة اليهودي (بنيامين التطيلي)[1] في القرن الثاني عشر الميلادي متحدثًا عن يهود بغداد: «يوجد في بغداد حواليّ أربعين ألف يهوديّ، وهم يعيشون في أمان وازدهار، محفوظي الكرامة تحت سلطان الخليفة العظيم، ومن بينهم حكماء كبار». وأثنى بكلمات بليغة على الخليفة العبّاسي، حتى قال عنه: إنّه كان «محسنًا للإسرائيليين [أي: من بني إسرائيل]، وكثيرٌ من زواره من الإسرائيليين، وقد كان يقرأ ويكتب باللغة المقدّسة (العبريّة)»[2].

وعبّر (ريموند ب. شيندلن)[3] ـ أستاذ الأدب العبري في العصور الوسيطة ـ عن الحال السابق لليهود في ظلّ الحكم الإسلامي بقوله: «لم يختلط اليهود بالعالم الإسلامي كمهاجرين أو منفيين. لقد كانوا جزءًا من سكان غرب آسيا وشمال أفريقيا والأندلس... حيث نشأت الثقافة العربية الإسلامية في القرون الوسطى كاندماج للّغة العربية، والدين الإسلامي، والثقافة المحلية. كان **اليهود جزءًا جوهريًّا من هذه الثقافة**. إنهم يشبهون جيرانهم بأسمائهم ولباسهم ولغتهم وكذلك في معظم السمات الأخرى لثقافتهم، وبطبيعة الحال مع استثناء أمر دينهم، وإحساسهم بتميزهم الخاص، ورؤيتهم للتاريخ، والانتماءات المؤسسية التي تنبع من هذه الاختلافات»[4].

التوحيد وتعظيم الله:

لم تزعم الرسالة المحمّديّة أنّها بِدعٌ في الدعوات الدينيّة بتقريرها عقيدة التوحيد، وإنّما أكّدت أنّ التوحيد هو رسالة جميع الأنبياء السابقين؛ فقد كانت

---

(١) بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela (١١٣٠ ـ ١١٧٣م): رحالة يهودي سافر إلى بلاد كثيرة في إفريقيا وأوروبا وآسيا. على معرفة بلغات كثيرة.

(٢) Marcus N. Adler, *The Itinerary of Benjamin of Tudela: Critical Text, Translation and Commentary* (London: Henry Frowde, 1907), pp.39, 35.

(٣) ريموند ب. شيندلن Raymond P. Scheindlin (١٩٤٠ ـ): مدير مؤسسة " Shalom Spiegel Institute of Medieval Hebrew". من مؤلفاته: "A Short History of the Jewish People".

(٤) Raymond P. Scheindlin, "Merchants and Intellectuals, Rabbis and Poets: Judaeo-Arabic Culture in the Golden Age of Islam", *Cultures of the Jews: A New History*, ed. David Biale (New York: Schocken, 2002), p.317.

دعوات النبيين في جوهرها دعوة إلى أحادية الألوهية، وفي أصولها ولوازمها تدندن حول ذلك. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأكّد القرآن أنّه آيات بيّنات على ذات الطريق؛ فهو دعوة صريحة لتجديد التوحيد الحقّ الذي اندرست معالمه باتّخاذ البشر أندادًا في تصريف أمور الكون أو في التحليل والتحريم.

وقد نعى القرآن على مشركي مكّة اتّخاذهم الأنداد: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾ [الأنعام: ١٠٠]. وقال ـ تعالى ـ ناعيًا على أهل الكتاب اتّخاذ الشركاء: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣١]، فهل كان لداعي القرآن صدى في صدور الوثنيين وأهل الكتاب؟

أفصح التاريخ في أولى صفحات القرن السابع، ثمّ فيما أعقب ذلك، أنّ الإسلام قد نشر التوحيد في جزيرة العرب ومسح بيد البرهان كثيرًا من الوثنيات في آسيا وإفريقيا، فتخلّص أهلها بذلك من أوهام الأصنام ليعتنقوا عقيدة الإيمان بالإِلٰه الأحد المتعالي على المادية وقصورها والترابيّة وظلمتها؛ واتّصلت أنفسهم بالسماء دون وسائط من بشر أو حجر.

كما يشهد المؤرّخون على التأثير الكبير لعقيدة التوحيد على يهود القرون الوسطى الذين تماسّوا مع الحضارة الإسلامية. وتعتبر فرقة «القرّائين» اليهوديّة أبرز مظهر للأثر الإسلامي على المفهوم اليهودي للتوحيد.

ظهرت فرقة القرّائين في القرن الثاني الهجري على يد أحد علماء اليهود في العراق، ويدعى «عنان بن داود». وهي ترفض التلمود وبقيّة التراث الشفهي. وقد تأثّر رؤوسها بالجدل الديني الإسلامي والتنزيه الإلٰهي حتّى وقفوا بقوّة ضدّ التراث التجسيمي اليهودي للألوهية والذي مثّله في زمانهم كتاب «الأبعاد الإلٰهيّة» (שיעור קומה)[1]. وكان تأثير الفقة الإسلامي ـ أيضًا ـ بالغًا

---

(١) Judith R. Baskin and Kenneth Seeskin, eds. *The Cambridge Guide to Jewish History, Religion, and Culture* (Cambridge: Cambridge University Press, 2010), p.404.

في فقه القرّائين[١]. ومختصر الكلام في هذه الفرقة أنّها «حصيلة تراث يهوديّ تحت سلطان إسلام القرون الوسطى»[٢].

كما أثّر التوحيد الإسلامي في اليهودية الربانية (Rabbinic Judaism) التي خرجت منتصرة في الصراع مع القرّائين، وهي التي تمثّل اليهوديّة الأرثودكسيّة اليوم، فقد سافر كثير من اليهود إلى البلاد العربيّة في القرون الإسلامية الأولى بما أحيا في أمّة اليهود موات العلوم الدينية والفلسفية وحتى اللغوية، وذلك في العصر الذي سمّي «بالعصر الجاؤونيمي»[٣]. وقد كان ظهور كتابات (موسى بن ميمون)[٤] ـ الذي يُعدّ أعظم شخصية علمية يهوديّة في القرون الوسطى، حتّى اشتهر بين اليهود قولهم: «من موسى [النبيّ] إلى موسى [بن ميمون] لم يظهر أحد مثل موسى» (ממשה עד משה לא קם כמשה) ـ سببًا في تخلّص قطاع كبير من اللاهوتيين اليهود من الفهم التجسيمي للإله التوراتي ـ في مخالفة لتجسيمية التوراة نفسها ـ. وقد اعترف (ابن ميمون) ـ على خصومة له مع الإسلام شديدة ـ في رسالة له[٥] أنّ التوحيد الإسلامي نقي وعظيم، فلا تشوبه شائبة من وثنيّة؛ إذ قال: «وأما فيما يتعلّق بتوحيد الله، فلا خلل عندهم البتة»[٦]، رغم صرامة (ابن ميمون) في حكمه على النصارى أنّهم وثنيّون. وقد تأثّر (ابن ميمون) بعلم التوحيد الإسلامي في كتابه «دلالة الحائرين» حتى قال عنه الفيلسوف الشيخ (مصطفى عبد الرازق): «إنني ممن يجعلون ابن ميمون وإخوانه من فلاسفة الإسلام»[٧]. ومن المعاصرين الذين

---

(١) Fred Astren, *Karaite Judaism and Historical Understanding* (Columbia, S.C.: University of South Carolina Press, 2004), p.60.

(٢) Zvi Ankori, *Karaites in Byzantium: The Formative Years, 970 - 1100* (New York, 1959), p.3.

(٣) العصر الجاؤونيمي Geonic period: نسبة إلى «جاؤونيم» (גאונים) وهم رؤساء المدارس الدينية اليهودية في بلاد الرافدين. ويمتد هذا العصر من سنة ٥٨٩م إلى سنة ١٠٣٨م.

(٤) موسى بن ميمون Maimonides (١١٣٥ ـ ١٢٠٤م): فيلسوف وطبيب وعالم توراتي. ولد في قرطبة ومات في مصر. من مؤلفاته: «مشناه توراة».

(٥) تعرف بالإنجليزية بـ"Letter to Ovadia the convert".

(٦) Michael Walzer *et al.*, eds., *The Jewish Political Tradition: Membership* (Yale University Press, 2006), p.500.

(٧) مقدمة الشيخ مصطفى عبد الرازق لكتاب إسرائيل ولفنسون، موسى بن ميمون، حياته ومصنفاته، (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف، ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م)، ص(و).

شهدوا شهادة كشهادة (ابن ميمون) الحبر اليهودي، الفقيه (يوسف مساس)[١] الذي يُعدّ من أشهر أحبار المغرب الإسلامي، فقد قال: «لا يوجد توحيد مثل التوحيد الموجود في الإسلام»[٢].

كما ظهرت في اليهود طائفة (العيسويين)، وأهلها أتباع عالم اليهود اسمه (أبو عيسى الأصفهاني) عاش زمن (المأمون) في فارس. ومن مقالات هذه الطائفة الإقرار بنبوّة محمّد ﷺ، والزعم أنّ نبوّته خاصة بالعرب[٣].

ومن أحبار اليهود وعلمائهم الكبار الذين أقرّوا بنبوة محمّد ﷺ (نتنئيل الفيومي)[٤] صاحب الكتاب البارز «بستان العقول»[٥] الذي قال فيه: «أرسل الله أنبياء إلى الأمم حتى قبل أن ينزّل الشريعة [الموسويّة]... ولم يمنعه شيء أيضًا بعد إنزالها من أن يرسل إليهم من شاء حتّى لا يكون العالم دون دين... وقال [القرآن] أيضًا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]. وذاك يدلّ على أنّ محمّدًا كان نبيًّا لهم [أي: العرب]»[٦].

واليهود يؤمنون أنّ أبناء نوح (בני נח) ناجون، وهم (غير الإسرائيليين) العاملين بالوصايا السبع. وهي الوصايا وردت في التلمود (Sanhedrin 58b): لا تقتل، ولا تسرق، ولا تعبد آلهة باطلة، ولا تزنِ، ولا تأكل الأطراف المنتزعة من حيوان حي، ولا تلعن الإله، وأقم القضاء لإقامة الحق على المذنبين. ويلزم اليهود بذلك أن يقرّوا أنّ المسلمين بهذا الاعتبار ناجون، وهو أمر يسلّم به بعضهم اليوم[٧].

وظهر أثر التوحيد الإسلامي في التاريخ النصراني في الحرب التي شنّها عدد من اللاهوتيين ـ في البلاد التي فتحها المسلمون ـ على الأيقونات[٨] بعد البعثة

---

(١) يوسف مِساس (١٨٩٢ ـ ١٩٧٤م): عمل حبرًا في الجزائر والمغرب، ثم رئيسًا للأحبار في حيفا.
(٢) Rabbi Joseph Messas, *Mayim Hayyim, Yoreh Deah*, no. 66.
(٣) الشهرستاني، الملل والنحل (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م)، ٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٤) نتنئيل الفيومي (נתנאל פיומי) (١٠٩٠ ـ ١١٦٥م): الابن الأكبر للحبر «فيومي». عالم يهودي عُيّن «ناجيدا» ليهود اليمن في منتصف القرن الثاني عشر ميلادي.
(٥) كتاب في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والمسيح المخلِّص، والتوبة، والطاعة، والتوكّل.
(٦) Nathanael ibn al-Fayyumi, *The Bustan Al-ukul*, tr. David Levine (Columbia University Press, 1908), pp.104 - 105.
(٧) منهم الحبر اليهودي (Tovia Singer) (١٩٦٠م ـ) المعروف بمناظراته مع النصارى في الغرب.
(٨) أيقونة Icon: تصوير فنيّ للشخصيات المقدّسة في النصرانيّة.

النبوية. ففي سنة ٧٢٦م بدأ إمبراطور القسطنطينية (ليو الثالث) (Leo III) في تدمير الأيقونات التي تقع في المناطق التي تحت سلطانه. وعلّق (توماس هودكن) على ذلك العمل الثوريّ بقوله: «الاتّصال بالمحمّديين [المسلمين] هو الذي فتح عيون ليو والرجال المحيطين بعرشه من رجال دين وعامة ليروا الانحطاط والدجل الوثني الذي تسلّل إلى الكنيسة وران على حياة دين يقرر في أصله أطهر وأعظم الأمور الروحيّة، ليصبح واحدًا من أعظم الأديان الخرافية والمادية رأتها عينٌ من قبل»[١]. كما قال (رولاند بينتون) في كتابه «مواقف من تاريخ الكنيسة»: لـ«قد أثّر تقدّمُ الإسلام على المسيحيةِ، فقد بدأ بعض المسيحيين ينكرون التماثيل والصور الموجودة في الكنائس بعد أن سمعوا تعاليم الإسلام»[٢].

وكان التوحيد الإسلامي قد أثار موجة براءة من عقيدة التثليث النصراني مع بداية «عصر النهضة» الأوروبي بين كبار المفكّرين، حتّى كانت تهمة كلّ من ينكر التثليث أنّه متأثّر بالتوحيد الإسلامي ـ وإن لم يطابقه في الموقف من طبيعة المسيح ـ كما هو الأمر مع (مايكل سرفتوس)[٣] الذي يُعدّ أشهر أوائل المفكّرين الذين ألّفوا في نقض عقيدة التثليث، فقد أفرد للموضوع كتابه «أخطاء التثليث» (De Trinitatis Erroribus) (١٥٣١). وقال في كتابه (Christianismi Restitutio): «إنّ التثليث مرفوض بصورة واضحة في القرآن، سور هود ويوسف والقصص حيث يعلّم محمّد الناس أنّ ثلاثة آلهة أو ذوات متشاركة في الإلٰه لم تكن معروفة عند الآباء[٤]»[٥]. وقد حُرق (سرفتوس) بتهمة الهرطقة. وهو اليوم أحد الرموز الأولى للثورة الفكرية في الغرب.

ولعلّ (نيوتن) ـ أشهر علماء الطبيعيات الرافضين للتثليث في أوروبا في القرون الأخيرة ـ قد تأثّر أيضًا بنبيّ الإسلام ﷺ؛ إذ كان يحضر دروس

---

(١) Thomas Hodgkin, *Italy and Her Invaders* (New York: Russell & Russell, 1967), 6/431.

(٢) رولاند بينتون، مواقف من تاريخ الكنيسة، ترجمة: القس عبد النور ميخائيل (دار الثقافة المسيحية)، ص٥٦.

(٣) مايكل سرفتوس Michael Servetus (١٥١١ ـ ١٥٥٣م): لاهوتي وعالم إسباني متعدّد المواهب، خاصة علم الطب. من مؤلفاته: "Dialogorum de Trinitate".

(٤) الآباء = الأنبياء (إبراهيم) و(إسحاق) و(يعقوب) عليهم السلام.

(٥) Quoted by Jerome Friedman, *Michael Servetus: A Case Study in Total Heresy* (GeneIve: Droz, 1978), p.19.

المستشرق (إدوارد بوكوك)[١] المحاضر في تاريخ العربيّة والمتخصّص في الكتاب المقدّس. وقد اشتهر عنه في حياته اعتقاده أنّ الله قد أرسل محمّدًا ﷺ ليكشف الإلٰه الواحد الحقّ للعرب[٢].

كما أُعجِب بالتوحيد الإسلامي المفكّر الإنجليزي (هنري ستاب)[٣] الذي كان من أعظم المؤثّرين في التيّارات الرافضة للتثليث والربوبيّة في «عصر الأنوار». وقد أثّرت أفكاره بصورة واضحة في تصوّر «الدين» كما في كتابات صديقه (جون لوك)[٤] الذي اتّهمه خصومه أنّه مسلم أو متأثّر بـ«الكتاب المقدّس المحمّدي»، بسبب رفضه التثليث[٥]، كما زامل (إسحاق نيوتن) في كمبردج. وقد ألّف كتابه «قصّة صعود الديانة المحمّديّة وازدهارها، والدفاع عن محمّد ودينه ضد افتراءات المسيحيين»[٦] سنة ١٦٧١ في الدفاع عن الإسلام، ولم يستطع نشره، وإنّما تمّ تداوله سرًّا؛ لأنّ الكنيسة ما كانت لتسمح البتّة بالثناء على الإسلام، وفيه صرّح أنّ نبيّ الإسلام قد أرسله الله لإحياء المسيحيّة القديمة.

ومن آخر الأسماء الكبيرة التي أشارت بوضوح إلى الجانب الإصلاحي المهم في الدعوة العقدية القرآنية، اللاهوتي الكاثوليكي الشهير (هنز كونغ)[٧] الذي يقول: إنّه إذا كان القرآن يدعو إلى تلخيص الفهم الأصلي لرسالة المسيح؛ فالكنيسة تحتاج أن تعتنق رؤية (محمّدٍ) ﷺ لتستعيد ما غُمَّ عنها في

(١) إدوارد بوكوك Edward Pococke (١٦٠٤ ـ ١٦٩١م): قسيس. مستشرق إنجليزي وعالم في الدراسات التوراتية والإنجيلية. من مؤلفاته: "Lexicon heptaglotton".

(٢) J. Edleston, *Correspondence of Sir Isaac Newton and Professor Cotes* (London, 1850), p. lxxx (Quoted by Stephen D. Snobelen, Isaac Newton, Heretic: the strategies of a Nicodemite, *BJHS*, 1999, 32, 388.

(٣) هنري ستاب Henry Stubbe: (١٦٣٢ ـ ١٦٧٦م) مؤرّخ وعالم رياضيات. من أعلام دعاة التسامح في عصره. من مؤلفاته: " A Light Shining Out Of Darkness".

(٤) جون لوك John Locke: (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م): من أعلام الفلسفة التجريبية والفلسفة السياسية الإصلاحية في «عصر النهضة». من مؤلفاته: " An Essay Concerning Human Understanding".

(٥) John Edwards, *Socinianism Unmask 'd* (London: J. Robinson, 1696).

(٦) *An Account of the Rise and Progress of Mahometanism, and a Vindication of him and his Religion from the Calumnies of the Christians.*

(٧) هنز كونغ Hans Küng (١٩٢٨م ـ): قسيس. أحد أبرز اللاهوتيين الكاثوليك اليوم. درّس اللاهوت المسكوني في جامعة توبنجن. من مؤلفاته: "Islam: Past, Present and Future".

تطوّر عقيدة الكنيسة بفعل أثر الفلسفة اليونانيّة[1]. فالقرآن عنده دعوة إلى الرسالة البِكر للمسيح.

ومن المهم أن نعلم في ختام الأمر أنّ العلم بالتوحيد الإسلامي في القرن السابع في قائظ صحراء الجزيرة النائية عن سجالات اللاهوت أمرٌ فوق التفسير التاريخي حتّى قال المستشرق (هنري دو كاستري)[2]: «الظهور المفاجئ والقويّ[3] لهذا الاعتقاد هو الحدث الأعظم في حياة النبيّ، وهو أعظم ضمانة لصدقه»[4].

النقد الكتابي:

مركزيّة التوحيد في الخطاب النبوي، ودعوة القرآن المتكررة اليهودَ والنصارى إلى الإيمان الحقّ والبراءة ممّا في أسفارهم من باطل، والتنبيه المباشر والخفيّ إلى ما خالط هذه الأسفار من زور حبر النسّاخ، هو سرّ ثراء النص القرآني بالتقريرات النقديّة للنصرانيّة واليهوديّة، عقيدة وأسفارًا.

كان النقد الديني للعقائد والأسفار المقدسة زمن البعثة النبوية غريبًا عن تراث الفكر العالمي؛ فالعقائد تتصارع في ساحات المعارك بالسِنان، وليس للّسان مجال للقول والنقد إلا قليلًا، فقد أُخلي ميدان الجدال للجلاد. كما كانت الأديان تحمي عقائدها بقوانين اللعن والحرمان واتّهام المجتهدين بالهرطقة، ولذلك كان الحديث القرآني عن تحريف التوراة والإنجيل، وردِّ نسبة المسيح إلى الألوهية والأقنوميّة الثالوثيّة، ومخالفة التفاصيل التاريخيّة في قصص النبيين، بابًا من الحديث الديني طريف ومستفز، وإن كان قد سُبق في أحيان متفرّقة ببعض الكتابات المتفرّقة للوثنيين الرومان في القرن الثاني ميلاديًّا قبل أن تقع الدولة الرومانية تحت سلطان الكنيسة التي سدّت على باب البحث في عصمة النصّ بالأسداد، وتخلّصت من مؤلفات المخالفين بحرقها والتنكيل بمن يحوزها[5].

---

(١) Corrie Block, *The Qur'an in Christian-Muslim Dialogue: Historical and Modern Interpretations* (Hoboken: Taylor and Francis, 2013), p.185.

(٢) هنري دو كاستري Henri De Castries (١٨٥٠ ـ ١٩٢٧م): مستكشف متخصص في علم الخرائط، مؤسس «المؤسسة التاريخية المغربية». من مؤلفاته: "Les Moralistes populaires de l'Islam".

(٣) الترجمة الحرفية للأصل الفرنسي «انفجار هذا الإيمان» "L'explosion de cette foi".

(٤) Henry de Castries, *L'Islam: impressions et études* (Paris: Armand Colin, 1907, 4e édition), p.37.

(٥) أشهر هؤلاء الكاتب: الوثني (كلسوس) (Κέλσος) الذي عاش في القرن الثاني، والذي حفظت لنا =

بدأ الجدل الديني الإسلامي في نقد النصرانيّة واليهوديّة والمجوسيّة والوثنيّة منذ القرن الهجري الأوّل غير أنّه اتّخذ معالم أوضح في القرون التالية، مع ضبط مسائل النظر والسجال. وقد كان التحدّي المجوسي أعظم التحديّات الدينيّة مع فتح فارس، فقد وجد المسلمون أنفسهم أمام تراث دينيّ هائل ومتطوّر هذّبه علماء المجوسيّة وفلاسفتها على مدى قرون، ولذلك كان الإنتاج الإسلامي في نقد المجوسيّة وعقيدتها الثنوية لإلٰهيّ الخير والشرّ ثريًّا، وحاسمًا في نقض أصول هذه الملّة.

وكان لعقائد اليهود والنصارى وأسفارهم مقام خاص في الجدل العقدي الإسلامي. وقد قام الخطاب الإسلامي في هذا الموضوع على ثلاثة أصول: الانطلاق من التقريرات العقدية والتاريخية القرآنية في نقد عقائد القوم، ونقل النصوص المقدسة لأهل الكتاب بحرفها، وتتبّع شواهد التاريخ لتأييد النقود وتأصيل التقويم.

ومن دلائل عظمة النص القرآني وأثره في النقد الكتابي اللاهوتي والتاريخي، أثره في النصارى أنفسهم في حوارهم مع اليهود حتّى قال المؤرّخ اليهودي الألماني (يتسحاق باير)[١] ـ المتخصص في تاريخ يهود إسبانيا في العصور الوسطى ـ: «اعتمدَ كلٌّ من اللاهوتيين والمجادلين النصارى **بصورة واسعة** ـ كما يبدو ـ على كتابات العالم المحمّدي [المسلم] ابن حزم التي ألّفت في القرن الحادي عشر للردّ على اليهود»[٢]. وقد انتهى النقد الإسلامي للتوراة إلى التأثير فيما كتبه (باروخ سبينوزا) في القرن السابع عشر بواسطة العالم اليهودي (ابن عزرا)[٣] المطّلع على الجدل العقدي الإسلامي؛ ليكون

= اعتراضاته من كتابه «كلمة حق» في كتاب العالم النصراني المتوفى في منتصف القرن الثالث (أريجانوس): "Contra Celsus".

(١) يتسحاق باير Yitzhak Baer (١٨٨٨ ـ ١٩٨٠م): مؤرخ يهودي ألماني. درّس التاريخ الوسيط في الجامعة العبرية. من مؤلفاته: "History of Jews in Christian Spain".

(٢) Yitzhak Baer, *History of the Jews in Christian Spain* (Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1967), 1/281

(٣) إبراهيم بن عزرا (אברהם אבן עזרא) (١٠٨٩ ـ ١١٦٧م): حبر يهودي ولد في الأندلس، تنقّل بين شمال إفريقيا ومصر وبلاد أخرى. من أشهر مفسّري التوراة في القرون الوسطى.

كتاب «في اللاهوت والسياسة» البداية الحقيقيّة للنقد الغربيّ للتوراة، والتحرّر من وهم عصمتها[١]. ووصف المستشرق (خوان فرنيت)[٢] كتاب «الفصل» (لابن حزم) أنّه «أوّل كتاب في تاريخ الأديان جدير بهذا الاسم... [وهو كتاب] لم يظهر له مثيلٌ في العالم المسيحي حتّى القرن التاسع عشر»[٣].

كما تشبّع كثير من اليهود من النقد الإسلامي للنصرانيّة، وهو ما قرّرته المستشرقة اليهودية الشهيرة (حوّا لازاروس[٤])[٥]. ويظهر ذلك ـ مثلًا ـ في كتابات (أبراهام بن داود)[٦] ـ القرن الثاني عشر ـ الذي كتب في نقد الأناجيل. وقد قال فيه (فونتاين) ـ أحد المتخصّصين في الدراسات اليهوديّة ـ: «إنّ تأثير ابن حزم على ابن داود فرضيّة لا يمكن إنكارها»[٧].

أَثَّرَ النقد الإسلامي للنصرانية واليهوديّة (العقيدة، والأسفار، والتاريخ التأسيسي) على أهل الكتاب في القرون الوسطى بصورة عظيمة ومبهرة؛ حتّى إنه صار حُجّة في الجدل الديني لليهود ضدّ النصارى، وللنصارى ضدّ اليهود.

أهمية المعرفة الدنيوية:

صرّح كثير من الباحثين غير المسلمين أنّ معجزة الإسلام الكبرى هي

---

(١) انظر: محمد عبد الله الشرقاوي، في مقارنة الأديان.. بحوث ودراسات (بيروت: دار الجيل، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م)، ص٦٦ ـ ١١٠.

(٢) خوان فرنيت Joan Vernet (١٩٢٣ ـ ٢٠١١): مستشرق إسباني مهتم بالتاريخ الإسلامي وتاريخ العلوم في القرون الوسطى. له ترجمة للقرآن الكريم إلى الإسبانية صدرت سنة ٢٠٠١.

(٣) خوان فيرنيت، فضل الأندلس على ثقافة الغرب، تعريب: نهاد رضا (دمشق: إشبيلية للدراسات والنشر، ١٩٩٧)، ص٢٦١.

(٤) حوا لازاروس ـ يافيه Hava Lazarus-Yafeh (١٩٣٠ ـ ١٩٩٨م): واحدة من أعلام الاستشراق اليهودي في القرن العشرين. أستاذ الحضارة الإسلامية في الجامعة العبرية في القدس. لها عناية خاصة بالعلاقات الإسلامية ـ اليهودية في القرون الوسطى. من مؤلفاتها: "Intertwined Worlds: Medieval Islam and Bible Criticism".

(٥) Hava Lazarus-Yafeh, "Some Neglected Aspects of Medieval Muslim Polemics against Christianity," *The Harvard Theological Review*, Vol. 89̃ No. 1 (Jan., 1996), pp.65 - 70.

(٦) أبراهام بن داود (אברהם אבן דאוד) (١١١٠ ـ ١١٨٠م): حبر يهودي، ومؤرّخ، وفلكي، وفيلسوف. عاش في الأندلس.

(٧) نقلته نهى عبد الجبار، نقد العهد القديم بين الإسلام والعلمانية، ابن حزم ـ رينان (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠١٦)، ص٢٦٨، عن: =

إخراج أمّة العلم من رحم الأمّيّة الصحراويّة؛ إذ لم يكن العرب قبل الإسلام شيئًا، ولولا البعثة النبويّة التي نبتت زهرتها في جزيرة العرب ما كان التاريخ ليذكر عرب القرن السابع بشيء إلّا أنّهم شراذم من قبائل نائيّة عن موران المدنيّة وحركة الأفكار الجارية.

لقد كانت المعجزة الأولى لنبيّ الإسلام ﷺ كتابٌ يهدي سُبُل الرشاد، لَبناته المعاني، ومِلاطه ربط الفكرة بالعالَم، وغايته ربط العالم بالفعل. هو نظرة كليّة للوجود، ومسلك، وهدف، وبذلك كان هذا الكتاب وقود نهضة نشبت نارها في قلوبٍ لم تعرف من قبل غير الهمّ لأسباب استبقاء الأنفاس في مفازات العرب المهلكة، إذ بقيت لصيقة حياة البداوة دون أن تستدعي إليها أمجاد الروم والفرس المجاورين لها دواعي الغيرة أو أطياف قدوة تغري بالمقاربة والمساماة.

وقد رسَخ في الذهن المسلم منذ البعثة النبويّة تبجيل طلب العلم، واحتقار القعود عن ذلك، حتى كان العلماء هم نجوم المجتمع ومحلّ نظر أصحاب القرار السياسي الذين كانوا يدركون سلطان كلمة العالم في أمّة ترى الإيمان علمًا والجهل كفرًا. وذاك أثرٌ مباشر عن إنزال القرآن والسُّنَّة النبويّة العلماء منزلة القائمين برسالة الأنبياء. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١]، وقال جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨]. وقد وُصف أهل العلم بالخشية بعد ذكر بعض مظاهر الطبيعة، بما يدلّ أنّ هذا المدح منصرف أساسًا لمن يعملون في علوم الدنيا لا علوم الشريعة.

وقال نبي الإسلام ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ**

= Arie van der Kooij *et al*., Canonization and Decanonization: papers presented to the international conference of the Leiden Institute for the Study of Religion (*LISOR*).

طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»[1]. وكان ﷺ قد اهتم بتعليم الصحابة القراءة والكتابة في أمّة لا تقرأ ولا تكتب، حتّى جعل فداء بعض أسرى بدر أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة[2].

وقد احتفى المسلمون بالكتاب غاية الاحتفاء، طلبًا للعلم وتعليمًا له، حتى كانت مجالس كبار العلماء مشهد الآلاف، وكان المنادون يقفون بين الصفوف يصرخون مردّدين كلمات المحاضرين لتسمعهم الجموع المتصافّة والمتلهّفة لاكتساب المعرفة.

كما ازدهرت صناعة الورق، وظهرت حرفة نسخ الكتب في المدن الإسلاميّة الكبرى، واهتم الخلفاء بإنشاء مكتبات خاصة يفاخرون غيرهم بثرائها.

وانتشرت المكتبات العامة بصورة لم تعرفها أمّة من قبل حتى أُلحقت المكتبات العامة بالمدارس والمستشفيات. وبلغ عدد كتب المدرسة النظامية ببغداد ثمانين ألف مجلد، كما بلغ عدد كتب المارستان المنصوري في القاهرة مئة ألف كتاب في الطب وغيره[3].

وقد أقيمت المكتبات العامة بسعي من الخلفاء والأمراء والعلماء وأغنياء الناس. وكانت تشتمل على غرف وإيوانات متعدّدة تربط بينها أروقة واسعة، وتثبت رفوف الكتب بجانب الجدران، وتشتمل على غرف للنسخ، وأخرى للقراءة والمطالعة أو الدرس والمناقشة. واشتملت بعض المكتبات على غرف الاستراحة والترويح، مع بُسُطٍ على الأرضيات وستائر على النوافذ لتهيئة أسباب الرضا عند طالبي المعرفة.

وضمّت هذه المكتبات فهارس واسعة تعين القارئ على الوصول إلى ما يبتغي من الكتب حسب الموضوعات، كما اشتملت المكتبات على عدد من

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (ح/٢٦٩٩).

(٢) رواه ابن عباس: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة». (مسند أحمد (ح/٢٢١٦)، وحسنه شعيب الأرنؤوط).

(٣) محمد محاسنة، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين (العين: دار الكتاب الجامعي، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١م)، ص١٦٤.

الموظّفين للإشراف عليها، وتنظيم الكتب فيها، وفهرستها، والقيام بكلّ ما يلزم من خدمة. **وتضمّ قائمة موظّفي المكتبات**:

١ ـ **خازن المكتبة**: وهو مديرها، ويتمّ اختياره من خيار العلماء.

٢ ـ **المناولون**: وهم موظّفون يقومون بتحضير الكتب للقرّاء وروّاد المكتبة من أجل المطالعة.

٣ ـ **النسّاخ**: ويقومون بنسخِ الكتب للمكتبة، خاصة النادر منها، وكتابتها بخطوط جميلة.

٤ ـ **المترجمون**: ويقومون بنقل الكتب من اللغات المختلفة إلى العربيّة.

٥ ـ **المجلّدون**: يجلّدون الكتب لحمايتها وحفظها من التلف.

٦ ـ **المفهرسون**: يعملون على تنظيم الكتب في الرفوف وفهرستها لتسهيل الرجوع إليها.

٧ ـ **الخدم**: يقومون بتنظيف المكتبة، وعمل كلّ ما تحتاج إليه من صيانة وخدمات.

وكانت المكتبات توفّر خدمة الإعارة لمن يريد نسخة من الكتاب ليقرأها خارج المكتبة، على أن يقدّم المستعير مقابل ذلك ضمانًا، إلّا الطلبة والعلماء، فقد أُعفوا من ذلك[١].

ويقابل مركزيّة العلم في البناء الحضاري الذي صنعه القرآن تحبيبًا وترغيبًا، ترهيب الكتاب المقدّس من تطلّب المعارف الدنيوية حتّى قال (بولس) عبارته الفجّة: «لأَنَّ حِكْمَةَ هذَا الْعَالَمِ هِيَ جَهَالَةٌ عِنْدَ اللهِ؛ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «الآخِذُ الْحُكَمَاءَ بِمَكْرِهِمْ»» (١ كونرثوس ٣/ ١٩).

وقد سافر كثير من علماء النصارى إلى بلاد المسلمين لتعلّم العلوم رغم الظروف السياسية المحتقنة عندها، ومن هؤلاء (ليوناردو بوناتشي)[٢] المعروف

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) ليوناردو بوناتشي Leonardo Bonacci(١١٧٥ ـ ١٢٥٠م): إيطالي. أحد أبرز علماء الرياضيات في القرون الوسطى. من مؤلفاته: "Practica Geometriae".

باسم (Fibonacci) أشهر علماء الرياضيات في القرون الوسطى، والفيلسوف (أديلار الباثي)[1] الذي ترجم التراث الإسلامي العربي في الرياضيات والفلك والفلسفة. بل إنّ **البابا** (سلفستر الثاني) [توفي ١٠٠٣م] قد تعلّم العربيّة، وتتلمذ على علماء إشبيلية وقرطبة، وكان عالمًا موسوعيًّا في زمانه، وحرّض النصارى على تعلّم العربيّة للاطلاع على الثقافة الإسلاميّة السائدة. وكان حبّ العربيّة والثقافة الإسلاميّة وتتبّع مؤلفاتها جريمة **الإمبراطور** (فريدريك الثاني)[2] الذي صدر فيه حكم الحرمان البابوي مرّتين. والحرمان أقصى عقوبة كنسيّة لمن أتى أعظم الذنوب. وقد كان هذا الإمبراطور نسيجًا وحده في حبّ المعرفة وتذوّقها، فكان يقرأ في الفلسفة والمنطق والطب، ولذلك وصفه بعضهم بأنّه «أعجوبة العالم» (stupor mundi). لقد كان خصمًا للكنيسة حتّى قيل: إنّه المسيح الدجال، وإنّه مسلم متخفٍ يقيم الصلاة مع معلّميه كلّ أذان[3].

المنهج التجريبي:

سيطر المنهج التأمّلي اليوناني على الثقافة النصرانية السابقة للبعثة النبويّة. كما باعدت الكنيسة أهلها عن العالم باعتباره «وادي الظلمات» ـ تأثرًا بالمذاهب الغنوصيّة التي اخترقت الكنيسة الأرثوذكسيّة ـ، وهو ما باعد بدوره بين العلم والتجربة في الغرب، وبقي التفكير العقلي التجريدي المصدر الأساسي للمعرفة البشريّة، بما في ذلك معرفة العالم الطبيعي.

استمرّ الحال المعرفي على تلك الصورة حتّى ظهور المذهب التجريبي على يد (روجر بيكون)[4] الذي كشف عقم المنطق الأرسطي وقصور المنهج

---

(١) أديلار الباثي Adelard of Bath (١٠٨٠ ـ ١١٥٢م): فيلسوف وعالم رياضيات إنجليزي. من مؤلفاته: "Quaestiones naturales seu physicae".

(٢) فريدريك الثاني Frederick II (١١٩٤ ـ ١٢٥٠م): ملك صقلية. أحدث ثورة ثقافية في مملكته، وأسّس جامعة نابولي. استولى على القدس إثر الحملة الصليبية الخامسة.

(٣) Jonathan Lyons, *The House of Wisdom: How the Arabs Transformed Western Civilization* (London: Bloomsbury Publishing, 2009), pp.165 - ff.

(٤) روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٤ ـ ١٢٩٤م): فيلسوف إنجليزي وأحد روّاد المنهج العلمي التجريبي في أوروبا. من مؤلفاته: "Opus Majus".

العقلي في كشف حقيقة قوانين العالم الطبيعي. وقد سبقه علماء الإسلام إلى هذا الكشف، مؤسّسين مناهجهم العملية العلمية على التعاطي المباشر مع العالم المادي.

ويعترف كثير من المؤرّخين أنّ الفضل في هداية (روجر بيكون) ـ ومن ورائه المجتمع الغربي ـ إلى المنهج التجريبي الذي كان شرارة عصر النهضة الأوروبية والتطوّر العلمي الهائل الذي نعيشه اليوم، يعود إلى الحضارة الإسلاميّة التي رسّخت المنهج التجريبي في سبر أغوار الكون المادي الذي لم تناصبه العداء، ولم تر فيه عدوًّا أو نجاسة.

يقول (روبير بريفو)[١] في كتابه «بناء الإنسانية»: «لقد تعلّم روجر بيكون من خلفاء [مسلمي إسبانيا] في جامعة أوكسفورد اللغة والعلوم العربيّة. لم يكن لروجر بيكون ولا سميّه المتأخّر عنه[٢] أيّ حقّ في أن يُنسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي. لم يكن روجر بيكون أكثر من رسول من رُسل علم المسلمين ومنهجهم إلى أوروبا المسيحيّة»[٣]، مقرّرًا أنّه «**لا يوجد جانب واحد من جوانب الترقّي الأوروبي لا يمكن الكشف عن الأصل الحاسم للثقافة الإسلامية فيه**»، ومؤكدًا أن العلم الطبيعي والروح العلمية هما أبرز أوجه تأثير الإسلام في أوروبا المعاصرة[٤].

أما مؤرّخ العلوم (جورج سارتون)[٥] فقد أقرّ أنّ أهم إنجاز في القرون الوسطى هو خلق الروح التجريبيّة. وردّ ذلك أساسًا إلى جهد المسلمين حتى القرن الثاني عشر[٦].

---

(١) روبرت بريفو Robert Briffault (١٨٧٤ ـ ١٩٤٨م): عالم أنثروبولوجيا فرنسي وجرّاح. من مؤلفاته: "Breakdown: The Collapse of Traditional Civilization".

(٢) يقصد فرنسيس بيكون Francis Bacon (توفي ١٦٢٦م).

(٣) Robert Briffault, *Making of Humanity* (London: George Allen, 1919), p.200.

(٤) المصدر السابق، ص١٩٠.

(٥) جورج سارتون George Sarton (١٨٨٤ ـ ١٩٥٦م): كيميائي ومؤرخ بلجيكي. يعتبر مؤسس علم تاريخ العلوم. من مؤلفاته: "The Study of the History of Science".

(٦) George Sarton, *History of Science and New Humanism* (New Bruns, NJ: Transaction Books, 1988), p.99.

ويقول عالم الدراسات الكتابيّة، والفلسفة، واللغات السامية ـ المخاصم للإسلام ـ (هرتفيغ هرشفلد)[1]: «يجب ألّا نتفاجأ أنّ **القرآن هو المنبع الأساسي لكلّ العلوم**. أحيانًا يتمّ التعرّض لكلّ المواضيع المتعلّقة بالسماء أو الأرض، والحياة الإنسانيّة، والتجارة، وكثير من أنواع المعاملات، وهو ما أدّى إلى ظهور عدد كبير من الدراسات التي شكّلت تفسيرًا لأجزاء من الكتاب المقدّس [= القرآن]. كان القرآن لذلك سببًا في كثير من الجدل، وله الفضل بصورة غير مباشرة في التطوّر الرائع لكلّ فروع العلوم في العالم الإسلامي. وهذا أيضًا لم يؤثّر فقط في العرب، وإنّما دفع أيضًا فلاسفة يهود إلى التعاطي مع الأسئلة الميتافيزيقيّة والدينيّة طبق المنهج العربي»[2].

ومن آخر الاعترافات قول (فكتور ستنجر) ـ أحد رؤوس «الإلحاد الجديد» في القرن الواحد والعشرين ـ: «لمّا كانت أوروبا في الظلام، كان الإسلام يمرّ بعصره الذهبيّ المميّز، محافظًا على الكثير من علوم اليونان والرومان، مع جانب كبير من علومه الخاصة»[3].

لقد نبع الاهتمام الإسلامي بالنظر التجريبي من صريح آيات القرآن الداعية إلى النظر في الكون، واعتباره قبلة الجهد البشري لمعرفة بديع صنعة الله وتحقيق التمكين في الأرض والرفاه المادي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

---

(١) هرتفيغ هرشفلد Hartwig Hirschfeld (١٨٥٤ ـ ١٩٣٤م): باحث يهودي بروسيّ متعصّب. اهتم بمحاولة إثبات الأثر اليهودي على صياغة الإسلام. نشر العديد من النصوص اليهودية القديمة.

(٢) Hartwig Hirschfeld, *New Researches into the Composition and Exegesis of the Qoran* (London: Royal Asiatic Society, 1902), p.9.

(٣) John W. Loftus, ed. *Christianity in the Light of Science: Critically Examining the World's Largest Religion,* Prometheus Books. Kindle Edition.

فالنظر في الكون، وبديع صنعه، ودقيق ملمح جماله، وسيلة لإدراك حقيقته، وداع لمعرفة أصله، وبرهان يهدي إلى أنّ للوجود غاية.. بل لم يكتسب الغرب عقيدة قدرة العلم على وهب الإنسان عطيّة الهيمنة على الطبيعة إلّا من خلال الحضارة الإسلاميّة[١].

وفي الآيات الكونيّة في القرآن بيان لـ«وَحدة الوجود الطبيعي»؛ فالعالم المادي ليس مجموع نثائرَ مشتتة، وإنما هو بنيان مرتّب، متّصل الأفراد، منتظم الأجزاء، وتلك هي المقدمة الأولى لكلّ بحث علمي؛ إذ العلم الطبيعي يحتاج لازدهاره مفهومَي «النظام» و«الحكمة» مقدمةً أولى قبل النظر والكشف والاختراع.

وقد كان مفهوم «**وَحدة الوجود الطبيعي**» في الثقافة اليهودية ـ النصرانية قائمًا، ولكن على شكل باهت؛ لأنّ المعنى الأبرز للطبيعة في الكتاب المقدس هو أنّها مظهر فعل الإلٰه الغاضب الثائر على أعداء «بني إسرائيل»؛ فالجبال والبحار والمطر والريح أدوات انتقام أكثر منها مظاهر عظمة صنع.

ويعبّر نبيّ الإسلام ﷺ عن المعنى الجديد للمظهر الطبيعي الكوني في قصّة جليلة ترويها زوجه (عائشة) رضي الله عنها، فقد قام ﷺ مرّة يصلّي بالليل والناس نيام، «فلم يزل يبكي حتى بلّ حجره، ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض. وجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلمّا رآه يبكي قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: **أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزلت علي الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ...﴾ الآيات[٢].

لقد انبجست روح البحث في الكون، والكشف عن جماله وعظمته وبديع قوانينه، وتسخير كلّ ذلك لخدمة الإنسان، من تلك الرؤية القرآنية الأولى، وانتشرت في الأرض منذ القرن السابع، حتّى أصابت الغرب بعد ستة

---

(١) Jonathan Lyons, *The House of Wisdom*, p.5.

(٢) رواه ابن حبان، كتاب الرقائق، باب التوبة (ح/٦٢٦). وصححه الألباني.

قرون. وقد ألّفت (سيجريد هونكه)[1] كتابها الشهير «شمس الله تسطع على الغرب»[2] ـ والذي عرّب لأوّل مرّة تحت عنوان «شمس العرب تشرق على الغرب»! ـ وقالت في مقدمته: «إنّ أوروبا مدينةٌ للعرب وللحضارة العربيّة [= الحضارة الإسلامية ذات اللسان العربي]، وإنّ الدَّين الذي في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدًّا، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، لكنّ التعصّب الديني واختلاف العقائد أعمى عيوننا.... ظلّ العرب ثمانية قرون طوالًا **يشعّون على العالم علمًا وفنًّا وأدبًا وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور**، ونشروا لواء المدنيّة أنّى ذهبوا في أقاصي البلاد ودانيها سواء في آسيا وإفريقيا أو أوروبا، ثم أنكرت أوروبا الاعتراف بهذا الفضل للعرب»[3].

وقد ذكرت في كتابها تفاصيل مثيرة عن أثر الحضارة الإسلامية على الثقافة والحياة العمليّة الأوروبيّين، بدءًا من «ثقافة الاستحمام» إلى علوم الطبّ والفلك والرياضيات التي قرّرت فيها أنّ المسلمين «وليس اليونان هم أساتذة أوروبا في النهضة العلميّة الرياضية»[4]. وانتهت إلى القول: «... نعم إنّ العرب هم مخترعو العلوم التطبيقية والوسائل التجريبية بكلّ ما تدلّ عليه هذه العبارة. والعرب هم المخترعون الحقيقيون للأبحاث التجريبية»[5].

ماذا قدّم المسلمون (أصحاب ثقافةٍ لسانها عربيّ)؟

تجيبنا (هونكه) بقولها: «العرب هم مؤسسو الكيمياء التجريبية، وكذلك الطبيعة العمليّة، والجبر، والحساب بمعناه الحديث، وحساب المثلّثات الكروي، وعلم طبقات الأرض، والاجتماع، وغير ذلك من الاختراعات

---

(١) سيجريد هونكه Sigrid Hunke (١٩١٣ ـ ١٩٩٩م): مستشرقة ألمانية. من مؤلفاتها: "Allah ist Ganz Anders".

(٢) «شمس الله تسطع على الغرب» "Allahs Sonne über dem Abendland".

(٣) سيجريد هونكه، شمس الله تشرق على الغرب، فضل العرب على أوروبا، تعريب: فؤاد حسنين علي (القاهرة: دار العالم العربي، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م، ط٢)، ص٩ ـ ١٠.

(٤) المصدر السابق، ص١٢٩.

(٥) المصدر السابق، ص٣٠٣.

الكثيرة الأخرى في مختلف العلوم والمعرفة، **وغالبًا ما سطا عليهم اللصوص ونسبوها إلى أنفسهم. فالعرب هم الذين قدّموا للعالم أغلى وأثمن هديّة**، فهم أصحاب البحوث المنتظمة في الطبيعيات، هذه البحوث التي كانت العامل القويّ في بعث العلوم الطبيعيّة في أوروبا»[١].

لقد اهتم المسلمون ـ مثلًا ـ بالطبّ، وطوّروه إلى مدى بعيد في باب توصيف الأمراض، وأسبابها، والوقاية منها، وعلاجها، والآلات الطبيّة، بوحي من قول نبيّ الإسلام ﷺ ـ لمّا سُئل: «ألا نتداوى؟» ـ: **«نعم يا عباد الله تداووا، فإنّ الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً»**[٢]، وقوله ﷺ: **«مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً، إِلَّا قَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»**[٣].

قد تبدو هذه الدعوة إلى طلب أسباب الشفاء والسعي في ذلك بجدّ اليوم أمرًا لا يستثير حاسة العجب والدهشة، لكن لم يكن الأمر كذلك في بلاد النصرانية في القرون الوسطى وما قبلها؛ إذ يقول ـ مثلًا ـ (تاتيان)[٤] ـ أحد آباء الكنيسة الأوائل ـ: «إنّ جميع الأدوية ومختلف أنواع العلاج نشأت أصلًا من وسائل الشعوذة والضلال»، وقال أيضًا: «إنّ جميع هذه العقاقير الطبيّة بأنواعها المختلفة من صنع الوثنية وحضّرتها في صيدلية الطبيعة، وذلك لأنّه عندما يشفى مريض بعقاقير مادية ويثق الإنسان في مثل هذه العقاقير ومفعولها وقدرتها على الشفاء، فإنّ ثقة مثل هذا الإنسان في الله وقوّته يجب أن تكون أعظم، فلماذا لا يعتمد على الله فقط؟ ولماذا لا يتّجه إلى الله القوي العظيم؟ أوَ يفضّل المريض أن يشفى كما يشفى الكلب عن طريق العشب، والوعل بواسطة الأفاعي، والخنزير بسرطان البحر، والأسد بالقردة؟ لماذا نقدّس الأشياء الأرضيّة؟!»[٥].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠٤.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه (ح/٢٠٣٨).

(٣) رواه أحمد (ح/٣٩٢٢). صححه شعيب الأرنؤوط.

(٤) تاتيان Tatian (١٢٠ ـ ١٨٠م): أحد آباء الكنيسة السريان. أشهر أعماله: «الدياتيسارون»، وهي قصة موحدة للأناجيل.

(٥) نقلته سيجريد هونكه، شمس الله تشرق على الغرب، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

وقد بدأ الأثر العلمي الإسلامي في المعرفة الطبية على الغرب في فترة مبكّرة، في القرن العاشر الميلادي، عندما نقل يهودي اسمه (دونولو) ـ وكان أسيرًا في أيدي المسلمين ـ ما تعلّمه من المسلمين وأهل الذّمة الذين كانوا يكتبون بالعربية. وكانت الدفعة العلمية الأكبر في القرن التالي على يد (قسطنطين الإفريقي) الذي ترجم إلى اللاتينية كثيرًا من مؤلفات العرب[1]. وقد بيّنت دراسة إحصائيّة لعدد الإشارات في المؤلفات الأوروبية القديمة المعتَمَدَة إلى مراجعها أنّ التأثير العربي أكبر بصورة واضحة من التأثير اليوناني، رغم ثراء الموروث اليوناني[2].

وإذا نظرنا في بزوغ علم الفلك في سماء الحضارة العالمية في البلاد الإسلامية، أمكن ردّ ذلك إلى نصوص القرآن وعقيدة التوحيد؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، و﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]، و﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، و﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمٰن: ٥].

وقد قال (أبو عبد الله البتاني)[3] ـ الفلكي المسلم صاحب الكشوف العظيمة، والذي عاش في القرن الثالث الهجري، وقد كرّمته وكالة الفضاء الأميركية (ناسا) بتسمية إحدى فوهات القمر باسمه ـ: «إنّ من أشرف العلوم منزلة، وأسناها مرتبة، وأحسنها حلية، وأعلقها بالقلوب، وألمعها بالنفوس، وأشدّها تحديدًا للفكر والنظر، وتذكية للفهم، ورياضة للعلم، ما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسننه، علم صناعة النجوم؛ لما في ذلك من

(١) مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، تعريب: حسين أحمد أمين (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، ص٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص٩٣.

(٣) محمد بن جابر بن سنان البتاني (٨٥٨ ـ ٩٢٩م): عالم رياضيات، ومن أعظم الفلكيين في تاريخ العلم. أنشأ مرصدًا في أنطاكيا. لقب بـ«بطليموس العرب». من مؤلفاته: «الزيج».

جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدّة السنين والشهور والمواقيت وفصول الزمان وزيادة الليل والنهار ونقصانها ومواضع النيّرين وكسوفهما ومسير الكواكب في استقامة وتبدّل أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها، إلى ما يدرك بذلك **من أنعم النظر وأدام الفكر من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته ولطيف صنعه**، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[١].

وأقرّ بالفارق بين علم الفلك الإسلامي وحال ذات العلم خارج بلاد المسلمينَ المُنَصِّرُ وعالم الفيزياء الفلكيّة (هيو روس)[٢] بقوله: «كان المزاج المعادي للعلم والذي أثاره أفلاطون وشجّعه الروم الكاثوليك والكنائس الأرثودكسيّة حادًّا جدًّا حتّى إنّه **لم يحدث أيّ بحث فلكي في أوروبا إلّا بعد انقضاء القرون الوسطى**. خارج أوروبا، كان المسلمون الأكثر تطوّرًا في علم الفلك»[٣].

أين موقع الغرب من المسلمين لمّا كان المسلمونُ قد أسلموا أنفسهم إلى آيات القرآن؟

يجيبك المؤرّخ الأمريكي (مارك جراهام)[٤] في كتابه: «كيف صنع الإسلام العالم الحديث» بعبارة جامعة مانعة: إن الغربيين «كانوا جالسين **عند أقدام** المعلّمين المسلمين على مدى خمسمائة سنة... لقد **كان المسلمون كلّ الأشياء التي تنكرها الكتب المدرسيّة**: فنّانون، شعراء، فلاسفة، علماء رياضيات، كيميائيون، علماء فلك، فيزيائيون»[٥].

.. لقد كانوا بفضل الكتاب المعجز **كلّ شيء!**

---

(١) أبو عبد الله محمد بن جابر الحرّاني، كتاب الزيج، تحقيق: كَرْلو نالّينو (روما: ١٨٩٩م)، ص٦.

(٢) هيو روس Hugh Ross (١٩٤٥م ـ): عالم فيزياء كندي. وأشهر علماء الطبيعة النصارى المهتمين بالدفاع عن النصرانية وأسفارها المقدسة من زاوية علمية. من مؤلفاته: "The Fingerprint of God".

(٣) Hugh Ross, *The Fingerprint of God, Recent Scientific Discoveries Reveal the Unmistakable Identity of the Creator* (Kindle Locations 278-282). Reasons To Believe. Kindle Edition.

(٤) مارك و. جراهام Mark W. Graham: أستاذ التاريخ في "Grove City College" و"Stanford University" و"Michigan State University".

(٥) Mark Graham, *How Islam Created the Modern World* (Beltsville, Md.: Amana Publications, 2006), p.39.

حقوق المرأة:

لم تكن المرأة في التصوّر النصراني موضع اهتمام أسفار العهد الجديد[١]؛ ولذلك لم يقدّم لها النصّ المقدس منظومة جديدة ترعى حقوقها وتدفع عنها الغبن الذي عرفته في ظلّ سلطان أحبار اليهود وأسفارهم، أو سلطان الدولة الرومانيّة وأعرافها؛ إذ «لا توجد في الأناجيل نظريّة خاصة بالنساء»[٢].

وأما التاريخ النصراني فيكشف أنّ الكثيرين كانوا يشكّون في انتساب المرأة إلى الجنس الآدمي؛ فقد استمرّ الجدال في إنسانيّة المرأة إلى زمن غير بعيد؛ حتّى إنّه كما تقول (جيزيلا بوك) ـ أستاذ الحضارة الأوروبية الغربية في جامعة برلين الحرة، والمتخصصة في تاريخ المرأة ـ في أمر موقف الموسوعات العلميّة الكبرى في الغرب النصراني من كيان المرأة: إنّ هذا الإشكال قد بقي محلّ جدل جاد؛ من موسوعة (Pierre Bayle) (١٦٩٧م) إلى موسوعة (Zedler) (١٧٤٧م)[٣].. فلم تحسم القضيّة لصالح إثبات آدمية المرأة إلّا منذ زمن قريب!

لقد كان الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، مع كتابات آباء الكنيسة بوابة العذاب للمرأة قبل الإسلام حتّى قال أحد المفكّرين الغربيين: «إذا كانت هناك كتب في الوجود، يحمل أصحابها نظرة احتقار للمرأة أكثر من كتّاب أسفار الكتاب المقدّس ومؤلفات آباء الكنيسة، **فأنا لا أعرفها**»[٤]!..

حال المرأة في النصرانية منذ البدء وحتى نهاية السلطان الزمني للكنيسة على بلاد الغرب، ليس بأفضل من حال المرأة في الدولة الرومانية قبل تبنّيها

(١) العهد الجديد The New Testament: النصف الثاني من الكتاب المقدس الذي يقدسه النصارى، ويضم ٢٧ سفرًا، وهي: أربعة أناجيل، ومجموعة من الرسائل، وقصة رسل المسيح، ورؤيا تنسب إلى أحد الحواريين.

(٢) J. Donaldson, *Woman; Her Position and Influence in Ancient Greece and Rome, and Among the Early Christians* (London: Longmans, Green, 1907), p.149

(٣) Gisela Bock, *Women in European History* (Oxford; Malden, Mass.: Blackwell Publishers, 2002), pp. 13-14.

(٤) Philip Rappaport, *Looking Forward: A Treatise on the Status of Woman and the Origin and Growth of the Family and the State* (Chicago: C.H. Kerr, 1908), p.48

النصرانية دينًا للدولة؛ ولذلك لمّا تحدّث «معجم الدين والأخلاق» عن حقوق المرأة الرومانية، وكيف رُفع مقامها في ظل القانون الروماني، قال: «تأثير الكنيسة في بدايتها كان في الأغلب مقيّدًا للحقوق القانونية للمرأة»[١]. أمّا فيما يتعلّق بزمن سيطرة قوانين الكنيسة على الدولة في العصور الوسطى، بعد إزاحتها للكثير من القوانين الرومانية؛ فيقول القانوني والمؤرّخ البريطاني (جيمس برايس)[٢] مصوّرًا الحال بقوله: «أن تتحوّل من القانون المدني الروماني إلى القانون الكنسي للعصور المظلمة والوسطى؛ لهو أشبه بمغادرة بلاد مفتوحة، تقطعها طرق جيّدة، إلى قطعة أرض جبليّة وغابيّة؛ حيث لا توجد وسائل تنقّل غير الطرق الوعرة والمتعرّجة»[٣].

فالنصرانية إذن، قد تسببت في انتكاسة حقوق المرأة، ولم تمسّ طرف الإصلاح في شيء، حتّى في ذاك الزمن السحيق!

ولمّا جاء الإسلام تحوّل الحال إلى غيره، حتّى صرّحت «موسوعة النساء والأديان العالمية»: أنّه «قد تمّ الاهتمام بالنساء في القرآن بصورة موسّعة **أكثر من كلّ الأسفار المقدّسة** للديانات الأخرى»[٤]، وعدّدت ما جاء به القرآن من أحكام جديدة منصفة للأنثى، من تحريم وأد البنات، ومنع وراثة الرجل زوجة أبيه عند موته، وإعطاء معنى جديد محترم للمهر، ومنحها حقّي الملكيّة والميراث[٥].

وقد اعترف بنصرة الإسلام للمرأة وارتفاعه بشأنها، أحد أشدّ المبغضين للإسلام، ممن سخّروا جهودهم على مدى نصف قرن للتنصير والتنفير عن

---

(١) Shailer Mathews and Gerald Birney Smith, eds. *A Dictionary of Ethics* (Detroit, Gale Research, 1973), p.475.

(٢) جيمس بريس James Bryce (١٨٣٨م ـ ١٩٢٢م): بريطاني من أصول إيرلندية. كان أستاذًا للقانون المدني في جامعة أكسفورد. تولّى رئاسة الأكاديميّة البريطانية من ١٩١٣ ـ ١٩١٧م.

(٣) James Bryce, *Studies in History and Jurisprudence*, p.416 (Quoted by, S.B. Kitchin, A *History of Divorce*, Cape Town, London, Juta Chapman & Hall, 1912, p.45).

(٤) *Encyclopedia of Women and World Religion* (New York, N.Y: Macmillan Reference USA, 1999), 1/488.

(٥) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٨٩.

عقيدة الإسلام وشريعته، وهو المنصّر (وليام م. مِلر)[1]، فقد قال: إنّ الزعم أنّ إصلاحات نبيّ الإسلام قد عزّزت مقام النساء بصورة عامة، هو أمر مقبول بصورة عالميّة[2]. ووافقه (جورج برنارد شو)[3] بقوله: «إنّ تعاليم النبي محمد حول مقام المرأة، والنظرة إلى البنات الإناث، والرحمة بالحيوانات، كانت متقدّمة جدًّا على الفكر الغربي المسيحي، بل **وحتّى على الفكر المعاصر**»[4].

وممن شهد من أعلام الفكر من الغرب ـ من النساء ـ على عظمة الإسلام في باب تحرير المرأة من أثقال الأفكار الجاهليّة (كارن أرمسترونغ)[5]؛ إذ قالت: «كان النساء من أوائل المؤمنات بمحمد، **كان تحريرهن مشروعًا يملك قلبه**. حرّم القرآن بطريقة حازمة قتل المواليد الإناث، ووبّخ العرب على فزعهم عندما كانت تولد أنثى. وأعطى النساء أيضًا حقوقًا قانونيّة في الميراث والطلاق **لم يملك جلّ النساء الغربيات شيئًا شبيهًا بها حتى القرن التاسع عشر**. شجّع محمد النساء أن يلعبن دورًا إيجابيًّا في شؤون الأمة، وقد عبرن عن آرائهن بصراحة في ثقة أنّه سيُسمع لهن»[6].

وأمّا المستشرقة الإيطالية (لورا فيشيا فاغليري) فقد قالت: «إذا كانت المرأة قد بلغت ـ من وجهة النظر الاجتماعية في أوروبا ـ مكانة رفيعة، **فإنّ**

---

(١) ويليام ماك إلويي ملّر William M. Miller (١٨٩٢م ـ ١٩٩٣م): منصّر أمريكي تلقى تعليمًا لاهوتيًا في الجامعة. دفعه تأثّره بزعيم المنصرين (صموئيل زويمر) إلى تسخير نفسه للعمل لتنصير المسلمين. عمل في التنصير في إيران. له مؤلفات في الإسلام وفرقه.

(٢) William A. Miller, *A Christian's Response to Islam* (Quoted by, Shaikh Muhammad Hafeez, *A Muslim's Response to Christian Criticism of Islam*, Islamabad: Interfaith Publication, 1997, p.56).

وقد صرّح المستشرق (هاملتون جب) (Hamilton Gibb) في كتابه (Mohammedanism) ص٢٢ بنفس هذا التعليق.

(٣) جورج برنارد شو George Bernard Shaw (١٨٥٦م ـ ١٩٥٠م): كاتب مسرحي، وناقد اجتماعي. حاصل على جائزة نوبل للآداب.

(٤) Commonwealth Secretariat, *Developing Human Rights Jurisprudence*, 5/159.

(٥) كارن أرمسترونغ Karen Armstrong (١٩٤٤م ـ): كاتبة بريطانية مشهورة. مؤلفاتها ذائعة في العالم الإنجلوسكسوني. مهتمة بتاريخ الدين ورموزه. من مؤلفاتها: "Muhammad: A Biography of the Prophet".

(٦) Karen Armstrong, *A History of God* (New York: Random House Publishing Group, 2011), pp. 157-158.

مركزها، شرعيًّا على الأقل، كان حتى سنوات قليلة جدًّا، ولا يزال في بعض البلدان، أقل استقلالًا من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي. إن المرأة المسلمة إلى جانب تمتعها بحق الوراثة مثل إخوتها، ولو بنسبة أصغر، وبحقها في أن لا تُزفّ إلى أحد إلا بموافقتها الحرّة، وفي أن لا يسيء زوجها معاملتها، تتمتع أيضًا بحق الحصول على مهر من الزوج، وبحقها في أن يعيلها ولو كانت ثريّة من الأصل، وتتمتع بأكمل حرية، إذا كانت مؤهلة لذلك شرعيًّا، في إدارة ممتلكاتها الشخصية»[١].

وفوق الشهادات السابقة كلّها، قدّم (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه شهادة مباشرة ـ عن معايشةٍ لما قبل الإسلام وما بعده ـ؛ فقد قال: «**كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللهُ، رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا**»[٢].

وماذا عن النصرانية؟

لم تدخل النصرانية ساحة التأثير المباشر على الواقع إلا في القرن الرابع بعد تبنّي الإمبراطور (ثيودوسيوس الأول) للنصرانية لتكون الديانة الرسمية للدول الرومانية. استطاعت النصرانية عندها أن تتغلّب على العقائد الوثنية السائدة بصولجان السلطان الزمني، وثبّتت أهميّة مركزيّة الإيمان في الرؤية الكونية للإنسان، وأعلت من قيمة الوحي في توجيه حياة الإنسان، لكنّها لم تتمكّن ـ مع ذلك ـ من الخروج بالإنسان من ظلمة النفس وظلمة الكون، بل كان العقل النصراني سبب انتكاسة حضارية بعد عصر اليونان المتوقّد حماسة للكشف والتجديد. ومن أهم أوجه الفساد المتّصلة بظهور النصرانية في أرض التاريخ:

إحياء العقائد الوثنية: بُعث المسيح لردّ الناس إلى عبادة الواحد الأحد،

---

(١) Laura Veccia Vaglieri, *An Interpretation of Islam* (Zurich: Islam. Found., 1980), p.72
أخذتُ بتعريب منير البعلبكي للنصّ المقتبس، مع التعديل عند الاقتضاء ليوافق النصّ المعرّب الترجمة الإنجليزية التي بين يدي: لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص١٠٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب ما كان النبيّ ﷺ يتجوّز من اللباس والبسط (ح/ ٥٨٤٢).

وترك منكرات العبادات تكلّفًا وتنطّعًا، غير أنّ الكنيسة سلكت منذ القرون الأولى غير هذا الطريق؛ فقد تشرّبت بصورة كبيرة عقائد الوثنيين ونُظُمهم الطقوسية.

وقد كان أمر الأثر الوثني معروفًا عند (١) آباء الكنيسة، (٢) مشهورًا عند معارضيهم، وليس هو من محدثات القرن التاسع عشر ـ كما هي دعوى دفاعيي الكنيسة اليوم ـ؛ فقد بلغ يقين الآباء في التشابه بين قصّة المسيح التي تقدمها الأناجيل والكنيسة، وقصّة إلٰه اليونان (ديونيسوس) (Διονυσος)[١] وغيره من الآلهة القديمة إلى أن يقول أحدهم ـ وهو (جستين)[٢] المولود في بداية القرن الثاني ـ: **إنّ الشياطين لما علمت نبوءات العهد القديم حول المسيح؛ أرسلت (ديونيسوس) قَبْلَه ليخدع الناس بما بينهما من تشابه!** وذكر (جستين) بعد ذلك تشابهات كثيرة محاولًا من خلالها إقناع الإمبراطور أنّ **النصارى لم يأتوا بشيء جديد لم يعرفه الرومان**[٣].

كان (جستين) على درجة عظيمة من الوضوح في إقراره، بل وحماسة لبيان التشابه الغريب بين النصرانيّة والعقائد الوثنيّة للقرن الأوّل الميلادي، إلى درجة أنه قال في معرض رد الاعتراضات التي تساق لإثبات نكارة العقيدة النصرانيّة: «عندما نقول إنّ الكلمة التي هي المولود الأوّل لله، قد نتجت عن غير تواصل جنسي، وأنّ يسوع المسيح، معلّمنا، قد صلب ومات، وقام مرّة أخرى، وصعد إلى السماء؛ فإننا **لا نعرض شيئًا مختلفًا عمّا تؤمنون به في شأن من تعتقدون أنهم أبناء (جوبتر)**»[٤].

كما شهد خصوم النصرانية المبكّرة على غزو الوثنية لهذا الدين الجديد؛ فقال الفيلسوف (أمونيوس ساكوس)[٥] ـ القرن الثالث ـ: «إذا فهمنا جيّدًا

---

(١) هذا هو اسمه اليوناني، ويسمّى في اللاتينيّة (Bacchus).

(٢) جستين Justin: أحد قديسي الكنيسة والمدافعين عنها الأوائل. تعتبره الكنيسة من شهداء الإيمان الأوّل. من مؤلفاته: «حوار مع تريفو».

(٣) Justin, '*The First Apology*,' in *Ante-Nicene Fathers* (New York: Charles Scribner's Sons, 1903), 1/181-234

(٤) المصدر السابق، ١/١٦٩ ـ ١٧٠.

(٥) أمونيوس ساكوس (Αμμω΄νιος Σακκας) (القرن الثالث): مؤسس الأفلاطونيّة الجديدة.

المسيحيّة والوثنيّة؛ (فسنعلم) أنّهما لا يختلفان عن بعضهما البعض في النقاط الأساسيّة، وإنّما يشتركان في الأصل الواحد، **وهما حقيقة واحدة وشيء واحد**»[١]. وهو ما كرّره (فاوستس)[٢] بقوله: «لقد وضعتم أغابي[٣] مكان قرابين الوثنيين، ومكان أوثانهم وضعتم شهداءكم الذين تعاملونهم بنفس تبجيل الوثنيين لأوثانهم. أنتم تسكّنون ظلال الموتى بالخمر والولائم، أنتم تحتفلون بالأعياد المقدّسة للأمميين، وتقويمهم، والانقلاب الشمسي الموسمي، كما حافظتم على أساليبهم دون تغيير. **لا يوجد شيء يميّزكم عن الوثنيين**، باستثناء أنّكم تحفظون مجامعكم بعيدًا عنهم»[٤].

تأسيس الكهنوت المتألّه: كان القول المنسوب إلى المسيح لحواريّه (بطرس): «أَنْت بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْني كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيم لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاوَاتِ» (متّى ١٦/ ١٨ ـ ١٩)، وقوله للتلاميذ: «مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ» (يوحنا ٢٠/ ٢٣) سببًا في ظهور طبقة الوسطاء بين الربّ والبشر في عقائدهم وشرائعهم، وهو ما هيمن على التاريخ الديني الكنسي. وهكذا تحوّلت علاقة البشر بالربّ من الصلة شبه المباشرة في التصوّر اليهودي، إلى الوساطة اليسوعيّة في المعتقد الأرثوذكسي، إلى وساطة البابوات ومن تحتهم من رجال الدين في التنظيم الكنسيّ، وهو ما انتهى بالمؤمن النصراني إلى الإشراك بالله في باب الطاعة على صورة تداني الأديان

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فاوستس Faustus (٣٥٠ ـ ٤٠٠م): أسقف من الجزائر، مانوي المذهب. كان قديس الكنيسة (أوغسطين) قد التقاه ـ عندما كان هو أيضًا مانويًّا ـ لسؤاله عن بعض الأمور التي استعصت على فهمه، غير أنّه بعد خروج (أوغسطين) من المانويّة ألّف في الرد عليه كتابه «ضد فاوستس» (Contra Faustum).

(٣) استعمل النصارى في القرون الأولى كلمة «أغابي» (αγα΄πη) التي تعني: «حب» للدلالة على حبّ الإله الآب للخلق حتّى إنه قد أرسل ابنه الوحيد ليموت فداءً عنهم!

(٤) Thomas William Doane, *Bible Myths and their Parallels in Other Religions* (New York: J. W. Bouton, 1884, 3rd edition), p.411

الوثنية أو تفوقها، وفي ذلك نزلت الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١]. وقد عظّم النصارى (مريم) عليها السلام، حتى جعلوها قِبلة للدعاء، ولقبوها بـ«والدة الإلٰه» (Θετοχος)[١]، واتخذوا وسائط القديسين يتقربون بهم إلى الله زلفى.. وهكذا غابت شمس التوحيد وراء حجب الوسائط.

العقلية الخرافية المعادية للعلم: ساهم ظهور أناجيل الكنيسة في تأكيد النظرة العجائبية للسنن الكونيّة، خاصة علم الطب؛ إذ أدّى التفسير المتكرّر لظاهرة العلل والأوبئة زمن المسيح على أنّها تلبّس شيطاني إلى النفور من النظر العلمي للأدواء، والانحياز الواضح لتفسير عامة الأمراض على أنها فعل شيطاني مباشر.

وتعلّق (هونكه) على ذلك بقولها: «ترى الكنيسة أنّ استخدام أدوية أخرى غير تلك التي تصفها هي ـ أعني: أدوية الروح ـ، واحتراف مهنة الطب وإجراء عمليات جراحيّة، عملًا مشينًا يتنافى ومكانة رجال الدين وكرامتهم. وقد **استمرّت هذه العقيدة سائدة عدّة قرون بين الأطبّاء الدارسين**؛ فقد كانوا عرضة لكثير من الإهانات واللعنات وبخاصة إذا كان الطبيب جراحًا، حتى ولو فصد فصدًا لاستخراج الدَّم؛ فإنّ الكنيسة لن تغفر له هذا العمل المشين، وفي شيء من الإيجاز لقد حرّمت الكنيسة على رجال الدين مباشرة الجراحة، وتركت هذه العمليّة الجراحيّة لأناس يعتبرهم المجتمع من الطبقة الدنيا التي كان ينظر إليها باحتقار»[٢].

لقد أدّى هذا التصوّر السلبي للحقيقة العلميّة للأمراض إلى ظهور معارضة شديدة للتطعيم من الجدري في أوروبا وأمريكا، كان من مظاهرها تأليف أحد القساوسة كتابًا بعنوان: «موعظة ضد الممارسة الخطرة والآثمة

(١) تنطق: ثِيوُتوكُسْ.

(٢) سيجريد هونكه، شمس الله تشرق على الغرب، ص١٤٨.

للتطعيم»[1] حيث ذكر المؤلّف أنّ النبي (أيوب) عليه السلام قد أصيب على الراجح بالجدري، وأنّ الشيطان هو سبب مرضه ذاك. وكانت الكنيسة تخبر الناس أنّ مرض الجدري عقاب إلٰهي يَقبح أن يُواجه بالتطعيمات، والحجّة في النص المقدّس الذي يقول: «هَلُمَّ نَرْجِعُ إِلَى الرَّبِّ؛ لأَنَّهُ هُوَ افْتَرَسَ فَيَشْفِينَا، ضَرَبَ فَيَجْبِرُنَا» (هوشع ٦/ ١)[2].

ومن عجيب القرون الوسطى في العالم النصراني أنّ الطبيب الماهر الحاذق إذا اتّخذ الوسائل التجريبيّة أداته لعلاج المرضى ولم يعوّل على خوارق الكنيسة، كان يُتهم بتهمٍ تمسّ صدق فهمه لدينه ولكلمة الربّ، ومنها أنّه محمّدي [مسلم] أو رُشديّ [من أتباع ابن رشد][3]!

ولم يحمل النصارى في عصورهم الأولى فقهًا معتدلًا في التعامل مع تراث الأمم الأخرى، ولذلك ارتكبوا واحدة من أعظم مجازر الفكر الأولى في آخر القرن الرابع، وهي إحراق مكتبة الإسكندرية العظيمة التي كانت واحدة من أهم مخازن الكتب في الزمن القديم[4].

وقد استمرّت عداوة المخالف والجديد في الكنيسة حتّى إنّه قد صدر عن الكنيسة الكاثوليكية (فهرس الكتب المحرّمة) (Index Librorum Prohibitorum) في تحديد قائمة الكتب المرفوضة كنسيًّا، ومنها كتب في الفلسفة والتاريخ والإصلاح السياسي والعلوم، ولم يتمّ إلغاء هذا (الفهرس) إلا سنة ١٩٦٦م على يد البابا (بولس السادس).

---

(١) Edmund Massey, *Sermon Against the Dangerous and Sinful Practice of Inoculation* (Michigan: University of Michigan Library 1730).

(٢) انظر في وصف المقاومة الكنسية للتطعيم والتخدير:
Andrew White, *A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom* (New York: Appleton, 1901), 2/55-63.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٨.

(٤) انتشر في التراث النصراني العربي القول إن المسلمين هم من فعلوا ذلك، لكن أنكر عدد من المؤرخين الغربيين ذلك مثل: (غوستاف لو بون) و(فكتور شوفين) و(ألفرد بتلر)...

كانت دعوة المسيح ـ كما فهمها النصارى ـ مطاردةً، وبعد أن تبنّتها الدولة الرومانية في آخر القرن الرابع، بدأ عصر الظلمات (obscurantism) في القرن الخامس في أوروبا. ولما ظهرت دعوة الإسلام وقامت لها دولة، بدأ العصر الذهبي للعرب ومن كان معهم على دين القرآن.

إبادة الحضارات الأخرى: لمّا ألّفت الباحثة «هيلن إلرب» كتابها المشهور «الجانب المظلم للتاريخ المسيحي»[(١)]، كانت أوّل فقرة فيه عن اعتراف البابا (بولس الثاني) بالتاريخ المظلم للنصرانية، وهو تاريخ الدم والإبادات والتنصير القهري تحت لوامع المقاصل. وإذا كانت الأناجيل لم تحرّض بوضوح مباشر على الفتك بالأمم الأخرى، إلّا أنها صمتت عن تقديم إدانة لقوانين الحرب الدمويّة التوراتية، وهو ما فتح للكنيسة ذخائر تسويغيّة للقضاء على الهراطقة وغير المؤمنين بتمجيد من كلمة الربّ المضمّنة في أسفار التوراة.

كانت الكنيسة قبل التمكين في القرون الثلاثة الأولى في خصومات داخلية حامية، وموادعة مع الدولة الرومانية الباطشة، غير أنّ تبني الإمبراطورية الرومانية لها فتح لها باب الدم، فعانت الأقليات إجرام الحكم البابوي المهيمن على كرسي الأباطرة أو المتماهي معه، خاصة الأقلية اليهودية[(٢)] والفرق النصرانية المخالفة، وعلى رأسها الآريوسية.

وقد رفع قديس الكنيسة «أوغسطين»[(٣)] شعار «أَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُولِ» (cogite intrare) الذي أخذه من الترجمة اللاتينية لنص إنجيل لوقا ١٤/٢٣ حجة لإجبار الأمم غير النصرانية أن تتنصّر عنوة[(٤)]. وهي القاعدة التي سارت عليها

---

(١) Helen Ellerbe, *The Dark Side of Christian history* (Orlando, Fla.: Morningstar and Lark, 1998).

(٢) E. Mary Smallwood, *From Pagan Protection to Christian Oppression* (Belfast: Queen's univ., 1979).

(٣) أوغسطين Augustine (٣٥٤ ـ ٤٣٠): أسقف. أحد أبرز لاهوتيي الكنيسة وفلاسفتها في القرون الأولى. ولا يزال تأثيره قويًّا على الكنائس المختلفة إلى اليوم. من مؤلفاته: «مدينة الله».

(٤) Augustine, *Letter 185*.

الكنيسة قرونًا مع الفرق الهرطقية والمسلمين وغيرهم، ولذلك لم يشهد التاريخ أقليّات مسلمة أو يهوديّة آمنة تحت سلطان الكنيسة، وقد كان من صدى ذلك أن قال المستشرق **اليهودي** (كلود كاهين)[١]: «صار العالم الإسلامي **بمثابة الفردوس بالنسبة لليهود** على الصعيد الثقافي والاقتصادي بين القرنين التاسع والحادي عشر»[٢].

لقد حرّم الإسلام التسلّط على عقائد أهل الكتاب وإكراههم على ترك ما هم عليه من دين. يقول المستشرق (توماس أرنولد)[٣]: «إنّ التحويل إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرّم، طبقًا لتعليم القرآن: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ٩٩ ـ ١٠٠]. وإنّ مجرّد وجود كثرة كاثرة من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلّت قرونًا في ظلّ الحكم الإسلامي لدليل ثابت على ذلك التسامح الذي نعم به هؤلاء المسيحيون»[٤]. ويزيد في بيان سبب بعض المظالم التي تعرّض لها النصارى في تاريخ الإسلام بقوله: «الاضطهادات التي كانوا يدعون إلى معاناتها بأيدي الطغاة والمتعصّبين، إنما كانت ناتجة عن بعض ظروف خاصة وإقليمية، أكثر من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرّر من التعصّب»[٥].

---

(١) كلود كاهين Claude Cahen (١٩٠٩ ـ ١٩٩١م): مستشرق ومؤرّخ فرنسي. من أبرز المتخصصين الفرنكفونيين في تاريخ الإسلام في القرون الوسطى والحروب الصليبية. درّس في جامعة السربون وغيرها. من مؤلفاته: "Orient et Occident au temps des croisades".

(٢) كلود كاهين، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تعريب: أحمد الشيخ (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٥)، ص٣٦.

(٣) توماس أرنولد Thomas Arnold (١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م): مستشرق بريطاني مهتم بالتاريخ الإسلامي. عمل عميدًا للكليّة الشرقيّة في جامعة البنجاب. درّس العربيّة والدراسات الإسلامية في مدرسة الدراسات الشرقية في جامعة لندن، وكان من محرري موسوعة الإسلام الاستشراقية.

(٤) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، تعريب وتعليق: حسن إبراهيم حسن وغيره (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٧١م)، ص٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٥) المصدر السابق، ص٤٦٢.

خلاصة النظر:

• العالم الذي حكمه الإسلام تغيّر حاله إلى الأفضل بعد الفتح، والعالم الذي لم يحكمه الإسلام ترقّى حاله بتماسّه مع عالم الإسلام.. هما حقيقتان لا يجادل فيهما عامة المؤرّخين المتخصّصين في تاريخ «القرون الوسطى».

• خصّيصة الإسلام الكبرى ومفخرتها العظمى تنزيه الله عن الشريك والمثيل والقريع، وهي الفضيلة التي لم يملك أمامها أعتى الخصوم إلا الإقرار بعلوّها. وقد ساهم التوحيد القرآني في إثارة عقول كثير من أعلام النصارى لمراجعة معقولية عقيدة التثليث.

• طمست النصرانيّة رسالة المسيح إلى إفراد الربّ الواحد بالعبادة بعد تأثّرها الواسع بالعقائد الوثنية الشائعة والفلسفة اليونانيّة الطاغية في المرحلة التأسيسيّة للاهوت والليتورجيا الكنسيّة[١].

• النقد القرآني للنصرانية واليهوديّة ساهم في تقوية حجّة اليهود والنصارى ضد بعضهما البعض، وكثير مما قرّره القرآن منذ قرون انتهى إليه النقد الكتابي في الغرب اليوم.

• القرآن فتح للبشريّة باب التخلّص من أسر الموروث المعرفي اليوناني القائم على دراسة الطبيعة من بوابّة تجريديّة، وأقحم الحواس في عالم التجربة والتعاطي المباشر مع الطبيعة.

• القرآن آلف بين الإنسان والطبيعة بدعوته إلى النظر في جمالها وإتقانها لإكبار النعمة والمنعم، على خلاف النصرانية التي يكرّر كتابها المقدّس أنّ مظاهر الطبيعة مرآة لمزاج الإلٰه المتقلّب أبدًا.

• خالف القرآن أعراف العرب وشرائع أهل الكتاب في باب حقوق المرأة ومقامها، ومنحها حقوقًا لم تعرف الكثير منها إلا في القرنين الأخيرين بعد ثورات فكرية متواصلة.

---

(١) ليتورجيا Liturgy: الشعائر الدينيّة.

• لا يمكن للمنصف أن يردّ أثر البعثة النبوية المحمّدية في العالم إلى مقدمات مادية في القرن السابع؛ وهو ما يستدعي التفسير فوق الطبيعي لهذه البعثة، والمتمثّل في إعجاز رسالة الوحي الربّاني.

• جنت النصرانية على عقول الناس وعقائدهم وأرواحهم.

مراجع للتوسّع:

مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، تعريب: حسين أحمد أمين (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (الكويت: دار القلم، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م).

Michael Hamilton Morgan, *Lost History: The enduring legacy of Muslim scientists, thinkers, and artists* (Washington, D.C.: National Geographic, 2013).

Mark Graham, *How Islam Created the Modern World* (Beltsville, Md.: Amana Publications, 2006).

Jonathan Lyons, *The House of Wisdom: How the Arabs Transformed Western Civilization* (London: Bloomsbury Publishing, 2009).

الباب الثالث

دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]

إنّ العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أميّ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنّها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنى.

(Henri De Castries)

تمهيد

القرآن هو المعجزة الكبرى لنبيّ الإسلام ﷺ كما هو تقرير القرآن نفسه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

والقرآن هو الكتاب الذي يزعم المسلمون أنّه حجّة لنبوّة محمّد ﷺ من **جهتين**:

١ ـ أنّه خارق للعادة؛ بما يدلّ على أصله السماوي.

٢ ـ أنّه مجمَع معجزات؛ فمظهر الخارقيّة فيه متعدّد؛ لا يحصره وجه واحد.

والدعوى الإسلاميّة ـ هنا ـ مستفزّة للذهن بمخالفتها مألوفَ نِسبة الكتب إلى البشر، وواسعة؛ إذ تقرّر أنّ القرآن يكشف ربّانيّة أصله من أكثر من وجه.

وإعلان القرآن أنّه ليس صنعة بشريّة لا يمكن أن يُسَلَّم له عند المناظرة دون استظهار البيّنات التي ترضي العقل وتملأ القلب قناعة. والطريق إلى اختبار ذلك هو في جواب السؤالين التاليين:

١ ـ ما هي أوجه الإعجاز القرآني؟

٢ ـ ما هي دلائل هذا الإعجاز؟

ومع اختبار أوجه الإعجاز القرآني ودلائلها سيكون حديثنا التالي..

الفصل الأول

الإعجاز البلاغي

﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]
وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلا
(الوليد بن المغيرة)

بين خيارين.. براعة شاعر أم إعجاز باهر؟

كانت معجزات كلّ الأنبياء رهينة مشاهدتها عيانًا أو بلوغ خبرها بالأسانيد القويّة الأجيال اللاحقة، وهو ما يعني أنّ اختلال الجانب الإسنادي في نقل أخبار هذه المعجزات يمنع تصديق نبوّة هؤلاء الأنبياء الكرام لتعذّر العلم بوقوعها لمن كان العلم بالخارقة هو الداعي الوحيد أو الحاسم عنده لقبول نبوّة النبيّ..

وقد كانت المعجزة الكبرى لنبيّ الإسلام ﷺ القرآن، فقد قال ﷺ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

يطرح المسلم البرهان التالي استدلالًا بإعجاز القرآن على نبوّة نبيّ الإسلام ﷺ:

١ ـ المعجزة من أعظم بيّنات النبوّة[2]، وهي ثابتة في وصف القرآن

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (ح/٤٦٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا (ح/١٥٢).

(٢) التحدّي القرآني مقصور على جانبه البلاغي، فلم يُطلب من خصوم الإسلام غير كلام في مبلغ =

الكريم، إذ المعجزة هي ما يجري على يد نبيّ ويتّصف بأنّه: أمر خارق للسُّنن الكونية، سالم عن المعارضة[1]، لا يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتي بمثله.

٢ ـ تحدَّى القرآن الإنس والجنّ جميعًا أن يأتوا بمثله.

٣ ـ ثبت عجز الناس جميعًا عن الإتيان بمثله.

٤ ـ القرآن معجزة.

٥ ـ القرآن حجّة على نبوّة محمّد ﷺ.

وقد اعترض المخالفون على البرهان السابق بقولهم:

١ ـ القرآن كتاب فصيحٌ لرجل من العرب بليغٍ عاش في القرن السابع.

٢ ـ ليس في القرآن ما هو خارق للسُّنن الكونيّة، والبلغاء قادرون على الإتيان بمثله.

٣ ـ القرآن ليس معجزة.

الإعجاز القرآني.. تحت الاختبار:

القرآن معجزة نبي الإسلام ﷺ الأولى، وقد تُحدّي به العالم، فعجز الجميع أن يأتوا بمثله منذ نزوله إلى اليوم. ووجه الإعجاز فيه بلاغته التي لا تُضاهى. وقد عجز العرب الفصحاء وهم أهل البلاغة ومظنّة المعارضة، وبعجزهم قامت الحجّة على العالمين.

قد يقول المخالف: . . تلك دعوى عريضة، فأين برهانها الحاسم؟!

إنّ إعجاز القرآن معارضٌ بنقود تنفي ما يزعمه المسلمون من فرادة وربّانية، **وهي**:

= بلاغة القرآن أو قريب من ذلك. أمّا ما يُعرف بالإعجاز الغيبي والتاريخي والعلمي فهو من خوارق القرآن الدالة على ربانيته لكنّها أوجه ليست من جنس المتحدَّى به. واستعمال عبارة «الإعجاز الغيبي» و«العلمي». . . في كتابنا هذا هو من باب التجوّز في العبارة (انظر صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، عمان: دار عمار، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ص١٠٥ ـ ١١٨).

(١) لا يلزم أن يتحدّى به النبي الناس، لكن يجب ألا يكون في قدرة الناس أن يأتوا بمثله.

١ ـ القرآن كتاب شاعر بليغ، برع في ما برع في أهل عصره، وهو الكلام الموزون المُقفّى.

٢ ـ صحيح أنّ القرآن قد بلغ في حسن النظم درجة عليا، أو كما قال المستشرق (أ. ج. أربري)[1]: إنّه واحد من أعظم القطع الأدبيّة في تاريخ البشريّة[2]، إلا أنّ بلاغة القرآن هي من جنس ما كتبه (المتنبيّ) العربي أو (شكسبير) الأعجمي؛ أي: البارع في الصنعة الأدبيّة، فإنّ الرجل قد يبلغ مرتبة من البراعة والتميّز في باب من الأدب، شعرًا أو نثرًا، قصّة أو خطابة، فلا يدانيه أحد من أقرانه، وإن قاربوه، فلمَ لا يكون القرآن ـ في ضوء ذلك ـ ككلّ قطعة أدبيّة نادرة عزيزة التقليد مثل إلياذة (هوميروس) وسونيتات (شكسبير)؟

٣ ـ لم يبلغ التحدّي القرآني لأهل اللسان العربي أقصاه، وقد كان على القرآن أن يقدّم التحدّي بالمعارضة على صورة أقوى لإثبات عجز الخصوم.

٤ ـ لِمَ لا تكون المعجزة الكبرى لنبي الإسلام متاحة في كلّ عصر، فهذه المعجزة قامت في عصر قديم، ونحن نحتاج معجزة نملك اختبارها بأنفسنا. إنّ المعجزة اللغوية بعيدة عن حِسّنا بعد أن فقدنا سليقة اللسان العربيّ الأوّل!

٥ ـ لم يقل بإعجاز القرآن غير من نشؤوا على الإسلام وتحمّسوا لهذه المعجزة المزعومة.

قلت: الاعتراضات السابقة هي غاية ما انتهى إليه المنكرون لإعجاز القرآن، وليس بعدها شيء من النقود الهامة مهمل. وإذا كنّا قد أفسحنا للمعترض مجالًا لعرض الدعوى، فليفسح لنا المجال لعرض ما ننكره عليها..

١ ـ القرآن والظاهرة الشعرية:

حسنُ البيان في صناعة اللغة بما يفوق عادة أهل الزمان ويبزّ الأكابر والمبرّزين ليس أثرًا عفويًّا للطفرات العمياء، وإنّما هو حصيلة جهد واجتهاد،

---

(١) أ. ج. أربري A.J. Arberry (١٩٠٥ ـ ١٩٦٩م): مستشرق ومترجم بريطاني. درّس في جامعة كمبردج وجامعة القاهرة. صاحب ترجمة إنجليزية شهيرة للقرآن الكريم.

(٢) Arthur John Arberry, *The Koran Interpreted* (Oxford: Oxford University Press, 1982), p.x.

وتجربة ومِراس، يترقّى بها المُجدّ الدرجات ويهذّب فيها الملَكات، فكيف لرجل أن يأتي بكلام بليغ، في حدود البلاغة الممكنة عند عرب القرن السابع الميلادي، إلا أن يكون قد أتقن أهم باب من أبوابها، وهو باب الشعر؛ فإنّ صناعة البلاغة من صناعة الشعر، وإن كان للخطابة أيضًا نصيب، لكنّ الخطابة كانت فعلًا موسميًّا، محدود الأثر، ضيّق المجال.

لقد كان الشعر البوّابة الكبرى لمن أراد أن يخرج إلى الناس في صورة البليغ الذي لانت له عريكة الكلام، وأتقن فنون التصوير والتعبير عن المعاني الجميلة والقيم النبيلة.

وقد أدرك خصوم نبي الإسلام ﷺ ضرورة ارتباط الإعجاز البياني القرآني بالشعر والتمكّن من أسبابه وفنونه، ولذلك تكرّرت تهمة ارتباط القرآن بصناعة الشعر، وأنّ آيات القرآن هي من جنس الشعر، وإن كانت في مرتبة عليا لا تدرك في حدود العادة، قال تعالى ناقلًا تهمتهم: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥].

وقد علم المناوئون أنّ هذا الكتاب ليس من الشعر الصرف، المجرّد، ففي الكلمات وانتظامها، والمعاني وجلالتها، قدرة «ساحرة» تشلّ في النفس رغبة المقاومة والمنازعة، وتأتي بها مستسلمة دون عناد، فزادوا على تهمة إتقان الشعر، ممارسة الكهانة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣].

ويحسم القرآن كلّ هذا الجهد في التشويه والمكر بسمعة نبي الإسلام ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]. وسواء صدّق السامع أنّ القرآن منحة ربّانيّة أم افتراء بشري، فعليه أن يصدّق شهادة القرآن أنّ (محمّدًا) ﷺ لم يمارس الشعر من قبل، إذ يشهد القرآن لهذا الأمر في محضر كفّار مكّة الذين يعرفون الشاعر الممارس لهذا الفن ممن لم يقرض الشعر يومًا؛ فلم يكن أمر نظم الشعر من خفايا المعارف، وإنما كان الناس يتبارزون فيه ويتطاولون به في كلّ محفل.

يقول (الرافعي) في حال نبيّ الإسلام ﷺ وممارسة الشعر: «[مع] كونه أفصح العرب إجماعًا، لم يكن ينشد بيتًا تامًّا على وزنه، إنّما كان ينشد الصدر أو العجز فحسب؛ فإن ألقى البيت كاملًا لم يصحّح وزنه بحال من الأحوال، وأخرجه عن الشعر فلا يَلتئم على لسانه.

أنشد مرّة صدر البيت المشهور لـ(لبيد)، وهو قوله:

* ألا كلّ شيء ما خلا اللَّه باطل *

فصحّحه، ولكنّه سكت عن عجزه «وكلّ نعيم لا محالة زائل».

وأنشد البيت السائر لـ(طرفة) على هذه الصورة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا ويأتيك (من لم تزوّد) بالأخبار

وإنّما هو: «ويأتيك بالأخبار من لم تزوَّد».

وأنشد بيت العباس بن مرداس فقال:

أتجعل نهبي نهب العبيـ د بين الأقرع وعيينة...

فقال الناس: بين عيينة والأقرع. فأعادها عليه الصلاة والسلام: «**بين الأقرع وعيينة**». ولم يستقم له الوزن.

ولم تجر على لسانه ﷺ ممّا صحّ وزنه إلا ضربان من الرجز المنهوك والمشطور. أما الأوّل فكقوله في رواية (البَراء): إنه رأى النبي ﷺ على بغلة بيضاء يوم أُحد ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدِ المطلب

والثاني كقوله في رواية (جندب): إنه ﷺ دَمِيَت أصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبعٌ دميتِ وفي سبيل اللَّه ما لقيتِ

وإنما اتفق له ذلك؛ لأن الرجز في أصله ليس بشعر إنما هو وزن؛ كأوزان السجع؛ وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب، يتراجزون به في عملهم وفي لعبهم وفي سَوقِهم، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء، فقد يتّسق لهم الرَجزُ الكثير عفوًا غير مجهود، حتى إذا صاروا إلى الشعر انقطعوا. وإنما جَعل الرجزَ من الشعر تتابع أبياته، وجمعُ النفس عليه، واستعماله في

المفاخرات والمماتنات ونحوها، وأنه الأصل في اهتدائهم إلى أوزان الشعر... فأمّا البيت الواحد منه، فليس في العرب جميعًا، ولا في صبيانهم وعبيدهم وإمائهم من يأبه له، أو يعدّه شعرًا أو يأذن لوزنه، أو يحسب أن وراءه أمرًا من الأمر: إنّما هو كلام كالكلام لا غير»[1].

وإذا لم يكن (محمد) ﷺ قد دخل عالم الصناعة الأدبية من باب الشعر، ولم يعرف له في ذلك سبق، ولو في القليل منه، فمن أين إذن انفجر النبع البلاغي القرآني، خاصة أنّ المرء إذا كتب لا يخرج مكتوبه عن واحد من سبعة: (١) أن يجد شيئًا مفرّقًا فيجمعه، (٢) أو شيئًا أخطأ فيه مصنّفه، فيصلحه، (٣) أو شيئًا مختلطًا فيرتّبه، (٤) أو طويلًا فيختصره، (٥) أو مستغلقًا فيشرحه، (٦) أو شيئًا ناقصًا يتمّمه، (٧) أو أن يؤلّف من شيء لم يسبق إليه يخترعه[2]. وأعظم ما سبق آخره، وهو أن يأتي المرء بشيء جديد لم يُعرف من قبل، وكذلك كان نسيج القرآن..؟!

تجيبنا المستشرقة (لورا فيشيا فاغليري) بعبارة إنكاريّة جوابًا للسؤال السابق، قائلة: «كيف من الممكن أن يكون هذا الكتاب الرائع عمل محمّد العربيّ الأميّ الذي لم ينظم طول حياته سوى بيتين أو ثلاثة، وليس منها ما يكشف أدنى درجات الصناعة الشعريّة؟!»[3].

إنّ من طبائع المعجزة أن تأتي فجأة بلا تمهيد ولا إرهاص؛ فتصنع الدهشة في الوجوه وتعقد على الألسن فلا تباري في معرض السجال.. وكذلك خرج القرآن من رَحِم الفجأة، فكانت الخارقة.

٢ ـ القرآن.. ظاهرة إعجازية أم مجرّد نادرة أدبيّة؟

قد يقول المعترض: القرآن مجرّد قطعة أدبيّة مميّزة استعلن بها رجل

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م)، ص٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(٢) العبارة لـ(شمس الدين البابلي) المتوفّى ١٠٧٧هـ (محمد أمين بن فضل الله، في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة: ١٢٨٤هـ).

(٣) Laura Veccia Vaglieri, *An Interpretation of Islam*, pp. 40 - 41.

ادّعى النبوّة. وقد ادّعت الأجيال المسلمة اللاحقة أنّه كتاب فريدٌ لا يؤتى بمثله.. بل حتّى لو افترضنا أنّ نبي الإسلام قد قال إنّه لا يقدر أحد أن يأتي بمثله، فإنّ ذلك لا يلزمنا أن نصدّق أنّ العرب قد حملوا هذه الدعوى محمل الجدّ.. لقد انصرف بلغاء العرب عن التحدّي القرآني؛ لأنّهم لم يروا في الأمر ما يستفزّ مشاعرهم للردّ..!

لم يكن التحدّي كما صوّره المعترض في قوله السالف: رجل في مكان ناءٍ، قام يقول لبعض المارّين المنشغلين عنه إلى خاصة أمرهم: عندي كتاب نادر، لا يحسن أحد أن يعارضه.. والناس يسمعون كلامه بلا إنصات جاد، ويغفلون عن تحدّيه لعلمهم أنّه من جنس لغو البطّالين!

يقول الأديب الأريب (الجاحظ) مصوّرًا حقيقة الحال: «بعث الله محمّدًا ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعرًا وخطيبًا، وأحكَم ما كانت لغةً، وأشدَّ ما كانت عُدَّة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته؛ فدعاهم بالحجّة، فلما قطع العذرَ وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحميّة دون الجهل والحيرة، حملهم عل حظهم بالسيف. فنصب لهم الحرب ونصبوا، وقتل من عليّهِم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحًا ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلّما ازداد تحديًا لهم بها، وتقريعًا لعجزهم عنها، **تكشَّف من نقصهم ما كان مستورًا**، وظهر منه ما كان خفيًّا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: **فهاتوها مفتريات**. فلم يَرُمْ ذلك خطيبٌ ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلّفه، ولو تكلّفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارضَ وقابلَ وناقضَ، فدلّ ذلك العاقلَ عل عجز القوم، مع كثرة كلامهم، واستجابة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمته؛ لأنّ سورة واحدة وآياتٍ يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه، وأسرعَ في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من

الأوطان وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على مَن هو دون قريش والعربْ في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخُطبُ الطوال البليغة والقِصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور، ثمّ تحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم. فمحال ـ أكرمك الله ـ أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البيّن مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشدّ الخلق أنفةً، وأكثرهم مفاخرة **والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكَيف بالظاهر الجليل المنفعة،** وكما أنه محالٌ أن يطبقوا ثلاثًا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محالٌ أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه، **وهم يبذلون أكثر منه**»[١].

لقد وقف العرب ـ إذن ـ أمام أعظم تحدٍّ يأكل بنهمة من كرامتهم وشرفهم الأدبي.. وإذا لم يكن هذا هو التحدّي الذي تثبت به حقيقة الإعجاز، فكيف يكون التحدي؟! أسعفونا بالجواب!

قد يقول المخالف:.. نعم.. قد تحدّى القرآن المخالفين، واستفزّ نفوسهم للردّ.. لكن ليس في ذلك برهانٌ لإعجازه؛ إذ قد اجتمعت له من الأسباب التاريخيّة ما جعله كتابًا فريدًا فرادة سونيتات (شكسبير)[٢]، ولكلّ عصر مؤلفاته الأدبيّة النادرة التي من الممكن تفسير تميّزها بخدمة الأوضاع الثقافية والاجتماعيّة لشخصيّة كُتّابها بصقل مواهبهم وتنمية ملكات الإبداع الفكري في نفوسهم.. كلّ شيء قابل للتفسير المادي، حتّى ما يُدّعى من إعجاز القرآن!

ونقول:.. بل كان القرآن في جميع أمره مخالفًا لفرادة سونيتات

---

(١) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي)، ١/ ١٧٣ ـ ١٧٦، نقله عن كتاب الجاحظ: «الحجة في تثبيت خبر الواحد».

(٢) سونيتات شكسبير Shakespeare's Sonnets: مجموعة ١٥٤ سونيتة كتبها شكسبير في معانٍ تدور حول الحب والجمال والأخلاق. والسونيتة هي قصيدة غنائية تتكون من أربعة عشر بيتًا على وزنٍ وإيقاعٍ خاصين.

(شكسبير)؛ فقد تحدّى العرب أهل الفصاحة والذلاقة أن يأتوا بمثله **رغم أنّ كلّ ما احتفّ به من تفاصيل وسياقات تاريخيّة تمنع أن يبلغ الحدّ المتوسّط من البلاغة**، فضلًا عن أن يبلغ أعلى درجاتها البشريّة؛ فهو كتاب يأبى التفسير المادي **لأمور**:

الأمر الأوّل: القرآن كتاب أظهره للناس رجل أميّ لم يجلس ليتعلّم القراءة أو الكتابة، ولا تلقّى دروسًا في صناعة الأفكار وتحبيرها، وتأصيل الدرس اللاهوتي وترتيبه. وأمّا (شكسبير) فقد دخل المدارس وتعلّم اليونانيّة واللاتينية، وكانت الكتب متوافرة أمامه يأخذ منها ويذر، كما التقى المدرّسين المبرّزين وأخذ عنهم، وتصفّح الكتب الوفيرة واغترف منها.

الأمر الثاني: نبي الإسلام ﷺ لم يتعلّم الشعر، ولم ينظمه، ولم يشتهر به. ومعرفة الشعر وإتقانه، مقدمةٌ ضرورية لدخول عالم الأدب، ولذلك جاءت الآيات في نفي معرفة الشعر عن النبيّ ﷺ قاطعة للريبة ونافية للتهمة في محضر الصديق والخصم الذين عرفوا تفصيل حياته ومدارج عمره: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]، وأمّا (شكسبير) فلم يبلغ الثلاثين من عمره حتّى صار معدودًا من الكتّاب المسرحيين المجيدين. ولم يبلغ مرتبة احتراف الكتابة حتّى قطع شوطًا واسعًا في إتقان الصناعة الأدبيّة. ومعلومٌ ما في الروايات والمسرحيات في تلك الفترة من جمع بين النثر والشعر، خاصة الشعر الغنائي.

الأمر الثالث: لم ينافس نبي الإسلام ﷺ قومه أو غيرهم من قبلُ في فنون البلاغة. ولم يعرف العرب عبقريّة الشعر تلمع بارقتها في ليلة أو ضحاها. وأمّا (شكسبير) فقد تفرّغ للكتابة المسرحيّة حتى صارت له وظيفة. وباب الاحتراف في البيئة اللندنيّة يقتضي منافسة الكتّاب البارعين، ومحاولة إثبات الذات في عالم الأدب الموّار بتناطح الأقران.

الأمر الرابع: فنّ السونيتات عُرف قبل (شكسبير) بقرون، ومارسه كثير من الأدباء؛ ولذلك وجد (شكسبير) في تجربة سلفه مقدّمة ثريّة يبني عليها بناءه الجديد، أمّا القرآن، فنسيج وَحْدَه، لم يعرف العرب من قبلُ نظمه ولا فكرته.

الأمر الخامس: سونيتات (شكسبير) لم تبلغ من الجمال مبلغًا واحدًا، وإنّما البراعة فيها تتفاوت؛ فمرّة تعلو، وفي أخرى تسفل دون ذلك. وأمّا القرآن، فقطعة واحدة من البيان المعجِب. يقول الإمام (حازم القرطاجني) عن القرآن: «إنّ الإعجاز فيه من حيث استمرّت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمرارًا لا توجد له فترة[1]، ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلّم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلّا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه، والفترات في الفصاحة تقع للفصيح، إما بسهو يعرض له في الشيء من غير أن يكون جاهلًا به، أو من جهل به، أو من سآمة تعتري فكره، أو من هوى للنفس يغلب عليها فيما يحوش عليها خاطره، من اقتناص المعاني سمينًا كان أو غثًّا، **فهذه آفات لا يخلو منها الإنسان الفاضل والطبع الكامل**»[2].

الأمر السادس: قال بلغاء مكّة لنبي الإسلام ﷺ: إنّ هذا الكتاب من بنات أفكارك، فتحدّاهم صراحة أن يأتوا بمثله، وأشهرَ هذا التحدّي في كلّ مكان بلغه صوته، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣ ـ ٣٤]. ولم يتحدّ (شكسبير) أحدًا. وما كانت كتاباته تبدو لأهل عصره في مقام ما لا يُنال بالاجتهاد والمصابرة، وإنّما هي عندهم متقدّمة تقدّم الفاضل على المفضول في معترك الأقران، وللجاد أن يطمع في المباراة والمساماة. وقد قورِن ـ واقعًا ـ أدب (شكسبير) بما كتبه (فرنسيس بومونت)[3] و(جون فْلِتْشر)[4] وغيرهما من الأدباء[5].

---

(١) الفترة: الانقطاع والضعف.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار التراث، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، ص١٠١.

(٣) فرنسيس بومونت Francis Beaumont (١٥٨٤ ـ ١٦١٦): كاتب مسرحي إنجليزي شهير. من أهم ما كتب «The Knight of the Burning Pestle».

(٤) جونن فلتشر John Fletcher (١٥٧٩ ـ ١٦٢٥): كاتب مسرحي إنجليزي. ألّف أكثر من خمسين قصّة مسرحية في مختلف أنواع الفن المسرحي. اشترك مع (شكسبير) في كتابة مسرحية «The Two Noble Kinsmen».

(٥) P. Holland, (2013) Shakespeare, William (1564-1616). Oxford Dictionary of National Biography. Oxford University Press. <http://dx.doi.org/10.1093/ref:odnb/25200>

الأمر السابع: أغلظ نبي الإسلام ﷺ على قومه التحدّي، ومسّ منهم صميم عزّهم وفخرهم، فقد **هدّدهم بالنار إن لم يستجيبوا، وسوّاهم بالأحجار إن أعرضوا، ورماهم بالكفر إن عاندوا**: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤]، وهم قوم أهل عناد ومِراء، فقد وصفهم القرآن أنّهم: ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٥٨] وقال فيهم: ﴿قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧]. وكان القرآن يفخم أمر إعجازه كلّ مرّة بما يلهب أنفس السامعين؛ فيقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧]، و﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣]، و﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]... وهي آيات تستحث القوم إلى المباراة، ولو لم يقترن بها تحدٍ، فكيف والتحدّي مرفوعة أعلامه، قائم أذانه؟!

لم يستجب أحد من المخالفين رغم حدّة التحدّي وحرارة الاستفزاز. قال القاضي (عياض): «فَلَمْ يَزَلْ يُقرّعُهُم ﷺ أَشَدَّ التَّقْرِيعِ وَيُوَبّخُهُمْ غَايَةَ التَّوْبِيخِ وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ وَيَحُطُّ أَعْلَامَهُمْ وَيُشَتّتُ نِظَامَهُمْ وَيَذُمُّ آلِهَتَهُمْ وَإِيَّاهُمْ.. وَهُمْ فِي كُلِّ هَذَا نَاكِصُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، مُحْجِمُونَ عَنْ مُمَاثَلَتِه، يُخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّشْغِيبِ بِالتَّكْذِيبِ، وَالْإِغْرَاءِ بِالافْتِراءِ، وَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، و﴿فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فُصِّلَت: ٥]، و﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فُصِّلَت: ٥]، و﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلَت: ٥]، و﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٢٦]، والادعاء مع العجز بقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ [الأنفال: ٣١]، وقد قال لهم الله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]، فما فعلوا ولا قدروا»[1].

ولم يبدِ (شكسبير) لمعاصريه تسفيهًا لعقولهم أو لأدبهم، أو أنّ ما يسطرون لغوٌ إذا قيس بما كتب، ولا هو طلب أن يكون له الأمر (الأدبي، والسياسي...) بما قرضت يداه من شعر سونيتات.

---

(١) القاضي عياض، الشفاء (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م) ١/ ٢٦١.

الأمر الثامن: لم يزعم أحد لسونيتات (شكسبير) صفة فوق طبيعية، فهي عند محبّي أدبه أثرٌ عن ذكاء عقل ورهافة حس. وأمّا القرآن، فقد وصفه خصوم نبي الإسلام ﷺ وشانئيه أنّه من جنس السحر، و**السحر ليس من كسب العقول وإنّما هو ـ عندهم ـ فيض من فعل كائنات خارقة، هي الجنّ**.

ولـمّا أراد واحد من زعامات الكفر أن يقول في القرآن ما يكشف أصله، ويفضح سرّه، اجتهد كل الاجتهاد، ثم نفى بشريّته وقال بسحريّته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدّثر: ١٨ ـ ٢٥].

وقال أهل مكّة أيضًا ـ بعد طول عداوة ومشاجرة ـ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: ٤٣]، كما أبدوا ما يُظهر خوفهم من الأثر «السحري» لآيات القرآن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٢٦]. قال (مجاهد): «﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾؛ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن»[١]، فهم متحيّرون في أمرهم، متعجّبون من عجزهم.

وقد كان الأثر فوق الطبيعي للقرآن داعيَ (أنيس الغفاري) الشاعر إلى الإسلام، حتّى قال لـمّا سمع القرآن أوّل مرّة: «لقد سمعتُ قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنّه لصادق وإنّهم لكاذبون»[٢].

الأمر التاسع: توفّرت الأسباب الماديّة لِلفرادة في سونيتات (شكسبير): إطلاق القلم للشاعر ليختار الموضوع، ويرسل قلم البيان وجياد الخيال، وينظم القصائد لتكون كلّ واحدة قطعة واحدة، وهو يعلم سلفًا مبدأ القصيدة ومنتهاها.. وليس القرآن كذلك؛ لأسباب، **منها**:

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي السلامة (الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩)، ٧/ ١٧٤.

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه (ح/ ٢٤٧٣).

١ ـ عامة مواضيع القرآن لاهوتيّة وفلسفيّة (في جواب الأسئلة الوجوديّة) وتشريعيّة وتاريخيّة.. وليس للخيال مرتع فيها.. فهي مواضيع جافة، ويلزَم صاحبها أن يكون عميقًا، ودقيقًا، وصادق التعبير والتصوير.. وقد قال العرب قديمًا: «أعذب الشعر أكذبه»؛ لأنّ اللغة العذبة والخيال الممتع اللذيذ يأبيان حدود الجدّية الصارمة والصدق الحرِج. ومن شواهد التاريخ لذلك أنّ شعر (لبيد بن ربيعة) و(حسّان بن ثابت) رضي الله عنهما قد نزل لمّا أسلما، وفقد كثيرًا من عذوبته التي كان عليها أيام شعر الجاهليّة بالتغنّي بكلّ وجه مليح، ومنظر مريح، مع الإبحار على متن الخيال في صناعة الصور الرائقة أو المثيرة للنفس.

٢ ـ كثير من الآي المكيّ مرتبط بالصّراع العقدي مع الوثنيّة، وبيان وجوب إفراد الربّ بالعبادة، وكثير من الآي المدنيّ مرتبط بالردّ على اليهود، وتنظيم الشرائع.. وليس لبليغ الأدب انجذاب إلى المساجلات العقديّة وتعقيداتها، ولا التشريعات وحدود الأمر والنهي فيها؛ فالعادة عند الجدّ أن تنضب نداوة الكلمات وتتجمّد الصور؛ فلا حرارة ولا إمتاع.

٣ ـ الإعجاز في القرآن ثابت لكلّ سوره، وأمّا السونيتات فمحلّ البلاغة أو البراعة فيها متغيّر، وهذا حال كلّ أديب، كلامه بين علو وانحطاط، ودنوٍّ وقصور، لا يصيب غاية المطلوب إلّا في بعضه؛ فهذا شعر (امرؤ القيس) يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل، وشعر (النابغة) عند الخوف، وشعر (الأعشى) عند الطلب ووصف الخمر، وشعر (زهير) عند الرغبة والرجاء، وهو دون ذلك في غيره.

٤ ـ كثير من آي القرآن مرتبط بسؤال طارئ أو خَطْب بارق، بما يُقيّد البيان القرآني بحدود الأمر الحادث.

٥ ـ كثير من المواضيع القرآنية تَكَرَّرَ بسطها مرّات عديدة؛ كالدعوة إلى التوحيد، وذكر اليوم الآخر، وخبر بعض النبيين. والمحافظة على أعلى درجات البلاغة عند تناول نفس الموضوع مرّات متتالية، ليس من مألوف صناعة الأدب؛ فإنّ التكرار فاضح لعجز الشاعر عن المحافظة على أعلى ما أصاب من الفصاحة.

٦ ـ القرآن كتاب ديني يخاطب ـ ضرورة ـ الصغار والكبار، والملأ والعامة، والنبهاء وأوسط الناس ذكاءً، والعرب والعجم، وأهل الزمان والقادم من الأجيال.. على خلاف القطع الأدبيّة التي تكتب لطبقة مخصوصة من القرّاء أو السامعين، فمن بلغ ذهنه فهمها، فحيهلا، ومن قصر فهمه عن ذلك، فلا مرحبًا! والناظر في القرآن يُدرك أنّه سبيكة واحدة فخمة، تخاطب العقول على تفاوتها، والقلوب على اختلافها، والأجيال على تباعدها.. فإذا تأثيره واحدٌ.. لا يبهت له لون، ولا يخفض له صوت.

٧ ـ نزلَ كثير من آي القرآن متأخّرًا عن نزول المقاطع المبكّرة لِذات السُوَر، فهو طارئ على شكل ما نزل أولًا بما يدعو إلى التشويش على انسياب المواضيع والدفق السلس لتطوّر الدعوة. والقرآن مع ذلك قطعة واحدة؛ إذ تبدأ الدعوة بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزّمل: ١ ـ ٢] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدّثر: ١ ـ ٢] وتنتهي بـ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ويأتي الأمان باستمرار الدعوة في أثنائها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٧﴾ [المائدة: ٦٧].

٨ ـ أعراض نزول الوحي ليست محلًّا لتفتّق الذهن عن بديع الكلام ولا طريف الأفكار، فقد كان نبيّ الإسلام ﷺ يربدّ وجهه، ويضيق حاله، ويعرق بشدّة في اليوم شديد البرد، ويثقل وزنه فجأة.. وهذا مقام معاناة وشدّة لا موقف إبداع في سياق راحة واسترخاء.

سياقات ظهور النص القرآني وحيثياته تمنع ـ في مجرى العادة ـ اتّصافه بالقدر المتوسّط من البلاغة المُعجِبة.. وذاك إمعانٌ في إظهار حقيقة المعجزة!

الأمر العاشر: فَرادة الأدب الشكسبيري هي تميّزه في كليّته، لا في قطعة واحدة منه، وأمّا نبي الإسلام ﷺ، فلم يتحدّ قومه إلّا بكتاب واحد فقط، ثم تنزّل معهم في التحدّي كمًّا ثم كيفًا:

١ ـ لقد تحدّاهم (والجنّ) ـ وقد كانوا يؤمنون أنّ للشعر شيطانًا جنيًّا سمّوه «عبقرة» ـ أن يأتوا بكتاب مثل القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢ ـ ولمّا لم يستجيبوا، عمد إلى استفزازهم بتذكيرهم أنّه إن كان ـ بزعمهم ـ قد افترى هذا القرآن من عنده، فليفتروا هم أيضًا عشر سور فقط. ووصمهم بالعجز والكذب. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣]. وفي وصف السور العشر «بالمفتريات» تبكيت وتقريع للمشركين المعاندين؛ إذ الافتراء: الكذب الذي لا شبهة لصاحبه، فهو الكذب عن عمد[١]، والإتيان بالشيء: جلبه، سواء كان بالاسترفاد من الغير أم بالاختراع من الجالب، وهذه توسعة عليهم في التحدّي[٢]. ومعنى ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾: أنها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن؛ أي: بمثل قصص أهل الجاهلية وتكاذيبهم. وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي، فالمماثلة في قوله: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته لا في سداد معانيه[٣].

٣ ـ ثمّ ذكرهم أنّهم يقولون: إنّه افترى القرآن من عنده، فليأتوا ـ إذن ـ بسورة واحدة مثله. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

٤ ـ وبلغ التحدّي أقصاه باشتراط أدنى مطلوب لقيام شكل معارضةٍ التحدّي، وهو أن يأتوا بسورة واحدة «من» مثل القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]. وأعقب ذلك مباشرة بالتهديد الجارح لعزّتهم ببيانهم، والمستفزّ لآخر بقيّة من فخر وكرامة في صدورهم حتّى

---

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م)، ١٢/١٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

يخرجوا إلى ساح النزال، واستعراض ملكاتهم اللغوية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤]. ولم يكن التحدّي في أمر الفوز برتبة «بليغ العرب»، وإنّما في سباقٍ مآله هدم عقائد العرب، والإذعان لنبوّة من جاء بالقرآن، ومتابعته في كلّ أمر ونهي، وتصديقه في كلّ خبر.

وقد بلغ التحدّي في آخر مراحلة أدنى ما يمكن أن يُطلب في مقام المغالبة، وليس وراء ذلك لمسمّى «التحدّي» نصيب، وهو أن يُؤتى بسورة واحدة، ولو كانت قليلة الكلمات ضيّقة المعنى، تكون «من مثل» القرآن. فالمطلوب صغير حجمًا، بلا مطابقة كيفًا.

من الخطأ الظنّ أنّ التحدّي القرآني هو أن يأتي المخالف بكتاب في حجم القرآن كمًّا، وفي بلاغته وبيانه كيفًا.

التحدّي القرآني هو في طلب كلام في حجم أدنى سورِ القرآن طولًا، ومقارب في بلاغته وبيانه له، دون حدّ المطابقة.

وإذا حدّثتك نفسك أنّ التحدّي القرآني لم يبلغ بالإحراج آخره، وأنّه لا يزال في فسيح التحدّي باب للتنزّل! فقل لها: هاتِ إذن ما عندكِ من مزيد على أن يبقى لمفهوم التحدّي معنى يليق بمبناه؟

القرآن يقول لصناديد مكّة في معرض النزاع والنزال، والقلوب متنافرة بعد ألفة، وقد أُشرعت سيوف الحرب الرَهِقة لحرب الدم والمال والسمعة، وتقلقلت عروش الجاه والمال وموروث الأنساب: «هاتوا سورة واحدة، ولو قَلّ حجمها حتّى لو كانت في بضعة أسطر، وكان مبناها في شَبَهٍ ـ لا مطابقة ـ لمبنى القرآن.. واعلموا يا أهل الكفر والعناد أنّكم لن تنالوا من سعيكم غير الخسران، والفضيحة بين العرب في الدنيا، والعذاب يوم القيامة».

هكذا تحدّث القرآن في شأن التحدّي الذي وضع به آياته محلّ الاختبار. ورغم خطورة مآل هذا الاستفزاز على مستقبل هذا الدين وجماعة المؤمنين إلا

أنّ القرآن ارتفع بالتحدّي الملهب لحماسة المخالفين إلى أيسر ما يُطلب من المخالف عند التباري الأدبيّ. .

قد يقول المخالف: لعلّ التاريخ لم يحفظ لنا المعارضات الناجحة للقرآن!

ونقول: نقل القرآن اعتراضات المشركين، وكرّر خبر كبيرها وصغيرها. ولو كان في المعارضات ما هو أهل لفخر أهل مكّة لشاع خبر الاستشهاد به، ولألزِم القرآن أن يردّ عليه، لا أن يكرّر القرآن عرض التحدّي ونقل عجز بلغاء المشركين دون نكير من المخالفين. ولذلك قال المستشرق (إ.هـ. بلمر)[1]: «مسألة عدم نجاح أفضل الكتّاب العرب في إنتاج أيّ شيء قريب في الخصاصة من القرآن نفسه ليس شيئًا مفاجئًا»[2].

إنّ شرط الأمر المعجز المفارق للصنائع الباهرة للأذكياء هو أن يبلغ فيه أن «يبهر ويقهر، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة، وتخرس الألسن عن دعوى المداناة، وحتى لا تحدِّث نفس صاحبها بأن يتصدى، ولا يجول في خلد أن الإتيان بمثله يمكن، وحتى يكون بأسهم منه، وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كلّه»[3]. وكذلك كان حال القرآن مع خصومه. . وأمّا فعل كلّ بليغ فإنّه عن ذلك بعيد، فإنّه يباري أهل زمانه فيما برعوا في نظمه، مع شيء من التقارب واضح بين المتنافسين؛ فقد بارى (امرؤ القيس) (علقمة الفحل)، وتناديا: «أيّنا أشعر؟»، وكذلك كان الحال مع «جرير» و«الفرزدق»، وفاضل الناس طويلًا بين «أبي تمّام» و«البحتريّ» فما انتهوا إلى حسم لتداني بلاغة الأقران. . .

لقد ثبت العجز الأدبي في مواجهة التحدّي القرآني، واختار أهل اللسان

---

(١) إدوارد هنري بلمر Edward Henry Palmer (١٨٤٠ ـ ١٨٨٢م): مستشرق ومستكشف بريطاني. عمل في خدمة الاستعمار البريطاني لمصر. من مؤلفاته: "Arabic Grammar".

(٢) E. H. Palmer, tr. *The Qur'an* (Oxford: Clarendon Press, 1900), p. lv.

(٣) الجرجاني، الرسالة الشافية في الإعجاز، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمّاني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص١٢٩.

الذي لان لهم حديد البيان خيار السِّنان، واستجابوا لداعي المغالبة المادية، فقاطعوا نبيّ الإسلام ﷺ وشيعته اقتصاديًّا، ونكّلوا بأصحابه، وصارموا أنصاره من أهل المنعة، ومنعوا صوت القرآن أن يصدح به أحد في مكة، ونهوا الوافدين إلى مكة عن الاستماع لآياته، ونظموا حملتهم الإعلامية التشهيرية، فقالوا: إنّ صاحب القرآن كاهن أو ساحر يريد أن يفرّق الأحبّة بسحره، وسعوا إلى تثبيته بالسجن، أو إخراجه بالقهر، أو قتله غيلة، وانتهوا إلى حمل السلاح واستباحة الدماء، رغمّ أنّ المغالبة الأدبية أقلّ تكلفة وأيسر مؤنة، وأثرها مباشر في القضاء على الدين الوليد.

فانظر، وأعد النظر! هل ترى أنّ القوم استبقوا وسيلة للمكر بالقرآن وصاحبه؟! لقد رضوا بكلّ تكلفة، واستفرغوا كلّ جهد، ولم يدّخروا مالًا ولا سلطانًا لبلوغ غرضهم، وتنازلوا عن مروءة العروبة وصدق الفحولة ـ وذاك على العربي عزيز ـ لئلّا تبلغ كلمة القرآن آذان الرجال وقلوبهم.. ولو أمكنهم معارضة القرآن في ساح البلاغة لاستجابوا دون تلكؤ ولا تبطّؤ، ولأطلقوا اللسان دون تلعثم ولا استحياء!

٣ ـ لكن لم يبلغ الإعجاز أقصاه؟!

قد يعترض المعترض فيقول: نعم، قد تنزّل القرآن في التحدّي إلى أدنى الدرجات مع المخالفين، لكن كان في الوسع المزيد على ذلك ليطمئنّ قلب الشاك ولا يرتاب في أنّ أهل البلاغة قد عجزوا كل العجز أمام التحدّي المستفز!

وجواب ذلك ـ كما سبق ـ أنّ التحدّي القرآني قد فتح باب المعارضة واسعًا، وألهب مشاعر المخالفين حتّى احترقت غيضًا، وتنزّل في التحدّي إلى أدناه.. ولعلّك مع ذلك تحتاج أن تعرف صورة التحدّي كما صنعه القرآن في صورته الكبرى؛ لتدرك أنّ القرآن لم يذر سبيلًا للنزول بمعنى التحدّي إلّا وسلكه لتحقيق الأوجه القصوى لإثبات إعجازه دفعًا لأدنى ريبة عن مصدره العُلوي. وهو ما ستظهر معالمه بصورة أجلى إذا نظرنا إلى حال نبيّ الإسلام ﷺ وكتابه وبيئتهما:

١ ـ أدنى المعارف العلميّة المكتسبة لمن تحدّى قومه ـ بل العالمين ـ بالقرآن: الأمّيّة.

٢ ـ أدنى الملكات الأوّلية: لم يمارس نبيّ الإسلام ﷺ الشعر من قبل القرآن ولا من بعده.

٣ ـ أبعد المواضيع عن طابع الإبداع البلاغي: الجدل العقدي والخبر التاريخي والتقرير التشريعي في القرآن.

٤ ـ نظمٌ على طريق جديد يخالف معهود الشعر والنثر: من المعلوم أنّ أعسر أبواب الإبهار الأدبي أن تجعل الجديد الطريف مقبولًا مألوفًا. ولذلك قالت (أنجليكا نويفرت)[١] ـ زعيمة المستشرقين الألمان اليوم: «أعتقد ـ حقًّا ـ أنّ القرآن قد أوقع الباحثين في الغرب في حرج؛ إذ لم يتمكّنوا من تفسير الظهور المفاجئ للقرآن بغِناه في الأفكار وبيانه البديع في بيئة لم يكن فيها سابقًا أيّ نص مكتوب مبجّل»[٢].

٥ ـ العصر الذهبي للبيان العربي: نزل القرآن في عصر وبيئة كان الشعر فيها يخفض أقدار الرجال ويرفع، وفي حَرْفِهِ المجد، وعند حَدِّه العار.

٦ ـ أمّة **تميّزت** عن غيرها بظاهرة «**شعر النقائض**»: نزل القرآن في أمّة من الناس مولعة بالمعارضات الشعريّة لأشهر القصائد؛ فكانت المعارضات لها بذلك سُنَّة مألوفة وعادة مركوبة. وكان التحدّي القرآني بذلك يجري في مضمار تلك الظاهرة المألوفة في سوق الأدباء. ومعلومٌ ـ عامةً ـ أنّ صنائع الأدب في كلّ أمّة أنّه إذا استُحسنت اتُّبعت، وإذا استُملحت قصدت؛ فكيف والعرب في القرن السابع قد اتّخذوا المعارضات الشعريّة سُنّة أدبيّة؟!

---

(١) أنجليكا نويفِرت Angelika Neuwirth (١٩٤٣م ـ): أستاذ الدراسات القرآنية في «الجامعة الحرة» ببرلين. مديرة مشروع جمع النُسخ القرآنية "Corpus Coranicum". من مؤلفاتها: "Der Koran als Text der Spätantik".

(٢) شهادة شفهية مباشرة (ومسجّلة) من هذه المستشرقة للداعية البريطاني/اليوناني (حمزة تزورتزس):
Hamza Andreas Tzortzis, God’s Testimony: The Inimitability & Divine Authorship of the Qur’an.
<http://www.hamzatzortzis.com/2191/gods-testimony-the-inimitability-divine-authorship-of-the-quran/>.
المعلّقات السبع كانت أشعارًا تمّ تناقلها مشافهة، ثم تكريمها كتابة، ولذلك لا تدخل في جنس ما عنته هذه المستشرقة.

٧ ـ اقترن التحدّي بأقصى صور الاستفزاز النفسي: تهديد المخالفين بالنار (في الآخرة) ومحاربتهم بالسنان (في الدنيا) ونزع سلطانهم السياسي ومجدهم العائلي.

٨ ـ قبول أدنى صور المعارضة حجمًا: سورة واحدة من القرآن، وقد علمتَ أنّ كثيرًا من القرآن المكيّ قليلة كلماته ومحصورة معانيه.

٩ ـ أدنى أوجه المعارضة طبيعة: سورة واحدة فيها شَبَه من القرآن، فلم يشترط القرآن مطلق المشابهة.

١٠ ـ أضعف صور المعارضة: قصَر القرآن المعارضة على الجانب البلاغي الشكلي لا المضمون، فقد وصف السور العشر المطلوبة أنّها مفتريات؛ أي: مكذوبة، فهي معارضة في باب البيان لا صدق المعاني.

١١ ـ أقصى صور المعارضة عددًا: قبول تضافر جهود البلغاء للإتيان بمثل القرآن، وعدم قصر التحدّي على الأفراد كلٌّ على حدة. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

١٢ ـ أقصى صور المعارضة زمنًا: فتح باب التحدّي مع الإمهال إلى غير أجل.

وقد وُصِف القرآن من الكافرين به ـ بعد كلّ ما سبق ـ **بأعظم الأوجه التأثيريّة غير الطبيعيّة للكلام، فقيل إنّه: (سحر). وهذا إذعان لحقيقة أنّه خارق؛ على غير سنن الطبيعة.**

من أهم أسباب قصور بعضهم عن فهم دلالة التحدّي القرآني على ربّانّيته، الغفلة عن أنّ مغريات المعارضة للتحدّي قد بلغت أقصاها، فلا مزيد.

٤ ـ هل المعجزة البلاغية قائمة اليوم؟

قد يقول المعترض: لا نسلّم لكم أنّ القرآن معجزة لمجرد أنّه أعجز عرب القرن السابع.. إنّ الحجّة على إعجاز القرآن لا تقوم على المخالفين

حتّى يُعجز كلّ جيل.. ولذلك فالباب لم يوصد على إمكان نظم سور مثل القرآن، أو من مثل القرآن!

وجواب ذلك من وجهين:

الوجه الأوّل: قياس الأولى: ما تقول في رجل جمع أئمة علم الفلك في عصره، وطرح عليهم مسألة، تحدّاهم أن يكشفوا لها حلًّا.. ولمّا أعلنوا كلّهم عجزهم وأقرّوا بفشلهم، وأظهر هو الفخر أنّه لا يملك أحدٌ حلّ الإشكال الذي عرضه على أهل الدراية، قيل له: أين أنت من الفلاحين ورعاة الغنم؟! إنّك إن لم تعجزهم بنفس المسألة كما أعجزت علماء الفلك، لن نسلّم لعلمك الفذ الذي لا يُدانى!

لا أظنّك تقول غير: إنّ إقامة الحجّة على الأعلى، حجّة ـ ضرورةً ـ على الأدنى.. وكذلك نقول، وهو قياس الأولى.. فعجز الأكابر برهان على عجز الأصاغر.

والقرآن قد أقام الحجّة على أهل اللسان العربي، الأقحاح الذين كانوا يتكلّمون الفصحى على البديهة، والذين بلغ الشعر في زمانهم الذروة، قبل أن ينحدر البيان العربي على لسان المولّدين.. فقياس الأولى يقضي أنّ عجز أهل الصدر الأوّل عن مجاراة القرآن حجّة لعجز من يأتي بعدهم.. والتاريخ برهان ـ على كلّ حال ـ على ما نقول. فقد ضرب العجز بالأسداد على كلّ فم بليغ، فلم يأت أحد بمثل القرآن رغم تطاول القرون.

يقول (الجاحظ) ـ وهوَ مَنْ هُوَ في بلاغته، حتى لا يكاد يجاريه أحد من أهل عصره ـ في القرن الثالث الهجري: «ونحن أبقاك الله... ادّعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة، من القصيدة والأرجاز، والمنثور والأسجاع، ومن المزدوج ومما لا يزدوج... وذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي **لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والشيء القليل**»[1].

---

(١) الجرجاني، الرسالة الشافية في الإعجاز، ص١١٨.

ويوضّح (أبو الحسين الزيدي) ـ المتوفى عام ٤٢١هـ ـ الفارق بين أصحاب اللسان زمن البعثة وما قبله من جهة ومن جاء بعدهم من جهة أخرى: «ألا ترى ـ ولا شك ـ أنّ الخليل بن أحمد كان أكثر في اللغة والعلم بأوزان الشعر وعيوبه ومحاسنه من امرئ القيس؛ لأنّ امرئ القيس كان الظاهر من أمره أنّه كان يعرف لغة قومه، والقوم الذين قاربوهم، والخليل تعلّم اللغة حتّى أحاط بها، ومع ذلك فلا يشكّ أنّ الخليل كان لا يمكنه أن يقول من الشعر ما يُماثل شعر امرئ القيس أو يقاربه. ولهذا نرى ما بيننا المكثر من علم اللغة، ومحاسن الشعر ومساوئه إذا لم يكن مطبوعًا في الشعر لا يمكنه أن يأتي من الشعر مثلما يأتي به المطبوع الذي لا يبلغ علمه باللغة ومحاسن الشعر ومساوئه معشاره، بل ربّما لم يمكنه أن ينظم بيتًا واحدًا إلّا بجهد عظيم، وتعب شديد. ثم إذا أتى به أتى به في غاية الوحشة ونهاية السقوط. وهكذا حال إنشاء الرسائل والخطب والتوسّع في المحاورات»[1].

وإذا كان أهل البيان قد أسبلوا يد المعارضة مع تبكيت القرآن لهم وتقريعه لفصحائهم، وقيام داعي المعارضة في قلوبهم؛ إذ سفّه القرآن منهم العقول، وشنّع عليهم ما يعتقدونه في أصنامهم وأعرافهم وشرائعهم، لزم من جاء بعدهم أن يسبلوا اليد ويسلّموا بالإعجاز، وأن يكونوا معهم في العلم بالعجز سواء، فحال العجز فيهم والإقرار بإعجاز القرآن ـ بلسان المقال أو الحال ـ هو عندنا كالمعاينة، فنحن وهم فيه سواء.

الوجه الثاني: خصوم القرآن يؤكدون إعجازه: لا يحفظ لنا التاريخ البعيد محاولات تستحقّ الذكر لمعارضة القرآن، فجلّ ما رُوِي في هذا الباب إمّا مشكوك في تاريخيّته (كسُوَر الضفدعة[2] والفيل[3]... التي نُسبَت إلى

(١) أبو الحسن الهاروني الحسني الزيدي، إثبات نبوّة النبيّ، تحقيق: خليل الحاج (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.)، ص٦٢.

(٢) «يَا ضِفْدَعُ ابنة ضفدع، نِقِّي مَا تَنِقِّينَ، أَعْلَاكِ فِي المَاءِ وَأَسْفَلُكِ فِي الطِّينِ، لَا الشَّارِبَ تَمْنَعِينَ، وَلَا الْمَاءَ تُكَدِّرِينَ».

(٣) «الْفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ زَلُّومٌ طَوِيلٌ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ رَبِّنَا الْجَلِيلِ. الْفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ ذَنَبٌ وَبِيلٌ، وَخُرْطُومٌ طَوِيلٌ».

(مسيلمة)، وهي ذات معان باردة وصياغة ركيكة يبعد أن تصدر عن رجل عربي)، أو مشكوك في تعلّقه بمعارضة القرآن (كالقول إنّ كتاب (المعرّي) «الفصول والغايات» من المعارضات.. وليس كتابه من ذلك في شيء)[١]، ولا يصحّ تاريخيًّا في المعارضة إلا القليل النادر. وقد عاش في بلاد المسلمين خصوم حاقدين اجتهدوا في الطعن في نبوّة (محمّد) ﷺ، ولم يستعلن منهم واحد بكتاب معارض للقرآن رضي عنه مخالفو الإسلام في عصره وبعده، ومن هؤلاء (ابن الراوندي)[٢] الذي ألّف «الفريد» في الطعن في نبوّة (محمّد) ﷺ والقدح في معجزاته، و«التاج» في قدم العالم، و«الزمرّد» في إبطال النبوّات، وهي كتب نشرها في العلن، وراجت بين الناس[٣]. الفرصة إذن كانت قائمة لظهور الكتاب المعارض المتحدّي للقرآن، ولرواجه إذا بدا فيه ما يستحقّ التقديم والتبجيل.

ثمّ إنّ كلّ محاولات معارضة القرآن قد اكتفت بمحاكاة ألفاظه وأوزانه طمعًا أن تدخل في جنس النظم القرآني، فينظر الكاتب في الحرف بين

---

(١) كتاب «الفصول والغايات» مليء بتمجيد الله، وليس في صياغته شيء من صريح المعارضة.. بل إنّ (المعرّي) قد ألّف كتابًا باسم «زجر النابح» (وقد حقّقه أمجد الطرابلسي: دمشق ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م) للردّ على من اتّهموه بمعارضة القرآن والزندقة. وقد قُضِي على هذه التهمة بطبع كتاب «الفصول والغايات»؛ فعُرِف حديثًا ما فيه!

(٢) ابن الراوندي (٨٧٢ ـ ٩١١م): كاتب تنقّل بين المذاهب، من الاعتزال إلى التشيّع إلى التشكيك في كلّ دين. قيل: إنّ أصله يهوديّ، وإنّه كان يكتب في هجاء الفرق مقابل مال.

(٣) صوّر القاضي (عبد الجبار) ـ الذي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وبداية الخامس ـ انتشار كتب الزنادقة الطاعنين في الإسلام بقوله: «وانظر إلى... الكتب التي وضعها الملحدة وطبقات الزنادقة، كالحدّاد، وأبي عيسى الورّاق، وابن الراوندي، والحصري، وآمالهم في الطعن في الربوبيّة وشتم الأنبياء صلوات الله عليهم وتكذيبهم، فإنّهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط الإسلام وسلطانه والمسلمون أكثر مما كانوا إذ ذاك وأشدّ ما كانوا ولهم القهر والغلبة والعز، والذين وضعوا هذه الكتب أذلّ ما كانوا، وإنّما كان الواحد بعد الواحد من هؤلاء يضع كتابه خفيًّا وهو خائف يترقب، ويخفي ذلك عن أهله وولده، ولا يطّلع عليه إلا الواحد بعد الواحد ممن هو في مثل حاله في الخوف والذل والقهر، ثم ينتشر ذلك في أدنى مدة ويظهر حتى يباع في أسواق المسلمين، ويعرفه خاصتهم وعامتهم، ويتحدثون به ويتقولونه ويذكرونه وقد غمّهم ذلك وساءهم، وودّوا أن ذلك لم يكن». (عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق: عبد الكريم عثمان، بيروت: دار العربية، د.ت.، ص١٢٩).

الحرفين ملاءمة واحتياكًا، وفي الكلمة بينِ الكلمتين تناسبًا واطرادًا، وفي الجملة إزاء الجملة وضعًا وتعليقًا حتّى يقضي من نظم سورة جديدة. وهذا هو المسلك الأثير لمن أرادوا معارضة القرآن من المعاصرين، ولذلك جاء كلامهم خلوًا من الإبداع، ينادي على صاحبه بالصنعة. وإذا أنت في ختام المعارضة المزعومة أمام نظم موزون بلا جديد معنى ولا طريف صياغة، وقد أرهق الكاتب نفسه في تقليد فواصل القرآن، فأعجم معاني ما يريد الإبانة عنه[١].

ولا يذكر الناس في أيّامنا من محاولات خصوم الإسلام والمنصّرين غير الكتاب الذي أراد له أصحابه إعلان كسر الإعجاز القرآني في الشرق والغرب، والمسمّى «الفرقان الحقّ» الذي قام على الترويج له المنصّر [الفلسطيني ـ الأمريكي] (أنيس شروش). ثم ماذا كان من أمر هذا التحدّي الذي حشدت له الأقلام للمعارضة، والمطابع والصحافة للإذاعة والإشهار؟ لا شيء غير الفضيحة.. وقد كتب فيه أحد أساتذة النقد الأدبي[٢] دراسة بعنوان: «فضيحة العصر ـ قرآن أمريكي ملفّق» فهتك ستر التجمّل فيه، وأبان تخلخل بنيانه ومعانيه.

ويكفي أن تقرأ بعض نصوص القرآن المزعوم الذي انتهى إليه جهد خصوم الإسلام لتعلم مبلغ الإفلاس[٣]... ويغني عن التفصيل في بيان تهافت هذه المعارضة أنّ من نشروا الكتاب وانتصروا له قد **استحيوا ـ وحياؤهم**

---

(١) الرافعي، إعجاز القرآن، ص١٩٧.

(٢) د. (إبراهيم عوض).

(٣) انظر مثلًا في ركاكة التركيب وسماجة المعاني:

«يا أيها الذين أشركوا من عبادنا ادعونا أو ادعوا الرحمان أو ادعوا الرحيم أيًّا ما تدعوننا فلنا التجليّات الحسنى جميعًا مثلّثة موحّدة فردًا وترًا فأنّى تشركون؟.. فنحن الآب الكلمة الروح ثالوث فرد إله واحد لا شريك لنا في السماوات والأرضين».

«يا أيّها الذين كفروا من عبادنا الضالين: لقد جعلتم من جنّاتنا مواخر للزناة ومغاور للقتلة ومخادع رجس للزانيات ونُزل دعارة للسكارى والمجرمين».

«يا أيها المنافقون من عبادنا الضالين: أَنَّى تشهدون بما لم تشهدوا وترددون ما لا تفقهون.. وأنفذتم جاهليتكم على الراسخين فى العلم والدين القويم فأثقلتم كواهلهم وزرًا. وشُبِّه لكم الحق فما فهمتم للتجسد معنى وما فهمتم للبنوة مغزى وما أدركتم للفداء مرمى وما علمتم من أمور الروح أمرًا».

جفيفٌ قد ذهبت نداوته ـ، فلم يحدثوا له خبرًا بعد أشهر قليلة من نشره بين الناس.. ولست ترى أحدًا من أعلام المنصّرين يستشهد به رغم أنّ العهد بنشره قريب[١]!

المعجزة[٢] ما أعجز الناس بعد تحدٍّ.. والواقع يشهد عجز الأوّلين والآخرين. وهذا برهان مادي قابل للاختبار والمعاينة على إعجاز القرآن.

٥ ـ هل القول بالإعجاز القرآني مجرد دعوى إيمانية؟

اعتراض: دعوى إعجاز القرآن لا تُعرض إلّا في الكتابات الدعويّة الإسلاميّة، ولم يُقرّ بها أحد من بلغاء النصارى أو اليهود أو غيرهم... فالشهادة لإعجاز القرآن هي من شهادة المرء لنفسه بالفضيلة، ولذلك لا يؤخذ بها في مقامات التحاكم والتحاقق!

الاعتراض السابق يزعم استقراء التاريخ، واليأس من العثور على شهادة من غير المسلمين لإعجاز القرآن، وآفته أنّه يشهد ـ على الحقيقة ـ ضدّ شهادة التاريخ؛ إذ إنّ الإعجاز البلاغي للقرآن أصل إسلام طائفة من بلغاء المشركين واليهود والنصارى، ولازم من لوازم إيمان بقيّتهم؛ إذ لولا إقرارهم بهذا الإعجاز لأنكروا على القرآن شهادته لنفسه. لقد ظهر القرآن في مكّة التي كان أهلها على الوثنيّة، كما انتشر أمره في المدينة حيث عاشت جماعات من اليهود، ثم بُسط خبره في العالم الإسلامي حيث عاش اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أهل الملل والنِّحل من أصحاب اللسان العربي. وقد بلغ فريق كبير منهم المرتبة العليا في الفصاحة، خاصة اليهود الذين انغمسوا بكليّتهم في الثقافة الإسلاميّة وصنعوا بذلك العصر الذهبي للشعر اليهودي والنحو العبري تأثرًا بالثقافة الأدبيّة واللسانيّة العربيّة الإسلاميّة.

---

(١) اقرأ في نقد كتاب «الفرقان الحق»: صلاح عبد الفتاح الخالدي، تهافت فرقان متنبئ الأمريكان أمام حقائق القرآن (عمّان: مؤسسة الفرسان للنشر، ٢٠٠٥م).

(٢) المعجزة هنا بالمعنى اللغوي الحرفي، وهي بذلك متميّزة عن عموم «الآية».

وحتّى لا يكون كلامنا مرسلًا يتجرّأ المخالف على وصمه بالتدليس، فسنذكر إقرار طوائف من غير المسلمين بإعجاز القرآن؛ منهم من أقرّ وأسلم، ومنهم من غلبه ولاؤه للموروث من دين الأجداد، فسلّم ولم يُسلم:

أوّلًا: شهادة العرب:

شهادة مشركي مكّة بإعجاز القرآن مستفيضة، كيف وهم المقصد الأوّل للتحدّي القرآني. وقد أقرّوا جميعًا ـ بشهادة الحال ـ بإعجاز القرآن، بعجزهم عن معارضات الآيات، كما أسلمت منهم طائفة لإعجاز القرآن.

لقد أسلم (لبيد بن ربيعة) ـ أشعر الشعراء في الجاهليّة ـ حتّى قال لمّا سأله (عمر) رضي الله عنه عن شعره القديم: «قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة»[1]. و(لبيد) هو الذي قال فيه نبي الإسلام ﷺ: **«أشعرُ كلمةٍ تكلّمتْ بها العرب، كلمة (لبيد): «ألا كُلُّ شيء ما خلا الله باطل»»**[2].

ولمّا سمع (جبير بن مطعم) رضي الله عنه النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، قال عند قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: كاد قلبي أن يطير[3].

ويكفي في شهادة العرب الجاهليين لإعجاز القرآن قول (الوليد بن مغيرة) المشرك بعد أن سمع القرآن من فِيِّ رسول الله ﷺ، وقد استحثّه (أبو جهل) أن يقول فيه قولًا منكرًا: «وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ وَلا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي، وَلا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ، إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلا، وَأَنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ»[4].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ٧/ ١٨٨.

(٢) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية (ح/ ٣٦٢٨)، ومسلم، كتاب الشعر، باب تحريم اللعب بالنردشير (ح/ ٢٢٥٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الطور (ح/ ٤٥٧٣).

(٤) رواه الحاكم. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه.

ثانيًا: من شهادات النصارى:

لم يهتم عامة النصارى في القرون الهجريّة الأولى بالأدب العربي وفنون البلاغة بسبب اعتناء كثير منهم بالأدب السرياني[1]، ونفرت آدابهم الدينيّة من النظم القرآني وارتباطه برسالة الإسلام. وقد ازدهر الأدب العربي في البيئة النصرانية العربية في القرون الأخيرة. وظهرت أسماء ذات صيت ورنين. وكان لعدد من هؤلاء كلام في إعجاز القرآن:

من الشهادات في هذا الباب قول الشيخ (رشيد رضا): «إنّ من أُوتي حظًّا من بيان هذه اللغة، وفاز بسهم رابح من آدابها حتى استحكمت له ملكة الذوق فيها، لا يملكُ أن يدفع عن نفسه عقيدة إعجاز القرآن ببلاغته وفصاحته، وبأسلوبه في نظم عبارته. وقد صرّح بهذا من أدباء النصرانيّة المتأخّرين الأستاذ (جبر ضومط) مدرّس علوم البلاغة بالجامعة الأمريكانيّة في كتابه «الخواطر الحسان»»[2].

وعقّب (الرافعي) على شهادة (رشيد رضا) بقوله: «وصرّح لنا بذلك (بإعجاز القرآن) أديب هذه الملة (النصارى) الشيخ إبراهيم اليازجي الشهير. وهو أبلغ كاتب أخرجته المسيحية. وقد أشار إلى رأيه ذاك في مقدمة كتابه «نجعة الرائد». وكذلك سألنا شاعر التاريخ المسيحي الأستاذ خليل مطران، ولا نعرف من شعراء القوم من يجاريه فأقر لنا بمثل ما أقر به أستاذه اليازجي، والأمر بعد إلى العقل المنصف والعقل «المنصف» ليس له دين إلّا الحق، والحق واحد لا يتغير»[3].

وهذا (أمين نخلة)[4] الذي افتتح صاحب كتاب (ذيل الأعلام)[5] ـ في

---

(١) كان (الأخطل) (المتوفى ٩٢هـ) من الاستثناءات في هذا الباب. وأشهر الشعراء النصارى الذين نظموا قصائدهم بالعربية عاشوا قبل الإسلام.

(٢) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، ص١٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أمين نخلة (١٩٠١ ـ ١٩٧٦م): نصراني لبناني. يميل شعره إلى الغزل. عمل في الصحافة والمحاماة.

(٥) وهو زيادة على كتاب «الأعلام» الشهير (للزركلي).

ترجمة أعلام العرب والمستعربين والمستشرقين ـ وصفه بقوله: «شاعر ابن شاعر. يُقال إنّ أمير الشعراء أحمد شوقي أقرّه على إمارة الشعر بعده»[1]، وقد انتُخب عضوًا «بمجمع اللغة العربيّة» اعترافًا بعلمه الواسع بلغة العرب، كتب خاطرة تحت عنوان: «الكتاب المعجز» في مؤلَّفه «في الهواء الطلق: تذكارات ونجاوى»، قال فيها: «ما قرأتُ في القرآن قطُّ، وتلقّتني تلك الفصاحة من كل جهة، وشهدتُ ذلك الإعجاز الذي يطبِّق العقل، **إلا صحتُ بنفسي: انجي، ويحك، فإنّني على دين النصرانية**...»[2].

أمّا الأديب الشاعر المعاصر (نقولا حنا)[3] فقد قاده إيمانه بإعجاز القرآن إلى اعتناق الإسلام، والكتابة في تمجيد هذا الكتاب العظيم بقوله في قصيدته «من وحي القرآن»: «قرأت القرآن فأذهلني، وتعمقت به ففتنني، ثم أعدت القراءة فآمنت.. آمنت بالقرآن الإلٰهي العظيم، وبالرسول من حمله.. النبي العربي الكريم، أما الله فمن نصرانيتي ورثت إيماني به، وبالفرقان عظم هذا الإيمان... وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يديَّ أنظرها وأحسها كل حين... هي معجزة لا كبقية المعجزات.. معجزة إلٰهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشّر بها.

وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشّرين وشواهد وحجج وبراهين لحض الخلق على اعتناقها، إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يثبّت أصولها في القلوب. أما الإسلام فقد غني عن كل ذلك بالقرآن. فهو أعلم معلم وأهدى مبشّر، وهو أصدق شاهدًا وأبلغ حجة وأدمغ برهانًا... هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلي، المنظورة المحسوسة في كل زمان... ومن إيماني العميق هذا استلهمت قصيدتي هذه:

يقولون ما آياته، ضل سعيهم   وآياته ـ ليست تعد ـ عظام

---

(١) أحمد العلاونة، ذيل الأعلام، (جدة: دار المنارة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م)، ص٤٦.

(٢) أمين نخلة، في الهواء الطلق، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م)، ص١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) نقولا حنا (١٩٢٣ ـ ١٩٩٩م): فلسطيني، توفي في سوريا. تخرّج في قسم اللغة العربية في كلية الآداب. تفرغ لدراسة القرآن الكريم. من مؤلفاته ديوان: «الأرض والوطن».

كفى معجز الفرقان للناس آية علا وسما كالنجم ليس يرام
فكل بليغ عنده ظل صامتًا كأن على الأفواه صرَّ كمام»[1].

كما أقرّ بإعجاز القرآن المستشرق (جوزيف شارل ماردروس)[2] في مقدّمة ترجمته لاثنتين وستين من السور الطوال في القرآن بتكليف من وزارة الخارجية والمعارف الفرنسيّة. فقد كتب: «أمّا أسلوب القرآن فهو الأسلوب الخاص بالله. وبما أنّ الأسلوب يمثّل جوهر الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب؛ **فلا يمكن أن يكون هذا الأسلوب إلّا إلٰهيًّا**. والحق الواقع هو أن أكثر الكتّاب شكًّا وارتيابًا قد خضعوا لسلطان تأثيره.

وإنّ سلطانه على الثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجانب المنصّرين يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين إلى الآن... ذلك أنّ هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو، كان نثرًا جدّ طريف، كامل الروعة، يفيض في اتّساق نغم ونسق، مسجّعًا، لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية. لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع بلغة أخرى، وخاصة الفرنسية الضيّقة، والصلبة، والشديدة. وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية ـ مثلها جميع اللغات العصرية ـ ليست لغة دينيّة، وما استُعملت قطّ للتعبير عن الألوهية»[3].

---

(١) نقولا حنا، من وحي القرآن، ص١ (نقله حسن ضياء الدين عتر، المعجزة الخالدة، بيروت: دار البشائر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ص١٤٨ ـ ١٤٩).
القصيدة كاملة:
http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=7706#22493

(٢) جوزيف شارل ماردروس Joseph Charles Mardrus (١٨٦٨ ـ ١٩٤٩م): شاعر ومستشرق فرنسي ولد في القاهرة. اشتهر بترجمته البليغة لكتاب «ألف ليلة وليلة» من العربية إلى الفرنسية.

(٣) Joseph Charles Victor Mardrus, *Le Koran qui est la Guidance et le Diffeirenciateur; Traduction litteirale et complete des Sourates Essentielles (Paris: Eugene Fasquelle, 1926), pp.19-20.*
ونحن ننقل الترجمة كما جاءت في كتاب: رشيد رضا، الوحي المحمّدي، ص٢١ ـ ٢٢ (بتصرّف).
وننقل لك الأصلي الفرنسي بتعبيراته القويّة هنا:
"Quant au style du Koran, il est le style personnel d'Allah.
Comme le style est l'essence de l'être, il ne saurait être ici que divin. Et, de fait, les écrivains même les plus sceptiques, en ont subi la fascination. Son emprise est encore telle sur les trois cent millions de musulmans =

وأمّا (فارس الشدياق) (وهو من أبرز علماء العربية النصارى في القرون الأخيرة حتّى وصفه المستشرق (كرنليوس فاندايك)[1] ـ صاحب أشهر ترجمة عربيّة للكتاب المقدّس المعروفة باسم (ترجمة الفاندايك) ـ بأنّه: «الأديب الشاعر اللغوي الكاتب البليغ. . ولغته من أحسن ما كتبه المتأخرون نثرًا في اللغة العربية في عصر النهضة الاخيرة»[2]، كما قال فيه الكاتب المسلم (أنور الجندي): «قريع الدهر في علم الأدب العربيّ»[3] فقد كتب ـ بعد إسلامه ـ غاضبًا من جرأة كاتب نصراني اسمه (رزق الله) أراد معارضة القرآن لنفي إعجازه اللغوي، فقال: «إنّ هذا السفيه قد أشعر إشعارًا ظاهرًا بأنه قادر على تحدّي القرآن، **وهو أعجب شيء من جنونه وهوسه**. . . وقد حان الآن أن نظهر جهله باللغة والصرف والنحو وغير ذلك **ليعلم فيما قصده من تحدّي القرآن أنه مجنون جنونًا مطبقًا**»[4]. ثم تناول كتاب (رزق الله) «النفثات» الذي عارض به القرآن، فبيّن ما فيه من فساد وركاكة وخطأ في اللغة[5]. . علمًا بأنّ (فارس الشدياق) قد كُلِّف بإعداد ترجمة عربيّة للكتاب المقدّس النصراني قبل إسلامه، وقد أتمّها ونشرها، غير أنّ النصارى منعوا تداولها بعد هدايته.

ومن ظريف ما يُنقل هنا ما ذكره الأديب المصري (كامل كيلاني) فيما روى من ذكرياته، يقول:

= du globe, que les missionnaires étrangers s'accordent à reconnaître qu'on n'a guère pu produire jusqu'aujourd'hui un seul cas avéré d'apostasie musulmane... C'est que ce langage, qui se faisait entendre pour la première fois à des oreilles bédouines, fut une prose essentiellement nouvelle, pleine de magnificence, rythmée, allitérée, assonancée, et dont la répercussion est toujours profonde sur tout auditeur qui comprend l'arabe. Aussi, est-ce une tâche ingrate qui d'essayer de render les effets de cette prose inou]e, dans une langue étrangère, et surtout dans la langue française si contenue, si intransigeante et sévère. De plus, la langue française, comme toutes les langues modernes, n'est pas une langue religieuse, et n'a jamais servi de moyen d'expression à la divinité?"

(١) كرنليوس فاندايك Cornelius Van Dyck (١٨١٨ ـ ١٨٩٥م): مستشرق ومنصّر. عاش أكثر من نصف حياته في الشرق. درس العربية على يد (بطرس البستاني).

(٢) كرنليوس فاندايك، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، أشهر التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية (مصر: مطبعة التأليف، ١٨٩٦م)، ص٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٣) أنور الجندي، موسوعة مقدمات العلوم والمناهج (القاهرة: دار الأنصار، ١٤٠٠هـ)، ٢٨/٤.

(٤) الجوائب، العدد ٣٣٩.

(٥) الجوائب، العدد ٣٤٢.

كنت مع الأستاذ «فنكل» وهو من المستشرقين، وكانت بيني وبينه صلات أدبية وثيقة، وكان يأخذ برأيي في كل المشكلات التي تقابله في الأدب، لما يعتقده فيّ من الصراحة، ففي ذات يوم همس في أذني وقال: خبّرني عن رأيك بصراحتك المعهودة أممن يعتقدون إعجاز القرآن أنت؟ أم لعلك تجاري جمهور المسلمين الذين يتلقّون ذلك كابرًا عن كابر، وابتسم ابتسامة كلّ معانيها لا تخفى على أحد، وهو يحسب أنه ألقى سهمًا لا سبيل إلى دفعه، فابتسمت له كما ابتسم لي..

قلت: لكي تحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن تحاول أن تكتب مثله أو تقلّده، فلنحاول! ليظهر لنا أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته؟

وقلت: فلنجرّب مثلًا أن نعبّر عن سعة جهنم فما نحن قائلون؟

فأمسك بالقلم، وأمسكت به، فكتبنا نحو عشرين جملة متغايرة الأسلوب يُعبَّر بها عن هذا المعنى.

فقلت مبتسمًا ابتسامة الظافر الواثق: الآن تتجلّى لك بلاغة القرآن بعد أن حاولنا أن نحاكيه في هذا المعنى.

فقال: هل أدّى القرآن هذا المعنى بأبلغ ممّا أديناه؟

فقلتُ: لقد كنّا أطفالًا في تأديته!

فقال مدهوشًا: وماذا قال؟

قلت: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠].

فصعق أو كاد، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة، وقال: صدقت! **نعم صدقت! إنه كلام الله**[(١)].

ثالثًا: من شهادات اليهود:

لم يعرف اليهود منذ سقوط آخر كيان سياسي لهم قبل المسيح بقرون إلى بداية القرن العشرين مستراحًا من تنكيل أهل الحضارات الكبيرة التي عاشوا

---

(١) عن عبد العظيم عبد العزيز سبيع، ولماذا أكون مسلمًا؟ (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٧م)، ص٣٨٦ ـ ٣٨٧.

على هامشها راحة وفسحة للعمل الفكري مثل ما كان في حضارة الإسلام. وقد أسلم طائفة من كبرائهم إعجابًا بدين الإسلام وعقيدة التوحيد. ومن هؤلاء أسماء كبيرة، لعلّ أهمها (هبة الله بن علي بن ملكا البغدادي) الملقب بـ«أوحد الزمان»، الفيلسوف البارز والطبيب الشهير.

ومن أبرز أذكياء اليهود الذين أسلموا (שמואל בן יהודה אבן אבון) المعروف في تراثنا باسم (السموأل بن يحيى المغربي) (٥٧٠هـ) العالم بالتوراة والهندسة والرياضيات والفلك والطب والتاريخ، وقد كان والده حبرًا يهوديًّا مغربيًّا وشاعرًا كبيرًا عدّه (يهوذا الحريزي) أحد أكبر شعراء الأندلس[١].

كتب (السموأل) عن سبب إسلامه في كتابه «بذل المجهود في إفحام اليهود» ـ الكتاب الذي أثار حفيظة معاصره وأكبر فلاسفة اليهود في القرون الوسطى (موسى بن ميمون) ـ: «.. فإني كنت لكثرة شغفي بأخبار الوزراء والكتّاب قد اكتسبت بكثرة مطالعاتي لحكاياتهم وأخبارهم وكلامهم قوّة في البلاغة، ومعرفة بالفصاحة، وكان لي في ذلك ما حمده الفصحاء، وتعجب به البلغاء... فشاهدت المعجزة التي لا تباريها الفصاحة الآدميّة في القرآن، فعلمت صحّة إعجازه»[٢].

وذكر (نور الله الشوستري) في تفسيره أنّ العلامة (علي القوشجي) لما سافر إلى بلاد الروم جاء إليه حبر من أحبار اليهود لمناقشته في أمر الإسلام. وناظره شهرًا، وما سلّم له دليلًا من أدلّته. ثم جاءه في يوم، عند الصبح وكان (القوشجي) مشتغلًا بتلاوة القرآن على سطح الدار، وكان كريه الصوت، فلما دخل الباب وسمع القرآن أثّر القرآن في قلبه تأثيرًا عظيمًا حتّى قال للشيخ: إني أعلن إسلامي. ولمّا سُئل عن السبب، قال: لم أسمع في حياتي رجلًا كريه الصوت مثلك، فلما وصلت إلى الباب سمعت منك القرآن، وقد حصل تأثيره

(١) Arturo Prats, "Ibn 'Abbâs, Judah ben Samuel", *Encyclopedia of Jews in the Islamic World*, Executive Editor Norman A. Stillman. Consulted online on 07 November 2016.

(٢) السموأل، بذل المجهود في إفحام اليهود (تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، بيروت: دار الجيل، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م)، ص٥٤.

البليغ فيَّ فعلمت أنه وحي[1].

وماذا عن الجانب البلاغي والبياني في التوراة والإنجيل؟

لم يزعم مؤلفو أسفار الكتاب المقدس أنّ ما يكتبونه معجز في بلاغته، كما أنّ عامة النصارى اليوم لا يؤمنون بالوحي الحرفي أو ما يُسمّى بـ(Verbal dictation) ـ وإن كان مذهب الوحي الحرفي له أنصار زمن الآباء، مثل (أوغسطين) و(يوحنا ذهبي الفم) و(جيروم)[2] ـ[3] وإنما يعتقدون أنّ الكُتّاب قد استعملوا أسلوبهم الخاص لبلاغ ما يوحى إليهم. وعلى الصياغة الأدبية لأسفار الكتاب المقدس ملاحظات، **منها**:

• **ضعف اللغة**: كتب المستشرق «فون غرونبوم»[4] في المقارنة بين الأسلوب الأدبي للقرآن والأسلوب الأدبي لأسفار الكتاب المقدس: «وجد اللاهوتيّ المسلم نفسه دون قصد وعلى أُسس افتراضية بحتة ـ بسبب الكمال الأسلوبي للقرآن في مقابل قصور الأسفار المقدّسة القديمة ـ في اتّفاق مع خط طويل من المفكّرين المسيحيين الذين تتلخّص نظرتهم إلى الكتاب المقدس في العبارة اللاذعة لنيتشه أنّ الروح المقدس كتب **بلغة يونانية رديئة**»[5]. وهذا أمر مشكلٌ؛ لأنّ رسالة السماء لا تتمّ على الوجه المرضيّ إلا إذا كانت الإبانة عن حقائق الدين بأسلوب مُعجب مشوّق.

• **أميّة الكُتّاب**: يقرّر علماء النقد الأعلى[6] للعهد الجديد أنّ من أهم

---

(١) رحمت الله الكيرانوي، إظهار الحق، تحقيق: محمد ملكاوي (الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية للإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤١٠هـ)، ٣/ ٨٢٣.

(٢) جيروم Jerome (٣٤٧ ـ ٤٢٠م): أحد قدّيسي الكنيسة وآبائها. أشرف على مشروع أهم ترجمة لاتينية للكتاب المقدس (الفولجات). له مؤلفات متنوعة، منها ما هو جدلي، وتفسيريّ...

(٣) David R. Law, *Inspiration* (Continuum International, 2010), p.58

(٤) غوستاف إ. فون غرونبوم Gustave E. von Grunebaum (١٩٠٩ ـ ١٩٧٢م): مستشرق ومؤرّخ نمساوي. كتب أطروحته للدكتوراه في الشعر العربي القديم. من مؤلفاته: "Islam: experience of the holy and concept of man".

(٥) B. Lewis, V. L. Menage, Ch. Pellat & J Schacht, eds. *Encyclopedia Of Islam* (London: E. J. Brill, 1971), 3/ 1020.

(٦) النقد الأعلى Higher criticism: مصطلح يُطلق على كلّ أنواع النقد الكتابي، باستثناء النقد النصّي.

براهين براءة الحواريين من كتابة الأناجيل أنّ لغتها اليونانية أعلى[١] مما يعرفه صحابة المسيح الذين كانوا يتكلمون الآرامية لا اليونانية، وكانوا أميّين لا يحسنون الكتابة باليونانية[٢].

• **فحش النص التوراتي**: في الكتاب المقدس ألفاظ فاحشة وإباحية يمتنع ضرورة أن تكون نابعة من مشكاة الوحي، وقد تحدّثتُ عنها تفصيلًا في كتاب آخر[٣]، ولكن يكفي أن تعلم ـ مثلًا ـ أنّ الربّ (!) ـ في التوراة ـ كلّما غضب على أهل القدس أو إسرائيل وصفهما «بالعاهرة»، حتى إنه شبّه أورشليم **بالعاهرة التي تفتح رجليها لكلّ أحد عابر**؛ لتزيد عهرها (حزقيال ١٦/ ٢٥)[٤]، وهذا هو النص العبري: (**ותפשקי את־רגליך לכל־עובר ; ותרבי, את־תזנותך**) ونقحرته: (وتفسقي إت-رجليك لكول عوبير؛ وتَربي إت-تزنوتك).

كما قال الربّ لأُمّة إسرائيل، موبّخًا لها: «فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيْتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيَابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيْتِ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيْتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيْتِ بِهَا» (حزقيال ١٦/ ١٥ ـ ١٧)!!

علمًا أنّ الأحبار اليهود قد منعوا في السابق تلاميذهم من قراءة الفصل ٣٢ من سفر حزقيال حتى يبلغوا سنّ الثلاثين؛ لإباحيّته الشديدة[٥].

كما أنّ الربّ لما غضب على أهل نينوى، توعّد المدينة في سفر ناحوم ٣/ ٥ أن **يرفع تنورتها إلى وجهها لترى الأمم عورتها كاملة**: «أَكْشِفُ أَذْيَالَكِ

---

(١) لا يلزم من القول بعلّوها فصاحتها؛ إذ الوصف متعلق بمستوى التعبير باليونانية لمن لا يعرف اللغة.

(٢) Bart D. Ehrman, *Forged: Writing in the Name of God: Why the Bible's authors are not who we think they are* (New York: HarperOne, 2011), p.8

(٣) انظر: سامي عامري، هل اقتبس القرآن الكريم من كتب اليهود والنصارى، ص٣٤٢ ـ ٤٠٣.

(٤) الترجمة العربية (ترجمة الفاندايك) لنص حزقيال ١٦/ ٢٥: «فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيق بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ».

(٥) Leo Miller, *John Milton Among the Polygamophiles* (New York: Loewenthal, 1974), p.9.

إِلَى فَوْقِ وَجْهِكِ، وَأُرِي الأُمَمَ عَوْرَتَكِ وَالْمَمَالِكَ خِزْيَكِ» (וגליתי שוליך, על־פניך ; והראיתי גוים מערך)[1].

وهناك نصوص أخرى شديدة الإباحية لا أملك الجرأة على نقلها في هذا الكتاب.

خلاصة النظر:

• صرّح القرآن أنّ البرهان الأوّل على إعجازه عجز العرب عن أن يأتوا بسورة واحدة قليلة الكلمات شبيهة به؛ فعجزوا رغم حاجتهم لنقض ربانية القرآن.

• التحدي القرآني استفزازي ـ بأقصى صورة متصوّرة ـ لأعظم من نطقوا العربية شعرًا ونثرًا، رغم أنّ مواضيعه وطريقة تنزّله كان يجب ـ في مجرى العادة ـ أن تجعله في الطبقة الدنيا من البلاغة.

• اعترف أكابر العرب الفصحاء بإعجاز القرآن، كما أقر به أهل البلاغة من اليهود والنصارى.

• ميزة الإعجاز البلاغي/ القرآني أنّها مشهودة بالعين في كلّ عصر.

• حاول المنصّرون مؤخرًا معارضة القرآن، ورغم ما حشدوه من جهد وتسويق لمؤلَّفهم، إلا أنهم باؤوا بالفضيحة حتى أنهم توقفوا بصورة تامة عن الترويج له.

• يتضمن الكتاب المقدس مقاطع ضعيفة البناء البياني بما لا يلتقي مع الحكمة من إرسال الرسل للتبليغ عن الربّ سبحانه، كما تضمّنت هذه الأسفار عبارات بالغة الفحش والبذاءة.

مراجع للتوسع:

محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم (الرياض: دار طيبة، ١٩٩٧م).

---

(١) الترجمة العربية (ترجمة الفاندايك) لنص٣/ ٥: «هأَنَذَا عَلَيْكِ، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ، فَأَكْشِفُ أَذْيَالَكِ إِلَى فَوْقِ وَجْهِكِ، وَأُرِي الأُمَمَ عَوْرَتَكِ وَالْمَمَالِكَ خِزْيَكِ».

مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م).

صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني (عمان: دار عمارة، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م).

فضل حسن عباس، إعجاز القرآن (القاهرة: الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م).

الباقلاني، إعجاز القرآني (الرياض: مركز التراث، ٢٠١٣م).

أبو الحسن الهاروني الحسني الزيدي، إثبات نبوّة النبيّ ﷺ، تحقيق: خليل الحاج (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.).

القرآن ظاهرة فوق ـ طبيعية

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]

توجد الحقيقة دائمًا في البساطة وليس في كثرة الأشياء وتشويشها.

(Isaac Newton)

بين خيارين.. كتاب بشريّ أم تنزّل علوي؟

ترتبط ظاهرة الوحي في التراث الديني للأمم التي ترى اتّصال الأرض بالسماء، بطابع اللامألوف في تلقّي وهج الرسالة الإلٰهية. ويرى الملاحدة ومنكرو النبوّة المحمّدية من النصارى واليهود أنّ القرآن لا يشي بطبع الاتّصال الإلٰهي، وإنّما هو محض اختلاق بشري.

والنظر في أمر القرآن يلزمنا أنّ حاله لا يخرج عن **واحد من ثلاثة**:

- افتعال من نبيّ الإسلام؛ إذ كان يصنع سُوَر القرآن صناعة عن اجتهاد وقصد.
- انفعال قسري عن غير إرادة قصديّة لداعي مرضٍ.
- وحي علوي لا سلطان له عليه.

يقول المسلم: النظر في (١) طبيعة النصّ القرآني و(٢) نفسيّة نبيّ الإسلام ﷺ، يمنع ـ ضرورةً ـ القول بأثر نبيّ الإسلام ﷺ في القرآن، وإنّما يقود إلى الكشف عن سلطان القرآن في نبيّ الإسلام ﷺ، وذاك برهان ربّانية هذا الكتاب.

ويقول غير المسلم: بل القرآن إمّا افتعال من نبيّ الإسلام (ﷺ)، أو انفعال مرضيّ فيه.

والفصل بين هذين المختصمين مردّه النظر في طبيعة النص القرآني وشواهد التاريخ عن حال نبيّ الإسلام ﷺ مع هذا الكتاب..

١ ـ هل القرآن كتابٌ مفتعَل؟

يَلزم من القول: إنّ القرآن كتاب مفتعلٌ حَبَّرَهُ نبي الإسلام ﷺ على حين غفلة من قومه، أنّ تعكس علاقة هذا الكتاب بنبيّ الإسلام ﷺ طبيعة اتّصاله بهوى نفسه وخططه التي خلص من خلالها إلى مخادعة قومه.. وهذا اللازم لا تبدو له ملامح في السيرة النبويّة، وإنّما تكشف وشائج العقل والروح واللسان الممدودة بين نبيّ الإسلام ﷺ والقرآن أنّنا أمام كتاب بينه وبين من ينسبه إليه خصوم الإسلام فاصل نفسي وذهني؛ فلا هذا من ذاك، ولا ذاك من هذا.

أ ـ هل القرآن صنعة أكذب الكاذبين؟

إنكار ربانيّة القرآن يلزم منه ضرورة أن يكون القرآن صنعة كاذب عتيّ في الخديعة؛ فصاحبه يكذب ويتحرّى الكذب، ويمكر بقومه أسوأ مكر؛ إذ يتعمّد اختلاق السور في كلّ مناسبة، ويرتّب أصول الدين الجديد وتفاصيله الكثيرة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهو في أثناء كلّ ذلك ينسب قوله إلى الله ـ سبحانه ـ دون حرج ولا تململ ضمير... وذاك لا يلتقي مع ما علمناه من صدق نبيّ الإسلام ﷺ في كلّ أمره، وشهادة القريب والخصيم له باستقامة لسانه على قول الحق، ومجانبة حاله لفعل المفترين.

إنّ الإنسان الذي يعيش داعيًا بين قومه ٢٣ عامًا، يخالطهم ويخالطونه، وقد ألفوا طبعه في كلّ أحوال نفسه، في الحل والترحال، والغضب والرضا، والبسط والشدة، لا يستطيع أن يحدث قطيعة تامة مع نفسه، بأن يوحي للناس من أمره ما ليس له فيه شيء.

إننا إذن أمام حالين متنافرين أشدّ التنافر: اتهام الخصوم اليوم لنبي

الإسلام ﷺ بالإمعان في الكذب في الجليل والدقيق من الأمور.. وشهادة الأقربين من أهله وصحبه، وحتّى خصومه المعاصرين له بالإمامة في الصدق.

فإن قلتَ: إنّ من قومه من اتّهمه بالكذب، أجبتك: أنّ قومه كانوا في حيرة من أمره، ولذلك تردّدوا في حاله لضرورة رميه بالنقيصة التي تصرف العرب عنه، فقد قالوا مرّة: إنّه كاذب وفي أخرى إنّه شاعر، ثم ساحر، ثم مسحور، ثم مجنون.. هكذا في تردّد متشنّج وترحال عابث من إدانة إلى أخرى..

وقد فضح القرآن هذا التعثّر السريع الذي لا يملك الوقوف على تهمة قليلًا، فهو لهاث مشوّش. قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥]. ثمّ عاد القرآن ففضح حال الشتّامين المعاندين؛ فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]. والجحود هو إنكار الأمر مع استبطان صدقه[(١)].

هذا القفز اللاهث بين تهم متنافرة من الناحية الأخلاقية تكشف أنّ الشيء الوحيد الذي يجمعها هو الرغبة في الإدانة لا مضمون الإدانة؛ فرجاء الإسقاط هو أصل الإدانة وحقيقتها، ومضمون الإدانة فرع لاحق فحسب.

وإذا كانت تهمة الكذب تظهر وتختفي عند رفع سبّابة الإدانة في محافل مشركي مكّة؛ فذلك ـ عندها ـ برهان لائح أنّها تهمة مفتعلة لتفسير ظاهرة لا تقبل التفسير الطبيعي.

ب ـ الكتاب الذي أدمى قلب الداعي به:

كتاب الكاذب الذي امتهن الدجل وأشرب حب الخديعة، هو صنعة مزوّرة يضحك صاحبها في داخله من أتباعه الغافلين، فهو يرى كلامه وأفكاره عرائس شمع زاهية ينتشي لمنظرها وهالتها السذّج، وهي عنده لم تغادر حال الموات البارد.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب؛ الجوهري، الصحاح، مادة: (جحد).

والناظر في حال نبي الإسلام ﷺ القائم بالليل متهجدًا بالقرآن، في خشوع وذلّ وإخبات حتّى تشققت منه القدم، لا يسعفه خيال الشكّ السادر أن يرى في روح هذا الرجل الخاشع بعض طيف الخديعة والمكر. إنّه يرى روحًا تذوب مع كلمات القرآن، ومعاني التوحيد، وصور القيامة، ومشاهد البعث المهيبة.

ومن القصص المعبّرة عن الحال، قول (ابن مسعود) رضي الله عنه: قال لي النبي ﷺ: **اقرأ عليَّ القرآن!**

فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟!

قال: **إنّي أحب أن أسمعه من غيري!**

فقرأت عليه سورة النساء، حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

قال: **حسبك الآن!**

فالتفت إليه؛ فإذا عيناه تذرفان[(١)].

ولمّا سُئلت زوجه (عائشة) رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ؟

سكتَتْ، ثم قالت: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك (ح/ ٤٧٦٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن (ح/ ٨٠٠).

الآية كلها[1].

إنّها النفس التي تذوب أمام وهج الحق، وتخشع أمام المعاني الجليلة، في خلوة وجلوة.. أين مكر النفس الخبيثة هنا؟ أين دسيسة النفس المريضة التي تهتبل غفلة الناس وطيبتهم لسوقهم في رحلة الوهم إلى حال الخَدَر؟ إنّنا أمام حال أخرى، ونفس مختلفة.. إنّها روح الصدق برقّتها عندما تلامس صفحتها أوتار النور الرهيفة!

ت ـ كتاب.. قطعة واحدة:

ملابسات نزول القرآن وارتباط آياته بحوادث مختلفة تمتد من الحديث عن شخص النبي ﷺ إلى قومه، وخصومه، وحال السابقين، والمعاصرين، وخبر يوم الدين، مع تجدّد النوازل المفاجئة، وتقلّب الدعوة في طِباق لا تستقرّ، مع تعدّد أغراض السُّور، وترتيب الآيات على غير زمن نزولها... كل ذلك يُلزم المرء أن يتوقع أن تكون سور القرآن شتاتًا من الأفكار.. وقبل ذلك، كان نبيّ الإسلام ﷺ يخبر بالآيات منذ بعثته وهو لا يدري ماذا يكون في غدِ دعوته من حال، ومتى يكون تمام نزول القرآن.. ورغم ذلك يكشف النظر إلى القرآن عن كثب أنه قطعة واحدة مرتبة، ومنظمة، يغلب عليها التناظر العجيب، والترتيب البديع:

ترتيب حياة الدعوة والداعية: كان نبي الإسلام ﷺ محاصرًا في بواكير الدعوة، وكانت تحدّيات الواقع والخصوم تتنامى، مع شحّ المهتدين وتعثّر الآمال في لين قلوب الكبراء؛ ولذلك كان من العسير التنبّؤ بأيّ مستقبل للدعوة.. لكنّ القارئ للقرآن يرى أنّ هذا الكتاب مرتّب في تقسيمه للدعوة، من مراحلها الأولى حتى وفاة نبي الإسلام ﷺ.

لقد استهلّ القرآن بالأمر البسيط: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، ثم تتدرّج إلى تكليف الرسول بالأمانة: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدَّثر: ٢]، ثم

(١) رواه ابن حبان، كتاب الرقائق، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم التوبة في جميع أسبابه (ح/ ٦٢٠). صحّحه الألباني.

دعوة المقربين بادي الأمر: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ثم دعوة أهل مكة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]، ثم دعوة ما جاور مكّة: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وأخيرًا دعوة الناس جميعًا.

وكذلك كان أمر الترتيب المتمهّل الممّهد أوله لآخره بالدعوة إلى التوحيد وبناء الشخصيّة المسلمة في مكّة ليبدأ بناء الكيان السياسيّ في المدينة بعد نضج العقليّة المسلمة والنفسيّة المستسلمة لأمر الله بالطاعة... وبيان الأسس الجوهريّة للكتاب في السور المكيّة أولًا، ثم شرح ذلك وتطبيق تلك المبادئ العامة في السور المدنيّة.

وقد استمرّ هذا المجرى الطويل للأحداث في الحركة السهلة إلى مقاصدها المرسومة منذ أوّل الطريق، منذ القطرات الأولى في غار حراء عندما أُنذر (محمّد) ﷺ أنّه سيتلقّى تنزيلًا إلٰهيًّا حكيمًا، حتّى يوم حجّة الوداع عندما علم أنّ مهمته قد انتهت، وتمّ أمر الدعوة وأسدل ستار الضيق والمحنة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهكذا لم يكن في القرآن وترتيب مراحل الأمر فيه شيءٌ مرتجل، وإنّما هو الخبر المرتّب والمستقبل المكشوفة حجبه حتى وفاة النبي ﷺ في بشارة النصر، أو كما تُسمّى أيضًا: «سورة التوديع» التي أخبرت برحيل نبي الإسلام ﷺ عن الدنيا[1][2].

---

(١) عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعا ذات ليلة فأدخله معهم فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾. فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ - وذلك علامة أجلك - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول». رواه البخاري، كِتَاب الْمَنَاقِبِ، باب علامات النبوة في الإسلام (ح/٣٤٢٨).

(٢) نبّه على هذه الظاهرة (محمد عبد الله دراز) في عدد من مؤلفاته.

تناظر مواضيع القرآن وأخباره: لم يمنع تعدد مواضيع القرآن وتنوّعها أن يرسم هذا الكتاب صورة متناسقة في عرض تقريراته وأخباره، فهو كتاب يعلم صاحبه مسار الدعوة بالتفصيل، وقد أظهر آياته بعد ذلك على مهلٍ.

ومن طريف ما يُذكر هنا أنّ المستشرقة (أنجليكا نويفرت) قالت لأحد طلبتها المسلمين[1] ـ عندما حلّلت القرآن المكّيّ بنيويًّا بأن درست ألفاظه وجمله وتراكيبه، وانتهت من تفريغ الألفاظ والتراكيب في قوائم وفق قواعد لغويّة سالفة؛ واكتشفت أنّ لديها لوحة متناسقة أدهشتها ـ إنّها ـ لذلك ـ عاجزة عن وصف هذا البنيان.

فقال لها طالبها: أمعجزة؟

فقالت: نعم![2]

ترتيب الأفكار في السورة الواحدة: نزلت سورٌ طويلة من القرآن على مدى زمني طويل، وقد تنوّعت مواضيعها وظروف إعلان آياتها على صورة لا تغري نبي الإسلام ﷺ بالاهتمام بترتيب دفق الأفكار في السورة الواحدة على الوجه الذي يجعل السور مقاطع مرتّبة البناء؛ فإنّ (غايات) الآيات وتعلّقها بدقيق مشاكل الدعوة مثبّط عن الحرص على الاهتمام بالبناء النهائي للسور.

والنظر في بناء السور التي نزلت مفرّقة على مدى سنين أو أشهر كاشف عن نقيض ما يحدس به الظن. ومن ذلك حال سورة البقرة التي نزلت على مدى طويل بعد الهجرة. فقد قام العلامة (محمد عبد الله دراز) بدراسة هذه السورة على مكثٍ، فإذا هي تكشف في بنائها عن ترتيب بديع؛ إذ اشتملت على: مقدّمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة، رغم طولها وتعدّد مواضيعها بما يوهم بتشتّت مباحثها.

المقدّمة: في التعريف بشأن القرآن، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ

---

(١) الدكتور (إبراهيم أبو هشهش) أستاذ اللغة العربية اليوم في جامعة بيرزيت.

(٢) نقل عنه بسام جرار، إعجاز الرقم ١٩ في القرآن الكريم. مقدمات تنتظر النتائج (بيروت: المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م)، ص٣٩، مشافهة. (مخالفتي لصاحب كتاب «إعجاز الرقم ١٩» مشروعه في الإعجاز العددي لا ينفي عن الرجل الفضل والصدق).

حدًّا من الوضوح لا يتردّد فيه ذو قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض.

المقصد الأول: في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

المقصد الثاني: في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين.

المقصد الثالث: في عرض شرائع الدين الحق تفصيلًا.

المقصد الرابع: ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع وينهى عن مخالفتها.

الخاتمة: في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم[1].

وما انتهى إليه (دراز) من بحث هادئ رصين، مثير لا ريب؛ إذ أبان عن نظام موضوعي رصين مخالف لفوضى الأحداث التي لازمت نزول الآيات[2]. وهو أيضًا ما انتهى إليه علماء آخرون ـ كـ(أبي بكر النيسابوري)، و(الرازي)، و(ابن العربي)، و(البقاعي)، و(الشاطبي) ـ في أمر بقيّة سور القرآن.

---

(١) دراز، النبأ العظيم (الكويت: دار القلم، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م)، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) قال الشيخ دراز رحمه الله في ختام بحثه لوحدة نصّ سورة البقرة: «تلك هي سورة البقرة.. أرأيت وحدتها في كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها، لا أقول أحسن دمية، بل أجمل صورة حية. كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسوم، وفقًا لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها.. فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها ـ كسائر النجوم في سائر السور ـ كان يوضع في رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارًا لحلوله؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل؟ ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام، بل بتسعة أعوام؟
لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية «معجزات» ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات!». (دراز، النبأ العظيم، ص٢٨٤).

ث ـ رجل بلسانين؟

يلزم من القول: إنّ القرآن صادر أصالة عن فم (محمّد) ﷺ أن يكون معبّرًا عن أسلوبه ﷺ في التعبير عن فكره وشعوره. وحتّى لو قيل: إنّه كان يمعن في محاولة التمييز بين قوله وأسلوب القرآن البلاغي والبياني، فإنّ ذلك لا ينفي البتة أنّ هذا الكتاب المتعدّدة أغراضه، والذي يعبّر عن جوهر الدعوة المحمّدية وكثير من تفاصيلها، لا بد أن يحمل جوهر الأسلوب المحمّدي في التعبير وأن يتّصل به من ناحية المعجم اللفظي، والأسلوب التعبيري.

وقد اهتدى إلى الفارق المستشرق (أ. ج. أربري)[1]، فقال: «نحن نعرف جيّدًا كيف كان محمّد يتكلّم في حاله العادي، ومزاجه اليومي؛ فإنّ كلامه العارض قد حُفظ بوفرة. إنّه من الباطل بوضوح إذن القول كما يزعم مرجليوث أنّه «من الصعب أن نجد حالة أخرى حيث يتطابق بصورة كليّة العمل الأدبي وعقل من أنتجه». يبدو أنّه من الأصوب بعد قبول صحّة جلّ أقوال محمّد المسجّلة في كتب التراث ـ وعندنا أسباب قويّة لقبول ذلك ـ، وافتراضُ نفس افتراضِ مرجليوث أنّ القرآن كان صنعة واعية لمحمّد، أن نقول: إنّه من الصعب أن نجد حالة أخرى [مع حالة محمّد] حيث يختلف التعبير البلاغي لرجل بصورة جوهريّة عن حديثه العادي»[2].

وقد درس بعض النقّاد الفارق اللغوي بين القرآن والحديث النبوي؛ فاهتدوا بدلائل تفصيلية، بعضها حسابيّ إحصائيّ، إلى الفارق البيّن بينهما، ومن ذلك أنّ دراسة أجريت في المقارنة بين ألفاظ القرآن وألفاظ أحاديث «صحيح البخاري»، فكان من نتائجها المثيرة أن ٦٢٪ من ألفاظ الحديث لا وجود لها في المعجم القرآني، و٨٣٪ من ألفاظ القرآن لا وجود لها في معجم ألفاظ الحديث[3].

---

(١) أ. ج. أربري A. J. Arberry (١٩٠٥ ـ ١٩٦٩م): أحد أشهر المستشرقين البريطانيين. عمل رئيس قسم الدراسات القديمة في الجامعة المصرية. اشتهر في الأوساط العلمية بترجمته الإنجليزية للقرآن.

(٢) A. J. Arberry, *The Holy Koran: An Introduction with Selections*. pp. 31-32

(٣) Halim Sayoud, Author discrimination between the Holy Quran and Prophet's statements, in *Literary and Linguistic Computing*, Vol. 27, No. 4, 2012.

كما درس أحد الباحثين المتخصصين أكاديميًّا في النقد الأدبيّ هذا الموضوع نفسه في كتاب له بعنوان: «القرآن والحديث مقارنة أسلوبية». وقد أبان فيه بتمثيل واسع أنّ الكلام النبوي بعيد بصورة واسعة عن التعبير القرآني، بجلاء، فقد قارن بين المعجم القرآني: اللفظي والأسلوبي، وما جاء في أهم كتب الحديث: البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجه ومسند أحمد وموطأ مالك. وكشف البحث أنّ عامة الألفاظ الواردة في الحديث فيما يتعلّق بعصر الرسول ﷺ كأمور الحياة اليومية (الطعام والشراب واللباس والزينة)، وأسماء أعلام الزمن (كأسماء أيام الأسبوع والأشهر والفصول والأعياد)، والمقاييس والمكاييل (كالشبر والذراع والقيراط والصاع)، ومعالم البيئة الطبيعية الصحراوية (كالطبوغرافيا والحشرات والحيوانات والطيور)، والمجال الاجتماعي (كتنظيم القبيلة وطبائع العلاقات العربية)، والميدان الحربي (كالأدوات الحربية والتنظيم القتالي)، ومعجم الطهارة والصلاة وعامة المظاهر النسكية، . . . إلخ، لا وجود لها في القرآن، البتة أو قليلًا.

والأمر بالمثل فيما يتعلّق بثنائيات تكرّرت في الحديث دون القرآن (مثل: الأجر والوزر، والآجل والعاجل)، واستعمال ألفاظ وردت في الحديث بمعان أو في سياقات ليس لها في القرآن نظير (ككلمة إمام[1]، وحدود[2] . . .).

ووجود عبارات كثيرة تكرّرت في القرآن دون الحديث (مثل: آمنوا وعملوا الصالحات، ويجادل في آيات/ الله، أفلا تعقلون. . .)، أو في الحديث دون القرآن (مثل: ما بال كذا، بين ظهراني، ألا أعلّمك. . .). ووجود صور حديثية متكررة ليست في القرآن (كالحديث عن البدر، والبطن، والنجم)، وكذلك الأمر مع تراكيب حديثية كثيرة (مثل: نِعم/بئس العبد، أيّما كذا، إيّاك/إيّاكم وكذا. . .)، وندرة أسماء الأعلام في القرآن على خلاف

---

(١) إمام الصلاة.

(٢) جمع حد: عقوبة مقدرة في الشرع؛ لأجل حق الله تعالى.

الحديث الزاخر بأسماء الأشخاص، والقبائل، والأماكن...[1].

والأمر في حقيقته واضح يُدركه كلّ من يعرف التمييز بين أساليب البلاغ والبيان، ولذلك قال (الباقلاني) في الفرق بين نظم القرآن الكريم وما جاء في خطب نبي الإسلام ﷺ ورسائله: «إن كان لك في الصنعة حظ، أو كان لك في هذا المعنى حس، أو كنت تضرب في الأدب بسهم، أو في العربية بقسط ـ وإن قلَّ ذلك السهم، أو نقص ذلك النصيب ـ فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله، وما عساك تسمعه من كلامه، ويتساقط إليك من ألفاظه، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونًا بعيدًا، وأمدًا مديدًا، وميدانًا واسعًا، ومكانًا شاسعًا.

فإن قلت: لعله أن يكون تعمّل للقرآن، وتصنّع لنظمه، وشبّه عليك الشيطان ذلك من خبثه، فتثبّت في نفسك، وارجع إلى عقلك، واجمع لُبَّك، **وتيقّن أن الخُطب يحتشد لها في المواقف العظام، والمحافل الكبار، والمواسم الضخام، ولا يتجوّز فيها، ولا يستهان بها، والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه، ويشمر لها عن جد واجتهاد،** فكيف يقع بها الاخلال؟ وكيف تعرض للتفريط؟ فستعلم، لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلٰهي، وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي»[2].

ج ـ رجل بقلبين؟

إذا كان القرآن سبيكة عقل نبي الإسلام ﷺ، فهو ـ ولا شكّ ـ أثرٌ عن إرادته الواعية ورغباته الدفينة أو الطافية على سطح وعيه.. ولكنّ القرآن يسير في غير ذلك المضمار:

الريبة والاستيثاق: الكتاب الذي يحبكه من يفتري النبوّة تغمره لغة اليقين والتهويل حتى يهيمن صاحبه على عقول التابعين ويأسر أرواحهم.. أمّا القرآن

---

(١) إبراهيم عوض، القرآن والحديث مقارنة أسلوبية (القاهرة: مكتبة الزهراء، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م).

(٢) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص١٣٥ ـ ١٣٦.

والسيرة فيظهران لك حال التردّد في أوّل الأمر خشية أن يكون الحال غير حال النبوّة. وتلك هي النفس الصادقة!

لقد نزل القرآن على نبي الإسلام ﷺ في وحشة الغار، فخشي النبي ﷺ أن يكون قد أصابه شيء من مسّ الجن، فرجع مضطربًا إلى زوجه خائفًا، يقول: «**زمّلوني! زمّلوني!**»[1]، فلم يتحمّل قلبه ثقل الموقف ومفاجأته لنفسه التي حنفت عن طريق عبّاد الوثن والصنم، واختَلت في الغار تتعبّد الإلٰه الحق.

كما كان نبيّ الإسلام ﷺ عظيم اللهفة لحفظ ما يسمع؛ بما أرهق صدره لعجلته بتكرار ما يطرق أذنه حتى يحفظه ولا ينساه، ولذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩][2]. فلم يهدأ روعه حتّى جاءه الوعد بحفظ ما يسمع.

إنّك لا تجد سلطان من يختلق ما يقول في علاقة نبيّ الإسلام ﷺ بالقرآن؛ إذ هو يقبل القرآن بعد ريبة، ويحفظه بلهفة؛ وذاك برهان أنّه يتلقّاه تلقّي من يأتيه الخبر من خارجه فلا يملك الهيمنة عليه.

العتاب الشديد في الاجتهاد المرجوح: يحرص الرجل الذي يخترع ما يقول لإيهام الناس بنبوّته على إظهار العصمة التامة في كلّ شأنه، فهو مظهر إرادة الربّ وفعله على الأرض.. ولم يكن نبيّ الإسلام ﷺ كذلك؛ فإنّ القرآن قد ذكر غير مرّة عتاب الربّ له، تخطئة لاجتهاده في فعل لأمر أو انتهاء عن حق، فقال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه البخاري كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة (ح/ ٦٥٨١)، ومسلم، كِتَاب الْإِيمَان، باب بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ (ح/ ١٦٠).

(٢) روى البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي (ح/ ٥) ومسلم، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة (٤٤٨)، عن (ابن عباس) قوله: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يُحرك به لسانه يُريد أن يحفَظَه مخافةَ أن يتَفَلَّتَ منه، أو من شدة رغبته في حِفْظه فكان يلاقي من ذلك شدة فأنَزَل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾. قال: ﴿جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك ثم تَقْرَأُه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ قال فاستَمِعْ له وأنْصِتْ، ثم إن علينا أن نبيّنه بلسانك؛ أي: أن تقرأه».

صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

وإنّك إذا نظرت في جميع هذه الأحوال، ترى **أمرًا عجبًا** ينفي عن هذا العتاب ما قد يقع في ذهن المخالف من أنّه وسيلة للتملّص من زلّة مشهودة تنكرها طباع العامة؛ وهي أنّ كلّ المسائل التي عوتب فيها نبيّ الإسلام ﷺ هي من المسائل الاجتهاديّة التي ربّما يذهب إليها عامة الصلحاء إذا لم يكن معها مرشد وحي. ولعلّ من أظهرها السورة المسمّاة «سورة عبس»، وهذا اسم للسورة شديد كما ترى. ولعلّه يقع في ذهن من يسمع قرع هذا العنوان الشديد أنّ نبي الإسلام ﷺ قد فعل ما لا يقع في خلد سليم الصدر ومستقيم الفعل.

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ١ ـ ١٠]. لقد كان نبيّ الإسلام ﷺ في غمرة الحديث الحار مع واحد ـ أو أكثر ـ من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام وخيره، ويحذّرهم الشرك وشرّه؛ إذ أقبل عليه رجل أعمى من أغمار الناس يسأله عن الحقّ الذي جاء به. فأعرض عنه الرسول ﷺ لانشغاله بمحاورة كبير القوم المتكبّر على الحقّ.. ولمّا انتهى المجلس نزل قرآن شديدٌ لفظه يعاتب النبيّ ﷺ أن أقبَلَ بكلّ نفسه على المشركين المدبرين، وترك أمر هذا الرجل الضعيف الذي جاء ينشد الهدى.

اسأل نفسك الآن: لِمَ يعاتب نبيّ الإسلام ﷺ نفسه في بيئة تحكمها

شبهات المشركين، ويتلقّط فيها صناديد الكفر أيّ فرصة للطعن في محمّد ﷺ وأخلاقه وكتابه؟! لمِ يعاتب نفسه هذا العتاب الشديد رغم أنّ المقام لا يقتضي ـ في عرفنا نحن البشر القاصرين ـ إنزال سورة بهذا الاسم الذي يرسم الملامح الشديدة لوجه النبيّ لمّا جاءه رجل من ضعاف الناس يسأل عن الحق؟! لقد كان نبيّ الإسلام ﷺ منهمكًا في بلاغ الرسالة واهتبال فرصة الجلوس مع أكابر المشركين؛ فإنّه بإسلامهم يرتفع الغبن عن المسلمين، وتنفتح أبواب من الخير أمام الدعوة الطريدة.. ولن يفوت خير إن فات هذا الرجل المغمور سماع رسالة الإسلام في هذا المجلس.. إنّ في عمر الرسالة فسحة واسعة لمخاطبة هذه الطبقة، وأمّا الأكابر فلا سبيل لإسماعهم دعوة الحقّ بعد أن تمالأ عليها أصحاب السلطان المادي.. لم يكن أمام نبيّ الإسلام ﷺ نص أوّل مباشر فتجاوزه، وإنّما اجتهاد في أمر ظنّ أنه له في سعة..

إنّني لا أجد تفسيرًا لهذا العتاب القرآني غير أنّ العدل الإلٰهي هو الذي يردّ نبيّ الإسلام ﷺ إلى صارم الحق، وينصف هذا الرجل الأعمى الضعيف والمغمور بسورة يتعبّد الناس بتلاوتها إلى يوم الدّين. وقد أنصف الحقَّ المستشرق (لايتنر) عندما قال: «أوحى الله مرّة إلى النبي وحيًا شديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى، ليخاطب رجلًا غنيًّا من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان محمد كاذبًا ـ كما يقول أغبياء النصارى بحقّه ـ لما كان لذلك الوحي من وجود»[(١)].

الاجتهاد وقبول التخطئة: الرجل الذي يُصنَع الكَلِم على عينه، يفترى المعاني بما يماشي هواه ويحقّق رغائبه. وفي القرآن دلائل متضافرة على أنّ الآيات كانت تنزل على صورة قد تغمض معانيها المقصودة على نبي الإسلام ﷺ باديَ الأمر حتّى إنّه قد يجتهد ﷺ في طلب معناها، ولا يصيب المطلوب حتّى

---

(١) لايتنر، دين الإسلام، ترجمة: عبد الوهاب سليم (دمشق: المكتبة السلفية، ١٤٢٣هـ)، ص١٣٢ (نقله: عبد المحسن المطيري، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم، بيروت: دار البشائر، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، ص١٩٣).

ينزل الوحي فيرشده إلى الصواب، ومن ذلك ما كان عند وفاة رأس المنافقين في المدينة (عبد الله بن أُبيّ ابن سلول)؛ إذ إنّه لمّا هلك «جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه، فأعطاه. ثم سأله أن يصلّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي عليه. فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه!

فقال رسول الله ﷺ: «**إنما خيّرني الله فقال:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]، **وسأزيده على السبعين**».

قال: إنّه منافق!

فصلّى عليه رسول الله ﷺ. فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤])[1]..

ما الذي نحن بإزائه هنا؟ رجل يتأوّل كلامًا ينسبه خصومه إليه رغم مخالفة صاحبه له. ثم ينزل من هذا الكتاب أمرٌ في تصحيح فهمه للآية وتصويب فعل صاحبه الذي خالفه. وهذا الحدث في المدينة حيث كانت المنعة بيده، وباب تمجيد الذات يقول: هل من مزيد؟!

إنّ النفس تستشعر في هذا الموقف جانب الرحمة الذي يطغى على قلب محمّد ﷺ بما يلزمّه أن يلبّي طلب أحد أصحابه بالصلاة على أبيه المنافق، ويتأوّل لذلك آية النهي عن الصلاة على المشركين بما يخالف ما نزلت له، لفرجة في النظر.

ح ـ الحرص على تأكيد بشريّة النبيّ:

الناس نزّاعون إلى الغلو في الأكابر، والنفس ميّالة إلى الاغترار بالمدائح حتى إنّ الرجل إذا برع في أمر من سفاسف المسائل، مما يعلم هو نفسه أنّه ضعيف القدر، يخدعه ثناء الناس وتعظيمهم له حتّى إنّ قلبه ليتحوّل عن إدراك تفاهة ما يفعل إلى الظنّ أنّه يبني للأمّة مجدًا، فما ظنّك برجل يدّعي النبوّة

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة براءة (ح/٤٣٩٣)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين (ح/٢٧٧٤).

ويحرص عليها، والناس يستجيبون لدعوته، ويتمسّحون بذكره.. أتظنّه عندها يترك فرصة تعظيم الذات والنفخ في الملكات حتّى يقترب من مقام التألّه، إن لم يدّعه أصلًا؟!

انظر الآن في حال نبيّ الإسلام ﷺ، واقرأ في صحائف القرآن كيف مقامه! إنّك لن تجد في القرآن تقريرًا يتكرّر في حال النبيّ ﷺ أكثر من تأكيد بشريّته، وأنّه بلا حول ولا قوّة، حتّى إنّه لا يدري إلى أين يكون أمره: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: ٩].. لا سلطان له لاستجلاب خير أو دفع شرّ، ولا هو يعرف الغيب: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ولولا فضل الله عليه بتثبيته على الحق لركن إلى أهل الباطل قليلًا ـ محبّة هدايتهم إلى الإسلام ـ؛ ولكان عاقبة أمره وبيلًا: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤ ـ ٧٥]، ولذلك كان من مأثور دعائه: «**اللَّهُمَّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»[١]. ولم يكن له سلطان على الشياطين، وإنّما أُمِر أن يستعيذ بالله منهم إذا راودوا قلبه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨]. لقد كان يعيش بين خوف ورجاء: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزُّمَر: ١٣].

لم تكن التقريرات القرآنيّة السابقة محض خبر لادّعاء التواضع، ليخالفها النبيّ ﷺ إذا لاقى أصحابه وعامله خصومه، وإنّما كانت حياة النبيّ ﷺ ترجمة لها، وتربية للنفس والصحب عليها، رغم جنوح المحبّين ـ أحيانًا ـ إلى تجاوز الأمر في تبجيله إلى حدّ الغلو؛ ومن ذلك أنّه ﷺ لمّا سمع جويريات يضربن

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (ح/١٤٧). حسّنه الألباني.

بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية: وفينا نبي يعلم ما في غد، قال لها النبي ﷺ زاجرًا ومعّلمًا: «**لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين**»[1]. ولمّا سمع أصحابَه يغالون في وصفه، قال لهم: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ؛ فقولوا عبد الله ورسوله**»[2].

٢ ـ هل القرآن كتابُ منفعِل؟

إذا كان القرآن كلام محمّد ﷺ دون أن يكون قد افتعله، فلا يبقى عندها إلّا أن يكون القرآن أثر انفعال عن نفسه بلا تدبير، فهو فيض من لا يملك أمر عقله؛ إذ يجري على لسانه دون أن يقصد العقل اختلاقه.. فهل يصحّ أن يكون القرآن أثرًا لمرض الصرع؟ وهل الأحوال العجيبة التي تنتاب نبيّ الإسلام ﷺ عند نزول القرآن شاهد لحال الانفعال المرضيّ الذي من الممكن أن يفيض منه كلام ككلام القرآن؟ إنّنا إن عجزنا أن نرى في حال الاهتياج القسري مطابقة لحال نزول القرآن، لزمنا أن نردّ القرآن إلى غير الافتعال أو الانفعال؛ أي: الاستسلام لرسالة الوحي العلويّ.

أ ـ هل كان نبيّ الإسلام مصروعًا؟

يقول (سي إس لويس)[3] دفاعًا عن دعوى ألوهية المسيح: «الإنسان الذي كان مجرّد إنسان وقال جنس ما قاله عيسى لا يمكن أن يكون معلّم أخلاق عظيم. إنّه يجب أن يكون مجنونًا بنفس مستوى جنون من يقول عن نفسه إنّه بيضة مسلوقة، أو أن يكون شيطانًا مريدًا. عليك أن تختار؛ هذا الإنسان كان ولا يزال ابن الله، أو هو مجنون، أو هو شيء أسوأ من ذلك»[4].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (ح/ ٣٧٧٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ (ح/ ٣٢٦١).

(٣) سي إس لويس C. S. Lewis (١٨٩٨ ـ ١٩٦٣م): أديب وناقد أدبي يريطاني. يعتبر من الطبقة الأولى من دفاعيي النصارى في القرن العشرين. من مؤلفاته: "The Problem of Pain" و"Miracles: A Preliminary Study".

(٤) C. S.Lewis, *Mere Christianity* (New York: Zondervan, 2001), p.52.

وبعيدًا عن إنكارنا على (لويس) إهماله الاحتمال الرابع، وهو أنّ (عيسى) عليه السلام من الممكن أن يكون رسولًا نبيًّا، نحن نوافقه أنّه لا سبيل لصدق الداعي إلى السماء حتى ينتفي احتمال أن يكون كذّابًا أو موهومًا واقعًا تحت سلطان مرض عقلي أو اختلال نفسي.

وقد سبق وأن أبانت تهمة الدجل عن فقر رصيدها المحتمل في سيرة (محمد) صلى الله عليه وسلم، وأنّها لا تجد في تاريخ السيرة ما تمتح منه لِروائها، فلم يبق غير الوهم، واستلاب العقل، طعنًا في النبوّة المحمّدية.

لم يغفل المستشرقون عن أهميّة القول بنسبة (محمد) صلى الله عليه وسلم إلى الصرع باعتباره المنقذ من السيرورة إلى الإذعان لصدقه، فهو وإن كان صادقًا في قوله، لا يقصد إلى مخادعة الناس ولا يبغي مخاتلتهم لاستلابهم أموالهم أو عقولهم، لكنّ ذلك لا يدلّ على صدق نبوّته؛ إذ إنّه كان موهومًا بالنبوّة، كما أوهِم بها كثير من أدعياء النبوّة والمسيحانيّة والمهدويّة.

وهي تهمة لها أثر من ماض، فقد قال أهل مكة في (محمّد) صلى الله عليه وسلم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحِجر: ٦]، وقالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٦].

وهي تهمة مكرورة، ربما لم يفلت من نصلها الجارح نبيّ، فقد جاء في (نوح) عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾ [القمر: ٩]، وقيل في (موسى) عليه السلام: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٣٩]، وجاء في جماعة الأنبياء: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

لم يتابع أحدٌ من خصوم النبوة بعد عصر الرسالة مشركي مكّة قولهم في تهمة الجنون، وإنّما صاغوها في قالب آخر، وهو القول: إنّ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وسلم كان مصابًا بالصرع، وشاهِدُهم ما ينتابه من حال غريب عند نزول القرآن.

لا تكاد تجد زادًا لهذه التهمة غير الأعراض الغريبة التي كان تقترن بإعلان (محمّد) صلى الله عليه وسلم آياتٍ قرآنية جديدة. وهي أعراض لا تطابق أعراض

الصرع، كما أنّ الصرع يقترن بإنهاك الجسد وإفساد العقل لا الخروج على الناس بكلام في غاية الحكمة والإبهار.

يقول المستشرق (مونتجمري وات): «زعم خصوم الإسلام كثيرًا أنّ محمّدًا مصابٌ بالصرع؛ ولذلك فلا مصداقيّة لتجاربه الدينيّة. في الحقيقة، الأعراض التي وُصِفت لنا ليست مطابقة لأعراض الصرع؛ إذ إنّ ذاك المرض يؤدي إلى انتكاس بدنيّ وعقلي، في حين أن محمّدًا كان في كامل السيطرة على ملكاته حتّى النهاية. بل حتّى لو كان هذا الادّعاء صحيحًا؛ فإنّ هذه التهمة ستكون باطلة بصورة تامة وقائمة على محض الجهل والأفكار المسبقة؛ إذ إنّ الأعراض الجسديّة لا تثبت التجربة الدينية ولا تنفيها»[١].

خلاصة الكلام في الفرق بين ما كان يصيب نبيّ الإسلام عند نزول القرآن وبين الصرع:

أعراض الصرع	أعراض نزول القرآن
مصدر للانتكاس الجسدي.	لا يؤثّر على الصحّة الجسديّة.
مصدر للألم الجسدي.	لا يعقبه ألم.
يؤثّر سلبًا على الذاكرة.	الذاكرة قويّة.
مصدر للتأذّي النفسي.	لا يؤثّر سلبًا على النفسيّة.
يعقبه خوف وقلق.	يعقبه انشراح.
مصدر للانتكاس الذهني.	يعقبه إشراق ذهني.
له وجه مرضيّ واحد.	كان الوحي ينزل بشدّة، وبدونها كأن يتمثّل الملك رجلًا فيخاطبه النبيّ ﷺ.

فهذه الأعراض ـ إذن ـ لا تصحّ معادلتها بحال المصروعين لاعتلال أهل هذا البلاء؛ إذ تذهب بوعيهم وسلطان العقل على فعلهم. بل حتّى لو سلّمنا أنّها أعراض مشابهة لأعراض الصرع، فسيبقى القول: إنّ المشابهة لا تعني

(١) Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca*, p. 57.

المطابقة؛ فإنّ للوحي ثقلًا على النفس يرهقها، كما أنّ الصرع يجثم على البدن فيهزّه ـ وإن اختلفا في غيرما وجه ـ. .

الحقيقة أنّها فوارق جليّة المعالم، حاسمة في نفي التطابق أو المشابهة الموهمة بوحدة الأصل، ولذلك وُلِدت هذه الشبهة في العصور الوسطى وانتهت منذ زمن، وهو ما اعترف به أحد الذين أرادوا إحياء هذه الفرية بقوله الكريه إلى نفسه: «ردَّ العلماء الغربيون المعاصرون الدارسون للإسلام توصيف الصرع»[1] لحال نبيّ الإسلام، وذلك أنّ تاريخ حياته قبل النبوّة ليس فيه برهان لحالة الصرع المزعومة، وما جاء به من تشريع وتنظيم للأمة الجديدة يعارض ذلك ـ كما أقرّه الطبيب والمستشرق الألماني (ماكس ميرهوف)[2][3].

ب ـ أوجاع ظاهرة الوحي وبراعة النص القرآني:

القرآن قطعة بيانيّة نادرة (مهما كان توصيف المرء للندرة هنا)، وعرض عميق في الميتافيزيقا، ومنظومة تشريعية مميزّة، ونسق أخلاقي خاص. . . وربط تلك الخواص بأعراض نزول الوحي، شديد النكارة؛ إذ إنّ من هذه الأعراض ما هو شديد الوطء على النفس، وسبب لتشتيت الذهن لا تجميع الفكر. . **فمن هذه الأعراض:**

- سماع صوت كدويّ النحل عند وجه النبيّ ﷺ[4].
- يتصبّب النبيّ ﷺ من العرق في اليوم شديد البرد[5].
- قد يغشاه كرب، ويربد وجهه ﷺ[6].

---

(١) Frank R. Freeman, A Differential Diagnosis of the Inspirational Spells of Muhammad the Prophet of Islam, *Epilepsia,* vol. 17:423 - 7.

(٢) ماكس ميرهوف Max Meyerhof (١٨٧٤ ـ ١٩٤٥): مستشرق يهودي. من أعظم الباحثين في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب. نشر ثلاثمائة دراسة بين مقالة وتحقيق مخطوطة.

(٣) Max Meyerhof, *Le Monde Islamique* (Paris: Rieder, 1940), pp.10 - 11.

(٤) رواه الترمذي، كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ (ح/ ٣١٧٣).

(٥) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي (ح/ ٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (ح/ ٢٣٣٣).

(٦) رواه مسلم، كِتَاب الْحُدُود، باب حدّ الزنى (ح/ ١٦٩٠).

● يغطّ كغطيط البكر[1].

● يثقل وزنه حتّى ليكاد يكسر رجل الجالس بجنبه أو تبرك به دابته[2].

ماذا يمكن أن نستجلي من هذه الظواهر المصاحبة للوحي:

١ ـ ظواهر غير طبيعية في ذاتها: دويّ النحل وثقل الجسم بصورة مفاجأة وهائلة؛ فلا تفسير لها في قوانين المادة.

٢ ـ ظواهر مفاجئة ليس لصاحبها عليها سلطان؛ فهي ليست مفتعلة.

٣ ـ ظواهر مصدر ضيق وشدّة واضطراب، لكن ـ على خلاف العادة ـ يعقبها كلام متين مشرق.

٤ ـ يعقب مظاهر الكرب كلام يُتحدّى ببلاغته وبيانه خصوم الدين.

مرّة أخرى يُمعن القرآن في إظهار إعجازه؛ إذ يأتي الكلام المعجز عقب مقدمات تمنع أن يأتي بعدها كلام سليم من الآفات، فضلًا عن أن يكون مجوّدًا مبنى ومعنى..

في الفصل السابق تبيّن لنا أنّ القرآن الكريم قد اختار الدرجة الأدنى في تسامحها مع المخالف عند طلب المعارضة (= سورة قصيرة تقارب القرآن بلاغة وبيانًا)، رغم أنّ طبيعة نزول القرآن، ومواضيعه تأبى أن يكون الكلام فصيحًا، إضافة إلى أنّ من جاء بهذا الكتاب لم يُعرف بممارسة الشعر، وهو طريق إتقان البيان وإظهار البراعة في سبك الكلام الموزون عند العرب. وفي هذا الفصل تبيّن لنا الانفصال النفسي بين القرآن ومحمّد ﷺ، إضافة إلى أنّ ظروف تنزّله تمنع ـ في مجرى العادة ـ أن يكون مبهرًا، فضلًا عن أن يكون فصيحًا.

وماذا عن النصرانية؟

القرآن كتاب أظهره محمد ﷺ في القرن السابع، وقد أخبر بصريح البيان

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، بَاب غَسْلِ الْخَلُوقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ الثِّيَابِ (ح/١٥٣٦)، ورواه مسلم، كتاب الحج، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة وما لا يباح (ح/١١٨٠).

(٢) رواه البخاري، كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، باب قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ح/٢٦٧٧).

أنّ هذا الكلام من عند الله، كما يدلّ حال نبيّ الإسلام ﷺ مع القرآن ـ كما بيّناه سابقًا ـ أنّ هذا الكتاب ربانيّ المصدر. وفي المقابل، عند النظر في العهد الجديد ـ المسمّى مجازًا بالإنجيل ـ نلاحظ عددًا من الأمور التي تنفي الربانيّة عن أصل أسفار العهد الجديد (حتى لو كان فيها أثارة من وحي). ومن هذه العلامات:

• **لم يدّعِ أحدٌ من كُتَّاب الأناجيل أنه شاهد عيان، ولا أنه ملهم**: لم يدّعِ أحد من الذين ألّفوا أسفار العهد الجديد ـ خاصة الذين كتبوا قصة المسيح ـ أنهم شهود عيان لخبر المسيح، كما أنّ من ذكر منهم قصة المسيح لم يدّعِ أنه يكتب بإلهام إلٰهي. وأما ما جاء في الفصل الأخير من إنجيل يوحنا، العدد ٢٤: «هذَا هُوَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهذَا وَكَتَبَ هذَا. وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَقٌّ»، فعامة النقاد على التشكيك في أصالته؛ إذ يذهب جمهور النقاد إلى أن الفصل ٢١ برمّته إضافي ملحق ليس من تأليف صاحب هذا الإنجيل[١]، بالإضافة إلى أن عامة النقاد على أن مؤلف الإنجيل الرابع مجهول، وليس من طبقة الحواريين[٢].

• **الطابع الشخصي للكتابات**: تتميز كثير من كتابات العهد الجديد بالطابع الشخصي لعباراتها بما يخالف روح الكتابات الإلٰهية التي تخاطب الناس بعبارات علوية توجيهيّة. **من هذه العبارات**:

«يُسَلِّم عَلَيْكِ أَوْلاَدُ أُخْتِكِ الْمُخْتَارَةِ» (٢ يوحنا ١/ ١٣).

«وَلكِنَّنِي أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ عَنْ قَرِيبٍ فَنَتَكَلَّمَ فَمًا لِفَمٍ. سَلاَمٌ لَكَ. يُسَلِّمُ عَلَيْكَ الأَحِبَّاءُ. سَلِّمْ عَلَى الأَحِبَّاءِ بِأَسْمَائِهِمْ» (٣ يوحنا: ١/ ١٤).

«الرداء الذي تركته في تراوس عند كابرس أحضره متى جئت، والكتب أيضًا لا سيما الرقوق.... سلم على ريسكا وأكيلا وبيت أنيسيفورس،

(١) Raymond E. Brown, *The Gospel According to John (XIII-XXI): Introduction, Translation, and Notes* (New York: Doubleday, 1970), 1077 - 78.

(٢) Edwin D. Freed, *The New Testament: A Critical Introduction* (Belmont, CA: Wadsworth/Thomson Learning, 2001), p.337.

أراستس بقي في كورنثوس، وأما ترو فيمس فتركته في ميليتس مريضًا. بادر أن تجيء قبل الشتاء...» (٢ تيموثاوس ٤/ ١٣ ـ ٢١).

بل لقد صرّح (بولس) أكثر من مرّة أنّه يقول كلامًا ليس من الوحي في شيء: «الَّذِي أَتَكَلَّمُ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ بِحَسَبِ الرَّبِّ، بَلْ كَأَنَّهُ فِي غَبَاوَةٍ، فِي جَسَارَةِ الافْتِخَارِ هذِهِ» (٢ كورنثوس ١١/ ١٧)، «أقول لهم أنا، لا الرب...» (١ كورنثوس ٧/ ١٢)، «وأما العذارى فليس عندي أمر من الرب فيهنّ، ولكنني أعطي رأيًا» (١ كورنثوس ٧/ ٢٥).. بل يقول في رسالة يقدّسها النصارى: «ليتكم تحتملون غباوتي قليلًا» (٢ كورنثوس ١١/ ١).

وبعيدًا عن العبارات الشخصيّة ودلالتها على الطابع الشخصي لكتابات العهد الجديد، صرّح مؤلف إنجيل لوقا أنه لم يكتب إنجيله إلا للمساهمة في بيان ما يعرفه عن المسيح بسبب أنّ غيره فعل ذلك[(١)]. وهو بذلك يكشف دون خفاء بشريّة روايته، ودوافعها الذاتيّة.

المشكلة الإزائية: من أعظم أدلّة بشرية الأناجيل ما يُعرف بـ«المشكلة الإزائية» (Synoptic Problem)، وهي مشكلة معرفة العلاقة بين الأناجيل الثلاثة: متى ومرقس ولوقا[(٢)]؛ إذ تبدو هذه الأناجيل متشابهة بصورة كبيرة فيما بينها مقارنة برواية إنجيل يوحنا. وقد انتهى عامة النقّاد بأدلّة تبدو حاسمة أنّ كلًّا من (متّى) و(لوقا) كانا يقتبسان من (مرقس) حتى نقلا ـ تقريبًا ـ كلّ ما فيه مع تعديل لأمور لم يرتضياها، وزياداتٍ[(٣)]. وهذا الأمر محرج للكنيسة؛ إذ هي تعترف أنّ (مرقس) لم يكن حواريًّا، ولم يشهد ما نقله في إنجيله عن خبر

---

(١) لوقا ١/ ١ ـ ٤: «إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ».

(٢) الأناجيل مجهولة المؤلفين، ولذلك فعندما ننسب الكلام إلى (متّى) أو (مرقس) أو (لوقا) أو (يوحنا)، فنحن نحيل حقيقة إلى الإنجيل المنسوب إلى أحدهم لا إلى الشخصيات التي تحمل هذه الأسماء.

(٣) Hajo Uden Meyboom, *A History and Critique of the Origin of the Marcan Hypothesis, 1835 - 1866*, tr. John J. Kiwiet (Louvain, Belgium: Peeters; Macon, Ga.: Mercer, 1993).

المسيح، ولا شكّ أنّه يلزم من ذلك أنّ الأناجيل الثلاثة الأولى لم يكتبها شهود عيان لاعتماد اثنين من الثلاثة على إنجيل كتبه من لم يرَ المسيح.

القائمة القانونية للأسفار: مشكلة قانونية الأسفار هي مشكلة تحديد سبب اختيار النصارى (المنتصرين في مجمع نيقية) للسبع وعشرين سفرًا في العهد الجديد. لماذا ـ مثلًا ـ تمّ اختيار الأناجيل الأربعة دون غيرها؟ لا نعلم جوابًا؛ فقد كشف لنا التاريخ أنّ هذه الطائفة من النصارى قد ذهبت إلى قداسة هذه الأناجيل في القرن الثاني. ويشهد (إيرانيوس)(١) في ذات القرن أنّه ما كان للكنيسة أن تختار غير أناجيل أربعةٍ عددًا؛ لأنّ زوايا الأرض أربع والرياح أربع(٢)، رغم أنّه ليس للأرض زوايا، ولا علاقة منطقية أو تاريخية بين الاتجاهات والرياح ووجود روايات أربع لقصة المسيح!

مشكلة قانونية الأسفار وعلاقتها بالوحي تمثل معضلة تاريخية للباحثين النصارى، **ويزيدها إشكالًا**:

١ ـ جهلنا بغياب معايير التقنيين، وما يدّعيه الدفاعيون النصارى أنّ استقامة العقيدة ونسبة الأسفار إلى الرسل هما الحجة في إلحاق الأسفار بالقائمة القانونية للعهد الجديد، لا يحلّ الإشكال؛ لأنّ معيار استقامة العقيدة هو موافقته للعقيدة الموروثة عن الرسل، ومن دواعي الإقرار بنسبة الأسفار إلى الرسل ـ في غيبة الأسانيد ـ أن تكون عقيدة السفر مستقيمة. وهذا دَورٌ، والدور هو: «توقف الشيء على ما يتوقف عليه»(٣)!

٢ ـ جهلنا بزمن التقنين الأبكر.

٣ ـ الاختلاف الكبير بين أئمة النصرانية في القرون الأولى حول قوائم الأسفار المقدسة(٤).

---

(١) إيرينيئوس Irenaeus (١٣٠ ـ ٢٠٢): أحد آباء الكنيسة الأوائل وقدّيسيها والمدافعين عنها. كان أسقفًا لمدينة لوغدونوم.

(٢) Irenaeus, *Adversus Haereses*, 3.11.8.

(٣) الجرجاني، التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي (القاهرة: دار الفضيلة، د.ت.)، ص٩٢.

(٤) انظر في هذا، الكتاب القيم:
Bruce Metzger, *The Canon of the New Testament: Its Origin, Development, and Significance* (Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, 2009).

٤ ـ أول من ذكر السبع وعشرين سفرًا للعهد الجديد كقائمة مقدسة هو (أثناسيوس)[١] في رسالة له كتبها سنة ٣٦٧. وهو زمن متأخّر جدًّا، ومذهبه محض رأي ليس فيه الاحتجاج القويم بالنقل.

هي قضية بلا حل.. وما تطرّق إليه الاحتمال القويّ سقط به الاستدلال في مقام تأسيس العقائد!

• بولس ومرض الصرع: يذهب كثير من النقاد وعلماء النفس إلى أنّ (بولس) ـ الذي تُشكّل كلماته ٢٨٪ من كلمات العهد الجديد ـ كان مصابًا بالصّرع المؤقّت. وقد انتشر العلم بهذا الأمر حتّى إنّ مرض الصرع كان يُسمّى في بعض البلاد «مرض القدّيس بولس» «Saint Paul's disease»[٢].

تعود نسبة (بولس) إلى الصرع ـ أساسًا ـ إلى قصّة تنصّره، والتي يرى فيها عدد من الأطباء العلامات الكبرى للصرع: «وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلًا له: شاول، شاول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الربّ: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. صعب عليك أن ترفس مناخس! فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب، ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة، فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل. وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين، يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدًا. فنهض شاول عن الأرض، وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحدًا. فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق، وكان ثلاثة أيام لا يبصر، فلم يأكل ولم يشرب» (أعمال الرسل ٩/٣ ـ ٩).

من النصوص الأخرى التي يحتّج بها القائلون بابتلاء (بولس) بالصرع ما قاله (بولس) في ٢ كورنثوس ١٢/٢ ـ ٥، ٧ ـ ٨ عن نفسه: «أَعْرِفُ إِنْسَانًا فِي الْمَسِيحِ قَبْلَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً. أَفِي الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ، أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ؟

---

(١) أثناسيوس السكندري Athanasius of Alexandria (٢٩٨ ـ ٣٧٣): أحد أهم آباء الكنيسة وقدّيسيها، وأهم شخصية في تاريخ النصرانية في الانتصار «للعقيدة الأرثودكسية» في مقابل الهرطقات. من مؤلفاته: "De Decretis".

(٢) *The Edinburgh Medical and Surgical journal* (Edinburgh: Adam and Charles Black, 1845), 63/278.

لَسْتُ أَعْلَمُ .اللهُ يَعْلَمُ. اخْتُطِفَ هذَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ. وَأَعْرِفُ هذَا الإِنْسَانَ: أَفِي الْجَسَدِ أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ .اللهُ يَعْلَمُ. أَنَّهُ اخْتُطِفَ إِلَى الْفِرْدَوْسِ، وَسَمِعَ كَلِمَاتٍ لَا يُنْطَقُ بِهَا، وَلَا يَسُوغُ لإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا. مِنْ جِهَةِ هذَا أَفْتَخِرُ. وَلكِنْ مِنْ جِهَةِ نَفْسِي لَا أَفْتَخِرُ إِلَّا بِضَعَفَاتِي.... وَلِئَلَّا أَرْتَفِعَ بِفَرْطِ الإِعْلَانَاتِ، أُعْطِيتُ شَوْكَةً فِي الْجَسَدِ، مَلَاكَ الشَّيْطَانِ لِيَلْطِمَنِي، لِئَلَّا أَرْتَفِعَ. مِنْ جِهَةِ هذَا تَضَرَّعْتُ إِلَى الرَّبِّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَنْ يُفَارِقَنِي.» وقول (بولس) في غلاطية ٤/١٣ ـ ١٤: «لكِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي بِضَعْفِ الْجَسَدِ بَشَّرْتُكُمْ فِي الأَوَّلِ. وَتَجْرِبَتِي الَّتِي فِي جَسَدِي لَمْ تَزْدَرُوا بِهَا وَلَا كَرِهْتُمُوهَا».

النصوص السابقة تضم علامات الصرع التالية:

✓ السقوط المفاجئ على الأرض، مع قدرة المريض على القيام اعتمادًا على نفسه بعد ذلك.

✓ رؤية ضوء مفاجئ.

✓ سماع صوت يوجّهه.

✓ العمى المؤقت لساعات أو أيّام.

✓ العودة المفاجئة لبصره...

وقد نشرت مجلّة الدراسات العصبية والنفسية «Neurol Neurosurg Psychiatry» دراسة علميّة عن صرع (بولس)، وشخّصته أنّه «صرع الفص الصدغي»[(١)(٢)]. ومن اللاهوتيين النصارى الكبار الذين رأوا أنّ (بولس) كان

---

(١) Temporal lobe epilepsy

(٢) D. Landsborough, ‘St Paul and temporal lobe epilepsy’, in *J Neurol Neurosurg Psychiatry*. 1987 Jun; 50(6): 659-664.

رابط المقال:

<http://www/ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC1032067/pdf/jnnpsyc00553-0001.pdf>

من المقالات الطبية الأخرى التي تناولت هذا الأمر:

L. Muhammed, ‘A retrospective diagnosis of epilepsy in three historical figures: St Paul, Joan of Arc and Socrates’, in *J Med Biogr*. 2013 Nov;21(4):208-11

P. Vercelletto, ‘Saint Paul disease. Ectasia and exstatic seizures’ in *Rev Neurol*. 1994 Dec; 150(12):835-839

مصابًا بالصرع، وأنّ تجربةَ تنصّره أصلها معاناة مع الصرع، اللاهوتي والطبيب (ألبرت شفايتزر)[١] في كتابه «التجربة الصوفيّة لبولس الرسول»[٢]. وهذا مذهب عامة النقاد الألمان الذين كتبوا في أمر (بولس)[٣].

خلاصة النظر:

- المفاصلة الفكريّة والشعورية واضحة في علاقة نبيّ الإسلام ﷺ بالقرآن.
- صدق نبيّ الإسلام ﷺ في كلّ أمره يمنع تصديق تهمة افترائه القرآن.
- نسيج التركيب القرآني بعيد عن طبائع الكتب المفتراة.
- طبائع الحال الجسديّة والنفسيّة لنبيّ الإسلام ﷺ قبل إعلانه ما نزل عليه من آيات مفارقة لحال المصروعين أو الذين يدبّرون لاختلاق الكلام البليغ.
- الأناجيل مجهولة المؤلفين، وعليها طبائع العمل البشري المحض.

مراجع للتوسّع:

محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم (الكويت: دار القلم، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).

محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن (الكويت: دار القلم، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية (القاهرة: مكتبة دار العروبة، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م).

إبراهيم عوض، مصدر القرآن، دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي (القاهرة: دار الزهراء، د. ن.).

Hamza Andreas Tzortzis, *The Divine Reality: God, Islam & the Mirage of Atheism* (FB Publishing, 2016).

---

(١) ألبرت شفايتزر (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥): ناقد ألماني حاصل على جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٥٢.

(٢) A.Schweitzer, *The Mysticism of Paul the Apostle* (London: Adam & Charles Black, 1967), pp. 152-154.

(٣) D. Landsborough, 'St Paul and temporal lobe epilepsy', p.663.

الفصل الثالث

الإعجاز الغيبي في القرآن

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩].

الاختبار الحاسم لمعرفة نبيّ الله مُسجّلٌ من طرف موسى في (التوراة) سفر التثنية ١٨/٢١ ـ ٢٢[(١)].

(المنصّر الفيزيائي: Hugh Ross)

بين خيارين.. تخمين أم هتك حجب الغيب؟

تتّفق اللغة العربيّة مع العبريّة والآرامية في مُسمّى «نبيّ» (נביא) [نِبِي] بالمعنى الاصطلاحي الديني. والكلمة من المشترك الساميّ؛ إذ إنّ جذر (ن ـ ب ـ ا/ي) موجود في اللغات الأكادية، والإبلاوية، والأمورية، والبونيقية، والأثيوبية، والعربية الجنوبية...[(٢)].

وفعل «نبو» في اللغة الأكادية (وهي من أقدم اللغات الساميّة المعروفة) يُستعمل بصورة واسعة بمعنى «نادى». وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنّ «نبي» العبرية من «نبيوم» الأكاديّة بمعنى «الداعي» أو «المدعوّ [من الآلهة]»[(٣)]. ويربط النقّاد بين كلمة «نبي» العبريّة والتنبّؤ بالمستقبل (١ ملوك الأول ٢٢)،

---

(١) «وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب، فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف منه».

(٢) See Ludwig Koehler and Walter Baumgartner, *The Hebrew and Aramaic lexicon of the Old Testament* (London: Brill, 2001), 1/662.

(٣) Erwin Fahlbusch and Geoffrey William Bromiley, eds. *The Encyclopedia of Christianity* (Grand Rapids, Mich. Cambridge: UK Eerdmans 2008), 4/387.

ومن أهم ما يربط بين النبوّة والتنبّؤ بخبر الغيب نص سفر صموئيل الأول ٩/ ٩: «سَابِقًا فِي إِسْرَائِيلَ هكَذَا كَانَ يَقُولُ الرَّجُلُ عِنْدَ ذَهَابِهِ لِيَسْأَلَ اللهَ: «هَلُمَّ نَذْهَبْ إِلَى الرَّائِي»؛ لأَنَّ النَّبِيَّ الْيَوْمَ كَانَ يُدْعَى سَابِقًا الرَّائِيَ». كلمة «رائي» (רֹאֶה) [رُوئي] من فعل «رأى» (רָאָה) [رأى، نظر]. والكلمة في الإنجليزيّة اليوم هي (prophet)، وهي عن اليونانيّة القديمة (προφητης) [بْروفيتيس]، وهي كلمة مستعملة في الأدب اليوناني الكلاسيكي منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وهي بمعنى: الذي يُعلن[1].

وكلمة نبيّ في العرف القرآني داخلة في نفس الحقل الدلالي السابق اشتقاقيًّا. يقول (ابن تيمية): «والنبوّة مشتقة من الإنباء. والنبي فعيلٌ، وفعيل قد يكون بمعنى فاعل؛ أي: منبئ، وبمعنى مفعول: أي: منبأ. وهما هنا متلازمان؛ فالنبي الذي ينبئ بما أنبأه الله به، والنبي الذي نبّأه الله، وهو منبأ بما أنبأه الله به. وما أنبأه الله به لا يكون كذبًا، وما أنبأ به النبي عن الله لا يكون يطابق كذبًا، لا خطأً ولا عمدًا، فلا بُدّ أن يكون صادقًا فيما يخبر به عن الله، يُطابق خَبَره مَخبَرُه، لا تكون فيه مخالفة؛ لا عمدًا ولا خطأ»[2].

النبوة ـ إذن ـ إنباء من النبيّ إلى البشر بخبر عن الربّ. ومن أبرز أوجه الإنباء في تاريخ النبوات، الإخبار عن خبر المستقبل، ومنه جاءت «النبوءة». والنبوءة بذلك باب عظيم لاختبار صدق النبوّات. وهذا أمر يؤكده القرآن في قوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]. وهو نفسه ما جاء عند أهل الكتاب في سفر إرميا ٢٨/ ٩: «عند حُصُولِ كَلِمَةِ النَّبِيِّ عُرِفَ ذلِكَ النَّبِيُّ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَهُ حَقًّا»، وأوضح منه نص: «وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: كَيْفَ نَعْرِفُ الْكَلاَمَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ؟ فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ

(١) J. Alberto Soggin, *Introduction to the Old Testament: from its origins to the closing of the Alexandrian canon* (London: SCM Press, 1980), p.237.

(٢) ابن تيمية، النبوات، ص٨٧٣.

يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ، فَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ» (تثنية ١٨/٢١ ـ ٢٢).

والمسلم في مقام إثبات نبوّة محمد ﷺ يكفيه أن يقول:

١ ـ لا يعلم الغيب إلّا الله أو من أنبأه الله بالغيب.

٢ ـ القرآن يتضمّن نبوءات غيبيّة كثيرة، وغير متوقّعة.

٣ ـ القرآن من عند الله.

أمّا المخالف فعليه أن يثبت:

١ ـ كلام الله لا يخطئ.

٢ ـ كلّ نبوءات القرآن أو بعضها كذّبها التاريخ.

٣ ـ القرآن ليس كلام الله.

فصل النزاع هو في النظر في نبوءات الوحي الإسلامي، فهي الشاهد لنفسها أو ضدّها..

شروط النبوءة الحجّة:

لا يقول المسلم إنّ كلّ نبوءة صادقة هي علامة على النبوّة؛ فإنّ المرء قد يتنبّأ بأمر ما، ويقع ما قال دون أن تصحّ له النبوة، بل حتّى دون أن يدّعيها. ما يقوله المسلم هو أنّه حتّى يطمئنّ المرء أن النبوءات الصادقة دالة على النبوّة، فلا بدّ أن تتوفّر فيها شروط تمنع التوافق بين الرجم بالغيب والإخبار عن الغيب:

- النبوءات صادرة عمّن يدّعي النبوّة.
- النبوءات بعيد توقّعها؛ فإنّ الأمور المحتملة من السهل التنبؤ بها.
- النبوءات واضحة العبارة، ودقيقة في مقصدها.
- الإخبار بالنبوءة قبل الحدث، لا بعده.
- أن تكون النبوءات كثيرة حتّى لا يُخلط بين النبوءات الصادقة والتنبؤات التي توافق ـ صدفة ـ الحدث.

• ألا توجد لنفس الشخص نبوءات أخرى فاشلة؛ فإنّ وجود النبوءات الفاشلة برهان أنّ ما صحّ من النبوءات الأخرى كان ضربة حظ.

إذا اجتمعت الشروط السابقة في نبوءات القرآن (والسُّنَّة) لزم القول بنبوّة محمّد ﷺ. علمًا أنّه يدخل في الإعجاز الغيبي الإخبار بغيب الماضي (خبر ما مضى من أمر)، وغيب الحاضر (غيب ما يجري حال الإخبار به، دون معاينة)، وغيب المستقبل (وهو ما سيشهده العالم بعد الإخبار عنه)..

نبوءات قرآنية:

في القرآن كلّ الأصناف السابق ذكرها. وسنعرض بين يديك هاهنا غيب الحاضر والمستقبل في القرآن، ولغيب الماضي حديث خاص في الإعجاز التاريخي في القرآن الكريم..

١ ـ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم: ٢ ـ ٦].

هُزم جيش الروم على يد جيش الفرس الذي استولى على مناطق شاسعة من الإمبراطورية الرومانية، وساد بذلك جو من التوتر في المنطقة، خاصة وأن الإمبراطورية الرومانية قد بدأ يظهر عليها الهزال. كان الصحابة في ذلك الحين في مكّة مستضعفين، وقد ساءهم أن يَهزِم عُبّاد النار أهل الكتاب، كما ساءهم فرح كفّار مكّة بانتصار الفرس. وقد جاءت الآيات في صدر سورة الروم تخبر بمجموعة من البشارات:

• انتصار الروم على الفرس.

• حصول هذا النصر قبل مضي عشر سنوات من إطلاق النبوءة؛ إذ إنّ «بضع» في لغة العرب عددٌ بين ثلاثة وتسعة.

• المسلمون سيشهدون هذا النصر مما يعني: أنه لن يتمّ القضاء عليهم في تلك الفترة رغم أنّهم في حال ضعف وحصار شديدين.

• المسلمون سيفرحون عند نصر الروم. وقد وافق ذلك معركة بدر أو صلح الحديبية.

تحقّقت كلّ البشارات السابقة، وصدقت الآية. وقد علق المؤرخ الشهير «إدوارد جيبون»[1] صاحب كتاب «تاريخ انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» على هذه النبوءة القرآنية العجيبة بقوله: «في الزمن الذي قيل فيه إنّ هذه النبوءة قد أُطلقت، **ما كان لنبوءة أن تكون أبعد منها عن أن تتحقّق**؛ إذ إنّ السنوات الاثني عشر الأولى لهيراكليوس قد أعلنت دنوّ انحلال الإمبراطورية»[2].

٢ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

يُخبر القرآن الكريم أنّ هذا الكتاب محفوظ، فلا يصيبه تحريف. وهي حقيقة استنتجت منها المستشرقة (لورا فاجليري) أمرًا مهمًّا. تقول: «لا يزال لدينا دليل آخر على الأصل الإلٰهي للقرآن، وهو في حقيقة أن نصّه ظلَّ نقيًّا ولم يتغير على مرّ القرون من يوم ظهوره إلى اليوم»[3].

تكمن أهميّة هذه النبوءة في **ثلاثة أمور**:

أولًا: كان الرسول ﷺ يَعلم أنّ حفظ القرآن من التحريف أو الضياع أمر عظيم، وليس بالشيء الهيّن، ودليل ذلك حرصه على تكرار الآيات بلسانه ليحفظها بعد نزول الوحي: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٨]. والنبوءة بذلك تخبر عن أمر جلل قد تكذّبه الأيام.

ثانيًا: قرّر القرآن الكريم أنّ اليهود والنصارى قد حرّفوا أسفارهم، وفي

---

(١) إداورد جيبون Edward Gibbon (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤م): مؤرخ إنجليزي. أحدث كتابه «تاريخ انحدار الامبراطورية الرومانية وسقوطها» ـ في ستة مجلّدات ـ ضجة عند صدوره.

(٢) "At the time when this prediction is said to have been delivered, no prophecy could be more distant from its accomplishment, since the first twelve years of Heraclius announced the approaching dissolution of the empire." (Edward Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, London: Henry G. Bohn, 1854, 5/175).

(٣) Laura Veccia Vaglieri, *An Interpretation of Islam*, pp. 41 - 42.

ذلك إعلان لأمّتيّ اليهود والنصارى أنّ هذا القرآن يتحدّى العالم بفرادة حفظه. وقد كان، حتّى اعترف **المنصّر** (ويليام موير) قائلًا: «قرآنٌ واحد كان سائدًا بين المسلمين، والاستخدام المتزامن لنفس السِّفر من جانبهم جميعًا في كلّ عصر حتّى يومنا هذا، هو دليل حاسم أنّ ما بين أيدينا الآن هو النص عينه الذي تمّ إعداده بأمر الخليفة المظلوم. **يبدو أنّه لا يوجد أيّ عمل آخر ظل اثني عشر قرنًا**[١] **بهذا النقاء كنصّ**»[٢].

ثالثًا: الاتفاق حاصل بين جميع علماء النقد النصيّ أنّه لا سبيل للوصول بطريق مباشر أو من خلال التراث الشفهي أو المخطوطات إلى نص التوراة، بالإضافة إلى أنّنا نملك ثلاث روايات متأخّرة ومختلفة للتوراة في عدد من نصوصها: التوراة العبرية، والتوراة السامرية، والترجمة السبعينية اليونانية[٣].

وأمّا العهد الجديد (الإنجيل مجازًا)، فقد انتهت (Institut für neutestamentliche Textforschung) ـ أهم مؤسسة علميّة عالميّة مهتمة بتركيب أفضل نصّ يوناني للعهد الجديد ـ في نسختها اليونانية الأخيرة (NA^{28}) إلى أنّ آخر رجائها في البحث التاريخي النقدي أن تصل إلى أقدم نص ممكن للعهد الجديد لا النص الأصلي؛ لامتناع استعادة النص الأوّل[٤].

٣ ـ ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

عجزُ الناس عن معارضة القرآن بمثله يشهد له الواقع..

---

(١) أي: حتّى زمن تأليف (موير) كتابه.

(٢) William Muir, *Life of Mohamet: from original sources* (London: Smith, 1878), appendix, pp.557 - 558.

(٣) انظر في الاختلافات النصيّة بين النص العبري والنص السامري:
Mark Shoulson, *The Torah: Jewish and Samaritan versions compared* (Westport: Evertype, 2008).

(٤) انظر في البيان العلمي للموضوع، وعرض أدلّته، والردّ على الدفاعيين النصارى: سامي عامري، استعادة النص الأصلي للإنجيل في ضوء قواعد النقد الأدنى، إشكاليات التاريخ والمنهج (الرياض: مركز الفكر الغربي، ٢٠١٧م).

٤ ـ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٧].

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢].

الآيات السابقة صريحة في وجوب الأخذ بالسُّنَّة النبويّة. وقد اتّفق الأئمة قاطبة على أنّ من لا يأخذ بالسُّنَّة خارج عن الإسلام. قال (ابن حزم): «ولو أن امرءًا قال لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافرًا بإجماع الأمة»(١). ولا يمكن الالتزام بالأخذ بالسُّنَّة النبويّة دون حفظها، فكان أمر القرآن بحفظ السُّنَّة نبوءة عن حفظ الأمّة لها على مدى تاريخها.. وهو ما كان.

٥ ـ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ [الفتح: ٢٧].

كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنّه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت، ثم حلّق بعضهم وقصّر بعضهم، فحدّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا. فلمّا خرج إلى الحديبية مع الصحابة، منع المشركون المسلمين دخول مكة، ووقع ما وقع من قضية الصلح. وعندها وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه رسول الله ﷺ في ذلك، فقال له فيما قال: «أفلم تكن تخبرنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟» قال ﷺ: «**بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟**» قال: «لا». قال النبي ﷺ:

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام (القاهرة: مطبعة السعادة)، ٢/٧٩.

«**فإنك آتيه ومطوف به**»[1]. وبهذا أجاب الصدّيق رضي الله عنه عنه أيضًا.

وقد تحققت الرؤيا ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ بدخولهم معتمرين العام التالي بعد صلح الحديبية.

قال (ابن كثير): «وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. ثم قال تبارك وتعالى مبشرًا للمؤمنين بنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم على عدوّه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم، وعمل ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: إنه رسوله وهو ناصره»[2].

٦ ـ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال: ٧].

أقبلت عير قريش من الشام وفيها تجارة عظيمة برئاسة (أبي سفيان)، وجاء الوعد للنبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه سينال من العير أو من قريش في معركته معها، فاستشار الرسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فاختاروا العير لخفّة الحرب وكثرة الغنيمة، فلمّا خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى (أبو جهل) أهل مكة أن أنقذوا العير، فتداعوا إلى ذلك ووصلوا بدرًا، ونجت القافلة. فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال لهم: «**إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا** (أبو جهل) **قد أقبل**»،

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (ح/ ٢٥٨٣).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٣/ ١٣٢.

فأصرّ الصحابة على تتبّع العير. فغضب رسول الله ﷺ، حتّى قام (سعد بن عبادة) فقال: «والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا».... فقال رسول الله ﷺ: «**هذا مصرع فلان**»، قال: ويضع يده على الأرض ههنا ههنا، قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ»[1].

وانتصر المسلمون.. وتحققت النبوءة.

٧ ـ ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

وقد تمّ ما جاءت به الآية من نبوءات:

- تعذيب المشركين بأيدي المسلمين.
- خزي المشركين.
- نصر المسلمين.
- شفاء صدور المؤمنين كلّهم بشفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة.
- إذهاب غيظ قلوب المؤمنين.

٨ ـ ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦﴾ [الفتح: ١٦].

وسواء كان هؤلاء هوازن أو أصحاب مسيلمة، أو الروم فقد وقع.

٩ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن

(١) رواه مسلم، كِتَاب الْجِهَاد وَالسِّيَرِ، بَاب غَزْوَةِ بَدْرٍ (ح/٣٣٣٦).

سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزَّمل: ٢٠].

سورة المزمّل من أولى سور القرآن نزولًا، وقد كان المؤمنون حينها قلّة من المطاردين الذين يتخفّون بإيمانهم، ورغم ذلك فقد جاء في الآية ٢٠ منها أنّ المسلمين سيقاتلون الكفار، ومعلوم أن الجهاد لم يُشرع إلا بالمدينة بعد الهجرة.

١٠ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٤ ـ ٤٥].

وقع هذا يوم بدر، وقد تلاها رسول الله ﷺ وهو خارج من العريش، ورماهم بقبضة من الحصاء فكان النصر والظفر، وهذا مصداق ذاك.

١١ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

نزل هذا الوعد حين كان المسلمون في خوف من عادية الخصوم بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة، فجاءهم أمان من السماء أنّ الأرض ستدين لهم، وأنّ سلطانهم سيعلو الجميع.

١٢ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٧ ـ ٨٨].

سورة (ص) مكية، وما هي سنوات حتى صار الإسلام نبأ العالم، وهو اليوم شاغله...

١٣ ـ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨].

لما نزل الوحي بمنع دخول المشركين الحرم، قال بعض الناس: لتنقطعن عنّا الأسواق، ولتهلكن التجارة وليذهبن ما كنّا نصيب فيها من المرافق، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن

شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾. وقد اغتنى الصحابة حتى فاض المال عن حاجتهم.

١٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: ٤١].

نزلت في مهاجري المسلمين إلى الحبشة لما خاف عليهم إخوانهم في مكة مكر المشركين عند ملك الحبشة بإرسال الهدايا والتحريض على أتباع الدين الجديد. وقد جاءت البشارة بأمن من هاجر، وتمكينه في الأرض.

١٥ ـ ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح: ١٨ ـ ٢١].

المراد «بالفتح القريب»: فتح خيبر، وبـ«المغانم الكثيرة» في الموضع الأول: مغانم خيبر أو هجر، وبـ«المغانم الكثيرة» في الموضع الثاني: المغانم التي تنالها الأمّة في قابل أيامها، و«بالأخرى»: مغانمهم من الروم والفرس والأمم العظيمة ذات المنعة.

١٦ ـ ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص: ١١].

هذا وعد في سورة (ص) التي أجمع العلماء على مكيّتها أن الرسول ﷺ سيهزم الأحزاب التي ستتألّب عليه، وتسعى للقضاء عليه ودعوته.

١٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: ٧٠].

تبشّر الآية من وقعوا في الأسر عند المسلمين أنّهم لو أسلموا فسينالون من عظيم خيرَي الدنيا والآخرة.. وقد كان.

١٨ ـ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦].

يخبر القرآن النبيَّ ﷺ أنّ أهل مكّة يأتمرون عليه ليخرجوه منها، وأنّه إن خرج طلبًا للأمن من مكرهم، فسيعود إلى مكّة ليكون له الأمر بعد ذلك بمدة قليلة. وقد كان؛ إذ عاد النبيّ ﷺ بعد هجرته من مكة بقليل، في العام الثامن من الهجرة.

١٩ ـ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [سورة الكوثر].

كان أهل مكّة يجتهدون في طلب إيذاء نبيّ الإسلام ﷺ جسديًّا ومعنويًّا، وقد كان من أمرهم لمّا تُوفّي (إبراهيم) ابن النبيّ ﷺ أن قالوا: أبشروا فقد انبتر محمد، فنزلت سورة الكوثر. وتحقّق موعودها؛ فقد انبترت ديانات قريش والعرب، وخلفت نبي الإسلام ﷺ أمّة عظيمة.

٢٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٠٧﴾ [التوبة: ١٠٧].

نزلت الآية في «أبي عامر الراهب»، وهو نصراني طلب من قومه من الأنصار بناء مسجد وأن يستعدّوا بالسلاح والعتاد، ثم ذهب إلى قيصر ملك الروم يستنصره بالجند لإخراج النبيّ ﷺ والمؤمنين. فلما فرغ قومه من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، وقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحبّ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ [التوبة: ١٠٨]، إخبارًا بتآمرهم في الخفاء.

٢١ ـ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [سورة المَسَد].

تخبر السورة عن مآل (أبي لهب) وزوجه، وأنهما لن يؤمنا بالإسلام، وسيموتان على الكفر. وقد أسلم كلّ أهل مكّة، إلا قلّةٌ منها (أبو لهب) وزوجه.

وقد يعترض مخالف بالقول: إنّ نبي الإسلام لمّا يئس من إسلام عمّه وامرأته قال ذلك فيهما.

ويجيبه القاضي (عبد الجبار الهمذاني) بقوله: «قبل كل شيء، قد تمّ ما قال على ما فسّر وشرح، وحصل ذلك على وجه انتقضت العادة به، وظنونكم هذه لن تقدح في هذا العلم، وهذا كاف في جوابكم.

ثمّ قيل لهم: قد صنع مثل صنيع أبي لهب خلق كثير فيما قال هذا فيه، ومنهم من أسلم. وأيضًا فلو قال في أبي لهب إنّه يسلم قبل إسلامه وأسلم لأمكن الخصم أن يقول: ما في هذا دلالة؛ لأنّ الرجل عمّه، وقد رأى إخوته حمزة والعباس وقد أسلما، وقد أسلم ولد أخيه أبي طالب جعفر وعلي، فكيف لا يسلم هو أيضًا؟ فهذا كان أقرب وأظهر في الرأي والتدبير، فلم يقل ذلك وقال غيره وخلافه، لتعلم أنّ هذا قول علّام الغيوب وكلامه ﷻ»[1].

٢٢ ـ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ [المدَّثر: ٢٤ ـ ٢٩].

نزل الوعيد في (الوليد بن المغيرة) بالنار بعد أن قال في القرآن: إنّه سحر. وقد مات على الكفر.

٢٣ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٤].

قال (ابن كثير): «يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أُبي وأضرابه،

---

(١) القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق: عبد الكريم عثمان (بيروت: دار العربية، د.ت.)، ص٣٦ ـ ٣٧.

حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به، إمّا أنهم قالوا لهم قولًا من نيّتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؛ أي: لا يقاتلون معهم، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾؛ أي: قاتلوا معهم، ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾، وهذه بشارة مستقلة بنفسها»[1].

٢٤ ـ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: ٨].

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢].

أخبر القرآن في الآيات السابقة بما تضمر قلوب المنافقين وبعض المسلمين. ولم يجادل منهم أحد في صدق ما أخبر القرآن به عمّا أكنّت صدورهم.

٢٥ ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢].

نزلت هذه النبوءة القرآنية في غير المؤمنين، تخبر بما سيقولونه عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة. وقد كان منهم ما قيل فيهم.

٢٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: ٨٥].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٣/٤٩٦.

أخرج (البخاري) عن (ابن عباس) رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: «قال: إلى مكّة»[1]. فالآية بشارة للرسول ﷺ بعد الهجرة من مكّة ومفارقة الموطن الأوّل أنّ الله سبحانه راده إليها.

٢٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٦٧﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحِجر: ٩٤ ـ ٩٥].

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: ٥٥].

تُخبر الآيات السابقة أنّ الله سبحانه سيعصم رسوله ﷺ من القتل **حتّى يبلّغ ما أُنزل إليه من ربّه**. وقد كان الرسول ﷺ يتّخذ الحراس قبل نزول الآية، ولمّا نزلت صرف حراسه وسرّحهم قائلًا: «**يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله**»[2]. وقد عصمه الله في مواطن كثيرة جدًّا. وما توفّي حتى أتمّ البلاغ الذي وُعد بأدائه كاملًا، ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

لقد كانت نبوءة العصمة من القتل ذريعة للتعجيل بطلب قتل الرسول ﷺ؛ إذ إنّ قتل صاحب الرسالة سيحقّق للمشركين مصلحتين: القضاء على قائد هذا الدين الجديد، وصرف المسلمين عن القرآن وجعلهم ينبذونه وراء ظهورهم بعد أن ثبت أن هذا الكتاب قد تنبّأ بخبر باطل.

اعتراض: التراث الإسلامي يُخبر أنّ نبيّ الإسلام ﷺ قد توفيّ بسبب اللحم الذي سمّمته له امرأة يهوديّة.

الجواب: قصّة الشاة المسمومة حجّة للمسلم لا عليه، **لسببين:**

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة القصص، باب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الآية (ح/ ٤٤٩٥).

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة (ح/ ٣٠٤٦). والحديث حسّنه (ابن حجر).

أ ـ في قصة الشاة المسمومة أنّ الشاة أخبرت الرسول ﷺ أنها مسمومة[1]، وهذا من الإعجاز الغيبي.

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ متعلّق بما قبله في الآية، وهو البلاغ وإتمام الرسالة؛ فالعصمة من القتل متعلّقة بالبلاغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧]. وقد شهد القرآن بعد هذه الحادثة أن البلاغ قد تمّ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

٢٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤].

تنبّأ القرآن في هذه الآية بالانشقاق الدائم في صفوف النصارى، وهي صفة لم يثبتها القرآن لليهود ولا المجوس... قال (الطبري): «عداوة النصارى بينَهم، إنما هي باختلافهم في قولهم في المسيح، وذلك أهواءٌ، لا وحيٌ من الله»[2]. وقد كان ما قاله القرآن؛ إذ لم يجتمع النصارى بعد البعثة النبويّة، وإنّما هم في تفرّق دائم حتى بلغ عدد الفرق النصرانيّة ٤١٠٠٠ فرقة وتجمّع نصراني[3] ولا يزال النصارى في انشقاق متواصل بسبب نزاعهم المتجدّد في أمور اللاهوت وغير ذلك من دعاوى النصرانية.

٢٩ ـ ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧].

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

---

(١) روى الحديث أبو داود، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلًا سمًّا أو أطعمه فمات أيقاد منه (ح/ ٤٥١٢).

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٨/ ٢٥٩.

(٣) <http://www.pewforum.org/files/2011/12/ChristianityAppendixB.pdf>

تشير الآيتان السابقتان إلى أنّ اليهود سيكونون في معاناة دائمة بتسلّط خصومهم عليهم، وأنّه لن يكون لهم بعد البعثة سلطان على الأرض إلّا بحبل من الله، وحبل من الناس، وهو ما كان؛ إذ بقي اليهود تحت نير الذلّ وفي مسكنة، حتّى عاشوا في دولة الإسلام بذمة الله وذمّة رسوله، فأمّنهم المسلمون بذلك، ثمّ لما أقاموا ما يُعرف «بدولة إسرائيل» ما أقاموها بسلطان ذاتي وإنما بمشيئة الله الكونية ودعم الغربيين، فقد أمدّتهم بريطانيا وغيرها من دول الغرب بالدعم لإقامة كيانهم الغاصب.

جوهر النبوءة أنّ اليهود لا يملكون الحياة بكرامة دون عون من غيرهم، رغم أنهم أقاموا دولًا ممكّنة قبل بعثة المسيح بجهدهم الخاص دون عون من أمة أخرى.

أعظم النبوءات هي تلك التي تسير عكس حركة التاريخ لحظة إطلاقها، وهي ظاهرة مكثّفة في القرآن الكريم.

النبوءات في السُّنَّة النبويّة:

النبوءات التي جاءت في السُّنَّة النبويّة وصدّقها الواقع كثيرة جدًّا (ما يكون من أمر الحكم بعد وفاة الرسول ﷺ، ومَن مِن الصحابة يموت شهيدًا، وتفصيل حياة بعض أصحابه، والفتن، والفتوحات...). وقد رُوي كثير منها بأسانيد صحيحة عن ثقات في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما. وإثبات أنّ هذه النبوءات مزوّرة يقتضي إثبات أنّ أفاضل الأجيال الأولى كانوا يتعمّدون الكذب الصريح في الملأ، دون أن ينكر بعضهم على بعض. وذاك هو عين المنكر.

وسنجمع هنا نبوءات نبويّة صادقة بعضها وقع قبل جمع الأحاديث النبوّية في دواوين السُّنَّة، وبعضها الآخر وقع بعد جمع هذه الأحاديث في هذه الدواوين. وسنقتصر في الصنف الأوّل على ما أخرجه (البخاري) و(مسلم).

نبوءات وقعت قبل التدوين:

نبوءات قبل التدوين كثيرة جدًّا، ومتنوّعة المواضيع، وقد رُوِي كثير منها بأسانيد قوية.

١ ـ الإخبار عن استشهاد (عمر) و(عثمان) رضي الله عنهما: حدّث (أنس) رضي الله عنه «أنّ النبي ﷺ صعد أُحدًا وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم؛ فقال: «**اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»[(١)].

٢ ـ الإخبار أنّ الرسول ﷺ سيموت في مرضه الأخير، وأنّ ابنته أوّل من يموت من أهله بعده: روت (عائشة) رضي الله عنها أنّ النبيّ ﷺ دعا «فاطمة ابنته في شكواه الذي قبض فيه، فسارّها بشيء، فبكت، ثم دعاها فسارّها، فضحكت. قالت: فسألتها عن ذلك. فقالت: سارّني النبي ﷺ فأخبرني أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت. ثم سارني فأخبرني أنّي أوّل أهل بيته أتبعه فضحكت»[(٢)].

٣ ـ الإخبار عن قتل قادة المعركة على الترتيب، وعن آخر من يحمل الراية: عن (أنس) رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى (زيدًا) و(جعفرًا) و(ابن رواحة) للناس قبل أن يأتيه خبرهم، فقال: «**أخذ الراية (زيد)، فأصيب، ثم أخذ (جعفر)، فأصيب، ثم أخذ (ابن رواحة)، فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**»[(٣)].

٤ ـ الإخبار الدقيق عن الأماكن التي يُقتل فيها الكفّار عند معركة بدر: قال (أنس) رضي الله عنه: «... قال رسول الله ﷺ: **هذا مصرع فلان**. قال: ويضع يده على الأرض، هاهنا هاهنا قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ»[(٤)].

٥ ـ الإخبار عن سوء خاتمة مقاتلٍ في صفّه: روى (سهل بن سعد الساعدي) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون، فاقتتلوا. فلمّا مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**» (ح/ ٣٤٧٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (ح/ ٣٤٢٧)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام (ح/ ٢٤٥٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام (ح/ ٤٠١٤).

(٤) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر (ح/ ١٧٧٩).

رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه. فقال: ما أجزأ منّا اليوم أحد كما أجزأ فلان. فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنّه من أهل النار**». فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. قال: فخرج معه كلّما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه. قال: فجرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه، فقتل نفسه. فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ: فقال: أشهد أنك رسول الله»[1].

٦ ـ الإخبار عن الصلح العظيم الذي سيجريه (الحسن بن علي) رضي الله عنه بين المسلمين بعد الفتنة، قال ﷺ: «**ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ**»[2]. وقد كان ذلك في الصلح بين طائفة (علي) رضي الله عنه وطائفة (معاوية) رضي الله عنه.

٧ ـ الإخبار عن غزو البحر في جيل الصحابة، وعن مشاركة (أم حرام) رضي الله عنها فيه: قالت (أمّ حرام) رضي الله عنها: «سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا**. قَالَتْ أُمُّ حَرَامٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا فِيهِمْ؟ قَالَ: **أَنْتِ فِيهِمْ**. ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ**. فَقُلْتُ: أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللهِ: قَالَ: **لَا**»[3].

٨ ـ الإخبار أنّ قريشًا لن تغزو المسلمين بعد الخندق: قال (سليمان بن صرد) رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: **الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**»[4].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد (ح/ ٧٢٤٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء يعذب به وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم (ح/ ١١٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي: «**إن ابني هذا لسيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**» (ح/ ٦٦٩٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في قتال الروم (ح/ ٢٧٦٦)، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر (ح/ ١٩١٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (ح/ ٣٨٨٤).

٩ ـ الإخبار عن غنيمة مال كسرى: قال (جابر بن سمرة) رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لتفتحن عصابة من المسلمين** ـ أو **من المؤمنين ـ كنز آل كسرى الذي في الأبيض**»[١].

١٠ ـ الإخبار عن ظهور الخوارج وقتالهم عند فرقة من المسلمين، وأنّ أولى طائفة بالحق تقتلهم: «**تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق**»[٢]. ذكر الحديث ثلاثة فرق، فريق الخوارج، وفريقان يتنازعان الحق، وأنّ فرقة منهما تقتل فريق الخوارج، وهي الأدنى إلى الحق. وقد قاتل فريق (علي) رضي الله عنه الخوارج عند خصومة مع فريق (معاوية) رضي الله عنه، وذلك في واقعة النهروان (٣٨هـ).

نبوءات بعد التدوين:

من خبر النبوءات التي جاءت في السُّنَّة، وتحقّقت بعد أن جُمعت الأحاديث في الدواوين:

١ ـ قال الرسول ﷺ: «**لن تقوم الساعة حتى... تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**»[٣]. وقال ﷺ: «**يوشِكُ يا معاذُ إِنَّ طالَتْ بِكَ حياةٌ أَنْ تَرَى ما هَهُنا قَدْ مُلِئَ جِنانًا**»[٤].

أجرى الشيخ (عبد المجيد الزنداني) مقابلة مع البروفسور (الفريد كرونير) ـ من أشهر علماء الجيولوجيا في العالم وقد حضر مؤتمرًا جيولوجيًّا في كلية علوم الأرض في جامعة الملك عبد العزيز حول عودة الجزيرة العربية مروجًا وأنهارًا ـ، وهذا عرضٌ للمقابلة:

الشيخ عبد المجيد: هل عندكم حقائق أن أرض العرب كانت بساتين وأنهارًا ـ هذه الصحراء التي ترونها كانت قبل ذلك بساتين وحدائق؟

البرفسور: نعم هذه مسألة معروفة عندنا وحقيقة من الحقائق العلمية

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ.. (ح/٢٩١٩).
(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (ح/١٠٦٥).
(٣) رواه مسلم، كتاب الزكاة، بَاب التَّرْغِيبِ فِي الصَّدَقَةِ (ح/١٦٨٧).
(٤) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ (ح/٧٠٦).

وعلماء الجيولوجيا يعرفونها؛ لأنّك إذا حفرت في أي منطقة تجد الآثار التي تدلك على أن هذه الأرض كانت مروجًا وأنهارًا، والأدلة كثيرة.. فقط لعلمكم منها قرية الفاو التي اكتشفت تحت رمال الربع الخالي.. وهناك أدلة كثيرة في هذا.

الشيخ: وهل عندك دليل على أن بلاد العرب ستعود مروجًا وأنهارًا؟

البرفسور: هذه مسألة حقيقية ثابتة نعرفها نحن الجيولوجيون ونقيسها ونحسبها، ونستطيع أن نقول بالتقريب خلال هذا القرن حتى يكون ذلك، وهي مسألة ليست عنكم ببعيدة، وهي قريبة.

الشيخ: لماذا؟

البرفسور: لأنّنا درسنا تاريخ الأرض في الماضي فوجدنا أنها تمر بأحقاب متعددة، من ضمن هذه الأحقاب المتعددة حقبة تسمى العصور الجليدية.

الشيخ: وما معنى العصر الجليدي؟

البرفسور: معناه: أن كميّة من ماء البحر تتحوّل إلى ثلج، وتتجمع في القطب المتجمد الشمالي ثم تزحف نحو الجنوب، وعندما تزحف نحو الجنوب تغطّي ما تحتها وتغيّر الطقس في الأرض، ومن ضمن تغيير الطقس تغيير يحدث في بلاد العرب، فيكون الطقس باردًا، وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم أمطارًا وأنهارًا.

الشيخ: وكنت أربط بين السيول والأمطار في منطقة أبها وبين تلك التي تحدث في شمال أوروبا وأنا أتأمل فيما يقول ـ قلت له: تأكد لنا من هذا!

البرفسور: نعم هذه حقيقة لا مفر منها!

الشيخ: من أخبر محمدًا ﷺ بذلك هذا كله مذكور في حديث: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا**»؟! من قال لمحمد ﷺ إن أرض العرب كانت مروجًا وأنهارًا؟!

البرفسور: فكّر، وقال: الرومان.

الشيخ: ومن أخبره بأن أرض العرب ستعود مروجًا وأنهارًا؟!

البرفسور: فكّر وفكّر وقال: **فيه فوق!** ـ أي: أن الخبر من مصدر علوي ـ.

الشيخ: اكتب، فكتب بخطه: لقد أدهشتني الحقائق العلمية التي رأيتها في القرآن والسُّنَّة ولم نتمكن من التدليل عليها إلا في الآونة الأخيرة بالطرق العلمية الحديثة، وهذا يدلُّ على أن النبي محمدًا ﷺ لم يصل إلى هذا العلم إلا بوحي علوي»[1].

٢ ـ قال الرسول ﷺ: «**على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجّال**»[2].

لم يدخل الطاعون المدينة رغم تكرّر انتشار الطاعون في الأرض.

٣ ـ قال الرسول ﷺ عن علامات الساعة: «**وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**»[3].

أدّى الكشف المفاجئ لثروات البترول والغاز في بلاد الخليج العربي إلى طفرة اقتصاديّة سريعة، فكان أن ظهر في نفس عمر الجيل الذي كان يرعى الأغنام التطاول في البنيان وناطحات السحاب، حتّى إنّ أعظم ناطحات السحاب في العالم موجودة في الصحراء العربيّة. فالنبوءة تخبر بالخير المادي الذي يصيب الفقراء من رعاة الغنم، فينقلهم إلى فارهِ البنايات العالية.

٤ ـ عن (عبد الله بن عمرو) رضي الله عنه: «تخرج معادن مختلفة معدن منها قريب من الحجاز يأتيه من شرار الناس»[4].

هذا الأثر وإن كان موقوفًا على صحابي، إلا أنّه من خبر الغيب، ولذلك

---

(١) عن الموقع الرسمي للجامعة التي يشرف عليها الشيخ (عبد المجيد الزنداني). مقال: عبد الكريم الفهدي، الاستفادة من الأبحاث في القرآن والسُّنَّة في كل النواحي:
<http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1202>.

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة (ح/١٧٨١)، ومسلم، كتاب الحج، باب صيانة المدينة من دخول الطاعون والدجال إليها (ح/١٣٧٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر (ح/٨).

(٤) رواه الحاكم (ح/٨٤٦٣). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

فهو مرفوع حكمًا إلى النبيّ ﷺ. والمعادن هي ـ كما يظهر اليوم ـ النفط، وشرار الخلق هم أصحاب الشركات العالميّة التي تستخرجها.

٥ ـ قال الرسول ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عارًا، ويتقارب الزمان**»[١].

واليوم إذ دعا الرجل إلى إقامة الحياة على القرآن، اتُّهم بالتطرّف والتنطّع والظلاميّة والرجعيّة. وزماننا نفسه تقارَب فيه العالم، حتى صرنا نعلم خبر أقصى الأرض في لحظة وقوع الأمر حتى كأننا نشهده في مكانه.

٦ ـ قال الرسول ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تَخرُج نار من أرض الحجاز تضيء أعناقَ الإبل ببُصرى**»[٢].

ظهرت هذه النار سنة ٦٥٤هـ. قال (ابن كثير): «ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة، فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببُصرى، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه «الذيل» وشرحه»[٣].

وقال (الذهبي): «أمر هذه النار مُتواتِر، وهي مما أخبر به المصطفى ﷺ حيث يقول: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى**». وقد حكى غير واحد ممَّن كان ببُصرى في الليل، ورأى أعناق الإبل في ضوئها»[٤].

وماذا عن نبوءات الكتاب المقدس؟

يهتم الدفاعيون النصارى بصورة بالغة بنبوءات التوراة والإنجيل لبيان

---

(١) قال (الهيثمي) في «مجمع الزوائد»: «رواه الطبراني ورجاله ثقات وفى بعضهم خلاف».

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار (ح/٦٧٠١) ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز (ح/٢٩٠٢).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (الجيزة: هجر، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م)، ١٧/ ٣٢٨.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م)، ٤٨/ ٢٢.

ربانية أسفار الكتاب المقدس، ولهم في ذلك مؤلفات كثيرة تستعصي على الحصر. كما تعتبر النبوءات الصادقة ـ المدّعاة ـ في الكتاب المقدّس أبرز علامة على نبوّة المتنبّئ بخبر المستقبل.

والدارس لنبوءات الكتاب المقدس يكتشف ـ بيسر ـ أنّ كثيرًا من النبوءات لم تتحقق، وأنّها بذلك تطعن في ربانية الأسفار أو عصمتها من التحريف. وقد جمع أحد الباحثين عشرات النبوءات الفاشلة في الكتاب المقدس في كتابه: (Bible Prophecy: Failure or Fulfillment?)[1]، وفعلها غيره من الباحثين.

ومن هذه النبوءات:

١ ـ عاقب الربّ (قايين) لقتله أخاه (هابيل) بأن قال له: «تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الأَرْضِ» (تكوين ٤/ ١٢)، ولكننا في بقية القصة نقرأ أنّ (قايين) استقرّ «فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْن»، وبنى مدينة سمّاها على اسم ابنه «حنوك» (تكوين ٤/ ١٦ ـ ١٧).

٢ ـ «فقَالَ الرَّبُّ: لَا يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ، لِزَيَغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً» (تكوين ٦/ ٣).

تزعم التوراة أنّ الربّ قد قال في زمن (نوح) عليه السلام إنّه لن يجعل عمر البشر يزيد عن مئة وعشرين سنة. ومعلوم أنّ بشرًا كثيرًا قد تجاوز سنهم المئة وعشرين سنة.

٣ ـ «لَا يَدْخُلْ عَمُّونِيٌّ وَلَا مُوآبِيٌّ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الْجِيلِ الْعَاشِرِ لَا يَدْخُلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ إِلَى الأَبَدِ» (تثنية ٢٣/ ٣).

يخبرنا سفر راعوث أنّ (راعوث) الموآبية قد دخلت جماعة الربّ، بل وجاء من نسلها النبي (داود) والمسيح عليهما السلام.

٤ ـ ٢ صموئيل ٧/ ١٣، ١٦: «هُوَ يَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي، وَأَنَا أُثَبِّتُ كُرْسِيَّ

(١) Tim Callahan, *Bible Prophecy: failure or fulfillment?* (Altadena, Calif.: Millennium Press, 1997).

مَمْلَكَتِهِ إِلَى الأَبَدِ. . . وَيَأْمَنُ بَيْتُكَ وَمَمْلَكَتُكَ إِلَى الأَبَدِ أَمَامَكَ. كُرْسِيُّكَ يَكُونُ ثَابِتًا إِلَى الأَبَدِ».

النص السابق وعدٌ من الربّ ببقاء مملكة النبي (داود) إلى الأبد. . والتاريخ واضح في قوله: إنها قد اندثرت منذ زمن بعيد.

٥ ـ يخبرنا نص ٢ الملوك ٢٢/ ٢٠ أنّ النبيّة «خَلدة» قد تنبّأت أنّ الملك «يوشيا» سيموت بسلام، في حين نقرأ في ٢ الملوك ٢٣/ ٢٩ ـ ٣٠ أنّ حاكم مصر قد قتل (يوشيا).

٦ ـ أمر الربّ نبيّه (إشعياء) أن يقول لـ«أحاز» ملك يهوذا أنّ عدوَّيه «رَصين» ملك أرام و«فَقَح» ملك إسرائيل لن ينالاه بأذى (إشعياء ٧/ ٣ ـ ٧)، لكننا نقرأ في ٢ الأيام ٢٨/ ٥: «فَدَفَعَه الرَّبُّ إِلهُهُ لِيَدِ مَلِكِ أَرَامَ، فَضَرَبُوهُ وَسَبَوْا مِنْهُ سَبْيًا عَظِيمًا وَأَتَوْا بِهِمْ إِلَى دِمَشْقَ. وَدُفِعَ أَيْضًا لِيَدِ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً عَظِيمَةً».

٧ ـ يخبرنا سفر إشعياء ١٣/ ٢٠ أنّ بابل «لَا تُعْمَرُ **إِلَى الأَبَدِ**، وَلَا تُسْكَنُ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ، وَلَا يُخَيِّمُ هُنَاكَ أَعْرَابِيٌّ، وَلَا يُرْبِضُ هُنَاكَ رُعَاةٌ».

وقد عمُرت بابل، وظهرت فيها حضارات ودول، وسكنتها أمم!

٨ ـ «اِسْتَيْقِظِي، اسْتَيْقِظِي! الْبَسِي عِزَّكِ يَا صِهْيَوْنُ! الْبَسِي ثِيَابَ جَمَالِكِ يَا أُورُشَلِيمُ، الْمَدِينَةُ الْمُقَدَّسَةُ؛ لأَنَّهُ لَا يَعُودُ يَدْخُلُكِ فِي مَا بَعْدُ أَغْلَفُ وَلَا نَجِسٌ.» (إشعياء ٥٢/ ١).

تخبر هذه النبوءة أنه لن يدخل غير يهودي (= غير مختون، نجس!) أورشليم/ القدس. . وهذه نبوءة فاشلة ضرورة!

٩ ـ «لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: إِنِّي عِنْدَ تَمَامِ سَبْعِينَ سَنَةً لِبَابِلَ، أَتَعَهَّدُكُمْ وَأُقِيمُ لَكُمْ كَلَامِي الصَّالِحَ، بِرَدِّكُمْ إِلَى هذَا الْمَوْضِعِ.» (إرميا ٢٩/ ١٠).

تخبر النبوءة أنّ السبي البابلي سيستمر ٧٠ سنة. . وذاك خطأ؛ إذ استمرّ ٤٨ سنة، من سقوط أورشليم سنة ٥٨٦ ق م على يد (نبوخنصر) إلى سنة ٥٣٨ ق م.

١٠ ـ «وَتَكُونُ حَاصُورُ مَسْكَنَ بَنَاتِ آوَى، وَخَرِبَةً إِلَى الأَبَدِ. لَا يَسْكُنُ هُنَاكَ إِنْسَانٌ، وَلَا يَتَغَرَّبُ فِيهَا ابْنُ آدَمَ» (إرمياء ٤٩/ ٣٣).

نبوءة الخراب الأبدي لحاصور (منطقة في مدينة صفد بفلسطين) فاشلة؛ لأنّ حاصور أرض معمورة على مدى قرون.

١١ ـ نص حزقيال ٢٦/ ٧ ـ ١٤ يُخبر أنّ (نَبُوخَذْرَاصَّرَ) ملك بابل سيدمّر مدينة صور حتّى إنها لن تُبنى بعد ذلك. ومدينة صور قد عُمِّرَت بعد ذلك مرارًا.

١٢ ـ عاموس ٩/ ١٥: «وَأَغْرِسُهُمْ فِي أَرْضِهِمْ، وَلَنْ يُقْلَعُوا بَعْدُ مِنْ أَرْضِهِمِ الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ، قَالَ الرَّبُّ إِلهُكَ».

هذه النبوءة هي آخر جملة في سفر عاموس الذي ينسب إلى نبيّ عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، وهي تخبر أنّ اليهود لن يُقلعوا من «أرضهم» أبدًا.. وقد قلعوا!

١٣ ـ قال المسيح لـ(بطرس): «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لَا يَصِيحُ الدِّيكُ حَتَّى تُنْكِرَنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» (يوحنا ١٣/ ٣٨)، لكننا نقرأ في مرقس ١٤/ ٦٦ ـ ٦٨ أنّ (بطرس) قد أنكر المسيح بعد أن صاح الديك مرة واحدة لا ثلاثًا.

١٤ ـ «فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا يَأْتِي أَوَّلًا وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ. وَلكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا قَدْ جَاءَ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، بَلْ عَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوا. كَذلِكَ ابْنُ الإِنْسَانِ أَيْضًا سَوْفَ يَتَأَلَّمُ مِنْهُمْ» حِينَئِذٍ فَهِمَ التَّلَامِيذُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ عَنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ» (متّى ١٧/ ١١ ـ ١٣).

أخبر المسيحُ تلاميذه أنّ (يوحنا المعمدان) ـ (يحيى) عليه السلام ـ هو نفسه (إيليّا) المنتظر، والذي سوف يردّ كلّ شيء إلى الاستقامة في بني إسرائيل.. لكنّنا نقرأ متّى ١٤/ ١٠ ومرقس ٦/ ٢٨ أنّ (يوحنا المعمدان) لم يغيّر شيئًا، بل قُتل ظلمًا.

١٥ ـ قال المسيح لتلاميذه إنّه سوف «يُقْتَل، وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُومُ» (مرقس ٨/ ٣١).

يخبرنا إنجيل مرقس ١٥/ ٣٤ ـ ٣٧ أنّ المسيح قد توفي يوم الجمعة، الساعة التاسعة بالحساب اليهودي؛ أي: الساعة الثالثة مساءً. ولمّا كانت النبوءة هي أن يقوم من الموت «بعد» (μετα) [مِتا] ثلاثة أيام من قتله، لزم أن يكون يوم السبت هو «بعد يوم» من قتله، ويوم الأحد «بعد يومين» من قتله، ويوم الاثنين ـ موعد قيامته ـ «بعد ثلاثة أيام» من قتله، لكن يفهم من متّى ٢٧/ ٦١ ـ ٢٨/ ٣ أنّ المسيح قد قام من القبر قبل طلوع شمس يوم الأحد.

١٦ ـ «فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ سَوْفَ يَأْتِي فِي مَجْدِ أَبِيهِ مَعَ مَلَائِكَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ عَمَلِهِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ ههُنَا قَوْمًا لَا يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوُا ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي مَلَكُوتِهِ» (متّى ١٦/ ٢٧ ـ ٢٨).

وعد المسيح تلاميذه أن يشهدوا عودته إلى الأرض بعد رفعه إلى السماء. ولم يحدث ذلك إلى الآن.

١٧ ـ «وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلَامَةُ ابْنِ الإِنْسَانِ فِي السَّمَاءِ. وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ، وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا عَلَى سَحَاب السَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ. . . اَلْحَق أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَمْضِي هذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هذَا كُلُّهُ» (متّى ٢٤/ ٣٠، ٣٤).

ذهب جيل الحواريين، ولم يعد المسيح.

١٨ ـ «وَمَتَى طَرَدُوكُمْ فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ فَاهْرُبُوا إِلَى الأُخْرَى. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَانِ» (متّى ١٠/ ٢٣).

ذهب جيل الحواريين، ولم يعد المسيح.

١٩ ـ قال المسيح لـ(نَثَنَائِيل): «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَمَلَائِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ» (يوحنا ١/ ٥١).

لم ير (نَثَنَائِيل) ملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان.

٢٠ ـ قال الربّ في الرؤيا لـ(بولس): «لَا تَخَفْ، بَلْ تَكَلَّمْ وَلَا تَسْكُتْ؛ لأَنِّي أَنَا مَعَكَ، وَلَا يَقَعُ بِكَ أَحَدٌ لِيُؤْذِيَكَ؛ لأَنَّ لِي شَعْبًا كَثِيرًا فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ»

(أعمال الرسل ٩/١٨ ـ ١٠)، لكننا نقرأ في أعمال الرسل ٢١/٣٢ عن ضرب الشعب (بولس)، كما ذكر (بولس) في الرسالة الثانية إلى كورنثوس ١١/٢٣ أنّه أكثر من تعرّض من الناس للسجن، والجلد، ومخاطر الموت.

خلاصة النظر:

- نبوءات القرآن والسُّنَّة النبويّة كثيرة، ومتنوّعة، ودقيقة، وصادقة.
- كثير من نبوءات التوراة والإنجيل أثبت التاريخ أنّها كاذبة.

مراجع للتوسع:

محمد ولي الله عبد الرحمٰن الندوي، نبوءات الرسول ما تحقق منها وما لم يتحقق (بيروت: دار السلام، ١٤١٠هـ).

شهاب الدين محمد أبوزهو، الإعجاز الغيبي في السُّنَّة النبوية (دار الهدى للطباعة والنشر، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م).

Tim Callahan, *Bible Prophecy: failure or fulfillment?* (Altadena, Calif.: Millennium Press, 1997).

الفصل الرابع

إعجاز العلم بخبر أهل الكتاب

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

«فتّشوا الكتب».

(يسوع)

بين خيارين.. إعجاز غيبي أم اقتباس؟

من يقرأ القرآن بعيدًا عن سلطان الثقافة المعاصرة سيكتشف بعد قراءة بسيطة للنصّ أنّ البرهان الأوّل الذي يقدّمه القرآن ـ بكثافة ـ لربّانيّته ـ مع إعجازه القرآن البلاغي/البياني ـ هو موافقته لأخبار أهل الكتاب، وهو ما يظهر مثلًا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢]، والقرآن يشير هاهنا إلى ما جاء في توراة اليهود، الفصل ٣٧ من سفر الخروج. ويظهر ـ ذات الأمر ـ أيضًا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، وهو ما جاء في إنجيل الطفولة ليعقوب[1].

والسؤال هو: هل موافقة القرآن لخبر أهل الكتاب، خاصة مع ما جاء

---

(١) (Protoevangelium of James). وهو إنجيل لا تعترف بقداسته الكنيسة اليوم، وإن كان من الأناجيل المبجّلة في القرون الأولى.

في كتبهم المقدّسة القانونيّة (الرسميّة)، حجّة لصالح ربّانيّته، أم هي دعوى بلا دلالة؛ لأنّ خبر أهل الكتاب كان مشاعًا يعلمه العالم ومن يرعى الغنم في قصيّ الأرض؟

يصوغ المسلم برهانه لربّانيّة القرآن:

١ ـ عَلِم أهل الكتاب زمن البعثة أنّ ما وافقهم فيه القرآن لا يمكن أن يكون من الاجتهاد الشخصي لنبي الإسلام ﷺ، ولذلك اتهموا النبي ﷺ أنّه تعلّم ذلك عن غيره، يقول القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وفي قراءة عن طائفة من الصحابة والتابعين: «وَلِيَقُولُوا دَارَسْتَ» بألف. قال (الطبري): «بمعنى: قارأت وتعلّمت من أهل الكتاب»[1].

وقد اضطرّت مدرسة المستشرق المعاصر (ونسبرو) إلى إنكار نزول القرآن بداية القرن السابع الميلادي وتأخير ذلك إلى نهاية القرن التاسع لأسباب منها ثراء الخبر الديني لأهل الكتاب في القرآن بما لا يتوافق مع البيئة المكّيّة بداية القرن السابع، حتّى زعم عدد من أعلام هذه المدرسة أنّ القرآن صناعة طوائف نصرانية متشبّعة بمعارف أصولها الدينيّة.

٢ ـ لم يكن لنبي الإسلام ﷺ سبيل ليعلم تفاصيل ما في الكتب المقدّسة لليهود والنصارى.

٣ ـ ما شابه فيه القرآن خبر أهل الكتاب لا يمكن أن يُعزى لاجتهاد بشري، وإنّما هو وحي ربّاني.

٤ ـ القرآن كتاب موحى به من الله سبحانه.

ويقول غير المسلم:

١ ـ في القرآن مشابهات كثيرة لنصوص أهل الكتاب.

٢ ـ هذه المشابهات ليست في أمور يجوز فيها تطابق الخواطر.

٣ ـ كان بإمكان نبي الإسلام الاطلاع على ما في أسفار أهل الكتاب، القانونية وغير القانونية، في القرن السابع الميلادي.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٧/ ٤٧١.

٤ ـ التشابهات مردّها النقل عن أهل الكتاب.

٥ ـ نقل أخبار الأوّلين ليس معجزة.

أكثر برهان تكرُّرًا في القرآن على ربانية هو ذكر أخبار الأنبياء وأممهم، وهو أحرى البراهين بالدراسة؛ لأنّه ـ مع الإعجاز البلاغي ـ أوضحها في كلّ جيل.

نفي مشركي مكة علم نبي الإسلام بقصص أهل الكتاب دون معلّم:

تَرَدَّد في الكتابات التنصيريّة منذ بداية التأليف الاستشراقي أنّ القرآن الكريم ما هو إلّا نسخة ذات تعديل طفيف لما ورد في أسفار الكتاب المقدّس، وكان الداعي الأوّل لهذه التهمة هو التشابه الكبير الموجود بين القرآن الكريم والكتاب المقدس في تفاصيل قصص الأنبياء، وأخبار الأمم السالفة، وبعض العقائد.. وكانت القناعة قائمة أنّ المرء أمام حلّين لا ثالث لهما لضبط مصدر هذا التشابه وداعِيه؛ إمّا الاقتباس من أسفار أهل الكتاب ـ سواء مباشرة أو عن طريق معلّم بشري ـ أو أنّه الوحي.. ولما كان الإقرار بربّانيّة القرآن من الأمور المرفوضة ابتداءً عند المخالفين؛ صار من المتحتّم الانحراف إلى الخيار الآخر وهو دعوى الاقتباس، ثمّ وُطِّئت الأدلّة على هذا الاقتباس من طرف هذا الفريق؛ فكان (الدليل) المدّعى تابعًا للنتيجة لا العكس.

والنظر إلى حقائق التاريخ بعين الإنصاف المتتبّع للتفاصيل بعد التحقيق والتدقيق لا إخاله ينتهي إلى غير ما أكّده علماء الإسلام منذ قرون من أنّ ما في القرآن من علم تاريخي لا يُنال بالاجتهاد الذاتي، ولا يستغني عن معلّم (هو الوحي).

أ ـ استدلال القرآن بمواطأة خبر أهل الكتاب لإثبات ربّانيّته:

تكرّر في القرآن التأكيد على دلالة موافقة القرآن لخبر التوراة والإنجيل أنّ القرآن من عند الله؛ لتعذّر علم (محمد) ﷺ بتلك الأخبار.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣].

قال (ابن كثير): «يقول تعالى مخبرًا عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾؛ أي: هلا يأتينا محمد بآية من ربه؛ أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾؛ يعني: القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها، يصدق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١]»[1].

إنّ القرآن هاهنا مخبر أنّ **معجزته الكبرى التي يجب ألّا يمتري فيها أهل الكتاب هي أنّ هذا الكتاب يوافق ما جاء من خبر في كتبهم المقدّسة**. وجعل طلب معجزة أظهر من هذه المعجزة مكابرة في قبول الحق الظاهر.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: ٤٤ ـ ٤٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥/٣٢٩.

وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٢، ١٠٣].

ب ـ تحدّي أهل الكتاب لنبي الإسلام ذكر ما يعرفون من كتبهم:

لقد سأل أهل مكّة على اختلاف خلفياتهم (محمدًا) ﷺ عن أخبار الأمم السابقة والفرق التالفة والأنبياء الذين اندرس ذكرهم، فكان القصص القرآني يأتي موافقًا للكثير مما جاء في أسفارهم.. فلا يردّون عليه ما ذكره، ولا يرون في ما رتّله نقصًا أو مُدخلًا للطعن في نبوته..

إنّ مجرّد توجه أهل الكتاب ووثنيي العرب إلى النبي ﷺ لسؤاله عن أخبار الأوّلين، لدليل **قاطع باهر** أنّ هذا الاختبار قاس على هذا الرجل العربي الأميّ.. إذ لو أنّ القوم كانوا يعلمون علمه بأخبار الأوّلين، لما عرضوا أنفسهم ليكونوا حجّة على نبوته ﷺ.. إنّ المعاصرين (لمحمد) ﷺ ما سألوه إلا ليقينهم ـ وهم المكذّبون له ـ أنّه لا يعلم من أمر السابقين شيئًا.. وليس من المنطقي أن يهدي المرء إلى عدوّه حجّة يدعم بها رصيده، وإنما المنطقي أن يسعى إلى تعجيزه، وقطع حجّته، وإلزامه بالإقرار بنفي دعوته الأولى.

قال القاضي (عياض)، معددًا وجوه إعجاز القرآن الكريم: «الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة **إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب** الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه، ويأتي به على نصّه. فيعترف العالم بذلك بصحته، وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم.

وقد علموا أنه ﷺ أميّ؛ لا يقرأ، ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة، ولا مثافنة، ولم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم.

وقد كان **أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه** ﷺ عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا؛ كقصص الأنبياء مع قومهم، و**خبر موسى، والخضر، ويوسف، وإخوته، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنباء، وبدء الخلق، وما في التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى،** ممّا صدقه فيه العلماء بها، **ولم يقدروا على تكذيب**

ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موفّق آمن بما سبق له من خير، ومن شقي معاند حاسد، ومع هذا **لم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه،** وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم، وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له ﷺ، وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم، وأسرار علومهم، ومستودعات سيرهم، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم، ومضمنات كتبهم، مثل سؤالهم عن الروح، وذي القرنين، وأصحاب الكهف، وعيسى، وحكم الرجم، وما حرم إسرائيل على نفسه، وما حرم عليهم من الأنعام، ومن طيبات كانت أحلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن فأجابهم، وعرفهم بما أوحى إليه، من ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرّح بصحة نبوته، وصدق مقالته، واعترف بعناده، وحسده إياه، كأهل نجران، وابن صوريا، وابني أخطب، وغيرهم.

ومن باهت في ذلك بعض المباهتة، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة، دُعِيَ إلى إقامة حجته، وكشف دعوته، فقيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣] إلى قوله ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٤].

فقرّع، ووبّخ، ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فمن معترف بما جحده، ومتواقح يلقى على فضيحته من كتابه يده.

ولم يؤثر أن واحدًا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحًا، ولا سقيمًا من صحفه؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾ [المائدة: ١٥][(١)].

ت ـ زعمُ أهل مكّة أن التشابه مردّه التعليم:

من أوضح دلائل إدراك أهل مكّة أنّ حديث القرآن عن أخبار أهل

---

(١) القاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى (القاهرة: مكتبة الصفا، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م)، ١/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

الكتاب يتجاوز الملكات المعرفيّة لـ(محمّد) ﷺ المكيّ الأميّ، وأنه لا بدّ أن يُردّ إلى مصدر آخر علّمه، ما نقله القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥]. فهي إذن قصص مسطورة (أساطير) كتبها له غيره، ولم يجرؤ أهل مكّة القول إنه هو من كتبها. وهي قصص غزيرة تملى عليه مدى اليوم. فهي مهمّة شاقة لا يملك أهل مكّة القدرة عليها؛ لأنها ليست جزءًا من ثقافتهم، وهي تحتاج إلى جهد كبير للعلم بها سماعًا، فكيف بتطلّبها دراسة بصورة شخصية؟!

لقد ألزم القرآن أهل مكّة أن يقولوا لنبي الإسلام ﷺ: إنّ ما تخبرنا به هو أثر عن دراسة خاصة وليس من ثقافة بيئتنا، فإنّ أعلمنا لا يعلم ما تقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنعام: ١٠٥]. ويؤكد القرآن أنّ حال نبيّ الإسلام ﷺ لا يؤهّله أن يكتسب تلك المعارف التي تحتاج عمرًا طويلة لتطلّبها؛ إذ قد عاش هذا العمر الطويل بينهم لا يقرأ كتابًا من كتب اليهود والنصارى ولا يدارسه مع حبر أو راهب. قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٦﴾ [يونس: ١٦].

اعتراض: أليس التشابه بين القرآن والأسفار المقدّسة من وجه آخر حجّة ضدّ ربانية القرآن؛ لأنّ كتب أهل الكتاب مرتع لكلّ الأساطير؟

التشابه بين ما جاء في القرآن الكريم وما ورد في الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون بذاته دليلًا على بشريّة القرآن عند النصراني؛ لأنهما قد اشتركا في صواب، وليس نقل الأخبار الصادقة من نواقض الوحي ومبطلات العصمة!

إنّ التشابه الثابت بين القرآن الكريم والكتاب المقدس لا يمكن أن يكون حجة تدعم قول المنصّرين بأن محمدًا ﷺ قد نقل ما وجده لدى علماء أهل الكتاب في عصره، إلا أن يثبت أنّ ما اتفق فيه القرآن الكريم والكتاب المقدس ليس إلا باطلًا وزورًا من الدعوى، وهو ما لم يثبته المنصّرون، وليس إلى إثباته سبيل ما كانوا على نصرانيّتهم.

أمّا إن استدلّ غير النصارى (كالملاحدة) بهذا التشابه لردّ ربّانيّة القرآن

الكريم؛ فعليهم عندها أن يثبتوا أنّ القدر الذي شارك فيه القرآن الكريم الكتاب المقدس، يتضمّن أخطاء وأباطيل يأباها العقل أو ينفيها التاريخ؛ فذاك مركبهم الوحيد لاتخاذ هذا التشابه مطعنًا في كتاب المسلمين.. وتشهد الدراسات النقدية لهذه الطائفة في الشرق والغرب أنّها لم تقدّم شيئًا في هذا الباب من الممكن تتبّعه بالنقد، وإنّما هي أقوال مجملة لا تستند إلى دليل محكم، وعمدتها القول العام الفضفاض إنّ أسفار الكتاب المقدس لا تضمّ غير الأساطير والخرافات، وإنّ كلّ ما فيها هو من اختلاق الكتّاب واختراع الأمم التالفة التي كانت تصنع الأساطير ثمّ تتخذها دينًا..

وقد كان هذا النوع من الدراسات التي لا ترى في أسفار الكتاب المقدس إلّا نوعًا من (الفولكلور) الساذج، شائعًا ورائجًا في القرن التاسع عشر، حيث كانت الدراسات الأركيولوجيّة والأنثروبولوجيّة تعيش مرحلة الدبيب أو الزحف الوئيد بسبب ضعف المادة القديمة التي تسمح بالنظر والمقارنة، لكن مع تطوّر الأبحاث وتوسّع المادة المشرّحة؛ تبيّن أنّ عددًا من هذه الدعاوى لا تستند إلى برهان، وإنّما هي ردّ فعل رافض لكلّ ما تمثله النصرانيّة أو تدعو إليه. ولعلّ أشهر مثال على هذا الأمر ما ذاع في القرن التاسع عشر، خاصة على يد مدرسة (توبنجتن) في ألمانيا، من أنّ المسيح (ابن مريم) ليس إلّا شخصيّة خرافية اختلقها خيال بعض الناس في بداية القرن الأوّل، وقد انحصر هذا المذهب حتّى إنّك لا تجد له ناصرًا بين الأكاديميين المتخصصين في النصرانية الأولى.

نواقض دعوى المعرفة البشرية بخبر أهل الكتاب:

من أهم سُبُل إثبات ربّانيّة مصدر الخبر التاريخي لقصص الأنبياء وأقوامهم في القرآن بيان امتناع وجود مصدر بشري للعلم بهذا الخبر في حياة نبيّ الإسلام ﷺ. وبيان ذلك يكون بإثبات **الأمور الثلاثة التالية مجتمعة:**

- نبي الإسلام ﷺ لم يطلب العلم الديني بعمق، ولم يكن مؤهلًا لذلك.

- الكتب المقدسة لم تكن متاحة لرجل عربي في مكّة ليقرأها.
- لم يكن لنبي الإسلام ﷺ معلّمٌ يعلّمه الكتب المقدسة.

أميّة الرسول ﷺ:

لا تقوم تهمة الاقتباس على ساق حتى تكتمل شروط صحّة الإدانة ـ على فرض أنّ الرسول ﷺ قد أخذ عن أسفار أهل الكتاب مباشرة ـ، ومن هذه الشروط امتلاك محمد ﷺ للأدوات العلميّة المكتسبة للاطلاع المباشر على الأسفار المقتبس منها. ويعتبر التأكيد الإسلامي على أميّة الرسول ﷺ عقبة تقف دونها ركائب المنصّرين وعامة المستشرقين، فلا يمكن أن تعبر إلى إثبات الدعوى، إلّا بإبطال حقيقة هذه الأميّة!

وأوّل ما يواجه المنصّرين والمستشرقين في هذا الشأن هو أنّ مصنفات الحديث والسيرة بالإضافة إلى القرآن الكريم، هي المصادر التاريخيّة الوحيدة المعتبرة لمعرفة خبر محمد ﷺ فيما يتعلّق بكلّ أمره. وليس للمنصّرين والمستشرقين مدخل آخر لهذا الموضوع ولا أدوات أخرى موضوعية حاسمة للبحث فيه..

والناظر في منهج هؤلاء المخالفين؛ يرى بوضوح أنهم يعمدون إلى الضعيف من النقول، أو إلى المتشابه من الأقوال، أو البعيد من الاحتمالات التي لا تطيقها النصوص.. ويتركون في مقابل ذلك نصوصًا صريحة، صحيحة، محكمة..

ويبدو أنّ من أسباب هذا النهج أمران:

أولهما: الرغبة المستحكمة في الوصول إلى النتيجة المرادة التي هي إدانة (محمد) ﷺ وإنكار ربّانية القرآن الكريم..

وثانيهما: التأثّر بالمناهج الغربيّة في نقد النصوص الدينية حيث يرفض الباحث النصوص الدينية منطوقًا ومفهومًا ويتعلّق بهوامش تاريخية ولغوية يبني عليها فهمه للشأن الديني والتاريخي كلّه.

ولئن كان الناقد الغربي له شيء من العذر في نهج ذلك المسلك مع تلك

الأسفار التي ثبت قطعًا أنها مغموزة تاريخيًّا وأنها كتابات ظرفيّة متشبّعة بالكثير من المعائب العلميّة والأدبيّة، حتّى اختفت معالم الوحي فيها وراء الدخيل الكثيف، فإنّ الأسفار الإسلامية ـ قرآنًا وسُنَّة ـ لا تحمل من تلك الأوضار شيئًا، وإنما هي في طهرها التاريخي ناصعة نقيّة..

لقد جاء أمر نسبة الرسول ﷺ إلى الأميّة في الكتاب والسُّنَّة في مواضع عدة، والمنصّرون ومن شايعهم من المسشرقين، يعمدون أمام هذه النصوص إلى **أحد نهجين**:

أ ـ ردّ النصوص واعتبارها افتعالًا إسلاميًّا لا حقيقة تاريخيّة. وهو موقف أيسر تكلفة من ناحية ترتيب المصادر والتوفيق بينها، لكنه الأعسر في نفس الآن من حيث علمية المنهج وحجيّة المصادر..

ب ـ قبول مجمل النصوص التاريخية (الإسلاميّة)، ولكن مع رفض مضمونها المباشر، وإنّما استنطاقها خارج الحقل الدلالي النبوي، والأثري عامة.

ولما كان النزاع مع المنصّرين هو في فهم عبارة (الأميّة)؛ فإنّه علينا أن نفسّر هذا الاصطلاح في إفراده اللغوي، ثمّ في سياقه القرآني والنبوي؛ حتّى نكون قد استنطقنا بحق وعدل المرجع العلمي الوحيد في هذا الشأن.

شهادة اللغة:

لا يَسلَم التعريف اللغوي للفظ العربي من الخطأ، إلا أن نعود إلى أهل اللغة الذين تتبعوا استعمالات العرب للألفاظ المراد تبيّن معناها؛ لاستخراج نقشها الدلالي في الذهن الجماعي زمن الخطاب. وقد شطّ في الطرح وتكلّف في الاستدلال، من جنح إلى تفسير اللفظ العربي خارج سياقه بين أهله؛ وإنّما بالعودة ابتداءً[1] إلى مقابله الكتابي ـ متجاهلًا تمايز الدلالة الاصطلاحيّة حين

(١) اللغات الساميّة مفيدة في فهم ما غمض من الألفاظ العربيّة، إذا كانت هذه الألفاظ دخيلة على اللسان العربي أو كانت من المشترك السامي، لكنّها غير معتبرة إذا ثبت لنا من خلال التصريح أو الاستقراء معنى مُحكمٌ في العرف اللساني البياني العربي ضمن السياق الزمني المقصود.

وجودها ـ أو استنطاقه في مشتركه السامي، بالعودة أساسًا إلى اللغة السريانيّة أو العبريّة اللتان تشاركان اللغة العربيّة الجذر السامي الأوّل، حال وجود تمايز دلالي محكم..»[1].

وفيما يتعلّق بمبحثنا هنا، نلاحظ ربط الكتابات الاستشراقيّة/التنصيريّة بين الكلمة القرآنيّة «أمي» والكلمة الكتابيّة «أممي»؛ إذ يتم في الأغلب رد هذه الكلمة العربيّة القرآنيّة إلى المصطلح اليهودي العبري: «جويم» (גוים) الذي يطلق على غير اليهود؛ بمعنى «أمم» كمقابل «لأمّة بني إسرائيل» المصطفاة، ومفردها «جوي» (גוי)؛ أي: «أمّة (غير يهوديّة)». وظاهر من استعمال هذا اللفظ، دلالته السلبيّة على (غير الإسرائيليين)؛ فهم «أمم» في مقابل الإسرائيليّين «الأمّة»، ولسنا نجد هذا المعنى في وصف الرسول ﷺ لنفسه أو وصف القرآن له، وإنّما قد وضع وصف الأميين للعرب باعتبارهم أمّة لا تعرف الحق والهدى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠﴾ [آل عمران: ٢٠].

فضبطُ الدلالة القرآنيّة «للأمي» و«الأميين» بمعنى من ليسوا من أمّة

---

(١) لعلّ هذه (الموضة) هي الأكثر رواجًا هذه الأيام في المكتبة الاستشراقيّة بين أصحاب الشطحات الفكريّة الحديث؛ ولو كان رصيدها من الواقع شديد الهزال؛ ولذلك لا نستغرب عندما نقرأ قول (جبرائيل صاوما) (Gabriel Sawma) (نصراني لبناني ـ شرقي ـ يقدّم بضاعته ضمن أدبيات المستشرقين) في كتابه: "*The Qur'an: Misinterpreted, Mistranslated and Misread: the Aramaic Language of the Qur'an*" ص١٠٣، مخاطبًا (الكائن الغربي) في سبيل إثبات أنّ القرآن كتاب سرياني اللفظ والدلالة: «اليوم، من يتكلّمون السريانيّة أقدر على فهم معاني القرآن أكثر ممن يتكلّمون العربيّة؛ رغم أنّ الكثير من الألفاظ القرآنيّة قد تمّ تعريبها على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية». علمًا أنّ هذا الكاتب الذي زعم أنّه يفسّر القرآن بالسريانيّة (!) والذي يحسن فهم لغة القرآن أكثر من أصحاب اللسان العربي(!)، قد عجز في بعض الأمثلة التي عرضها، عن قراءة اللفظ العربي أو نقحرة (transliteration) الآيات وأسماء الأعلام!

(الإسرائيليين)؛ أي: الأغيار، لا تستنيخ له الآيات القرآنيّة التي تأبى سياقاتها حصر معنى هذا اللفظ ضمن إطار الدونيّة الدينيّة أو العرقيّة. وهو ما أكّده (كيرلس جلاسي)[1] في موسوعته «موسوعة الإسلام الموجزة» بقوله في مقالة (أمي): «لقب للنبي. رغم أنّ كلمة أمي قد فهمت من المسلمين على أنّها تشير إلى أنّ النبي كان أميًّا، فإنّ بعض النقّاد الغربيين نازعوا في إتيمولوجيّة الكلمة لزعمهم أنّها تعني (gentile) وذلك بربط كلمة أمي بكلمة أمّة، ويقولون: إنّ ذلك بسبب أنّ محمدًا قد دعى إلى الوحي الإبراهيمي الـ(gentiles) أو غير اليهود. إنّ كلمة أمّة لا تعني (nation) بالمعنى العبري لكلمة «جوي»، وليس الإسلام ديانة منبثقة من اليهوديّة، على خلاف المسيحيّة... وليس فهم المسلمين لكلمة أمي كفهم المستشرقين لها»[2].

إنّ نكارة الأمر من الناحيتين الإتيمولوجية[3] والفيلولوجيّة[4] **ترجع إلى**:

○ التجاهل المتعمّد للعُرف اللغوي للكلِم العربي.

○ اللجوء إلى اللغة العبريّة لتحقيق الدلالة المعنويّة للفظ القرآني، مع وجود ثروة لسانيّة هائلة من الشعر والخطب والأمثال العربية السابقة للإسلام.

○ الإعراض عن تفسير اللفظ القرآنيّ من خلال (العرف) القرآني والنبوي لنفس الكلمة!

○ تجاهل نظرة العرب إلى اللغة العبريّة على أنّها لغة أجنبية يُتعامل معها عن طريق الترجمة.

---

(١) كيرلس جلاسي Cyril Glasse (ولد سنة ١٩٤٤م): مستشرق أمريكي من أصل روسي. اهتدى إلى الإسلام في شبابه. تخرّج في كليّة كولومبيا. درّس مقارنة الأديان في العديد من البلاد (نيويورك، وموسكو، ولاهور...)

(٢) Cyril Glasee, *The Concise Encyclopedia of Islam* (San Francisco: Harper and Row, 1989), p.409.

(٣) إتيمولوجيا Etymology: لغة: نتاج إدغام كلمتين يونانيتين: (ετυμος)؛ أي: (حقيقة) و(λο΄γος)؛ أي: (خطاب/كلمة)... اصطلاحًا: نسق علمي تاريخي في اللسانيات لدراسة أصول الكلمات يعتمد أساسًا على ملاحظة التطوّر الصوتي للكلمات في اللغات المختلفة ودلالاتها.

(٤) فيلولوجيا Philology: لغة: نتاج إدغام كلمتين يونانيتين: (φι΄λος)؛ أي: (حب)، و(λο΄γος)؛ أي: (خطاب/كلمة)... اصطلاحًا: علم يهتم بدراسة اللغة من ناحية تاريخيّة انطلاقًا من النصوص المكتوبة بالنظر إلى التعبير اللساني شكلًا ومضمونًا. (وهذا من أوسع التعريفات).

إنّ استكشاف البيان العربي، يحتاج إلى استنطاق العرف اللغوي العربي القديم، خاصة الجاهلي منه الذي شكّل المعجم اللساني في القرن السابع ميلاديًا.. وقد جمع علماء اللغة في معاجمهم الموروث اللغوي القديم، **وقدّموا لنا ما يلي**:

قال (ابن منظور): «معنى الأمي المنسوب إلى **ما عليه جَبَلَتْه أمه**؛ أي: لا يكتب فهو أمي؛ لأن الكتابة مكتسبة؛ فكأنه نسب إلى ما يولد عليه؛ أي: على ما ولدته أمه عليه»[(١)].

وقال (أبو حيان): «الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب؛ أي: لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحقّقوا ما فيها»[(٢)].

أما (ابن قتيبة) فقد نسب كلمة أمي إلى أمة العرب التي لم تكن تقرأ أو تكتب، فقال: «قيل لمن لا يكتب: أمي؛ لأنه نسب إلى أمّة العرب؛ أي: جماعتها، ولم يكن من يكتب من العرب إلّا قليل؛ فنسب من لا يكتب إلى الأمّة...»[(٣)]

ومن الشهادات المبكّرة في تفسير معنى كلمة «أميّ»؛ قول المؤرّخ (ابن إسحاق) (توفي: ١٥١ هجرية) صاحب السيرة النبوية: «كانت العرب أميين لا يدرسون كتابًا، ولا يعرفون من الرسل عهدًا»[(٤)]، وقول الحافظ (يحيى بن معين) (توفي: ٢٢٣ هجرية): «كان جعفر بن برقان أميًا، لا يكتب ولا يقرأ». وقال أيضًا: «كان أبو عوانة أميًا يستعين بإنسان يكتب له»[(٥)].

لقد كانت كلمة «أميّ» بين أهل اللسان العربي مرادفة للعجز عن القراءة والكتابة، وكان العرب (أميّين) لغلبة الجهل بالقراءة والكتابة عليهم..

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د.ت)، ١٢/ ٣٤.

(٢) أبو حيان، تفسير البحر المحيط (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م)، ١/ ٤٤٢

(٣) ابن قتيبة، غريب الحديث، ت: عبد الله الجبوري (بغداد: مطبعة العاني، ١٣٩٧هـ)، ١/ ٣٨٤

(٤) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ت: محمد حميد الله (معهد الدراسات والأبحاث، د.ت)، ٢/ ٦٢

(٥) ابن معين، تاريخ ابن معين، رواية الدوري (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٠هـ)، ٣/ ٤١٩

شهادة القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

تنفي هذه الآية الشريفة المحكمة عن الرسول ﷺ دراسة أسفار أهل الكتاب.. كما تنفي عنه نسخ هذه الكتب ـ وبدلالة التضمّن، تداولها ـ؛ وفي هذا ردّ صريح مباشر على الزعم أنّ الرسول ﷺ كان على علم واطلاع عميقين بأسفار القوم..

إنّ هذه الآية تقرّر أنّ (محمدًا) ﷺ لا علم له بأسفار أهل الكتاب، وجعلت سكوت مخالفيه دليلًا على صحة هذه الحقيقة وصواب هذه الدعوى، ولكن يأبى (المولَّدون) إلا الجدال في ما لم يجادل فيه ألدّ خصوم هذا النبي ﷺ من المعاصرين له، ممن لم يتورعوا عن محاولة سفك دمه وإهدار عرضه!

وتؤيّد آيات أخرى علم أهل مكّة بعدم دراية محمد ﷺ بأسفار أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

شهادة السيرة:

تشهد السيرة النبويّة بإفاضة لأميّة نبيّ الإسلام ﷺ، وتكشف أنّه أبعد الناس في زمانه عن العلم بأسفار الأوّلين.

شهادة السيرة: تعددت الوقائع والأحداث الثابتة في السيرة، المظهرة لأميّة الرسول ﷺ، كما غابت المواقف التي تكشف ارتياد الرسول ﷺ مجالس التعلّم والكتابة، أو استعماله للقرطاس والقلم، وهي **مواقف لا يمكن أن تغيب عن حياة رجل يحسن القراءة والكتابة في بيئة عمّها الجهل واستوطنتها الأميّة.**

وقد كانت المرحلة المدنيّة من الدعوة **متميّزة بالحاجة** إلى الكتابة بصورة خاصة، مع ظهور مراسلات الملوك، وتنظيم الجيش، والدولة، حتّى إنّه كان

للرسول ﷺ واحدٌ وستون كاتبًا[1]، ومع ذلك لم تظهر في هذه المرحلة (المعرفة المزعومة) للرسول ﷺ بالقراءة والكتابة.

كما أنّ طفولة الرسول ﷺ كانت على درجة كبيرة من الشدة والقسوة ممّا يمنعه من تقصّي أسباب التعلّم بما تتطلبّه من تفرّغ ولين عيش في تلك البيئة القاسية والحياة المرهقة.

وهل التعلّم يكون من غير معلّم؟ فأين سيرة من علّم الرسول ﷺ في أخبار الصحابة عن نبيّهم، **وقد عُلِم أنّهم كانوا يعظّمون كلّ أمره**، ويبجّلون كلّ من كان عظيم الصلّة به؟ أليس معلّم الرسول ﷺ أحرى الناس بالتعظيم؟!

والأمر كما قالت المستشرقة (كارن أرمسترونج): «يبدو أنّه من **الانحراف في الرأي** تحدّي التراث الإسلامي التفسيري لكلمة (أمّي). لا توجد أيّ إشارة في المصادر الأولى إلى ممارسة محمّد للقراءة أو الكتابة. كان محمّد يملي كلامه على غيره؛ كَعَلِي المتعلّم، إذا ما أراد إرسال رسالة. إنّها **لخدعة كبيرة** أن يكون محمد قد أخفى طوال حياته قدرته على القراءة والكتابة. بعيدًا عن أنّ ذلك **ليس من الأمور المعهودة**، فإنّه يبدو من العسير جدًّا المحافظة على هذا الغش؛ نظرًا **للتقارب الشديد** في المعيشة بين محمد وقومه»[2].

أمّا (توماس كارليل) فيردّ دعوى أميّة الرسول ﷺ بقوله: إنّ (محمّدًا) لم يتعلّم شيئًا ممّا نسمّيه نحن اليوم تعليم مدارس، كما أنّ الكتابة لم تكن قد دخلت المنطقة إلّا حديثًا، ولم تجُد البيئة على (محمّد) ﷺ بعلمٍ إلّا ما تمنحه الصحراء أهلها من الأخبار الشائعة غير المحرّرة التي يتداولها العوام[3].

وقد أقرّ بأميّة الرسول ﷺ عدد من المستشرقين مثل (مرتشي)[4]

---

(١) حقّق الدكتور (محمد مصطفى الأعظمي) أمر هذا العدد من الكُتّاب في كتابه: «كتّاب النبي ﷺ». انظر: محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت: دار النفائس، ط٦، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص أ.

(٢) Karen Armstrong, *Muhammad: a biography of the prophet* (New York: HarperCollins, 1993), p.88.

(٣) Thomas Carlyle, *Heroes: Hero-worship and the Heroic in History* (New York: John Aladen, 1883), p.40.

(٤) لودفيجيو مرتشي Marraci (١٦١٢م ـ ١٧٠٠م): قسيس كاثوليكي إيطالي. درّس اللغة العربيّة في جامعة سابينزا بروما. ترجم القرآن الكريم إلى اللاتينيّة. صاحب نزعة عدوانيّة اتجاه الإسلام.

و(بريدو)[١] و(أوكلي)[٢] و(جروك)[٣] و(أرمون ـ بيير كوسن دو برسفال)[٤] و(ج. م. أرنولد)[٥] و(بالمر)[٦][٧].

شهادة الرسول ﷺ: قال الرسول ﷺ: «**إنّا أمّة أمّيّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا** وعقد الإبهام في الثالثة **والشهر هكذا وهكذا**؛ يعني: تمام ثلاثين»[٨].

قال (المباركفوري): «قال ﷺ: «**إنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب**»؛ أراد أنهم على أصل ولادة أمهم؛ لم يتعلّموا الكتابة والحساب؛ فهم على جِبلّتهم الأولى»[٩].

لقد ورد هاهنا الشرح المحكم لمعنى الأميّة على لسان الرسول ﷺ بما يمنع الدخول في مماحكات تأويليّة، وبما يدفع عن هذا اللفظ أيّ غموض أو اشتراك دلالي موهم.. إنّ الأميّة التي كان عليها الرسول ﷺ هي عدم الدراية بالكتابة والحساب..

---

(١) همفري بريدو Prideaux (١٦٤٨ ـ ١٧٢٤م): ناقد وأستاذ دين. ألّف كتاب «حياة محمد» "Life of Mahomet"، وهو مؤلَّفٌ مشحون بالافتراء والطعن.

(٢) سيمون أوكلي Ockley (١٦٧٨م ـ ١٧٢٠م): مستشرق بريطاني. درّس اللغة العربية في جامعة كمبردج. اشتهر بكتابه "The History of the Saracen Empires".

(٣) ك. ف. جروك Gerock: مستشرق. صاحب كتاب "Versuch einer Darstellung der Christologie des Koran" في التصوّر القرآني لطبيعة المسيح.

(٤) أرمون ـ بيير كوسن دو برسفال Armand-Pierre Caussin de Perceval (١٧٩٥م ـ ١٨٧١م): مستشرق فرنسي. درّس اللغة العربيّة في (كوليج دو فرُونس). أشهر مؤلّفاته: «بحث عن تاريخ العرب قبل الإسلام وأثناء عصر محمد»
"*Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet*".

(٥) ج. م. أرنولد J. M. Arnold (توفي ١٨٨٢م): منصّر إنجليكاني.

(٦) إدوارد هنري بالمر Palmer (١٨٤٠م ـ ١٨٨٢م): مستشرق بريطاني. درّس اللغة العربيّة في جامعة كمبردح. تعتبر ترجمته الإنجليزيّة للقرآن الكريم أشهر أعماله.

(٧) Samuel Marinus Zwemer, *The Muslim Doctrine of God: an essay on the character and attributes of Allah according to the Koran and Orthodox tradition* (New York: Young People's Missionary Movement, 1905), p.92.

(٨) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: «**لا نكتب ولا نحسب**» (ح/١٩١٣)، ومسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال (ح/١٠٨٠).

(٩) المباركفوري، تحفة الأحوذي (بيروت: دار الكتب العلميّة، د.ت)، ٨/٢١٢.

اتّخاذ الرسول ﷺ كتّابًا للوحي ولشؤونه الأخرى: كان للرسول ﷺ عدّة كتّاب (كأبي بكر) و(عمر) و(عثمان) و(علي) و(زيد) و(معاوية) رضي الله عنهم يكتبون الوحي، ويكتبون العهود، ويكتبون كُتُبَه إلى مَن بعثه الله إليهم مِن ملوك الأرض ورؤوس الطوائف، وإلى عُمّاله، وولاته، وسعاته. ولم يذكر التاريخ الصادق أنه ﷺ قام بكتابة الوحي بنفسه أو أنّه تولّى كتابة أيّ من رسائله..

الاصطلاح في البيئة العربية زمن البعثة النبوية: قال المؤرّخ (ابن خلدون): إنّ الكتابة في العرب كانت أعزّ من بيض الأنوق، وإنّ أكثرهم كانوا أميين، ولا سيما سكّان البادية؛ لأنّ هذه الصناعة من الصنائع التابعة للعمران[1]؛ ولذلك **ما كان العرب يشيرون على الأميّ بالأميّة، وإنما كانوا يشيرون على من يعلم القراءة والكتابة**، بالعلم في هذا الأمر؛ إذ إنّ علم القراءة والكتابة كان الاستثناء لا الأصل في الناس؛ وصمت نصوص الوحي وكتب التاريخ الإسلامي عن وصف محمد ﷺ بالقراءة والكتابة يكفي لإلزام الباحث أن يستصحب الأصل في ذاك الزمان؛ وهو أنّ هذا النبيّ ﷺ لا يقرأ ولا يكتب[2].

حجم المعرفة العلميّة المشترطة: إنّ دفع الأميّة عن الرسول ﷺ لا يجدي ـ في حقيقته ـ المنصّرين والمستشرقين في شيء؛ لأنّ العلم بخط الحروف ورصف الكلمات لا يثبت شيئًا من دعاوى الاقتباس؛ إذ إنّ إثبات علم الرسول ﷺ بدقائق الأسفار المقدّسة السابقة لا يستقيم إلّا بإثبات (ثقافة موسوعية) للرسول ﷺ في أسفار أهل الكتاب وعقائدهم وفرقهم ولغاتهم.. وقد صدق الدكتور (عبد الرحمٰن بدوي) في قوله: «ولكي نفترض صحة هذا الزعم، فلا بد أنّ محمدًا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه

---

(١) أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي، الردّ الشافي الوافر على من نفى أميّة سيّد الأوائل والأواخر، ضمن مجموعة الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي رحمه الله (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م)، ٦/٢٤٨.

(٢) انظر في شأن الأميّة في الأمم القديمة:
William Harris, *Ancient Literacy (*MA: Harvard University Press, 1989).

كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود، والأناجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات، وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين، وكتب مختلف الكنائس ـ والمذاهب المسيحية»[1]!

إنّ التاريخ يخبرنا أنّ ذاك الزمان **لم يعرف رجلًا من أهل الكتاب أنفسهم، يحمل هذه العلوم الجمّة، بسعتها ودقّتها وتلوّنها!**

عبءُ الإثبات على المنكر للأميّة لا مثبتها. ورفع الأميّة لا يقود إلى معرفة أصل خبر أهل الكتاب في القرآن الكريم.

هل كان الكتاب المقدس معرّبًا زمن الرسول ﷺ؟

يمثّل الكتاب المقدس النصراني المصدر الأوّل للاقتباس القرآني المدّعى؛ ولذلك فإنّ إبطال زعم وجود ترجمة عربية للأسفار المقدسة لليهود والنصارى زمن البعثة النبوية حجة كافية لتفنيد مزاعم المخالفين.

ويعتبر أمر التحقيق في معرفة وجود ترجمة عربيّة لأسفار اليهود والنصارى، مسألة تاريخيّة استقرائيّة بعيدة عن التشهّي أو الحماسة النقديّة أو التنبؤ والرجم بالغيب، وليس لنا أن نبحثها في غير المظان التاريخيّة المعتبرة، وليس هناك أقوى حجة ضد المنصّرين ومن شايعهم من المستشرقين، من أن ندعم قولنا بشهادات الأكاديميين الغربيين أنفسهم، وإقرارات المخالفين لنا ممن لا تحوم حولهم شبهة التعاطف مع الإسلام، وذلك بعد استنطاق أهم المصادر المباشرة: القرآن والسُّنَّة.

شهادة القرآن الكريم والسيرة النبوية:

إنّ الناظر في ما جاء في القرآن الكريم والسيرة النبوية ـ المصدران

---

(١) عبد الرحمٰن بدوي، دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ت: كمال جاد الله (القاهرة: الدار العالميّة للكتب والنشر، ١٩٩٩م)، ص٢٤.

التاريخيان الوحيدان المعتبران لدراسة حياة محمد ﷺ ـ ليلاحظ غياب أيّ دليل على وجود ترجمة عربية للكتاب المقدّس، بل يفهم ممّا جاء في القرآن الكريم والسيرة النبوية النفي المباشر لوجود هذا النصّ..

ولعلّ من أوضح البراهين لإثبات ما نحن بصدده؛ عدم إحالة أعداء محمد ﷺ إلى هذا النصّ العربي لما أرادوا نفي حقيقة النبوّة عنه؛ إذ إنّ أهل مكّة لما ضاقت عليهم الحيل وسُدّت أمامهم فُرَج التشكيك؛ زعموا أنّ فتى أعجميًّا هو الذي كان يعلّم محمدًا ﷺ ما كان يدعو إليه غيره. ولو أنّ هذا النصّ العربي المزعوم كان موجودًا؛ لقال المناكفون لهذا النبي ﷺ إنّك قد قرأت هذا النصّ أو إنّ من أهلك أو رفاق الطفولة أو الشباب من قرأ عليك هذه النصوص، ووعيتها عنه، ثم جئتنا تتلوها علينا!

ولو كان هذا النصّ متداولًا، لقال العرب لنبيّ الإسلام ﷺ: إنك تتحدانا بمعارف مشاعة عندنا، وتزعم أنّ كتابك يُعلِمنا بما لا نعلم، مع أنّ ما تخبر به موجود في كتاب عربي قريب من أيدينا، لنا أن نخبرك بما لا تعلم منه.. لكنهم لم يفعلوا!

ولو أنّ هذا النصّ العربي كان متاحًا؛ لاتخذه العرب وسيلة لمحاججة هذا النبيّ ﷺ وسبيلًا لمحاولة نقض ما جاء به وإبطال ما يدعو إليه.. ولكنهم لم يفعلوا!

كما أنه يفهم بصورة قاطعة من الحديث الذي أخرجه (البخاري) في صحيحه، أنّ العرب لم يعرفوا نصًّا عربيًّا لأسفار اليهود.. فقد قال (أبو هريرة) رضي الله عنه متحدثًا عن مصدر اطّلاع المسلمين أصحاب اللسان العربي زمن البعثة النبوية على مضمون (التوراة): «كان أهل الكتاب **يقرؤون** التوراة **بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية** لأهل الإسلام»؛ فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدّقوا أهل الكتاب، ولا تكذّبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا**»[1].

لقد كان يحول بين العرب وبين معرفة ما تتضمنه التوراة، أنّ لغة أسفار

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ (ح/ ٤٤٨٥).

اليهود عبرانية لا يعرفها سكان الجزيرة من الوثنيين، وهو ما دفع أهل الكتاب إلى أن يقرؤوا نصوصهم أولًا باللغة العبريّة، ثم يقومون بتفسيرها في غير لغتها.. ولو أنها كانت بلغة العرب ابتداءً لما كلّف اليهود أنفسهم عنتًا[1].

وإنّ في نهي (محمد) ﷺ عن سؤال أهل الكتاب، دلالة على احتكار أهل الكتاب لهذه المعارف؛ فقد روى (البخاري) في صحيحه، في كتاب «قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب»، عن (ابن عباس) رضي الله عنهما قال: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أفَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أنْزِلَ عَلَيْكُمْ»[2].

ويُفهم من قوله تعالى عن اليهود: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: ٧٦] أنّ اليهود يعلمون ألّا سبيل للمسلمين لمعرفة ما

---

(١) قد يستدلّ بعضهم بحديث (جابر بن عبد الله) رضي الله عنه أنّ (عمر بن الخطاب) أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ، فغضب النبي ﷺ وقال: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به. والذي نفسي بيده لو أن موسى كان فيكم حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**».. وهو حديث ليس بحجّة للمخالف **لثلاثة أسباب:**

١ ـ ليس الحديث محكم الدلالة في أنّ (عمر) رضي الله عنه كانت عنده ترجمات عربية لأسفار الكتاب المقدس، ولعلّها ـ إن صحّ الحديث جدلًا ـ بعض الحِكم المنقولة منها.

٢ ـ معارضة هذه الرواية للثابت من غياب ترجمة عربيّة.

٣ ـ هذا الحديث لا يصحّ عند التحقيق، قال الإمام (ابن مفلح): «وهو مشهور رواه أحمد وغيره. وهو من رواية مجالد وجابر الجعفي وهما ضعيفان». (الآداب الشرعيّة، ت: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م)، ٢/ ١٠٠.

قال الهيثمي: «فيه مجالد بن سعيد ضعّفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما». (مجمع الزوائد، ت: عبد الله محمد الدرويش، بيروت: دار الفكر، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م)، ١/ ٤٢٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لَا يُسْأَلُ أهل الشِّرْكِ عَنِ الشَّهَادَةِ، وَغَيْرِهَا (ح/ ٢٦٨٥).

جاء في الكتب اليهودية إلّا ما أخبروهم به، وهو المعنى الذي أقرّ به الحبر اليهودي (جايجر)![1].

ويكشف قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨] أنّ اليهود لما كانوا يلوون ألسنتهم أثناء ذكرهم بعض الخبر الديني إيهامًا أنّ قولهم هذا نقل لما جاء في الأسفار المقدسة، كان المسلمون في عجز عن مراجعة الأسفار لمعرفة صحة النقل عنها، وكان اليهود مطمئنين ألّا سبيل للمسلمين إلى هذه الأسفار، وما ذلك إلّا لأنّ أسفار أهل الكتاب لم تكن متاحة بلغة العرب.

شهادة الاستقراء التاريخي:

شهد لغياب الترجمة العربية لهذه الأسفار، العديد من الأكاديميين المحقّقين، وأقرّت بذلك الموسوعات المتخصّصة التي لم تحمل همّ دعوى نقض أصالة القرآن الكريم، وذلك بعد أن ثبت بالاستقراء التاريخي غياب الترجمة العربية للكتاب المقدس زمن البعثة النبوية، ولعلّ أهمّ من كتب في موضوع تاريخ ترجمات الكتاب المقدس في لغات العالم، البحّاثة (بروس متزغر)[2]، أستاذ لغة العهد الجديد وآدابه، في كتابه المرجعي (The Bible in Translation) المتعلّق بصورة مباشرة بتاريخ ترجمات الكتاب المقدس؛ فقد قال في هذا الشأن: «من الراجح أنّ أقدم التراجم (العربيّة) للكتاب المقدس تعود إلى القرن الثامن»[3]. وكتب المستشرق المنصّر (توماس باتريك هوغز) في معجمه الذي خصّه للمصطلحات الإسلاميّة (The Dictionary of Islam) ـ

---

(١) A. Geiger, *Judaism and Islam* (New York: Ktav Publishing House Inc, 1970), p. 17.

(٢) بروس متزجر Bruce Metzger (١٩١٤م ـ ٢٠٠٧م): أحد أئمة دراسات النقد النصي للعهد الجديد. له مؤلّفات متنوعة في موضوعات متعددة في الدراسات الأكاديميّة المتعلّقة بالعهد الجديد. شارك في إعداد أهم نص يوناني قياسي للعهد الجديد في القرن العشرين (UBS). كما شارك في تحرير العديد من الترجمات الإنجليزيّة للعهد الجديد والتعليق عليها. تعتبر مؤلّفاته مراجع أساسيّة في الدراسات المتخصصة في الجامعات الغربيّة.

(٣) Bruce Metzger, *The Bible in Translation* (Grand Rapids: Baker Academic, 2001), p. 46.

نقلًا عن المستشرق «ج. م. رودويل»[١] ـ: «**لا توجد حجة أنّ محمّدًا قد اطّلع على الأسفار المسيحيّة المقدسة... لا بد أن يُعلم أنّه لا توجد آثار واضحة على وجود ترجمة عربيّة للعهدين القديم والجديد سابقة لزمن محمد**. . . أقدم ترجمة عربيّة للعهد القديم بلغنا أمرها، هي ترجمة الحبر سعديا الفيومي»[٢]. واحتج بالاختلاف الثابت في الصياغة الأدبيّة بين الترجمات العربيّة المتأخرة لأسفار العهدين واختلافها أيضًا في رسم أسماء الأعلام للقول إنّها لا تعود لترجمة عربيّة قديمة سابقة للإسلام، وإنّما هي ترجمات متأخرة عن ذلك، من أصول لغويّة مختلفة (السبعينيّة اليونانية، والفولجات اللاتينية، وسريانيّة، وقبطيّة)[٣].

وخلص الباحث الإنجيلي المصري (ألبرت إستيرو)[٤] في خاتمة أطروحته للدكتوراه حول (الترجمة العربيّة) التي اعتمدها (ابن قتيبة) في اقتباساته من الكتاب المقدس: «الاقتباسات الكتابيّة لعبد الله مسلم بن قتيبة ومصدرها: التحقيق في شأن أبكر الترجمات العربيّة للكتاب المقدس»:

" 'Abdullah Muslim Ibn Qutayba's Biblical Quotations and their Source: An inquiry into the earliest existing Arabic Bible Translations"[٥]

إلى القول: «**ربّما ظهرت الترجمات العربيّة للكتاب المقدس في الفترة الأخيرة من الحكم الأموي ـ في بداية القرن الثامن**»[٦]، ومما استدلّ به لغياب

---

(١) جون مدوز رودويل J. M. Rodwell (١٨٠٨م ـ ١٩٠٠م): مستشرق إنجليزي.

(٢) Thomas Patrick Hughes, *The Dictionary of Islam, being an Encyclopedia of the doctrines, rites, ceremonies, and customs, together with the technical and theological terms, of the Muhammadan religion*, London: W.H. Allen, 1895, pp.516-516

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٥١٦.

(٤) يكتب بالحرف اللاتيني (Albert Isteero)، والمقابل العربي تقريبي إذ لم أعثر على اسمه كما يكتب باللغة العربيّة. جاء في مخطوطة الدكتوراه تعريفه أنه من مواليد سنة ١٩٣٠م، في (بورسعيد) بمصر. رُسّم قسيسًا سنة ١٩٥٨م في الكنيسة الإنجيليّة. انتخب سنة ١٩٦٥م كسكرتير عام لمجلس كنائس الشرق الأوسط. وهو يدرّس الأدب الكتابي في إحدى مدارس الكنيسة الإنجيليّة المصريّة.

(٥) ناقشها سنة ١٩٩٠م في جامعة (Johns Hopkins) الأمريكيّة.

(٦) Albert Isteero, *'Abdullah Muslim Ibn Qutayba's Biblical Quotations and their Source: An inquiry into the earliest existing Arabic Bible Translations*, p.236, manuscript.

ترجمة عربيّة قبل ظهور الإسلام؛ عدم حاجة يهود البلاد العربيّة لهذه الترجمة في لغة العرب؛ إذ دلّت النقوش على استعمالهم للآراميّة، أمّا النصارى فيشهد عدم وجود مجتمع نصراني في الحجاز، **واعتماد الليتورجيا على اللغات الأخرى**، على أنّه من غير المعقول أن يواكب ذلك وجود ترجمة عربيّة للكتاب المقدس[١].

ولعلّه من الجيّد أن نفصّل في هذه القضيّة؛ دفعًا للوهم عمّن يحسب أنّ ما نقرّره مخالف لما انتهى إليه من صنّفوا في هذا الموضوع من أعلام الكتّاب الغربيين المتخصصين في هذه الدراسات الدقيقة.

الترجمة العربيّة للعهد القديم:

ذكر الدكتور (إيرا موريس برايس) ـ أستاذ اللغات الساميّة والآداب في جامعة شيكاغو ـ في كتابه الخاص باستقراء تاريخ مخطوطات الكتاب المقدس ونصوصها وترجماتها أنّ الفتح الإسلامي العربي لسوريا ومصر ـ حيث تمّ تثبيت اللسان العربي ـ هو الذي أوجد الحاجة لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربيّة[٢]. ووافقته على ذلك «موسوعة المسيحيّة» بقولها: إنّ «**الترجمات العربيّة تعود إلى الفترة الإسلاميّة**»[٣].

ولما تحدثت «الموسوعة الكاثوليكيّة» ـ طبعة سنة ١٩١٣م ـ عن التراجم العربيّة للكتاب المقدس، لم تُحدث ذِكرًا لترجمة قبل القرن العاشر؛ وإنّما جاء فيها أنّه: «توجد ست أو سبع ترجمات لأجزاء من العهد القديم طبق الترجمة اليونانيّة السبعينيّة، بعضها يعود إلى القرن العاشر»[٤].

والأمر كما قال (هورن) ـ أحد أعلام النصارى المحافظين البارزين ـ فإنّ

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٧ ـ ١٧.

(٢) Ira Maurice Price, *The Ancestry of Our English Bible* (Philadelphia: The Sunday School Times Company, 1920, 7th edition), p.108.

(٣) Geoffrey W. Bromiley, ed. *The Encyclopedia of Christianity*, Tr. Erwin Fahlbusch (Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1999), p.242.

(٤) *The Catholic Encyclopedia* (New York: The Universal Knowledge Foundation, INC., 1913), 15/ 369.

«الترجمات العربيّة للعهد القديم لا تمتد إلى ما وراء القرن العاشر»[١].

وممّا يؤكد صدق هذه الشهادة، ما قاله المفسّر اليهودي (ابن عزرا) (توفي ١١٦٤م) في تعليقه على نص تكوين ٢/ ١١ من أنّ (سعديا الفيومي)[٢] قد ترجم الأسفار الخمسة لموسى إلى «لغة إسماعيل وكتاباتهم ليظهر أنّها لا تضمّ أمورًا غير مفهومة»[٣]. . . ؛ أي: إنّ بداية النص العربي للأسفار الخمسة قد كانت مع (سعديا الفيومي) في القرن العاشر[٤]. وهو ما أقّر به الدكتور

---

(١) Thomas Hartwell Horne, *An Introduction to the Critical Study and Knowledge of the Holy Scriptures* (New York: R. Carter & Brothers, 1852), 1/ 274

(٢) سعديا الفيومي (٨٨٢ ـ ٩٤٢م): حبر وفيلسوف يهودي. يعتبر رائد الكتابات اليهوديّة ـ العربيّة. تأثّر بالمناهج والمباحث الكلاميّة الإسلاميّة.

(٣) Hava Lazarus-Yefeh, *Intertwined Worlds, medieval Islam and Bible criticism* (New Jersey: Princeton University Press, 1992), pp.117.

(٤) لا يبدو أنّ ما ذكره (المسعودي) عن وجود ترجمة عربيّة من النص اليوناني السبعيني في القرن التاسع يعكّر على ما قرّرتُه في المتن؛ فإنّ قوله في كتابه: «التنبيه والأشراف» (ت: م. ج. دو غوج، ليدن: بريل، ١٨٤٣) ص١١٢: «ابطلميوس الكصندرس ملك اثنتين وعشرين سنة، وهو الذي نقلت له التوراة نقلها اثنان وسبعون حبرًا بالإسكندرية من بلاد مصر من اللغة العبرانية إلى اليونانية. وقد ترجم هذه النسخة إلى العربي عدة ممن تقدم وتأخر منهم حنين بن إسحاق (٨٠٩م ـ ٨٧٧م) وهي أصح نسخ التوراة عند كثير من الناس». فيه نظر؛ لأسباب:

١ ـ لا توجد أدنى شهادة من المخطوطات على هذه (الترجمات). انظر:

Meira Polliack, *The Karaite Tradition of Arabic Bible Translation*, Leiden: Brill, 1997, p.18.

رغم أنّه قد عرفت (لإسحاق بن حنين) ترجمات لكتب كثيرة منها عشرات الكتب للطبيب (جالن). انظر:

Samir Johna, *Hunayn ibn-Ishaq: A Forgotten Legend*, American Surgeon, 00031348, May2002, Vol. 68, Issue 5, p.498.

فكيف يذكر التاريخ ترجماته لكتب الطب، ويغفل الكل ـ إلا المسعودي ـ ذكر ترجمته للتوراة؟!

٢ ـ قال (المسعودي) بعد هذا النص مباشرة (ص١١٢ ـ ١١٣): «فأمّا الإسرائيليون من الأشمعث وهم الحشو والجمهور الأعظم والعنانية وهم ممن يذهب إلى العدل والتوحيد فيعتمدون في تفسير الكتب العبرانية التوراة والأنبياء والزبور وهي أربعة وعشرون كتابًا وترجمتها إلى العربية على عدة من الإسرائيليين المحمودين عندهم قد شاهدنا أكثرهم منهم أبو كثير يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني إشمعثي المذهب وكانت وفاته في حدود العشرين والثلاثمائة ومنهم سعيد بن يعقوب الفيومي إشمعثي المذهب أيضًا»، وهذه دعوى لا دليل عليها، كما أنّها مستبعدة جدًّا؛ لأنّها تنفي عن ترجمة (سعديا) ـ الذي سماه هنا (سعيد) ـ مبررات إصدارها؛ إذ كيف يعرب الأسفار العبريّة مع ما في ذلك من مشقة وحرج علمي، مباشرة بعد أن قام بذلك أستاذه (أبو كثير يحيى بن زكريا)، ولماذا لا نرى ذكرًا لترجمة الأستاذ، ولم يبق في الخبر غير ذكر ترجمة التلميذ مع توافر الدواعي لذكر الاثنين معًا؟! =

القس (صموئيل يوسف خليل) في كتابه «المدخل إلى العهد القديم» بقوله: «أوّل وأهم هذه الترجمات المأخوذة من اللغة العبريّة هي التي قام بها سعديا الجاوون[١]، وهو رجل يهودي متعلم ومثقف جدًّا. كان رئيسًا للمدرسة اليهوديّة في سورا في بابل ومات عام ٩٤٢م»[٢].

وممّا لا بد من إضافته هنا هو أنّه رغم ظهور ترجمة عربيّة للعهد القديم بعد انتشار الإسلام، إلّا أنّ هذه الترجمة ـ وغيرها إن وجدت ـ لم ترج بين المسلمين في قرون الإسلام الأولى، إلّا ما قد يمكن أن يستثنى في بلاد أوروبا ـ في الأندلس ـ[٣]. وقد كان النقل في الكتابات الإسلاميّة عن الكتاب المقدس في تلك القرون أساسًا من الزاد الشفهي غير المباشر[٤]، كما كانت كتب المؤرّخين الأخباريين (كاليعقوبي) وغيره، تخلط في نقلها عن اليهود بين

= ٣ ـ (المسعودي) متهم عند علماء المسلمين بنقل الروايات المكذوبة؛ قال فيه شيخ الإسلام (ابن تيمية) في كتابه «منهاج السُّنَّة» (ت: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦هـ) ٤/ ٨٤: «وفي تاريخ المسعودي من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله تعالى، فكيف يوثق في كتاب (يقصد «مروج الذهب») قد عرف بكثرة الكذب»، كما أنه كثيرًا ما ينقل دون إسناد.

انظر: عبد الفتاح محمد وهيبة، جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، الإسكندرية، منشئة المعارف، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ص٢٧، بما يضعف نقله بلا ريب.

لا ينفي ما سبق أن تكون هناك بعض الترجمات العربيّة لمقاطع من الكتاب المقدس (خاصة المزامير التي تستعمل في الليتورجيا) أو لأسفار صغيرة.

(١) هو نفسه (سعديا الفيومي).

(٢) صموئيل يوسف خليل، المدخل إلى العهد القديم (القاهرة: دار الثقافة، ٢٠٠٥م، ط٢)، ص٦٨

(٣) وجود ترجمة عربيّة للعهد القديم زمن (ابن حزم) في الأندلس لا يزال محلّ جدل بين النقاد لغياب الدليل المباشر والحاسم لصالح مذهب الإثبات أو النفي. انظر:

Hava Lazarus-Yefeh, *Intertwined Worlds, medieval Islam and Bible criticism*, p.124.

وقد ذهب بعض النقاد إلى أنّ (ابن حزم) قد اعتمد ترجمة عربيّة من اللاتينيّة عرّبت في القرن العاشر على يد (Ishaq ibn Balask). انظر:

Ann Christys, *Christians in Al-Andalus, 711-1000*, Richmond: Curzon Press, 2002, p.155.

(٤) لعلّ الإمام (أبا جرير الطبري) يعدّ من أهم الأمثلة في هذا الباب، فقد أكثر من النقل عن أهل الكتاب، لكنه كان في القليل النادر يوافق النص الحرفي للعهد القديم. ومن الملاحظ أنّ المهتدي (علي بن ربن الطبري) في القرن التاسع ميلاديًّا، وإن تميّز بالحَرفيّة في كتابه «الدين والدولة» إلّا أنّه ـ على ما تدلّ عليه القرائن الداخليّة ـ كان يستعمل ترجمة سريانيّة لا عربية. انظر:

Hava Lazarus-Yefeh, *Intertwined Worlds, medieval Islam and Bible criticism*, pp.112-113.

نصوص الأسفار المقدسة والكتابات المدراشيّة، بما ينفي ـ كما تقول المستشرقة (حوا لازاروس يافه) ـ أن تكون هناك ترجمة عربيّة رائجة بين المسلمين في تلك الفترة[1].

وتؤكّد الحقيقة التاريخيّة الاستقرائيّة السالفة عسر التعامل مع النصوص الكتابيّة لمّا كانت بأيدي أهل الكتاب، وإن كانت بلغة العرب. . فكيف يفترض أن تتاح بين يدي رسول الله ﷺ ليأخذ منها ويذر بيسر لمّا لم يكن لها وجود في اللسان العربي!؟

الترجمة العربيّة للعهد الجديد:

قال الباحث النصراني **المحافظ** الشهير، والذي شغل منصب مدير المتحف البريطاني، (فردريك ج. كنيون)، عند سرده للترجمات المتاحة للعهد الجديد: «عدة ترجمات عربية يُعلم وجودها (اليوم)، بعضها ترجمات عن اليونانية، وبعضها عن السريانية، وبعضها عن القبطية، في حين أن ترجمات أخرى هي مراجعات قامت على بعض (تراجم) اللغات السابقة أو كلّها. **لا ترجع أيّ منها إلى ما قبل القرن السابع**، وربما لا توجد واحدة في ذاك الزمن المبكّر»[2]. وهو ما أقرّه البابا الحالي للكنيسة المصريّة الأرثودكسية (تواضروس الثاني) بقوله: «أوّل ترجمة عربيّة ظهرت أواخر القرن الثامن الميلادي بعد الإسلام بأكثر من مائة عام، قام بها يوحنا أسقف إشبيلية في إسبانيا. كانت ترجمة محدودة لم تشمل كل الكتاب ولم يكن لها الانتشار الكافي»[3].

وقد عدّد (بروس متزغر) في دراسته المعنونة بـ«ترجمات عربيّة مبكّرة

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص١١٤.

(٢) "Several Arabic versions are known to exist, some being translations from the Greek, some from Syriac, and some from Coptic, while others are revisions based upon some or all of these. None is earlier than the seventh century, perhaps none so early." (Frederick G. Kenyon, *Our Bible and The Ancient Manuscripts*, London: Eyre and Spottiswoode, 1898, 3rd edition), p. 65.

(٣) البابا تواضروس الثاني، مفتاح العهد الجديد (القاهرة: بطريركية الأقباط الأرثوذكس، ٢٠١٣)، ص٢٧.

للعهد الجديد» الشخصيات التي نسب إليها القيام بأوّل تعريب لنصّ العهد الجديد:

١ ـ زعم (ميخائيل السرياني) (توفي سنة ١١٩٩م) في تاريخه أنّ «الأمير العربي» (عمرو) ابن الصحابي (سعد بن أبي الوقاص) (رضي الله عنه) قد طلب من البطريرك اليعقوبي (يوحنا) أن يعرّب الأناجيل من السريانيّة إلى العربيّة على أن يحذف المواضع التي تشير إلى ألوهيّة المسيح والصلب والتعميد، ونظرًا لإصرار البطريرك (يوحنا) على رفض حذف ما طلب منه من نصوص الأناجيل؛ فقد تمّت الترجمة على يد مجموعة من الأساقفة، دون إقصاء أيّ من النصوص[١].

٢ ـ قام الأسقف الإسباني (يوحنا الإشبيلي) (John of Seville) في بداية القرن الثامن بترجمة الأناجيل من لاتينيّة الفولجات إلى العربيّة[٢].

٣ ـ جاء في كتاب «الفهرست» (لابن النديم) ـ ألّف سنة ٩٨٧م ـ قوله: إنّ رجلًا اسمه (أحمد بن عبد الله بن سلام) مولى الخليفة (هارون الرشيد) قد عرّب التوراة والإنجيل[٣].

تقويم[٤] هذا التراث:

١ ـ كلّ هذا التراث يردّ الترجمات العربيّة إلى **ما بعد ظهور الإسلام**، ويثبت بذلك غياب دليل تاريخي على وجود ترجمة عربيّة سابقة للبعثة النبويّة.

٢ ـ سواء صحّ هذا التراث أو بعضه، فإنّ فيه دلالة قوّية على غياب دلائل مسندة ـ ولو ضعيفة ـ على ردّ الأمر إلى ما قبل البعثة النبويّة الشريفة.

٣ ـ لا نجد أثرًا لما زعمه (ميخائيل السرياني) في المؤلّفات العربيّة والإسلاميّة، رغم أهميّته، ولعلّه أراد من خلال هذه القصّة تمجيد هذا

---

(١) Bruce Metzger, '*Early Arabic Versions of the New Testament*,' in Matthew Black and William A. Smalley, eds. *On Language, Culture, and Religion: In Honor of Eugene A. Nida* (Paris: Miton, 1974), p.158.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص١٥٩.

(٣) ابن النديم، الفهرست (بيروت: دار المعارف، د. ت.)، ص٣٢ ـ ٣٣.

(٤) يكتبها بعضهم (تقييم)!

البطريرك أنّه رفض التنازل عن ولائه للأسفار المقدّسة، رغم أنه كان يعيش تحت سلطان المسلمين.

والقصّة تحمل نكارة بارزة في متنها بدعواها أنّ أميرًا عربيًّا في التاريخ الإسلامي المبكّر قد طلب تعريب الأناجيل. **وأوجه النكارة هي:**

○ غياب الحاجة الدينيّة لذلك.

○ مخالفة ذلك للشرع الذي منع من النظر في كتب أهل الكتاب لغير نقضها وإثبات دلالة بعض ما فيها على ربّانيّة الإسلام[(١)].

○ حاجة هذا (الأمير) إلى ترجمة محذوفة الإشارات إلى ألوهيّة المسيح والصلب والتعميد لا تملك مبررًا تاريخيًّا أو دينيًّا أو منطقيًّا، فالمسلمون لا يرون حجيّة الأناجيل، ويؤمنون ـ ديانة ـ بتحريفها، فلِمَ يُحتاج إلى تعديل ما ليس بحجّة؟!

وممّا يؤكد بطلان قصّة (ميخائيل السرياني) الذي عاش في القرن الثاني عشر، أنّه قد جاء في كتاب تاريخ سرياني يعود إلى القرن الثامن أنّ لقاءً جمع قائدًا مسلمًا اسمه (عمرو) والبطريرك اليعقوبي (يوحنا الأول)، عرض فيه الطرف المسلم تساؤلاته حول مضمون الإنجيل[(٢)]. وليس في هذه الوثيقة إشارة إلى الطلب الغريب الذي نسب لاحقًا إلى القائد (عمرو). ولا شك أنه حري بالمؤرخين أن يشيروا إلى طلب هذا القائد تعريب الإنجيل؛ لقيمة هذه الواقعة ودلالاتها، وهو ما لم يكن؛ وفي ذلك دلالة على أنّها لم تقع!

ويرى (لويس لوبلوا) أنّ هذه القصّة ما هي إلا خرافة (légende)، وأكّد

---

(١) قال (البهوتي) في «كشاف القناع» (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ، ١/ ٤٣٤): «ولا يجوز النظر في كتب أهل الكتاب... ولا النظر في كتب أهل البدع، ولا النظر في الكتب المشتملة على الحق والباطل، ولا روايتها، لما في ذلك من ضرر إفساد العقائد»، وقد نصّ أهل العلم على إباحة النظر في هذه الكتب لنقضها لا للاستدلال بها!

(٢) M. J. Nau, '*Un colloque du patriarche Jean avec* l'émir *des agaréens et faits divers des années 712 a716*,' in *Journal Asiatique* 11th Series, 5 (1915), pp.225-279 (Quoted by, Sidney H Griffith, '*The Gospel in Arabic: An Enquiry Into Its Appearance In The First Abbasid Century*,' in *Oriens Christianus*, 1985 Volume 69, p. 135).

أنّه لم تكن هناك ترجمة عربيّة للكتاب المقدس زمن الرسول ﷺ[1]، ووافقه (ترمنغهام)[2] بقوله: «لا يمكن أن نمنح غير القليل من الثقة لهذه القصة»[3]، كما أثار الناقد (جورج غراف)[4] عددًا من الاعتراضات الأخرى على تاريخيّتها[5].

٤ ـ اختلف النقاد في أمر ترجمة (الأسقف يوحنا)؛ إذ تذكر عامة المراجع أنّ هذا الأسقف قد عاش في القرن الثامن ميلادي تبعًا لما نقله المؤرخ الإسباني (ماريانا) (Mariana)، في حين ذهب (Simonet) و(Tisserant) إلى أنّ (يوحنا) المذكور قد عاش في القرن التاسع[6]، أمّا (جيلدمايستر) (Gildemeister) فقد قرّر أنّ الأسقف (يوحنا) المعروف قد عاش في القرن العاشر[7]. . كما أنّ أوّل من تحدّث عن قصّة هذه الترجمة هو أسقف تولندو (Rodrigo Ximenes) (توفي: ١٢٣٧م) الذي عاش أثناء حكم (ألفونصو الثامن)، وقال: إنّ العرب كانوا يسمون (يوحنا) هذا بـ(سعيد المطران)، ثم كرّر هذا الزعم في كتاب (Primera Cronica General) أثناء حكم (ألفونصو العاشر)، وهو ما ردّده أيضًا وبصورة أوسع (ماريانا) في القرن السادس عشر[8].

يكشف الفارق الزمني بين القصّة المدّعاة وزمن ذكرها، رخاوة الإسناد بل هشاشته. وممّا يضاف في هذا الشأن أنّ أقدم ترجمة عربيّة متاحة في

---

(١) "Il est certain qu'il n'existait point de traduction arabe de la Bible au temps de Mohammed" Louis Leblois, *Les Bibles et les Initiateurs Religieux de L'Humanite* (Paris, Librairie Fischbacher, 1888).

(٢) جون سبنسر ترمنغهام John Spencer Trimingham: أستاذ اللاهوت في مدرسة الشرق الأدنى ببيروت. كانت له عناية بدراسة الإسلام في إفريقيا.

(٣) "Little credence can be given to this story" Trimingham, *Arabs*, p.225 (Quoted by, Yoel Natan, *Moon-o-Theism: Religion of a War and Moon God Prophet*, Yoel Natan, 2006, 1/595).

(٤) جورج جراف Georg Graf (١٨٧٥م ـ ١٩٥٥م): مستشرق ألماني. من أهم النقّاد الذين درسوا الشرق النصراني.

(٥) Georg Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur, Studi e testi* 118, Citta del Vaticano, p.35.

(٦) Maria Rosa Menocal, Raymond P. Scheindlin and Michael Anthony Sells, eds. *The Literature of Al-Andalus* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), p.423.

(٧) William Smith, ed. *A Dictionary of the Bible* (London, John Murray, 1893), 3/1615.

(٨) Maria Rosa Menocal, Raymond P. Scheindlin and Michael Anthony Sells, eds. *The Literature of Al-Andalus*, p.423

الأندلس تعود إلى القرن العاشر وتضمّ الأناجيل الأربعة والمزامير[1].

٥ ـ لا يُعلم متابع (لابن النديم) في قوله، من غير طريقه، وهو ما يضعف شهادته بصورة كبيرة. والكلام الذي نقله فيه مبالغة: «قرأت في كتاب وقع إلي قديم النسخ يشبه أن يكون من خزانة المأمون ذكر ناقله فيه أسماء الصحف وعددها والكتب المنزلة ومبلغها وأكثر الحشوية والعوام يصدقون به ويعتقدونه، فذكرت منه ما تعلق بكتابي هذا وهذه حكاية ما يحتاج إليه منه على لفظ الكتاب: «قال أحمد بن عبد الله بن سلام مولى أمير المؤمنين هارون ـ أحسبه الرشيد ـ: ترجمت هذا الكتاب من كتاب الحنفاء وهم الصابيون الإبراهيمية الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام وحملوا عنه الصحف التي أنزلها الله عليه وهو كتاب فيه طول إلا أني اختصرت منه ما لا بد منه ليعرف به سبب ما ذكرت من اختلافهم وتفرقهم وأدخلت فيه ما يحتاج إليه من الحجة في ذلك من القرآن والآثار التي جاءت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن من أسلم من أهل الكتاب منهم عبد الله بن سلام ويامين بن يامين ووهب بن منبه وكعب الأحبار وابن التيهان وبحيرا الراهب.

قال أحمد بن عبد الله بن سلام: «ترجمت صدر هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والتلامذة من لغة العبرانية واليونانية والصابية ـ وهي لغة أهل كل كتاب ـ إلى لغة العربية حرفًا حرفًا ولم أبتغ في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه مخافة التحريف...»[2].

إنّ ضياع هذا العلم الضخم الناتج عن جهد علمي هائل في تلك الفترة المبكّرة، وغياب كلّ ذكر له ـ حتى لاسمه ـ في غير هذا الكتاب المغمور الذي نقل عنه صاحب «الفهرست»؛ لمن الأمور التي تلقي بظلال قاتمة من الشك على صدق هذه الدعوى، كما أنّ الحديث عن أتباع نبي الله (إبراهيم) عليه السلام وأسفارهم المقدّسة هو أمر يجمع بين الإبهام المريب والغرابة،

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٤٢٣.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص٣٢ ـ ٣٣.

خاصة أنّ المسمّى (أحمد بن عبد الله بن سلام) لم يكن يذكر أمرًا عارضًا قد يحدث فيه التباس عفوي، وإنّما كان يتحدّث عن أسفار ضخمة قام هو نفسه بتعريبها! وزاد عدد من النقاد في إضعاف هذه الشهادة بإظهار شكّهم بمعرفة هذا الرجل باليهوديّة واللغة العبريّة من خلال ما ذكره عن منهجه في الترجمة[١].

وممّا يزيد القول بوجود ترجمة عربيّة للعهد الجديد زمن البعثة النبويّة نكارة، أنّ الترجمات العربيّة الأقدم المتاحة، فيها ركاكة وسوء تعبير باللسان العربي حتّى إنّ الناقد (بلو) (Blau) يرى أنّه من العسير القول إنها تراجم عربيّة[٢]. ولا ريب أنّ ذاك يعود للنقل الحرفي عن مخطوطات يونانيّة وسريانيّة، وغياب ترجمة أو ترجمات عربية قديمة تصل إلى عصر البعثة النبويّة.

ومن الملاحظات الأخرى الهامة التي تؤكّد النقطة السابقة، ما لاحظه الناقد (بومشتارك)[٣] من أنّ (ابن قتيبة) و(الجاحظ) و(ابن ربن الطبري) ـ وقد عاشوا في القرن التاسع ميلاديًّا ـ قد اقتبسوا نصوصًا من الأناجيل، باللغة العربيّة؛ ممّا أظهر أنّ أصل هذه الاقتباسات نصوصٌ أصلها سرياني، وهو ما يَظهر بأدلّة جوهريّة في هذه الاقتباسات ذاتها، ومنها تضمنّها كلمات سريانيّة[٤]. وفي ذلك دلالة على غياب جذر عربي للترجمات العربيّة التي وجدت بعد انتشار الإسلام.

ويزداد الأمر وضوحًا من خلال ما يخبرنا به الناقد (بول دو لاجارد)[٥] من أنّ عدد الترجمات العربيّة للأناجيل أكثر مما يرغب فيه طلبة اللاهوت(!)، فهي ترجمات متنوّعة إلى درجة مزعجة جدًّا، وذاك ناتج عن تعدد مصادرها،

---

(١) Meira Polliack, *The Karaite Tradition of Arabic Bible Translation*, p.18.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٥.

(٣) أنتون بومشتارك (١٨٠٠ ـ ١٨٧٦م): عالم فيلولوجي ألماني.

(٤) Anton Baumstark, *Arabische Ubersetzung*, p.169 (Quoted by, Arthur Vööbus, E*arly Versions of the New Testament: Manuscript Studies*, pp.276-277).

(٥) بول دو لاجارد Paul de Lagarde (١٨٢٧م ـ ١٨٩١م): مستشرق وناقد كتابي ألماني.

حتّى إن بعض الترجمات يعتمد جزء منها على أصل سرياني، وجزء آخر على أصل قبطي، وثالث على أصل يوناني. وكان الناقد (جراف) قد عمّق تأكيد هذه الحقيقة من خلال تصنيفه للترجمات العربيّة[١].

وأشار (سدني هـ. ـ جريف)[٢] إلى ملحظ علمي آخر له دلالة عظيمة على تأخر تأريخ أقدم الترجمات إلى ما بعد البعثة النبويّة؛ إذا كشف أنّ أقدم الترجمات العربيّة المتاحة لكتب العهد الجديد ظاهرة الصلة بمؤلفات الاعتذاريين النصارى المؤلفة باللغة العربية ـ خاصة كتابات (ثيودور أبي قرة)[٣] ـ. . وهو ما يعني أن كلّ هذه الكتب هي إفراز زمن واحد[٤].

كلّ ذلك يكشف أنّ بذرة الترجمات العربيّة للعهد الجديد التي ظهرت في العصر الإسلامي، لم تنبت في أرض عربيّة، وإنما قد أُخذت فسيلة من بيئة أعجميّة اللسان.

النتيجة: إنّ الباحث لا يمكنه أن يستخرج من المستندات التاريخيّة دليلًا على سبق الترجمة العربيّة للعهد الجديد، للبعثة النبويّة، فالدلائل المتاحة كلّها متأخّرة عن ذلك. وليس أمام المستقصي إلّا أن يقبل ما ورد فيها أو أن يردّها ليتأخّر بذلك الزمن المقترح لظهور هذه الترجمة.

وممّا يلفت الانتباه، **إقرار** عدد ممن (امتهن) الدعاية ضد القرآن الكريم، غياب ترجمة عربيّة للعهد الجديد حتّى القرن السابع؛ ومن هؤلاء (تسديل) الذي يعتبر أشهر من كتب في زعم الاقتباس، إذ قد قال في كتابه «المصادر الأصليّة للقرآن»: «يبدو أنّه لا توجد حجّة مرضيّة على وجود ترجمة عربيّة

---

(١) Arthur Vööbus, *Early Versions of the New Testament: Manuscript Studies* (Uppsala: Estonian theological society in exile (J. Aunver), 1954.), pp.287-288

(٢) سدني غريفث Sidney H. Griffith (١٩٣٨م ـ): أستاذ في قسم اللغات الساميّة وآدابها في الجامعة الكاثوليكيّة في أمريكا. هو اليوم أهم كاتب متخصص في الردود النصرانيّة ـ السريانيّة والعربيّة ـ المبكّرة على الإسلام، وله في ذلك كتب ومقالات كثيرة.

(٣) ثيودور أبو قرة (٧٥٠ ـ ٨٢٥م): أسقف حران. لاهوتي نصراني على مذهب الملكانية. كان كثير التأليف في الرد على الإسلام واليهوديّة وغيرهما.

(٤) Sidney H Griffith, The Gospel in Arabic: An Enquiry Into Its Appearance In The First Abbasid Century, p. 134.

للعهد الجديد في زمن محمد» . (There seems to be no satisfactory proof that
an Arabic version of the New Testament existed in Muhammad's time.)[1]!

شهادة مخطوطات الكتاب المقدس:

بعد أن ثبت بالاستقصاء التاريخي أنّ السجلات التاريخيّة تنكر وجود ترجمة عربيّة للكتاب المقدّس قبل البعثة النبويّة؛ علينا أن ننظر في محفوظاتنا من مخطوطات العهدين القديم والجديد، وحكم علماء الخطاطة (Palaeography) والنقد النصّي على زمن نسخها، وطبيعة أصالة هذه الترجمات؛ أي: هل هي مستنسخة من ترجمات عربيّة سابقة أم أنها ترجمات حديثة عن أصول غير عربيّة؟ إذ إنّ ثبوت الاحتمال الأوّل يردّ تاريخ الترجمة العربيّة إلى ما قبل تاريخ النُسَخ المتاحة.

مخطوطات العهد القديم:

رغم اهتمام النقّاد بحصر مخطوطات العهد القديم في لغتها العبريّة وترجماتها القديمة، إلّا أنّ رصيد الترجمات العربيّة كان شديد الضعف رغم أنّ اليهود قد عاشوا أفضل مراحل تاريخهم العلمي في أحضان الدولة الإسلاميّة التي تأسّست زمن البعثة النبويّة، حيث أنشؤوا أكبر مدارسهم وظهرت فيهم حماسة كبيرة للتأليف الديني.

وقد اتّفقت المراجع العلميّة الأكاديميّة الكبرى أنّ ترجمة (سعديا الفيومي) هي أقدم ترجمة عربيّة متاحة اليوم، ولا يذكر لنا التاريخ اليهودي المشرقي ترجمة قبلها. ومما يثير الانتباه أنّ يؤكد النقّاد أنّ ترجمة (سعديا) ليست نسخًا لترجمة عربية أخرى ولا تنقيحًا لسلف عربي؛ وإنّما هي ترجمة مباشرة عن العبريّة[2]. كما أنّ أقدم أسفار العهد القديم الأخرى مترجمة

---

(١) St. Tisdall, *The Original Sources of the Qur'an* (London: Society For The Promotion Of Christian Knowledge, 1911), p.140.

(٢) Ernst Würthwein, *The Text Of The Old Testament*, tr. Erroll F. Rhodes (Michigan, William B Eerdmans Publishing Company, 1995), p. 104.

مباشرة عن السريانيّة واليونانيّة وبقيّة الترجمات الأخرى[١].

إنّ ترجمة (سعديا) وما تلاها، ليست إلّا استجابة لظهور حاجة طارئة في اللسان العربي الذي تبنّاه اليهود في البلاد العربيّة؛ وفي هذا يقول (إرنست فرذفين) في كتابه الحجّة في الدراسات الأكاديميّة «نصّ العهد القديم»: «مع انتصار الإسلام انتشرت اللغة العربيّة بصورة واسعة، وأصبحت بالنسبة لليهود والمسيحيين في البلاد المفتوحة لغة الحياة اليوميّة. وقد أدّى هذا الأمر إلى بروز الحاجة إلى ترجمات عربيّة للكتاب المقدّس»[٢].

مخطوطات العهد الجديد:

قال (ف. س. بوركت) في مقاله عن الترجمة العربيّة للعهد الجديد ضمن المعجم الكتابي (Dictionary of the Bible): «إنّه من المرجوح بجِد أن يكون أي تأليف أدبي مسيحي عربي يعود في قدمه إلى زمن محمد. كان هناك مسيحيون في المملكة العربيّة للغساسنة، شرق دمشق، وفي نجران جنوب البلاد العربيّة، لكن أن نحكم على تطوّر الكنيسة في تلك المناطق من خلال معلوماتنا التاريخيّة الهزيلة جدًّا؛ فإننا نقول: إنّ اللغة الكنسيّة كانت السريانيّة. **لم تظهر الحاجة إلى ترجمات للأسفار المقدّسة بالعربية العاميّة إلّا بعد نجاح القرآن في تحويل العربيّة إلى لغة أدبيّة**، وتحويل غزوات الإسلام أجزاءَ كبيرة من سوريا ومصر المسيحيتين إلى مقاطعات متحدّثة باللغة العربيّة»[٣]

وقد كشفت آخر الأبحاث الخاصة بالأناجيل العربيّة أنّها تعود في الحقيقة إلى سلسلة من الترجمات ومراجعاتها من اللغات اليونانيّة والسريانيّة (البشيطا) والقبطيّة البحيريّة واللاتينية[٤]؛ ممّا يظهر بجلاء أنّه ليس لهذه الترجمات سند وسلف من ترجمة أو ترجمات عربيّة قديمة (تناسلت) منها الترجمات التاليّة..

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) F. C. Burkitt, '*Arabic Versions*,' in James Hastings, eds. *A Dictionary of the Bible* (New York: C. Scribner's sons, 1911), 1/136.

(٤) D. C. Parker, *An Introduction to the New Testament Manuscripts and their Texts* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), p.124.

كما بيّن (سدني جريف) ـ بعد أبحاث طويلة ـ عدم وجود إنجيل عربي زمن البعثة النبويّة؛ فقال: «إنّ أقدم نسخ مؤرخة معروفة للمخطوطات التي تحتوي ترجمات عربيّة للعهد الجديد؛ هي مجموعة دير القديسة كاترين في جبل سيناء. مخطوطة سيناء العربيّة رقم ١٥١ تحتوي على نص ترجمة لرسائل بولس وأعمال الرسل والرسائل الكاثوليكيّة. إنّها أقدم مخطوطات مؤرخة للعهد الجديد. البيانات في نهاية هذه المخطوطة تخبرنا أنّ بِسر بن السري قام بالتعريب من اللغة السريانيّة في دمشق في شهر رمضان للعام الهجري ٢٥٣هـ أي: ٨٦٧م»[١].

وكان (إبرهارد نستل) قد قال: «أقدم مخطوطة معروفة هي ربّما مخطوطة في سيناء، كتبت في القرن التاسع، نقّحت منها السيدة جيبسن نصّ الرسالة إلى روما، والرسالة الأولى والثانية إلى كورنثوس، والرسالة إلى غلاطية، والرسالة إلى أفسس ١/١ ـ ٢/٩»[٢].

وقال قبله (ف. س. بوركت): إنّ مخطوطة (Vat Ar. 13) ـ وهي تضمّ أجزاء من الأناجيل الثلاثة الأولى ورسائل (بولس) ـ هي الأقدم[٣]، ورغم أنّه قد نسبها إلى القرن الثامن ميلاديًّا، إلّا أنّه يبدو أنّ هذا التأريخ غير دقيق[٤] فالعلامات المستدلّ بها لردّ هذه المخطوطة إلى القرن الثامن ضعيفة جدًّا؛ فنحن نجد الميم ذات الذيل القصير المائل المشابه للراء، والنون في نهاية الكلمة دون نهاية إلى الأعلى، والباء والتاء المنتهيتين بخط أفقي لا عمودي... كلّها لها حضور في مخطوطات القرن التاسع والعاشر أيضًا؛ ولذلك لا يعرف لقول (بوركت) ذيوع بين النقاد بعده؛ وقد ردّ هذه المخطوطة إلى القرن التاسع كلّ من (جراف)[٥] و(فووبوس)[٦] و(ميشال فون

(١) Sidney H Griffith, '*The Gospel in Arabic: An Enquiry Into Its Appearance In The First Abbasid Century*,' in *Oriens Christianus*, 1985 Volume 69, p. 131-132.

(٢) Eberhard Nestle, *Introduction to the Textual Criticism of the Greek New Testament* (New York, Williams and Norgate, 1901), p.143

(٣) F. C. Burkitt, '*Arabic versions*,' in James Hastings, eds. *A Dictionary of the Bible*, 1/136.

(٤) أشار (بوركت) إلى أنّ هذه المخطوطة لم توصف بدقة إلا من طرف "Guidi"! (المصدر السابق)

(٥) Bruce Metzger, *The Early Versions of the New Testament: their origin, transmission, and limitations*, (Oxford: Oxford University Press, 1977), p.261.

(٦) Arthur Vööbus, *Early Versions of the New Testament: Manuscript Studies*, p.288.

إزبروك)[١][٢]، وغيرهم.

ورغم حماسة القس (حكمت قشوع) لرد المخطوطات العربيّة إلى أبكر زمن ممكن إلّا أنّه قد ردّ - في أطروحته للدكتوراه - أقدم مخطوطة - حسب اجتهاده -: (Sin. Ar. N. F. Parch 8,28)[٣] إلى القرن الثامن أو التاسع ميلاديًّا[٤].

أما أقدم مخطوطة مؤرّخة[٥] متاحة للأناجيل الأربعة؛ فالمشهور أنها مخطوطة سيناء العربية ٧٢[٦] وقد جاء في بيانات المخطوطة أنّها من إعداد (اسطافنا الرملي) سنة ٢٨٣هـ الموافق لسنة ٨٩٧هـ[٧]. غير أنّه قد اكتشفت في

---

(١) ميشال فون إزبروك: أستاذ فيلولوجيا الشرق النصراني في جامعة لودفيج بألمانيا.

(٢) Michel van Esbroeck, 'Les Versions Orientales de la Bible: Une Orienatation Bibliographique,' in Jože Krasšovec, ed. *Interpretation der Bible* (England: Sheffield Academic Press, 1998), p.403.

(٣) تمّ تقسيم هذه المخطوطة عند اكتشافها في دير سانت كاترين سنة ١٩٧٥م إلى مخطوطتين اثنتين متمايزتين: (Sin. Ar. N. F. Parch 8) و(Sin. Ar. N. F. Parch 28).

(٤) Hikmat Kachouh, *The Arabic Versions of the Gospels, The Manuscripts and their Families*, manuscript, 1/89.

(٥) أي: عليها تاريخ نسخها.

(٦) "Sinai Arabic MS 72".

وقد جاء في الموقع الإلكتروني لوكالة الأنباء «رويترز» ٢٠٠٧/٩/٢٥م: «القاهرة - يرجح يوسف زيدان مدير مركز ومتحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية أن تكون النسخة «شبه المجهولة» في دير سانت كاترين بسيناء المصرية «أقدم مخطوطة عربية للأناجيل الأربعة المعتمدة» وهي متى ومرقس ولوقا ويوحنا وتعود المخطوطة لعام ٢٨٤ هجرية.

وقال زيدان لرويترز في مقابلة: إنّ المخطوطة تحمل تاريخ النسخ واسم الناسخ على النحو التالي: «وكتب الخاطئ المسكين الضعيف الأثيم اصطافنا يعرف بالرملي.. وكتب المسكين في أشهر العجم في أول شهر آذار ويكون من حساب سني العالم على ما تحسبه كنيسة بيت المقدس (القيامة المجيدة) من سنة ست آلاف وثلثمائة وتسعة وثمانين سنة ومن سني العرب في شهر المحرم من سنة أربع وثمانية ومائتين».

وأضاف أن المخطوطة مدونة على الرق (الجلد) بخط كوفي وعدد رقوقها ١١٩ رقًّا وهي موضوعة في غلاف خشبي منقوش مكسو بغطاء جلدي مزين برسوم دقيقة وعلى الرق الأخير وقف نصه «بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد يكون هذا الإنجيل المقدس للدير المبارك عمره الله لا يباع ولا يشترى. وكتب بخطه الحقير ميخائيل المذنب غفر الله خطاياه وخطايا من قرأ وقال.. آمين».

الرابط الإلكتروني:

Http://ara.today.reuters.com/News/newsArticle.aspx?type=internetNews&storyID= 2007-09-25T072013Z-01-OLR525464-RTRIDST-0-OEGIN-EG-MANUSCRIPTS-MA4.XML

(٧) Sidney H Griffith, '*The Gospel in Arabic: An Enquiry Into Its Appearance In The First Abbasid Century*,' in *Oriens Christianus*, 1985 Volume 69, p.132

دير سانت كاترين بسيناء سنة ١٩٧٥م مجموعة من المخطوطات؛ جاء في نص إحداها ـ وهي المعروفة باسم (Arabic N. F. Parch 16) ـ أنّها قد نسخت سنة ٨٥٩م[(١)(٢)].

وخلص (جريف) إلى أنّ «كلّ ما يمكن أن يقوله الواحد عن إمكانية وجود ترجمة عربية للإنجيل قبل ظهور الإسلام؛ هو أنّه **لم تظهر علامة يقينيّة على هذا الأمر**»[(٣)]. وقد نقل (ويليام هنري بنّوك) أنّ القول: إنّ ترجمة العهد الجديد العربيّة لم تظهر إلّا بعد ظهور الإسلام، هو **قول عامة النقاد في منتصف القرن التاسع عشر**[(٤)]، ورغم أنّه قد عدّ (آدم كلارك) استثناءً رافضًا لهذا القول، إلّا أنّ النظر في حجّة (آدم كلارك) من كتبه تظهر أنّ هذا اللاهوتي النصراني قد اعترف صراحة أنّه لا حجة ماديّة لقوله، **وليس دليل مذهبه إلّا أمرًا واحدًا، وهو عجزه عن تفسير علم الرسول ﷺ بما جاء من تفاصيل في العهد الجديد إلّا أن يكون قد اطّلع على ترجمة عربيّة متاحة بين يديه**[(٥)]، وهو كما يظهر دليل (ذوقي) جعل من محلّ النزاع حجّة!

ولا زالت الدراسات النقديّة الأكاديميّة لعلماء (النقد النصّي)

---

(١) انظر: يني ميماريس، كتالوج المخطوطات العربية المكتشفة حديثًا بدير سانت كاترين المقدس بطور سيناء (أثينا: الهيئة القومية اليونانية للبحوث، ١٩٨٥م)، ص٢٤ ـ ٢٥.

(٢) لا تضم المخطوطة (Arabic N. F. Parch 16) غير نص يوحنا ١٦/٢٠ ـ ٢٥/٢١. وقد زعم القس (حكمت قشوع) مؤخرًا أنّ المخطوطة (Arabic N. F. Parch 16) التي تعود إلى سنة ٨٥٩م مكمّلة للمخطوطة (Arabic N. F. Parch 14) التي لا تحمل تاريخ نسخها والتي تضم أناجيل مرقس ولوقا ويوحنا. انظر:

Hikmat Kachouh, *The Arabic Versions of the Gospels, The Manuscripts and their Families*, manuscript, 1/75.

ويبقى أمر صحّة الجمع بين المخطوطتين محتاجًا إلى دراسة علميّة مقرونة بأدلتها؛ خاصة أنّ (يني ميماريس) ـ الذي يعتبر أوّل من عرّف بالمخطوطات المكتشفة سنة ١٩٧٥م ـ قد قال عن المخطوطة (Arabic N. F. Parch 16): «من واقع الزخرفة يمكن القول بأنّ تاريخ المخطوط يرجع إلى القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر». (يني ميماريس، مصدر سابق، ص٢٤).

(٣) المصدر السابق، ص١٦٦.

(٤) 'The Arabic Version is thought by most critics to have been made subsequent to the time of Mohammed' (William Henry Pinnock, *An Analysis of New Testament History*, Cambridge: J. Hall & Son, 1854, 4th edition, p.19).

(٥) Adam Clark, *The New Testament of our Lord and Saviour* (Philadelphia: Thomas, Cowperthwait, 1844), p.8

(Textual Criticism) في الغرب في منأى عن التقاطع مع دعاوى المنصّرين حول وجود ترجمة عربيّة سابقة لبعثة الرسول ﷺ.

وقد قدّم (جرهارد بورنغ)[١] خلاصة آخر الأبحاث الاستشراقّية الحديثة في المصادر الكتابيّة للقرآن، بقوله: «لا يوجد دليل على أنّ (محمّدًا) قد اعتمد على مواد أجنبيّة **مكتوبة** لصياغة القرآن. وحتّى ظهور حجّة على عكس ذلك؛ فعلينا أن نؤيّد القول: إنّ المعلومات الشفهيّة كانت هي المرجع المباشر للقرآن»[٢]. وهو عَيْن ما قرّرته «موسوعة الإسلام» الاستشراقيّة الشهيرة ـ في طبعتها الثانية ـ في ختام حديثها عن الترجمات العربية للأناجيل بقولها: «بإمكاننا أيضًا أن نستنتج مع (جراف) (Geschichte, i, 41) أنّه ليس بالإمكان ـ في مرحلتنا المعرفيّة اليوم ـ القول إنّ محمدًا وأتباعه الأوائل كان بوسعهم أن يحصّلوا معرفة مباشرة بالأناجيل باللغة العربيّة»[٣]، في متابعة للمستشرق الألماني (جورج جراف) في نتيجة بحثه في أضخم عمل علمي في القرن العشرين حول المخطوطات العربيّة للأناجيل ضمن كتابه «تاريخ الأدب العربي المسيحي» (Geschichte der Christlichen Arabishen Literatur).

وقد نُوقِشَت في جامعة برمنغهام ـ بريطانيا ـ سنة ٢٠٠٨م أطروحة دكتوراه للقسيس اللبناني (حكمت قشوع)، ونشرتها دار (De Gruyter) آخر سنة ٢٠١٠م، تحت عنوان «الترجمات العربية للأناجيل؛ المخطوطات وعائلاتها» (The Arabic Versions of the Gospels; The Manuscripts and Families)، في أكثر من ألف صفحة[٤]، تتبّع فيها (قشوع) الدراسات العلميّة التي بحثت تأريخ مخطوطات الترجمات العربية للعهد الجديد ونتائج الدراسات التي تمّت حولها، وسافر إلى عدد من الدول للاطلاع عليها[٥]، وقام

---

(١) جرهارد بورنغ: أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة (يال) بأمريكا.

(٢) Gerhard Bowering, '*Recent Research on the Construction of the Qur'an,*' in Gabriel Said Reynolds, ed., *The Qur'an in its Historical Context* (New York: Routledge, 2007), p. 83.

(٣) B. Carra de Vaux, '*Indjil,*' in *Encyclopaedia of Islam*, (2nd edition, Brill Online).

(٤) نُصّب هذا القسيس مباشرة بعد مناقشته هذه الأطروحة عميدًا لكليّة اللاهوت المعمدانيّة العربيّة في لبنان.

(٥) جمع مخطوطاته من تسع دول.

بجمع ٢١٠ مخطوطة عربية، إلّا أنّه **لم يجد مخطوطة واحدة تعود إلى ما قبل البعثة النبويّة أو حتى موازية لها زمنًا**[(١)]..

الخلاصة: بعد سبرنا لموضوع احتمال وجود ترجمة عربيّة للكتاب المقدس زمن البعثة النبويّة أو قبلها؛ **نخلص إلى**:

✓ غياب أيّ دليل مادي مباشر على وجود ترجمة عربيّة للكتاب المقدّس زمن البعثة النبويّة؛ وهو ما يشكّل حجّة ملموسة لا يمكن نقضها إلّا بدليل يوازيها أو يفوقها!

✓ غياب أي أثر لترجمة عربيّة في الموروث الديني والأدبي الجاهلي.

✓ اعتماد أقدم الترجمات العربيّة لأسفار الكتاب المقدّس على أصول يونانية وسريانيّة وقبطيّة، يؤكّد غياب ترجمة عربيّة أقدم يُستنتسخ منها.

هل من معلم بشري لمحمد ﷺ؟

إذا كان القول باطلاع محمد ﷺ على أسفار أهل الكتاب ودراسته لها دراسة نقدية عميقة، فاقدًا للمستند التاريخي؛ لما ثبت من أميّته ﷺ، وعدم وجود ترجمة عربيّة في زمنه؛ فلم يبق بعد ذلك إلا أن يفترض المخالف أنّ (محمدًا) ﷺ العربي الأميّ قد تلقى علوم أهل الكتاب عن غيره، بعد أن ثبت عجزه عن الاطلاع المباشر على أسفار القوم..

والاحتمالات المتاحة أمامنا لا تخرج عن الآتي:

- قد تعلّم محمّد ﷺ على يد علماء أهل الكتاب قبل بعثته.
- أو تعلّم على يد علماء الكتاب بعد بعثته.
- أو أنه قد تلقى علوم الكتاب المقدس على يد العرب.
- أو على يد الفتى الرومي (كما قال معاصروه).

(١) Hikmat Kachouh, *The Arabic Versions of the Gospels, The Manuscripts and their Families*, manuscript.

الاحتمال الأول في الميزان: أستاذية علماء أهل الكتاب قبل البعثة:

أ ـ إنّ حياة (محمد) ﷺ معلومة للقاصي والداني مما يجعل الزعم بأنه قد عكف الشهور والسنين في دراسة التوراة والإنجيل قولًا مردودًا بداهة، ولو أن قومه كانوا قد علموا أنه قد قضى ردحًا من عمره يدرس الدين اليهودي والدين النصراني على يد علماء أهل الكتاب لحدّدوا لنا المكان والزمان اللذين قدمت له فيهما هذه العلوم الكتابية الغزيرة التي أتاحت له أن يجيب ببراعة فائقة على كل الأسئلة التي وجهها له أهل الكتاب حتى إنه لم يتراجع عن إجابة قدمها.

ب ـ العلم بتفاصيل الأديان لا يُنال بالطفرات؛ فإنّ من يطلب العلم له في ذلك تارات وطبقات؛ إذ يبدأ أمره طالبًا وسائلًا المتقّدمين في النظر، ثم هو يقرب أهل العلم ويصحبهم؛ فيترقّى على مهلٍ من حال الاستفهام عن بسيط المعارف إلى النظر في مبسوطها، وهي أحوال لا يمكن أن تخفى عمّن يخالطه، فضلًا عمّن يترصّد له التهمة. ونبيّ الإسلام ﷺ قد عاش في مكّة وسط خصومه، وكان له من أهله أعداء يسعون لكسر دعوته، قد علموا مدخله ومخرجه ودقيق خبره، ولم يُسمع لهم خبر في كشف مدرسة العلم التي ارتادها لينهل من علوم أهل الكتاب، ويتعمّق في سبر أسرارهم.

ت ـ مقابلة محمد ﷺ لعلماء اليهود والنصارى قبل بعثته لم تكن تسمح له بأن يحصّل كل تلك العلوم الواسعة والدقيقة لأنه لم يلتق قبل بعثته ـ كما ورد في كتب السيرة ـ سوى بالراهب (بحيرا) (وهو في الثانية عشرة من عمره)، وهو لقاء حضره عمه (أبو طالب)، ومضمون هذا اللقاء هو إخبار هذا الراهب أبا طالب أنّه قد رأى في الرسول ﷺ علامات النبوّة! وهو لقاء سريع وخاطف، ولم يكشف عن عمل تعليمي من هذا الرجل للرسول ﷺ.

على أنّ الراجح ـ بعد بحث أصالة الرواية متنًا وسندًا ـ أنّ قصّة لقاء الرسول ﷺ (ببحيرا) هي قصّة مختلقة منكرة تخالف ما ثبت من صحيح السيرة في المرحلة التالية حيث لا يبدو من (أبي طالب) علم بنبوّة الرسول ﷺ، بل ما كان الرسول ﷺ قبل لقائه بجبريل عليه السلام يحسب أنّه سيكون ممّن اصطفاهم

المولى ﷻ لهذا المقام، كما أنّه ﷺ قد فوجئ بلقاء جبريل عليه السلام، واضطر إلى سؤال (ورقة بن نوفل) عن الذي وقع له في الغار!

وقد كذّب الإمام الحافظ (الذهبي) هذه الرواية، وقال فيها:

«وهو حديث منكر جدًّا!

وأين كان أبو بكر؟

كان ابن عشر سنين؛ فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف؛ وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإنّ أبا بكر لم يشتره إلّا بعد المبعث، ولم يكن ولد بعد، وأيضًا؛ فإذا كان عليه غمامة تظلّه كيف يتصوّر أن يميل فيء الشجرة؟ لأنّ ظلّ الغمامة يعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها، ولم نر النّبيّ ﷺ ذكّر أبا طالب قطّ بقول الرّاهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ، مع توفّر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك؛ فلو وقع لاشتهر بينهم أيّما اشتهار، ولبقي عنده ﷺ حسّ من النّبوّة؛ ولما أنكر مجيء الوحي إليه، أوّلًا بغار حراء وأتى خديجة خائفًا على عقله...

وأيضًا فلو أثّر هذا الخوف في أبي طالب وردّه، كيف كانت تطيب نفسه أن يمكّنه من السّفر إلى الشام تاجرًا لخديجة؟

وفي الحديث ألفاظ منكرة، تشبه ألفاظ الطّرقيّة، مع أنّ ابن عائد قد روى معناه في مغازيه دون قوله: وبعث معه أبو بكر بلالًا إلى آخره؛ فقال: ثنا الوليد بن مسلم، أخبرني أبو داود سليمان بن موسى؛ فذكره بمعناه»[١].

وقال الإمام المحقّق (الذهبي) أيضًا في تعليقه على مستدرك (الحاكم): «أظنه موضوع، وبعضه باطل»[٢].

وممّن أشار أيضًا إلى نكارة متنه (ابن سيد الناس) في كتابه «عيون الأثر» إذ قال فيه: «في متنه نكارة وهي إرسال أبي بكر مع النبي ﷺ بلالًا. وكيف

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١/ ٥٧.

(٢) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي (القاهرة: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، ٢/ ٧٢٤.

وأبو بكر حينئذٍ لم يبلغ العشر سنين فإنّ النبيّ ﷺ أسنّ من أبي بكر بأزيد من عامين، وكانت للنبي ﷺ تسعة أعوام على ما قاله أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وغيره، أو اثنا عشر على ما قاله آخرون، وأيضًا فإنّ بلالًا لم ينتقل لأبي بكر إلّا بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عامًا؛ فإنّه كان لبني خلف الجمحيين، وعندما عُذّب في الله على الإسلام اشتراه أبو بكر رضي الله عنه رحمة له واستنقاذًا له من أيديهم»[١].

وخلاصة البحث في هذه المسألة: هي أنّ «قصة بحيرا لا تثبت أمام النقد الحديثي، ولو افترضنا جدلًا أنها وقعت فإن اللقاء بينهما لا يعدو الساعة أو الساعتين، وعمر النبيّ ﷺ اثنتا عشرة سنة. ولو حدثت قصة اللقاء لأثارت جدلًا في قريش. لكننا لا نجد صدى لها مما يؤكد بطلانها. وماذا يتحمّل صبيّ في الثانية عشرة من عمره عن بحيرا؟ وقد اجتمع به بحضور قريش ساعة من زمان؟»[٢].

ومن الغريب، والمثير، أنّه رغم أنّ هذه الشخصية ـ (بحيرا) الراهب ـ مغمورة إلا في هذه القصة الواهية ـ حتّى اضطرّت الموسوعة الإسلاميّة الاستشراقيّة المختصرة (Shorter Encyclopaedia of Islam) إلى القول في أصالة القصّة بأكملها إنّ «كلّ مفاتيحها مفقودة» ولذلك «لا يمكن أن يقال فيها من الكلام إلّا القليل»[٣] ـ؛ فإنّ المنصّرين قد ادّعوا أنهم على معرفة بوجودها التاريخي من مراجع غير إسلامية! ولأنهم يخترعون القصص من أوهامهم؛ فقد تخبطوا في معرفة الاسم، والموطن، وحتى مذهب هذا الراهب![٤]

---

(١) انظر: ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ت: محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث)، ١/١٠٨.

(٢) أكرم ضياء العمري، مرويات السيرة النبوية، بين قواعد المحدثين وروايات الأخباريين (نسخة الكترونية).

(٣) H. A. R. Gibb and J. H. Kramers, *Shorter Encyclopaedia of Islam* (New York: Cornell University Press, 1905), p.56.

(٤) يقول الدكتور (أكرم ضياء العمري): «أما بالنسبة لمعلوماتنا عن بحيرا فإن المصادر لا تكاد تتفق على شيء بشأنه، بل هي متضاربة في اسمه فمرة جرجيس وأخرى جرجس وثالثة سرجيس ورابعة سرجس. ومرة أنه مشتق من الآرامية معناه المنتخب، وأخرى من السريانية معناه المتبحر. ومرة ينسب لقبيلة =

وقد نشر المنصّرون أتباع الكنيسة الأرثوذكسية المرقسيّة، وثيقة على (النت) قالوا: إنّها مذكرات (بحيرا) الراهب، وقد اعترف فيها (بحيرا) أنّه هو الذي علّم الرسول ﷺ حقائق الدين!

والحقيقة هي أنّ هذا النصّ مأخوذ ـ حرفيًا ـ من كتاب (A Christian Bahira Legend) لعالم الساميّات (ريتشارد غوتهيل) (Richard Gottheil) وقد أورد فيه هذه القصّة في صورتها السريانيّة والعربيّة، عن مخطوطات قديمة، والغريب أنّ (غوتهيل) قد صرّح في العنوان، وفي الكتاب، في فقرته الأولى، أنّ هذه القصّة ليست إلا خرافة (Legend) تمّ توظيف بعض المرويات التاريخيّة فيها لأغراض جدليّة[١]، كما أشار إلى أنّ كاتب (أو كتّاب) فهرس المخطوطة العربيّة في «المكتبة القوميّة» قد كتب: «خرافة كتبت نحو القرن الثاني عشر». (Legende composée vers le 12 siecle)[٢] تعليقًا على النص العربي للقصة، وهو قريب مما قرّرته «موسوعة الإسلام» الاستشراقيّة برد تاريخ تأليف هذه القصّة إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر[٣].

وتعود أقدم المخطوطات التي اعتمدها (غوتهيل) للنص العربي، إلى بداية القرن الخامس عشر[٤]، أمّا النص السرياني فقد اعتمد في إعادة بنائه

= عبد القيس فهو عبقسي. ومرة هو نصراني وأخرى يهودي». (السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنوّرة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ط٦، ص١١٠ ـ ١١١).

وقال الشيخ (الألباني) في تسمية هذا الراهب بـ(بحيرا): «إن تسمية الراهب بـ (بحيرا) إنما جاء في بعض الروايات الواهية، في إحداها الواقدي وهو كذاب، وفي الأخرى محمد بن إسحاق صاحب السيرة رواها بدون إسناد، وهاتان الروايتان هما عمدة كل المؤرخين الذين سموه بهذا الاسم». (ناصر الدين الألباني، حادثة الراهب المسمى (بحيرا)، مجلة التمدن الإسلامي، ٢٥)

وانظر في اختلاف الدفاعيين النصارى في اسم هذا الراهب ومعتقده:

A. Abel, *'Bahira,'* in P. Bearman, Th. Bianquis, C. E. Bosworth, E. van Donzel and W. P. Heinrichs, eds. *Encyclopaedia of Islam* (Brill Online, 2010).

(١) Richard James Horatio Gottheil, *A Christian Bahira Legend*, (New York: 1903), p.189 and others.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٢.

(٣) *E. J. Brill's first Encyclopaedia of Islam, 1913-1936* (Brill, 1993), 2/577.

(٤) Richard James Horatio Gottheil, *A Christian Bahira Legend*, pp. 200-201.

على ثلاث نسخ، اثنتان من القرن التاسع عشر[١]، وواحدة من القرن السابع عشر أو الثامن عشر![٢].

والقصّة بأكملها كما رجّح ذلك (غوتهيل) نفسه، ربما ألّفت في فارس في بيئة فيها نشاط شيعي بارز؛ إذ تحدّث الكاتب عن المهدي المنتظر: (المهدي ابن علي ابن فاطمة)[٣] وما سيحدث على يديه من أمور عظيمة[٤]، واستعمل الرقم ١٢ ـ وفيه إحالة إلى فرقة الاثني عشرية ـ، وعدد من الأمور الذي تكثر في الأدبيات الشيعيّة، حتّى قال (ريتشارد غوتهيل): «يبدو أنّ الاهتمام الكبير بفكرة المهدي يدلّ على وجود تأثيرات شيعيّة»[٥].

وقد وقف عدد من النقّاد الغربيين أنفسهم ضدّ أصالة رواية لقاء الرسول ﷺ (ببحيرا) الراهب، ومنهم (كليمن هوار)[٦] الذي قال في مقاله «مصدر جديد للقرآن»: «النصوص العربيّة التي اكتشفت، ونشرت، ودرست منذ ذلك الوقت، لا تسمح بأن يُرى في دور هذا الراهب السوري غير الخيال الصرف»[٧].

---

(١) لم يذكر الزمن بدقّة عند حديثه عن مخطوطات النص السرياني، وإنما اكتفى بالقول: «القرن الماضي»؛ ولما كانت النسخة التي أنقل عنها قد طبعت سنة ١٩٠٣م؛ فقد ذكرتُ أن (القرن الماضي)؛ يعني: القرن التاسع عشر.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٣) بهذا الرسم!

(٤) ذكر أيضًا (المهدي بن عايشة) الذي يفسد في الأرض! وهذا ما يؤكّد وجود ثقافة شيعيّة سائدة في المنطقة التي كتب فيها هذا النصّ.

(٥) Richard James Horatio Gottheil, *A Christian Bahira Legend*, p.191.

(٦) كليمن هوار Clément Huart (١٨٥٤ ـ ١٩٢٦م): مستشرق فرنسي. عمل أستاذًا في مدرسة اللغات الشرقيّة الحيّة، ومديرًا للدراسات في المدرسة التطبيقيّة للدراسات العليا في باريس. عمل في خدمة الاستعمار الفرنسي للبلاد الإسلاميّة.

(٧) Clément Huart, Une nouvelle source du Qorân, *Journal Asiatique*, Juilet- aout, 1904, p.127.

A Christian Bahira legend.

By *Richard Gottheil.*[1])

Conclusion of the Arabic text.

فقال لى على انا ان امر قومى ان لا يوحد من راهب[2] خراج ويبجل[3] وتقضا[4] حوايجه ويعنى[5] باحواله [6]وامرهم فى امر جماعة* النصارى ان[7] لا يتعدا[8] عليهم [9]ولا يغير عليهم فى رسومهم شيا* وتعمر كنايسهم وترفع[10] روسايهم [11]ويقدموا وينصفوا* ظلم احدا منهم كنت خصمه[12] [13]يوم القيامة.* فقلت له احسن الله جزاك وبارك لك فيما اعطاك[14] فقد قلت[15] ما انت من اهله. فقال لى [16]قد بقى علىّ شدة كيف* تقبلنى

---

1 *See* Vol. XIII, p. 189 ff.; Vol. XIV, p. 203 ff. 2 DPX + جزية ولا 3 PX وان يكون مسجل 4 DX وتقضى 5 D ويعنا; PX ويعتنا 6* D ويهتم بامره واعظم الوصيه على جماعه 7 D بان 8 DP + احدا 9* D ولا يغرض اليهم بمكروة ولا تغير فى شى من رسومهم; PX رسومهم. ثم يبقوا اعلى ما جرت به العادة 11* D ولا ننكد احدا عليهم (احدا X) 10 D وترتفع; PX ويرفع 12 P حصيمة 13* PX 〉 14 P عطاك 15 PX واقول لقومى ان من اتى مفتكر فى حالى ومكابرا فى قضية امرى وما اعرف 16* D لى + قد بقا شيا اخر اريد اقوله لك عن ما يملكون(?) لى وكيف; PX قلت لى كيف

R. Gottheil

Syriac texts.

[illegible] Ms Sachau 87, fol. 48 a

[illegible]

[illegible] (fol. 48 b) [illegible]

[illegible]

ت ـ إنه من المحال في مجرى العادة أن يُتمّ إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف؛ ليصبح أستاذ العالم كله، لمجرد أنه لقي ـ مصادفةً واتفاقًا ـ راهبًا من الرهبان؛ فقد

كان هذا التلميذ مشتغلًا عن التعليم بالتجارة، وكان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان صغيرًا تابعًا لعمّه في المرة الأولى، وكان حاملًا لأمانة ثقيلة في عنقه لا بد أن يؤديها في المرة الثانية، وهي أمانة العهد والإخلاص في مال خديجة وتجارتها عندما سافر إلى الشام في المرّة الثانية[(١)].

ث ـ لقاء الرسول ﷺ (بورقة بن نوفل) تمّ بعد نزول الآيات الأولى من القرآن، ويخبرنا التاريخ بأن (خديجة) قد حضرت هذا اللقاء، كما يخبرنا بأن (ورقة) لما سمع ما قصّه عليه (محمد) ﷺ من صفة الوحي؛ وجد فيه من خصائص الناموس الذي نزل على (موسى) عليه السلام ما جعله يقرّ بنبوته ويتمنى أن يمتد به العمر ليكون ردءًا له ونصيرًا، هذا هو فقط ما كان بينهما. وقد توفي (ورقة) الشيخ الهرم بعد هذه المقابلة بزمن يسير جدًّا.

ج ـ لا يمكن أن تكون النصرانية هي المورد الذي كان محمد ﷺ يرتاده ليملأ منه صفحات كتابه؛ إذ لم تكن هناك معالم واضحة للنصرانية في جزيرة العرب. تقول «الموسوعة الكاثوليكيّة الجديدة» في هذا الشأن: «لم تُمسّ الحجاز بالدعوة إلى النصرانيّة؛ ولذلك فإنّ مؤسسة الكنيسة المسيحيّة **لا يتوقّع أن تكون قد وُجِدت كما أنها لم توجد هناك**»[(٢)]. وقال (بيل): «.. بالرغم من وجود تراث بلغ به الأمر أن زعم اكتشاف صورة لعيسى في أحد أعمدة الكعبة؛ فإنّه **لا توجد حجّة قوية لأيّ مكان للمسيحيّة في الحجاز أو في قرب مكّة أو حتى المدينة**»[(٣)].

وقد كانت أهم ثلاث (جماعات) تحمل لواء النصرانيّة العربيّة زمن ظهور الإسلام:

١ ـ الغساسنة ومقرّهم في الشام على مسافة بعيدة عن مكة. وكانوا قد هاجروا في القرن الثالث من اليمن إلى حوران في الشام. وقد كانوا يعيشون

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م)، ٢/٣٢٦.

(٢) *New Catholic Encyclopaedia* (The Catholic University of America, Washington D C, 1967), 1/ 721-722 (Quoted by, Khâlid al-Khazrâjî and others, *The Prophet's Wives Teaching the Bible?*).

(٣) Richard Bell, *The Origin of Islam in its Christian Environment*, 1925; 1968, The Gunning Lectures Edinburgh University (London: Frank Cass and Company Limited), p.42 (Quoted by, Khâlid al-Khazrâjî and others,

حالة من عدم الاستقرار، إبّان البعثة النبويّة؛ فقد هدم الفرس دولتهم سنة ٦١٣م/ ٦١٤م[١].

٢ ـ أهل نجران في شمال اليمن، ولا يُعرف لهم سلطان أدبي أو ديني على أهل مكّة.

٣ ـ المناذرة، وقد عاشوا في الحيرة في العراق، وكان تنصّرهم في آخر القرن السادس ميلادي[٢].

كيف، إذن، صار لمكّة اتصال بالثقافة الدينيّة النصرانيّة؟!

ويضيف الناقد (آرثور فووبس) حقيقة تاريخيّة هامة، في قوله: «نلاحظ أنّ النصارى الذين يدخلون سلك رجال الدين في البلاد العربيّة يتحوّلون إلى الهلّنستيّة ويتبنون اليونانيّة لغةً لهم. لا بدّ من الإقرار أيضًا أنّه ـ كما تشهد على ذلك المخطوطات ـ في الأراضي الأبعد، جهة الشرق، احتلّت اللهجة السريانيّة نفس المقام، متشرّبة العنصر العربي»[٣].

ح ـ يشهد التاريخ للمعرفة السطحيّة للنصارى في بلاد العرب بدينهم؛ إذ لم تعرف لهم نشاطات دينيّة أو مساجلات لاهوتية أو أدوار واضحة أو بارزة في الصراع بين الفرق النصرانيّة.. كما أنّ النصارى العرب بالإضافة إلى هامشيتهم في مجتمع الجزيرة الوثني، كانوا لا يملكون من علوم النصرانيّة ما يستوقف النظر؛ وفي هذا يقول المستشرق (دوزي)[٤]: «كانت هناك ثلاث ديانات تقتسم البلاد العربيّة في زمن محمّد؛ اليهوديّة والمسيحيّة وشكلٌ غامض من الوثنيّة. ربّما كانت القبائل اليهوديّة هي فقط مخلصة لإيمانها... لم يكن للمسيحيّة غير قلّة من الأتباع العارفين بها؛ إذ إنّ جل المؤمنين بها، كانت معرفتهم بها سطحيّة جدًّا»[٥].

Is The Bible Really The Source Of The Qur'ân?).

(١) Edmond Power, *Studies: An Irish Quarterly Review*, Vol. 2, No. 7 (Sep., 1913), p. 205.

(٢) Irfan Shahid, *Byzantium and the Arabs in the Sixth Century*(Washington: Dumbarton Oaks, 2002), 2/1/171.

(٣) Arthur Vööbus, *Early Versions of the New Testament: Manuscript Studies*, p. 275.

(٤) رينهارت دوزي Reinhart Dozy (١٨٢٠م ـ ١٨٨٣م): مستشرق هولندي. كان له اهتمام بالدراسات اللغويّة وعناية خاصة بتاريخ الأندلس المسلمة.

(٥) Reinhart Dozy, *Spanish Islam: a history of the Muslims in Spain*, tr. Francis Griffin Stokes, (London: Chatto & Windus, 1913), p.13.

خ ـ لم يكن بإمكان (محمد) ﷺ أن يطّلع بصورة مباشرة على الكتاب المقدس لأميّته الثابتة بالقرآن الكريم والسُّنَّة.

مكة التي نزلت فيها أهم السور المخبرة عن قصص الأنبياء السابقين وقومهم هي المكان الأبعد احتمالًا للكشف عن مصدر بشري للقرآن الكريم.

الاحتمال الثاني في الميزان: أستاذية علماء أهل الكتاب بعد البعثة:

هو أن يكون (محمدٌ) ﷺ قد درس التوراة والإنجيل على يد علماء أهل الكتاب، بعد إعلانه نبوّته.. وهو احتمال مردود سواء في العهد المكي أو في العهد المدني:

في العهد المكيّ:

١ ـ كان أهل الكتاب يحتكرون علومهم بينهم؛ فلا يُبدون إلّا القليل، مع تقديم صورة عن دينهم غير التي تضمّها أسفارهم.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

٢ ـ لم تعرف مكّة طائفة يهوديّة، ويشهد على ذلك ما جاء في «الصحيحين» عن (ابن عباس) رضي الله عنه، قال: «قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء؛ فقال: **ما هذا؟** قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: **فأنا أحق بموسى منكم**. فصامه وأمر بصيامه»[١]. فالاحتكاك بطائفة اليهود كان في المدينة لا في مكّة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (ح/ ٢٠٠٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، ح/ ١١٣٠.

٣ ـ لا نجد لقاء فعليًا بين (محمد) ﷺ وأحد علماء أهل الكتاب في العهد المكي سوى لقائه ﷺ (بورقة بن نوفل)، وقد علمتَ أنه لقاء خاطف يستحيل عقلًا أن يترتب عليه كل ما جاء به خاتم النبيين ﷺ.

٤ ـ سيطر الجو الوثني على البيئة المكية فلا يوجد فيها جدل ديني بين اليهود والنصارى أو بين أحدهما والوثنيين، كما أنّ علوم أهل الكتاب لم تكن متاحة للعامة ولا للخاصة.

٥ ـ لم تعرف مكّة نشاطًا تنصيريًّا، ولم يكن للنصارى فيها وجود ظاهر، وحتّى لما ألّف (لولنج) بحثه حول النصرانيّة في مكّة، وكتابه الآخر Die Wiederentdeckung desPropheten Muhammad: Eine Kritik am) "christlichen") ـ ١٩٨١م ـ لم يذكر شخصيّة نصرانيّة واحدة في مكة!

والحقيقة هي أنّ من قيل إنهم نصارى في مكّة من معاصري الرسول ﷺ لا يتعدّى أمرهم ثلاثة: (ورقة بن نوفل)، و(عبيد الله بن جحش) و(عثمان بن الحويرث)[١]. . **ومن أهم ما لوحظ في أمر هؤلاء أنهم:**

○ كانوا الجيل الأوّل من النصارى، وليس يفترض في الجيل الأوّل أن يكون مؤثّرًا، خاصة إذا لم تكن الدعوة لهذا الدين تشغلهم أصلًا، ولم يكونوا من كبرائه.

○ كانوا يعيشون في معزل عن بعض؛ فلم يعرف لهم تجمّع، ولم يبنوا كنيسة توحّدهم.

○ قصص تنصّرهم مختلفة ومتباعدة مكانًا؛ بما يرجح الظنّ أنهم كانوا على مذاهب نصرانيّة مختلفة.

○ لا يعرف لأعيانهم أثر في الثقافة الدينيّة لأهل مكّة[٢].

○ (ورقة بن نوفل) قد عُرفت صلته بالنبي ﷺ، وهي عارضة إذ لا تتجاوز لقاءً واحدًا قصيرًا!

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبويّة، ١/٢٥١ ـ ٢٦٢.

(٢) Ghada Osman, '*Pre-Islamic Arab Converts to Christianity in Mecca and Medina: An Investigation into the Arabic Sources,*' *Muslim World*, 00274909, Jan2005, Vol. 95, Issue 1.

○ (عبيد الله بن جحش) أسلم، ثم هاجر إلى الحبشة، وهناك قيل: إنّه قد تنصّر، والخبر في تنصّره لا يثبت من طريق خال من العلل عند المحدّثين[1]؛ ففي ثبوته نظر، وعلى فرض صحّته فإنّه لا يُثبت في هذا الباب شيئًا؛ لأنه لا دليل فيه على أنّ (عبيد الله بن جحش) قد عَلّم الرسول ﷺ، ولا ادّعى (عبيد) ذلك، وهو ما لم يدّعه أيضًا أهل مكّة!

○ أمّا (عثمان بن الحويرث) فقد:

١ ـ تنصّر وغادر مكّة إلى الشام حيث أقام، وفيها مات.

٢ ـ وكانت وفاته قبل البعثة بثلاث سنوات أو نحوها[2].

في العهد المدني:

يمثّل العهد المدني بالنسبة (لمحمد) ﷺ انتقالًا من بيئة جاهلة إلى بيئة تضمّ طائفة منظمة دينيًّا لها كتابها المقدّس؛ وهي طائفة يهود المدينة؛ وهو ما يدفعنا إلى إبداء هذا التساؤل: «هل من الممكن أن يكون أتباع التوراة هم الذين أطلعوا محمدًا ﷺ على ما تضمنته كتبهم المقدّسة؟»

الإجابة ستكون قطعًا بالسلب؛ **لأسباب عدة، من أهمها:**

١ ـ لم ينزل من القرآن في العهد المدني غير ٢٨ سورة بعد أن نزل بمكة قبل الهجرة ٨٦ سورة.

٢ ـ أهم نقاط التشابه بين القرآن الكريم والكتاب المقدّس ـ كما يصرّ على ذلك المشكّكون ـ هي قصص الأنبياء، ولو أننا تأمّلنا في النص القرآني لوجدنا أن السور المكية هي التي تعرض أطول قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة[3]، ولم تترك للسور المدنية سوى فرصة استخلاص الدروس منها، وغالبًا في تلميحات موجزة.

---

(١) انظر: محمد بن عبد الله العوشن، تحقيق دعوى ردّة عبيد الله بن جحش، مجلّة البيان، السنة السابعة عشرة، العدد ١٨٢، شوال ١٤٢٣هـ، ديسمبر ٢٠٠٢م.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٠٢/٢.

(٣) حتى نرشد القارئ في هذا الشأن نوضح الآيات المكية التي عنيت بهذا القصص: سورة الأعراف عن =

٣ ـ توبيخ القرآن لليهود في العهدين المكي والمدني وتقريعه لهم يجعل القول إنّ (محمدًا) ﷺ قد تعلّم على يد أحبار اليهود في المدينة أمرًا مرفوضًا ببداهة العقل:

في العهد المكي: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣].

في العهد المدني: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٧٩، ٨٠].

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

= آدم ١١ ـ ٢٥، وموسى ١٠٢ ـ ١٧٦، سورة يونس عن موسى ٧٥ ـ ٩٢، وسورة هود عن نوح ٢٥ ـ ٤٩، وإبراهيم ولوط ٦٩ ـ ٨٢، وسورة يوسف عن يوسف، وسورة الحجر عن آدم وإبراهيم ولوط ٢٦ ـ ٧٧، وسورة الإسراء عن بني إسرائيل ٤ ـ ٨، وسورة الكهف عن أهل الكهف ٩ ـ ٢٥، وموسى ٦٠ ـ ٨٢، وسورة مريم عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى... إلخ ١ ـ ٣٣، وسورة طه عن موسى ٩ ـ ٩٨، وسورة الأنبياء عن إبراهيم ٥١ ـ ٧٠، وداود وسليمان ٧٨ ـ ٨٢، وسورة الشعراء عن موسى وإبراهيم ونوح... إلخ ١٠ ـ ١٨٩، وسورة النمل عن موسى وداود وسلمان ٧ ـ ٤٤، وسورة القصص عن موسى ٣ ـ ٤٣، وقارون ٧٦ ـ ٨٢، وسورة العنكبوت عن نوح وإبراهيم ولوط ١٤ ـ ٣٥، وسورة سبأ عن داود وسليمان ١٠ ـ ١٤، وسورة ص عن عن داود وسليمان وداود وأيوب ١٧ ـ ٤٤، وسورة الذاريات عن إبراهيم ٢٤ ـ ٣٧. (عن محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، تحقيق: محمد عبد العظيم علي، الكويت: دار القلم، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص١٥٦).

٤ ـ يتحدث القرآن الكريم بلسان الأستاذ لا بلسان التلميذ؛ فهو يوبّخ أهل الكتاب على جهالاتهم، ويكشف خرافاتهم، ويفنّد مغالطاتهم:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾ [آل عمران: ٦٥].

﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلࣰّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: ٩٣].

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرࣰا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنࣰا وَكُفۡرࣰاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارࣰا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادࣰاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرࣱ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: ١٨].

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧].

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةࣲۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهࣱ وَٰحِدࣱۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [المائدة: ٧٣].

٥ ـ لو أن (محمدًا) ﷺ كان قد تتلمذ على يد أحبار اليهود؛ لاستغل ذلك أتباع التوراة في حربهم ضده، وضد دعوته الوليدة، ولأعلنوا للعالم اسم معلّمه، وموطنه، ولطلبوا من هذا المعلّم أن يعلن هذه الحقيقة.. ولقالوا.. ولفعلوا!

٦ ـ آمن بنبوّة الرسول ﷺ أعلام من أهل الكتاب في الجزيرة العربيّة،

وذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة، تدليلًا على أنّ الإسلام بقرآنه وعقائده من عند الله سبحانه لا من لسان (محمد) ﷺ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤].

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٩٩﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝١٦٢﴾ [النساء: ١٦٢].

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۝١٠٧﴾ [الإسراء: ١٠٧].

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۝١٠٨﴾ [الإسراء: ١٠٨].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۝١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٧﴾ [العنكبوت: ٤٧].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ۝٣٦﴾ [الرعد: ٣٦].

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢﴾ [المائدة: ٨٢].

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ [الأحقاف: ١٠].

الاحتمال الثالث في الميزان: أستاذية وثنيي مكة:

(محمدًا) ﷺ قد درس التوراة والإنجيل على يد العرب (أهل مكة)، وهو احتمال لا يُعرف له صاحب يتبنّاه، ولا يصمد أمام اعتراضات كثيرة؛ **من أهمها:**

١ ـ أهل مكة (أمّة أميّة).. وهم أجهل من أن يمتلكوا كل الحقائق التي تعرض أو تنقض ما عند أهل الكتاب في أسفارهم المقدّسة.

٢ ـ رغم أنّه من الممكن أن يكون أهل مكّة مطلعين على بعض قصص أنبياء السابقين، إلا أنّ هذا الاطلاع لا يمكن أن يكون قد تجاوز مرتبة أخبار العامة كالأسماء والأماكن دون التنصيص على التفاصيل الدقيقة التي إن حاولوا ذكرها فسيتورطّون في ذكر أساطير مسرفة في الخيال[(١)].

٣ ـ عدم اهتمام العرب بقصص الكتاب المقدّس، وذلك لأسباب، أهمها عدم وجود الموضوعات الدينية في أدبهم، وندرة المعتنقين الجدد، وتشتتهم.. هذا بالإضافة إلى عدم شغفهم بالقصص الديني[(٢)].

٤ ـ احتج القرآن لصالح ربانيته بقصص الأنبياء والأمم الغابرة التي ذكرها:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [القصص: ٤٤، ٤٥].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

---

(١) اهتم (النابغة الذبياني) في شعره بتاريخ الملك سليمان.. مما يعني أن عالم البذخ والثراء كان هو الذي يجلب اهتمامهم، ومعلوم أن الحديث عن بذخ السابقين؛ يعني: قصصًا أسطورية الغاية من عرضها استجلاب انتباه الناس من الدهماء (محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٤٥).

(٢) يبرز ذلك من خلال ما قام به (النضر بن الحارث) عندما أراد منافسة القصص القرآن، فقد شرع يقص على مستمعيه أساطير ملوك فارس القدامى، ومغامرات أبطالها مثل (رستم) و(اسفندار) (محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٤٥)..

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران: ٤٤].

لو أن هذا القَصص كان معلومًا عند العرب، لما استدل القرآن على ربانيته بما رواه عن الأنبياء السابقين؛ إذ كيف يستدل الكتاب بما يعلمه العرب لإثبات نبوة (محمد) ﷺ؟!

٥ ـ التفاصيل الكثيرة والدقيقة التي وافق فيها القرآن الكريم أسفار أهل الكتاب لا يمكن أن تنتقل إلى (محمد) ﷺ عن طريق أمّة من الناس لا تعرف عن أهل الكتاب إلا مجموعة (عناوين) عائمة. ولعلنا نوضّح هذه المسألة **بمثالين صارخين:**

▪ **إيليا والبعل:** قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٢٦﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٢٦].. هذا النص هو حديث واضح جلي عن قصّة (إيليا) النبي التي وردت أيضًا في الكتاب المقدس، علمًا أنّ الاسم (إيليا) (אליהו) [إيلياهو] العبري يكتب في اليونانيّة (Ηλιας) [إيلياس]، وهو في واحد من وجهيه في السريانية (ܐܠܝܐ) [إلياس]، ويسمّي النصارى العرب في الشام الكثير من الأماكن الأثريّة والدينيّة التي ترتبط بهذا النبيّ بأديرة (إلياس) أو كنيسة (إلياس). ويخبرنا الكتاب المقدس أنّ (إيليا) كان ينهى قومه عن عبادة الإله: (بعل) (בעל) بعد أن أدخل اليهود عبادته ضمن شعائرهم بسبب أنّ زوجة (آخاب) الملك الإسرائيلي كانت تعبد (البعل)[(١)].

والناظر في التفاسير المبكّرة ـ وهي التي تعنينا في هذا المقام ـ، يرى أنّ عامة المفسّرين على أنّ المقصود بـ(بعل) في الآية هو «الرب» باعتبار أنّ أهم معاني هذه الكلمة في اللغة: «الرب» و«السيد»؛ قال (ابن كثير): «قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: بعلًا؛ يعني: ربًّا»[(٢)]، والأغرب

---

(١) انظر: ١ ملوك ١٦ و١٧ و١٨.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤/١٩٧٩.

أنّ كثيرًا من المفسّرين الأوّلين في القرون الأولى بعد البعثة النبويّة، ومنهم الصحابة رضوان الله عليهم، قد ذهبوا إلى أنّ (إلياس) هو (إدريس)، رغم أنّ القرآن الكريم ليس من عادته أن يعطي للنبي الواحد اسمين متباعدين لفظًا، كما أنّ الكتاب المقدس لا يذكر نبيًّا باسم (إدريس)، بالإضافة إلى أنه من الراجح ـ عند عدد من الدارسين ـ أنّ (إدريس) القرآني عليه السلام، هو (أخنوخ) في أسفار أهل الكتاب!

فكيف يظن أحد بعد ما سبق ذكره أنّ الجزيرة العربيّة كانت توفّر (لمحمد) صلى الله عليه وسلم معرفة كتابيّة؟!


مسلة للإله (بعل) اكتشفت في رأس شمرة (القرن الخامس عشر-الثالث عشر قبل الميلاد)

■ **إحالة حَرفيّة إلى الزبور**: بلغ من أمر القرآن الكريم في دقّته أن يحيل إلى سفر معيّن من الكتاب المقدّس وينقل عنه نصّه حرفيًّا، وهو ما لا نعرف له نظيرًا البتّة بين عرب الجاهليّة الوثنيين؛ فقد جاء في سورة الأنبياء، الآية ١٠٥: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، وهو عين ما جاء **حرفيًّا** في المزمور «الزبور» ٣٧، العدد ٢٩: (צדיקים יירשו־ארץ). ومن الطريف هنا أنّ الإمام (الطبري) قد ذكر اختلاف علماء الصدر الأوّل في تفسير هذه الآية، ونقل عن جلّهم أنّ «الزبور» هو غير كتاب (داود) عَلَيْهِ السَّلَامُ! بل ورجّح (الطبري) نفسه أنّ معنى «الزبور» هنا هو «الكتاب» لا «مزامير داود»[1] رغم أنّ النص القرآني صريح في أنّ «الزبور» هو كتاب (داود) عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]! وفي ذلك دلالة على العسر الشديد الذي كان في ذاك الزمان في التعرّف على الكتب المقدسة لأهل الكتاب.

فنقول: إذا لم يهتد (١) العلماء المسلمون[2] (٢) في زمن انتشار المعارف الكتابيّة (٣) ووجود أهل الكتاب بين أظهرهم يسألونهم، إلى موضع هذه الجزئيّة الصغيرة في الكتاب المقدس؛ فكيف يهتدي إليها ولأعمق منها وأدق، (محمد) ﷺ (١) الأمي (٢) الذي عاش في بيئة لا تحسن المعارف الكتابيّة.. إلّا أن يكون هو الوحي؟!

الجهل بأبسط المعارف التوراتية والإنجيلية في القرون السابقة وحتّى اليوم هو الأصل في غير أمّتي اليهود والنصارى.

الاحتمال الرابع في الميزان: أستاذية الحدّاد الرومي:

بعد أن أثبتنا نكارة القول إنّ (محمّدًا) ﷺ قد درس التوراة والإنجيل عند أهل الكتاب، يغدو من السذاجة أن ننسب شرف هذا التعليم إلى حدّاد رومي ـ كما ادعاه بعض معاصري هذا النبي ﷺ ـ.. ونحن نرفض الاحتمال الرابع لعدة أسباب؛ **من أهمها**:

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن ٩/٩٨

(٢) حتّى مَن قالوا: إنّ الإحالة في الآية هي إلى مزامير (داود) لم يُظهروا أنّهم يعرفون موضع الاقتباس؛ ولذلك ظلّ الخلاف بين المفسّرين في فهم معنى (زبورًا) دون أن يُناقَشوا معه انطباق نص مزمور ٣٧/ ٢٩ على الآية القرآنيّة.

١ ـ (الجبر) حدّاد رومي نصراني يقرأ ويكتب.. لكنه عامي الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أماني، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها (محمد) ﷺ ولا أحد من قومه.

فهل من الممكن أن يكون هذا الأعجمي العامي أستاذًا (لمحمد) ﷺ الذي كشف كتابه الأسرار الدقيقة في الديانتين اليهودية والنصرانية، كما كشف ما يخفي أهل الكتاب من حقائق عن الناس؟! هل من الممكن أن يكون للجهل فضل على العلم؟! هل كان هذا الحداد إلّا فتى عاميًّا؟ بل هل تُرى العامة من النصارى في عصرنا يعلمون ما تضمه أسفارهم المقدسة من عقائد وقصص؟![1]

إذا كانت الإجابة بالنفي ـ وهي واقعًا كذلك ـ فهل يجوز أن ننسب العلم إلى نصراني من العامة في القرن السابع الميلادي؟! هل يجوز أن ننسب كل هذا العلم الواسع إلى مثل هذا الفتى؟![2].

٢ ـ لو كان (الجبر) هو معلّم (محمد) ﷺ لما توانى عن إعلان ذلك أمام الملأ من قريش؛ لأنه سيضمن بذلك حظوة لدى أعداء هذا النبي الذي بدأ يهدد تزايد عدد أتباعه مصالح المنتفعين من هذه القبيلة العربية، والذي فكّر من حادّوه في قتله لعجزهم عن إيجاد وسيلة ناجعة لوأد دعوته أو وقف تمددها.

٣ ـ لم ترد مقالة المشركين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]؛ لأن أهل قريش كانوا يعتقدون أن هذا الفتى الرومي هو الذي لقّن (محمدًا) ﷺ ما يدعو إليه، وإنما قد استعلن المشركون بهذه المقالة، لعلمهم أنّ ما أتى به (محمد) ﷺ، خاصة ما تعلّق بقصص أنبياء السابقين وتاريخ الأمم الغابرة، لا يمكن أن يكون من عند عربي أمي؛ إن (محمدًا) ﷺ قد تلقى هذه الأخبار من عند من هو عليم بأمر تلك الأمم.

---

(١) تذكر الإحصائيات أنّ ١٤٪ فقط من الأمريكيين يعرفون الوصايا العشر في التوراة.
<http://www.frc.org/booklet/the-ten-commandments-foundation-of-american-society->.

(٢) انظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص٦٣ ـ ٦٦

وإذا علمنا أن المشركين كانوا ينكرون نبوة (محمد) ﷺ فإنه لا مفر للقوم من أن ينسبوا شرف تعليم هذا الرجل إلى من حاز علمًا بتلك الأخبار، ولا أقرب إلى فكر المعاند من علماء أهل الكتاب، ولكن أنّى لهم ذاك، وليس في مكّة علماء؛ فلم يعد عند أهل مكّة من سبيل لتمرير الفرية غير نسبة هذا العلم والتعليم إلى غلام نصراني اجتمع فيه شرطاهم (أ) أن يكون من سكّان مكة حتى يقال: إنه كان يلاقي (محمدًا) ﷺ ويملي عليه بكرة وأصيلًا (ب) أن يكون من غير جلدتهم وملّتهم لينسبوا إليه من العلم ما لا يعلمون.. وقد كان! فهو إذن اضطرار من القوم لا اختيار![1].

٤ ـ أهمل المستشرقون هذا الوجه من الاعتراض، ولم يلقوا له بالًا، لعظم تهافته. ولم يكن لمثلهم أن يستدبر هذه الفرية لو كانت تحتمل من الصواب أو الإمكان بعضه!

وماذا عن النصرانية؟

إذا كان «العلم بخبر أهل الكتاب» برهان ربّانيّة القرآن؛ فإنّ «الجهل بخبر أهل الكتاب الأوّل ـ العهد القديم/التوراة مجازًا ـ» حجّة لنفي إلهاميّة أصحاب الأناجيل؛ إذ يزعم النصارى أنّ كُتّاب الأناجيل كانوا ملهمين من الربّ، ولكنّ النظر في اقتباساتهم من أسفار العهد القديم ينفي ربّانية الإلهام المدّعى؛ إذ كانوا في كثير من الأحيان جاهلين بمعاني النصوص المقدّسة أو محرّفين لها. وهي ظاهرة بارزة بكثافة في إنجيل متّى حتّى كتب القسيس والمفسّر (ويليام باركلي)[2]: «متّى مستعدّ لاستعمال أيّ نص كنبوءة عن يسوع... حتّى لو كان في الأصل لا علاقة له البتّة بالموضوع المطروق، ولم يُقصد البتّة أن تكون له به أدنى علاقة. كان متّى يعلم أنّ الطريق الوحيد ـ تقريبًا ـ لإقناع اليهود أن

(١) انظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص٦٤.

(٢) ويليام باركلي William Barclay (١٩٠٧ ـ ١٩٧٨م): لاهوتي ومفسّر إسكتلندي. أستاذ النقد الكتابي في جامعة (Glasgow). تفسيره للعهد الجديد "The New Daily Study Bible" (١٧ مجلدًا) من أشهر التفاسير الفردية بالإنجليزيّة.

يسوعَ مسيحُ اللهِ الموعود هو إثبات أنّه بيسوع تتحقّق نبوءة العهد القديم. وفي أثناء حماسته لإتمام ذلك، وجد نبوءاتٍ في العهد القديم حيث لم يُقصد أبدًا أن يكون الحديث عن نبوءاتٍ»[(١)].

الاقتباسات الفاسدة التي أوردها أصحاب الأناجيل جهلًا بخبر العهد القديم أو تحريفًا له كثيرة، **نكتفي هنا ببعضها**:

١ ـ الناصرة والناصري:

جاء في إنجيل متى ٢/ ٢٣: «وَأَتَى وَسَكَنَ فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالأَنْبِيَاءِ: «إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا»».

لم يتنبّأ العهد القديم (التوراة) أنّ «المسيح الملك» سيكون ناصريًّا، وإنّما هذا من تدليس مؤلّف إنجيل متّى الذي كان يحاول جهده إثبات أنّ (عيسى/ يسوع) عليه السلام قد تنبّأ العهد القديم بخبره.

الاعتراضات على هذه النبوءة المزعومة كثيرة، أهمها:

أ ـ لم تُذكر الناصرة في العهد القديم البتة، وهو ما اعترفت به ترجمة (The New American Bible) ـ أهم ترجمة كاثوليكية اليوم، وهي ترجمة نالت الختم البابوي ـ، بقولها: «لم تُذكر قرية الناصرة في العهد القديم، ولم يُعثر على مثل هذه النبوءة فيه».

ب ـ لا توجد في العهد القديم أدنى إحالة إلى ما ادّعاه مؤلّف إنجيل متى، ولذلك اعترف قديس الكنيسة (يوحنا ذهبي الفم) أنّ هذه النبوءة غير موجودة في العهد القديم، وزعم لذلك ـ وبدون برهان ـ أنها نبوءة موجودة في أحد الأسفار المقدسة الضائعة[(٢)] وهو مذهب كتّاب قدامى آخرين مثل (Theophylact) و(Glericus)[(٣)].

---

(١) W. Barclay, *The Gospel of Matthew,* Rev. and updated (The New Daily Study Bible, Edinburgh: Saint Andrew Press, 2001), p.41.

(٢) Saint Chrysostom, *Homilies of the Gospel of Saint Matthew*, Homily IX.

(٣) John McClintock and James Strong, *Cyclopaedia of Biblical, theological, and ecclesiastical literature*, New York: Harper & Brothers, 1894, 6/873.

ت ـ مدينة الناصرة ـ على الراجح ـ لم توجد زمن المسيح، وإنما أُسّست (أو أعيد تأسيسها) بعده. وقد أفاض في سبر ذلك تاريخيًّا أحد الباحثين المعاصرين[١].

ث ـ أقدم إشارة إلى الناصرة، خارج الكتاب المقدس، وردت فيما نقله (يوسابيوس) في القرن الرابع عن (سكستس يوليوس أفريكانوس) في بداية القرن الثالث، لكنّ الوصف الذي قدّمه (أفريكانوس) لا ينطبق جغرافيًّا على منطقة الناصرة كما هي في الأناجيل!

ج ـ النصّ اليوناني لإنجيل متّى ٢/٢٣ وصفَ (الناصرة) بأنّها (πολις) [بوليس]؛ أي: (مدينة)؛ ويبعد أن يتجاهل المؤرخون الأوائل الذين كانوا يهتمون بصورة بارزة بالمدن مدينة آهلة بالسكان.

ح ـ حاول عدد من النصارى إخفاء خطأ إنجيل متَّى بالزعم أن النبوءة موجودة في إشعياء ١١/١: «وَيَخْرُجُ قَضِيبٌ مِنْ جِذْعِ يَسَّى، وَيَنْبُتُ غُصْنٌ مِنْ أُصُولِهِ». وكلمة «غصن» في الأصل العبري هنا هي (נֵצֶר) [نِيتسِر]. وجوابنا هو أنّ التشابه اللفظي لا يسعف النصارى لأنّ «غصن» كلمة مختلفة عن كلمة «الناصرة» الدالة على المدينة. ولا يمكن قراءة النبوءة على أنّ المسيح قد ولد في الناصرة ليُسمّى غصنًا!

خ ـ زعم مؤلّف إنجيل متّى أنّ «الأنبياء» (των προφητων) [تُونْ بْرُوفِتُونْ] (في صيغة الجمع) قد تنبّؤوا عن الناصرة، في حين أنّ كلمة «غصن» لم ترد إلا في سفر واحد هو سفر إشعياء!

د ـ مؤلّف إنجيل متى كتب «الناصرة» هكذا: (Ναζαρετ)، بحرف الزاي (الزيتا اليونانية) (ζ)، في حين أنّ كلمة «غصن» تستعمل حرف الصاد (تسادي צ). قال الناقد (ألشاوسن): «اشتقاق الاسم من (נֵצֶר)، شجيرة، خطأ؛ إذ إنّ حرف الزيتا اليوناني (ζ) يوافق حرف الزين

(١) René Salm, *The Myth of Nazareth: The invented town of Jesus* (Cranford, N.J.: American Atheist Press, 2008).

العبري (٢)»[١].

٢ ـ العذراء أم الشابة؟

جاء في إنجيل متّى ١/ ٢٢ ـ ٢٣: «وَهذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: «هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اَللهُ مَعَنَا».

يحيل مؤلّف إنجيل متّى هنا إلى نص إشعياء ٧/ ١٤: «وَلكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ»».

الإشكالات المتعلّقة بصدق هذه النبوءة كثيرة، منها:

أ ـ النص العبري لإشعياء ٧/ ١٤ يذكر الغلامة[٢] [هَعَلْمَا] (העלמה) لا العذراء [هبتولا] (הבתולה)، ولذلك ذهبت أهم التراجم الإنجليزية الحديثة مثل (The New American Bible) وترجمة (Revised Standard Version) إلى ترجمة الكلمة: «امرأة شابة» (young woman). ومن دلائل أن كلمة (عَلما) ـ بعد حذف أداة التعريف العبرية: (الهاء) ـ تعني: من كانت صغيرة السن دون تعلّق الوصف بعذريّتها أنّ مُذَكَّرَها (עלם) [عِلِمْ] قد ورد مرّتين في العهد القديم، وتُرجم في التراجم الإنجليزية جميعًا: «شاب» (١ صموئيل ١٧/ ٥٦، ٢٠/ ٢٢).

ب ـ لم يدعُ أحدٌ المسيحَ «عمانويل» في حياته بشهادة الأناجيل نفسها!

ت ـ نصُّ إشعياء لا علاقة له بنبوءة يتحقق أمرها بعد قرون، وإنّما هو متعلّق بـالملك (آحاز)؛ فالآية لـ(آحاز) حيث تلد فتاة شابة (لا عذراء) ولدًا يُسمّيه (آحاز) (عمانويل) آية على نصر الله له في الحرب مع مملكة إسرائيل الشمالية ومملكة سوريا: «عَادَ الرَّبُّ فَكَلَّمَ آحَازَ قَائِلًا: «اُطْلُبْ لِنَفْسِكَ آيَةً مِنَ الرَّبِّ إِلهِكَ. عَمِّقْ طَلَبَكَ أَوْ رَفِّعْهُ إِلَى فَوْق». فَقَالَ آحَازُ: «لَا أَطْلُبُ وَلَا

(١) Olshausen & Wiesinger. *Biblical Commentary on the New Testament by Dr. Hermann Olshausen,* (New York: Sheldon, Blakeman, & Co, 1857 - 1859), 1/195.

(٢) مؤنّث غلام.

أُجَرِّبُ الرَّبَّ». فَقَالَ: «اسْمَعُوا يَا بَيْتَ دَاوُدَ! هَلْ هُوَ قَلِيلٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تُضْجِرُوا النَّاسَ حَتَّى تُضْجِرُوا إِلهِي أَيْضًا؟ وَلكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ». زُبْدًا وَعَسَلًا يَأْكُلُ مَتَى عَرَفَ أَنْ يَرْفُضَ الشَّرَّ وَيَخْتَارَ الْخَيْرَ». (إشعياء ٧/ ١٠ ـ ١٥).

ث ـ كيف تكون النبوءة عن المسيح المؤلّه رغم أنّ تتمّة النص تقول: «لأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الصَّبِيُّ أَنْ يَرْفُضَ الشَّرَّ وَيَخْتَارَ الْخَيْرَ، تُخْلَى الأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ خَاشٍ مِنْ مَلِكَيْهَا» (إشعياء ٧/ ١٦)؛ فكيف يتطوّر المسيح في المعرفة وهو إله؟!

٣ ـ إسرائيل الابن أم المسيح؟

جاء في إنجيل متّى ٢/ ٤١ ـ ١٥: «فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلًا وَانْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ. وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ. لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: «مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي».

يحيل مؤلّف إنجيل متّى إلى هوشع ١١/ ١: « لما كان إسرائيل غلامًا أحببته ومن مصر دعوت ابني». وهو نصّ لا علاقة له بالسَفر المزعوم للمسيح إلى مصر وعودته إلى أورشليم، **لأسباب**:

أ ـ نص هوشع ١١/ ١ لا علاقة له بنبوءات المستقبل من ناحية اللغة والسياق، وإنّما هو خبر عن الماضي: «لَمَّا كَانَ إِسْرَائِيلُ غُلَامًا أَحْبَبْتُهُ، وَمِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي. كُلَّ مَا دَعَوْهُمْ ذَهَبُوا مِنْ أَمَامِهِمْ يَذْبَحُونَ لِلْبَعْلِيمِ، وَيُبَخِّرُونَ لِلتَّمَاثِيلِ الْمَنْحُوتَةِ. وَأَنَا دَرَّجْتُ أَفْرَايِمَ مُمْسِكًا إِيَّاهُمْ بِأَذْرُعِهِمْ؛ فَلَمْ يَعْرِفُوا أَنِّي شَفَيْتُهُمْ. كُنْتُ أَجْذِبُهُمْ بِحِبَالِ الْبَشَرِ، بِرُبُطِ الْمَحَبَّةِ، وَكُنْتُ لَهُمْ كَمَنْ يَرْفَعُ النِّيرَ عَنْ أَعْنَاقِهِمْ، وَمَدَدْتُ إِلَيْهِ مُطْعِمًا إِيَّاهُ. لَا يَرْجعُ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ، بَلْ أَشُّورُ هُوَ مَلِكُهُ؛ لأَنَّهُمْ أَبَوْا أَنْ يَرْجِعُوا». (هوشع ١١/ ١ ـ ٥).

ب ـ النص كما هو واضح في لفظه متعلّق بإخراج الربّ بني إسرائيل من مصر زمن (موسى) عليه السلام، وليس للمسيح فيه أثر، ولذلك قال الناقد والقسيس

(د. و. ديفيس)[(١)]: «تطبيق هوشع ١١/١ على يسوع يبدو بصورة لا مفرّ منها مجّانيًّا. العدد في سياقه الأصلي يشير بوضوح إلى إسرائيل»[(٢)]، وهو أمر جليّ حتّى إنّ الكاتب المحافظ (بيير إ. بونار) كتب: «استعملَ متّى النّص خارج سياقه التاريخي»[(٣)].

ت ـ الفهم القديم لنص هوشع ١١/١ كان مستقرًّا على أنّه متعلّق ببني إسرائيل لا المسيح، ومن ذلك أنّ الترجمة السبعينيّة اليونانية وردت هكذا: (εξ Αιγυπτου μετεκαλεσα τα τεκνα αυτου) «من مصر دعوت أبناءه»؛ أي: أبناء (إسرائيل/يعقوب) عليه السلام.

٤ ـ فتاي الذي اخترته:

جاء في إنجيل متّى ١٢/١٤ ـ ٢١: «فَلَمَّا خَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ تَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ؛ فَعَلِمَ يَسُوعُ وَانْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ. وَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا. وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يُظْهِرُوهُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. لَا يُخَاصِمُ وَلَا يَصِيحُ، وَلَا يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لَا يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لَا يُطْفِئُ، حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ. وَعَلَى اسْمِهِ يَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ».

ادّعى مؤلّف إنجيل متّى أنّ نص إشعياء ٤٢/١ ـ ٤: «هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. لَا يَصِيحُ وَلَا يَرْفَعُ وَلَا يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لَا يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لَا يُطْفِئُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ. لَا يَكِلُّ وَلَا يَنْكَسِرُ

---

(١) د. و. ديفيس W. D. Davies (١٩١١ ـ ٢٠٠١م): لاهوتي وناقد بريطاني مهتم بأثر اليهودية في النصرانية. من مؤلفاته: "Paul and Rabbinic Judaism".

(٢) W. D. Davies, *A Critical and Exegetical Commentary on the Gospel according to Saint Matthew* (London; New York: T&T Clark International, 2004), p.263.

(٣) Pierre E. Bonnard, *L'\vangile selon saint Matthieu* (GeneIve: Labor et Fides, 2002), p.29.

حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ» متعلّقٌ بمسيح الكنيسة، **وذاك مردود من أوجه:**

أ ـ نص إشعياء يقول «عبدي» (לעבדי)، وهذه الكلمة في العبرية كالعربية، تكتب بنفس الحروف ولها نفس المعنى. والمسيح عند النصارى إلٰه!

ب ـ المبشَّر به يعضده الله لإتمام رسالته، والمسيح عند النصارى إله كامل الألوهية.

ت ـ المبشّر به لا يكلّ حتّى يضع الحقّ في الأرض، ومسيح الكنيسة تمكّن منه أعداؤه وصلبوه؛ وبذلك «كسروه».

ث ـ مؤلّف إنجيل متّى حرّف الأصل في أكثر من موضع:

إشعياء	متّى
أَعْضُدُهُ	اخْتَرْتُهُ
مُخْتَارِي	حَبِيبِي
وَضَعْتُ	أَضَعُ
فَيُخْرِجُ	فَيُخْبِرُ
لَا يَرْفَعُ	لَا يُخَاصِمُ
خَامِدَةً	مُدَخِّنَةً
إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ	ـ
لَا يَكِلُّ وَلَا يَنْكَسِرُ	ـ
فِي الأَرْضِ	إِلَى النُّصْرَةِ
وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ	وَعَلَى اسْمِهِ يَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ

٥ ـ بيت لحم أفراته:

جاء في إنجيل متّى ٢/٣ ـ ٦: «فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ. فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَتَبَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ: «أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟»».

فَقَالُوا لَهُ: «فِي بَيْتِ لَحم الْيَهُودِيَّةِ. لأَنَّهُ هكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ: وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ، أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا؛ لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ».

اقتبس مؤلف إنجيل متّى هنا نصّين:

«أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْم أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا؛ فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ، مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ» (ميخا ٥/٢).

«وَمُنْذُ أَمْسِ وَمَا قَبْلَهُ، حِينَ كَانَ شَاوُلُ مَلِكًا عَلَيْنَا، قَدْ كُنْتَ أَنْتَ تُخْرِجُ وَتُدْخِلُ إِسْرَائِيلَ. وَقَدْ قَالَ لَكَ الرَّبُّ: أَنْتَ تَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنْتَ تَكُونُ رَئِيسًا عَلَى إِسْرَائِيلَ» (٢ صموئيل ٥/٢). والاقتباس متأثر بالترجمة السبعينية لا النص العبريّ.

والملاحظات على نكارة هذه النبوءة المسيحانية المزعومة هي:

أ ـ نسبَ مؤلّف إنجيل متّى النبوءة إلى «النبيّ» (του προφητου) [تو بروفِيتو] في المفرد، رغم أنّها تعود إلى نبيّين اثنين.

ب ـ قال الربّ في ٢ صموئيل ٥/٢ لـ(داود) إنّه سيرعى بني إسرائيل، وإنّه سيكون قائدهم. والنص بذلك ليس نبوءة عن المسيح المنتظر؛ فهو موجّه مباشرة إلى (داود) النبي عليه السلام.

ت ـ يسوع لم يكن قائدًا لبني إسرائيل. وقد جاء في يوحنا ١/١١: «إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ.» وقال المسيح نفسه: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ». (يوحنا ١٨/٣٦).

ث ـ يعتقد النصارى أنّ المسيح إله؛ فهو أحد أفراد الثالوث، لكنّنا نقرأ في ميخا ٥/٤: «وَيَقِفُ وَيَرْعَى بِقُدْرَةِ الرَّبِّ، بِعَظَمَةِ اسْمِ الرَّبِّ إِلهِهِ»؛ فالمتحدَّث عنه يتحرّك بعون الربّ وعظمة إلهه.

ج ـ رغم أنّ الجزء الأكبر من النبوءة مأخوذ من ميخا ٥/ ٢ إلّا أنّ متّى حرف النصّ حتّى قال الناقد القسيس (ر. ت. فرنس)[١]: «النص المذكور يختلف بصورة بالغة عن النصّ العبري والترجمات المعروفة لميخا ٥/ ٢»[٢]. وهو ما كرّره الناقد (ألرخ لوز)[٣] بقوله: «كلمات الاقتباس مختلفة عن جميع الأشكال المعروفة لنص ميخا ٥/ ١»[٤]. وأمّا الناقد (م. د. ديفيس) فكتب: «لا يتّبع الاقتباس الترجمة السبعينية ولا النص العبري لميخا ٥/ ٢. في الواقع، هذه الاختلافات كافية لإغراء المرء أن يتحدث عن «تفسير» بدلًا عن «اقتباس» من الأسفار المقدسة. وقد تم تغيير النص بحرية من قبل متّى ليخدم غاياته بصورة أفضل»[٥]. ومن هذه الاختلافات:

- غيّر متّى «أفراتة» (אֶפְרָתָה) إلى «يهوذا» (Ιουδαιας).
- غيّر متّى «وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا» (צָעִיר לִהְיוֹת בְּאַלְפֵי יְהוּדָה) إلى «لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا» (ουδαμως ελαχιστη ει εν τοις ηγεμοσιν Ιουδα).
- غيّر متّى «ألوف» (אלפי) إلى «رؤساء» (ηγεμοσιν).
- حذف متّى «لي» (לִי).

ورغم أنّ مؤلّف إنجيل متّى يستعمل عادة الترجمة السبعينية للعهد القديم إلّا أنّنا لا نجد في متّى من بين ٢٢ كلمة في النص السبعيني لميخا غير ٨ فقط[٦].

---

(١) ر. ت. فرنس R. T. France (١٩٣٨ ـ ٢٠١٢م): ناقد متخصص في دراسات العهد الجديد. أشرف على أكثر من ترجمة للكتاب المقدس. له أكثر من تعليق نقدي على الأناجيل.

(٢) R. T. France, *Matthew: An introduction and commentary,* Tyndale New Testament Commentaries (Nottingham, England: Inter-Varsity Press, 1985), 1/88

(٣) ألرخ لوز Ulrich Luz (١٩٣٨م ـ): لاهوتي سويسري. أستاذ دراسات العهد الجديد في جامعة جوتنجن. له عدد من الدراسات في إنجيل متّى.

(٤) Ulrich Luz, *Matthew 1 - 7: A commentary on Matthew 1 - 7*, tr. Wilhelm C. Linss (Minneapolis, MN: Fortress Press, 1989), p.130.

(٥) W. D. Davies, *A critical and Exegetical Commentary on the Gospel according to Saint Matthew*, p.242.

(٦) Raymond E. Brown, *The Birth of the Messiah* (New York: Doubleday, 1993), 1/186.

٦ ـ الملك الراكب على أتان وجحش:

جاء في إنجيل متّى ٢١/ ١ ـ ٥: «وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ وَجَاءُوا إِلَى بَيْتِ فَاجِي عِنْدَ جَبَلِ الزَّيْتُونِ، حِينَئِذٍ أَرْسَلَ يَسُوعُ تِلْمِيذَيْنِ قَائِلًا لَهُمَا: «اِذْهَبَا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمَامَكُمَا؛ فَلِلْوَقْتِ تَجِدَانِ أَتَانًا مَرْبُوطَةً وَجَحْشًا مَعَهَا؛ فَحُلاَّهُمَا وَأْتِيَانِي بِهِمَا. وَإِنْ قَالَ لَكُمَا أَحَدٌ شَيْئًا؛ فَقُولاَ: الرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمَا. فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُهُمَا». فَكَانَ هذَا كُلُّهُ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: «قُولُوا لابْنَةِ صِهْيَوْنَ: هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِيكِ وَدِيعًا، رَاكِبًا عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ».

النص المحال إليه هو: «اِبْتَهِجِي جِدًّا يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ، اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ» (زكريا ٩/ ٩).

فهمُ مؤلّف إنجيل متّى لنص زكريا ٩/ ٩ عجيب؛ إذ يرى أنّه يُخبر أنّ المتحدّث عنه رجلٌ يركب جحشًا وأتانًا وكأنّه رجل سيرك!

بعيدًا عن ذلك، النبوءة المزعومة فاسدة لأسباب:

أ ـ النبوءة تقول إنّ الملك الآتي منصورٌ، والنص التالي يضيف: «... وَسُلْطَانُهُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ» (زكريا ٩/ ١٠).. والنصارى يقولون: إنّ المسيح مصلوب، لم يملك يومًا على أورشليم!

ب ـ الذي فهمه اليهود، منذ زمن بعيد من نص زكريا ٩/ ٩ أنّه يتحدّث عن حيوان واحد: حمار= جحش بن أتان؛ فالواو في الأصل العبري تفسيريّة (explicative) وليست للربط والإضافة (connective)، وهذا مقتضى الثنائيّة الساميّة في هذا النص العبري[1]، ولذلك اتّهم أحد النقّاد مؤلّف إنجيل متّى أنّه «أجنبيّ عن طبيعة الشعر العبري»[2].

---

(١) Davies. *A critical and Exegetical Commentary on the Gospel According to Saint Matthew*, p120.

(٢) S. V. McCasland, "Matthew Twists the Scripture," *JBL* 80 (1961), p. 145.

ت ـ جاء في مرقس ١١/٧ أنّ المسيح لم يركب غير جحش واحد في هذه القصّة. وذاك يكشف أنّ مؤلّف إنجيل متّى قد حرّف نصّ مرقس ليوافق فهمه العجيب لنص زكريا ٩/٩. وقد تابع لوقا ١٩/٢٩ ـ ٤٠ مرقس روايته، وهو ما اختاره أيضًا مؤلّف إنجيل يوحنا ١٢/١٢ ـ ١٥.

لقد أرهق هذا النص النصارى حتّى قال الناقد (لي مارتن ماكدونالد)[١]: «إنّه نص مثير وذو طبيعة متحدّية لكلّ مفسّر»[٢].

٧ ـ الفضة وحقل الفخاري:

جاء في إنجيل متّى ٢٧/٥ ـ ١٠: «فَطَرَحَ [يهوذا الإسخريوطي] الْفِضَّةَ فِي الْهَيْكَلِ وَانْصَرَفَ، ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ. فَأَخَذَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْفِضَّةَ وَقَالُوا: «لَا يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِي الْخِزَانَةِ لأَنَّهَا ثَمَنُ دَمٍ». فَتَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِيِّ مَقْبَرَةً لِلْغُرَبَاءِ. لِهذَا سُمِّيَ ذلِكَ الْحَقْلُ «حَقْلَ الدَّمِ» إِلَى هذَا الْيَوْمِ. حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا النَّبِيِّ الْقَائِلِ: «وَأَخَذُوا الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، ثَمَنَ الْمُثَمَّنِ الَّذِي ثَمَّنُوهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَعْطَوْهَا عَنْ حَقْلِ الْفَخَّارِيِّ، كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ».

الإشكالات هنا كثيرة، منها:

أ ـ يتّفق النقّاد أنّ اقتباس متّى ليس من سفر إرمياء. وقد اختلف علماء النصارى المحافظين بعد ذلك في تفسير الأمر على مذاهب، **منها:**

• (أريجن)[٣]: كتبَ في القرن الثالث أنّ أحد النسّاح قد أخطأ فوضع اسم (إرمياء) مكان (زكريا)، أو أنّ النصّ المحال إليه هو كتاب سريّ

---

(١) لي مارتن ماكدونالد Lee Martin McDonald: رئيس كليّة (Acadia Divinity)، وأستاذ دراسات العهد الجديد. من مؤلفاته: "The Biblical Canon".

(٢) Lee Martin McDonald, *Forgotten Scriptures: the selection and rejection of early religious writings* (Louisville, KY: Westminster John Knox Press, 2009), p.214

(٣) أريجن Origen (١٨٤ ـ ٢٥٣م): أحد آباء الكنيسة الأوائل. كتبَ في اللاهوت والفلسفة والنقد النصّيّ للكتاب المقدس. له عدد كبير من المؤلفات التفسيرية والدفاعيّة.

لـ(إرمياء) غير السفر القانوني[١].

• (يوسابيوس)[٢]: قال: إنّنا أمام خيارين، إمّا أنّه قد تم حذف النبوءة من سفر إرمياء بقصد خبيث، أو أنّ ناسخ الإنجيل قد أخطأ فكتب (إرمياء) مكان (زكريا)[٣].

• (جيروم): ذهب إلى أنّ النبوءة إمّا مأخوذة من سفر غير قانوني يُنسب إلى (إرمياء)[٤] أو أنّ النص مأخوذ بصورة غير دقيقة من سفر زكريا[٥].

• (أوغسطين)[٦]: خطّأ مؤلّف إنجيل متّى في نسبته النبوءة إلى سفر إرمياء[٧].

• (مارتن لوثر): قال في شرحه لسفر زكريا: إنّ هذا النص من سفر زكريا لا سفر إرمياء، وأنّ مؤلف إنجيل متّى قد أخطأ هنا، خاصة أنّ صاحب هذا الإنجيل غير دقيق في نقله للنصوص[٨].

ما سبق يؤكّد خطأ مؤلّف إنجيل متّى في نسبته الاقتباس إلى سفر إرمياء رغم أنّه سفر زكريا. وكلّ محاولة للخروج من هذا المأزق دون الاعتراف بخطأ مؤلف الإنجيل محض تدليس.

ب ـ جاء في زكريا ١١/١٣: «فَقَالَ لِي الرَّبُّ: «أَلْقِهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ، الثَّمَنَ الْكَرِيمَ الَّذِي ثَمَّنُونِي بِهِ». فَأَخَذْتُ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ وَأَلْقَيْتُهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ فِي بَيْتِ الرَّبِّ».

النص السابق لا يمتّ بأدنى صلة إلى قصّة خيانة (يهوذا الإسخريوطي)

---

(١) Origen, *Comm. ser. Matt.* 117.

(٢) يوسابيوس Eusebius (٢٦٠ ـ ٣٣٩م): أسقف القيصرية. أشهر مؤرّخي الكنيسة. نشر مؤلفات في مواضيع دينية مختلفة.

(٣) Eusebius, *Dem. Ev.* 10.4.13.

(٤) Jerome, *Comm. Matt.* 27: 10.

(٥) *Letters of St. Jerom to Pammachius on the Best Method of Translating*, 7.

(٦) أوغسطين Augustine (٣٥٤ ـ ٤٣٠): أحد قدّيسي الكنيسة وآبائها. فيلسوف ولاهوتي أثّرت كتابته بصورة عظيمة على الكنيسة الكاثوليكية. من أهم مؤلفاته «مدينة الله» و«الاعترافات».

(٧) Augustine, *Cons.* 3.29

(٨) Carl Friedrich Keil, *The Twelve Minor Prophets* Edinburgh: T. & T. Clark, 1868), 2/377.

للمسيح، ووضعه ثمن خيانته (ثلاثون من الفضة) في يد رؤساء الكهنة الذين اشتروا به حقل الفخّاري. الفارق في اللفظ والسياق بين النصّين واسع جدًّا كما فصّله الناقد (كراوفورد هـ. توي)[(١)][(٢)].

وقد لخّص (و. د. ديفيس) موقف النقّاد من صنيع مؤلّف إنجيل متّى بقوله: إنّه «خليط من سوء الاقتباس وخلط السياقات (ماكوبي، ص٤٥)، عَرَض لكلمات من العهد القديم دون نظرٍ إلى السياق الأصلي (من الأمثلة الأخرى: ٢/٢٣ و١٣/٣٥)، وقد فُرضت على أساس قصة خيالية. هنا نرى طريقة متّى المبالَغ فيها في الاستشهاد بالأسفار المقدسة (س. س. توري)، تعسّفه في إعادة صياغة الاستشهادات وجمعِها ليجعلها توافق أحداث أسفار العهد الجديد (ج. ب. ماير). أقلّ النقّاد لطفًا هو (بيير)، الصفحة ٥٢٧؛ إذ قال: «متّى شوّش الأمر بصورة بالغة»[(٣)].

العلم بأخبار الأسفار الدينية السابقة حجة لربانيّة القرآن، والجهل بأخبار الأسفار الدينية السابقة حجّة لنفي ربانية الأناجيل.

خلاصة النظر:

• أكّد القرآن مرّات كثيرة بصريح اللفظ أو بدلالة السياق أنّ أخبار الأنبياء السابقين والأمم السالفة الواردة في آياته حجّة على ربّانيّة هذا الكتاب لأنّه لا سبيل لنبيّ الإسلام ﷺ أن يعلم تفصيلها.

• أيقن أهل مكّة أنّه لا سبيل للعلم بالأخبار التاريخية التي أوردها القرآن من خلال الدراسة المباشرة من النصوص المقدّسة في مكّة.

---

(١) كراوفورد هـ. توي Crawford H. Toy (١٨٣٦ ـ ١٩١٩): ناقد كتابيّ. أستاذ اللغة العبرية واللغات الشرقية في (جامعة هارفارد).

(٢) Crawford H. Toy, The New Testament as Interpreter of the Old Testament, *The Old Testament Student*, Vol. 8, No. 4 (Dec., 1888), p. 127.

(٣) W. D. Davies, *A Critical and Exegetical Commentary on the Gospel According to Saint Matthew*, p.570.

• كلّ الشواهد التاريخيّة المباشرة والقرائن (غير المباشرة) تُجمع على إثبات أميّة نبيّ الإسلام ﷺ.

• أثبتت الدراسات التاريخيّة الجادة التي قام بها نصارى في الغرب والشرق أنّ العربيّة لم تعرف ترجمةً للكتاب المقدس قبل البعثة النبويّة.

• بعد امتناع الاطلاع المباشر على الكتاب المقدس بسبب غياب الترجمة العربية للكتاب المقدس وأميّة نبيّ الإسلام ﷺ، لم يبقَ غير القول: إنّ نبيّ الإسلام ﷺ قد أخذ خبر أهل الكتاب عن معلّم لقّنه تلك المعارف، لنفي ربّانية العلم بها.

• الاحتمالات الأربعة لوجود معلّم لنبيّ الإسلام ﷺ ضعيفة، لا تنهض لها حجّة.

• جهل مؤلفي الأناجيل بنصوص أسفار العهد القديم وتحريفهم لها معنى ولفظًا حجّة لنفي إلهامية أصحاب الأناجيل.

مراجع للتوسع:

محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم (الكويت: دار القلم، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).

محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن (الكويت: دار القلم، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

Crawford Howell Toy, *Quotations in the New Testament* (New York: Charles Scribner, 1884).

الفصل الخامس

دراسة تطبيقية للإعجاز الغيبي
قصة يوسف عليه السلام

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

امْتَحِنُوا كُلَّ شَيْءٍ. تَمَسَّكُوا بِالْحَسَنِ.

(١ تسالونيكي ٥/ ٢١ ـ الكتاب المقدس)

قصة النبي يوسف، بين خيارين.. أصالة أم اقتباس؟

يقول المسلم: القَصص القرآني برهان ناصع على ربّانيّة القرآن الكريم، والنظر التفصيلي في ذلك يملأ القلب قناعة أنّه من المحال أنّ نبيّ الإسلام ﷺ كان يزوّر من كيسه؛ إذ إنّ طبيعة القصص القرآني تمنع أن يكون قصصها نَسخًا من قصص الأوّلين؛ فهو براء من الأخطاء التاريخية والأساطير والتناقضات، بل هو نسيج وحده. ولا يملك بشر أن يأتي بمثله في القرن السابع الميلادي لأنّ البيئة ما كانت تتيح له أن يأتي ـ بعيدًا عن الإعجاز البلاغي والبياني ـ بمثل خبره.

ويقول المخالف: .. بل قصص القرآني مجرّد نسخ ساذج لأخبار اليهود والنصارى، دون إضافة ذات بال.. أساطير الأوّلين، بأخطائها وأوهامها. والنظر التفصيلي يؤكد بوضوح أنّ القرآن ينقل الأخبار دون تحقيق..

قلتُ: يشترك القرآن الكريم والتوراة في سرد خبر النبيّ (يوسف) عليه السلام

بتفصيل طويل النفس. ولما كان المنصّرون وعامة المستشرقين يرون أنّ الاقتباس القرآني من أسفار أهل الكتاب يَظهر أساسًا في مجال القصص باعتباره يتضمن من المعلومات والأخبار ما لا يُعلم إلا بالنقل أو الوحي الإلٰهي الذي ينفيه القوم عن القرآن؛ فإننا سنعرض في الصفحات التاليّة مقارنة مباشرة بين قصّة (يوسف) عليه السلام في القرآن الكريم وما يوازيها في سفر التكوين اليهودي النصراني (الفصول٣٧، ٣٩ ـ ٥٠) كمثال حي نابض بالتفاصيل ودقائق المسائل السرديّة والتاريخيّة.

لن نجول بعيدًا عن نصوص الفريقين، وإنّما سنناقش النصوص كما وردت بلفظها، وننظر في أحداثها وأقوال أبطالها؛ لنتبيّن الفارق بين الروايتين، ومدى الإمكانية العقليّة والتاريخيّة للاقتباس..

وتكمن أهميّة اختيار قصّة يوسف في أنها جاءت بتفصيل شديد في القرآن الكريم، بل واستوعبت سورة قرآنيّة طويلة، كما أنّ المنصّرين قد جعلوها عمدة دعواهم في أمر الاقتباس.

وقد صدرت عدّة دراسات استشراقيّة في دراسة سورة يوسف ومقارنتها بما جاء في التوراة وبقيّة الكتابات اليهوديّة القديمة، لكن لم تكن عامة هذه الأبحاث خالصة لهذا الموضوع، وإنما صدرت أساسًا ضمن مواضيع أكبر. وصدرت في المقابل بعض الدراسات الخاصة بهذا الموضوع عينًا، **ومنها**:

Shalom Goldman, *The Joseph Story in Jewish and Islamic Lore*

وهي أطروحة دكتوراه قدّمت في جامعة نيويورك، سنة ١٩٨٦م

Marc Steven Bernstein, *The Story of our Master Joseph: Intertextuality in Judaism and Islam.*

وهي أطروحة دكتوراه قدّمت في جامعة كالفورنيا، سنة ١٩٩٢م

Marilyn R. Waldman, New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an, in *The Muslim World*, January 1985, V. 75, N.1

وهو مقال قيّم في إثبات الاختلافات الكبيرة بين النصّ القرآني والنص

الكتابي في سرد قصّة (يوسف) عليه السلام؛ بما ينفي أن تكون القصّة القرآنيّة مأخوذة من الكتاب المقدس.

وحتى نيسّر على القارئ تبيّن الفرادة القرآنيّة ـ إن وجدت ـ فسنقارن الصياغة القرآنية والتوراتية لقصّة (يوسف) عليه السلام من **الأوجه التالية**:

- الاختلافات في تفاصيل القصّة.
- تصحيح القرآن الكريم لأخطاء الرواية التوراتيّة.
- تلافي القرآن الكريم لأخطاء الرواية التوراتيّة.
- خلو الرواية القرآنيّة من تناقضات الرواية التوراتيّة.
- ارتباط الرواية القرآنيّة بحقيقتي التوحيد وعصمة النبوّة، على خلاف الرواية التوراتيّة.
- موافقة القرآن الكريم للمنطق الروائي المقبول، على خلاف الرواية التوراتيّة.
- الفارق في فلسفة القصّة وعظتها بين الرواية القرآنيّة والرواية التوراتيّة(١).

فهل ستشهد المقارنة لبشريّة القرآن بنقله الساذج من التوراة، مع تغييرات هامشيّة توافق مزاج الدين الجديد، أم هي مفارقة جوهريّة في العقيدة، والمنهج الروائي، والتحقيق التاريخي؟

قبل أن ننطلق في تتبّع الاختلافات، علينا أن ننتبه إلى **مسألتين جوهريتين**:

الأولى: إعجاز القرآن في ذكر خبر السابقين، هو أساسًا في المطابقة لا المخالفة؛ فإنّ من أعظم أوجه استدلال القرآن لنفسه بالإعجاز أنّه يذكر خبر الأوّلين بما يشهد أهل الكتاب مطابقته أسفارهم المقدّسة رغم علمهم بأميّة نبي الإسلام ﷺ، وهو ما يلزمنا أن ندرس كلّ مخالفة قرآنية للرواية التوراتية بعناية خاصة؛ إذ لا مخالفة إلّا لداعٍ خاص؛ فالأصل هو الموافقة.

---

(١) من أهم المصادر التي أفدت منها في تعقّب هذه الاختلافات ما كتبه د. (محمد بيومي مهران) في كتابه: دراسات تاريخية في القرآن الكريم.

الثانيـة: يلزم من القول ببشريّة القرآن في مقامنا هذا القولُ: إنّ نبي الإسلام قد درس الرواية التوراتية لقصة يوسف، وتمكّن من معرفة تفاصيلها، بدراسة أو مدارسة، ثم انعزل عن الناس، وفكّر وقدّر ودبّر، ثمّ زوّر في نفسه الرواية الجديدة بصياغتها البيانية وتفصيلها التاريخي، بعد تطوير وتهذيب، ثم أعلنها لأصحابه مرة واحدة، بمكر وقصد.. وهذا أمر على غير المسلم أن يصالحه مع ما عرفه من خُلق نبيّ الإسلام ﷺ كما سبق بيانه..

موافقة القرآن للتوراةَ تفاصيل قصّة النبي (يوسف) عليه السلام ومخالفته لها تفاصيل أخرى في ذات القصّة حجة لربانية القرآن إذا فشل التفسير المادي التآمري في كشف أصل الموافقة والمخالفة.

خمسون وجهًا للتأمّل!

نزلت سورة يوسف مرّة واحدة، وصاغت قصّة النبيّ الكريم ومحنة خيانة القريب واستعباد الغريب وشرَك النساء في قالب بياني فريد.. فهل يسمح إنصافك لخيالك أن ينسج صورة عجيبة لنبيّ الإسلام ﷺ وهو يزوّر الآيات في نفسه على مهلٍ بعد أن تصفّح القصّة التوراتيّة على مكثٍ؛ فحذف، وأضاف، وقدّم، وأخّر، ورتّب الأمر.. إنّك لن تنتهي إلى قرار الإدانة حتّى تجزم بقطع وتحسم بلا تردّد أنّ نبيّ الإسلام ﷺ مزوّر عتيّ في الخيانة.. وقد علمت في خلق نبيّ الإسلام أنّ القريب واللصيق والبعيد الشانئ قد اتّفقوا على براءته من تلك التهمة..

ومحنة الشاك حَريّة بأن تتعاظم إذا علم دقيق الفوارق بين قصّتي القرآن والتوراة بما يقتضي أن تكون القصّة القرآنيّة التي حافظت على إعجازها اللغوي من مفتتحها إلى منتهاها قد صيغت بقلم روائي لا يُضاهى، ولاهوتي لا يُدانى، وتأريخي يعلم خبايا التاريخ البائد..!

هنا خمسون خلافًا ينطق بالفارق بين القصّتين؛ فلا تُسلم نفسك لدعوى الاقتباس حتى تنتهي بتفسير ماديّ سهل للفارق بينهما.. وإلّا.. فأذعن لظاهر الإعجاز، وأنخ عند باب السلامة من وسواس الريبة!

أوّلًا: تبدو قصة يوسف التوراتية مجرّد فصول في رواية كبرى، تتتابع أحداثها وتتلاحق أنفاسها دون أن تصعد بالقارئ إلى الحقيقة العليا والرسالة الكبرى التي أفنى الأنبياء أعمارهم في الدعوة إليها؛ ألا وهي حقيقة التوحيد ونبذ الشرك.. فغاية القصة التوراتيّة قد اختُزلت في انتصار طفل مظلوم على إخوته الذين جاروا عليه وقلبوا له مِجنَّ الأخوّة..

وفي المقابل، يشير القرآن بجلاء إلى أنّ التوحيد هو محور حياة الأنبياء وجوهر دعوتهم ووقود حركتهم؛ إذ تُظهر الآيات القرآنيّة (يوسف) عليه السلام وهو في قلب المحنة وأتون محرقة السجن، ينصرف بمجامع قلبه إلى السجينين اللذين كانا معه، بعدما كسب قلبيهما بتفسيره رؤيا كل منهما، إلى دعوتهما إلى توحيد ربّ العبيد بأسلوب القدوة الحيّة والمثال النابض، لا بالكلمات الجامدة المنمّقة؛ فقال:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠].

ثانيًا: طولُ الرواية التوراتيّة[١] لقصة (يوسف)، مع كثرة الأسماء والتفصيل الروائي، جعل جانب الحكمة والموعظة فيها باهتًا؛ فقد سلب السرد التاريخي التفصيلي من الرواية بريق العبرة.. في حين يَظهر أمر الوعظ والحكمة بجلاء في النصّ القرآني من خلال الاعتناء بالإشارة إلى أحداث معينة مخصوصة، واقتناص مقاطع قصيرة من السيرة الطويلة، وغياب الكلف بسرد الأسماء والأماكن والأزمنة.. وقد جاء التنبيه المباشر على هذه الحقيقة في عدد من آيات سورة يوسف:

---

(١) يبلغ طول الرواية التوراتيّة قرابة ثلاثة أضعاف القصّة القرآنيّة.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣]، ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف: ٧].

ثالثًا: غاب ذكر الآخرة بصورة تامة في القصّة التوراتيّة، وكأنّ الدنيا هي دار العمل والجزاء في نفس الآن، ولا عاقبة يُردّ إليها المرء، ولا دار يحطّ عندها الرحل بعد محنة الابتلاء على الأرض.. في حين يتفرّد القرآن الكريم بذكر الآخرة وأنها مآل كلّ حيّ عامل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧].

رابعًا: تظهر التوراة (يوسف) عليه السلام وله من العمر سبع عشرة سنة يرتكب فعلًا قبيحًا مؤذيًا لإخوته وموغرًا لصدر أبيهم عليهم؛ وهو أنّه كان ينقل سيّئ أخبارهم إلى أبيهم: «وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم»[(١)]، وقد دفع هذا الأمر بعض الأحبار إلى أن يقولوا في تفاسيرهم كلامًا شديدًا في ذمّ (يوسف)![(٢)].. في حين تغيب هذه الصورة تمامًا عن القرآن الكريم؛ وفي ذلك تأكيد لارتباط العصمة بالنبوة، والكمال الأخلاقي بالتبليغ عن ربّ العالمين؛ إذ النبوة في أصلها اجتباء ربّاني لمطهَّرٍ بشري.

خامسًا: تذكر التوراة أنّ (يعقوب) هو الذي طلب من (يوسف) أن يذهب إلى إخوته الذين كانوا يرعون أغنامهم عند شكيم[(٣)] ـ والتي يحتمل أنها تل بلاطة شرق نابلس الحالية ـ بينما يقرّر القرآن الكريم أن إخوة (يوسف) هم الذين طلبوا من أبيهم أن يذهب (يوسف) معهم؛ لأنّ أباه كان يخشى عليه من حقدهم، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا

---

(١) تكوين ٣٧/ ٢.

(٢) Shalom Goldman, *The Joseph Story in Jewish and Islamic Lore*, p. 86.

(٣) تكوين ٣٧/ ١٢ ـ ١٦.

غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: ١١، ١٢]. فالنصّ القرآني متساوق مع فطنة الأب الحريص على ابنه، في حين أنّ النص التوراتي يعارض ما سبق من الرواية، كما يصادم رجاحة عقل الأب الرؤوم!

سادسًا: يفهم من سفر التكوين أن (يهوذا) هو صاحب الكلمة في تقرير طريقة التخلّص من (يوسف) عليه السلام[(١)]؛ فقد اقترح على إخوته أن يبيعوا (يوسف) للإسماعيليين بعشرين مثقالًا، في حين نرى في نفس السفر[(٢)] أنّ (رأوبين) هو صاحب الصوت الأعلى الذي اقترح إلقاءه في الجب ووافق الجميع على ذلك، وقد أخذه بعد ذلك التجّار المديانيون[(٣)].

والأمر كذلك بالنسبة إلى بيعه إلى (فوطيفار)؛ ففي أوّل القصة أنّ البائعين هم قوم من مدين[(٤)]، بينما هم في آخرها من الإسماعيليين[(٥)]. وقد أقرّ بهذا التناقض التعليق الكاثوليكي على ترجمة (The New American Bible) عند التعليق على ٣٧/ ٢١ ـ ٣٦؛ وقرّر أنّ تكوين ٣٧/ ٢٥ ـ ٢٨ يعود إلى (المصدر اليَهَوِي) (وهو الذي ذكر أن (يهوذا) قد اقترح بيعه للإسماعيليين) في حين يعود تكوين ٣٧/ ٢١ ـ ٢٤ وتكوين ٣٧/ ٢٨ ـ ٣٦ إلى المصدر (الإلوهيمي).

وليس في القرآن الكريم من هذا التناقض شيء!

سابعًا: تظهر التوراة (يعقوب) عليه السلام وهو يصدّق كذب أبنائه بعد تآمرهم على أخيهم، ويأسه عقب المؤامرة: «وقال قميص ابني وحش رديء أكله، افترس يوسف افتراسًا فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحًا على حقويه، وناح على ابنه أيامًا كثيرة»[(٦)].. في حين يشير القرآن الكريم إلى ارتياب (يعقوب) في بنيه

---

(١) ٣٧/ ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) ٣٧/ ٢١ ـ ٢٤.

(٣) انظر: تكوين ٣٧/ ٢٨.

(٤) تكوين ٣٧/ ٣٦.

(٥) تكوين ٣٩/ ١.

(٦) تكوين ٣٧/ ٣٣ ـ ٣٤.

عقب تنفيذ المؤامرة: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٧، ١٨]. . . وهكذا هو قلب المؤمن إذا عمر بالإيمان وأشرقت فيه أنوار الصفاء؛ فهو يستشف بقلبه الصافي بعض ما لا تدركه الحواس، وذاك من كرم الربّ سبحانه يهبه لمن يشاء.

ثامنًا: تذكر التوراة أن أبناء (يعقوب) قد أحضروا قميص أخيهم إلى أبيهم وعليه دم، ولم يذكروا كيف قتل[1]، في حين يشير القرآن إلى أنّ أبناء (يعقوب) قد ادّعوا صراحة أنّ الذئب قد قتل أخاهم[2]، وهذا أليق بحال إخوة يوسف في اعتذارهم لأنفسهم من الاقتصار على تقديم قميص أخيهم ملوثًا بالدم، خاصة أنّ تلك الأرض كانت فيها ذئاب سارحة؛ فقد قال لهم أبوهم قبل خروجهم (بيوسف): ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف: ١٣].

تاسعًا: تذكر التوراة أنّ الجُبّ الذي أُلقِيَ فيه (يوسف) هو بئر فارغة ليس فيها ماء، أمّا القرآن فيشير إلى عكس ذلك: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ﴾ [يوسف: ١٩][3]. وهذا هو المنطقي؛ إذ إنّ المسافرين يرِدُون الآبار للتزوّد بالماء، ولا يقربون الآبار الجافة!

عاشرًا: تذكر التوراة أنّ (يوسف) قد بيع إلى القافلة المارة من طرف إخوته بعشرين قطعة من الفضة، ويذكر عالم المصريات (جورج إبرز)[4] أنّ هذا المبلغ هو الثمن المفترض للعبيد في ذاك الزمان[5]، في حين يقرّر القرآن

---

(١) تكوين ٣٧/ ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) سورة يوسف/ الآيات (١٣ ـ ١٤، ١٧).

(٣) تكوين ٣٧/ ٢٤.

(٤) جورج إبرز Georg Ebers (١٨٣٧م ـ ١٨٩٨م): عالم مصريات ألماني. درّس اللغة المصرية القديمة والتاريخ المصري في جامعة ليبزغ.

(٥) Georg Ebers, *Ägypten und die Bücher Moses*, p. 293. Quoted by George Spurrell, *Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis* (Oxford: Clarendon Press, 1896), p.276.

أن ثمن بيع (يوسف) كان قليلًا، وأنّ المشترين كانوا فيه من الزاهدين: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: ٢٠]، وهذا هو الحق؛ إذ إنّ إخوة (يوسف) هم الذين كانوا حريصين على بيع أخيهم، وهذا الحرص من البائع أدعى لأن يترك الجدال في الثمن، كما أنّ صغر سن الإخوة داع آخر أن يسعى المشترون إلى دفع مبلغ زهيد لا كالذي يدفع إلى التجّار، ثمّ إنّ (يوسف) كان صبيًا صغيرًا غير جَلِد؛ فلا يدفع في من هو في مثل سنّه المبلغ الذي يدفع في الشاب الجَلِد.

الحادي عشر: تذكر التوراة أنّ (يوسف) قد نسي أباه وإخوته لما كان في مصر[1]، وفي ذلك قطع لحبل الأمل في لقياهم.. في حين يقول القرآن الكريم: إنّ الله جلّ وعلا قد أوحى إلى (يوسف) منذ أن بدأت المحنة بإلقائه في الجب، أنّه سيلقى إخوته مرّة أخرى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: ١٥]. لقد كان الأمل في النجاة ورجاء رحمة الله في قلب العبد المخلَص (يوسف) ثابتًا مستقرًا. ولذلك قال (يوسف) في آخر القصّة: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

الثاني عشر: ذكرت التوراة أنّ من اشترى يوسف هو «فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة»[2]. وهذا ادّعاء مخالف لطبائع الأمور؛ إذ كيف يكون (فوطيفار) خصي فرعون، ثم هو في نفس الوقت (١) رئيس الشرطة المصريّة (٢) وزوج إحدى جميلات مصر!؟ بل وتجعل التوراة حاشية القصر كلها من الخصيان، ومنهم رئيس السقاة ورئيس الخبازين!؟[3] يبدو أنّ أثر السبي البابلي والبيئة التي عاش فيها اليهود هناك قد أثّرا على تصورات مؤلفي التوراة لأحداث ذاك الزمان..

---

(١) تكوين ٥١/٤١.
(٢) تكوين ١/٣٩.
(٣) تكوين ٢/٤٠.

وقد خلا القرآن من هذا الخبط التوراتي، فقد قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف: ٢١]؛ مما يوحي في ذهن القارئ أنّ الرجل كان عقيمًا لا ولد له.

الثالث عشر: تظهر التوراة نبيّ الله (يعقوب) وهو في أهون حال، وأضعف إيمان، ومنتهى التسخّط على قضاء الله وقدره؛ إذ ما إن تدهمه المصيبة حتّى يخرّ صريع اليأس ويطفح قلبه ولسانه بالتبرّم والاعتراض على أمر الله.. فهاهو سفر التكوين يقول: إنّ (يعقوب) النبي عندما جيء له بقميص ابنه: «مزّق ثيابه ووضع مسحًا على حقويه، وناح على ابنه أيامًا كثيرة. فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزّوه؛ فأبى أن يتعزّى، وقال: إنّي أنزل إلى ابني نائحًا الى الهاوية وبكى عليه أبوه»[(١)].

أمّا (يعقوب) في القرآن؛ فهو قدوة لكلّ متصبّر على دكدكات الأيام وسهامها الجارحة؛ فأنت لا تراه في مواقف الشدّة إلا منيبًا إلى ربّه، صلبًا لا ينحني أمام عصف الجائحة؛ فهو القائل عندما فقد ابنه الأوّل: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: ١٨]، وهو القائل عندما فقد الابن الثاني: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف: ٨٣]، لكنّه في التوراة يبدو في منتهى الوهن الإيماني حتى قبل وقوع الكارثة؛ إذ يقول: «إِنْ أَصَابَتْهُ (يوسف) أَذِيَّةٌ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَذْهَبُونَ فِيهَا تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ»[(٢)].

وتقول الناقدة (مارلين روبنسون ولدمان)[(٣)]: «يختلف دور يعقوب في القرآن عنه في التوراة. يُعتبر يعقوب في القرآن المعين ليوسف والناصح له، وقد ظهرت بشريّته مع حسن تصرّفه كعلامة على اتصاله بالله. وقد استطاع

---

(١) التكوين ٣٧/ ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) تكوين ٤٢/٣٨.

(٣) مارلين روبنسون ولدمان (١٩٤٣ ـ ١٩٩٦م): مستشرقة أمريكيّة يهوديّة. كانت عضوًا في عدة جمعيات علميّة كـ(الأكاديميّة الأمريكيّة للدين) و(الجمعيّة الأمريكيّة لدراسة الدين) و(المؤسسة الأمريكيّة للدراسات الإيرانيّة).

الآخرون أن يفهموا علامات الله من خلال حضوره هو وقدرته على قراءة هذه العلامات. يعقوب في الكتاب المقدس ليس هو رسول الله، ولا الناصح البصير ليوسف، وإنّما **يبدو بصورة أكبر كضحيّة للظروف**، معبرًا عن هذه الحال من خلال واقعه النفسي والعاطفي»[1].

الرابع عشر: يكشف القرآن أنّه لما أراد أبناء (يعقوب) ـ إثر عودتهم من مصر ـ أن يأخذوا أخاهم الذي بقي مع أبيهم، في رحلة ثانية، كان (يعقوب) عليه السلام مستعصمًا بحبل التوكّل على الله جلّ وعلا، ثم آمرًا لهم أن يتخذوا الأسباب المادية: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾...﴾ ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف: ٦٣ ـ ٦٧]، في حين تبدو الصورة في التوراة عكس ذلك: «فقال لهم أبوهم: «إن كان لا بدّ من ذلك فافعلوا. وخذوا معكم هدية للرجل: واملأوا أوعيتكم من خير جنى الأرض وقليلًا من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن والفستق واللوز. وخذوا معكم فضة أخرى، والفضّة المردودة في أفواه عدالكم وأعيدوها. فلعل في الأمر سهوًا. واستصحبوا معكم أيضًا أخاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل. ولينعم عليكم الله القدير بالرحمة لدى الرجل؛ فيطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين أيضًا. وأنا إن ثكلتهما، أكون قد ثكلتهما»[2]؛ (فيعقوب) هنا متعلّق بالأسباب الماديّة غاية التعلّق؛ حتى إنّه يفصّل في أمر الهديّة غاية التفصيل، ثم يعقب ذلك بكليمات قليلات رجاء أن يجعل الله في قلب هذا الرجل (يوسف) الرحمة، ولاحِظ أنّ

---

(١) Marilyn R. Waldman, *'New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an,' The Muslim World, January 1985,* V. 75, N.1, p.6.

(٢) تكوين ٤٣/١١ ـ ١٤.

الرحمة المرجوة هنا هي من (يوسف)، أمّا الإله فعليه أن (يبذل) الأسباب لذلك!

الخامس عشر: يبدو (يعقوب) عليه السلام في التوراة فاقدًا للأمل، خائر العزيمة مع ما أصابه من مصاب في ابنه: «قد أثكلتموني أولادي. يوسف مفقود، وشمعون مفقود، وها أنتم تأخذون بنيامين بعيدًا! كل هذه الدواهي حلّت بي!»[1]، «لن يذهب ابني معكم؛ فقد مات أخوه، وهو وحده باق. فإن ناله مكروه في الطريق التي تذهبون فيها؛ فإنكم تنزلون شيبتي بحزن إلى قبري»[2]... في حين يظهر القرآن يعقوب عليه السلام مترعًا بالأمل رغم وخز الألم؛ لم ييأس من رَوح الله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧].

السادس عشر: يظهر القرآن (يوسف) عليه السلام من أوّل القصة إلى آخرها، وهو يتقلب بين أطباق المحن، صابرًا، ثابت الجنان.. فقد تصبّر (يوسف) عليه السلام بكلّ أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فكان في حركات قلبه وجوارحه مستسلمًا لأمر الله.. إنّها صورة مشبعة بالتوهّج الإيماني بما يتناسب مع أمر نبيّ مجتبى لتبليغ رسالة من ربّ العالمين..

ويعتني القرآن في خاتمة القصة ببيان الموعظة الكبرى، هي زاد المسافر على بساط المحن في هذه الدنيا؛ وهي أنّ الصبر عاقبته أحلى من الشهد وإن كان طريقه قد قُدَّ من الشوك.. وأعلى درجات الصبر، (الصبر الجميل) حيث لا يبوح المبتلى بشكواه بل يسلم أمره ونفسه إلى ربّه.

وتغيب معالم الموعظة ـ أو تكاد ـ في الرواية التوراتية، لتتحوّل إلى أكوام من أحداث قديمة ساكنة، وتبدو صورة (يوسف) عليه السلام فيها غائمة الملامح الإيمانيّة؛ يكاد يقصر أمرها على الظهور الروائي دون التألّق الإيماني.

---

(١) تكوين ٤٢/٣٦.

(٢) تكوين ٤٢/٣٨.

السابع عشر: تذكر التوراة أنّ امرأة العزيز قد راودت (يوسف) عن نفسه؛ فلما فرّ منها وترك ثوبه «نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا، وَكَلَّمَتهُمْ قَائِلَةً: «انْظُرُوا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا بِرَجُل عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجعَ مَعِي؛ فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ». (تكوين ٣٩/ ١٤).

تقول امرأة العزيز: «ليراودنا» (לְצַחֶק בָּנוּ) [لتَسحِق بانو] حيث الضمير المتصل في صيغة الجمع لا المفرد، وكما قال الناقد (جورج سبورل) في تعليقه على النص العبري لسفر التكوين؛ فإنّ امرأة العزيز أرادت هنا أن تقول: إن (يوسف) راود جميع نساء البيت[1].. وهذا مشهد منكر في سياق القصة؛ إذ إنّ امرأة العزيز بهذا القول تفتح على نفسها باب الريبة، وتمنح زوجها فرصة أن يسأل النساء في البيت عن صحّة دعواها! كما أنّ نفس المقطع من القصّة مضطرب؛ إذ يزعم مرّة أنّه لم يكن أحد في البيت لما اختلت زوجة العزيز (بيوسف)[2]، ويزعم في أخرى أنّ امرأة العزيز قد صرخت مستنجدة بمن في البيت[3].

أمّا القرآن الكريم فيتجاوز هذه التناقضات بتقريره أنّ امرأة العزيز لما كانت تراود (يوسف) عن نفسه، دخل العزيز؛ فقامت إليه حتى تدفع التهمة عن نفسها باتهام (يوسف) عليه السلام بإرادة الفاحشة بها، مبادرة زوجها بسؤال مباغت عن عقوبة من يؤذي أهله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: ٢٥].

الثامن عشر: القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أظهر براءة (يوسف) على يد شاهد من أهل امرأة العزيز نفسها، وذلك حين قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ

(١) See George Spurrell, *Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis*, p.284.

(٢) انظر: تكوين ٣٩/ ١١.

(٣) انظر: تكوين ٣٩/ ١٤.

قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: ٢٦-٢٨]، كما شهد النسوة اللائي قطّعن أيديهن، ببراءته، بقولهن: ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، بينما لم تذهب التوراة إلى أكثر من أنّ العزيز حين سمع بالقصة لم يزد عن «أن غضبه حمى فأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن»[1].

التاسع عشر: يظهر القرآن (يوسف) عليه السلام في صورة المتوكّل على ربّه، المستجير به في كلّ أمره، والمنيب إليه في كلّ شأنه.. فهو يقول في تذلّل وخضوع واسترحام لمن بيده الأمر، بعد أن أحاطت بأقطار نفسه فتنة المرأة الراغبة فيه والمتسلّطة عليه أثناء محنة العبوديّة لزوجها: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].. وهذا منتهى الإخلاص في الاستجارة بالقويّ العزيز. وقد استجاب له من بيده الأمر: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٤]. أمّا التوراة؛ فتغفل عن إبراز هذه المنقبة العظيمة، وكأنها قد خضعت لدفق الأحداث؛ فلا تملك أن تقف لحظات للعبرة والعظة..

العشرون: القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن (يوسف) عليه السلام قد فضّل السجن على أن يقترف الفاحشة، وذلك حين خُيّر بين أن تنال المرأة منه ما تريد، أو أن تفتّح له أبواب السجن على مصراعيها لتبتلع أزهى سنوات عمره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

الواحد والعشرون: أبرز القرآن براءة (يوسف) في جلاء، وتوقف لبعض الآيات لإظهار ذلك ولصرف الظنون الفاسدة عن هذا النبيّ الطاهر، وهو ما لم تسع التوراة إلى الاسترسال في بيانه، وكأنّ براءة نبيّ يحمل إلى الناس رسالة الطهر بين قومه، ليست بذات بال..

---

(١) تكوين ٣٩/١٩ ـ ٢٠.

وقد انفرد القرآن دون التوراة بذكر اعتراف امرأة العزيز ببراءة الرجل الذي غمزته في عرضه أمام الناس: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٥١، ٥٢].. وفي تصريح امرأة العزيز أيضًا ذكرى للمعرضين عن سبل السلام، وأنّ التوبة لا تغلق أبوابها، ولو كانت من الافتراء على نبيّ وإذايته بالسجن سنين عددًا..

الثاني والعشرون: قالت الناقدة (مارلين ر. ولدمان): «إنّ أوضح حجّة للتوجّه المختلف للقرآن، هو دور القصّة الداخليّة (sub-plot) لزوجة السيّد في القصّة ككل، وما تكشفه من شخصيّة يوسف كرسول. تظهر هذه الحادثة أيضًا مخالفة القرآن الهائلة للرواية الكتابيّة، وتبيّن كيف أنّ القرآن يستعمل بطريقة مختلفة المادة المتاحة، مهما كان مصدرها. كنتيجة لما يظهره القرآن من استعمال لهذه القصة الداخليّة؛ يظهر يوسف أكثر اعتمادًا على الله من اعتماده على خطته الخاصة... تُظهر هذه القصّة في القرآن يوسف وهو ينقذ غيره (الزوجة)، قبل إنقاذ نفسه، وهي بذلك تظهره على أنّه ـ بصورة أبلغ ـ أداة لله»[١].

الثالث والعشرون: جاء في وصف التوراة لحلم حاكم مصر: «ثم رأى سبع سنابل عجفاء قد لفحتها الريح الشرقية نابتة وراءها»[٢]. ذكر النقّاد أنّ الريح التي تهب في مصر فتجفف الثمر، هي رياح صحراوية جنوبيّة[٣]، أمّا الرياح الشرقيّة فهي التي في فلسطين. ويكشف هذا الخطأ جهل من أضاف هذا النص بطبيعة بلاد مصر، وقد قال الناقد (جورج سبورل): إنّ الراوي هنا قد أشار إلى الريح المدمّرة في فلسطين (هوشع ١٣/ ١٥، يونان ٤/ ٨، حزقيال ١٧/ ١٠)[٤].

---

(١) Marilyn R. Waldman, New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an, in *The Muslim World*, January 1985, V. 75, N.1, pp.9 - 10.

(٢) تكوين ٤١/ ٦.

(٣) Gordon Wenham, *Word Biblical Commentary*, Volume 2: *Genesis 16 - 50* (Dallas, Texas: Word Books, 1998, CD edition).

(٤) George Spurrell, *Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis*, p.291.

ولم يتابع القرآن الكريم هنا التوراة في خطئها العلمي.

الرابع والعشرون: تذهب التوراة إلى أن فرعون قد أرسل إلى (يوسف) في السجن من يستدعيه لتأويل رؤياه «فأسرعوا به من السجن؛ فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون»، وفسّر له حلمه، ثم اقترح عليه أن يختار رجلًا بصيرًا وحكيمًا ليجعله على أرض مصر[1].. وتبدو الصورة في القرآن الكريم[2] على غير ذلك؛ فصاحب (يوسف) الذي نجا من السجن هو الذي أشار على الملك أن يرسله إلى الصِدّيق ليعرف منه تأويل رؤيا الملك، ولم يذهب (يوسف) إلى الملك، وإنما فسّر الحلم، بل وأشار بالحل الذي يمكّن البلاد من اجتياز هذه المحنة، وبشّر بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وهو ما يزال بعد سجينًا[3].

الخامس والعشرون: القرآن وحده هو الذي ذكر أنّ (يوسف) بعد أن فسر الحلم لملك مصر، ورسم له الطريق الصحيح للخروج من الأزمة بسلام، رفض في إباء وشمم أن يقبل المنصب الخطير الذي عرض عليه، حتى يتحقق الملك ورجاله ـ بل والناس جميعًا ـ من براءته ونزاهة عرضه، مما نسب إليه بشأن امرأة العزيز، ذاك الذي كان سببًا في أن يلبث في السجن بضع سنين، ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠﴾ [يوسف: ٥٠]. ولما علم الملك حقيقة الأمر سرّ به، وأخرجه من السجن، عندئذ تقدّم الصِّدِّيق في ثقة وثبات، ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: ٥٥]، وهكذا يتحمل (يوسف) المسؤولية كاملة في صدق وشجاعة، وينجح آخر الأمر في أن يرسي السفينة على مرفأ الأمن والسلامة، والأمر عكس ذلك تمامًا في التوراة؛ فما أن يفسر الصدّيق الحلم للملك، وما أن يعرض الملك الأمر عليه، حتى يقبله فورًا[4].

---

(١) تكوين ٤١/ ١٤ ـ ٣٦.

(٢) سورة يوسف/ الآيات (٤٥ ـ ٤٨).

(٣) سورة يوسف/ الآية (٤٩).

(٤) تكوين ٤١/ ٣٧ ـ ٤٦.

السادس والعشرون: قالت الناقدة (مارلين ر. ولدمان) في الفارق بين القصّة القرآنيّة والأخرى الكتابيّة فيما يتعلّق بعمل مشيئة الله سبحانه في صناعة الأحداث وتحريكها: «الله حاضر حضورًا تامًّا في الرواية (القرآنيّة)؛ وبذلك يتأكد حضوره الكوني الكليّ. لما وُضع يوسف في الجب على يد إخوته، كشف الله له أنه سينبّئهم في يوم ما بما فعلوه. حتّى غيرة الإخوة بَدَت على أنّها علامة لأمر ما. لما قدّم الإخوة دليلًا مزوّرًا لما اقترفوه، استراب أبوهم في أمرهم ووضع ثقته في الله، قائلًا لهم إنّ الشياطين قد أغوتهم. المسافرون الذين وجدوا يوسف، حاولوا إخفاءه، لكن القرآن يذكّرنا أنّ الله يعلم ما يفعلون. يُذَكِّر الله السامع مرّة أخرى ـ لما استقرّ يوسف في بيت مشتريه ـ أنّه قد وضع يوسف في ذاك المكان وسيجعله بعد ذلك من المفلحين تبعًا لإرادته»[1].

السابع والعشرون: جاء في التوراة أنه لما حصلت المجاعة لسبع سنوات: «جاءت كل الأرض إلى مصر إلى يوسف لتشتري قمحًا لأنّ الجوع كان شديدًا في كل الأرض»[2]. وهي دعوى باطلة علميًّا وتاريخيًّا..

أمّا علميًّا فجليّ أنّ المؤلف ما كان يعرف أنّ مساحة اليابسة أكبر مما في ذهنه، ومن غير المعقول أن يسافر الناس من أقصى أوروبا أو أحد قطبي الأرض إلى مصر للحصول على طعام في أيام مجاعة؛ إذ فضلًا عن عدم وجود وسائل تواصل لمعرفة تخزين مصر للمؤونة أيام المسغبة؛ فإنّ الأقوام الذين اجتاحتهم المجاعة لا يمكنهم أن يسافروا شهورًا للحصول على الطعام من مصر لأنهم هم أصلًا لا يملكون مؤنة الرحيل شهورًا.!

ومن الناحية التاريخيّة، لا يثبت قطعًا أنّ الأرض كلها قد تعرضت للمجاعة في زمن (يوسف) عليه السلام.. ولم يقع القرآن ـ في المقابل ـ في هذا الخطأ التاريخي.

---

(١) Marilyn R. Waldman, New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an, p.11.

(٢) تكوين ٤١/٥٧.

الثامن والعشرون: جاء في التوراة: «حدثت مجاعة في جميع البلدان»[1]، لكنّ التوراة أضافت أنّ (يعقوب) قد قال لأبنائه: «خذوا معكم هدية للرجل: واملأوا أوعيتكم من خير جنى الأرض وقليلًا من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن والفستق واللوز»[2]، بما يدلّ على أنّ المجاعة لم تصبهم، في حين أظهر النص القرآني أنّ عائلة (يعقوب) كانت شبه معدمة: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: ٨٨] فالإخوة في ضيق من الحال، وبضاعتهم مزجاة، والمزجي هو كلّ قليل رديء. قال (الزمخشري): «مزجاة: مدفوعة يدفعها كل تاجر؛ رغبة عنها واحتقارًا لها، من أزجيته إذا دفعته وطردته»[3].

التاسع والعشرين: جاء في التوراة أنّه لما ردّ (يوسف) إخوته إلى مصر، وردّ إليهم ما دفعوه إليه، دون أن يعلموا، اكتشف واحد من الإخوة هذا الأمر قبل الوصول إلى أبيهم (يعقوب): «وحين فتح أحدهم عدله في الخان ليعلف حماره، لمح فضته لأنها كانت موضوعة في فم العدل؛ فقال لإخوته: «لقد رُدّت إلي فضتي، انظروا ها هي في عدلي». فغاصت قلوبهم، وتطلع بعضهم إلى بعض مرتعدين وقالوا: «ما هذا الذي فعله الله بنا؟»»[4]، غير أننا نقرأ بعد ذلك أنّ الإخوة جميعًا قد فوجئوا بالأمر عندما عادوا إلى أبيهم: «وإذ شرعوا في تفريغ عدالهم وجد كل واحد منهم فضته في عدله، وما إن رأوا هم وأبوهم ذلك حتى استبد بهم الخوف»[5]، في حين تخلو الرواية القرآنيّة من هذا التناقض؛ إذ إنّها تذكر أنّ اكتشاف هذا الأمر كان مرّة واحدة، وبمحضر من الأب: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ

(١) تكوين ٤١/ ٥٤.

(٢) تكوين ٤٣/ ١١.

(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (بيروت: دار المعرفة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)، ص٥٢٨.

(٤) تكوين ٤٢/ ٢٧ - ٢٨.

(٥) تكوين ٤٢/ ٣٥.

هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ [يوسف: ٦٥].

الثلاثون: تزعم التوراة أنّ (يوسف) قد اشترى كل أرض مصر ـ من عليها وما عليها ـ للفرعون (وهو اصطلاح لم يكن قد استعمل في مصر بعد، كما أشرنا إلى ذلك آنفًا) بعد أن امتلأت الأرض جوعًا[١]، وهي دعوى ينفيها التاريخ.

إن جمهرة المؤرخين ترى أن الهكسوس لم يمدوا نفوذهم أبدًا إلى أبعد من القوصية[٢] جنوبًا، اللَّهُمَّ إلا في احتلال مؤقت قصير لإقليم (بي حتحور)، قام به (أبو فيس) ـ ربما آخر من حمل هذا اللقب ـ وليس هناك من دليل حقيقي على أن غيره من الهكسوس قد تم له هذا الأمر، أما أمر جبايتهم للضرائب من مصر العليا والسفلى على السواء؛ فموضع شك على الأقل، ذلك لأن وجهة النظر التي ترى احتلال الهكسوس للبلاد كلها، ليست سوى وهم قضى عليه النص الكبير للملك (كاموزا) الذي يتضمن في وضوح أن الغزاة لم يتقدموا إطلاقًا فيما وراء جبلين، والذي يشير إلى أنهم اضطروا بعد قليل إلى إرساء حدهم عند (خمون) (الأشمونين مركز ملوي)[٣].

الواحد والثلاثون: تظهر التوراة (يوسف) عليه السلام وكأنّه نقمة على المصريين ووبال عليهم؛ إذ استغل سنوات المجاعة ليستعبد المصريين للحاكم ويأخذ منهم أرضهم له[٤]، كما أنه عندما دعا أباه وأهله وعدهم أن يعطيهم «خيرات أرض مصر»[٥]؛ وكأنّ أهل البلد لا حقّ لهم في أرضهم.

يخلو القرآن من هذا الحديث العنصري في تحقير المصريين، ومن إضفاء هالة القداسة على الإسرائيليين. فبعثة الأنبياء رحمة للناس ونعمة، لا وبال وشرّ.

---

(١) تكوين ٤٧/ ١٣ ـ ٢٦.

(٢) Pahor Labib, *Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten und ihr Sturz*, p, 18.

(٣) د. محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، ص١٤٣ ـ ١٤٥.

(٤) تكوين ٤٧/ ٢٠.

(٥) تكوين ٤٥/ ١٨.

الثاني والثلاثون: زعمت التوراة أنّ (يوسف) عليه السلام كان يكرّر القسم بحياة فرعون[1]، وهو أمر يخالف مقام النبوة والعصمة.. ويزداد الأمر سوءًا إذا علمنا أنّ هذا الملك كان مشركًا.. وليس في القرآن من ذلك شيء!

الثالث والثلاثون: يُبرز القرآن من خلال شخصية النبيين (يعقوب) و(يوسف) عليهما السلام جمال حسن الظن بالله عز وجل[2]، وقيمته في قلب المؤمن، وعذب جناه بعد مرّ الابتلاء.. فهذا (يعقوب) عليه السلام لا يملك لسانه إلا أن يقول بعد سنين طوال من فراق ابنه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: ٨٣]، وما حصر رجاءه في نجاة ابنه الثاني، بل كان ظنه بالله عظيمًا؛ فهو يرجو نجاة ابنه الثاني الذي ظنّ أنه متهم بالسرقة، وابنه الكبير الذي ظلّ في مصر، وابنه الأول الذي غاب منذ سنين طويلة: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾[3].. وليس من ذاك شيء في التوراة.

الرابع والثلاثون: تقول الناقدة (مارلين ر. ولدمان): «يبدو الإله في الكتاب المقدس أكثر بعدًا منه في القرآن، وأقلّ تركيزًا في علاقته بيوسف، وأكثر تدخلًا في حياة كل الشخصيات الكثيرة، في حينّ أنّ الإله في القرآن يتدخّل في حياة رسوله ويوجهها بصورة دائمة، وتبقى الشخصيات الأخرى باهتة وأقل وضوحًا»[4]... وهذا فارق مهم؛ لأنّه يظهر غائيّة السرد القرآني

---

(١) تكوين ٤٢/ ٩ ـ ١٦. وقد جاء الأمر في العهد الجديد (الإنجيل) بالمنع من الحلف أصلًا؛ متى ٥/ ٣٣ ـ ٣٧، يعقوب ٥/ ١٢!

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**». رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، وقول الله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ (ح/ ٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحثّ على ذكر الله تعالى (ح/ ٢٦٧٥).

(٣) محمد صالح المنجد، ١٠٠ فائدة من قصة يوسف (نسخة إلكترونيّة).

(٤) Marilyn R. Waldman, 'New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an,' in *The Muslim World*, January 1985, V. 75, N.1, p.5.

وارتباطه المباشر بتوجيه رسالة إيمانيّة محكمة إلى القارئ، وابتعاده عن همّ التشويق الروائي.

الخامس والثلاثون: يظهر القرآن أنّ غاية المؤمن لا يمكن أن تكون إلا في طلب الراحة والنعيم في الجنّة؛ فهذا نبيّ الله (يوسف) عليه السلام يقول ـ وهو يعدد نعم الله سبحانه عليه ـ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].. وهذا مآل كلّ محسن: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].. وتغيب هذه اللفتة البديعة عن التوراة!

السادس والثلاثون: تذكر التوراة أنّ (يوسف) قد قدّم الطعام إلى إخوته لما قَدِموا عليه، وأنّه قَدَّم لهم الخمر، وشرب (يوسف) منه معهم؛ حتّى سكروا جميعًا[١]، ولا أثر لهذا المنكر القبيح في القصّة القرآنيّة.

السابع والثلاثون: تزعم التوراة أنّ (يوسف) عليه السلام قد قارف الكذب صراحة؛ وذلك عندما قال لإخوته: «أنتم جواسيس، وقد جئتم لاكتشاف ثغورنا غير المحميّة»[٢]، وقد سجنهم لأجل ذلك ثلاثة أيام[٣]، واتهمهم بسرقة كأسه الفضيّة[٤].. ولم يرد في القرآن الكريم شيء من ذلك.. أمّا ما فعله (يوسف) عليه السلام من استدراج إخوته حتى يتركوا له أحدهم بأن وضع أحد النفائس في رحله؛ فكما قال الإمام (ابن حزم):

---

(١) تكوين ٤٣/ ٣٤، النص العبري يقول: (וישתו וישכרו עמו) «ويشتو ويشكرو عِمّو» «وشربوا وسكروا معه» وقد حاولت بعض الترجمات أن تصرف كلمة (وسكروا) إلى معنى آخر غير السكر. وذاك أولًا: لا ينفي أنّ (يوسف) قد قدّم الخمر إلى أخوته، وأنهم شربوا هذا المسكر، وثانيًا: النص العبري يستقيم بصورة جليّة مع القول إنّ معناه هو أن الإخوة قد «سكروا مع أخيهم» وهو نفس المعنى الوارد في الترجمة السبعينيّة: (επιον δε χαι εμεθυσθησαν μετ αυτου)، والترجوم الآرامي: (ושתיו ורויו עמיה) والبشيطا السريانيّة: (ܘܐܫܬܝܘ ܘܪܘܝܘ ܥܡܗ) والفولجات: "Biberuntque et inebriati sunt cum eo"، ثالثًا: الترجمات العربيّة (على غير عادتها) لم تتّبع شذوذات بعض الترجمات الغربيّة، ووافقت المعنى الصحيح!

(٢) تكوين ٤٢/ ٩.

(٣) انظر: تكوين ٤٢/ ١٧.

(٤) انظر: تكوين ٤٤/ ١ ـ ٦.

«وأما قول يوسف لإخوته: إنكم لسارقون، وهم لم يسرقوا الصواع بل هو الذي كان قد أدخله في وعاء أخيه دونهم؛ فقد صدق عليه السلام؛ لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه. ولم يقل عليه السلام إنّكم سرقتم الصواع، وإنما قال: نفقد صواع الملك، وهو في ذلك صادق؛ لأنه كان غير واجد له؛ فكان فاقدًا له بلا شك»[1].

كما يمكن أن يقال أيضًا إنّ القرآن يقول: ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف: ٧١] فالمؤذّن غير (يوسف) عليه السلام، ويبدو أنّه لم يطّلع على خطة (يوسف) التي دبّر أمرها سرًّا؛ فقال بما ظهر له من غياب صواع الملك لما همّ القوم بالانصراف[2].. علمًا أنّ التوراة نفسها قد شاركت القرآن في تقرير وضع (يوسف) لأحد ممتلكات الملك[3] في بضاعتهم.

الثامن والثلاثون: أشار التعليق الكاثوليكي على ترجمة (The New American Bible) تحت الفصل ٤٥/ ٩ ـ ١٥ إلى أنّ نصَّي تكوين ٤٦/ ٣١ و٤٧/ ٥أ ـ وهما يعودان إلى المصدر اليَهَوِي ـ يذكران أنّ (يوسف) هو من استدعى باسمه أباه وإخوته إلى أرض مصر.. في حين أنّ نصّ تكوين ٤٥/ ١٦ ـ ٢٠ ـ وهو يعود إلى المصدر الإلوهيمي ـ يذكر أنّ فرعون هو من قام بدعوة أهل (يوسف) للهجرة إلى مصر.

التاسع والثلاثون: ذكرت التوراة[4] أنّ (يوسف) عليه السلام قد سكن هو وإخوته أرض رعمسيس، وهذا خطأ تاريخي لأنّ كلمة (رعمسيس) لم تستعمل قبل الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٨ ـ ١١٩٤ق.م) وليس منذ عصر الهكسوس (حوالي ١٧٢٥ ـ ١٥٧٥ ق.م)؛ أي: عصر (يوسف) الصدّيق عليه السلام[5]. وقد

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٢/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنّان، ت: عبد الرحمٰن اللويحق (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م)، ص٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٣) تذكر التوراة أنه أمر بوضع طاسة الفضة في رحل أخيه (بنيامين).

(٤) تكوين ٤٧/ ١١.

(٥) محمد بيومي مهران، إسرائيل ٣/ ١١١.

اعترف التعليق الكاثوليكي على الكتاب المقدس (The New American Bible) في تعليقه على تكوين ٤٧/ ١١ بهذه الزلّة التاريخية[١].

الأربعون: جاء في التوراة أنّ (يوسف) قد حلم أنّ الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا ساجدة له، وأنّه لما قصّ هذا الحلم على أبيه؛ انتهره أبوه، وقال له: «أي حلم هذا الذي حلمته؟ أتظن حقًّا أنني وأمك وإخوتك سنأتي وننحني لك إلى الأرض؟»[٢]، ويفهم من التوراة ذاتها أنّ أمّ (يوسف) قد توفيت قبل فترة طويلة من سَفر (يعقوب) وأبنائه إلى (يوسف) في مصر بعد أن صار ذا حظوة عند حاكمها[٣].. وهنا تُخطِّئ التوراة نفسها؛ إذ لا معنى لحلم (يوسف) النبي الذي هو في حقيقته رؤيا حق؛ ما دام أنّ أمّه قد توفيت قبل أن يخرج من المحنة..

وفي المقابل، يَظهر كمال القصّة القرآنيّة وتناسقها في هذا الموضع بعينه؛ إذ قد بدأت القصّة بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: ٣، ٤]، وختمت بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].. وهنا أصلح القرآن خطأ التوراة في مناقضتها لما دلّت عليه الرؤيا من بقاء أم (يوسف) حيّة حتّى تلقاه مُمكّنًا في الأرض.

الواحد والأربعون: القرآن الكريم وحده هو الذي يشير في ختام قصة (يوسف) مع أبيه وإخوته إلى تحقّق حلمه الأول: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ

---

(١) "The region of Rameses:... The name Rameses, however, is an anachronism, since this royal name did not come into use before the end of the fourteenth century B.C., long after the time of Joseph." (The New American Bible, p.54).

(٢) تكوين ٣٧/ ١٠.

(٣) انظر: تكوين ٣٥/ ١٨.

بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١].

وهكذا تبدو القصة كتلة واحدة، تقود مقدمتها إلى خاتمتها، ويتصل أوّلها بآخرها، وهكذا أيضًا يتجلى صدق وعد الله لعباده الصالحين.. في حين تتجاهل التوراة ما ذكرته هي نفسها في بداية القصّة من أمر رؤيا (يوسف) عليه السلام.

الثاني والأربعون: يفهم من عبارة سفر التكوين ٤٤/ ٢٠: «ولد شيخوخة صغير» (ילד זקנים קטן) و٤٤/ ٢٢: «الغلام» (הנער) أنّ (بنيامين) كان طفلًا لما سافر مع إخوته إلى مصر، في حين يفهم من تكوين ٤٦/ ٢١ أنّه كان (لبنيامين) عشرة أولاد بعد فترة قصيرة من الحدث السابق، وليس في القرآن هذا التناقض.

الثالث والأربعون: تذكر التوراة أنّ (يوسف) قد أقام مناحة لمدة سبعة أيام على وفاة أبيه[1]. وهو أمر يعارض تجلّد الأنبياء، وصبرهم، ورضاهم بالقضاء والقدر؛ ولذلك لا نرى له ذكرًا في النصّ القرآني.

الرابع والأربعون: جاء في تكوين ٥٠/ ١٣ أنّ (يعقوب) قد دفن في حقل المكفيلة، في حين يفهم من سفر أعمال الرسل ٧/ ١٦ أنّ (يعقوب) قد دفن في (شكيم)، وليس في القرآن هذا التناقض.

الخامس والأربعون: جاء في تكوين ٣٢/ ٢٨ و٣٥/ ١٠ أنّ الربّ قد وعد (يعقوب) ألّا يناديه (يعقوب) وإنّما أن يطلق عليه اسم (إسرائيل)، في حين جاء في تكوين ٤٦/ ٢ أنّ الربّ قد نادى (يعقوب): «يعقوب! يعقوب!».. وليس في القرآن الكريم من هذا التناقض شيء!

السادس والأربعون: جاء في تكوين ٤٦/ ٤ وعد الربّ (يعقوب) أن يأخذه إلى مصر، ثم يردّه منها، في حين يفهم من تكوين ٤٧/ ٢٨ ـ ٢٩ أنّ (يعقوب) قد مات في مصر.. وليس في القرآن هذا التناقض!

---

(١) انظر: تكوين ٥٠/ ١٠.

السابع والأربعون: جاء ذكر أولاد (بنيامين بن يعقوب) في قصّة (يوسف) في تكوين ٤٦/ ٢١ على أنّهم عشرة أولاد، في حين أنّ عددهم في سفر العدد ٢٦/ ٣٨ ـ ٤٠ أربعة، أمّا عددهم في أخبار الأيام الأوّل ٧/ ٦ فهو ثلاثة، ويبلغ عددهم في أخبار الأيام الأوّل ٨/ ١ ـ ٢ خمسة، والأغرب من ذلك أن هذه القوائم لا تشترك إلّا في اسم واحد، هو (بالع)! وليس في القرآن الكريم شيء من هذا التناقض!

الثامن والأربعون: جاء في تكوين ٤٦/ ٢٧ وخروج ١/ ٥ أنّ عدد أفراد عائلة (يعقوب) الذين سافروا معه إلى مصر يبلغ سبعين نفسًا، في حين يخبرنا سفر أعمال الرسل ٧/ ١٤ أنّ عددهم ٧٥ نفسًا، وليس في القرآن هذا التناقض.

التاسع والأربعون: جاء في تكوين ٨٤/ ٣ إخبار (يعقوبُ) (يوسفَ) أن الربّ قد تجلّى له سابقًا، في حين ينفي القرآن تجسّد الربّ أو ظهوره لخلقه في الدنيا!

الخمسون: جاء في تكوين٥٠/ ٢ ـ ٥: «ثم أمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه. وقد استغرق ذلك أربعين يومًا، وهي الأيام المطلوبة لاستكمال التحنيط. وبكى المصريون عليه سبعين يومًا». ويقول (محمد بيومي مهران): «هذا في الواقع خطأ؛ ذلك لأنّ مدّة التحنيط إنّما كانت سبعين يومًا ـ وليس أربعين يومًا ـ على أرخص الأنواع، ولأفقر الناس، وأنّ هناك أنواعًا ثلاثة من التحنيط، وهي ـ إن اختلفت في المواد المستعملة، أو في كيفيّة التحنيط ـ فإنّها إنّما تتّفق جميعًا على أنّ مدّة التحنيط إنّما كانت سبعين يومًا»[1].

وحي أم نقل؟

نحن هنا إزاء خبر عن الأوّلين، لا سبيل لتفسيره إلا بالتعلّم أو الوحي.. وعلى غير المسلم ـ ليقيم حجّته ـ **أن يثبت جملة من الأمور**:

---

(١) محمد بيومي مهران، إسرائيل، ٣/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩

• نبي الإسلام ﷺ قد زوّر القصة في ذهنه؛ فرتّب الكلام، وحبّر الآيات قبل أن يخرج على قومه ليخبرهم أنّه قد أُوحِيَ إليه خبر (يوسف) عليه السلام من السماء.. وذاك زعمٌ معارَضٌ بالثابت من صدق نبي الإسلام ﷺ ومجانبته الكذب حتى في مزاحه. كيف نجمع ـ إذن ـ بين تحرّي الكذب والإمعان فيه والاحتيال في صناعته، والاشتهار بالصدق والأمانة؟!

• نبي الإسلام ﷺ اطّلع على القصة التوراتية بدقيق لفظها العبري أو ترجمتها العربية ـ لعظيم التشابه اللفظي بين القصّتين ـ.. وذاك مُعارَض بأنّ نبي الإسلام ﷺ لم يكن يعرف العبرية، وأنه لم تكن هناك زمن البعثة ترجمة عربية للتوراة.

• نبي الإسلام ﷺ اجتهد غاية الاجتهاد لتغيير القصة التوراتية لتوافق أغراض القرآن؛ فحذف وأضاف من الأصل التوراتي، وعدّل في المقاصد، وبثّ في القصّة روحًا جديدة ونفسًا آخر بعد تَلَبُّثٍ وتريّث.. وذاك معارَضٌ بحقيقة أنّ ذاك يحتاح خبرة ودربة لم يعرف بهما نبي الإسلام ﷺ، كما أن صناعة القصص الديني لم تكن في شيء من ثقافة قريش.

• نبي الإسلام ﷺ تنبّه للأخطاء العلمية والتاريخية في القصة التوراتية.. وذاك معارَضٌ بأنّه أميّ من أمّة أميّة، ومعارَض بأنّ الراسخين من أهل الكتاب لم ينتبهوا إلى هذه الأخطاء.. بل ومعارَضٌ بأنّ طائفة من هذه الأخطاء لم يُكتشف فسادها إلا في القرون الأخيرة، في الدراسات الأكاديميّة التخصصيّة.

اشهد بنفسك الآن أيّ المذهبين أولى بالصواب، وأعظم تناسقًا وموافقة لمحفوظ التاريخ ومعقول الأخبار..!

خلاصة النظر:

• خلوّ النصّ القرآني من الأخطاء التاريخية الواردة في النص التوراتي.

• خلوّ النصّ القرآني من الأخطاء العلميّة الواردة في النص التوراتي

• خلو النصّ القرآني من التناقضات الواردة في النصّ التوراتي.

• تناسق الرواية القرآنية، ومراعاتها للمنطق التاريخي والروائي، في حين

أنّ الرواية التوراتية قد جمعت إلى التذبذب، ذكرَ تفاصيل لا تتناسق مع المنطق التاريخي وحركة الأحداث داخل نفس القصة.

• تناسق الرواية القرآنية مع مجموع الحقائق الإسلامية؛ فهذه القصة تشكلّ قطعة متوائمة مع بقية البنية الإسلامية، في حين تتعارض الرواية التوراتية مع جوانب من مُسَلّمات اليهود والنصارى.

• تشبّع النصّ القرآني بجملة من الحكم والمواعظ والحقائق الإيمانية، في حين لا يحتلّ هذا الأمر في النصّ التوراتي إلا حيزًا ضئيلًا مع ما فيه من تفاصيل تهدمه من الداخل.

• التقرير القرآني لعصمة الأنبياء، ومخالفة التوراة لذلك.

• محافظة القرآن على نظمه المعجز الذي فاق قدرة أئمة البيان في زمن الذروة مع مراعاة إيراد الأخبار التاريخيّة الدقيقة.

وقد خَلُصَت الناقدة (مارلين ر. ولدمان) في بحثها إلى القول: «سأقول بعد المقارنة بين القصّتين إنّه رغم وجود تقارب شكلي كبير بينهما؛ إلا أنهما لا تسوقان القصّة بنفس الأسلوب من النواحي الموضوعيّة (thematic) واللاهوتيّة والأخلاقيّة... **إنّهما تختلفان عن بعضهما من نواحي بدهيّة وأساسيّة**».

الفصل السادس

إعجاز القرآن في حقيقة الألوهية

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَنُوحُ وَأُوَلْوِلُ. أَمْشِي حَافِيًا وَعُرْيَانًا. أَصْنَعُ نَحِيبًا كَبَنَاتِ آوَى، وَنَوْحًا كَرِعَالِ النَّعَامِ.

(الربُّ متحدّثًا في الكتاب المقدس: سِفر ميخا ١/ ٨)

بين خيارين.. متابعة أم هيمنة؟

كشف البحث العلمي منذ بدايات ما يُعرف بـ«عصر النهضة» أنّ الكتب المقدسة لليهود والنصارى بصورتها الحالية والتي كانت عليها زمن البعثة المحمّديّة قد رتعت فيها يد التحريف طويلًا؛ فحذفت وأضافت وتشرّبت من رصيد الحضارات القائمة كثيرًا؛ وضمّت بذلك أساطير قديمة وتشبّعت الكثير من التصوّرات اللاهوتيّة لوثنيي بابل القديمة وغيرها، بالإضافة إلى تأثّر كتّاب تلك الأسفار المقدّسة بشرائع الأمم التي تظلّلت سماءها، وتصوّراتها العلميّة البدائيّة.

وعلمنا اليقيني بما سبق يفتح الباب للاختبار التالي الذي سيحسم بصورة أجلى علاقة تصوّر الألوهيّة في القرآن بأسفار أهل الكتاب، هل نحن إزاء اقتباس بشري أم الأمر هيمنة علويّة ربّانية المصدر؟

ولنا أن نتساءل أيضًا عن علاقة القرآن بلاهوت الوثنيين القريبين واليونانيين المبدعين في فلسفاتهم.. أهو التداني أم التباعد والتنافر؟ وما أثر الأحناف ـ الذين آمنوا بالله، واستمرّوا في البحث عن حقيقته ـ في عقيدة الدين الوليد.. هل الأثر المزعوم له أصل، أم هو الوهم؟

يقول المسلم جوابًا عمّا سلف:

القرآن وحيّ ربّاني، وليس أثرًا عن الثقافة السائدة؛ ولذلك جاء حديثه في الإلٰهيات ـ أعظم مباحث العقائد ـ بريئًا من خرافات الوثنيين، وتناقضات الكتابيين، وبرود الربوبيين، وأنسنة السابقين لربّ العالمين.

إنّ محمّدًا ﷺ المكيّ الأميّ الذي عاش في بيئة مقطوعة الصلة بالمباحثات اللاهوتية ودقيق الأخبار التاريخية الدينيّة ما كان يملك أن يصوغ التصوّر اللاهوتيّ القرآنيّ لأنّه ما كان يملك أن يرتفع بنفسه وملكاته فوق ثقافة العصر وتصوّراته الفاسدة للكمال الإلهيّ.

يقول المخالف:

كان نبي الإسلام ﷺ ينقل عقائد أهل الكتاب في الله عن تلقين أو اجتهاد شخصي منه، ويشهد القرآن للتصوّر اللاهوتي اليهود والنصراني بطبيعته التجسيمية المغرقة في التشبيه البشري (Anthropomorphism)، أو هو ربّما قد تابع أهله الوثنيين في لاهوتهم، أو أخذ من نجوم الفلسفة في كلّ عصر: فلاسفة اليونان! فإن لم يكن هذا ولا ذاك؛ فلعلّه إذن دين الأحناف المائلين إلى التوحيد عن الإشراك!

نحن ـ إذن ـ أمام احتمالين على درجة واضحة من التمايز، ولن يُحسم صدق أحدهما وفساد الآخر غير النظر النقدي القريب والعميق الذي يتناول النصوص مباشرة بالنظر والتشريح.

وفي الحديث التالي فصل الكلام في حكم الاحتمالين السابقين..

لاهوت اليهود:

صورة الإلٰه في الميراث اليهودي قبل المسيح مفارقة من أوجه لنظيرتها عند الوثنيين الذين ألبسوا آلهتهم جميع عوارض البشريّة، وقد كانت جماعة الآلهة عندهم تتحاسد وتتصارع في ملاحم شديدة الدمويّة. كان حديث اليهوديّة عن الإلٰه الواحد العظيم الذي لا يشاركه آخر الربوبيّة قفزة كبرى في البيئة الشركيّة الساذجة.

لم تفارق اليهوديّة مع ذلك أعراف البيئة الدينيّة كلّها، وإنّما أخذت منها كثيرًا من أوهامها مما أوقعها في التناقض؛ فمع التنزيه نقرأ نصوصًا حكمت على الصورة النهائيّة للإلٰه أن يقارب بصورة كبيرة آلهة الوثنيين، وفي أحيان أخرى نقرأ نصوصًا توراتيّة تصف الإلٰه بنقائص أو نقائض يبرأ منها الوثنيون أنفسهم.

الإلٰه المجسَّم: نبّه القرآن على النزعة التجسيميّة الماديّة عند اليهود في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥]، وهي نزعة قديمة فيهم: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ولذلك لما أعاد اليهود كتابة توراتهم أكثروا فيها من الصفات الجسمانية للربّ، والتي لا تحتمل تأويلًا ولا صرفًا عن معنى التحيّز.

ومن النصوص الدالة على صريح التجسيم أنّ الربّ قد تجلّى لإبراهيم، وقال له: سر أمامي (تكوين ١٧/ ١)، ورآه (موسى) عليه السلام وطائفة من بني إسرائيل «وَتَحْتَ رِجْلَيْهِ شِبْهُ صَنْعَةٍ مِنَ الْعَقِيقِ الأَزْرَقِ الشَّفَّافِ، وَكَذَاتِ السَّمَاءِ فِي النَّقَاوَةِ» (خروج ٢٤/ ١٠)، ويرى الناس ظهره (خروج ٣٣/ ٢٣)...

الإلٰه العنصري: من أبرز صفات ربّ التوراةِ عنصريته؛ فهو ربّ بني إسرائيل لا ربّ العالمين؛ فخلط بنو إسرائيل بذلك بين أن يكونوا الأمّة المصطفاة قديمًا من جهة وأن يكون هذا الاصطفاء برهان احتكارهم للإلٰه؛ ليكون معبودهم مبغضًا لجميع أمم الأرض دائمًا من جهة أخرى. كما استغلّ كتّاب التوراة قصص الأنبياء للعن خصومهم وتحقيرهم ضمن قصص تسيء إلى كمال العدل الإلٰهي، ومن ذلك قول النبي (نوح): «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلٰهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ». (تكوين ٩/ ٢٦) بعد أن رأى (حام أبو كنعان) عورةَ أبيه (نوح) خطًأ إثر تعرّي (نوح) بعد شربه الخمر. وفي ذلك تسويغ لعبودية الأفارقة الحاميين (كما يُقال) لغيرهم. كما أباح هذا الإلٰه لنبيِّه (يشوع) دماء الشعوب دون ضابط أخلاقي إرضاءً لابنه المدلّل (إسرائيل) (سفر يشوع).

الإلٰه الدموي: الصفة الأبرز للإلٰه التوراتي الصادمة للقارئ المعاصر هي دمويته الطافحة، وولعه بسفك الدماء حتى إنه عاقب السامرة بقوله: «بِالسَّيْفِ يَسْقُطُونَ. تُحَطَّمُ أَطْفَالُهُمْ، وَالْحَوَامِلُ تُشَقُّ.» (هوشع ١٣/١٦)، وهو إلٰه يوسّع أحيانًا دائرة الدم بصورة أبشع حتّى يقول: «اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا» (١ صموئيل ١٥/٣)، وهو يعاقب الأبناء حتى الجيل الرابع بإثم آبائهم (خروج ٣٤/٧).

الإلٰه العاجز الناقص: هو إلٰه كثير الندم (تكوين ٦/٦، خروج ٣٢/١٤، ١ صموئيل)، ويعاني هواجس المؤامرة بريبة شديدة حتى إنّه اضطر إلى أن يبلبل ألسنة الناس لئلّا يتكلّموا لغة واحدة خشية أن يجتمعوا ضده (تكوين ١١/١ ـ ٩)، وهو يبحث عن (آدم) في الجنّة ويقول له: «أين أنت؟» (تكوين ٣/٩)، ويستريح بعد الجهد الشاق[1]، ويغلب عليه ضعفه، حتّى إنّه قد هُزم في جولة مصارعة مع عبده (يعقوب) (تكوين ٣٢/ ٢٤ ـ ٣١)[2]، ويضطر إلى النزول إلى الأرض ليستكشف الحال: «وَقَالَ الرَّبُّ: «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا. أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ

---

(١) تكوين ٢/٣، خروح ٢٠/١١، خروج ٣١/١٧. يحاول النصارى واليهود التفلّت من المعنى الحرفي لنص تكوين ٢/٣: «وفي اليوم السابع أتم الله عمله الذي قام به، فاستراح فيه من جميع ما عمله» الدال على راحة الربّ بعد تعبه؛ للوصول إلى تكذيب قوله تعالى في الرد على اليهود والنصارى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، رغم (١) صراحة لفظ: (استراح) في الترجمات العربيّة، (٢) الاستراحة في تكوين ٢/٣ والخروح ٢٠/١١ وخروج ٣١/١٧ دلّت عليها كلمتان تحملان معنى الاستراحة الماديّة (שבת) «شبَت» و(נוח) «نُوَح»، علمًا أنّ الترجوم الآرامي (أونقلوس) قد استعمل كلمة (נח) «ناح» في تكوين ٢/٣ وخروج ٢٠/١١ كمقابل لكلمة (שבת) (شابت) العبريّة، وهي كلمة أصرح دلالة على الاستراحة. (٣) نصّ خروج ٢٣/١٢ يوضح معنى الكلمتين السابقتين: «اعمل ستة أيام فقط، وفي اليوم السابع تستريح (من جذر (שבת) لكي يستريح (من جذر (נוח) أيضًا ثورك وحمارك» (٤) نصّ الخروج ٣١/١٧ يردف الحديث عن استراحة الربّ، قوله «وتنفّس» (וינפש)؛ أي: استرد أنفاسه بعد الجهد الشاق.

(٢) كتب البابا (شنودة الثالث) ـ البابا السابق للكنيسة المرقسية في مصر ـ: «أراد الله أن يرفع معنويات هذا الخائف، بأن يريه أنه يمكن أن يصارع ويغلب، فظهر له في هيئة إنسان، يمكن ليعقوب أن يصارعه ويغلبه. تمامًا كأب يداعب طفله، ويُظهر لهذا الطفل أنه يستطيع أن يغلبه فيفرح». (شنودة، تأملات في حياة القديسين يعقوب ويوسف، القاهرة: ١٩٩٦م، ص٥٥ ـ ٥٦)!!

صُرَاخِهَا الآتِي إِلَيَّ، وَإِلَّا فَأَعْلَمُ»» (تكوين ١٨/ ٢٠ ـ ٢١)، ويبغض (عيسو) بلا سبب (ملاخي ١/ ٢ ـ ٣)، ويطلب من بني إسرائيل سرقة حليّ المصريين (تكوين ١١/ ٢)، ويسعى جهده لإضلال الناس حتى يعاقبهم (٢ تسالونيكي ٢/ ١١).

وصف الإلٰه بما لا يصحّ من أوصاف: حماسة مؤلفي أسفار الكتاب المقدس، ورغبتهم في صناعة صور فخمة أو مخيفة لإلٰه بني إسرائيل دفعتهم لوصفه بأوصاف منكرة، بالغة النكارة، كقول صاحب المزامير: «فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر» (مزمور ٧٨/ ٥)، و«الرب كالجبار يخرج. كرجل حروب ينهض غيرته. يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه. قد صمت منذ الدهر سكت تجلدت. كالوالدة أصيح. انفخ وانخر معًا». (إشعياء ٤٢/ ١٣ ـ ١٤)، و«مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَنُوحُ وَأُوَلْوِلُ. أَمْشِي حَافِيًا وَعُرْيَانًا. أَصْنَعُ نَحِيبًا كَبَنَاتِ آوَى، وَنَوْحًا كَرِعَالِ النَّعَامِ (ميخا ١/ ٨). . .

تشبيه الإلٰه بحقير الكائنات: في الكتاب المقدّس تشبيهات عجيبة للرب؛ كتشبيهه بالسوس (هوشع ٥/ ١٢)، واللبوة (العدد ٢٤/ ٩)، والدبّ (مراثي، ٣/ ١٠)، والنعام (ميخا ١/ ٨)، ومن الجمادات، العجلة المحمّلة حشيشًا (عاموس ٢/ ١٣)، وبالكائنات الأسطورية المخيفة، كتلك التي يخرج من أنفها دخان ومن فمها نار (٢ صموئيل ٢٢/ ٩). ورغم أنّ هذه الصوَر مجازيّة إلا أنّها مما يقبح ـ ضرورة ـ بالمرء أن يصف بها معبوده.

إنّه إلٰه بشريّ الصفات، يدور في فلك رغائب اليهود، ومتلبّس ـ على الحقيقة والمجاز ـ بجوهر نقائص آلهة الوثنيين، وربّما ما هو أبلغ من ذلك. إله التوراة صورةٌ لليهوديّ في الألفيّة السابقة لزمن المسيح؛ حيث تتملّك نفسه الرغبة في الانتقام، والشدّة في كلّ أمر، وضيق الأفق، وهو ما استوعبه المنصّر المتحوّل إلى الإلحاد (دان باركر)[1] في كتابه الصادر السنة الماضية: «God, the Unpleasant Character in all Fiction»[2] حيث أورد نصوصًا كثيرة من الكتاب المقدس في بيان صفات المزاجيّة الحادة والدمويّة المهيمنة على الإله التوراتي.

---

(١) دان باركر Dan Barker (١٩٤٩ ـ): أمريكي. أحد أعلام الإلحاد اليوم. تحدّث عن تجربته من نصراني أصولي ورجل دين إلى ملحد في كتابه: «Losing Faith in Faith: From Preacher to Atheist».

(٢) New York: Sterling, 2016

إلٰه التوراة «شخصيّة فظيعة، وقاسية، وانتقامية، ونزويّة، وغير عادلة».
الرئيس الأمريكي (١٨٠١ ـ ١٨٠٩م) الربوبي (Thomas Jefferson)(١).

لاهوت النصارى:

قال (ابن حزم) في النصارى: «ولولا أنّ الله تعالى وصف قولهم في كتابه، إذ يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وإذ يقول تعالى حاكيًا عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وإذ يقول: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، لما نطق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج السخيف. وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى، ما صدقنا أنّ في العالم عقلًا يسع هذا الجنون!»(٢).

القول الشديد السابق عن أكبر علماء مقارنة الأديان في القرون الوسطى يوافق ما قاله الفيلسوف اليوناني (فرفوريوس الصوري)(٣) في القرن الثالث: «.. حتّى لو افترضنا أنّ بعض اليونانيين كانوا بالغي الحمق حتّى إنّهم اعتقدوا أنّ الآلهة تسكن التماثيل، يبقى ذلك الاعتقاد ـ مع ذلك ـ أنقى من الزعم أن الذات الإلٰهية يجب أن تنزل رحم العذراء مريم، وأن تصبح جنينًا، وأن تُلفّ بعد الولادة في خرق متّسخة بالدم والكُدرة، وما هو أسوأ من ذلك»(٤).

لقد جمعت العقيدة النصرانيّة منكرات عقيدة اليهود إلى منكرات الوثنيين مع شطحات اللاهوتيين والمجامع الكنسية، وقبل ذلك تحريف أصحاب

---

(١) Jefferson to William Short, August 4,1820.
نص الرسالة:
<https://founders.archives.gov/documents/Jefferson/98-01-02-1438>.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/١١١ ـ ١١٢.

(٣) فرفوريوس الصوري Porphyry of Tyre (٢٣٤ ـ ٣٠٥م): فيلسوف من أنصار الأفلاطونية الجديدة. من تلاميذ أفلوطين وأهم ناشري كتبه. اشتهر بمؤلفه في المنطق الأرسطي «الإيساغوجي» الذي انتشر بصورة واسعة بين المناطقة العرب. من مؤلفاته: «ضد المسيحيين» "Adversus Christianos".

(٤) Porphyry, Against the Christians, Fragments 77 (J. Stevenson and W. H. C. Frend, *A New Eusebius: Documents illustrating the history of the Church to AD 337* (Michigan: Baker Books, 2013), p.257.

الأناجيل لقصة المسيح ومبتدعات (بولس)؛ لتكون النتيجة منظومة عقديّة تجمع أشتاتًا من المنكرات؛ **فهي عقيدة تقول**:

• الله واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد. كلّ واحد من الثلاثة إلٰه كامل، لكنّ الجميع إلٰه واحد!

• الإلٰه الابن مولود لكنّه غير مخلوق؛ فهو ميلاد بلا بدء!

• الآب أرسل الابن إلى الأرض رغم أنّ الآب والابن واحد لا اثنين؛ فالمرسِل والمرسَل واحد لكنّهما اثنان.

• الآب والابن واحد رغم أنّ الآب أعظم من الابن (يوحنا ١٤/٢٨).

• الابن إلٰه كامل إلا أنّه لا يعرف الغيب (متّى ٢٤/٣٦).

• الروح القدس إلٰه كامل يسافر بين السماء والأرض، وثالث ثلاثة، وواحد من توحيد مثلّث.

• التثليث جوهر الإيمان رغم أنّه لم يصرّح أحدٌ من الأنبياء السابقين بوضوح أنّ الآلهة ثالوث.

• أُرسل الإلٰه الابن إلى أمّة بني إسرائيل التي لم تعرف التثليث، ولم يخبرهم عن هذه العقيدة، أو كيف يحلّ العقل مشكلة تعارض التوحيد مع التثليث.

• الإلٰه عقد عهدًا مع (إبراهيم) النبيّ عليه السلام حتّى يلتزم نسله بالشريعة للتبرير (بلوغ البرّ والصلاح)، وقد فوجئ الإلٰه أنّ البشريّة فاسدة فسادًا عميقًا يمنعهم من التزام بنود هذا العهد.

• وجد الإلٰه نفسه في ورطة؛ إذ إنّه قرّر سابقًا أنّ الخطايا لا تُغفر إلا بذبيحة؛ فكيف سيأتي بذبيحة لجميع البشر الخطاة على أن تكون هذه الذبيحة بلا خطيئة؟

• الحلّ الوحيد لمغفرة خطايا البشر الخطاة هو أن يقدّم الإلٰه الآب الإلٰه الابن ليكون الذبيحة على الصليب، ويكون هذا هو العهد الجديد القائم على الإيمان لا الأعمال الصالحة وحدها[1].

• هرب الإلٰه الابن إلى ضيعة ليختفي من أعدائه لمّا علم تآمرهم

---

(١) الكاثوليك يدخلون العمل في تعريف الإيمان المنجي على خلاف البروتستانت.

للإمساك به لقتله، وصلّى إلى الإلٰه الآب، وطلب في سجوده أن يُعفى من هذا الاختبار: «يا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ» (متّى ٢٦/ ٣٩).

• من آمن أنّ الإلٰه الابن قد قُتل على الصليب من أجل خطيئة (آدم) عليه السلام وخطايا البشريّة فهو ناج، ومن لم يحمل هذا الإيمان فهو هالك.

• الإلٰه الآب ضحى بابنه الإلٰه الابن لنجاة البشريّة وتحقيق العدل، وإن كان قد أهلك ابنه دون ذنب منه.

• لا خلاص إلا بموت الإلٰه الابن، لكنّ الإلٰه الابن لم يمت؛ إذ الموت في حق الإلٰه يعني فناءه، وإنّما الذي مات هو الجسد الأرضي الذي لبسه الابن، وهو جسد فانٍ ليس بإلٰهيٍّ.

• الإلٰه عادل، وإن كان قد خلق البشر جميعًا على طبيعة فاسدة لا يمكن أن تصلح (رسالة بولس إلى روما ٣/ ٩ ـ ١٢).

• الإلٰه الآب أرسل ابنه ليموت على الصليب من أجل البشريّة، وقد قتل الرومان واليهود الابن، واليهود والرومان خطاة لأجل قتلهم الابن رغم أنّ الآب أراده أن يُقتل على أيديهم.

• الإلٰه الآب أرسل ابنه ليموت على الصليب من أجل خطايا البشريّة، لكنّ الذين تآمروا على الابن وصلبوه لم يقتلوه لأجل خطايا البشريّة وإنّما لأسباب أخرى.

هذه هي العقيدة التي أجمعت عليها الطوائف النصرانيّة الكبرى زمن البعثة النبويّة، وهي تجمع إلى نكارتها الشديدة إيمانها بعامة ما جاء في اللاهوت اليهودي لأنّ النصارى يؤمنون بقداسة الأسفار اليهوديّة.

وقد كانت نكارة عقائد الكنيسة سببًا مباشرًا في إطلاق الشرارة الكبرى للربوبيّة في القرن الثامن عشر، وكان اللاهوت وأخبار الكتاب المقدس حافزَين للكفر بمفهوم الوحي، وتقديس العقل والاكتفاء باللاهوت الطبيعي (بالنظر في الطبيعة) بعد التخلّص من اللاهوت الخاص (الوحي السماوي)، حتّى قال (توماس باين) ـ الربوبيّ الشهير ـ: «الأشياء العظيمة تُلهم الناس الأفكار العظيمة، والوعي الكبير يثير الامتنان العظيم، ولكنّ خرافات الكتاب

المقدس وعقائده لا تناسب غير **إثارة الازدراء**»[1]. ووصفَ عقائد الكنيسة في ألوهية المسيح وموته لتلافي لعنة الإلٰه أنّها «خرافات مبتَدعة تشين حكمة الله وقدرته»[2].

لاهوت الوثنيين:

اللاهوت الوثنيّ أبعد مُستقى ممكن للتصوّر اللاهوتي الإسلامي؛ إذ إنّ القرآن كان يستهدف تصوّر الوثنيين منذ البدء بالنقد والنقض. فقد كان الوثنيون ينسبون أنفسهم إلى ملّة أبيهم (إبراهيم) عليه السلام، إلّا أنّهم اتّخذوا مع الله وسائط، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَر: ٣]، واتّخذوا الجنّ ـ أيضًا ـ شركاء: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وجعلوا الملائكة بنات لله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧]، واستشنعوا التوحيد الصارم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، وتعلّقوا بالعادات الخرافيّة؛ فاتّخذوا التمائم والتعاويذ والرقى الشركيّة، وآمنوا بالطيرة، واستقسموا بالأزلام استشارة لآلهتهم إذا أرادوا حسم خياراتهم، وكان للكهّان فيهم مقام رَضيّ.

كانت الجاهليّة بذلك جدباء وشوهاء في لاهوتها؛ فقد وقعت في أعظم جُبَّين: تعدّد الآلة، والتجسيم، وتركت الاستهداء بالتوحيد الصافي إلى التنديد الذي يردّ كلّ ظاهرة طبيعيّة إلى ذوات خفيّة؛ طيّبة أو شريرة.

نزل القرآن في زمن بلغ التقارب فيه بين لاهوت أهل الكتاب ولاهوت الوثنيين أقصاه في كثير من أبواب المعرفة بالله.

لاهوت الأحناف:

كان الأحناف في جزيرة العرب قلّة هامشيّة كفرت بجاهليّة الأوثان،

---

(١) Thomas Paine, *The Age of Reason* (London: B. D. Cousins, 1839), p.178.

(٢) Thomas Paine, *The Theological works of Thomas Paine*, p.133.

ورأت أنّ الإلٰه أعلى من تلك العقائد، منزّه عن تلك الأوهام، وهو واحد متعال.. ثم ينيخ الأحناف هناك بلا مزيد؛ ففعلهم ثورة سلبيّة بلا بناء وتشييد للاهوت بديل؛ فقد نسبوا أنفسهم إلى ملّة (إبراهيم) دون أسفار (إبراهيم) وتعاليمه. وقد كانت قلوبهم حرّة وفيها حيرة؛ إذ تتوق إلى خبر عن الإلٰه الحقّ دون أن تجد إلى ذلك سبيلًا.

وممّا يُصوّر خبر الأحناف قول (أسماء بنت أبي بكر) رضي الله عنهما: «لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللَّهُمَّ إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحلته»[(١)].

ولذلك أسلم الصادقون منهم عند البعثة لمّا وجدوا معنى للتوحيد مشيدًا؛ فهذا (عمرو بن عبسة السلمي) رضي الله عنه يروي قصّة إسلامه؛ فيقول: «كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان؛ فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا؛ فقعدت على راحلتي؛ فقدمت عليه؛ فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جرءاء عليه قومه؛ فتلطفت، حتى دخلت عليه بمكة؛ فقلت له: ما أنت؟ قال: **أنا نبي**؛ فقلت: وما نبي؟ قال: **أرسلني الله**؛ فقلت: وبأي شيء أرسلك، قال: **أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوحّد الله لا يشرك به شيء**»[(٢)]. لقد وقف حيث وقف غيره من الأحناف: إيمان مُجمل بإلٰه واحد، ورفض للوثنيّة وضلالها. ولا يمكن لهذا التصوّر البسيط أن يكون أصلًا للبناء اللاهوتي الإسلامي بما فيه من أصول وتفصيل.

لاهوت اليونان:

لم يكن لليونان حضور فلسفيّ في لاهوت العالم المحيط بالجزيرة

---

(١) رواه ابن إسحاق، وإسناده حسن. سيرة ابن إسحاق، ص٩٦.

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة (ح/ ٨٣٢).

العربيّة غير مفهوم (اللوغوس) الذي أثّر في العقيدة النصرانيّة أساسًا من خلال فلاسفة الأفلاطونية الجديدة حيث (اللوغوس/الكلمة) أداة الإلٰه لخلق العالم من خلال واسطة محدثة لأنّ المطلق لا يتماس مع المحدث.

وأمّا لاهوت (أرسطو) فقد كان ضعيف الحضور حتّى في اللاهوت النصرانيّ باستثناء أدلّة (أرسطو) على وجود الله، والتي عرفت حضورها الأكبر في القرن الثالث عشر مع الطرق الخمسة (لتوما الأكويني)، وعلى رأسها فكرة «المحرّك الأوّل» أو «المحرّك الذي لا يتحرّك».

لم يجد لاهوت (أرسطو) حظوة في اللاهوت النصراني واليهودي لأنّه «لاهوت بارد» ليست فيه حرارة الفعل الإلٰهي في الوجود الحيّ؛ فهو إلٰه مفارق للعالم، منشغل بذاته لأنّ «الله هو العقل على غاية الحقيقة، وهو أيضًا المعقول على غاية الحقيقة: فهو عقل ومعقول معًا. وتعقّله إنّما هو لذاته؛ لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم؛ فلمّا كان الله أشرف الموجودات؛ فينبغي أن يكون معلومه أشرف المعلومات؛ أي: أن يكون تعقّله لذاته»[1]. والوجود المادي مكتف بذاته بالأسباب الماديّة المودعة فيه. وهذا التصوير الربوبيّ الجاف مقاطع للمعنى الدينيّ الثرّ لمفهوم الإلٰه الذي يتّصل بهذا الوجود تأثيرًا وتوجيهًا، ورحمة وحبًّا.

كما أنّ إلٰه (أرسطو) ـ وكذلك (أفلاطون) ـ هو «إلٰه السلوب»؛ فلاهوته «لاهوت سلبي» أو كما يُسمّى باللاتيني «via negationis» فهو ليس كذا، ولا يحمل كذا من الصفات لأنّه متعال بإطلاق كامل على المشهود والمعروف. وقد مثّل الفيلسوف (أفلوطين) هذا النهج اللاهوتي في القرن الثالث في «التاسوعات/الأثولوجيا»[2]. غير أنّ النفي المحض لا يكشف حقيقة الإلٰه، ولا يقرّبه بذلك من الأفهام. هو مختلف؛ فلا يأتلف فهم حقيقته في الذهن؛ وهو ما يزيده بعدًا عن العقل والقلب.

---

(١) عبد الرحمٰن بدوي، الموسوعة الفلسفيّة، مادة: (أرسطوطاليس) (بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٨٤)، ص١٠٤.

(٢) Deirdre Carabine, *The Unknown God: Negative Theology in the Platonic Tradition: Plato to Eriugena* (Louvain: Peeters Press; Grand Rapids, Mich.: W.B. Eerdmans, 1995).

لاهوت القرآن:

يعكس خبر ما سبق صورة الإلٰه في الكتاب المقدس ـ بعهديه القديم والجديد ـ حيث لا يكاد يتميّز المعبود عن البشر بشيء، بما فيهم من عجز، ونقص، وضعف، وإلٰه الوثنيين المتعدّد، ومعبود الأحناف الغائم، ومحرّك الكون ـ عند اليونان ـ السالب.. فهل ترى لهذه الصورة ظلًّا في القرآن؟! هل من الممكن أن يأخذ الوهم صاحبه إلى الزعم باستنساخ السور القرآنيّة لصفات الربّ من القوم السالفين؟!

إنّ (الله) سبحانه في القرآن الكريم هو (الأحد) فلا شريك له في الألوهيّة والربوبيّة:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام: ١٠١].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨].

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾ [الجن: ٢٢].

إنّه التنزيه الكامل للألوهيّة والربوبيّة من كلّ شوائب الشرك في خصائص الخلق ولوازم الطاعة المطلقة، وهو ما لا نرى له نظيرًا في اليهوديّة أو النصرانيّة.. وقد وقف المستشرق (إجناتس جولدتسيهر)[1] الذي يعدّ أحد أهم الطاعنين في الإسلام على مدى تاريخ الغرب الطويل في انتقاد الإسلام، قائلًا في مذكّراته إن الإسلام: «**هو الدين الوحيد الذي منع الشعوذة والعناصر**

---

(١) سبق تعريفه.

الوثنية، لا عن طريق التدليل العقلي[١] **وإنّما من خلال التعليم المستقيم (الأرثوذكسي)»** (The only religion in which superstition and heathen elements were forbidden not by rationalism but by orthodox teaching)[٢]. **«لقد اتجه أسلوب تفكيري نحو الإسلام، وكذلك تعاطفي معه... ولم أكذب حين قلت إنني أومن ببعثة محمد النبوية... إن ديني كان الدين العالمي للأنبياء»** (my way of thought was thoroughly turned towards Islam and so was my sympathy... I was not lying when I said that I believed in the prophetic missions of Muhammad... My religion was henceforth the universal religion of the prophets)[٣].

ويعلق (ألبرت حوراني)[٤] على قول (جولدتسيهر) هذا قائلًا: «بدا الإسلام لجولدتسهير وكأنه الدين الذي يجب أن تسعى إليه كل الأديان: توحيد خالص، واستجابة نقية ـ غير مكدّرة ـ لنداء الله للفؤاد الإنساني... لقد منحه الإسلام معيارًا يحكم من خلاله على الأديان التوحيدية الأخرى»[٥].

ومن طريف هذا الباب أنّ المستشرق الفرنسي «إرنست رينان» قد حطّ من الإسلام وتاريخه، وألقى عليه ظلال أوهامه العنصريّة التي عُرف بها في قراءته للتاريخ ونظرته إلى الأمم، غير أنّه قال: إنّ أعظم هِبة قدّمتها الحضارة الإسلاميّة إلى العالم هي التوحيد (واللغة العربية)[٦]. وأمّا (فولتير) الذي انتقل

---

(١) رغم أنّ هذه الشهادة قد وردت في سياق مدح الإسلام، إلّا أنها قد جانبت الصواب؛ إذ إن القرآن الكريم زاخر بالنصوص التي تبطل عبادة الأوثان ومظاهر الطبيعة بنفي الإرادة والقدرة عنها، وهو خطاب عقلي محكم.

(٢) Ignaz Goldziher, *Tagebuch*, p.59 (Quoted by, Albert Hourani, *Islam in European Thought*, New York: Cambridge University Press, 1991, p.38).

(٣) Ignaz Goldziher, *Tagebuch*, p.71 (نقله المصدر السابق).

(٤) ألبرت حوراني (١٩١٥ ـ ١٩٩٣م): مؤرّخ لبناني كاثوليكي. درّس في عدد من الجامعات الأمريكيّة وغيرها.

(٥) Hourani, *Islam in European Thought*, p. 38.

(٦) Frederick Quinn, *The Sum of All Heresies: The Image of Islam in Western Thought* (Oxford: Oxford University Press, 2008), p.99.

من الحطّ من الإسلام في مسرحيته «محمّد، أو التعصّب»[1] إلى الدفاع عن الإسلام ضدّ أباطيل الكنيسة، لاحقًا؛ فقد كتب أثناء تمجيده للإسلام، إنّ من ميزات هذا الدين قيامه على «.. عقيدة التوحيد التي ليس فيها أسرار، وهي متوافقة مع العقل الإنساني، وقد جذبت تحت قانونها العديد من الأمم»[2].

وقد أحسن المستشرق (جاك بيرك)[3] عندما قال: «ربما من الممكن تلخيص (رسالة) القرآن في كلمة واحدة، وهي توحيد الله» (Le Coran pourrait se résumer peut-être en un seul mot celui d'unité de Dieu)[4] وهي عين كلمة (ابن تيمية): «التوحيد هو سر القرآن ولب الإيمان»[5].

التوحيد القرآني ثورة مدهشة على عقائد العصر، لا تزال تبهر خصوم الإسلام إلى اليوم.

ويؤكّد القرآن الكريم علو الخالق في سلطانه؛ فلا يدانيه الخلق في شيء من عزّ الربوبيّة: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨]، وهو الذي لا يخفى عليه أمر في السماء ولا في الأرض: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]، وهو الذي ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]..

وهو الذي إذا أراد شيئًا فإنه يقول له كن فيكون: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

---

(١) *Mahomet, ou le Fanatisme.*

(٢) Voltaire, *Essai Sur Les Mœurs* (Paris: Lebigre, 1834), 1/268.

(٣) جاك بيرك Jacques Berque (١٩١٠ ـ ١٩٩٥م): عالم اجتماع ومستشرق فرنسي. عضو مجمع اللغة العربيّة في القاهرة. صاحب واحدة من أشهر ترجمات معاني القرآن الكريم الفرنسيّة.

(٤) Jaques Berque, *Relire le Coran* (Paris: Albin Michel, 1993), p.20.

(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ١/٣٦٨.

وهو الذي ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

إنّ له الأسماء الحسنى والصفات العلى.. وليس إلى النقص أو العجز إليه من سبيل! وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].. فلا شبيه له ولا نظير..

ولو أنّنا نظرنا إلى أسماء الله سبحانه في الكتاب والسُّنَّة؛ لوجدنا أنها **خمسة أقسام**:

الأول: الذي ينحو إلى تقرير إثبات الباري ردًّا على الجاحدين المعطّلين، ويندرج تحت هذا القسم اسم (الحي) و(الباقي) و(الوارث) وما في معناها.

الثاني: الأسماء التي تقرر توحيده ردًّا على من أشرك به في عبادته غيره، مثل (الكافي) و(العلي) و(القدير) ونحوها.

الثالث: الأسماء التي تقرّر تنزيهه ـ تبارك وتعالى ـ ردًا على المشبهة، مثل (القدوس) و(المجيد) و(المحيط) ونحوها.

الرابع: الأسماء التي تدل على أنّ كل موجود فإنه من خلقه واختراعه كـ(الخالق) و(البارئ) و(المصوّر) و(القوي) ونحوها.

الخامس: الأسماء التي تقرر أنه مدبر لما اخترع ومصرفه على ما شاء، وهو (القيوم) و(العليم) و(الحكيم) ونحوها[1].

وقد ورد التصريح في نصوص الوحي ـ قرآنًا وسُنَّة ـ بأن الله تبارك وتعالى: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١]، و﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: ٤٥]، و﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٢]، و﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]، وأنه (الأكبر)، و(الأعز)، و(الأعلم)، و(الأقوى).

وورد في القرآن الكريم أنّ الرب ـ تبارك وتعالى ـ ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

(١) ابن حجر، فتح الباري ١١/٢٢٣.

[الأنعام: ٥٧]، و﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الحج: ٥٨]، و﴿خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩]، و﴿خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ١٥٠]، و﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، و﴿خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩]، و﴿خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥]، و﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٣].

لقد جاءت الآيات القرآنيّة ترشد العقول إلى استعمال قياس الأولى في حقه تبارك وتعالى؛ فكل كمال لا نقص فيه ثَبت للمخلوق ويليق بالخالق؛ فالخالق أولى به[١].

ويقول (ابن القيم) في أمر صفات الله وأسمائه كما جاءت في القرآن والسُّنَّة: «صفات الله كلها صفات كمال محض؛ فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله. وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها؛ فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها»[٢].

إنها صفات جلال وكمال، بعيدة عن ترابيّة التوراة وألغاز الكنيسة، ولذلك قال (فولتير): «ديانة [محمّد] حكيمة، وصارمة، وتدعو إلى العفّة، واحترام الإنسانيّة: هي حكيمة لأنّها لم تسقط في حماقة الإشراك مع الله، ولأنّه ليس فيها أيّ «أسرار»»[٣].

وقد اعترف البابا (يوحنا بولس الثاني)[٤] نفسه أنّ «**بعض أفضل الأسماء في اللغة البشريّة، قد أطلقت على إلٰه القرآن**»[٥].

إنّ النظرة العادلة والمذهب المعتدل يقضيان أنه لو كان محمد ﷺ قد اطّلع على ما ورد في الكتاب المقدّس، لكان قد تأثر بالموروث اللاهوتي

(١) عمر سليمان الأشقر، أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السُّنَّة والجماعة (عمان: دار النفائس، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩١٤م)، ص١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوي وأشرف أحمد (مكة المكرمة: مكتبة نزار، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م)، ١/ ١٧٧.

(٣) Voltaire, *Œuvres complètes de Voltaire, Discours d'un Turc* (Paris: Furne, 1837), 16/58.

(٤) يوحنا بولس الثاني (١٩٢٠ ـ ٢٠٠٥م): بابا الفاتيكان من ١٩٧٨ إلى ٢٠٠٥م. من أشهر البابوات الذين سعوا إلى تنصير المسلمين؛ خاصة الأفارقة منهم.

(٥) John Paul II, *Crossing the Threshold of Hope*, ed. Vittorio Messori (New York: Random House, Inc., 1995), p.92.

اليهودي أو النصراني أو الوثني، وأنّه لو كان يدّعي النبوة زورًا لحاول استجلاب أهل الكتاب بموافقتهم في صفات المعبود عندهم..

لقد أتى القرآن في موضوع العقيدة متعاليًا على الواقع.. وما كان لمحمد ﷺ ـ لو كان هو مؤلف هذا الكتاب! ـ أن يتمّ له ذلك؛ لِثِقَل العقل الباطن الجمعي (Collective unconscious)[1] على الناس الذين كانوا يقبلون دين الأجداد دون حِجاج ولا مراء.

لقد كانت جزيرة العرب زمن البعثة أعجز من أن تمنح أحدًا تصوّرًا عقديًّا كالذي في القرآن الكريم؛ فإنّ سكان مكّة وما جاورها كانوا إما وثنيين يعبدون الأحجار، وإما يهودًا يُسبغون على إلٰههم صفات العنصرية، وإما قلّة من النصارى أصحاب عقيدة يمجّها العقل السليم.. وأما الحنفاء؛ فقد وقفوا عند نقطة الرفض لما هو موجود، دون أن يبلغوا الحقّ المنشود.

صفات الله في قصة الخروج من الجنة:

لعلّه يحسن بنا أن نسوق مقارنة مباشرة بين ما ورد في العهد القديم وما يقابله في القرآن الكريم في سرد قصّة أكل (آدم) و(حواء) من الشجرة المحرّمة، وموقف الربّ منهما؛ لنستبين عِظَم البون بين الكتابين في الحديث عن (الإلٰه) وصفاته:

أولًا: بدأت قصّة الاختبار في الكتاب المقدس والقرآن الكريم بأمر النهي عن الأكل من الشجرة. وقد جاء النص القرآني مُبهِمًا لطبيعة الشجرة ولنوعها؛ لأنّ العبرة هي في امتحان (آدم) وزوجه، بطاعة الأمر أو بعصيانه. ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]، أمّا النص التوراتي فيفاجئ القارئ بزعمه أنّ هذه الشجرة، هي شجرة المعرفة التي من يأكل منها؛ يرزق بصيرة التمييز

(١) العقل الباطن الجمعي: مفهوم مرتبط بعلم النفس التحليلي، يدلّ على ما كمن في اللاشعور عند الفرد من نتاج خبرة جماعية لفريق من الناس يعتبر هذا الفرد جزءًا منها.

بين الخير والشر[1]. إنّ الأمر ليس متعلقًا في حقيقته باختبار (آدم) وزوجه، وإنّما هي خشية الربّ أن يرزق الإنسان المعرفة، هي التي دفعته إلى أن يحذّرهما من الأكل منها!

ثانيًا: يقول القرآن الكريم إنّ الشيطان في سبيل إغواء (آدم) وزوجه، زعم أنّ هذه الشجرة هي شجرة الحياة، وأنّ من يأكل منها يحيا إلى الأبد: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]، في حين تخبرنا التوراة أنّ شجرة الخلد هي شجرة أخرى غير شجرة المعرفة التي أكل منها (آدم) وزوجه، وأنّ الربّ قد قال بعد أن أكل الزوجان من شجرة المعرفة: «هاالإنسان قد صار كواحد منا، يميّز بين الخير والشر. وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل؛ فيحيا إلى الأبد»[2]... لقد أصيب الإلٰه بحالة قلق وارتعاب (!)؛ لأنه بعد أن تمكّن الزوجان من خداعه والأكل من شجرة (المعرفة)، خشي أن يُخدع مرة أخرى ويتمكّن الزوجان من (استغفاله) والأكل من شجرة (الحياة)، إذ إنهما إذا أكلا منها؛ فلن يصيبهما الموت، **وعندها لن يستطيع الإلٰه أن يميتهما**؛ فهو يتوجس من ذكائهما، ويحاول أن يمنع (المصيبة) قبل وقوعها! ولم يهنأ (قلب) الإلٰه بالراحة ويتنفس صدره نسيم الطمأنينة إلّا بعد أن جهّز فريق حراسة من الملائكة (المتيقظين) وسيفًا ناريًّا متحركًا حارقًا لمنع (آدم) وزوجه من الاحتيال على أمره ونهيه، ومغافلته ومشاركته صفة البقاء الدائم الذي لا يعقبه موت، بالأكل من شجرة (الحياة) «وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم وسيفًا ناريًّا متقلبًا شرقي الجنة لحراسة الطريق المفضية إلى (شجرة الحياة)»![3]

ثالثًا: يبدو **الشيطان في التوراة أصدق لهجة من الربّ**؛ إذ إنّه قد أخبر (آدم) و(حواء) عن حقيقة الشجرة، وعن السبب الحقيقي لمنع الرب لهما من

---

(١) انظر: تكوين ٣/ ٢٢.

(٢) تكوين ٣/ ٢٢.

(٣) تكوين ٣/ ٢٤.

الأكل منها، وبقيّة الرواية التوراتيّة تؤكد صدق الشيطان في ما أخبرهما به، في حين يبدو (الربّ) من أهل الكذب؛ فقد قال (لآدم): «ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأنك حين تأكل منها **حتمًا** تموت»[1]، لكن لما أكل (آدم) وزوجه منها، لم يموتا!

أمّا القرآن الكريم فيصوّر الشيطان في صورة المخلوق الكاذب المخادع:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢]؛ فالشيطان هو الموسوس بالباطل، الكاذب، المخادع.

رابعًا: يبدو الإلٰه في القصّة التوراتيّة متلبسًا بالجهل وقصور المدارك؛ فهو قد خلق (آدم)، وبعد أن فرغ من ذلك استبان له أنّ (آدم) يحتاج إلى رفيقة[2]، مما دفعه إلى أن يخلق (حواء)؛ فقد بدا له من العلم المحدث بعدما كان قبل ذلك جاهلًا بحال (آدم) الوحيد بعد خلقه.

وهذا الإلٰه ذاته لما كان يمشي في الجنّة، اختبأ من مجال بصره كلٌّ من (آدم) و(حواء) بعدما أكلا من ثمر الشجرة وانكشفت منهما العورة؛ فاضطر هذا الإلٰه إلى أن ينادي (آدم): «أين أنت؟»![3]

ولما أخبر (آدمُ) الربَّ أنه قد اختبأ منه لأنّه عريان؛ سأله الرب الجاهل بما يجري من أحداث: «من قال لك إنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟»

وليس في القرآن الكريم شيء من تلك الشنائع؛ فالله سبحانه هو ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة: ٩٤].

---

(١) تكوين ٢/ ١٧.

(٢) انظر: تكوين ٢/ ١٨.

(٣) تكوين ٣/ ٩.

خامسًا: يبدو الإلٰه في القصّة التوراتيّة متشنجًا إلى الدرجة التي فقد معها الحكمة؛ إذ إنّه لما غضب من الشيطان الذي كان يظهر في صورة حيّة لـ(حواء) و(آدم):

أ ـ عاقب الحيّات جميعًا، رغم أنّ الحيّات لا ذنب لها أصلًا، وإنّما كان الشيطان يظهر في صورة واحدة منها. ومن صور هذا العقاب أن جَعل الحيّة تسعى على بطنها[1]؛ فهل كانت الحيّة قبل ذلك تمشي على أربع؟! كما عاقب الحيّات بأن جعلها تأكل التراب طول حياتها[2]؛ فهل رأى أحد حيّة تأكل التراب؟!

ب ـ جعل آلام الوضع عقوبة لكلّ امرأة[3]؛ فما ذنب النساء في ما اجترحته (حواء) الأولى؟! وهل استطاعت المرأة أن تفلت من عذاب (الله) بعد اكتشاف التخدير؟!

ت ـ عاقب الربّ المرأة بأن جعل كلّ امرأة تشتاق إلى زوجها[4]؛ فهل يقول عاقل إن اشتياق المرأة لزوجها نكاية ربّانيّة بالأنثى؟!

ث ـ جعل قوامة الرجل على المرأة لعنة متوارثة[5]؛ فكيف يستقيم ذلك رغم حرص الكتاب المقدس على التأكيد على القيمة العظمى لطاعة المرأة زوجها؟![6].

ج ـ عاقب الربّ (آدم) بأن جعله يأكل من عشب الأرض، أو كما يقول النص في حرفيّته «عشب الحقل» (עשב השדה) (عيسب هَسّادي)[7]؛ فإن قلنا إنّ (العشب) هو هذا النبات الأخضر المتعارف على تسميته بهذا الاسم؛

(١) انظر: تكوين ٣/ ١٤.
(٢) انظر: تكوين ٣/ ١٤.
(٣) انظر: تكوين ٣/ ١٦.
(٤) انظر: تكوين ٣/ ١٦.
(٥) انظر: تكوين ٣/ ١٦.
(٦) انظر: كولوسي ٣/ ١٨، ١ كورنثوس ١٤/ ٣٤ ـ ٣٥.
(٧) انظر: تكوين ٣/ ١٨.

فالإنسان لا يأكله أصلًا، وإن قلنا إنّ المقصود به هو ما تنبته الأرض من خضراوات وفواكه؛ قلنا: تلك رحمة من الله بعباده وليست نكالًا بهم، وقد جاء في التوراة نفسها أنّ الله قد خلق ما تنبته الأرض مما يأكله الإنسان[1]، ورأى أنّ ذلك أمر «جيد جدًا»![2]

وليس في القرآن الكريم من الشنائع السابقة شيء!

خلاصة النظر:

- لاهوت اليهود والنصارى مغرق في أنسنة الإلٰه بنسبة عوارض النقص البشري إليه.
- لاهوت الوثنيين ممعن في إثبات الشريك للربّ في سلطانه.
- لاهوت الأحناف أقرب إلى التوقّف منه إلى الإثبات.
- لاهوت الفلاسفة اليونان باهت بقصره معرفة الربّ على ما ليس من صفاته.
- لاهوت القرآن نسيج جديد، هو تنزيه للربّ عن النقص وإعلان لكماله وجلاله.

مراجع للتوسع:

عمر سليمان الأشقر، شرح ابن القيم لأسماء الله الحسنى (عمان: دار النفائس، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م).

عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله (عمان: دار النفائس، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م).

محمد علي البار، الله ﷻ والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم (بيروت: الدار الشامية، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م)

(١) انظر: تكوين ١/ ٢٩.

(٢) انظر: تكوين ١/ ٣١.

الفصل السابع

إعجاز القرآن في حقيقة النبوة

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ، وَلَكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ.

(يسوع: إنجيل يوحنا ١٠/٨)

بين خيارين.. رد إلى الأصل أم اقتباس؟

مفهوم النبوّة في ثقافة العرب في القرن السابع صبغة يهوديّة ـ نصرانيّة، وقد شارك القرآن أهل الكتاب تأكيد تأصيل هذا المفهوم وتأكيد هذه الظاهرة.. فهل سيرة الأنبياء ودعواتهم في أسفار النصارى واليهود هي نفسها في القرآن الكريم؛ حتى تكون مرجعًا للقرآن كما يقول المنصّرون؟ أم الأمر نبتٌ جديد؟

يقول المسلم: إنّ النبوّة في القرآن قد اتّخذت حلّة جديدة لم تعرفها في أسفار اليهود والنصارى؛ إذ عادت إلى أصلها الأوّل؛ بهيّة مشرقة بالخير؛ فتطهّرت من أرجاس الآثام التي نسبتها التوراة إلى الأنبياء. واستعادت بذلك صلتها الأولى بالألوهيّة الكاملة والحكمة العظيمة من تنزّل الوحي على البشر.

ويرى المخالف: أنّ النبوّة في القرآن مظهر مكرّر من دعاوى التوراة والإنجيل، وما جاء من تغيير؛ فهو هامشيّ ولا ينمّ عن طفرة في التصوّر الكليّ لحقيقة النبوّة.

.. فإلى من ينحاز الباحث المنصف؟

النبوة في الكتاب المقدس:

يتضمّن الكتاب المقدس قصصًا كثيرة في أخبار الأنبياء ودعواتهم، ومبحث النبوّة بذلك صميميّ في هذا السرد، وإن لم يعتن أصحاب الأسفار ببيان حقيقة النبوّة بطريق مباشر.

غموض معنى النبوة:

استعمل العهد القديم ثلاث كلمات لوصف النبي، أوّلها: «نبي» (נביא) [نَبي]، وثانيهما: «رائي» (רֹאֶה) [رُوئِي] (١صموئيل ٩/ ٩)، وثالثها: بنفس المعنى السابق (חֹזֶה) [حُوزِي] (١ أخبار الأيام ٢٩/ ٢٩). ومعاني الكلمات السابقة تدور حول الإنباء عن الرب والإنباء بالغيب. وهي دلالات مهمّة في بيان جوهر فعل النبي.

لم تكن كثرة الأنبياء في الكتاب المقدس مصدرًا لكشف معاني الرسالة النبوية، وإنّما كانت مصدرًا للتشويش على هذا المعنى الجليل والرئيس في فهم واسطة العلم عن الله سبحانه؛ فإنّه وإن كانت النبوّة مرتبطة بالوحي والإخبار بالغيب إلا أنّ مروق الأنبياء وانحرافاتهم جعلت الصورة الكليّة للنبوة غائمة لا تتبيّن ملامحها الدقيقة.

وقد كان لتأليه النصارى المسيحَ، وإنكارهم قيمة النبوّة في تعريفها الطريق إلى الله بالتوحيد الصرف والتزام الشريعة الموسويّة، طريقًا جديدًا لصناعة ثنائية متداحضة في جوهرها بين رسالة النبوة قبل المسيح، ورسالة النبوة مع المسيح وبعدها[(١)].

كما توسّع مفهوم النبوّة في النصرانيّة حتّى إنّه يكاد يفقد تميّزه الدلالي، ولذلك قال (جيرهارد داوتسنبرج) ـ أحد كبار دارسي العهد الجديد ـ إنّ النصرانيّة لا تعرف منذ بداية القرن الثالث ماهية وظيفة النبوّة، وقد استمرّ هذا الجهل بوظيفة النبوّة حتّى يومنا هذا[(٢)].

---

(١) يجمع النصارى بين ألوهيّة المسيح ونبوّته، كما أنّ العهد الجديد صريح في ظهور أنبياء صادقين بعد المسيح.

(٢) G. Dautsenberg, *Urchristliche Prophetie*, p.153 (نقله عبد الراضي محمد عبد المحسن، المعتقدات الدينية لدى الغرب، الرياض: مركز الملك فيصل، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، ص٤٠٠ ـ ٤٠١).

قبائح الأنبياء:

إن أبلغ حكم أخلاقي على أنبياء العهد القديم، هو ما قاله المنصّر (دافيد أوبراين) في كتابه (Today's Handbook for Solving Bible Difficulties) الذي ألّفه للدفاع عن الكتاب المقدس والرد على مخالفيه: «**لا تكاد تجد أحدًا منهم** (أي: من الأنبياء) **من الممكن أن يسمح له بالالتحاق بجلّ كنائسنا دون أن (يُشترط عليه) أن يصلح سلوكه بصورة بالغة**»[1]؛ فعامة أنبياء الكتاب المقدّس عند هذا المنصّر هم أحط وأرذل من أن يقبلوا في كنائس النصارى اليوم!

الأنبياء في الكتاب المقدس لا يمتازون ضرورة بميزة أخلاقية ترفعهم فوق عامة الناس؛ فهم يقعون في كلّ أصناف الذنوب وأحطّها؛ فقد زنى (داود) عليه السلام بامرأة متزوّجة، وتآمر عليه ليُقتل في الحرب ليخلو بامرأته (٢ صموئيل ١١/ ٢ ـ ٢٦)، وشرب (نوح) عليه السلام الخمر حتّى فقد عقله وتعرّى (تكوين ٩/ ٢١). و(يعقوب) عليه السلام سرق بركة الله من أخيه (تكوين ٢٧).. والعجيب أنّ المسيح يقول عن الأنبياء السابقين: «جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ وَلكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ». (يوحنا ١٠/ ٨).

وللأنبياء وهم في حال البلاغ عن الرب أفعال شنيعة، ومن ذلك تعرّي (شاول) لاستجلاب النبوّة: «فَخَلَعَ هُوَ أَيْضًا ثِيَابَهُ وَتَنَبَّأَ هُوَ أَيْضًا أَمَامَ صَمُوئِيلَ، وَانْطَرَحَ **عُرْيَانًا** ذلِكَ النَّهَارَ كُلَّهُ وَكُلَّ اللَّيْلِ». (١ صموئيل ١٩/ ٢٤).

وتعرّى النبيّ (إشعياء) أيضًا أمام الناس، بل سار على هذه الحال ـ عاري المؤخرة ـ ثلاث سنوات: «فِي ذلِكَ الْوَقْتِ تَكَلَّمَ الرَّبُّ عَنْ يَدِ إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ قَائِلًا: «اِذْهَبْ وَحُلَّ الْمِسْحَ عَنْ حَقْوَيْكَ وَاخْلَعْ حِذَاءَكَ عَنْ رِجْلَيْكَ». فَفَعَلَ هكَذَا وَمَشَى مُعَرًّى وَحَافِيًا... هكَذَا يَسُوقُ مَلِكُ أَشُّورَ سَبْيَ مِصْرَ وَجَلاَءَ كُوشَ، الْفِتْيَانَ وَالشُّيُوخَ، عُرَاةً وَحُفَاةً وَمَكْشُوفِي الأَسْتَاهِ خِزْيًا لِمِصْرَ». (إشعياء ٢٠/ ٢، ٤).

وأكل النبيّ (حزقيال) ـ بأمرٍ من الربّ ـ كعكًا من عجين الشعير مخلوطًا

---

(١) David O'Brien, *Today's Handbook for Solving Bible Difficulties*, p. 233 (Quoted by, Dennis McKinsey, *The Encyclopedia of Biblical Errancy*, N.Y: Prometheus Books, 1995, p. 169).

ببراز الإنسان ٣٩٠ يومًا (حزقيال ٤/ ٩ ـ ١٥). . . بل وأمر الربّ نبيّه (هوشع) أن يتزوّج امرأة زانية (هوشع ١/ ٢ ـ ٦).

وقد يُنهي الرب حياة نبيّه في أبشع صورة عقوبة له على إجرامه وتقصيره، ومن ذلك أنّه قال لـ(موسى): إنّك وأخيك قد عصيتماني، ولذلك اصعد يا (موسى) إلى الجبل، وانظر إلى الأرض المقدسة التي وعدت بني إسرائيل أن يملكوها؛ فإنّك بما أجرمت وأخيك ستموت دون أن تدخلها (تثنية ٣٢/ ٤٨ ـ ٥٢)[1].

وقد اتّهم (بولس) مؤسس النصرانية، أنبياء الله أنهم بلّغوا الناس رسالة معيبة قاصرة لا تنفع؛ إذ قال: «فإنّه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها (ασθενες) أو عدم نفعها (ανωφελες) إذ الناموس لم يكمل شيئًا» (الرسالة إلى العبرانيين ٧/ ١٨). . وصرّح قبله النبي (حزقيال) أنّ الربّ الخالق قد اعترف أنّه بلّغ الناس «عن طريق بعض الأنبياء» وصايا باطلة وأحكامًا فاسدة (حزقيال ٢٠/ ٢٥)!

كفر الأنبياء:

لا تقتصر ذنوب الأنبياء على الشنائع الأخلاقية وإنما تتجاوزها إلى ما هو أعظم من ذلك وأنكى، وهو الكفر بالله؛ فرغم أنّ الأنبياء يتنزّل عليهم الوحي وتظهر على أيديهم الآيات العظيمة إلا أنّ منهم من وقع في الكفر الأكبر، ومن ذلك أنّ (هارون) عليه السلام قد صنع لبني إسرائيل عجلًا من حليّهم ليعبدوه (الخروج ٣٢/ ٣ ـ ٤). وكان أعظم المرتدين (سليمان) عليه السلام؛ إذ أمال نساؤه قلبه نحو آلهتهن لما كبر وشاخ (١ ملوك ١١/ ٤).

وأتى أنبياء آخرون أفعالًا أو أقوالًا كفرية، كقول (موسى) للربّ: «لماذا

---

(١) «اِصْعَدْ إِلَى جَبَلِ عَبَارِيمَ هذَا، جَبَلِ نَبُو الَّذِي فِي أَرْضِ مُوآبَ الَّذِي قُبَالَةَ أَرِيحَا، وَانْظُرْ أَرْضَ كَنْعَانَ الَّتِي أَنَا أُعْطِيهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مُلْكًا، وَمُتْ فِي الْجَبَلِ الَّذِي تَصْعَدُ إِلَيْهِ، وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِكَ، كَمَا مَاتَ هَارُونُ أَخُوكَ فِي جَبَلِ هُورٍ وَضُمَّ إِلَى قَوْمِهِ. لأَنَّكُمَا خُنْتُمَانِي فِي وَسَطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ مَاءِ مَرِيبَةِ قَادَشَ فِي بَرِّيَّةِ صِينٍ، إِذْ لَمْ تُقَدِّسَانِي فِي وَسَطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَإِنَّكَ تَنْظُرُ الأَرْضَ مِنْ قُبَالَتِهَا، وَلكِنَّكَ لَا تَدْخُلُ إِلَى هُنَاكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنَا أُعْطِيهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ». (تثنية ٣٢/ ٤٨ ـ ٥٢).

أسأت إلى عبدك؟! ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى إنّك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ؟! ألعلّي حبلت بجميع هذا الشعب؟! أو لعلّي ولدته، حتى تقول لي: احمله في حضنك كما يحمل المربي الرضيع، إلى الأرض التي حلفت لآبائه؟!» (العدد ١١/ ١١ ـ ١٢)، وقول (أيوب): «قَدْ كَرِهَتْ نَفْسِي حَيَاتِي. أُسَيِّبُ شَكْوَايَ. أَتَكَلَّمُ فِي مَرَارَةِ نَفْسِي. قَائِلًا للهِ: لَا تَسْتَذْنِبْنِي. فَهِّمْنِي لِمَاذَا تُخَاصِمُنِي! **أَحَسَنٌ عِنْدَكَ أَنْ تَظْلِمَ،أَنْ تُرْذِلَ عَمَلَ يَدَيْكَ**، وَتُشْرِقَ عَلَى مَشُورَةِ الأَشْرَارِ؟» (أيوب ١٠/ ١ ـ ٣)، وقول النبي (حبقوق): « حتى متى يا رب أدعو وأنت لا تسمع؟ أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تُخَلِّص!» (حبقوق ١/ ٢)، وقول (داود) النبي: «استيقظ. لماذا تتغافى [في الأصل العبري תִישַׁן أي: تنام] يا رب. انتبه. لا ترفض إلى الأبد. لماذا تحجب وجهك وتنسى مذلتنا وضيقنا» مزمور ٤٤/ ٢٣ ـ ٢٤). وأكّد (سليمان) في سفر الجامعة أنّ الوجود البشري عبث لا قيمة له، وأنّ عاقبة الإنسان كعاقبة البهيمة (الجامعة ٣/ ١٩ ـ ٢١). وأفتى (قيافا) النبيّ اليهودي (يوحنا ١١/ ٤٩ ـ ٥٢) بقتل المسيح (متّى ٢٦/ ٥٧ ـ ٦٧)...

النبوة في القرآن الكريم:

نزل القرآن في مكّة حيث لا يُعرف من النبوّة إلا ما شهدت به أقليّة يهوديّة، وكانت معارف النصارى في النواحي المجاورة مبعثرة لا تزيد هذا المفهوم إلا تشتتًا، ولكن جاءت الآيات القرآنية رغم ذلك في رسم صورة للنبوّة والأنبياء بعيدة عن الميراث المتأخّر والمشوّه عند أهل الكتاب في أسفارهم المقدّسة وفي تراثهم الشفهي الواسع.

حقيقة النبوة:

تشارك النبوّةُ في القرآن المفهوم الكتابي للنبوّة مبناه اللغوي بحروفه الثلاثة، النون والباء والياء. كما تشاركه معناه بأنّه بلاغ عن الرب بإنباء خلقٍ لله رسالة الخالق بواسطة الوحي، دعوةً إلى تصديق الخبر والتزام الأمر والانتهاء عند ما تعلّق به زجر.

غايات النبوة:

إنّ أبرز ملمح في دعوات الأنبياء في القرآن الكريم، تعريف الناس بربهم، وعلى رأس ذلك بيان حقيقة التوحيد في عالم نزّاع إلى الشرك، وتعريف الناس ما يصلحهم في معاشهم في أمور الأحكام والأخلاق، وتبشير الصالحين بالنعيم، وتهديد الآبقين بعذاب الجحيم..

١ ـ معرفة الرب وتوحيده:

القرآن الكريم كلّه عرض وبيان وحجاج في العقيدة، حتى ما كان منه في باب القصص أو الأحكام؛ فهو يردّ الإنسان في الأمر كلّه إلى الخالق المصور الذي بدأ بقوله الكون، ويحل عند إذنه الموت. هو الأول والآخر والظاهر والباطن.. كلّ شيء إليه يُردّ.. والله ـ سبحانه ـ في القرآن بذلك بعيد عن إلٰه التوراة الذي يدخل في خصومات مرهقة، مرة مع الأمم المخالفة، وأخرى مع الآلهة الزائفة.

وقد جاء في سفر أيوب خبر مناظرة للرب مع الشيطان عجيبة: «فقال الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض، رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر؟ فأجاب الشيطان الرب، وقال: هل مجانًا يتقي أيوب الله؟ أليس أنّك سيّجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية، باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض؟! ولكن ابسط يدك الآن ومسّ كلّ ما له فإنه في وجهك يجدف عليك. فقال الرب للشيطان: هوذا كل ما له في يدك. وإنما إليه لا تمد يدك. ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب» (أيوب ١/٨ ـ ١٢). فهاهنا جدال بين الربّ والشيطان، جدالُ أقران، وخصومة أنداد![1].

وأعظم ما في القرآن في رسالة الأنبياء كثافة الإخبار بمركزيّة التوحيد في

---

(١) من ظريف ما يُذكر هنا أنّ المفكر الألماني (مراد هوفمان) قد أسلم بعد قراءته القرآن واكتشافه أنّ هذا الكتاب يخالف الكتاب المقدس في أنّ الشيطان في القرآن ليس خصمًا نديًّا لله ﷻ، وإنما هو مخلوق مرذول، أمهله الله إلى يوم القيامة للحساب.

دعوتهم أممهم إلى الإيمان الحقّ؛ فلا شريك ولا قريع لله الواحد الأحد؛ فهذا (إبراهيم) عليه السلام ـ أبو الأنبياء ـ يقولها لقومه في معرض المحاجّة والصراع: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١].

وهو لا تلين له قناة، إذ يجاهرهم برفضه معتقدهم في مشهد من الناس، بل ويواجه أباه معهم بهذا الأمر: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦].

ويعرض القرآن (لإبراهيم) وهو ينصح أباه نصيحة المشفق، في مقطع شائق مؤثّر:

﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٤، ٤٥].

وهذا أيضًا (موسى) عليه السلام يدعو فرعون في نقاش بديع، للإيمان بالله:

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٩]

وهذا (هود) يقف موقف الثبات واليقين في معرض الذبّ عن التوحيد وذمّ الشرك والتنديد:

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ

مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٦].

وهذا (صالح) يناله الأذى بعد أن كان محبوبًا لدى قومه، لما جاهر بنبذ الشرك ودعا إلى التوحيد:

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٖ ﴿٦٣﴾﴾ [هود: ٦٢، ٦٣].

بل يختصر القرآن الغاية من بعثة الأنبياء، في أعظمها، بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فالتوحيد هو قطب رحى دعوة الأنبياء في القرآن الكريم..

أمّا التوراة؛ فإنها وإن كانت تنصّ على عقيدة التوحيد، حتى جعلتها الوصيّة الأولى (لموسى) عليه السلام بين الوصايا العشر؛ فإنّ هذا التوحيد يبدو غير فاعل بصورة حاسمة في تحريك الأحداث وتوجيه الأنبياء، كما أنّه ليس توحيد (الله) ربّ العالمين، وإنما هو توحيد ربّ الإسرائيليين فقط، إذ إنّ إسرائيل هي التي اختارها الله[١].. أمّا الأقوام الآخرين فلا ربّ لهم إلّا ما اختاروه من معبودات زائفة! والأمر كما قال (باينتش)؛ فإنّ التوحيد اليهودي هو توحيد قومي، أما التوحيد الإسلامي؛ فهو توحيد عالمي[٢].

أمّا الكنيسة فقد أصّلت للشرك وعبادة المخلوقين في ابتداعها عقيدة الثالوث (الآب والابن وروح القدس)، وهو مذهب في التنديد كانت عليه طائفة من الأمم الوثنية القديمة.

---

(١) انظر: خروج ١٩/ ٦٤، تثنية ٤/ ٢٠، ٤٣/ ٢١.

(٢) *Altorientalischer und israelistischer Monotheismus*, pp. 77-94 (نقله عبد الرحمٰن بدوي، الدفاع عن القرآن ضد منتقدية، ص٧٥).

وفرق كما ترى بين الحقيقة العظمى في القرآن الكريم: (التوحيد)؛ مضمونًا ومقامًا ولوازم، وبين توحيد الكتاب المقدس الضيّق، والمكدّر بالشرك الكنسيّ..!

٢ ـ شرائع الاستقامة وأخلاقها:

دعوة الأنبياء في القرآن ليست دروسًا باردة في المعرفة الكونيّة وأصل الوجود، وإنما هي إحياء للأنفس بالتطهّر من فاسد العقائد والرؤى والأفكار، وتربية لها على التزام سنن الاستقامة بفعل ما يزكّي المرء ويجمع الناس على الخير، وينشر الحق والعدل والفضل في الأرض. وقد كان الأنبياء بذلك القدوة المثلى مع بلاغهم لخبر السماء؛ فاجتمع التعليم بالقول مع التعليم بالفعل والمثال، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

٣ ـ التبشير بالجنة والنذارة بالعذاب:

إنّ تحريك الهمم إلى العمل الصالح، وتسلية المبتئس المحزون وهو في غمرة المحن وبين موجها العالي، لا يمكن أن يبلغ ذروته في النفس الإنسانية إلا بوعده بجنّة الآخرة حيث الراحة بلا نصب، والنعيم بلا مكابدة، والمتعة دون منغّص.. إنها دار المستقرّ حيث المكث النهائي بلا موت..

وقد انتهى (سقراط) بحكمته العميقة، دون مدد الوحي، إلى حقيقة الدار الآخرة، وأنّ قصّة الحياة لا يمكن أن تنتهي بين جنادل القبر، قائلًا: إنّ هذه النفس حينما تغادر الجسد سرعان ما تغمرها السعادة الدائمة لأنها ستحيا إلى جوار الآلهة في العالم العقلي(١).

نصّ القرآن الكريم في كثير من آياته على دعوة الأنبياء أقوامهم إلى الجنّة ووعدهم إيّاهم بنعيمها الدائم ومقامها الطيّب، وأنّهم إليها يعودون، وأنّ غاية المتعة ليست في لذّة طينيّة زائلة، وإنما في مستقرّ بهيّ باق..

---

(١) توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٧م)، ص٣٢.

وكما أنّ الفعل الإنسانيّ يتحرّك بجانب التمنية والترغيب؛ فإنّه يتحرّك أيضًا بدافع التخويف والترهيب.. وهذان العاملان هما وقود النفس الإنسانية في تباعدها عن سقيم المعتقد ورذيل الفعل، وإقبالها على الإيمان الحق والصدق في الفعل الجميل..

وبالنظر في قصص النبيين في القرآن الكريم، يبرز جانب الترهيب من اليوم الآخر بصورة بيّنة؛ إذ إنّ المدعوين كانوا ما بين وثنيين وآخرين قد انحازوا إلى الفريق الذي حرّف دعوة الأنبياء الأوائل.. فكان الترهيب من وَقْع العذاب أبلغ في نفوس كثير منهم من تمتيع أسماعهم بجمال يوم الجزاء..

وقد تكرّر التخويف من عذاب النار بدعوة المشركين إلى الاستقامة على جادة الصلاح والهدى.. فهذا (نوح) عليه السلام يبدأ دعوته بالنذارة من عذاب الله وشديد انتقامه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩].

وهذا (شعيب) يصرخ في قومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود: ٨٤].

ولكن.. إذا نظرنا إلى الجهة المزعوم أنها مصدر الاقتباس القرآني؛ فسنلاحظ أنّ العهد القديم الذي يمثّل المرجع اليهودي الأسنى والمرجع النصراني الأطول، لا يذكر اليوم الآخر إلّا نادرًا في آخر أسفاره تأليفًا[(١)]. وقد ذهب النقّاد إلى أنّ عقيدة اليوم الآخر لم تظهر (من خلال ملاحظة نصوص الكتاب المقدس ـ المحرّف ـ) إلّا في مرحلة متأخرة من سلسلة دعوات بني إسرائيل؛ إذ إنّ «أولى الإشارات في الأدب اليهودي لقيامة البشر في نهاية الزمان ظهرت في سفر دانيال»[(٢)]..!

---

(١) تأخّرُ ظهور ذِكر اليوم الآخر في أسفار العهد القديم برهان تحريفها؛ إذ إنّ التصوّر الإسلامي يقطع أنّ الأنبياء السابقين قد بلّغوا خبر يوم الجزاء قومهم. ولا يستسيغ عقل الحكيم أن يذكر الأنبياء لأقوامهم بسيط الأمور مع إهمال أمر المعاد، وحياة الأبد.

(٢) *The World Book Encyclopedia* (Chicago: World Book, 2001), 16/264.

وقد جاء التصريح في الكتاب المقدس بأنّ الوجود الإنساني عبث؛ **بدايته جنينٌ في الرحم، وآخرته جثة تفنى، ثم العدم**: «ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة، وحادثة واحدة لهما، موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل؛ فليس للإنسان مزية على البهيمة؛ لأن كليهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد، كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما، مَنْ يعلم هل تصعد روح البشر إلى العلاء، وتنزل روح البهيمة إلى الأرض؟» (الجامعة ٣/ ١٩ ـ ٢١).

كان مفهوم البعث عند اليهود غير نشأة الأجساد للقيامة للحساب؛ يقول (ستمبسون): «كان رجاء الحياة بعد الموت مقصورًا في أيام العهد القديم على البعث الذي سيعقب ظهور المسيح»[١].

أمّا الأمر في العهد الجديد فهو حديث سريع ومشتت لا يشكّل في مجموعه صورة متكاملة متناسقة![٢].

غايات ذكر قصص النبيين:

جوهر وظيفة النبيّ في التأصيل القرآني وسرده القصصي يتمثّل في بيان العلم الذي وهبه الله الأنبياء، بما يعرّف الناس بخالقهم وفاطر هذا الكون ومدبّره، وصفاته العالية، والصلة بينه وبين عباده، وموقف الإنسان من هذا العالم، ومبدئه، ومصيره، وما يرضي الربّ تبارك وتعالى وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه، وما يترتب على ما يصدر منه من قول واعتقاد وعمل، وأجر ذلك[٣]... وتبدو الصورة في العهدين القديم والجديد قاصرة في مداها الأقصى على الدعوة إلى عبادة (يَهْوَهْ)، وخوض الحروب الدمويّة الظالمة

---

(١) George W. Stimpson, *A Book about the Bible* (New York: Harper & Brothers, 1945, 4th edition), p.38.

(٢) انظر: متّى ٣٥/ ٤٦، متّى ١٩/ ٢٧ ـ ٢٩، مرقس ٩/ ٤٣ ـ ٤٨، ١٤/ ٢٣ ـ ٢٥، لوقا ٢٢/ ١٨ ـ ٣٠، يوحنا ١٤/ ٢.

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، النبوّة والأنبياء في ضوء القرآن (القاهرة: المختار الإسلامي، ط٤، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م)، ص٢٢.

لأجل ذلك، والدعوة إلى بعض فضائل الأعمال، ومتابعة الشريعة «الموسويّة» (في العهد القديم) بتفاصيلها المرهقة، والإفراط في التفصيل النُسكي المفرّغ من الدلالة الحيّة![1].

وتبدو قصص الأنبياء في التوراة معزولة في الأغلب عن الحكمة؛ إذ يتوحّش فيها الهمّ السردي؛ حتّى لكأنّها مجرد (حكايات) للتأريخ، ولذلك تثقل المتابعة على القارئ في كثير من الأحيان لكثرة الأسماء، والأرقام، والتفصيلات المكثّفة التي تستحوذ على صفحات طويلة دون فائدة مجتناة منها، ظاهرة أو مستكنّة بين طبقات الألفاظ والمباني..

أمّا القرآن الكريم فإنّه يقصر أمره على الموعظة والعبرة، ويبدو من خلال آياته أنّ قصص النبيين لم تنزل لمجرّد تسويد الصفحات أو التكثّر من المعارف القديمة، وإنما قد تتالى نزولها لحكم عظيمة ومنافع بثيرة، **أهمها**:

١ ـ إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢ ـ تثبيت قلب النبي ﷺ وقلوب الأمّة المحمديّة على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان الباطل وأهله، قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

٣ ـ تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكرهم وتخليد آثارهم.

٤ ـ إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال؛ كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

٥ ـ مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البيّنات والهدى، وتحدِّيه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل؛ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ

---

(١) انظر مثلًا في أمر صموئيل: ١ صموئيل ٧/١٧، ١٦/١٣، أخبار الأيام الأول ٩/٢٢.

﴿ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣].

٦ ـ القصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع، وترسخ عِبَره في النفوس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١][1].

عصمة الأنبياء:

النبيّ في القرآن ليس أداة سلبيّة للبلاغ، وإنّما هو مبلّغ باللسان، وقدوة يهتدي بسيرها في الأرض من يطلبون النجاة. والنبوة لذلك اجتباء لرجل سوي الفطرة، نقي السريرة، طاهر الجوارح من لوثات الآثام، ولازم ذلك أنّ الأنبياء مطهرون مما نسبتهم إليه أسفار التوراة أو التراث الشفهي لأهل الكتاب من قبائح ورذائل.

وللقرآن في تبرئته الأنبياء من البوائق الأخلاقية **ثلاثة مسالك أساسيّة:**

أوّلها: بيان عظيم فضلهم، وأنهم القدوة والأنموذج البشري الأمثل اعتقادًا وعملًا؛ فيقول القرآن وهو يسرد أسماء ذريّة (إبراهيم) عليه السلام من الأنبياء: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٩٠] فهم القدوة التي أمِر محمد ﷺ وأمته من بعده الاقتداء بها.

---

(١) قسطاس إبراهيم النعيمي، قصص الأنبياء، مقال إلكتروني.

وثانيها: رواية القرآن ما يخالف صريح ما جاء من منكرات أهل الكتاب، ومن ذلك خبر العجل الذي صُنع لليهود ليعبدوه؛ فقد جاء في التوراة أنّ (هارون) عليه السلام هو من صنعه، في حين نسب القرآن هذا المنكر إلى سامريٍّ ضال: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٧ ـ ٨٨].

وثالثها: أنّ يأتي النص القرآني في ذكر ما نُسب إلى النبي، وينفيه عنه بصورة مباشرة، كتبرئة القرآن (سليمان) عليه السلام من أباطيل أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾ [البقرة: ١٠٢].

داود عليه السلام بين القرآن الكريم والتوراة:

ليست هناك صورة تجمع بين النقيضين اللذين لا التقاء بينهما، كالصورة التي تقدمها التوراة لنا عن (داود) ملك اليهود القدير؛ فهو الشجاعُ قاتلُ (جالوت) الجبّار بمقلاعه دون سيف في يده[(١)]، وبذا يصبح مطاردًا من الفلسطينيين، ولكنه سرعان ما يشاركهم في محاربة عدو لهم، بل ويضع سيفه تحت تصرفهم ضد مواطنيهم اليهود[(٢)]، وهو يعمل حامل سلاح (شاؤل) الإسرائيلي يومًا ما، ثم حارسًا لـ(أخيش) الفلسطيني يومًا آخر[(٣)]، وهو قد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين، ثم أنهاه وقد قضى على نفوذهم تمامًا، وهو عدو (شاؤل) اللدود، ولكنه في نفس الوقت زوج ابنته، وحبيب ابنه (يوناثان)، وكثير من فتيات إسرائيل[(٤)]، وهو يعمل مغنيًا في بلاط (شاؤل)؛ لأنه يجيد

---

(١) انظر: ١ صموئيل ١٧/ ٥٠.

(٢) انظر: ١ صموئيل ٢٩/ ٢.

(٣) انظر: ١ صموئيل ٢٨/ ١ ـ ٢.

(٤) انظر: ١ صموئيل ١٨/ ١ ـ ٧.

الضرب على القيثار، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، ولكنه في نفس الوقت الفارس المغوار، حامل سلاح الملك وقاتل أعدائه[١].

وهو قاس غليظ القلب، ولكنه في نفس الوقت كان مستعدًا لأن يعفو عن أعدائه، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح، يقتل الأسرى جملة، كأنه ملك من ملوك الآشوريين، بل إنه ليبالغ حتى في القسوة، حين يأمر بحرق المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار[٢]، وحين يطلب منه (شاؤل) مئة غلفة من الفلسطينيين مهرًا لابنته (ميكال)، إذا به يقتل مائتي رجل من الفلسطينيين، ويقدم غلفهم مهرًا لابنة (شاؤل) هذه[٣]، وحين يوصي ولده (سليمان) ـ وهو على فراش الموت ـ بأن (يحدر بالدم إلى الهاوية)[٤] شيبة (شمعي بن جبرا)، الذي لعنه منذ سنين طويلة.

وهو يأخذ النساء من أزواجهن قسرًا، مستغلًّا في ذلك جاهه وسلطانه؛ فهو يشترط لمقابلة (أبنير) قائد جيوش (شاؤل)، أن يأتي له بميكال ابنة (شاؤل) ـ التي دفع مهرها من قبل رؤوس مائتين من الفلسطينيين ـ من زوجها (فلطئيل بن لايش)، الذي أدمى قلبه فراقها، ثم سار وراءها وهو يبكي حتى (بحوريم)، ولم يرجع من ورائها، إلا بأمر من (أبنير)، وإلا خوفًا منه[٥]، ثم يأخذ امرأة (أوريا الحيثي) بين نسائه، ويرسل بزوجها إلى الصف الأول في ميدان القتال ليتخلص منه[٦].

وهو يقبل زجر (ناثان) له في ذلة، ولكنه مع ذلك يحتفظ بـ(بتشبع) الجميلة، ويعفو عن (صموئيل) عدة مرات، ولا يسلبه إلا درعه، حين كان في مقدوره أن يسلبه حياته، ويعفو عن ـ (مغيبوشت) ويساعده ـ رغم أنه حفيد

(١) انظر: ١ صموئيل ١٦/ ٢١ ـ ٢٣.

(٢) انظر: ٢ صموئيل ١٢/ ٢٩ ـ ٣١.

(٣) انظر: ١ صموئيل ١٨/ ٢٥ ـ ٢٧.

(٤) ١ ملوك ٢/ ٩.

(٥) انظر: ٢ صموئيل ٣/ ١٢ ـ ١٦.

(٦) انظر: ٢ صموئيل ١١/ ٢ ـ ٢٦.

(شاؤل)، وقد يكون من المطالبين بعرش عمه وجده من قبله[1] ـ وهو يعفو عن ولده (أبشالوم) بعد أن قبض عليه في ثورة مسلحة، وبعد أن دنس عرضه على ملأ من القوم[2]، بل إنه ليعفو عن (شاؤل) الذي كان يسعى لقتله، بعد أن تمكن منه عدة مرات، وفي أمان مطلق ومناعة تامة[3][4].

وتبدو الصورة في القرآن الكريم على خلاف ما سبق، إذ يحفّها الإشراق من كلّ وجه؛ (فداود):

قد آتاه الله بفضله، الحكمة الثاقبة، والعلم النافع: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

هو النبي صاحب العلم، الشكور: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

وقد سُخّرت له الجبال والطير للتسبيح معه، وأجريت على يديه المعجزات التي يجري نفعها على الناس: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

وأوتي قوّة العقل والجنان والبنان: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ١٧ ـ ٢٠].

وقد اختصه الله بكرمه من بين الأنبياء بالزبور: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

---

(١) انظر: ٢ صموئيل ٤/٤ ـ ٥.
(٢) انظر: ٢ صموئيل ١٦/٢٣، ١٨/٢٣.
(٣) انظر: ١ صموئيل ٢٤/٢ ـ ٢٢.
(٤) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم، ١/ ٦٤.

خلاصة النظر:

- النبوّة في القرآن عصمة، وهداية
- الأنبياء في التوراة أهل عظائم وبوائق تصل حدّ الكفر.

مراجع للتوسع:

أحمد عبد الوهاب، النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م).

عفيف عبد الفتاح طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣م، ط١٣).

محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل، النبوة والأنبياء (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م).

الفصل الثامن

الإعجاز التشريعي

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤].

القرآن.. يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة.

(القانوني السويسري الشهير: (Marcel A. Boisard)

بين خيارين.. اقتباس فاضح أم إعجاز رائق؟

يُعتبر تنظيم معايش الناس بما يعود بالصلاح على دنياهم وأخراهم من أهمّ أغراض النبوّة، وقد جاء في القرآن والسُّنَّة تأصيلٌ وتفصيلٌ لكثير من قضايا المنع والإباحة والصحّة والفساد والتوجيه والتحديد. وتتيح هذه المنظومة التشريعية للباحث في صدق الإسلام أن يختبر ربّانيّة القرآن؛ بالنظر إلى دلائل الحكمة في هذه المنظومة بما يوافق تصوّرنا لطبيعة التشريع السماوي الذي يقيم الحق ويمنع الجور.

والناس في موقفهم من شريعة القرآن على **مذهبين**:

يرى المسلمون: أنّ القرآن متفردٌ بنسق تشريعيّ فذّ مصلح لكلّ مكان وزمان، وأنّه قد راعى طبائع النفس الظاهرة والدفينة، ومنح الفرد حقوقه دون إجحاف ولا إفراط، ونظّم حال الجماعة فتآلفت حبّات العقد ولم تنفرط، وانتصف للضعيف، وحجز القويّ عن الظلم.. وكلّ ذلك بيّنات لا تردّ على أنّ الرجل الذي عاش في أمّة البداوة والعزلة لم يزوّر هذا القرآن من أوهام نفسه، وإنّما هو تنزيلٌ عزيز.

ويرى المخالفون: أنّ شريعة الإسلام مجردّ تلفيق من شرائع اليهود، أو شرائع اليهود والرومان؛ فليس فيها شيء من الإبداع، وإنّما هو اقتباس ومتابعة للسالفين دون طريفٍ.

الشريعة الإسلامية.. أسئلة مشروعة!

تكرّر حديث الدعاة عن الشريعة الإسلامية وأنها مصدر للنهضة الإسلامية قديمًا، ومصدرٌ ثَرٌّ لنظم سياسيّة واقتصادية وجنائية... ينعم تحت ظلّها بالأمن والعدل. ويرى المخالفون أنّ ذاك حديث عاطفيٌّ بلا رصيد واقعي، بل الواقع يشهد ـ كما يقولون ـ ضد إعجاز الشريعة، بل وضد صلاحها.

ولو أردنا تلخيص اعتراضات الطاعنين في ربّانيّة الشريعة الإسلاميّة، **لقلنا:**

• الحديث عن الإعجاز التشريعي للقرآن (بمعنى أنّ هذه التشريع عظيم وقادر على إحداث نهضة في أيامنا رغم أنّه قد ظهر على يد رجل أميّ عاش في بيئة بدائية في أرض مغمورة؛ فلا تصحّ نسبة هذه المنظومة التشريعية إلى بشر عاش في قرون الظلام، أو إلى بشر في أيّ عصر) مجرّد دعوى تفرّدَ المسلمون بها؛ فهي مجرّد دعوى إيمانيّة ساذجة لا يشاركهم فيها أحد.

• الشريعة الإسلامية مجموعة أحكام منقولة عن شرائع السابقين، خاصة شرائع اليهود.

• شرائع الإسلام بدائية وظالمة، وهو ما يظهر بصورة واضحة في شريعتي الجهاد والمواريث.

لا أجد بعد الاعتراضات السابقة ما يستحق الذكر؛ ولذلك فجواب هذه الاعتراضات كافٍ لحسم القول في أمر مصدر الشريعة الإسلامية، بين نسبتها إلى رجل في مجاهيل صحراء العرب في القرن السابع، والقول: إنّها أعظم من أن يبلغها عقل بشر عاش ذاك الزمان..[1].

---

(١) المسلمون يقولون: إنّها شريعة ترقى فوق عقول البشر في كلّ عصر، وهو أمر لن نناقشه مع المخالف =

شهادات غير إسلامية في المنظومة التشريعية القرآنيّة:

الهجمة الشرسة في أوساط العالمانيين العرب على الشريعة الإسلاميّة واتخاذها غرضًا لسهام التشويه، يقابلها ما شهد به رجال قانون غربيون اطّلعوا على ذخائر الشريعة الإسلاميّة، وشهدوا لها بالتميّز والعظمة. وهي شهادات لا يمكن أن يُطعن فيها بالعاطفيّة أو القول بجهل لأنّها صدرت عن أصحابها بعد قراءة واطّلاع.

يحدثنا أمين عام الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة[١]، في كتابه «المنح الإلٰهية في إقامة الحجة على البشرية» ـ الصادر منذ سنوات قليلة ـ عن ما ذكره أحد علماء الاقتصاد الغربيين في ختام أحد المؤتمرات الاقتصاديّة الإسلاميّة التي عقدت في مدينة (بادن) في ألمانيا. يقول: «كنت أحد الحاضرين فيه، وضمّ مائة وعشرة من علماء الاقتصاد المسلمين، ومائة وعشرين من علماء الاقتصاد الغربيين الذين جاؤوا من غرب أوروبا، لمناقشة قضيّة الاقتصاد الإسلامي. وفي اليوم الأخير من المؤتمر، وقف رئيس فريق الاقتصاديين الغربيين، وقال: «**لقد تبيّن لي وللفريق العامل معي أنّ إنقاذ العالم من مأساته الاقتصاديّة، موجود عندكم معشر المسلمين**»[٢].

وقريب من ذلك تصريح (فانسون بوفيس)[٣] ـ أحد المحررين في مجلة (challenges) الفرنسيّة المعروفة والمتخصصة في المجال الاقتصادي ـ في مقال بعنوان «البابا أو القرآن» أنّ على الغرب في ظلّ الأزمة الاقتصادية الراهنة أن يبحث عن حلّ أزمته في الشريعة الإسلاميّة التي تمنع بيع مال بمال بزيادة إذا كانا من جنس واحد[٤].

إنّ التميّز التشريعي القرآني وأصالته قد أصبحا حقيقة علميّة عند الكثير

= هنا، وإنّما سنكتفي بمناقشة الموضوع الذي يعنينا في هذا الكتاب، وهو مصدر التشريع الإسلامي في القرن السابع، أبشريٌّ طبيعي أم هو مصدر فوق الطبيعي؟

(١) د. (عبد الله المصلح).

(٢) عبد الله المصلح، المنح الإلٰهية في إقامة الحجة على البشرية (د.ن.، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م)، ص٣٢.

(٣) Vincent Beaufils

(٤) Beaufils Vincent (2008) ##1*Le pape ou le Coran*« http://www.challenges.fr/

من أعلام القانونيين من غير المسلمين، وقد اعترف مؤتمر القانون الدولي المقارن الذي انعقد في أغسطس ١٩٣٧م بأنّ التشريع الإسلامي قائم بذاته وليس مأخوذًا من غيره[1]؛ في إشارة إلى تميّز التشريع الإسلامي عن القانون الروماني..

وقد سبق التشريع الإسلامي القانون الغربي في عدد من مقولاته الكبرى التي اعتبرها القانونيون طفرات عظيمة في الأحكام التشريعية الوضعية عندهم، ومن هذه المقولات: «نظرية التعسف في استعمال الحق»[2] ونظرية «الظروف الطارئة» ونظرية «تحمل التبعة» و«مسؤولية عدم التمييز»...[3].

وتحدّث القانوني (ليون أستروروج) ـ في النصف الأول من القرن العشرين ـ عن المنظومة التشريعيّة الإسلاميّة في مجال حقوق الإنسان، بكلّ إجلال وتوقير ليقول: «النظام [التشريعي الإسلامي] كامل إلى درجة نادرة من ناحية بنائه المنطقي، وهو إلى اليوم يثير إعجاب الدارسين»[4].

وصرّح (شبرل) ـ عميد كلية الحقوق في جامعة (فيينا) ـ في مؤتمر الحقوقيين عام ١٩٢٧م «أنّ البشرية تفخر بانتساب رجل كمحمد لها إذ إنه رغم

(١) علي علي منصور، مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية (بيروت: دار الفتح، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م)، ص٦٧ ـ ٦٨.

(٢) إن نظرية الاعتساف في الحق وحدها قد أذهلت القانونيين الغربيين في القرن العشرين، حتى إنه لما كتب أحد المسلمين رسالته عن مذهب الاعتساف في استعمال الحق، ولم يخرج فيها عما قرره فقهاء الإسلام تهافت القرّاء عليها حتى نفدت في ستة أشهر، وكتبت عنها المجلات القانونية الغربية حتى قال القانوني الألماني الشهير (كوهلر) في مقالٍ له: «إن الألمان كانوا يتيهون عجبًا على غيرهم لخلقهم نظرية الاعتساف في استعمال الحق، وإدخالها ضمن التشريع في القانون المدني الألماني الذي وضع سنة ١٧٨٧م. أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي، وأفاض في شرح هذه النظرية نقلًا عن رجال الفقه الإسلامي، فإنه يجدر بعلماء القانون الألماني أن يتنازلوا عن المجد الذي نسبوه لأنفسهم، ويعترفوا بالفضل لأهله، وهم فقهاء الإسلام الذي عرفوا هذه النظرية وأفاضوا في الكلام عنها، قبل الألمان بعشرة قرون». علي علي منصور، مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ص٤٢ (نشر المقال في الجريدة القضائية في ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧م).

(٣) انظر: علي علي منصور، مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ص٤٢.

(٤) C. G. Weeramantry, *Islamic Jurisprudence: An International Perspective* (Basingstoke u.a.: Macmillan, 1988), p.113.

أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة»[(١)].

كما أقرّ القاضي السابق في محكمة العدل الدوليّة والأستاذ المتقاعد من جامعة (موناش) (كريستوفر ويرمنتري) في كتابه «الفقة الإسلامي: منظور دولي» بعظمة الشريعة الإسلاميّة ـ خاصة فيما يتعلّق بالقانون الدولي ـ وأثرها على القانون الأوروبي. وأظهر في هذا الكتاب انبهاره وإعجابه الشديدين بمبادئ الشريعة الإسلامية وتفاصيلها، ولم يكن حديثه مجرّد معان مُجملة وإنما كان كلّه إحالات صريحة إلى النصوص القرآنية والحديثية. وقد أنكر بشدّة على الكتّاب الغربيين تجاهلهم للشريعة الإسلاميّة في حديثهم عن تاريخ القانون الدولي وأكّد أنّ الشريعة الإسلاميّة سابقة لما يعتبر تأسيسًا لهذا القانون على يد (غروتيوس)[(٢)] في القرن السابع عشر؛ موضّحًا أمرين هامين: **أولهما**: أنّه في مقابل التأصيل التشريعي الإسلامي للقانون الدولي، لم يعرف اليونان ولا الرومان ولا الكنيسة نظريّة قانونيّة متناسقة في هذا الموضوع[(٣)]، **وثانيهما**: دلّل من أوجه كثيرة على معرفة (غروتيوس) بالتشريع الإسلامي وتأثّره به[(٤)].

ولا يسع القارئ غير المسلم وهو يقرأ كتاب القانوني (ويرمنتري) إلّا أن يسأل نفسه: كيف أوتي (محمد) ﷺ هذه القدرة (الخارقة) على (إنشاء) هذا الصرح التشريعي دون ميراث بشري سابق، إن لم يكن هو الوحي الربّاني؟! وكيف يكون هذا القرآن من نتاج صحراء القرن السابع ميلاديًّا النائية، وهو مع ذلك يفيض خيرًا على البشريّة في مجالات التشريع إلى اليوم؛ ويأخذ بألباب كبار القانونيين الغربيين حتى القرن الواحد والعشرين رغم أنهم لم يلجوا أعماقه الدفينة بعد؟!

---

(١) يوسف القرضاوي، شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كلّ زمان ومكان (القاهرة: دار الصحوة، ١٩٩٣م، ط٢)، ص٧١.

(٢) هوجو غروتيوس (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥م): قانوني ولاهوتي هولندي.

(٣) “neither the Greeks nor the Romans had produced a coherent theory of international law [...] the medieval Christian Church was only groping towards this concept” C. G. Weeramantry, *Islamic Jurisprudence*, p.151.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٥٠ ـ ١٥٨.

الظهور المفاجئ لشريعة جديدة (مبهرة للقانونيين الغربيين اليوم) في صحراء البلاد العربية في القرن السابع على يد رجل أميّ، أمرٌ يقتضي تفسيرًا ماديًّا أو آخر إعجازي. هما حلّان لا ثالث لهما. فشلُ التفسير المادي المقنع حجّة للأصل فوق الطبيعي.

مصادر بشرية لشرائع الإسلام؟

أدرك كثير من خصوم الإسلام أنّ شريعة القرآن لا يمكن ردّها لرجل أميّ كانت حياة البساطة التي عاشها قومه تلفّ أيّامه ولياليه، ولذلك طمعوا في استخراج مصدر لهذه الشريعة يكون خلاصة جد واجتهاد من علماء ومشرّعين. .

التوراة والتلمود:

لا يرى مصدريّة التوراة والتلمود للتشريع القرآني غير قلّة من المستشرقين، بل إنّ (جايجر) نفسه ـ صاحب أشهر كتاب في دعوى الاقتباس المكثّف للقرآن من اليهوديّة ـ رغم أنّه قد عقد في كتابه مبحثًا خاصًا عن اقتباس التشريع القرآني من اليهوديّة، إلّا أنّه لم يجد إلّا صورًا قليلة جدًّا للتشابهات بين التشريع القرآني والتشريع اليهودي؛ فقام بنفسه بهدم حجيّتها عندما كتب في آخر حديثه أنّه لم يجد غير عدد قليل جدًّا من التشابهات التي عدّها اقتباسات، رغم أنّه قد قارن بين التشريع القرآني والتشريع التلمودي الضخم. وزاد في نقض دعواه عندما اعترف أنّه بالإضافة إلى قلّة هذه التشابهات؛ فإنّه من الممكن القول إنّها أعراف شرقيّة عامة[1]؛ فليست هي إذن من مميزات التشريع اليهودي، بالإضافة إلى أنّ الواقع الشرقي كان يستدعيها في حياة الناس بسبب الحاجة إليها!

إنّ أوجه الخلاف بين التشريعات القرآنيّة والتشريعات التوراتيّة عظيمة وعميقة:

---

(١) A. Geiger, *Judaism And Islam*, p. 70.

أولًا: غياب منظومة تشريعيّة توراتية تستوعب تفاصيل الحياة وتسدّ حاجات الأمّة والفرد؛ في حين استوعب التشريع الإسلامي (قرآنًا وسُنَّة) جليل الأمور ودقيقها.

ثانيًا: إغراق النص التوراتي في التشريعات الطقوسيّة التفصيليّة التي لا تمسّ حياة الناس في شيء، وهو ما لا نرى له ظلًّا في القرآن الكريم.

ثالثًا: يزخر النص القرآني بعدد ضخم من النصوص التشريعيّة الكليّة العامة التي توفّر للفقيه معالم كبرى للاستنباط في كلّ بيئة وحال، في حين استغرقت التفاصيل التشريعيّة نصوص التوراة.

رابعًا: من اليسير أن يلاحظ القارئ أثر البيئة على كثير من الأحكام التشريعيّة في التوراة، في حين تبدو النصوص التشريعيّة القرآنيّة حاكمة على البيئة؛ فهي التي تصنع الواقع وتشكّله.

خامسًا: تستوعب الشريعة الإسلاميّة حاجات الإنسان سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، في حين تكتفي الشريعة التوراتيّة بالنظر في حاجات الإسرائيلي.

سادسًا: كثير من أحكام التوراة قائمة على تمييز طبقة رجال الدين عن طبقة العامة، في حين يخلو التشريع الإسلامي من الاعتراف بطبقة رجال الدين؛ فكلّ المسلمين مكلّفون بالتزام الشرع متى بلغوا وعقلوا الخطاب.

سابعًا: رغم أنّ الشريعة الإسلاميّة قائمة على مبدأ أنّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه؛ إلّا أنّها تحترم في الإنسان إنسانيّته مهما كان انتماؤه العقدي، وتؤمن بحاجاته الآدميّة دون تمييز ديني، في حين يختزل التشريع التوراتي (الإنسان) في (الإسرائيلي).

ثامنًا: قانون الحرب في الإسلام منضبط بحدود أخلاقيّة تمنع جموحه نحو الانتقام أو نهمة الثروة، في حين تكسو نصوص الحرب في العهد القديم غلالة كثيفة من الدمويّة والكلف بالمال.

تاسعًا: العقوبة الجنائية في التوراة قائمة على مبدأ النكاية في المتعدي على حدود الشرع، في حين تقوم العقوبة الجنائيّة في الإسلام على مبادئ:

الزجر، والوقاية، ومنح الولي سلطان العفو، وحضّه على ذلك.

عاشرًا: حقوق المرأة هامشيّة في التوراة، فهي لا ترث إذا كانت أمًّا أو ابنة، ولا حقّ لها في الانفصال عن الزوج، وعقوبة مغتصبها إذا كانت عذراء أن يتزوجها، ولأبيها أن يبيعها، والفكرة الحاكمة هنا هي أنّ المرأة متاع مملوك للرجل، وأنّ العدوان عليها هو في الحقيقة عدوان على أبيها أو زوجها فقط؛ إذ إنّها داخلة ضمن ملكيّتهما.. أمّا القرآن الكريم فيقرّر أنّ المرأة كالرجل في كلّ شيء إلّا ما استثني لعلّة معتبرة، وأنّها مستقلّة لنفسها بالاعتبارين الأدبي والمالي(١).

ثمّ.. إنّ تشريعات الكتاب المقدس التي يزعم المنصّرون أنها وحي ربّاني، ما هي في الكثير منها إلّا اقتباسات من التشريعات الأرضيّة الوضعيّة؛ فهي التي يجب أن تدان باستنساخ شرائع البشر!

ومن عجائب منكرات شرائع التوراة التي ليس لها أثرٌ في القرآن:

- لا ترث البنات إذا كان لهن أخ(٢).
- لا تطبخ جديًا بلبن أمه(٣).
- «إذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمات، يرجم الثور حتى الموت»(٤).
- «لا يدخل ذو الخصيتين المرضوضتين أو المجبوب في جماعة الرب. لا يدخل ابن زنى ولا أحد من ذريته حتى الجيل العاشر في جماعة الرب»(٥).
- إذا توفيّ الزوج، فعلى أخيه قسرًا أن يتزوّج زوجته؛ فإن رفض؛ تشتكيه إلى القضاء الذي يناقشه في الأمر؛ فإن أصرّ على رفضه؛ تخلع المرأة

---

(١) انظر: في حقوق المرأة ومقامها بين القرآن الكريم والكتاب المقدس كتابنا: «المرأة بين إشراقات الإسلام وافتراءات المنصرين».. وهو متاح على النت:

Http://www.arcri.org/woman/

(٢) انظر: العدد ٢٧/١ ـ ١١.

(٣) انظر: خروج ٣٤/٢٦.

(٤) خروج ٢١/٢٨.

(٥) تثنية ٢٣/١ ـ ٢.

نعله، وتبصق في وجهه، ويُدعى بيته: «بيت المخلوع النعل»[١] وفي التلمود أنّ المتوفّى عنها زوجان بسبب طبيعيّ، لا يحقّ لها الزواج مرّة أخرى (Yeb. 64b).

• «إِذَا تَعَارَكَ رَجُلَانِ فَتَدَخَّلَتْ زَوْجَةُ أَحَدِهِمَا لِتُنْقِذَ زَوْجَهَا مِنْ قَبْضَةِ يَدِ ضَارِبِهِ وَمَدَّتْ يَدَهَا وَأَمْسَكَتْ بِخِصْيَتِهِ؛ فَاقْطَعُوا يَدَهَا وَلَا تُشْفِقُوا عَلَيْهَا»[٢].

• «لا تتقاضوا فوائد عما تقرضونه لإخوتكم من بني إسرائيل، سواء كانت القروض فضة أو أطعمة أو أي شيء آخر، أما الأجنبي فأقرضوه بربا»[٣].

• إذا اغتصب رجل فتاة عذراء؛ فإنّ عقوبته هي أن يتزوّجها، وأن تبقى هي معه حتى الموت![٤]

• «من يمس جسد المصاب بالسيلان يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء»[٥].

• «إن بصق المصاب بالسيلان على شخص طاهر؛ فعلى الطاهر أن يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء»[٦].

• «وإذا حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجسًا إلى المساء. كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجسًا، وكل من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسًا إلى المساء. وكل من مس متاعًا تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء. وكل من يلمس شيئًا كان موجودًا على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجسًا إلى المساء»[٧].

---

(١) انظر: تثنية ٢٥/٥ ـ ١٠.
(٢) تثنية ٢٥/١١ ـ ١٢.
(٣) تثنية ٢٣/١٩ ـ ٢٠.
(٤) انظر: تثنية ٢٢/٢٨ ـ ٢٩.
(٥) لاويين ١٥/٧.
(٦) لاويين ١٥/٨.
(٧) لاويين ١٥/١٩ ـ ٢٣.

• «إذا حملت امرأة وولدت ذكرًا، تظلّ الأم في حالة نجاسة سبعة أيام. . . وإن ولدت أنثى فإنها تظل في حالة نجاسة مدة أسبوعين»[(١)].

• على صاحب الحمار أن يفدي أوّل مولود لهذه الدابة، بشاة؛ وإذا لم يفده بشاة؛ فإنّ عليه عندها أن يكسر عنق الحمار![(٢)].

العهد الجديد والقانون الكنسي:

امتناع أن يكون تشريع اليهود مصدر التشريع القرآني يلزمنا أن نبحث في شريعة النصارى؛ فلعلّها هي نبع أحكام الحلال والحرام في الرسالة المحمّديّة؟

لا شريعة في الكنيسة. صرّح العهد الجديد أنّ شريعة التوراة هي شريعة معيبة باطلة[(٣)]، وقرّر (بولس) صراحة أننا لسنا بحاجة إلى شريعة عمليّة، وإنما علينا أن نكتفي بعقيدة صلب الإلٰه؛ للنجاة[(٤)]. .

أمّا القانون الكنسي؛ فقد بدأ ببعض المجامع التي كانت حصيلتها مجموعة قليلة من القرارات، جلّها خاص بالقضايا اللاهوتيّة والنسكيّة والترتيبيّة في البنيان التنظيمي للكنيسة. . ثم أصبح بابا روما مصدرًا جديدًا لحسم القول في التحليل والتحريم في القضايا التشريعيّة التفصيليّة ـ التي هي قليلة أيضًا ـ؛ حتى كان يقال: (Roma locuta est causa finite)؛ أي: «لقد تكلّمت روما، وأغلقت القضيّة».

لسنا هنا ـ في المرحلة السابقة والموازية للبعثة النبويّة ـ أمام تشريع بالمعنى الحقيقي الكامل، وإنّما هي مجموعة صغيرة جدًا من التعليمات التي لا تمس من واقع الجماعة البشريّة شيئًا يذكر!

زمن التقنين. إنّ أوّل محاولة لتجميع القانون الكنسي بصورة منظمة

---

(١) لاويين ١٢/ ٢، ٥.

(٢) انظر: خروج ٣٤/ ٢٠.

(٣) انظر مثلًا: غلاطية ٣/ ١٣.

(٤) انظر مثلًا: أفسس ٢/ ١٥، روما ٣/ ٢٧ ـ ٢٨، تيطس ٣/ ٤ ـ ٥.

وموسوعيّة كانت في القرن الحادي عشر ميلادي ـ أي: بعد نزول القرآن الكريم بقرون ـ على أحد الرهبان، وسمّيَت باسم (Decretum Gratiani)؛ وهو ما يدلّ على أنّ الإحاطة بالتشريعات الكنسيّة زمن حياة رسول الله ﷺ من الأمور العسيرة التي تحتاج دراسة ومتابعة وعلمًا باللغات اليونانية واللاتينيّة والسريانيّة..!

لقد كان القانون الكنسي قبل البعثة لا يكاد يتجاوز حدود النصائح الأخلاقيّة العامة المتعلقة بالصدق والعفّة، مع تفصيل أمر الشعائر العباديّة، وترتيب المراتب الكنسيّة[1]، كما أنّ المجامع الكنسيّة في القرون السابقة لبعثة نبي الإسلام ﷺ لم تنشغل في الجانب التشريعي إلّا بالقضايا الجزئيّة التي لا تمسّ غير خاصةٍ من الناس في الأغلب، وكان همّها الأوّل حسم القضايا اللاهوتيّة..

فبين هذا التطور القانوني والبعثة النبويّة مسافات زمنيّة: قرون، ومسافات مادية: المسافة بين جزيرة العرب وأوروبا، ومسافات معرفيّة: اللغات الأعجميّة.

إنّ القول بالاقتباس القرآني من أسفار العهد الجديد وتقنينات الكنيسة في باب التشريع لا يصمد أمام أولى الدراسات المقارنة، ولذلك لا يكاد يُعرف له أنصار!

التشريع الروماني:

اضطرّ الطاعنون في القرآن الكريم إلى التوجّه إلى القانون الروماني للقول: إنّه مصدر التشريع الإسلامي، لكن لم تصمد هذه الدعوى طويلًا؛ فقد ردّ عليها كتّاب من المستشرقين كالمستشرق الإيطالي (نلّينو)[2] في محاضرته التي ألقاها في المؤتمر الدولي للقانون الروماني، في روما سنة ١٩٣٣م،

---

(١) من ذلك: (الدسقولية) و(الديداكي).

(٢) كارلو نلّينو Carlo Nallino (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨م): مستشرق إيطالي. درّس في عدد من الجامعات الإيطالية وفي مصر. عضو الأكاديمية الملكية الإيطالية.

بعنوان: «علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الروماني»[1]. والثابت أنّ الرسول ﷺ لم يكن يعرف لغات الإمبراطوريّة الرومانيّة، وكان الإمبراطور الروماني (جستينان) قد ألغى جميع مدارس القانون الروماني في الإمبراطوريّة الرومانيّة عدا مدرسة روما والقسطنطينيّة وبيروت، بموجب قرار أصدره سنة ١٦ ديسمبر سنة ٥٣٣م[2]. وكانت البلاد العربيّة نائية تمامًا بقوانينها العرفية عن شرائع الأمم الأخرى، كما أنّ الاختلافات الواسعة بين شريعة القرآن وشرائع الرومان[3] تبطل كلّ دعوى للاقتباس..

.. بل هو تأثير إسلامي في شرائع أهل الكتاب:

شهد المستشرق (جوزيف شاخت)[4] ـ الذي يعدّ أحد أهمّ المستشرقين المعتنين بالدراسات التشريعيّة والفقهيّة الإسلاميّة ـ أنّ التشريع الإسلامي هو الذي أثّر في التشريعات اليهوديّة والنصرانيّة. قال: «من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضّر قانونه الديني، الذي يسمى (بالشريعة). والشريعة الإسلاميّة تختلف اختلافًا واضحًا عن جميع أشكال القانون.. إنّها قانون فريد في بابه.. إنّ الشريعة الإسلاميّة هي جملة الأوامر الإلٰهيّة التي تنظّم حياة كلّ مسلم من جميع وجوهها»[5].

«إنّ التشريع الإسلامي قد أثّر تأثيرًا عميقًا في جميع فروع القانون في إقليم الكرج (جمهوريّة جورجيا)، وذلك من خلال فترة تمتد من عصر السلاجقة إلى عصر الصفويين.

---

(١) عرّب هذه المحاضرة، ونشرها د. (صلاح الدين المنجد) في كتابه «المنتقى من دراسات المستشرقين».

(٢) صوفي حسن أبو طالب، بين الشريعة الإسلاميّة والقانون الروماني، ص٤٨ (نقله، عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميّة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ط١٥، ص٦٥).

(٣) انظر تفصيل الرد: عبد الكريم زيدان، المصدر السابق، ص٦٢ ـ ٧٥.

(٤) سبق تعريفه.

(٥) شاخت، تراث الإسلام، ص١٢ (نقله، محمد عمارة، الإسلام في عيون غربيّة، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م، ص١٨٠).

ثمّ هناك **تأثير التشريع الإسلامي على قوانين أهل الديانات الأخرى، من اليهود والنصارى** الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلاميّة»[1].

«فبالنسبة للجانب اليهودي يبدو أنّ (موسى بن ميمون) قد تأثّر ببعض ملامح المؤلّفات الإسلاميّة في تنظيمه للمادة القانونيّة في مدوّنته بعنوان (مشناه توراة) وهو عمل لم يسبقه إلى مثله أحد من اليهود. ويقول أيضًا في تعليقه على (المشناه) الذي كتبه بالعربيّة: (وذلك في تقديمه لما يسمى بالفصول الثمانية)، يقول: وإنه إلى جانب التلمود والمدراش، قد أفاد من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين وكثير غيرهم، إنه ينبغي على المرء أن يقبل الحقيقة من أي إنسان يقولها ـ لكن هذه المسألة كلها لم تبحث بحثًا كاملًا حتى الآن.

ومن جهة أخرى فإنه بالنسبة للجانب المسيحي؛ فليس هناك شك في أن الفرعين الكبيرين للكنيسة المسيحية الشرقية، وهما: اليعاقبة والمونوفيزية [أصحاب الطبيعة الواحدة] والنساطرة **لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي**»[2].

وقال المستشرق اليهودي (نفتالي ويدر) في كتابه «التأثيرات الإسلاميّة على العبادات اليهوديّة» متحدثًا عن أهم عمل فقهي يهودي في القرون الوسطى، وهو «مشناه توراة» في سياق حديثه عن الأثر العام للمسلمين أصحاب اللسان العربي على اليهود: «ومن الناحية الشكليّة اتّخذ اليهود لأنفسهم مناهج العرب العلميّة في فروع الدين، والأخلاقيات، والنحو، وتفسير الكتاب المقدس. بل حتّى في ميدان الشريعة؛ فكتاب (مشناه توراة) الذي يبهرنا ببنائه وترتيبه، ليس هو سوى ترتيب لمواد الشريعة الضخمة وفقًا

(١) شاخت، تراث الإسلام، ص١٤ (نقله المصدر السابق، ص١٨٢).

(٢) شاخت، تراث الإسلام، ص٢٧ ـ ٢٩ (نقله المصدر السابق، ص١٨٢ ـ ١٨٣).

للنظام الذي وضعه علماء الفقه المسلمون»[1].

كما أبان المستشرق (موشيه مردخاي تسوكر) بشكل علمي في مقدمته لكتاب «تفاسير الرابي سعديا جاؤون لسفر التكوين» التأثير الإسلامي الكبير على فقهاء اليهود في القضايا الأصوليّة، سواء ما تعلّق منها بأصول الفقه أو أصول الدين.

شرائع منكرة أم سنن تنظيمية مبهرة؟

من جميل قول شعراء العرب، قول (البحتري) الذي صار مثلًا:

إذا مَحَاسِنِيَ اللّاتي أُدِلُّ بِهَا كانت ذنوبي، فقُلْ لي كَيفَ أعتَذرُ؟!

وهذا حال من يدفع عن الشريعة الإسلاميّة تهمة الفساد أو الإفساد؛ فإنّ ما يُنكر على هذه الشريعة هو عين ما يدلّ على ربّانيّتها، ولكنّ ذلك أمر لا يفقهه من تجري به أذواق الناس اليوم حيث تشاء.

إنّ الأمر يحتاج إلى فهم حقيقة التشريعات التي هي موضع الإنكار، وربطها بمجمل المنظومة التشريعية الكبرى لِتبيُّن دقائق الحكمة فيها، ثم وضعها في السياق التاريخي الذي ظهرت فيه بمقارنتها بتشريعات وثنيي العرب وأهل الكتاب في القرن السبع الميلادي؛ وعندها ستذهب الشبهة ويحل محلّها الإعجاب بما نزل من حكم. ولعلّنا لا نجد تمثيلًا لهذا الأمر خيرًا من شريعتَي الجهاد والميراث في الإسلام؛ فهما محلّ التهمة الأولى عند الحديث عن ربانية الشريعة الإسلاميّة.

شريعة الجهاد بين القرآن والسُّنَّة والتوراة:

لا نعرف شريعة إسلاميّة تتعرّض اليوم إلى القصف الفكري والإعلامي

---

(١) نفتالي ويدر، التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية، ص٩ (عن موشيه مردخاي تسوكر، التأثير الإسلامي في التفاسير اليهودية الوسيطة، تحقيق: أحمد محمود هويدي، القاهرة: مركز الدراسات الشرقيّة جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م، المقدمة، ص١٣).

مثل شريعة الجهاد؛ فقد شوّهها الخصوم حتّى اختصر الغربيون الإسلام في سفك الدماء البريئة وانتهاك الحرمات المعصومة.. بل ـ للأسف ـ أصبح بعض شباب الإسلام يرى في الجهاد الإسلاميّ مصدر حرج وريبة.. ولو أنفق هؤلاء وأولئك بعض الوقت لمعرفة حقيقة شريعة الجهاد في الإسلام؛ لعلموا أنّها شريعة قَطعَت مع بشاعات شرائع التوراة وشرائع عرب الجاهليّة، وأقامت نموذجًا جديدًا يؤسّس للحربِ أخلاقيّاتٍ جديدة لم يعرفها العالم من قبل ومن بعد..

ولعلّ أفضل بيان لحقيقة شريعة الجهاد، ودلالتها على ربّانيّة القرآن أنّ نعرض أهم ضوابط الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ثم مقابلها في التوراة؛ لندرك الطفرة التشريعيّة الأخلاقيّة التي جاء بها الإسلام دون حافز من واقع يقتضي الخروج عن أعراف القتال السائدة:

• الجهاد للدفاع عن المستضعفين: قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

• الجهاد لدفع الفتنة: قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

• خيار السّلم ما أقام السّلم الحقّ: قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٦١].

• الجهاد للدفاع عن الأقليات وحريّة العبادة: قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

• منع الاعتداء: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

• منع قتل الأطفال: قال الرسول ﷺ لمّا قتل بعض أصحابه أطفالًا في

الحرب: «**ألا إن خياركم أبناء المشركين! ألا لا تقتلوا ذرية! ألا لا تقتلوا ذرية! كل نسمة تولد على الفطرة**»[(١)].

• منع قتل النساء: رأى الرسول ﷺ الناس مجتمعين على شيء فبعث رجلًا فقال: «**انظر علام اجتمع هؤلاء؟**»؛ فجاء فقال: «على امرأة قتيل»؛ فقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»[(٢)].

• منع قتل كبار السنّ: قال الرسول ﷺ: «**لا تقتلوا شيخًا فانيًا**»[(٣)].

• منع قتل الرهبان: قال (أبو بكر) (ليزيد): «وستجد أقوامًا زعموا أنَّهم حبسوا أنفسَهم لله؛ فذرهم وما زعموا أنَّهم حبسوا أنفسهم له»[(٤)].

• منع قتل من لا يحمل سلاحًا: قال الرسول ﷺ: «**لا تقتلوا ذرية ولا عسيفًا**»[(٥)].

• منع قتل غير المقاتل: قال الرسول ﷺ: «**مَن ألْقى السِّلاح فهو آمِن، ومَن أغلق بابَه فهو آمن**»[(٦)].

• إكرام الأسير: قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨].

• النهي عن الغدر: قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ [الأنفال: ٥٨].

• النهي عن التمثيل بالعدوّ: قال الرسول ﷺ: « **لا تنفّروا، ولا تمثّلوا**»[(٧)].

---

(١) رواه أحمد (ح/ ١٥٢٨٢)، والدارمي (٣/ ١٦٠١)، والحاكم في مستدركه (٢/ ١٣٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (ح/ ٢٦٦٩). وحسّنه الألبانيّ.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (ح/ ٢٦٦٩).

(٤) رواه البيهقي في الكبرى (ح/ ١٧٩٢٩).

(٥) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (ح/ ٢٦٦٩).

(٦) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (ح/ ١٧٨٠).

(٧) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (ح/ ١٧٣١).

• النهي عن التحريق بالنار: قال الرسول ﷺ: «**إِنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللهُ**»[1].

• النهي عن قطع الشجر: قال الخليفة الراشد (أبو بكر) لأمراء الجيش: «لا تقطعوا نخلًا ولا شجرة»[2].

تلك هي معالم الحرب في الإسلام. ورغم أنّنا لا نزعم أنّ تاريخ الفتوحات الإسلاميّة بريء من الخطأ؛ فهو تاريخ بشريّ في حصيلته؛ إلّا أنّ آثار التشريعات الإسلاميّة على طبيعة الفتوحات كانت واضحة؛ حتّى شهد المنصفون أنّ الحروب الإسلاميّة من نوادر معارك التاريخ حيث كان للقويّ سلطان القهر والانتقام دون ضابط ولا رادع.

ولذلك شهد المستشرق (غوستاف لو بون)[3] في حديثه عن فتح «العرب» للهند أنّ الفاتحين قد ألانوا قلوب الناس إلى الإسلام بحسن ملكهم، وأنّ أهل الهند قد أقبلوا على الدين الوافد عن طيب خاطر لا عن خوف من بارقة السيوف[4].

وكتب القاضي (كريستوفر ويرمنتري): «سجّلت الكتابات الأوروبيّة إبّان الحروب الصليبيّة دهشتها إثر ترجمة بعض هذه المبادئ [التشريعيّة الإسلاميّة] إلى واقع ممارسٍ في ساحة الحرب. أحد الكتاب ـ (Oliverus Scholasticus) ـ أشار إلى واقعة إمداد السلطان (الملك الكامل) الجيش الإفرنجي المهزوم بالطعام: «مَن مِن الممكن أن يشك أنّ مثل هذا الصلاح والمودّة والإحسان هو من الله؟ رجال قُتِلَ آباؤهم وأبناؤهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم بأيدينا، وسلبناهم أرضهم، وأخرجناهم عراة من بيوتهم، أحيونا بطعامهم لما كدنا نهلك من الجوع، وغمرونا بطيبتهم حتّى لما كنّا مستضعفين أمامهم»[5].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله (ح/ ٢٨٥٣).

(٢) رواه مالك في الموطّأ، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو (ح/ ١٦٢٧).

(٣) غوستاف لو بون Gustave Le Bon (١٨٤١ ـ ١٩٣١م): عالم اجتماع وأنثروبولوجيا فرنسي. من مؤلفاته: "Les Premières Civilisations de l'Orient".

(٤) Gustave Le Bon, *La Civilisation des Arabes* (Paris, Firmin-Didot et cie, 1884), pp.178 ff.

(٥) C. G. Weeramantry, *Islamic Jurisprudence*, pp.137 - 138.

الإسلام الحقيقي والقراءة السليمة للقرآن تعارضان كلّ أشكال العنف. (بابا الفاتيكان (فرنسيس)، Evangelii Gaudium)[1].

أمّا صورة القتال في التوراة فداميةٌ مخيفة، تثعب رعبًا، **ومنها**:

• لعن المسالمين: «وَمَلْعُونٌ مَنْ يَمْنَعُ سَيْفَهُ عَنِ الدَّمِ» (إرميا ٤٨/ ١٠).

• منع الشفقة بالخصم: «اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لاَ تُشْفُقْ أَعْيُنُكُمْ وَلاَ تَعْفُوا... نَجِّسُوا الْبَيْتَ، وَامْلأُوا الدُّورَ قَتْلَى» (حزقيال ٩/ ٥ ـ ٧).

• الأمر بقتل الأطفال: «فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ». (العدد ٣١/ ١٧).

• الأمر بالتمثيل بجثث الأطفال: «طُوبَى لِمَنْ يُمْسِكُ أَطْفَالَكِ وَيَضْرِبُ بِهِمُ الصَّخْرَةَ» (مزمور ١٣٧/ ٩).

• التفنّن في التمثيل: (داود) النبيّ يقدّم مهرًا غريبًا لامرأة هو ٢٠٠ قطعة غرلة (قطعة الجلد التي تقطع من العضو الذكري عند الختان) فلسطيني قتلَهم (١ صموئيل ١٨/ ٢٥ ـ ٢٧)!

• الأمر بقتل النساء: «وكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا» (عدد ٣١/ ١٧).

• الأمر بقتل الرضّع: «فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا» (١ صموئيل ١٥/ ٣).

• الأمر بقتل الأجنة في بطون الأمّهات: «تُجَازَى السَّامِرَةُ لأَنَّهَا قَدْ تَمَرَّدَتْ عَلَى إِلهِهَا. بِالسَّيْفِ يَسْقُطُونَ. تُحَطَّمُ أَطْفَالُهُمْ، وَالْحَوَامِلُ تُشَقُّ» (هوشع ١٣/ ١٦).

• الأمر بقتل الحيوانات: «وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُل وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْل وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ» (يشوع ٦/ ٢١).

• الأمر بقطع النبات: «فَتَضْرِبُون كُلَّ مَدِينَةٍ مُحَصَّنَةٍ، وَكُلَّ مَدِينَةٍ مُخْتَارَةٍ،

---

(١) البابا فرنسيس (١٩٣٨ ـ): اسمه الحقيقي (خورخي ماريو بيرجوليو). تم تنصيبه بابا للكاثوليك سنة ٢٠١٣.

وَتَقْطَعُونَ كُلَّ شَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، وَتَطُمُّونَ جَمِيعَ عُيُونِ الْمَاءِ، وَتُفْسِدُونَ كُلَّ حَقْلَةٍ جَيِّدَةٍ بِالْحِجَارَةِ» (٢ ملوك ٣/ ١٩).

• تخريب الأرض حتّى لا تنبت: «كِبْرِيت وَمِلْحٌ، كُلُّ أَرْضِهَا حَرِيقٌ، لَا تُزْرَعُ وَلَا تُنْبِتُ وَلَا يَطْلُعُ فِيهَا عُشْبٌ مَا» (تثنية ٢٩/ ٢٣).

• جواز حرق الخصوم: «وَأَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِي فِيهَا وَوَضَعَهُمْ تَحْتَ مَنَاشِيرَ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسِ حَدِيدٍ وَأَمَرَّهُمْ فِي أَتُونِ الآجُرِّ، وَهكَذَا صَنَعَ بِجَمِيعِ مُدُنِ بَنِي عَمُّونَ. ثُمَّ رَجَعَ دَاوُدُ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ إِلَى أُورُشَلِيمَ» (٢ صموئيل ١٢/ ٣١).

• جواز حرق المدن بأكملها: «فقام الكمين بسرعة من مكانه وركضوا عندما مدّ يده، ودخلوا المدينة وأخذوها، وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار» (يشوع ٨/ ١٩).

• الأمر بالإبادة الشاملة للعدو: «مُدُنُ هؤُلَاءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلَا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا» (تثنية ٢٠/ ١٦).

تلك هي شريعة الحرب في التوراة، وقد وجدت فيها الكنيسة سندها المقدّس لمجازرها في حقّ المسلمين واليهود ووثنيي أمريكا الشماليّة... بل وفي مجازر الكاثوليك في حقّ البروتستانت، والبروتستانت في حقّ الكاثوليك، وغيرهم من الطوائف؛ حتّى قال المنصّر البيروتاني (ألكسندر لايتون): إنّ «الله رجل حرب عظيم»[١].

لماذا قلب القرآن والسُّنَّة قانون الحرب رأسًا على عقب، وأصبح للضابط الأخلاقي سلطان على السيوف المُشْرَعة؟ أليس القرآن قطعة من تراث اليهود معدّلة؛ فلِم غيّر القرآن الحال؟ لماذا ينشئ القرآن حدودًا للحرب تمنع الظلم والقهر والسفك المجانيّ للدماء رغم أنّ العرب زمن البعثة ما كانوا يجدون في أنفسهم حاجة للثورة على ميراث الحرب عندهم؛ وهم القوم الذين سالت دماء الحرب من سيوفهم سنينَ في حرب داحس والغبراء لأمور أهون من أن تُزهق فيها الأرواح؟

---

(١) Karen Armstrong, *Fields of Blood: Religion and the History of Violence* (New York: Alfred A. Knopf, 2014), pp.265 - 266.

إنّه الوحي المستعليّ على الحاجات الظرفيّة للواقع، ولذلك سطّر التاريخ أخبارًا غير مألوفة عن فتح البلدان؛ فقال المستشرق «إميل درمنغام»[١]: «وما أكثر ما في القرآن والحديث من الأمر بالتسامح، وما أكثر عمل فاتحي الإسلام بذلك، ولم يروِ التاريخ أنَّ المسلمين قتلوا شعبًا، وما دخول الناس أفواجًا في الإسلام إلّا عن رغبة فيه. وهنا نذكر أن عمر بن الخطاب لما دخل القدس فاتحًا أمر بأن لا يُمس النصارى بسوء، وبأن تترك لهم كنائسهم، وشمل البطرك بكل رعاية، ورفض الصلاة في الكنيسة خوفًا من أن يتخذ المسلمون ذلك ذريعة لتحويلها إلى مسجد. وهنا نقول: ما **أعظم الفرق بين دخول المسلمين القدس فاتحين، ودخول الصليبيين الذين ضربوا رقاب المسلمين،** فسار فرسانهم في نهر من الدماء التي كانت من الغزارة بحيث بلغت الركب»[٢].

اعتراض: لكن ماذا تقولون في الغزوات الإسلاميّة التي خرجت من الجزيرة أو الشام ووصلت الصين وإسبانيا وغيرها من البلاد البعيدة.. كيف يكون ذلك من الدفاع عن النفس؟

وجواب ذلك: هو أنّنا لا ندّعي أنّ الجهاد دفاعيّ في كلّ أمره، وإنّما نحن نقول: إنّ من غاياته المحكومة بالضوابط السابقة أن تكون كلمة الله هي العليا، وألّا يمنع الناس من سماع حقيقة الإسلام دون إكراه من خصومه.

والإسلام في ذلك لم يأتِ ببدعٍ من القول؛ إذ إنّ مفكّري الغرب الذي يشوّهون الفتوح الإسلاميّة، ويرون العمل لنشر الإسلام جريمة منكرة بالعدوان على الحضارات المجاورة هو نفسه يفرض الليبراليّة و«حقوق» الشواذ على الدول العربيّة تحت عنوان: الدفاع عن الحقّ ومنع هضم الناس حقوقهم.

والإسلام على نفس مذهب شرائع الغربيين في عرض حقيقته الكبرى؛ إذ لا يضع نفسه على قدم المساواة مع الحضارات والأفكار الأخرى؛ فلا يساوي

---

(١) إميل درمنغام èmile Dermenghem (١٨٩٢ ـ ١٩٧١): مستشرق فرنسي. عمل في الأرشفة المكتبيّة والصحافة. من مؤلّفاته: «Mahomet et la tradition islamique: avec bibliographie».

(٢) إميل درمنغم، حياة محمد، تعريب: عادل زعيتر (الإمارات العربية المتحدة: دار العالم العربي، ٢٠١٣م)، ص٣٦٩.

بين عافية وعطب، ولا استقامة وعوج، وإنّما يبدأ الإسلام في أوّل الأمرِ وقاعدتِه من مبدأ واضح صريح: «**الإسلام يعلو ولا يعلى عليه**»[1]. وهي الحقيقة التي أكّدها القرآن في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]. ومن مبدأ علو الإسلام يكون فهم الفتوحات التي استنقذت أهل البلاد المفتوحة من عبادة الأوثان والإشراك بالخالق، ونزعت عن عقولهم دين استرضاء الأصنام. والإسلام لا يساوي بين التوحيد والتنديد، ولا بين اتّباع شريعة الهدى واقتفاء أثر الهوى. وهو بذلك أولى من الليبراليّة بأن يكون مبدأ الاستعلاء التشريعي لأنّ الليبرالية تزعم إصلاح حال الناس في الدنيا، وأمّا الإسلام فغايته صلاح معاش الناس ومعادهم.

يقول القانوني النصراني (إدمون رباط)[2]: «لأوّل مرة في التاريخ أمكن لدين موحّد، حصريّ النزعة وميّال هو الآخر إلى الهيمنة، أن يجد الصيغة شبه السحرية التي تحث السادة الجدد على التمسك بحبل المبدأ العظيم القائل بأن ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، وعلى الاعتراف لغير معتنقيه بحقهم في الوجود كطوائف لها ملء الحرية في ممارسة معتقداتها وشعائرها العبادية وحياتها الجماعية»[3].

لم تسعَ الفتوحات لإلزام الناس بالإسلام؛ إذ من المعلوم ـ بإجماع الفقهاء ـ أنّ إسلام المُكرهِ هدرٌ؛ لا يُعتبر، ولذلك للمكرَه أن يعود إلى ملّته القديمة إذا شاء. وقد أحسنت المستشرقة الألمانية (سيجريد هونكه) في دفع تهمة إكراه الناس على الإسلام، بقولها: إنّه «كذب لا أساس له من الصحة التاريخية أو الحقيقة الواقعية.. ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، تلك هي كلمة القرآن الملزمة كما ترد في الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة؛ فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي[4]، وإنما بسط سلطان الله في أرضه؛ فكان للنصراني أن يظل نصرانيًا، ولليهودي أن يظل يهوديًا كما كانوا من

---

(١) حديث مرفوع إلى الرسول ﷺ. أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل. حسّنه (ابن حجر).

(٢) إدمون رباط (١٩٠٤ ـ ١٩٩١م): باحث سوري نصراني. من مؤلفاته: «تجربة السلام في التاريخ».

(٣) مقدمة إدمون رباط لكتاب جورج قرم، تعدد الأديان وأنظمة الحكم (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١١م)، ص٤١.

(٤) قلتُ: أي إلزام الناس به قهرًا كما فعله الصليبيون في القرون الوسطى وبعدها.

قبل. ولم يمنعهم أحد أن يؤدّوا شعائر دينهم. وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك. ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبيعهم وصوامعهم وكنائسهم... لقد كان أتباع الملل الأخرى ـ بطبيعة الحال من اليهود والنصارى ـ هم الذين سعوا سعيًا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين. ولقد ألحّوا في ذلك شغفًا وافتتانًا، أكثر مما أحبّ العرب أنفسهم؛ فاتخذوا أسماء عربية وثيابًا عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربي، وتزوّجوا على الطريقة العربية ونطقوا بالشهادتين»[(١)].

ومن شهادات اليهود قول (أبي الفتح بن أبي الحسن) اليهودي السامريّ: «ومحمد ما أساء إلى أحد من أصحاب الشرائع، وسمعت من لفظ الحكيم وهو نقل عن كاتبه المنقول منه العلامة فاضل الوجود الشيخ نفيس الدين أبو الفرج بن كثار أنّه جاء في نقل السلف عن محمد وهو: «**محمد هو رجل طيب، آمن بالله، وعامل كلّ اليهود معاملة حسنة**»»[(٢)].

مفتوحا وخرج منه كلب فلما رأوه جازًا وراءه الى الباب وما علم بهم ركبوا وبقى القتل فى المدينة واقاموا يوما كاملا يقتلوا فى السوق السفلانى قبل يعلم الفوقانى لانها كانت مبنية مدينة فوقه مدينة ومن قدر يهرب فى البحر ومن استسلم لهم سلم وافتتحت المدينة وسكنوا فيها فلما فتحوها حلّت هيبتهم على سائر الاماكن هولاء بنى اسمعيل احاطوا كل الاماكن ورتب الجزية اربعة دراهم ومخلاة شعير من سوى خراج الارض ومحمد ما اساء الى احد من اصحاب الشرائع وسمعت من لفظ الحكيم وهو نقل عن كاتبه المنقول منه العلامة فاضل الوجود الشيخ نفيس الدين ابى الفرج بن كثار ان جاء فى نقل السلف عن محمد وهو [illegible]

[illegible]

واقام محمد فى المملكة عشر سنين وكل العالم طائعين له ومنه انتقلت مملكته الى اقاربه بنى امية على ما اوصاهم لم يزيدوا ولا ينقصوا ولا اسوًا الى احد قط وقام منهم تسعة عشر ملكا اولهم محمد عاش ثلاثة وستين سنة ثلاثة واربعين سنة لم يتعرض الى شيء وعشر سنين الحروب وعشر سنين نبى وملك ومنذ ملك الاسلام الى مروان الاخر من بنى امية مائة وواحدة وثلثون سنة

1. مفتوحا cod. مفتوح — 3. السوق cod. الشوق — 7. الارض Finis narrationis e codice C. petitae. — 12. Abhinc sequitur primum hujus chronici additamentum, quod in codicibus A. Ç. legitur. — 14. ملكا codd. ملكى.

---

(١) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك (القاهرة: دار الشروق، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م)، ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) صورة الشهادة عن كتاب (أبي الفتح) «التاريخ ومما تقدم عن الآباء». (نقله أحمد حجازي السقا، المسيّا المنتظر ﷺ، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، ص١٦٨).

«لا يوجد عالم معاصر اليوم يقبل فكرة (أنّ الإسلام انتشر بالقهر). القرآن صريح في دعمه حرية الاختيار» james Michener[1]

شريعة المواريث بين القرآن والسُّنَّة والتوراة:

ظهرت شريعة المواريث في القرآن والسُّنَّة النبويّة في بيئة العرب الوثنيين الذين خالطوا قلّة من قبائل اليهود وأبعد منهم قبائل نصرانيّة؛ فأنشأ في عرف المواريث ثورة غير متوقّعة. والناظر في شريعة الميراث في الكتاب المقدس وفي شريعة اليهود والنصارى يلحظ الأمور **التالية المثيرة**:

أولًا: يكشف العهد القديم (العدد ٢٧/٨) أنّ الشريعة التوراتيّة تمنع البنت من أن ترث إن كان لأبيها ابنٌ؛ يقول الربّ لموسى: «أَوْصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ أَيَّ رَجُلٍ يَمُوتُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخْلِفَ ابْنًا، تَنْقُلُونَ مُلْكَهُ إِلَى ابْنَتِهِ». ولم يستطع اليهود أن يورّثوا البنات مع الأولاد الذكور إلّا بحيلة اخترعوها في القرون الوسطى، وهي أن يزعم الأب قبل موته أنّه مدين لبناته بمال، ويطلب أن يُسدّد الدين لهنّ من ميراثه.

ثانيًا: نصوص ميراث البنات متناقضة؛ ففي حين يقرّر نصّ سفر العدد ٢٧/٩ أنّه إذا كان للمورّث بنات؛ فهن يرثن ويحجبن الأعمام، يقرّر في المقابل سفر يشوع ١٧/٤ أنّ حكم الربّ هو أنّ البنات لا يحجبن الأعمام، بل يرث الأعمام مع البنات.

ثالثًا: الأم في اليهودية لا ترث من أبنائها، في حين يرث الأب منهم.

رابعًا: يقرّر الكتاب المقدّس أنّ ميراث المرأة الذي يؤول إليها لا تناله إلّا صوريًّا، وإنّما ميراثها في الحقيقة لزوجها لا لها؛ فقد جاء في سفر العدد ٣٦/٨ ـ ١٠: «فَكُلُّ فَتَاةٍ وَرَثَتْ نَصِيبًا مِنْ سِبْطِهَا، تَتَزَوَّجُ وَاحِدًا مِنْ أَبْنَاءِ عَشِيرَةِ سِبْطِ أَبِيهَا، لِكَيْ يَرِثَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَصِيبَ آبَائِهِ. فَلَا يَنْتَقِلُ مِيرَاثُ سِبْطٍ إِلَى سِبْطٍ آخَرَ، بَلْ يَظَلُّ كُلُّ سِبْطٍ مُحْتَفِظًا بِمِيرَاثِهِ».

(١) James Michener, Islam: The misunderstood religion, *Reader's Digest*, May 1955, p.73.

وقد أكّد التلمود هذه الحقيقة التوراتيّة في صورة أوسع بقوله: «ما اقتنته المرأة يكون لزوجها» (מה שקנתה אשה קנה בעלה) (Nazir 24b)!

وما أصدق الباحثة «ماتيلدا جوزلين غاج» عندما قالت: «كلّما كان القانون الكنسي هو أصل التشريع؛ نجد أنّ قوانين الميراث تضحّي بمصالح البنات والزوجات»، وهي نفس الكلمة التي قالها الباحث والمؤرّخ «لكيّ» في كتابه الشهير الذي أرّخ فيه للأخلاق من الناحيتين النسقيّة والواقعية في أوروبا «تاريخ الأخلاق الأوروبية من أوغسطس إلى شارلمان»[(١)].

خامسًا: المرأة نفسها، ليست إلّا ميراثًا يُورَث؛ فقد جاء في سفر التثنية ٢٥/ ٥: «إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعًا وَمَاتَ أَحَدُهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْجِبَ ابْنًا؛ فَلَا يَجِبُ أَنْ تَتَزَوَّجَ امْرَأَتُهُ رَجُلًا مِنْ غَيْرِ أَفْرَادِ عَائِلَةِ زَوْجِهَا. بَلْ لِيَتَزَوَّجْهَا أَخُو زَوْجِهَا وَيُعَاشِرْهَا، وَلْيَقُمْ نَحْوَهَا بِوَاجِبِ أَخِي الزَّوْجِ».. فالرجل يرث من أخيهِ زوجتَهُ، كما يرث منه دوابه.. وهو شبيه بما كان عند عرب الجاهليّة؛ حيث كان الابن يرث من أبيه زوجته.

سادسًا: المرأة ليست سوى بضاعة يبيعها والدها، كما يبيع أيّ متاع له؛ فقد جاء في سفر الخروج ٢١/ ٧: «وَلَكِنْ إِذَا بَاعَ رَجُلٌ ابْنَتَهُ كَأَمَةٍ؛ فَإِنَّهَا لَا تُطْلَقُ حُرَّةً كَمَا يُطْلَقُ ٱلعَبْدُ».. وهو حكمٌ يبيح بيع البنت؛ فلذة الكبد، كما يتخلّص الواحد من أيّ من ممتلكاته.. ثم إنّ هذا التشريع لا يذكر بيع الابن، ربّما لأنّ البنت تدرّ أكثر مالًا وتسيل الكثير من اللعاب لمن يبحثون عن استغلالها جنسيًّا، أمّا الأولاد الذكور فلا يُنتفع بهم في ذلك، وإنّما أمرهم قاصر على الحرث والزرع والرعي.

سابعًا: رفضَ المسيح أن يعطي حكمًا في أمر الميراث؛ فقد جاء في لوقا ١٢/ ١٣ ـ ١٤: «وَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ بَيْنِ الْجَمْعِ: «يَا مُعَلِّمُ، قُلْ لأَخِي أَنْ يُقَاسِمَنِي الإِرْثَ!» وَلكِنَّهُ قَالَ لَهُ: «يَا إِنْسَانُ، مَنْ أَقَامَنِي عَلَيْكُمَا قَاضِيًا أَوْ

---

(١) "Wherever the canon law has been the basis of legislation, we find laws of succession sacrificing the interests of daughters and of wives" W. Lecky, *History of European Morals From Augustus to Charlemagne* (New York: D. Appleton, 1921), 2/359.

مُقَسِّمًا؟». ومسيح الكنيسة هو الذي طلب في متّى ٢٣/١ ـ ٣ من أتباعه أن يرجعوا في معاملاتهم إلى ما تقوله أسفار العهد القديم من خلال ما يعلّمه اليهود في زمنه. والنتيجة هي أنّ حكم التوراة لا بدّ أن يسري على رعايا الكنيسة؛ ممّا يؤول إلى حرمان البنت من الميراث إذا كان للمتوَفّى ابن، وحرمان الأم من الميراث؛ لأنّ الكتاب المقدس لم يفرض لها نصيبًا من تركة ابنها أو بنتها.

ثامنًا: يخبرنا التاريخ أنّ القانون المسمّى (Salic Law) والذي قنّن في القرن السادس إبّان الملك النصراني (كولفس الأوّل)[١]، والمعروف بإفاضته في قوانين الميراث ـ حتى شاع أنّه خاص بالميراث ـ، قد حرم الإناث من أن يرثن في وجود الذكور[٢]. وقد استمر تأثير هذا القانون على أوروبا منذ بداية القرون الوسطى إلى ما بعد ذلك بقرون.. وقد حُرِم الإناث أيضًا من الميراث في ظل القانون المعروف باسم (Lombard Law)[٣].

وأمَّا تقسيم الميراث في الشريعة الإسلاميّة فيقوم على ثلاثة أسس لا تعلّق لها بتحقير المرأة أو إنكار كيانها:

- صلة الوارث بالمورّث؛ فكلّما اقتربت صلة القرابة من المورّث؛ زاد نصيب الوارث، وكلّما تناءت القرابة قلّ النصيب في الميراث؛ فابنة المتوفى ـ مثلًا ـ ترث نصيبًا أكبر من نصيب والد المتوفى.
- موقع الوارث من الحياة؛ إذ إنّ الأجيال التي تستقبل الحياة ترث في

---

(١) يكتب بالفرنسيّة كلوفيس Clovis، وبالألمانية Chlodwig أو Chlodowech، وباللاتينية Chlodovechus.

(٢) على تفصيلٍ لتطوّر هذا القانون عبر مراحل تطبيقه وتحويره. ومن أشهر نصوصه: منع المرأة من أن ترث البيوت والأراضي. انظر:

Elisabeth Cady Stanton, *Susan Anthony and Matilda Joslyn Gage, History of Woman Suffrage* (New York: Fowler & Wells, 1881), 1/774,

وقد حوّر بقرار (شلبريك) (Chilperic) (٥٦١ ـ ٥٨٤م) الذي أباح أن يرثن في غياب ورثة ذكور. انظر:

Susan Mosher Stuard, ed. *Women in Medieval Society* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, Inc., 2012), p.14.

(٣) Hubert Lewis and John Edward Lloyd, *The Ancient Laws of Wales* (Buffalo, N.Y.: W.S. Hein, 2000), p.420

(قانون لامبارد): هو أحكام عرفيّة تمّ تبنّيها وتقنينها (codified) سنة ٦٤٣م في مملكة لامبارد في إيطاليا.

الأغلب أكثر من الأجيال التي تستعد للرحيل عن هذه الحياة.. فالبنت ـ مثلًا ـ ترث أكثر من الأب.

• ثقل الأعباء الماليّة التي تلزم بها الشريعة الوارث؛ وهنا يرث الذكر ضعف ما ترث الأنثى التي لا تكلّف بالإنفاق على الزوج أو الأولاد أو الآباء أو القرابة العاجزة ماديًّا.. وفي هذه الصورة، يظهر أنّ التمييز لا تعلّق له بطبيعة الجنس، وإنما هو مرتبط بطبيعة الإنفاق.

لقد صرف النظر القاصر التجزيئي بعض الناس عن تبيّن معالم جمال نظام التوريث الإسلامي وكماله.. إذ يقتصر أمر المخالفين على النظر إلى توريث البنت نصف ما يرثه أخوها؛ لتنطلق بعد ذلك الألسن بالذم وتحريض المسلمة ضد هذا الحكم الربّاني.. ولا يمكن للمنصف أن يدرك واقع هذا الحكم داخل النسيج التشريعي الإسلامي إلّا بربطه ببقيّة أحكام الإنفاق والكفالة الماليّة داخل منظومة هذه الشريعة.

إنّ المطّلع على واقع هذا التشريع؛ سيقول إنّ الأنثى؛ إمّا أن تكون بنتًا، أو أختًا، أو أمًا.. وخلوّ المرأة من إحدى هذه الحالات هو استثناء.. وهي في جميع هذه الأحوال مكفولة ماليًّا من الذكور من أقاربها.. وهذا القريب الواحد الذي يرث ضعف أخته، واجب عليه أن ينفق ـ في كثير من الأحيان ـ على عدد من الإناث، كلّ منهن رفع الشرع عنها واجب الإنفاق على الذكور.. **والأمر تفصيلًا**:

الأنثى بنتًا: نقل الإمام (ابن حجر) عن جمهور (جلّ) العلماء قولهم: إنّ الأب ملزم بالإنفاق على ابنته حتّى تتزوّج؛ فتنتقل بذلك الأنثى مباشرة من الكفالة الماليّة للأب، إلى الكفالة الماليّة للزوج؛ فإن طلّقت عادت نفقتها واجبة على الأب[١]. وينتج عن ذلك أنّ البنت التي ترث، لها أن تستمتع بمالها كاملًا لخاصة نفسها، مع التمتع بنفقة أبيها عليها؛ فإن لم يكن لها أب؛ ألزم أخوها بالإنفاق عليها حتّى لو كان لها مال... وهكذا تنتقل كفالتها الماليّة بين الذكور، دون أن يؤخذ من مالها الخاص شيء.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ٩/ ٥٠٠.

الأنثى زوجة: قال (ابن قدامة): «اتفق أهل العلم على وجوب نفقات الزوجات على أزواجهن»[1].. فالزوجة هنا تتمتّع بمالها لخاصة نفسها، ولا تلزم بالإنفاق على زوجها ولا على أبنائها.. فلها بذلك نصيب من الميراث وتشاطر الزوج ماله الخاص. وبلغ الأمر أن من أهل العلم من قال: إنّ الرجل مكلّف بنفقة الزوجة فيما مضى إذا لم ينفق عليها في مدة سابقة[2].

والرجل مكلّف ـ كما يقول الفقهاء ـ بأن يوفّر للزوجة ـ في الحدّ الأدنى ـ مسكنًا خاصًّا بها يليق بمقامها، فيه تهوئة جيّدة، وبين جيران صالحين. وعليه أن يوفّر لها الطعام الكافي والمتنوّع والصحّي، وكسوة للصيف وأخرى للشتاء، وكسوة لليل وأخرى للنهار، وكسوة داخليّة وأخرى خارجيّة، وكسوة للصلاة وأخرى للخروج. كما قرّر الفقهاء أنّ من حقوق المرأة المالية أدوات التطيّب من صابون وسوائل للشعر، ومكحلة العين، ومزيل للعرق. كما أكّدوا على حقّ الزوجة في خادمة إن كانت ممن تُخدم عند أهلها، وكان زوجها موسرًا، وغسّالة وسخانًا، مع ما يجب للزوجة من رعاية وعناية عند الحمل والوضع والرضاع.

الأنثى أمًّا: خصّ الشرع الأمّ بوضع متميّز؛ ففي مقابل أنّ الإنفاق على الأولاد هو ـ بإجماع أهل العلم[3] ـ واجب على الأب دون الأم، وأنّ كفالة المرأة ماليًّا واجبة على الزوج، والأبناء إن فقد الزوج؛ فإنّ للمرأة مالها الخاص الذي ترثه من غيرها، وليست ملزمة فيه بالإنفاق على زوج أو ولد، بل هو لها لخاصة نفسها.

وقد استنبط جمهور الفقهاء من الحديث الصحيح الذي ورد فيه أنّ رَجُلًا جاء اِلَى رَسُولِ اللهِ فَقَالَ: «مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟» قَال: «أُمُّكَ». قَالَ: «ثُمَّ مَنْ؟». قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ!». قَالَ: «ثُمَّ مَنْ؟». قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ». قَالَ:

---

(١) ابن قدامة، المغني ١١/٣٤٨.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد ٥/٥٠٨، والسيوطي، الأشباه والنظائر، ص٧٩٢.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد ٥/٥٠٢.

«ثُمَّ مَنْ؟». قَالَ: «ثُمَّ اَبُوكَ»[1] أنّ حقّ الأمّ المالي مقدّم على حقّ الأب؛ حتّى إنّه إذا لم يتّسع مال الابن للإنفاق على الأب والأم؛ قصر إنفاقه على أمه دون أبيه[2]. وحكى (الحارث المحاسبي) الإجماع على تفضيل الأم على الأب في البِرّ[3].

وقد خلص أحد الباحثين المعاصرين إلى ثلاث نتائج هامة في أمر أنصبة المرأة في الميراث، بعد أن عرض نماذج حسابيّة واقعيّة لنصيبها كبنت وكأخت وكزوجة وكجدة مع تعدد الأطراف الذين يشاركونها الميراث، واختلاف أنصبتهم:

• إذا توفّرت للمرأة كفالة قويّة مؤكدة؛ قلّ نصيبها عن نصيب الرجل في الميراث لقوّة حقّها في النفقة.

• إذا قلّت أوجه الكفالة؛ فإنّ المرأة ترث مثل الرجل؛ مثل الإخوة مع أخوات لأم، وقد ترث أكثر منه، وقد ترث ولا يرث نظيرها من الرجال.

• إذا وضعنا حقوق المرأة التي تكتسبها في جانب، وحظّها من الميراث ـ أيًّا كان ـ في جانب؛ فسيبدو لنا أنّ المرأة بحقّ أحظى من الرجل كثيرًا، وليس هذا ظلمًا للرجل؛ بل هو مراعاة لضعف المرأة عن الاحتراف والاكتساب؛ فعوّضها الله تعالى بهذه الحقوق الكثيرة التي تكفل لها حياة كريمة سواء كانت بنتًا أم زوجة أم أمًّا[4].

ثم إنّ ميراث الأنثى قد يفوق ميراث الذكر، وفي حالات أخرى ترث الأنثى ولا يرث الذكر:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة؟ (ح/ ٥٩٧١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب برّ الوالدين وأنّهما أحقّ به (ح/٢٥٤٨).

(٢) نلاحظ أنّه في المقابل، كان القانون الإيرلندي القديم ينصّ على أنّه إذا كان الابن فقيرًا غير قادرٍ على إعالة والديه؛ فإنّه يأخذ أباه معه إلى البيت، ويترك أمّه تموت في مجاري المياه، وينسب هذا القانون إلى قديس الكنيسة (باتريك) (Matilda Gage, *Woman, Church and State*, p.364).

(٣) صلاح سلطان، نفقة المرأة وقضيّة المساواة (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م)، ص٥١.

(٤) المصدر السابق، ص٦٥ ـ ٦٦.

أ ـ من الحالات التي ترث فيها الأنثى أكثر من الذكر:

• لو مات رجل عن: زوجة، وبنت، وأم، وأختين لأم، وأخ شقيق؛ لوجدنا أن للزوجة ثلاثة أسهم من أصل أربعة وعشرين سهمًا، وللأم أربعة، وللأخ الشقيق خمسة أسهم، وتحجب الأختان لأم بالبنت. فالبنت ترث في هذه المسألة أكثر من الأخ الشقيق. وكذلك الأمر لو حلّ محل البنت، بنت ابن وإن نزل؛ أو كان محل الأخ الشقيق أبٌ، أو أخٌ لأب، أو عمٌّ شقيقٌ، أو عمٌّ لأب. فالبنوة مقدمة على الأبوة وعلى الأخوة.

• لو ماتت امرأة عن: زوج، وبنت، وأخت شقيقة، وأخت لأب؛ فإن للزوج سهم واحد من أصل أربعة أسهم، وللبنت سهمان، وللأخت الشقيقة سهم واحد، وأما الأخت لأب فمحجوبة بالشقيقة. فالزوج هنا يرث نصف ما ترثه البنت، وكذلك الأمر لو حلّ محل البنت، بنت ابن وإن نزل، أو أخت شقيقة أو لأب، منفردات ودون وجود فرع وارث مذكر أو مؤنث، مع العم الشقيق أو لأب؛ فإنهن يرثن في مثل هذه الحالة أكثر من الزوج وأكثر من العم.

ب ـ من الحالات التي ترث فيها الأنثى دون أن يرث الذكر:

• لو مات شخص عن: أم بنتين، أختين لأب، أخ لأم؛ فإن للأم سهمين من أصل ثمانية، ولكل واحدة من البنتين أربعة أسهم، ويبقى للأختين لأب سهمان، لكل منهما سهم، بينما يحجب الأخ لأم بالأخوات لأب؛ فجميع الإناث في هذه المسألة يرثن باستثناء الأخ لأم.

• في مسألة العاصب الشؤم؛ فلو ماتت امرأة عن: زوج، بنت، ابن ابن، بنت ابن، أب وأم؛ فللزوج ثلاثة أسهم من أصل اثني عشر سهمًا، وللبنت ستة، ولا يبقى لابن الابن، وبنت الابن شيء. فالبنت ورثت أكثر من الزوج وأكثر من الأب، وورثت ولم يرث ابن الابن، وورثت الأم أيضًا ولم يرث ابن الابن.

• لا يرث أيّ من ذوي الأرحام الذكور مع وجود إناث صاحبات فرض باستثناء الزوجة، ولا مع وارثات بطريق التعصيب.

• هذا فضلًا عن الحالات التي ترث فيها الأنثى المستحقة للميراث ويحرم فيها الذكر ولو كان صاحب فرض أو وارثًا بطريق التعصيب، وذلك إذا قام بحقه أحد موانع الإرث، كالقتل العمد وشبه العمد وكالارتداد.

وبالمحصّلة: فإن ما سقناه من الأمثلة يثبت بالدليل القاطع أنّ شريعة الله في الميراث لا تحابي جنسًا على جنس، إنما هي اعتبارات في كل من الذكر والأنثى يقتضي الحق والمنطق والعدل مراعاتها[١].

خلاصة النظر:

• نشأ نبي الإسلام ﷺ في بيئة بدائية في تنظيماتها التشريعية.

• التشريع الإسلامي لم يتأثّر بالتشريع اليهودي باعتراف من يرون الإسلام نسخة يهودية مُعدّلة.

• التشريع الكنسي ضعيف جدًّا ولذلك لا يعوّل عليه في تهمة الاقتباس.

• الفاصل التاريخي والجغرافي واللغوي بين شريعة الإسلام وشرائع الرومان ينفي الاقتباس.

• الشريعة الإسلاميّة هي التي أثّرت في شرائع أهل الكتاب في القرون الوسطى.

• اعترف كثير من القانونيين الذين درسوا شريعة القرآن أنها نسيج خاص بلا مثيل.

• اعترف قانونيون غربيون اطّلعوا على الثراء التشريعي الإسلامي أنّه تشريع ثرّ عظيم، حقيق بأن يكون موضع اهتداء واقتداء، أو على الأقلّ إكبار وإجلال.

مراجع للتوسع:

علي علي منصور، مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، (بيروت: دار الفتح، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

---

(١) ورود عادل عورتاني، أحكام ميراث المرأة في الفقه الإسلامي (رسالة ماجستير مخطوطة).

عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي (الإسكندرية: دار نشر الثقافة، ١٩٤٩هـ ـ ١٩٤٩م).

عبد الرزاق قنديل، المواريث في اليهودية والإسلام دراسة مقارنة (القاهرة: مركز الدراسات الشرقية، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م).

الفصل التاسع

إعجاز المنظومة الأخلاقية

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾
[هود: ١١٢].

التعليم دون قِيَمٍ ـ مهما كان مفيدًا ـ لا يعدو أن يكون سوى تنمية للإنسان ليكون شيطانًا أشد ذكاء.

(C.S. Lewis)

بين خيارين.. أصالة ظاهرة أم اقتباسات باهتة؟

لا يستغني الإنسان ـ بما هو كائن مدنيٌّ منفتحٌ ضرورة على العالم ـ عن منظومة أخلاقية تقيمه على صراط الخير، لتهذيب نفسه بنزع أشواكها وصقل نزعاتها، وإقامة الجماعة الكبرى على الرحمة والائتلاف والتعاون على الخير ودفع الشرّ وأسبابه.. تلك غايات لا يمكن للدعوة الدينيّة أن تحقّق نجاحها في الأرض بجمع العقول والقلوب على رسالة السماء دون أن تلبّي نداء داعيها.

ويعتقد الذين يرون رسالة نبيّ الإسلام ﷺ قبسًا من السماء أنّ القرآن والسُّنَّة يهديان إلى أحسن الخلق وخير الهدي في التعامل مع النفس والغير؛ ولذلك يحتجّون بمنظومة الخلق الإسلاميّة برهانًا لنبوّة محمّد ﷺ.

ولا يرى خصوم الإسلام لنسق الأخلاق في القرآن فضيلة سبقٍ، ولا أمارة قطع مع الماضي؛ فأخلاق القرآن نَفَسٌ من أنفاس أخلاق العرب، أو هي بعض أخلاق أسفار أهل الكتابين؛ اليهود والنصارى.

ولذلك حقّ علينا أن نسأل قاضي العقل والتاريخ: هل منظومة الأخلاق القرآنيّة حبل من السماء أم نبتٌ من الأرض؟

العرب وصدمة النهج الجديد:

ليس من الإنصاف أن يسلب المؤرّخ عرب «الجاهليّة» كلّ فضيلة أخلاقيّة؛ فإنّه لا تخلو جماعة من خيرٍ مهما أوغلت في رحلة التيه؛ إذ النفس مفطورة على الميل إلى الجانب المشرق في القلب، كما أنّ التاريخ يشهد على ما كان للعرب من رغبة في العطاء والكرم، وقِرى الضيف، وشهامة عند الشدائد، وشجاعة إذا اختلطت الصفوف وهَبّتْ ريح المنون..

ولا ينفي ما كان فيه العرب من مراعاة معانٍ خُلقيّة محمودة أنّهم جمعوا إلى ذلك ثلاث قبائح؛ **أوّلها**: أنّهم كانوا في شتاتٍ مبدئيّ؛ إذ لم تكن عقائدهم تعود إلى أصل نظريّ كليّ متّسقة أبعاض نواته، يجمع أوزاع المذهب الخلُقيّ في نسق متلاحم الأطراف، ومتناغم الأفنان. **وثانيها**: أنّ العرب قد وقعوا في رذائل قبيحة تشهد على عصرهم بالجاهليّة وظلام الرذيلة؛ ومن ذلك قتلهم البنات، واعتبار الأنوثة عارًا أو مصدر عار: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩]، بل كان الرجل يرث زوجة أبيه، وينال منها ما ناله أبوه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ﴾ [النساء: ١٩]. **وثالثها**: أنّهم كانوا يجمعون إلى الخير نقيضه من الشرّ؛ فالفضيلة التي يأتونها، يتلبّسون معها بما يخالفها، وفي ذلك يقول أحد المستشرقين: «قد يكون أظهر ما في الأعراب هو أنهم جِماعُ الأضداد؛ فالنهب والكرم، والسلب والجود، والقسوة والنبل، وغير ذلك من الصفات التي تدعو إلى المقت والإعجاب في وقت واحد مما تراه في الأعراب، وليس في هذا ما يُعذر به الأعراب لو لم نلاحظ أنهم محكوم عليهم بالاكتفاء بما تنتجه بلادهم المعتزلة التي هي أكثر أراضي العالم جدوبة، ويعتذر الأعراب عن النهب بأنهم محرومون لفقر بلادهم... وبأنهم يزيلون هذا الحيف بأسنة

رماحهم معتقدين أن من الحلال نهب القوافل، وسلب ما بأيدي الناس تعويضًا لهم مما لم تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة»[1].

كان العرب على وعي بقصور النهج الأخلاقيّ الذي يسيرون على لظى جمره؛ ولذلك لمّا جاء القرآن بجماع الأخلاق السويّة؛ فانتصف للمظلومين، ورفع شأن المقموعين، وردّ للإنسان كرامته، وحدّ من غلواء الأنانيّة، وكفّ الأيدي عن الجمع اللاهث للمتع، ووجّه النفس إلى تحقيق كمالات الذات، وحتّ عن القلب دَرنه، ومسح على الروح بكفّ الرحمة؛ انتفضت نفوس الوثنيين الخاضعين لسلطان الأعراف الجاثمة بكلكل العادة على القلوب والجوارح. وقالت الأنفس بلسان الحال: هيت لك! ما أجمل هذا الحال، وما أعذب هذا اللسان!

لقد كان نبيّ الإسلام ﷺ قبل البعثة على حال فريد في معاملة الناس؛ حتّى قالت له زوجه عندما رأى ما رأى في غار حراء، وخشي على نفسه: «أبشر؛ فوالله لا يخزيك الله أبدًا! والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[2]. ولمّا جهر بالدعوة، كان وصف من وصلهم خبرها أنّ صاحبها يدعو إلى محاسن الأخلاق. ولمّا سأل النجاشيّ الصحابة الذين هاجروا إلى بلده عن نبيّهم، قالوا في شرح حاله ودعوته: «جاءنا به رجل من أنفسنا، قد عرفنا وجهه ونسبه، بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا؛ فأمرنا بالبرّ والصدقة والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له؛ فصدّقناه، وعرفنا كلام الله، وعلمنا أن الذي جاء به من عند الله»[3]. فكان أصل علم العرب أنّ محمّدًا ﷺ رسول من عند الله ما جاء به من عقيدة وخلق على غير عرف العرب ومألوفهم وموروثهم.

---

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، تعريب: عادل زعيتر (كتاب، ٢٠١٣م) ص٧٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي (ح/ ٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي (ح/ ١٦٠).

(٣) البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ)، ٢/ ٢٩٤.

لقد حثّ القرآن على كثير من الخلق التي لم تجد مكانة هنيّة في عرف الجاهلية، وكان أعظم أمره متمثلًا في تقديم أصل جديد للمنظومة الأخلاقيّة، وهو ربط الصلة بالله الواحد في باب الأمر ووجهة النيّة: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزُّمَر: ١١]، والتنفير من غلظة الخلق البدوي الشقيّ بجلافته، وترطيب القلوب بندى الأخوّة، وتهوين أسباب الشقاق؛ ولذلك دعا القرآن إلى الإحسان في حال الشدّة والضيق إلى القريب والبعيد: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤]، واللين في مواضع القدرة: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥]، والمسامحة ودفع الخشونة: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وإحسان الظنّ بالناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحُجُرات: ١٢]، والميل إلى الصلح: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ١]، ورَفع قيمة الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وتكرّر من نبيّ الإسلام ﷺ ذمّ عادات الجاهليّة التي قاطعها الإسلام وسعى إلى اجتثاث جذورها البعيدة في بلاد العرب، ومن ذلك إذهاب العقل بشرب الخمر، واحتقار الضعفاء، والفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والنياحة، والتبرّج؛ فقال: «**أَرْبَعٌ في أمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُوهُنَّ: الفَخْرُ في الأَحْسَابِ، والطَّعْنُ في الأَنْسَابِ، والاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُوم، وَالنِّيَاحَةُ**»[1]. وقال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا؛ فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ**»، قَالَ اللهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة (ح/ ٩٣٤).

خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحُجُرات: ١٣]»[1]. ونعى القرآن على النساء سوء مظهرهن ومسلكهن إذا خالطن الناس: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقد أحسن المستشرق (توماس أرنولد) إذ قال: «دخول الإسلام المجتمع العربي لا يدلّ على مجرّد القضاء على قليل من العادات البربريّة الوحشيّة فحسب، وإنما كان انقلابًا كاملًا لمثل الحياة»[2].

الأثرة وخلق اليهوديّة:

ترتبط المنظومة الأخلاقيّة التي يدعو إليها النبيّ المرسل من الربّ سبحانه بالتصوّر العقدي لذات الرسالة؛ ولذلك فهي في وجه من أوجهها، مرآة تعكس الملامح الكبرى لأصلها العقدي.

وتعتبر المنظومة الأخلاقيّة اليهوديّة متّصلة بحبل سُرّي بعقيدة العهد القديم حيث (أبناء إسرائيل) هم شعب الله المختار (المدلّل)، ومن عداهم فهم «الجويم» (الأمم) التي ليس لها نصيب في رحمة الله.. وتبدو هذه الصورة في أعظم تجلّياتها في إباحة الإقراض بالربا مع الأممي ومنعه إذا كان التعامل مع يهودي، بما يكشف (نخبويّة الأخلاق الإسرائيليّة)، كما تنكشف حدّتها في وصف الفلسطينيين بأنّهم «حمير»[3]، وتتجلّى في صورة أوضح في التلمود حيث كلمة «بشر» قاصرة على الإسرائيليين: «أنتم تُدعون بشرًا، ولا يُدعى عبدة الكواكب (الأمميون) بشرًا». (אתם קרויין אדם ואין העובדי כוכבים קרויין אדם) (Keriot 6b) وحيث يقول الحبر (حنينا) (חנינא): «من يضرب إسرائيليًا على فكّه؛ فهو كمن أهان الحضرة الإلٰهية؛ لأنّه قد كتب: من ضرب رجلًا (أي: رجلًا إسرائيليًا)؛ فقد ضرب القُدُّوس (أي: الرب)» (הסוטר לועו של ישראל כאילו סוטר לועו של שכינה שנאמר מוקש אדם ילע קודש)

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (ح/٥١١٦)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجرات، (٣٩٥٦)، وحسّنه الألباني.

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٦٢.

(٣) جاء وصف غير اليهود بأنّهم حمير أيضًا في التلمود (براكوت ٥٨أ).

(سنهدرين ٥٨ب)، وهنا التماهي السافر بين (الإسرائيلي) و(الربّ)!

ومن النصوص الأخرى التي تكشف (نخبوية) الأخلاق التوراتيّة/التلموديّة:

«لا يتوجّب على اليهودي أن يدفع لوثني أجور عمل» (سنهدرين ٥٨ ب).

«إذا نطح ثور لرجل إسرائيلي ثورًا يخص رجلًا كنعانيًّا لا تدفع أية فدية، وأما إذا نطح الكنعاني ثور الإسرائيلي؛ توجّب دفع الفدية بالكامل» (بابا قاما ٣٧ ب).

«إذا عثر يهودي على متاع ضائع يخص وثنيًا فلا يتوجّب عليه ردّه» (بابا متسيا ٢٤ أ).

«لا يعفو الله عن اليهودي الذي يزوج ابنته لرجل عجوز، أو يأخذ زوجة لابنه الطفل، أو يردّ متاعًا ضائعًا لشخص وثني» (سنهدرين ٧٦ أ).

«الأمميون يقعون خارج نطاق حماية الشريعة، ومالهم يتيحه الله حلالًا لبني إسرائيل» (بابا قاما ٣٧ ب).

«يجوز لليهودي أن يلجأ إلى الأكاذيب (الحيل) لكي يراوغ أمميًا» (بابا قاما ١١٣أ).

«لا تترك البقر في فنادق الأمميين؛ لأنه يخشى أن يمارسوا معهم الجنس» (عبوداه زراه ٢٢أ، ٢٢ب).

ولعلّ من أهمّ مميزات (أخلاق التوراة)، عدم وصلها الجانب الأخلاقي الدنيوي بالعقاب والتنعيم الأخرويين؛ فهي أخلاق نفعيّة منحصرة في دائرة «التعايش» و«التخادم» بين الإسرائيليين باعتبارهم «أبناء الربّ وأصفياؤه»...

هل في النصرانية منظومة أخلاق؟

رغم ما شاع عن منظومة الأخلاق الإنجيليّة أنّها نسق جامح في مثاليّته، ينكر للفرد كلّ رغبة وشهوة، ويدعوه إلى أن يتنازل عن كلّ حقّ في نزاعه مع غيره، كما يدعوه إلى أن ينكر مشاعره العفوية الملازمة لطبيعته البشريّة في صميميّتها، ليتحوّل إلى كيان بلا إحساس عفوي؛ فهو ينفعل بصورة تخالف التكوين الآدمي الطبيعي.. إلّا أنّ الحقيقة هي أنّ هذه الصورة ـ رغم صدقها ـ لا تمثّل غير **نصف الحقيقة!**

إنّ النظرة العلميّة غير الخاضعة (لبروباغندا) الكنيسة، لتكشف صواب ما قرّره (ألبير باييه)[1] من أنّه **لا يوجد نسق أخلاقي منضبط في الأناجيل**، وإنّما هناك أنساق أخلاقية متعارضة متصادمة، وقد درجت الكنيسة على الانتقاء منها في ممارستها ودعوتها، مراعاةً لواقع الكنيسة من ضعف أو قوّة، أو مراعاة لتغيّر الزمان وتبدّل الأنساق الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة.

وقد لخّص (باييه) دراسته القيّمة لهذا الموضوع، في الفصل الذي اختار له عنوان: «**لا توجد أخلاق إنجيليّة**»، من كتابه «أخلاق الإنجيل»، بقوله:

«لنوجز حصيلة ما تقدّم من دراستنا. إنّها حصيلة بسيطة؛ **لا أخلاق إنجيليّة**. فمن جهة أولى، **توجد في الإنجيل أفكار متناقضة تتصل بما ندعوه اليوم الأخلاق النظريّة**. ومن جهة أخرى يوجد مذهب أخلاق عمليّة.

... هناك مذاهب ثلاثة في مجال علاقات الأخلاق بالطقوس: **الأوّل**: يؤكّد استقلال الأخلاق عن الطقوس ولا يقرّ سوى الرجس الأخلاقي. **والثاني**: يؤيّد طقوس التطهّر الواردة في (الشريعة) الموسويّة القديمة دون أن يدخل عليها أيّ تعديل. **والثالث**: يقيم طقوسًا جديدة.

وفي مجال علاقات الأخلاق بالإيمان يوجد مذهبان: **الأول**: يؤكد رجحان الأخلاق ويقرّ خلاص اليهود ويعلن أن الإيمان لا يقود إلى الخلاص إلا بالأعمال. **والمذهب الآخر**: يؤكد رجحان الإيمان، ويدين إسرائيل، ويعلن أن من يؤمن يخلص، ومن لا يؤمن يهلك.

وثمة فيما يتصل بالمسؤولية والحرية مذهبان: **الأول**: يعلن أن الناس أحرار، وأنهم يسمعون الكلام جميعًا، وأن في وسعهم وحدهم العمل به، وأن اختيارهم سيجعلهم أبرياء أو آثمين. **والمذهب الآخر**: يعلن أنّ الناس كافة لا يسمعون الكلام، وأن الله يقصد عمى بعضهم، وإنارة بصيرة الآخرين، وأن المختارين ليسوا هم الذين اختاروا الله، بل إنهم من اختارهم الله.

---

(١) ألبير باييه Albert Bayet (١٨٨٠ ـ ١٩٦١م): عالم اجتماع فرنسي. درّس في السوربون والمدرسة التطبيقيّة للدراسات العليا.

وفي ميدان الجزاء توجد ثلاثة مذاهب: **الأوّل**: يعد المؤمن بالخلاص ويمجّد إسرائيل الناجية من أعدائها. **والثاني**: يعلن بعث الأجساد، والسعادة الجسمانية أو العذاب الجسماني. **والثالث**: يقتصر على وعد ببعث روحي محض ينجز منذ الحياة الدنيا، وهو الانتقال من الخطأ إلى الحقيقة.

وإذا ما تصورنا التعاليم المتصلة بالممارسة ألفينا، على العكس؛ كأنها تتوزّع من تلقاء ذاتها بين فئتين.

الفئة الأولى: لا تقتل أبدًا، لا من أجل العقوبة، ولا حتى من أجل الدفاع عن النفس. ومن لطمك على خدك فحوّل له الآخر. وإذا أخذ ثوبك؟ فأعط رداءك. لا تستل سيفك أبدًا. ما فائدة ذلك؟ وإذا ما اضطهدت فهلّل فرحًا. وإن إنقاذك حياتك يعدل هلاكها. بع جميع أموالك وأعط ثمنها للفقراء. ليس لك كيس ولا مزود. إن كنت فقيرًا فابق فقيرًا، وعش مع الفقراء، حيث تجعلون كل شيء مشتركًا بينكم. لا تعمل لكسب رزقك: إن الزنابق لا تعمل. إن كنت عزبًا فلا تتزوج: اخصِ نفسك من أجل «ملكوت السماوات». وإن كنت متزوجًا فامتنع عن الانجاب: هاهي ذي الأيام التي تأتي ويقال فيها: طوبى للعواقر!

احتقر أسرتك الجسمانية. اترك والديك وأبناءك. أبغضهم. انظر إلى السلطات السياسية نظرتك إلى الشيطان. لا تكن ملكًا، ولا قاضيًا، ولا سيدًا. ترقب الثورة الكبرى التي سترى انهيار العروض، وهي ستجعل الأغنياء فقراء، والأواخر أوائل. لا تَدْعُ أحدًا «أبًا» «دكتورًا» حتى داخل الكنيسة ذاتها: فـ(يسوع) وحده هو الدكتور والمعلم، جميع الناس دونه إخوة متساوون.

ألا نرى جميعنا أن كل هذه التعاليم يتسق بعضها وبعض وتشكل «كلًّا» يدع أحدها الآخر. كل شيء جلي المبدأ: الفزع من العالم.

العالَم؟ إنه «المجتمع» الذي ننتمي إليه ونضطلع بمصيره. إنه الأسرة التي يربطنا بها ألف وثاق متين أو ضعيف. إنه الثروة التي تغذي حياة البشر حتى لو كان توزيعها ظالمًا. وهو أخيرًا الحياة ذاتها والتي كل ما عداها لا شيء.

إن بغض العالَم هو إذن، من الناحية المنطقية، بغض «المجتمع»، والأسرة، والثروة، والحياة بالذات. . .

طائفة ثانية من التعاليم: ابتع سيفًا. أعدم المجرمين. إذا هدّد الموت حياتك فاهرب إلى الجبل. إذا اضطُهدت في مدينة فاهرب إلى أخرى. خذ كيسًا ومزودًا. اشتغل لتكسب رزقك. استثمر أموالك بتوظيفها لدى أصحاب المصارف. تصدق، ولكن أحدًا لا يطالبك بإعطاء كل ما تملك. دع حقلًا لتفوز بمئة حقل، وبيتًا لتلقى مئة بيت. تزوّج وكن مع امرأتك جسدًا واحدًا. افرح إن أنجبت زوجتك ابنًا. أكرم أباك وأمك. أحب أطفالك، وكن متسامحًا معهم. اخضع للسلطات القائمة. أعط ما لقيصر لقيصر. احكم على إخوتك. وإذا كانوا عصاة اطردهم. ليخدمك أتباعك. وليجلب لك عبدك طعامك وهو متمنطق. احترم في الكنيسة الرؤساء ورعاة القطيع الذين وهبوا أنفسهم للحقيقة، وهم سادة يحطون عنك خطيئاتك، أو يبقونها عليك.

هنا أيضًا، كيف لا ندرك أن التعاليم تترابط، وأن مبدأً مشتركًا يسودها؟ وهذا المبدأ يعارض كل المعارضة مبدأ الأخلاق الأخرى، وقوامه بوجه الدقة احترام العالم؟»[١]

إنها أخلاط من التصوّرات والتعاليم والأوامر المتضادة!

والكنيسة ـ على كلّ حال ـ في عملها التنصيري ـ منذ القرون الأولى التالية للبعثة المحمديّة ـ روّجت لنفسها من خلال إظهار **التفرّد النصراني في باب المنظومات الأخلاقيّة**، وهذا أمر يؤكّد بجلاء ألّا علاقة نَسَبيّة أو عضويّة بين المنظومة النصرانيّة والمنظومة الإسلاميّة!

وتبقى أحكام التوراة وقصصها في عصر الإنجيل حجّة على سيادة أخلاق الطغاة، وسيف المكر بالمستضعفين عندما يُمكَّنُ (للمؤمنين) في الأرض، وهو ما ظهر لنا في الحديث عن شريعة القتال في الكتاب المقدّس. . ولذلك لم

(١) ألبير بايه، أخلاق الإنجيل، دراسة سوسيولوجيّة، تعريب: عادل العوا (دمشق: دار الحصاد، ١٩٩٧م)، ص١١٣ ـ ١١٧.

يجد (توماس باين) حرجًا في أن يقول: «كلّما قرأنا القصص الفاحشة، وحكايات الفسوق الشهواني، وحالات الإعدام القاسية، والانتقام الصارم، وهو الذي يستغرق أكثر من نصف الكتاب المقدس، أرى أنّه من الأصدق قولًا أن **نسمّي هذا الكتاب كلمة الشيطان**، لا كلمة الله»[1].

أصول الأخلاق الإسلامية:

يكشف النظر في المنظومة الأخلاقيّة القرآنيّة فرادتها؛ إذ تجمع في فلسفتها بين تحفيز النزوع البشري إلى التسامي، ومراعاة البناء النفسي الذي تتنازعه الشهوات وتحاصره النزغات الشيطانيّة. فالمنظومة الأخلاقيّة الإسلامية تقوم على مجموعة أسس، **أهمّها**:

أحاديّة القبلة: كان العرب قبل البعثة يعظّمون عددًا من الفضائل المحمودة كالجود والنُصرة، غير أنّهم كانوا كثيرًا ما يربطون فعلهم بحمد الناس لهم وذمّهم. ولمّا جاء الإسلام، نفض عن الفعل الكريم الرغبة في استجداء ثناء الناس ودفع نقمتهم، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ٨ ـ ١٠]. وكلّ شيء في الإسلام يدور في فلك عقيدة التوحيد، والبراءة من القوة والطول؛ فالإنسان يفعل الخير استجابة للأمر الرباني المساوق للفطرة الخيّرة للنفس.

الواقعيّة المتعالية: لقد جاءت المنظومة القرآنيّة الأخلاقيّة بعيدة عن المثاليّة الواهمة التي تتنكّر لضعف الإنسان ونقصه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤]، ومتجانفة عن الواقعيّة المستسلمة التي تركن إلى قصور النفس البشريّة وتخضع لنزواتها لأنّها جزء من صميم كينونة البشر: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ٦]؛ فالإنسان في الإسلام ليس هو الكائن الأحاديّ

---

(١) Thomas Paine, *The Age of Reason*, p.17.

الغابيّ عند (هوبز)[1] بطبعه الذئبيّ المهيمن على أعماقه، ولا هو الكائن الثنائيّ عند الغنوصيين وفلاسفة الكنيسة حيث تصطرع روحه الطاهرة مع جوارحه النجسة، وإنّما هو ذات تجمع نزعتَي الخير والشرّ، وفي الروح والجسد معًا ميل إلى السموّ والسفول. والإنسان لا يتعالى بقمع شهوته كما عند الرواقيين[2]، ولا يحقق كماله بالإذعان لها كما عند الإبيقوريين[3].

والأخلاق الإسلاميّة تعترف أنّ الإنسان مسلوب العصمة، وأنّه أيضًا يملك القدرة على التعالي فوق الكثير من شوائب النقص فيه بما أودع في فطرته من نزوع إلى الخير واستقباح للشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧، ٨]، كما أنّها موصولة بسياق الوضع الإنساني الاختباري في الدنيا حيث يمشي المرء على صراط محنة النفس الأمارة بالسوء ووعد الله له بالجنّة؛ فأينما مال، كان هناك المستقرّ والمآل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

إقرار الحقّ، وإعلاء الفضل: تؤكّد الشريعة الإسلاميّة أنّ علاقة الناس فيما بينهم لا بدّ أن تتوفّر فيها معاني العدل حتى لا يكون مظلوم دون أن يقتص لمظلمته، لكنّ إقرار الحق وحده لا يصنع أمّة التلاحم والتراحم والتآخي في الجسد الواحد الأكبر، الأمّة؛ ولذلك تكرّر في القرآن بيان أهميّة الإغضاء والعفو..

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وهو

---

(١) توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م): كاتب إنجليزي متعدّد الاهتمامات الفكرية، اشتهر بمذهبه في فلسفة السياسة كما شرحه في كتاب: «Leviathan». وهو القائل: "Man to Man is an arrant Wolfe".

(٢) الرواقية Stoicism: أصل الاسم نسبة إلى أروقة أثينا حيث اختمرت أصول هذه الفلسفة، والتي من أهمّ أعلامها (زينون الرواقي) (٣٣٦ ـ ٢٧٤ ق م). وهي تقوم على الدعوة إلى تحقيق الفضيلة بالاصطراع الدائم مع أهمّ الشهوات.

(٣) الإبيقورية: نسبة إلى الفيلسوف اليوناني (إبيقور) (Epicurus) (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق م). وهي فلسفة تقوم على أنّ غاية الحياة هي تحقيق «الأترَكسيا» (αταραξια)؛ أي: التحرّر من القلق. وهي فلسفة تقوم على أنّ اللذة هي الغاية النهائية، وإن كان (إبيقور) يقدّم اللذة العقليّة على اللذة الحسّيّة.

العدل، وأعقب ذلك بقوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٨٠﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وهو الفضل. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢]، وزاد للفضل: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء: ٩٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وأعظم من ذلك: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦].

والأصل في كلّ قصاص هو: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وخير منه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

ومنظومة الأخلاق الإسلاميّة بذلك وسط بين ثقافتي العصر، ثقافة وثنيي مكة واليهود حيث القصاص هو الأصل، والحد الفاصل بين الحق والباطل، ومُثُل[1] النصرانية التي تدعو إلى الفضل دون اعتراف بحق ذاتيّ للمرء.

خيريّة الإنسان: قام البناء الأخلاقي الإسلامي على أنّ الإنسان خيّرٌ في صميميّته، وهو مع ذلك يملك القدرة على الميل إلى الخير وإلى الشرّ إذا شاء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٤ ـ ٦]. قال (ابن عاشور): «الذي نأخذه من هذه الآية أن الإنسان مخلوق على حالة الفطرة الإنسانية التي فطر الله النوع ليتصف بآثارها، وهي الفطرة الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكًا مستقيمًا مما يتأدى من المحسوسات الصادقة؛ أي: الموافقة لحقائق الأشياء الثابتة في نفس الأمر، بسبب سلامة ما تؤديه الحواس السليمة، وما يتلقاه العقل السليم من ذلك ويتصرف فيه بالتحليل والتركيب المنتظمين، بحيث لو جانبته التلقينات الضالة والعوائد الذميمة والطبائع المنحرفة والتفكير الضار، أو لو تسلطت عليه تسلطًا ما فاستطاع دفاعها عنه بدلائل الحق والصواب، لجرى في جميع شؤونه على الاستقامة، ولما صدرت

(١) هي مُثُل في النصوص المقدسة، ولم يكن لها رصيد واقعي في معاملات النصارى لأنها تخالف الحسّ الطبيعي للإنسان.

منه إلا الأفعال الصالحة، ولكنه قد يتعثر في ذيول اغتراره ويرخي العنان لهواه وشهوته، فترمي به في الضلالات، أو يتغلب عليه دعاة الضلال بعامل التخويف أو الإطماع فيتابعهم طوعًا أو كرهًا، ثم لا يلبث أن يستحكم فيه ما تقلّده فيعتاده وينسى الصواب والرشد»[1]. وبذلك يخالف القرآن مفهوم الفساد الصميمي للإنسان في النصرانيّة؛ إذ تكرّر رسائل (بولس) دعوى فساد الإنسان بلا رجاء؛ فتنقل عن المزامير مثلًا: «الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ»[2].

السعادة دنيوية وأخروية: لم يجعل القرآن السعادة شأنًا أخرويًّا محضًا، وإنّما أكّد أنّ غاية الحياة السعادة في الدارين؛ فمن شقي في الدنيا شقي في الآخرة: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

لا يعني ما سبق أنّ القرآن الكريم قد دعا إلى مجموعة قيم لم تعرفها أسفار الكتاب المقدس؛ فليس ذاك بممكن ولا مطلوب؛ إذ إنّ في تلك الأسفار مجموعة من النظم الأخلاقيّة التي اتّفق صلحاء البشر على صوابها لأنها توافق ما فُطر عليه الإنسان، كما أنّ القرآن الكريم ذاته قد جاء ـ في واحد من أغراضه ـ ليحافظ على الخير الذي هُدي إليه أهل الكتاب سابقًا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦]، وقد أثبت البحث التفصيلي في القيم الأخلاقيّة السامية الواردة في الكتاب المقدس، أنّها كلّها مثبتة في القرآن الكريم[3]، غير أنّ هذا الكتاب المعجز والفريد، لا يكتفي بالموافقة والجمع، وإنّما هو يجمع إلى الأخلاق المثبتة في أسفار الأوّلين، أنماطًا جديدة في السلوك والتعامل بما يوافق عالميّة هذا الدين وإحكام أحكامه التي لا سبيل لنسخها؛ إذ لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ! كما جبر القرآن الكريم ما في أحكام التوراة من

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٢٥.

(٢) الرسالة إلى روما ٣/ ١٢.

(٣) انظر هذا التفصيل الشائق في: محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص٩٣ ـ ١٠٢.

شدة وتضييق، وما في الكثير من أحكام الإنجيل من رخاوة وتهاون[١]..
فكانت الخلاصة: أخلاقًا متقنة مصلحة لكلّ زمان ومكان[٢].

خلاصة النظر:

البناء الأخلاقي الإسلامي نَشْءٌ جديد، وإن لم يقطع مع أوجه الخير في النظم الأخلاقية العربيّة والكتابيّة؛ فقد حافظ على ما فيهما من خير، وأصلح ما فيهما من أثرة، وشر، وزاد بتثبيت إطارٍ نَسَقيّ جامع في بناءٍ أدناه الإحسان إلى النفس دون بطر، وأعلاه تحقيق الانسجام مع هذا الكون المتحرّك طوعًا وقهرًا في معراج التعبّد. وتلك هي فرادة منظومة الأخلاق الإسلاميّة التي تشهد للقرآن بالربّانيّة. يقول المستشرق (هاملتون جب): «إن **المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينيًّا جديدًا متميزًا**... ومن هذه الوجهة يغدو التساؤل عن **مصادر الدين الذي جاء به محمد أمرًا غير وارد بالمرّة**»[٣].

لقد بُعث محمّد ﷺ ليتمّم مكارم الأخلاق؛ فجبر النقص، ورفع السقف، وآلف بين الإنسان ونفسه وغيره.. لقد هذّب أطرافه ورفع أشواقه، وأحسن صلته بالأرض والسماء.

مراجع للتوسع:

محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظريّة في القرآن، تعريب: عبد الصبور شاهين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

---

(١) المقصود هو: التوراة والإنجيل بعد طروء التحريف عليهما.

(٢) «مُصلحة لكلّ زمان والمكان» لا «صالحة لكلّ زمان ومكان»؛ لأنّها في كمالها تشكّل البوصلة والمعيار.. انظر في تفصيل معالم المنظومة الأخلاقيّة القرآنيّة: محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظريّة في القرآن، تعريب: عبد الصبور شاهين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

(٣) هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام (ت: إحسان عباس وآخرين. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤م)، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.

مصطفى حلمي، الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام (الإسكندرية: دار الدعوة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

يعقوب المليجي، الأخلاق في الإسلام مع المقارنات بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية (الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

محمد الغزالي، خلق المسلم (دمشق: دار القلم، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م).

ألبير بايه، أخلاق الإنجيل، دراسة سوسيولوجيّة، تعريب: عادل العوا (دمشق: دار الحصاد، ١٩٩٧م).

الفصل العاشر

الإعجاز التاريخي في القرآن الكريم

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

أنا مع جمهور العلماء أنّه علينا أن نلغي جل أخبار التوراة... فقد أضيفت من محرّرين متأخرين.

(عالم الأركيولوجيا القريب من التيار المحافظ William G. Dever)

بين خيارين.. إعجاز تاريخي أم اقتباس؟

إذا كان القرآن نبتة بشرية في أرض الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، فلا بدّ أن يعكس هذا الكتاب واقع الثقافة التاريخية لتلك الفترة، في ذاك المكان. وعلينا هنا أن نرصد الخبر التاريخي القرآني مقارنة بالخبر التوراتي والإنجيلي؛ إذ لم يكن في تلك الفترة مصدر لقصص الأنبياء وأممهم غير الثقافة الكتابية اليهودية ـ النصرانية.

يقول المسلم الذي يرى الصدق التاريخي لقصص القرآن، والإعجاز التاريخي في بعض تفاصيل قصصه: إنّ من يقرأ قصص القرآن في ضوء معارفنا التاريخية الجادة اليوم، لا بد أن ينتهي إلى الإقرار للقرآن بإعجازه من الناحية التاريخية إذا استحضر **الأمور التالية**:

● مخالفة القرآن لتفاصيل قصص التوراة والإنجيل لا تجد لها مبررًا تاريخيًّا مَصْلَحِيًّا زمن البعثة النبويّة لأنّ هذه المخالفة تباعد بين القرآن وأهل الكتاب؛ فالمخالفة أدعى للمنافرة.

• لا يوجد مبرّر تاريخي أو علمي حادث لمخالفة المعروف من ثقافة العصر في باب الأخبار التاريخية؛ فالعلم بالتاريخ والكون هو هو منذ قرون حتى زمن البعثة.

• في زمن البعثة، كان الكتاب المقدس وحواشيه من التراث اليهودي والنصراني المكتوب والشفهي المصدر الأوحد لخبر الأولين. وقد كان القرآن يوافق الكتاب المقدس في الحق، وينافره في الباطل، ويصحح خطأه، ويسبقه بالخبر التاريخي الذي لا يُعلم صدقه إلا بعد قرون. وهو عين المتوقع من كتاب ربّاني.

ويقول من ينكر ربّانيّة القرآن، ردًّا على الدعوى السابقة: ليس في القرآن شيء من ذلك؛ بل القرآن نقلٌ ساذج لأخبار أهل الكتاب.

لا يحسم الخلاف بين هذين الفريقين غير النظر التاريخي في القصص القرآني ومقابله التوراتي والإنجيلي لمعرفة حقيقة دلالات الاختلافات بينهما.

مقدمة النظر:

الناظر بعمق في القصص القرآني من زاوية تاريخية متسلّحًا بـ:

أ ـ التعامل مع النص القرآني بعيدًا عن الإسقاطات الخارجيّة.

ب ـ ملاحظة كلّ التفاصيل التي خالف فيها النص القرآني النصّين التوراتي والإنجيلي، حذفًا وزيادة وتغييرًا.

ت ـ معرفة تاريخ الحضارات القديمة، خاصة المصريّة.

سينتهي به البحث إلى مجموعة من الحقائق:

أ ـ السبق التاريخي المجرّد بإضافة بيانات تاريخية لم تُعرف إلّا حديثًا.

ب ـ تصحيح القرآن للأخطاء التاريخية للتوراة والإنجيل على صورة لا يُمكن الوصول إليها إلّا بعد الاطلاع على الكشوف التاريخية الحديثة.

ت ـ تفادي القرآن لأخطاء تاريخية في التوراة أو الإنجيل، رغم اقتضاء سياق العرض القرآني متابعة هذه الأخطاء.

ينكشف الإعجاز التاريخي في القرآن عند مقارنة أخباره بأخبار التوراة والإنجيل في أبواب الإضافة والتغيير والحذف.

١ ـ السبق التاريخي:

السبق التاريخي بذكر تفاصيل تاريخية تتعلّق بالأمم القديمة لا علم للعرب الجاهليين وغيرهم بأمرها في القرن السابع الميلادي، حجّة لا يتمارى فيها منصفان في أنّ القرآن وحي رباني لأنّ ذلك لا يُكتسب بالجدّ والاجتهاد أو العبقرية والذكاء الحاد.

من هذه الأخبار التاريخية المعجزة التي تشفّ عن المصدر العلوي لهذا الكتاب الفريد، نذكر جملة تغني اللبيب عن طلب المزيد.

ادعاء فرعون الألوهيّة:

تخلو التوراة من أيّ إشارة إلى دعوى فرعون الألوهيّة في حين أثبت القرآن الكريم تاريخيّة هذه الدعوى الشنيعة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].. ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩].

لا يقتصر الأمر في التوراة على تجاهل دعوى تأليه فرعون نفسه، بل إنّ التوراة تجعل (موسى) إلهًا ـ على المجاز ـ لفرعون: «فقال الربّ لموسى انظر: أنا جعلتك إلٰهًا (אלהים ـ إلوهيم) لفرعون»![1]، وإلٰهًا ـ على المجاز ـ لهارون: «وهو (أي: هارون) يكلّم الشعب عنك. وهو يكون لك فمًا وأنت تكون له إلٰهًا (אלהים ـ إلوهيم)»![2]

---

(١) خروج ٧/١، والأمر المثير أنّ (ترجمة الحياة) العربيّة تعرّب النصّ هكذا: «أنا جعلتك كإله لفرعون» في مخالفة لما تذكره المخطوطات العبرية (נתתיך אלהים לפרעה) واليونانية (δεδωκα σε θεον Φαραω)، والسريانيّة (ܕܣܡܬܟ ܐܠܗܐ ܠܦܪܥܘܢ) بإضافتها حرف الكاف الذي لا وجود له في النص العبري ولا في ترجماته القديمة!

(٢) خروج ٤/١٦.

وهاهنا ثلاثة تقريرات قرآنية تاريخية غير مذكورة في الكتاب المقدس، وغير معلومة في القرن السابع الميلادي:

التقرير الأوّل: في مقابل صمت التوراة عن تألّه الفرعون، ينطق التاريخ بأنّ مؤسس الأسرة المصريّة الأولى، استطاع أن يكوّن لمصر حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م حكومة مركزيّة قويّة ثابتة الأركان، كان على رأسها (الملك المؤلّه) الذي استطاع أن يجمع بين يديه كلّ السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور؛ فهو (الإله الأعظم)، وهو (الإله الصقر حور) الذي تجسّد في هيئة بشريّة؛ ولذلك فهو في نظر رعاياه، إله حيّ على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، ومن ثمّ فله حق الاتصال بهم، وله على شعبه ما لغيره من الآلهة من التقديس والمهابة[(١)].

التقرير الثاني: يقول القرآن ناقلًا عن فرعون دعواه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].. وهو تصوير دقيق لحال الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أنّ الواحد فيهم هو (الإله الأعظم) الذي تعود إليه كلّ أمور المملكة وكلّ أمور الناس، وهو الذي يعلم كلّ كبير وصغير من أمر الناس[(٢)].

التقرير الثالث: مما يلاحظ أيضا أنّ القرآن بالإضافة إلى نقله ادّعاء فرعون للألوهيّة، يقول على لسان الملأ من قومه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].. ففرعون مدع للألوهية، كما أنّ له هو أيضًا آلهة.. ورغم أنّ الأمر يبدو في ظاهره متناقضًا إلا أنّ التاريخ المصري يخبرنا أنّ (رمسيس الثاني) ـ فرعون التسخير في قصّة (موسى) عليه السلام، على الراجح ـ كان يدّعي الألوهية إلى درجة أن رفع نفسه إلى طبقة (كبار الآلهة)، إلّا أنه أيضًا كان يعبد أربعة آلهة أخرى؛ وهي (آمون) و(رع) و(بتاح) و(سوتخ)[(٣)].. وهذا لغز لم يكشف إلا مع التعرّف على اللغة الهيروغليفية في القرون الأخيرة.

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم ٢/ ٢١٤.

(٢) انظر: محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم ٢/ ٢١٤.

(٣) انظر: رشدي البدراوي، مصدر سابق، عن الدكتور محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل (بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م)، ص١٥٤.

وهنا معجزات دقيقة لا نرى لها أثرًا في التوراة، رغم أهميّتها القصوى في نقل ملابسات ما كان بين (موسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون مصر.

ذكر خبر ألوهية الفراعنة مفاجأة تاريخيّة في القرن السابع، إذ إنّ التوراة قد غفلت عن هذا الخبر الذي انقطع العلم به مع العجز عن فك حروف اللغة الهيروغليفية.

صورة للوحة جدارية للإلٰهين (ست) و(حورس) وهما يتوجان (رمسيس الثاني)
- معبد أبي سنبل -



ونضيف فائدة أخرى، ما دمنا نتحدث عن (رمسيس الثاني)؛ وهي أنّ الحديث النبوي الشريف قد سمّى زوجة فرعون التي التقطت (موسى) من اليم، (آسية)[1].

(١) قال ﷺ: «**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**». (صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ (ح/ ٣٤١١).

واليوم يخبرنا التاريخ المصري القديم ـ بعد أن فتح بابه لنا ـ أنّ اسم الزوجة الثانية (لرمسيس الثاني)، وكبيرة الملكات بعد وفاة (نفرتاري)، هو: [هيروغليفية] وهو اسم من الممكن أن ينطق على صور مختلفة، منها: (آسية نفرت)[١]، ويعني: «آسية الجميلة».

ومن المفيد هنا إضافة أنّ الحديث النبوي يذكر اسمها كاملًا: (آسية بنت مزاحم)[٢]، ويخبرنا التاريخ أنّ ابنة (آسية) اسمها «بنت [الآلهة] عناة»، [هيروغليفية] ومن المثير ـ كما يقول النقّاد ـ أنّ اسمها ساميٌّ وليس مصريًّا، ولذا جاءت فيه كلمة «بنت»، و(أنات) آلهة كنعانية، ولذلك رجّح عدد من النقّاد أن تكون أمّها سوريّة[٣]. وهو ما يجعل اللقب السامي (بنت مزاحم) في الحديث وجيهًا من الناحية التاريخية.

كما أنّ الخبر الفريد في القرآن بإسلام هذه المرأة وتركها عبادة الفرعون، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]، يقابله خبر التاريخ عن الاختفاء المفاجئ اللاحق لاسم هذه المرأة من الآثار الملكيّة لزوجها (رمسيس الثاني)، ومنها المعابد الجنائزيّة، وخاصة معبد الرامسيزوم. وفي آثار (أبو سنبل) يظهر أولادها في أكثر صورة، دون أن يكون لها وجود. كما أنّه لم يُكتشَف لها إلى اليوم قبر ملكيّ. ولذلك قال عالم المصريات الفرنسي (كريستيان نوبلكور) إنّ من العلماء من ذهبوا إلى طرد رمسيس الثاني لها[٤]. وهذا يفسّر ذاك..

(١) يمكن أن ينطق بطرق مختلفة، منها: (آيسة) و(إيسى) وحتى (إست)؛ انظر: محمد بيومي مهران، إسرائيل (الإسكندرية، مصر: دار المعرفة الجامعية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م)، ١/٣٩٣.

(٢) قال (ابن عباس): «خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة أخطط، ثم قال: **تدرون ما هذا؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**». (رواه أحمد والحاكم في مستدركه، وصحّحه الألباني).

(٣) Henry Sayce, *The Early History of the Hebrews* 'London: Rivingtons, 1899), p.L.

(٤) Christiane Desroches Noblecourt, *Ramsès II-La véritable histoire (Paris, Pygmalion, 1996), p.237.*

ويبقى السؤال الذي يجب أن يثير القارئ: ماذا لو لم نجد في زوجات رمسيس الثاني أيّ إشارة إلى اسم هذه الزوجة وحالها؟ إننا إذن أمام كشف مثير!

رمسيس الثاني وقد وضع نفسه بين الإلٰه (آمون) والإلٰهة (موت) في ثالوث آلهة.



الفرعون (مرنبتاح) أمام الإلٰه (رع)



الفرعون (مرنبتاح) يعرض تقدمته أمام الإلهة (بتاح)



تمثال لآسية زوجة رمسيس الثاني



اعتراض: حاول بعض المنصّرين التهوين من هذا الإعجاز الغيبي بذكر تأليه فرعون نفسه، وقالوا: «إنه لا يستبعد على الإنسان تصوّر تأليه طاغية لنفسه!». والحقيقة هي أنّ هؤلاء لم ينصفوا في النظر إلى الأمر؛ إذ الصواب أن يقال:

أولًا: هل من المعقول أن يسرد كتاب مقدّس (التوراة) قصة رجل ألّه نفسه، وتوجه إليه نبي عظيم ليقول له: «اعبُد إلٰهًا واحدًا، هو الإلٰه الحق!» دون أن يذكر هذا الكتاب أنّ هذا الطاغية المتألّه قد اعترض عليه بقوله: كيف تدعوني إلى عبادة إلٰهك! أنا الإلٰه الحق!

إنّ **أي كتاب يغفل حقيقة جوهرية في صناعة الأحداث لا يمكن أن يكون صادقًا في نقله للواقع**؛ إذ ينقل حواشي المشكلة ويهمل جوهرها!

ثانيًا: كان على القرآن أن يحافظ على متابعته للتوراة، لو كان كتابًا بشريًّا؛ لأنّ جرائم فرعون كافية لإظهار ضلاله وفساده في مقابل استقامة نبي الله (موسى) عليه السلام، خاصة أنّه لا حاجة (على الأقل ظاهريًّا) للحديث عن ألوهية فرعون في قصة توراتية أهم ما تقصده هو ظلم فرعون لبني إسرائيل وهروبهم منه.

ثالثًا: ماذا لو أثبتت الآثار المصرية أنّ الفراعنة لم يدّعوا الألوهية، ألم يكن ذلك ليطعن في ربّانيّة القرآن؟! فإذا كان النفي حجّة ضدّ القرآن؛ فالإثبات حجّة له.

«ألوهيّة فرعون»، امتحان تاريخي دقيق وشديد لربانيّة القرآن، نجحت فيه آيات القرآن بإبهار، وفشلت فيه توراة اليهود بجلاء.

(الملك) لا (فرعون):

يقول الدكتور (محمد بيومي مهران) ـ أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بجامعة الاسكندرية ـ: «إنّ قصة التوراة تتحدث دائمًا عن ملك مصر على أنه فرعون مصر، بينما يتحدث القرآن على أنه الملك وليس الفرعون[1]،

(١) تكوين ٤٠/٧ ـ ٤١/١٥، ٤٦، ٣١ ـ ٥٠/٧.

ومن المعروف تاريخيًّا اليوم أن كلمة (فرعون) في صيغتها المصرية (بر ـ عا) أو (بر ـ عو)، كانت تعني ـ بادئ ذي بدء ـ: البيت العالي، أو البيت العظيم، وكانوا يشيرون بها إلى القصر الملكي ـ وليس إلى ساكنه ـ ثم سرعان ما تغيّرت وغدت تعبيرًا محترمًا، يقصد به الملك نفسه، وذلك منذ الأسرة الثامنة عشرة، وأما متى حدث هذا التغيير في استعمال لقب فرعون؛ فإن سير (ألن جارندر) ـ العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة ـ يحدد ذلك بعهد الفرعون (تحوتمس الثالث) (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق.م)، حيث بدئ في إطلاق الاصطلاح أي: (فرعون) على الملك نفسه ثم في عهد الداعية الديني المشهور (أخناتون) (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ ق.م)، مستندًا في ذلك على خطاب من عهده، ثم استعمل منذ الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ ـ ١١٨٤ق.م)، وفيما بعد، في بعض الأحايين، كمرادف لكلمة (جلالته)، ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ: (خرج فرعون) و(قال فرعون... وهكذا).

إن القرآن الكريم أراد أن يفرّق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام (يوسف) الصديق في عهد الهكسوس؛ فأطلق عليه لقب (ملك)، وبين حاكم مصر الوطني على أيام (موسى) ـ مثلًا ـ الذي أطلق عليه لقب (فرعون) وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد (أخناتون)، هذا فضلًا عن أنّ ذلك من إعجاز القرآن، الذي لا إعجاز بعده، وإذا ما عدنا إلى التوراة، لوجدنا أن الحقائق التاريخية تقف ضد ما أوردته التوراة بشأن استعمال لقب فرعون، إذ إنها **تستعمله حين يجب أن تستعمل لقب ملك، وذلك قبل الأسرة الثامنة عشرة، وتستعمل لقب ملك حين يجب أن تستعمل لقب فرعون،** وذلك منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ ق.م)، وفيما بعدها»[(١)].

وقال (موريس بوكاي) في كتابه التاريخيّ النقديّ «موسى وفرعون»:

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٢/ ١٢١ ـ ١٢٢، (بتصرف يسير)،
Wahiduddine Khan, *God Arises* (New Delhi: Goodword Books, 2001), pp. 206- 208.

«.. عبارةٌ أخرى وردت في سورة يوسف يبدو لي أنها تحتاج إلى إشارة خاصة؛ لأنها تمثّل مطابقة كاملة للاستعمال الذي كان في زمن يوسف، كما هو مثبت في التاريخ. أنا جدّ مدين للبرفسور جاك بيرك أنه لفت انتباهي منذ عدة سنين إلى الأمر التالي: لُقِّب الحاكم في سورة يوسف خمس مرات (الآيات ٤٣، و٥٠ و٥٤، و٧٢، و٧٦) دائمًا باسم (مَلك)، ولم يُلقّب البتة بلقب (فرعون) الذي اختص به في القرآن الحاكم في الزمن الذي جرت فيه الأحداث المتعلقة بموسى وذلك في خمس وستين مرة. استعمل الكتاب المقدس... كلمة فرعون في جميع نصوصه للدلالة على حاكم مصر (أحيانًا مقترنة بكلمة ملك)، لا فقط في زمن يوسف (أي: في أقصى الاحتمالات القرن السابع عشر قبل الميلاد) بل حتى قبل ذلك في زمن إبراهيم (الفصل الثامن عشر من سفر التكوين).

لم يُعرف ملك مصر بلقب فرعون إلا منذ حكم أمينوفيس الرابع، أي: في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل المسيح. **كل استعمال لكلمة فرعون للدلالة على ملك مصر قبل هذا العصر هو خطأ تاريخي**: ارتكب محررو الكتاب المقدس هذا الخطأ لما كانوا يستعملون لغة زمانهم عند تأليفهم للكتاب المقدس. في المقابل؛ فإن استعمال هذه الكلمة للأحداث الأقرب لنا كزمن موسى، هي مطابقة للمعطيات التاريخية.

إنّه عليّ أن أعلن أنّه في زمن تبليغ القرآن إلى الناس، كانت **اللغة المصرية القديمة قد اختفت منذ أكثر من قرنين من الذاكرة البشرية، وبقيت كذلك إلى القرن التاسع عشر**؛ لذلك فليس بإمكاننا أن نعرف أنّ ملك مصر في زمن يوسف يجب أن يُدعى بلقب غير المذكور في الكتاب المقدس. دقة اختيار الكلمات في هذا الموضوع في نص القرآن تثير التفكير»[١].

اعتراض: بل الأمر صدفة؛ فـ«فرعون» و«ملك» كلمتان مترادفان يُقصد بهما «الحاكم»!

---

(١) Maurice Bucaille, *Moise et pharaon: les Heibreux en Eigypte: quelles concordances des livres saints avec l'histoire?* (Paris: Pocket, 2003), pp.210-211.

الجواب: ليس بينهما ترادف تاريخيًّا؛ فإنّه وإن كان كلّ فرعون ملكًا ـ بالمعنى العام للحاكم ـ إلّا أنه ليس كلّ ملك فرعونًا. وقد حيّر غياب كلمة «فرعون» في قصّة (يوسف) عليه السلام وورود كلمة «ملك» مكانها بعض المستشرقين؛ حتّى قال المستشرق المعروف «سبرنجر»[1] ـ والذي عاش في القرن التاسع عشر، قبل تفجّر كثير من معارف الحضارة المصريّة القديمة ـ: إنّ هذه الظاهرة عجيبة. وحاول تفسيرها بالقول: إنّه عند «نزول» سورة يوسف ما كان نبيّ الإسلام يعرف أنّ حاكم مصر كان فرعونًا![2].

نجاة جثة فرعون

يقول تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

تذكر هذه الآيات حادثة غرق فرعون، وهو ما جاء أيضًا في نص التوراة[3]، غير أنّ القرآن الكريم يضيف أمرين آخرين لم تعرفهما التوراة:

١ ـ حفظ الله سبحانه جثّة فرعون الهالك من أن تبقى في البحر.

٢ ـ نجّى الله سبحانه هذه الجثّة في اليوم الذي غرقت فيه لتبقى آية للناس وعبرة.

وقد بقي أمر جثث الفراعنة المحنطة مخفيًّا طوال قرون عديدة، ولم يكتشف إلا في آخر القرن التاسع عشر حيث عُثر على مومياءات الفراعنة عند فتح قبر (امنحتب الثاني).

ذهب باحثون كثيرون، ومنهم (موريس بوكاي) ـ الطبيب، وعضو

---

(١) ألويس اشبرنجر Aloys Sprenger (١٨١٣ ـ ١٨٩٣م): مستشرق نمساوي. من أهم مؤلفاته: "*Das Leben und die Lehre des Mohammed*".

(٢) Arthur Jeffery, *Foreign Vocabulary of the Qur'an* (Lahore: Oriental Institute, 1933), p.225.

(٣) انظر: خروج ١٤/٢٨، مزمور ٧٨/ ٥٣ ١٠٦/١١.

الجمعيّة الفرنسيّة للمصريّات ـ، إلى أنّ فرعون الخروج[١] هو (مرنبتاح ابن رمسيس الثاني)[٢]. وقد قام الدكتور (بوكاي) بتقديم بيانات علميّة بالغة الأهميّة في هذا الشأن ـ لم تأخذ للأسف الشديد حظّها من العناية من المتخصّصين ـ؛ فقد ذكر أنّ التحليل الطبّي لمومياء (مرنبتاح) قد تمّ بين سنتي ١٩٧٤م و١٩٧٥م بمشاركة أطباء مصريين، وكان هو من المشاركين فيه. وقد استُقدم من فرنسا كأحد أهم المتخصصين في الطب الشرعي لبحث فرضيّة موت هذا الفرعون بفعل ارتداد الأمواج عليه والغرق في البحر.

نُشرت نتائج هذا البحث في كتاب (بوكاي) «مومياءات الفراعنة، الأبحاث الطبيّة المعاصرة» الذي نال عنه جائزة الأكاديميّة الفرنسيّة، والأكاديميّة القوميّة الفرنسيّة للطب.

ملخّص النتائج كالتالي:

ـ أصيبت هذه المومياء بكسور بعد الموت إثر تمزّق أنسجتها.

ـ فُقدت كلّ الأعضاء الداخليّة للمومياء، وبالسؤال عن الرئتين (لاحتمال وجود آثار الغرق) عُلِمَ أنّهما قد اختفتا، وأنّ العادة أن ينزعهما المحنّط.

ـ بتحليل مجهري لقطعة صغيرة من عضل المومياء؛ أمكن اكتشاف تفاصيل تشريحيّة حفظت بصورة جيّدة أثناء عمليّة التحنيط، أكّدت أنّه من المحال أن تكون هذه الجثّة قد بقيت في الماء لفترة طويلة.

---

(١) (فرعون الخروج)؛ أي: الفرعون الذي لاحق (موسى) ﷺ ومن معه أثناء خروجهم من مصر، و(فرعون التسخير) هو الفرعون الذي قام بتسخير بني إسرائيل قبل ذلك. وقد ذهب عدد من علماء المصريات إلى أنّ (فرعون الخروج) هو نفسه (فرعون التسخير)، في حين ذهب آخرون إلى أنّهما اثنين، فبعد وفاة (فرعون التسخير) استلم حكم مصر (فرعون الخروج)، وهو الذي مال إليه (بوكاي)، وانتصر له بأدلّة قويّة، وهو مذهب عدد كبير من أعلام المصريات.

(٢) أشهر فرعون آخر اقترح النقّاد أنه فرعون الخروج، هو (رمسيس الثاني)، وقد رفض (موريس بوكاي) هذا القول لأسباب، من أهمها أنّ «الدراسة الطبيّة لهذه المومياء لا تقدّم لنا أدنى أرضيّة للتفكير في ذلك. في الحقيقة، إنّه من الجلي الواضح أنّ رمسيس الثاني كان عاجزًا تمامًا عن أن يتولّى تلك المهمّة الحربيّة قبل موته».

Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations*, New York: St. Martin's Press, 1990, p.107.

ـ فقدان بعض الأعضاء في البدن أثناء حياة المومياء بما يرجّح أنّ ذلك ناتج عن ضربات (blows) خارجيّة، وهو أمر أكدته صور الأشعة السينيّة (X-rays):

• فقدان أجزاء من القفص الصدري والبطن (abdomen) والجمجمة بسبب ضربات تلقاها الفرعون أثناء حياته.

• فجوة في الصدر من الراجح أنّها ناتجة عن إصابة أثناء حياة هذا الفرعون، ومن المستبعد تشريحيًّا أن تكون ناتجة عن كسر اللصوص لصدر المومياء[١].

• فجوة في أسفل الظهر (١٠ على ١٥ سنتمتر)، سبُبها ضربة من الخارج.

• فجوة في الرأس (٣٧ على ٢٣ مليمتر)، وبصورة دقيقة عند العظم الجداري الأيمن، وكانت بسبب ضربة/ هبّة شديدة جدًّا[٢].

فقدان هذه الأعضاء قاد علماء التشريح إلى القول: إنّ سببها هو صدمة أصابت الفرعون، وأنّه من الراجح أنّ دخول عظام الرأس إلى منطقة المخ، ودفعها للمخ بصورة عنيفة قد أدّيا إلى وفاة الفرعون بصورة سريعة أو ربّما آنيّة مباشرة.

ـ كشفت الأشعّة السينيّة أنّه لا أثر لانفجار العظام حول الفجوات، وهذا دليل على أنّ فقدان هذه الأعضاء كان بسبب ضربّة/ هبّة أثناء حياة الفرعون[٣].

---

(١) أشار (بوكاي) إلى أنّ العظم المفقود هنا كان موجودًا عندما صوّرت المومياء في أوائل القرن العشرين (يبدو أنّه كان موضوعًا فوق الفجوة بعد أن انفصل عن الجثّة.)

(٢) أبطل (بوكاي) من خلال صور الأشعة ودراسة جمجمة الفرعون ما رآه (إليوت سميث) في بداية القرن العشرين من أنّ هذه الفجوة ناتجة عن فعل اللصوص الذين أصابوا المومياءات بأضرار عند سرقة ما كان معها من جواهر. انظر:

Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations*, p.123.

(٣) Maurice Bucaille, *Moses and Pharaoh, The Hebrews in Egypt* (Tokyo: NTT Mediascope, 1994), pp. 127-128; Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations*, pp. 156-160.

ويضيف (بوكاي) قائلًا: «قدّمتُ هذه الاستنتاجات مع الوثائق في أبريل ١٩٧٦م، أمام المؤسسة الفرنسيّة للطب الشرعي، **ولم تقدّم أيّة اعتراضات على استنباطاتنا**[١]»[٢].

وختم حديثه بالتأكيد على أنّ موت هذا الفرعون كان بفعل انطباق البحر عليه، وهو ما ذكره الكتاب المقدّس[٣].. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة وأضاف إليها أخرى؛ وهي نجاة جثّة هذا الفرعون؛ لتكتمل عناصر الإعجاز والسبق.

وأشار (بوكاي) إلى أنّه لو بقيت الجثّة فترة طويلة في الماء؛ لصار تحنيطها غير مجدٍ. وأشار هنا إلى لفتة جميلة، وهي أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى نجاة جثّة هذا الفرعون من الهلاك في الماء، في نفس اليوم الذي هلك صاحبها فيه[٤]، وهو ما يزيد الإعجاز القرآني هنا عمقًا!

وكان (بوكاي) قد قال في كتابه (الكتاب المقدّس والقرآن والعلم) حول اكتشاف جثة الفراعنة حديثًا: «في العصر الذي كان فيه الرسول يضع القرآن في متناول الناس، كانت أبدان كل الفراعنة الذين شكّ الناس في هذا العصر الحديث خطأ أو صوابًا بأنهم اهتموا بالخروج، موجودة في قبور وادي الملوك في (طيبا) في الضفة المقابلة للأُقصر من النيل. وقد كان الناس في هذا الزمان

---

(١) Maurice Bucaille, *Moses and Pharaoh*, p. 128.

(٢) ذهب البعض إلى تسفيه أن يكون (مرنبتاح) هو فرعون الخروج بدعوى أنّه ليس للقائلين بذلك إلّا حجّة واحدة وهي آثار الملح على المومياء كدليل على الغرق، وهو ما ليس بحجّة لأنّ عملية التحنيط تستدعي استعمال الملح (انظر: لؤي فتوحي وشذى الدركزلي، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكّر، ص١٢٤)! وأنت ترى هنا أنّ كلّ الأدلّة المعروضة في هذا الملخّص لا تعلّق لها بالملح وبقائه في جثّة المومياء!
انظر: في تفصيل الأدلّة على أنّ مرنبتاح هو فرعون الخروج، والردّ على المخالفين، محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم ٢/٣٠٨ ـ ٣٢٩.

(٣) Maurice Bucaille, *Moses and Pharaoh*, pp. 128- 129.

(٤) Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations*, pp.158, 160.

يجهلون كل هذا الواقع. ولم يكتشفوه إلا في أواخر القرن التاسع عشر[1]. وقد ثبت كما يقول القرآن، أنّ بدن فرعون الخروج قد نجا. أيًّا كان هذا الفرعون؛ فإنه اليوم في صالة المومياَت الملكية في المتحف المصري في القاهرة، ميسرة رؤيته للزائرين»[2].

وممّا استُدلّ به لصالح إثبات أنّ (مرنبتاح) هو فرعون الخروح، ما جاء في مسلّة مرنبتاح الشهيرة التي تضمّ الإشارة الوحيدة لإسرائيل في النصوص المصريّة؛ فقد تعامل نصّ المسلّة مع كلمة (إسرائيل) ـ لغويًّا ـ باعتبارها دالة على شعب لا دولةَ له ـ على خلاف بقيّة المذكورين في النص ـ. وقد أورد هذا النص انتصارات الفرعون:

«الأمراء منبطحون يصرخون طالبين الرحمة، وليس من بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، الخراب للتحنو، بلاد خاتي هادئة، وكنعان قد استلبت في قسوة، وأخذت عقلان، وقبض على جازر، وصارت ينوعام كأن لم يكن لها وجود، **وإسرائيل قد خربت وأزيلت بذرتها**، أصبحت خارو أرملة لمصر»[3].

(خربت/ ضاعت إسرائيل، وأزيلت بذرتها). على غير العادة في نصوص هذه المسلّة؛ فإنّ العلامة المرتبطة بكلمة (إسرائيل) ليست علامة دولة، أو مدينة، وإنّما علامة تدلّ على طائفة من الناس.

---

(١) «في عصر الأسرة الحادية والعشرين حينما توفي كبير كهنة آمون (بينودجيم الثاني) قرر زملاؤه الكهنة إنهاء العبث بجثث الفراعنة فجمعوا جثثهم واتخذوا من دفن كبير الكهنة ستارًا ودفنوا الجميع في قبر الملكة (إنحابي) بالدير البحري والذي تم توسعته ليتسع لجميع جثث الفراعنة منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة. وأغلقوا القبر ـ وسجلوا أن ذلك قد تم في السنة العاشرة من حكم الملك (سيامون) في عام ٩٦٩ ق.م.
وردموا المدخل تمامًا وضيعوا المعالم حوله حتى لا يستدل عليه اللصوص فبقي القبر الجديد سالمًا من عبث اللصوص لأكثر من ٢٨٠٠ سنة ونسي تمامًا وسمي (خبيئة الدير البحري) ويحتوي على جميع المومياوات ومن بينها مومياء رمسيس الثاني». (رشدي البدراوي، موسى وهارون عليهما السلام من هو فرعون موسى؟ نسخة إلكترونيّة).

(٢) موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم (بيروت: دار الكندي، ١٩٧٨م)، ص٢٠٤.

(٣) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم ٢/ ٣١١ ـ ٣١٢.

ysrỉr	fk.t	bn	pr.t	=f
إسرائيل/إسرائير	فقد / ضاع	(نفي)	زرع/بذر	هو



من الممكن الربط بين هذا النصّ وبين ما جاء في القرآن الكريم من قتل الفرعون لذريّة بني إسرائيل[1]:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقد جاء أمر قتل ذريّة اليهود أيضًا في التوراة[2].

وسائل التعذيب في زمن فرعون:

قال تعالى مصوّرًا ما حدث من تحدّ بين سحرة فرعون و(موسى) عليه السلام، وكيف آمن السحرة بالله وحده وكفروا بفرعون لما انبهروا بمعجزة العصا التي تحوّلت إلى حيّة حقيقيّة؛ فقرّر فرعون الانتقام منهم:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ

(١) Maurice Bucaille, *Moses and Pharaoh*, p.194.

(٢) انظر: الخروج ١/ ١٥ ـ ٢٢.

سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٦٥ ـ ٧١].

ذكر القرآن الكريم هاهنا وسائل التعذيب في زمن فرعون، وقد نشر الدكتور (أحمد عبد الحميد يوسف) نصًّا ورد في معبد عمدا من بلاد النوبة المصرية يصوّر وسائل التعذيب في زمان فرعون، وهو يرجع إلى السنة الرابعة من عهد (مرنبتاح)(١) (حوالي سنة ١٢٢٠ ق.م)، وهو يؤكّد أنّ (مرنبتاح) قد عذّب الناس بقطع من خلاف وصلب(٢)..

ولا بدّ من الملاحظة في هذا المقام، أنّ القرآن قد انفرد بذكر إيمان السحرة، بالله سبحانه، وهو ردّ فعل منطقي من قوم امتهنوا السحر؛ فلما جاءهم من بزّهم في ما برعوا فيه، وعلموا أنّ ما قام به هو أعظم ممّا صنعوا، وأنه حقّ لا مجرّد خيال، أسلموا لله ربّ العالمين..

والسؤال الذي نواجه به المنصّرين هو: لِمَ يورد القرآن هذه الواقعة ويعقبها بذكر حقيقة تاريخية ما كان يعلمها الناس في القرن السابع الميلادي ولم ترد في التوراة، إلا أن تكون وحيًا من الحقّ سبحانه؟!

صعود فرعون إلى السماء

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

يتحدّث اليوم علماء (المصريات) عن اعتقاد كان راسخًا عند الفراعنة أنّه

---

(١) رجّح العديد من النقاد ـ كما سبق ـ أن (مرنبتاح) هو فرعون الخروج.

(٢) انظر: أحمد عبد الحميد يوسف، مصر في القرآن والسُّنَّة، ص١١٠؛

A. A. Joussef, *Merenptah's Fourth year at Amada*, ASAE,I. VIII, 1964, P. 237.

نقله محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم ٢/ ٢٠٠.

بإمكان الفرعون أن يصعد إلى السماء على سلّم أو برج ليرى الآلهة هناك؛ ويؤكد (ألن ف. سجال)[1] هذه الحقيقة بقوله: «تظهر العديد من الكتابات في نصوص الأهرامات أنّ الفرعون يصعد إلى السماء باستعمال سلّم.

ن. يصعد على سلّم أعدّه له أبوه (رع).

أو: صنعت (الآلهة) سلّمًا لـ(ن) ليصعد به إلى السماء»[2].

وقد أشار الباحث (بيتري) إلى تفشّي «الفكرة الدينية في الرغبة في الصعود إلى الآلهة في السماء» في مصر الفراعنة[3].

ويذهب الكثير من علماء (المصريات) إلى أنّ الاعتقاد عند قدماء المصريين كان على أنّ الأهرامات ذاتها وسيلة الفرعون لبلوغ السماء[4].

وفي آيتي سورة غافر كشف لعقيدة الصعود إلى السماء عند الفراعنة للإطّلاع إلى الآلهة.

استعمال الطين المطبوخ في البناء

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

كشفت الآثار المصرية الهائلة، والمتمثلة في البنايات الراسخة إلى اليوم أنّ (رمسيس الثاني) الذي تجمّعت فيه كلّ صفات القرآن باعتباره فرعون

---

(١) ألن ف. سجال Alan F. Segal (١٩٤٥ ـ ٢٠١١م): أستاذ الدراسات اليهودية في (Barnard College)، كما درّس في جامعة برنستون وتورنتو. ناقد متخصص في دراسة اليهودية المسيحيّة في المرحلة التأسيسيّة.

(٢) Alan F. Segal, *Life After Death: A history of the afterlife in the religions of the West*, (New York: Doubleday, 2004), p.38.

(٣) لؤي فتوحي وشذى الدركزلي، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكّر (لندن: دار الحكمة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م)، ص١٣٣.

(٤) Jon Manchip White, *Everyday Life in Ancient Egypt* (Courier Dover Publications, 2003), p.47; Brian M. Fagan, *From Stonehenge to Samarkand: an anthology of archaeological travel writing*,·New York: Oxford University Press, 2006), p.10, Emmet John Sweeney, *The Genesis of Israel and Egypt* (Algora Publishing, 2008), 1/32.

التسخير، قد استعمل الطين المطبوخ في بناء بعض بناياته[١].

ويبدو أنّ طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحًا يبلغ السماوات هو من باب الاستعلاء وإظهار العظمة أمام (موسى) عليه السلام، المستضعف وقومه؛ فإنّ الطين المحروق مكلّف، غالي الثمن، للحاجة إلى وقود كثير لطبخه، ويزداد الأمر فخامة إذا كانت البناية الفرعونية ضخمة، كما أنّ ذلك يتطلب عددًا من السنين أطول مما يُحتاج إليه عند استعمال الطين المجفف، وهذا ما يؤكده الواقع إذ إنّ البنايات التي استعمل فيها رمسيس الثاني الطين المحروق قليلة، ولا سبب لذلك غير أنّها مرهقة ماليًّا في عصر لا تنتهي أشغال العمارة فيه.

وقد استغرب المستشرق (آدم ج. سلفرشتاين)[٢] حرص المسلمين على إثبات أنّ المصريين زمن (رمسيس الثاني) كانوا يستعملون الطين المطبوخ للبناء؛ إذ إنّ هذا الأمر بزعمه مذكور في التوراة، في تكوين ٦/٥، ٧، ٨، ١٤، ١٦، ١٨[٣]. وهذا عجيب منه؛ لأنّ النص التوراتي واضح في وصف هذه اللبنات؛ فهي لبنات مصنوعة من تبن (مخلوط بطين): «لا تَعُودُوا تُعْطُونَ الشَّعْبَ تِبْنًا [תֶּבֶן تِبن] لِصُنْعِ اللِّبْنِ» (٥/٧)، وخلط التبن باللبن للحصول على طين مجفف هو بيقين غير الطين المطبوخ بالنار، ولذلك كان هذا الخلط من شذوذات هذا المستشرق!

وبإمكاننا أن نتعامل مع الدقة القرآنية هنا بالتساؤل: يُخبر القرآن عن استعمال الطين المطبوخ للبناء، وهو مادة باهظة الثمن لأنها تحتاج إلى ما تُؤجّج به النار لفترة طويلة حتى تطبخ، على خلاف الطين المجفف الذي تجففه الشمس. ونحن نعلم اليوم أنّ الحضارة المصرية قد تركت لنا بنايات كثيرة محفوظة؛ فماذا لو لم نجد في أي منها طينًا مطبوخًا؟ أو بصورة أدق،

(١) W. M. F. Petrie and F. Ll. Griffith, *Tanis* (Trübner & Co: London, 1888), 2:18-19.

(٢) آدم ج. سلفرشتاين Adam J. Silverstein: أستاذ العلاقة اليهودية ـ الإسلامية في (Queen's College).

(٣) Adam Silverstein, "The Qur'anic Pharaoh" In *New Perspectives on the Qur'an: The Qur'an in Its Historical Context 2*, Gabriel Said Reynolds, ed., (New York: Routledge, 2011), pp.471-472.

ماذا لو لم نجد من بنايات رمسيس الثاني الذي اجتمعت فيه كل علامات فرعون التسخير بنايات من طين مطبوخ؟ سيكون ذلك حجّة على القرآن! فماذا وقد علمنا أنّ من بنايات (رمسيس الثاني) ما كان من الطين المطبوخ؟!

حفظ القمح في سنبله:

قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٦ ـ ٤٩].

تفرّد القرآن الكريم بذكر خبرٍ في قصة (يوسف) عليه السلام لم يرد في التوراة، وهو طلب (يوسف) عليه السلام أن يُحفظ القمح في سُنبله. والناظر في هذه الزيادة قد لا يرى لها ـ من وجهة نظره ـ أهميّة خاصة.. ولكنّ الله سبحانه وتعالى العليم الحكيم، يأبى إلا أن يجعل نور الإعجاز يسري في آي القرآن مدى الزمان.. ونحن اليوم قادرون على أن نفهم إحدى حِكم إيراد هذه الزيادة التي تمثل مقطعًا من قصة (يوسف) عليه السلام غفلت عنه التوراة.

نصح (يوسف) عليه السلام لملك مصر أن يحفظ الحبّ في سنبله، رغم أنّ أهل مصر ما كان من عادتهم أن يفعلوا ذلك عند التخزين. وجليّ أنّ الغاية من هذه الوسيلة التخزينية الإبقاء على القيمة الغذائية والصحيّة للحبّ أيام التخزين للاستفادة منه عند المجاعة التي ستجتاح البلاد..

وقد قدّم أحد الباحثين(١) في مؤتمر الإعجاز العلمي في الكويت(٢) بحثًا عن جانب الإعجاز في ما ورد على لسان (يوسف) عليه السلام؛ فقال:

---

(١) د. (عبد المجيد بلعابد). وقد كشف هذا السبق العلمي أيضًا د. (محمد جمال الدين الفندي) منذ بضعة عقود في كتابه: الإسلام وقوانين الوجود (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢)، ص١٢٧.

(٢) انعقد في تاريخ ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٦م.

«إن الذي يوقفنا في الآية الكريمة **ملحوظتان علميتان**:

١ ـ تحديد مدة صلاحية حبة الزرع في خمس عشرة سنة هي حصيلة سبع سنوات يزرع الناس ويحصدون خلالها دأبًا وتتابعًا وهي سنوات الخصب والعطاء، يليها سبع سنوات شداد عجاف هي سنوات الجفاف، يليها سنة واحدة هي السنة الخامسة عشرة وفيها يغاث الناس وفيها يعصرون من الفواكه، وقد أفاد البحث العلمي أن مدة ١٥ سنة هي المدة القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو والتطور فيها.

٢ ـ طريقة التخزين وهو قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، وهي الطريقة العلمية الأهم في بحثنا:

وفي إطار ترك البذور أو الحبوب في السنابل ـ قمنا ببحث تجريبي مدقق حول بذور قمح تركناها في سنبله لمدة تصل إلى سنتين مقارنة مع بذور مجردة من سنابلها، وأظهرت النتائج الأولية أن السنابل لم يطرأ عليها أي تغيير صحي وبقيت حالتها ١٠٠٪.

مع العلم أن مكان التخزين كان عاديًّا ولم تراع فيه شروط الحرارة أو الرطوبة أو ما إلى ذلك. وفي هذا الإطار تبين أنّ البذور التي تركناها في سنابلها فقدت كمية مهمة من الماء وأصبحت جافة مع مرور الوقت بالمقارنة مع البذور المعزولة من سنابلها، وهذا يعني: أن نسبة ٢٠,٣٪ من وزن القمح المجرد من سنبله مكون من الماء مما يؤثر سلبًا على مقدرة هذه البذور من ناحية زرعها ونموها ومن ناحية قدرتها الغذائية لأن وجود الماء يسهّل من تعفنه وترديه صحي.

ثم قمنا بمقارنة مميزات النمو (طول الجذور، وطول الجذوع) بين بذور بقيت في سنبلها وأخرى مجردة منها لمدة تصل إلى سنتين؛ فتبين أن البذور في السنابل هي أحسن نموًّا بنسبة ٢٠٪ بالنسبة لطول الجذور و٣٢٪ بالنسبة لطول الجذوع. وموازاة مع هذه النتائج قمنا بتقدير البروتينات والسكريات العامة التي تبقى بدون تغيير أو نقصان؛ أما البذور التي تعزل من السنابل فتنخفض كميتها بنسبة ٣٢٪ من البروتينات مع مرور الوقت بعد سنتين وبنسبة ٢٠٪ بعد سنة واحدة.

وبهذا يتبين في هذا البحث أن أحسن وأفضل تخزين للبذور هي الطريقة التي أشار بها (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي من وحي الله.

ومن المعلوم أن هذه الطريقة لم تكن متّبعة في القدم وخاصة عند المصريين القدامى الذين كانوا يختزنون الحبوب على شكل بذور معزولة عن سنابلها؛ وهذا يعتبر وجهًا من وجوه الإعجاز العلمي في تخزين البذور والحبوب في السنابل حتى لا يطرأ عليها أي تغير أو فساد مما يؤكد عظمة الوحي ودقة ما فيه من علم»[1].

الأصول الوثنية للعقيدة النصرانية:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣].

يقول الشيخ (أحمد عبد الغفور عطّار) في موسوعته: «الديانات والعقائد في مختلف العصور»: «إن هذه الآية الشريفة إنباء عن الماضي المجهول، وما كان محمد ﷺ ولا عرب الحجاز يعلمون أن أممًا سبقت أمة المسيح، قالوا ما قالوه فيه، وهذا يجعلنا مطمئنين إلى أن القرآن كلام الله علّام الغيوب، لا كلام عبد الله ورسوله محمد ﷺ؛ لأن الكشوف الأثرية والبحوث لم تكتشف مضاهاة النصرانية للذين كفروا إلا حديثًا، وبعد موت محمد ﷺ بمئات السنين؛ فعرف ثالوث الهند وغيرها كالصين والمكسيك ومصر ودياناتهم الوثنية التي تشرّبتها النصرانية، وهذا سر من أسرار القرآن يظهر مع الزمن»[2].

وقد صنّف النقّاد الغربيون كتبًا عديدة في موضوع تأثّر النصرانية بالعقائد الشرقية والوثنية، ومنها:

---

(١) عبد المجيد بلعايد، فذروه في سنبله، مجلة الإعجاز العلمي، العدد العاشر.
رابط إلكتروني:
<https://www/eajaz.org/index.php/component/content/article/69-Tenth-Issue/576-Vdhurh-spike>

(٢) أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور (مكة المكرمة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، ٢/ ٥٦١.

• John Hick, ed. *The Myth of God Incarnate* (Oxford: New Blackfriars, 1977).

• Frank Viola and George Barna, *Pagan Christianity* (Ill.: BarnaBooks, 2008, 2002).

• Jonathan Z. Smith, *Drudgery Divine: On the Comparison of Early Christianities and the Religions of Late Aniquity* (Chicago: University of Chicago Press, 1990).

• Robert J. Miller, *Born Divine: the birth of Jesus and other sons of God* (CA: Polebridge Press, 2003).

• Tom Harpur, *Pagn Christ* (Toronto: Thomas Allen Publishers, 2004).

• Timothy Freke and Peter Gandy, *The Jesus Mysteries: was the 'original jesus' a pagan god?* (New York: Harmony Books, 2000).

وغيرها كثير جدًّا. . .

ابتداع الرهبانيّة:

قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

كانت الرهبنة مَعلمًا أساسيًّا من معالم النصرانيّة في القرن السابع ميلاديًّا، وقد وجدت لها حضورًا بارزًا في تجمّعات النصارى الأقرب إلى مكّة، وذُكر أمرها في الشعر الجاهلي؛ بما يدلّ على أنّها قد أضحت متصلة اتصالًا وثيقًا بالإيمان النصراني والهيكل الكنسي في الثقافة الشعبيّة العربيّة.. لكنّ القرآن الكريم يصرّح بما لا يتوقعه العربي في ذلك الإطار الزماني والمكاني؛ إذ يقرّر أنّ الرهبنة مسلك دخيل على النصرانيّة ابتدعه قوم ظنوا فيه الصلاح والتهذيب للنفس، وقد آل أمر هذه الرهبنة إلى الفساد![١].

إنّ الحقيقة التاريخيّة التي نعرفها اليوم معرفة هي أنّ الرهبنة لم تعرف في القرنين الأوّل والثاني ميلاديًّا، وإنّما ظهرت بداية في نهاية القرن الثالث

---

(١) قال الإمام (ابن كثير): «وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين: **(أحدهما)**: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. و**(الثاني)**: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ﷻ». (تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٢٩٠).

ميلاديًّا في مصر على يد قديس الكنيسة (أنطونيوس الكبير) (٢٥١ ـ ٣٥٦م) الذي يسمّى (بأبي الرهبنة) (Father of Monasticism)[١].

٢ ـ تصحيح الأخطاء التاريخية:

لم يَعرف العالَم الغربي البحث التاريخي النقدي للتوراة والإنجيل إلّا حديثًا، منذ (باروخ سبينوزا) في القرن السابع عشر. وقد كان مسّ الأسفار المقدّسة بلسان النظر الواعي جريمة يَصلى صاحبها مرّ العذاب، وتزهق روحه بسلطان محاربة الهرطقة والهراطقة. كما كانت المعارف التاريخيّة لخبر الأمم الداثرة في حال جمود لعجز مناهج البحث والتأريخ عن تجاوز حاجز الزمن بفكّ شفرة اللغات القديمة (كاللغة الهيروغليفيّة) وغياب التأصيل العلمي للنفاذ إلى التاريخ القديم من خلال الآثار المحفوظة.. وكان العالم الإسلامي ـ رغم ذلك ـ قد قطع شوطًا كبيرًا في باب نقد التوراة والإنجيل بوحي من القرآن وتقريراته وتضميناته. وتوصّل في بعض نقده إلى حقائق لم يسندها الكشف العلميّ إلا في القرون الأخيرة، أو كشف البحث النقدي في زمان التأليف الإسلامي عن صوابها، بعدما استهدى النقّاد المسلمون بالتقرير القرآني لتلك المسائل. وهنا أمثلة:

عدد بني إسرائيل في مصر:

من أكثر المواضيع التي شغلت النقاد المعاصرين في الخبر التاريخي التوراتي، العدد الضخم للإسرائيليين الذين عاشوا في مصر وخرجوا منها مع (موسى) عليه السلام بعد أن طاردهم فرعون وجنوده..

تذكر التوراة أنّ «عدد نفوس بيت يعقوب التي قدمت إلى مصر (كانت) سبعين نفسًا»[٢]، ثم أصبح العدد ـ بعد ٢١٥ سنة على رأي التوراة السبعينية [اليونانية]، أو ٤٣٠ سنة على رأي التوراة العبرانيّة (خروج ١٢/ ٤٠ ـ ٤١) ـ

---

(١) The Catholic Encyclopedia. ١/ ٥٥٥

(٢) تكوين ٤٦/ ٢٧.

«شعبًا أعظم وأكثر» من المصريين ـ أصحاب أقوى وأعظم دولة في العالم في ذاك الوقت ـ. ولما طُردوا من مصر كان من بينهم «نحو ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد؛ فكان جميع الأبكار الذكور، من ابن شهر فصاعدًا، اثنين وعشرين ألفا ومئتين وثلاثة وسبعين»![1]

يعلق بعض الباحثين على ذلك بقوله: إننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبكار، لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية من اليهود الآبقين، كانت تلد زهاء ٦٥ وليدًا، وهو أمر لا يستقيم علميًّا؛ فضلًا عن أنّ بني إسرائيل قد تعرضوا للذلة والقتل في مصر، مع ما روي من عبورهم البحر في سويعات قصار ما يلزم منه أنّ عددهم قليل، ومن ثمّ فإن دارسي التوراة والمؤرخين، سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلّقون أيّ أهمية على هذه الأرقام التي ذكرتها التوراة، ويعتبرونها محض مبالغات إسرائيلية[2].

وقد ردّ الإمام (ابن حزم) منذ قرابة ألف سنة على هذا الخطأ، وبيّن الإعجاز القرآني في هذا الباب، بعد أن كشف بمنهجيته النقدية الصارمة خبط التوراة ومبالغاتها الباطلة، وأضاف: «أين هذا الكذب البارد من الحق الواضح في قول الله تعالى حاكيًا عن فرعون إنه قال إذ تبع بني إسرائيل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ [الشعراء: ٥٤]. هذا الذي لا **يجوز غيره ولا يمكن سواه** أصلًا»[3]..

اعتراض: إنّ ما قاله فرعون ـ في القرآن الكريم ـ لا يعدو أن يكون محاولة منه للتهوين من أمر الإسرائيليين!

الجواب من وجهين:

أولًا: النصّ القرآني في سرده لقصة (موسى) عليه السلام لا يوحي أصلًا أنّ بني إسرائيل قد بلغوا الكثرة المزعومة في التوراة.

---

(١) خروج ١٢/٣٧، عدد ٤٣/٤٣.

(٢) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن، ٢/١٤٢.

(٣) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/١٩٤.

ثانيًا: العدد المذكور في التوراة ـ كما يقول (بوكاي) يفوق عدد شعب دولة بأكملها في ذاك الوقت[1]، وليس من المعقول أن يوصف شعب كامل تبصرهم عيون الناس بأنهم «شرذمة قليلون»!

اعتراض: القرآن لم يقدّم سبقًا علميًّا وإنما صوّب خطأ ظاهرًا..!

الجواب: هذه الحقيقة التصويبية التي وردت على لسان الإمام (ابن حزم) رَحِمَهُ اللهُ، لم تُذكر في نقد الرواية التوراتية في الغرب إلا سنة ١٨٦٢م على يد (ج. و. كولينسو)[2] ـ أحد مؤسسي نقد العهد القديم المعاصر ـ وإن كان الألماني (هـ. ص. رايماروس)[3] قد سخِر من الرقم التوراتي قبل ذلك بقرن واحد![4].. وقد سبقهما علماء الإسلام لأنهم كانوا يسترشدون بنور القرآن الكريم.

ألوهية المسيح:

تكرّر في القرآن الكريم نفي ألوهيّة المسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥].

وتكرّر مع ذلك تمجيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونسبته إلى البشريّة والنبوّة:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

---

(١) Maurice Bucaille, *Moses and Pharaoh, The Hebrews in Egypt*, pp.7, 111-112.

(٢) ج. و. كولينسو J. W. Colenso (١٨١٤ ـ ١٨٨٣م): منصّر ولاهوتي وناقد كتابيّ بريطاني. من مؤلفاته: "Remarks on the Proper Treatment of Polygamy".

(٣) هرمان صاموئيل رايماروس Hermann Samuel Reimarus (١٦٩٤ ـ ١٧٦٨م): فيلسوف ألماني، ربوبي، من أعلام عصر الأنوار الأوروبي، ومن رواد الدراسات النقديّة الحديثة لشخصية يسوع التاريخي.

(٤) لؤي فتوحي وشذى الدركزلي، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكّر، ص١٣٣.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠].

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وهنا يسأل العاقل نفسه سؤالًا: لقد ذهب النصارى إلى أنّ المسيح قد أعلن أنه إلٰه، وأنه صادق في دعواه، وذهب اليهود إلى اتّهام المسيح أنّه قد ادّعى الألوهيّة زورًا؛ فلِمَ يذكر قرآن محمد ﷺ أنّ المسيح لم يدّع الألوهيّة أصلًا؟! أليس في ذلك إنكار (لحقيقةٍ) تاريخيّة أطبق عليها أهل الكتاب ـ كما يقولون هم بأنفسهم عن (إجماعهم!) ـ؟! أليس ذاك خطأ تاريخي في القرآن الكريم؟! ـ ليس الاعتراض هنا على صحّة ألوهيّة المسيح؛ فهذا أمر يُدرك حكمه بالعقل المجرّد، وإنما هو عن صحة القول: إنّ المسيح قد ادّعى بلسانه أنّه إلٰه! ـ.

الإجابة يقدّمها لنا لاهوتي، بل أحد أعلام اللاهوتيين في زمانا، وهو (جون هِك)[(١)] بقوله في كتابه (The Metaphor of God Incarnate: Christology in a pluralistic age) الصادر ـ في طبعته الأولى ـ سنة ١٩٩٣م، ناقلًا ما أجمع عليه النقّاد المحقّقون اليوم: «نقطة أخرى عليها اتفاق واسع بين علماء العهد الجديد، وهي أكثر أهميّة لفهم تطوّر علم دراسة طبيعة المسيح (Christology)، وتتمثّل في أنّ يسوع التاريخي لم يدّع الألوهيّة التي ادعاها له متأخّرو المسيحيين: إنه لم يظن في نفسه أنّه تجسُّدُ الإلٰه، أو الإلٰه الابن. . . إنّه من المستبعد جدًّا أن يكون يسوع التاريخي قد ظنّ في نفسه ذلك بأيّة صورة من الصور. في الحقيقة، إنّ المتصوّر أنه سيرفض هذه الفكرة باعتبارها هرطقة، أحد الأقوال المنسوبة إليه، هو: «لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلّا الله وحده». (مرقس ١٠/ ١٨).

بالطبع لا توجد إفادات من الممكن أن تقدّم بيقين ما قاله يسوع أو ما لم يقله أو ما فكّر فيه. لكن الحجّة المتاحة قادت المؤرّخين المتخصصين في

---

(١) جون هك John Hick (١٩٢٢م ـ): لاهوتي. درّس في عدد من الجامعات. رئيس الجمعية البريطانية لفلسفة الدين، ونائب رئيس الكونغرس العالمي للأديان. ذكر (Robert Smid) أنّه كثيرًا ما يشار إلى (هك) أنه «أحد أبرز فلاسفة الدين المهمين في القرن العشرين، إن لم يكن أبرزهم».

الفترة التاريخية (لحياة المسيح) إلى أن يستنتجوا **بإجماع مذهل**[1] أنّ يسوع لم يَدّع أنه الإلٰه المتجسّد.

هذا الأمر محلّ اتفاق عام اليوم حتّى إنّ بضعة اقتباسات ممثّلة (للرأي السائد) مأخوذة من كتّاب مستقيمي العقيدة (أرثودكس)، تكفي لإثبات غرضنا الحالي. رئيس الأساقفة (مايكل رمزي)[2] وهو أيضًا أحد علماء العهد الجديد، كتب أنّ «يسوع لم يدّع لنفسه الألوهيّة» (١٩٨٠م). عالم العهد الجديد المعاصر له (س. ف. د. مول)[3] قال: إنّ «كلّ حالة كرايستولوجيا «عالية» قائمة على أصالة الدعوى المدّعاة ليسوع حول نفسه، خاصة في الإنجيل الرابع، لا بد أن تعتبر غير ثابتة». (١٩٧٧م). استنتج (جيمس دان) في دراسة رائدة حول أصول عقيدة التجسّد أنّه «لا توجد حجّة حقيقيّة في تراث يسوع المبكّر ممّا من الممكن أن تُسمّى بإنصاف، وعيًا بالألوهيّة» (١٩٨٠م)، اعترف أيضًا (براين هِبلثوايت)[4] المناصر بقوّة للتراث النيقوي[5] الخلقيديوني[6] المسيحاني أنّه «لم يعد ممكنًا المدافعة عن ألوهيّة يسوع من خلال الإحالة إلى أقواله» (١٩٨٧م). ويقول متحمس آخر للخلقيديونيّة وهو (دافيد براون)[7]: إنّه «توجد حجج قويّة على أنّ (يسوع) لم ير نفسه البتّة أهلًا

---

(١) لا يُقصد بمصطلح (الإجماع) في المكتبة الغربية اتفاق جميع أفراد النقاد، وإنما هو اتفاق جمهور أعلام المتخصصين، ويُعدّ مخالفهم ـ بذلك ـ قائلًا بقول شاذ.

(٢) مايكل رمزي Michael Ramsey (١٩٠٤ ـ ١٩٨٨م): رئيس أساقفة كانتربيري (١٩٦١ ـ ١٩٧٤م).

(٣) س. ف. د. مول C. F. D. Moule (١٩٠٨ ـ ٢٠٠٧م): قسيس ولاهوتي وأحد أكبر علماء دراسات العهد الجديد. درّس في جامعة كمبردج. ساهم في إصدار ترجمة الكتاب المقدس: "New English Bible". عاش ٩٨ سنة.

(٤) براين هِبلثوايت Brian Hebblethwaite (١٩٣٩م ـ): قسيس ولاهوتي وفيلسوف إنجليزي. درّس في جامعة كمبردج. من مؤلفاته:
"The Essence of Christianity: A Fresh Look at the Nicene Creed".

(٥) أي: العقيدة التي قرّرها النصارى في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م حيث وصف المسيح أنّه «إلٰه من إلٰه» (θεον εκ θεου).

(٦) أي: العقيدة التي صنعها النصارى في مجمع خلقيديونية سنة ٤٥١م الذي قرّر أنّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين، إلهيّة وأخرى بشريّة «إلٰه حق وبشر حق» (θεον αληθως και ανθρωπον αληθς).

(٧) دافيد براون David Brown (١٩٤٨م ـ): قسيس ولاهوتي إنجليكاني. درّس في جامعة كمبردج. من مؤلفاته: "The Divine Trinity".

لأن يعبد» وإنه «من المستحيل تأسيس أيّ دعوى للتأليه بناءً على إدراكه إذا أهملنا الصورة التقليديّة كما يعكسها الفهم الحرفي لإنجيل يوحنا» (١٩٨٥م)(١).

هذا هو الإعجاز حيثُ يخالف القرآن الكريم ما (استقر) عليه اليهود والنصارى زمن البعثة النبويّة رغم أنّ من أعظم سبل التقرّب من اليهود موافقتهم قولهم في المسيح، ومن أعظم سبل مناظرة النصارى ردّ صدق المسيح ببيان مخالفة قوله للعقل والأسفار.. واليوم (يستقر) البحث النقدي الأكاديمي الغربي في شاطئ القرآن الكريم، دون اعتبار لقول أُمَّتين من الناس عاش أجدادهما مع المسيح نفسه!

رسالة المسيح:

رسالة المسيح التي ورثها النصارى زمن البعثة النبويّة هي حزمة من العقائد الكبرى والرؤى اللاهوتية التفصيلية التي تأبى التآلف مع التصوّر العقدي الإسلامي. وقد كان في وسع نبيّ الإسلام ﷺ أن ينسب المسيح عليه السلام إلى ما ينسبه إليه النصارى، وبذلك يقترب من اليهود من جهة؛ فهم يرون المسيح دجالًا محرّفًا لرسالة (موسى) عليه السلام، ومن جهة أخرى يرفع عن نفسه عبء إثبات موافقة تقريرات القرآن الكريم لتقريرات العهد الجديد، ويسقط النصرانية بدل تقديم صورة أولى لها صحيحة بما يُدخله في جدل هو في غنى عنه..

لقد نهج القرآن الطريق الصعب وهو القول: إنّ رسالة المسيح قبل تحريفها كانت توافق عقيدة الإسلام. وهو ما انتهى إليه البحث في أقدم وثيقة «نصرانية» تعود إلى عصر ما قبل الأناجيل الأربعة، أو بعبارة الناقد الكبير (جون س. كلوبنبورغ)(٢): «أبكر إنجيل»(٣)، وبعبارة الناقد المعروف (ماركس

---

(١) John Hick, *The Metaphor of God Incarnate: Christology in a pluralistic age* (London: Westminster John Knox Press, 2006), pp.27-28.

(٢) جون س. كلوبنبورغ John S. Kloppenborg (١٩٥١م ـ): رئيس قسم دراسة الدين في جامعة تورنتو. أصدر مع ناقدَين آخرين سنة ٢٠٠٠ نسخة نقدية للمصدر (Q). من مؤلفاته: "Excavating Q: The History and Setting of the Sayings Gospel".

(٣) John S. Kloppenborg, *Q, the Earliest Gospel: An Introduction to the Original Stories and Sayings of Jesus* (Louisville: Westminster John Knox Press 2009).

بورغ)[1] في مقدمته لكتاب: «الإنجيل الضائع» لـ(مارك باولسن) و(وري ريجرت) ـ: «**طبق رأي جلّ النقاد، هو أول إنجيل مسيحي**»[2]. .

تُعتبر «فرضية المصدرين»[3] أهم التحليلات المعاصرة الساعية إلى الكشف عن أصول الأناجيل، وهي تحظى بدعم جلّ النقّاد الغربيين المعاصرين. ينصُّ أصحاب هذا المذهب على أنّ «متّى» و«لوقا» قد اعتمد كلٌّ منهما في تأليف إنجيله الخاص، على إنجيل مرقس ووثيقة أخرى هي أشبه ما يكون بـ«إنجيل أقوال» (Gospel of Sayings) وتعرف بحرف (**Q**) [كْيوُ] الذي هو اختصار للكلمة الألمانية (Quelle) «كْوال»؛ أي: «مصدر»[4]. وقد ظهرت «فرضية المصدرين» بعد الأبحاث الهامة للناقد المعروف (ج.ج. غريسباخ)[5] صاحب المذهب المسمّى باسمه والمتعلّق بكشف العلاقة بين الأناجيل الثلاثة الأولى (١٧٨٣ و١٧٨٩م)، وأبحاث (غتلوب كرشتين شتور)[6] الذي أثبت أنّ مرقس ـ لا متّى ـ هو أقدم الأناجيل الأربعة (١٧٨٦م). ويعتبر الناقد الشهير (كرشتين هرمن فايس)[7] الأب الأول لـ«نظرية المصدرين»؛ فقد فصّل القول في شأن اعتماد الشخصية المسماة «متّى» والأخرى المسماة «لوقا» على إنجيل مرقس و«الأقوال».

يرى الناقد (ماركس بورغ) أنّ المصدر (**Q**) قد كُتِبَ في النصف الأول

---

(١) ماركس بورغ Marcus Borg (١٩٤٢ ـ ٢٠١٥م): لاهوتي، وأحد أبرز علماء النقد الأعلى للعهد الجديد في القرن العشرين. رأَسَ "Anglican Association of Biblical Scholars". من مؤلفاته: "Reading the Bible Again for the First Time".

(٢) Mark Powelson and Ray Riegert, *The Lost Gospel Q: The Original Sayings of Jesus* (Berkeley: Group West, 1999), p.13.

(٣) The Two Sources Hypothesis

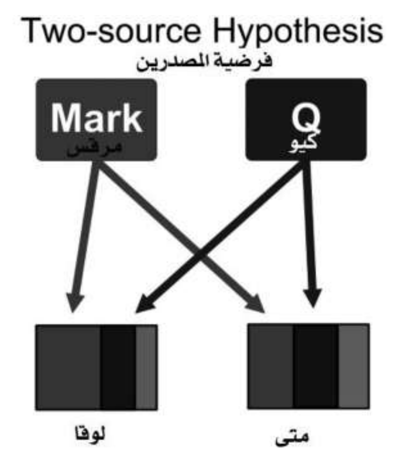
(٤) لا يقتصر القول المثبت للوجود التاريخي لـلمصدر (Q) كأصل من أصول هذه الأناجيل على القائلين بنظرية المصدرين وإنّما اعتُمِد المصدر (Q) في أكثر من نظرية ثلاثية ورباعية... ولكن يبقى المصدر (Q) أكثر ارتباطًا بـ«نظرية المصدرين» لارتباطه بها نشأة، وللقبول العام لهذا المذهب عند النقاد الغربيين.

(٥) ج.ج. غريسباخ J. J. Greisbach (١٧٤٥ ـ ١٨١٢م): عالم ألماني. من أبرز أعلام علم النقد النصّي للعهد الجديد. أصدر نسخته النقدية للعهد الجديد في ثلاثة أجزاء في سنتي ١٧٧٤ ـ ١٧٧٥م.

(٦) غتلوب كرشتين شتور Gottlob Christian Storr (١٧٤٦ ـ ١٨٠٥م): لاهوتي وفيلسوف ألماني محافظ. درّس في جامعة توبنجتن. من مؤلفاته: "Dissertatio de Evangeliis Arabicis".

(٧) كرشتين هرمن فايس Christian Hermann Weisse (١٨٠١ ـ ١٨٦٦م): ناقد كتابي ولاهوتي وفيلسوف بروتستانتي ألماني. من مؤلفاته: "Die Evangelienfrage in ihrem gegenwärtigen Stadium".

من القرن الأول الميلادي، بعد عقدين من القتل (المزعوم) للمسيح، وبالتالي فهو قد وجِد قبل الأناجيل الأربعة للعهد الجديد؛ فقد أَلِّف إنجيل مرقس حوالي سنة ٧٠ (القول لبورغ). أمّا متى ولوقا فقد أُلّفا بعد عقد أو عقدين، في حين ألّف إنجيل يوحنا في العقد الأخير من القرن الأول ميلادي.. ويوافق (أدو شنال)[١] في كتابه «تاريخ كتابات العهد الجديد ولاهوتها» (ماركس بورغ)، بقوله: إنّ مجموعة أقوال المصدر (**Q**) قد شُكِّلت قبل تدمير الهيكل نظرًا لكون ما قيل ضد أورشليم والهيكل في لوقا ١٣: ٣٤ ـ ٣٥ لا يتضمن ذكر أعمال عسكرية، وأضاف أنّه من الممكن تأريخ (**Q**) بين سنة ٤٠م وسنة ٥٠م[٢].



أما فيما يتعلق بتحديد مكان نشأة (**Q**)؛ فقد ذكر الناقد (هلمت كوستر)[٣] في كتابه «أناجيل مسيحية قديمة» أنّ الأماكن المذكورة في (**Q**) تجعلنا نعتقد أنّ هذا المصدر قد أُنشئ في الجليل في فلسطين وهو بالتالي «يعكس تجربة مجموعة من الجليليين من أتباع عيسى»، وإن لم يجزم بذلك[٤].

---

(١) أدو شنال Udo Schnelle (١٩٥٢م ـ): أستاذ دراسات العهد الجديد في جامعة "Halle-Wittenberg". رئيس المؤسسة العلمية "Studiorum Novi Testamenti Societas" (٢٠١٤م).

(٢) Udo Schnelle, *History and Theology of the New Testament Writings* (London: SCM, 1998), p.186.

(٣) هلمت كوستر Helmut Koester (١٩٢٦ ـ ٢٠١٦م): ناقد ألماني. تلميذ (بولتمان). متخصص في دراسات النصرانية الأولى والنص المبكّر للعهد الجديد. رأس مؤسسة "Society of Biblical Literature" (١٩٩١م)، وهو عضو في «الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم».

(٤) Helmut Koester, *Ancient Christian Gospels* (SCM Press, 1990), p.164.

ويقول النقاد: إنّ مضمون المصدر (**Q**)، أكثر من ٢٠٠ عدد مشترك بين إنجيل متى وإنجيل لوقا، لا وجود لها في إنجيل مرقس. يعتقد جلّ الباحثين أنّ مؤلف إنجيل متّى لم يعرف إنجيل لوقا، وأنّ مؤلف إنجيل لوقا لم يعرف إنجيل متّى.. مما يعني أنّ هذه الأعداد ما أُخِذَت من إنجيل متّى لتوضع في إنجيل لوقا، وما أُخِذت من إنجيل لوقا لتوضع في إنجيل متّى، وإنما أصلها في غير هذين الإنجيلين.. أي: في وثيقة خارجية.. يسمِّيها النقاد اليوم (**Q**).

يحتلّ المصدر (**Q**) مقامًا رفيعًا في دراسات الباحثين الغربيين لما يمثله من ثروة تاريخية تسمح بفهم أصول الأناجيل ومراحل تشكلها وتبدّلها، وطبيعة الواقع الفكري والإثني والاجتماعي والسياسي في القرن الأول ميلادي[١].

من أهم مميزات هذا المصدر الذي سمّاه (برتن ل. ماك)[٢] وغيره بـ«الإنجيل الضائع» أنه ليس رواية لحياة المسيح وما هو بتأريخ لأحداث القرن الأول ميلادي في فلسطين كما هو الحال بالنسبة لأناجيل العهد الجديد، وإنّما هو تجميع لأقوال المسيح.

إنّ (**Q**) ليس حديثًا تاريخيًّا عن المسيح الرجل الذي عاش في القرن الأول ميلادي وإنما هو حديث عن دعوته الدينية ورسالته السماوية. وكما قال (مارك باولسن) و(ري ريجرت)؛ فإنّ (**Q**) هو «مدخل لعالم المسيحية القديمة ونافذة على وجدان عيسى وروحه». وهو بدوره يمكّننا أن نشعر أننا «**أقرب ما يمكن أن نكون إلى عيسى التاريخي**»[٣].

وقد تبيّن لعدد من الباحثين بعد الدراسة التفصيلية لمادة (**Q**) أنه يمكن تقسيم هذا المصدر إلى ثلاثة أجزاء، أو قل ثلاث مراحل، وهو ما يؤكّد أنّ التعاليم المنسوبة إلى المسيح عليه السلام قد تعرّضت هي أيضًا للتحريف بزيادة عناصر جديدة إليها كما هو حاصل أيضًا مع الأناجيل الكنسية.

---

(١) أنشأ طائفة من الباحثين هيكلين علميين لدراسة (Q) عمقًا واتساعًا وهما: "International Q Project" و"Q Project of the Society of Biblical Literature ".

(٢) برتن لـ. ماك Burton L. Mack (١٩٣١م ـ): ناقد أمريكي بارز متخصص في دراسات العهد الجديد ويسوع التاريخي. من مؤلفاته: "Who Wrote the New Testament?".

(٣) Burton L. Mack, *The Lost Gospel: the book of Q and christian origins* (San Francisco: HarperSanFrancisco-Collins, 1994), p.47.

يُقَدِّرُ الباحثون القائلون بتطور مادة (**Q**) المدى الزمني لمرحلة «التطور» بما يقارب ٣٥ سنة. سُمِّيت المرحلة الأولى (أو الجزء الأول) بـ: (Q1)، وسُمّيت المرحلة الثانية بـ: (Q2). وسُمّيت المرحلة الثالثة بـ: (Q3).

يقول (برتن ل. ماك): إن رسالة المسيح قد انتقلت بين سكان فلسطين عن طريق التداول الشفوي حتى تم تدوينها في (**Q**) قُرابة سنة ٥٠م، ويبلغ حجم هذه المادة قرابة ٧ صفحات من صفحاتنا المرقونة. وهي تحتوي على أقرب نص إلى الرسالة الأصلية للمسيح. ويبدو أنّ مادة كبيرة من أقوال المسيح قد ضاعت في فترة التداول الشفوي، إما لتحريفها، أو لنسيانها، أو لكونها لم تكن ذات طبيعة بالغة التميّز عمّا هو معلوم ذاك الزمان مما أدى إلى إهمالها.

احتوت وثيقة (**Q1**) على العناصر التالية:

- من سينتمي إلى «ملكوت الله».
- معاملة الآخرين «القاعدة الذهبية».
- لا تدن الآخرين!
- العمل من أجل الملكوت.
- طلب العون من الله.
- لا تخشَ من التحدّث علانية.
- لا تهتم بالأكل، واللباس، والمتاع الزائل.
- ملكوت الله قادم عن قريب.
- ثمن اتِّباع عيسى.
- ثمن رفض الرسالة.

إنّ أهم ما يميز مضمون وثيقة (**Q1**) هو أنها تكشف أنّ محور دعوة المسيح هو كشف علاقة الإنسان بالله وعلاقته بالناس ـ أي: توحيد الله في ربوبيته وألوهيته[1] وأسمائه وصفاته والنهج الخلقي الأصلح للإنسان ـ. إنّها

---

(١) ومنها حاكميته.

العقيدة الصافية والشريعة الصالحة، هذا بالإضافة إلى الاستعداد لملكوت الله الآتي إلى الأرض، وقد وضّح غير واحد من الباحثين المسلمين أنّ «ملكوت الله» هو: دولة الإسلام التي سيقيمها النبي الخاتم ﷺ[١].

وقد استبان لكثير من الباحثين أثناء تحليلهم لمضمون (**Q**) أنّ طبيعة دعوة المسيح في هذا «الإنجيل الضائع» تختلف عمّا هي عليه في أناجيل الكنيسة الحالية؛ فنحن إذن ـ كما يقول (برتن ل.ماك) ـ: إزاء عالم مسيحي جديد بأكمله. ومن معالم هذا العالم أنّ أهله ما كانوا يرون (عيسى) عليه السلام إلٰهًا نازلًا من السماء، كما كانوا يرون المسيح نبيًّا ثائرًا على واقعه، متحمسًا لإصلاحه بوسائل واقعية، لا صاحب دعوة مثالية غافلة عن حقيقة النواميس الكونية والطبائع البشرية. لقد تحدث المسيح في (**Q**) عن القرى، والجيران، والزوج، والولد... مهتمًّا بمعايش الناس.

إنك لا تجد في هذه الوثيقة ألوهية المسيح، أو الثالوث المقدس، أو صلب ابن الله، أو التعميد، أو الكنيسة، أو العشاء المقدس، أو الخطيئة الأصلية، أو الخلاص بالإيمان المجرد... أو أيًّا من الأسس الأخرى لكنيسة هذا الزمان. إنّ مسيح القرن الأول ورسالته في (**Q1**) في وادٍ، ومسيح العهد الجديد ورسالته في وادٍ آخر!

أما (**Q2**) فيتمثّل في إدخال أقوال تنبئية فيما بين سنة ٦٠م وسنة ٧٠م، وقد تمّت هذه الإضافة بعد أن ساد الاضطراب المكان، وبدأت الحرب الرومانية ـ اليهودية، بالإضافة إلى ما لاقته الطائفة التي حاولت الاستمساك بدعوة المسيح من رفض وصدّ وطرد من الأهل والأقربين الإسرائيليين.. ولذلك نجد في (**Q2**) إدانة لمن رفضوا رسالة المسيح، وإنذارًا بعذاب يحلّ بساحهم.

كشفت الدراسات فيما يتعلق بـ (**Q3**) عن إضافات تمّت في منتصف العقد السابع من القرن الأول الميلادي، وهي الفترة التي انتهت فيها الحرب

---

(١) عبد الأحد داود، محمد في الكتاب المقدس (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

بين الرومان واليهود الذين سِيقوا فيما بعد خارج فلسطين. ويصوَّر أتباع المسيح في هذه الفترة في شكل طائفة منعزلة عن المجتمع تنتظر بفارغ الصبر مجدها القادم في آخر الزمان. وقد بدأ ظهور أناجيل العهد الجديد في زمن تأليف (Q3).

رسالة المسيح هي ـ إذن ـ في أبكر صورها وأقربها إلى الحواريين دعوةٌ إلى الإيمان والتوحيد والصلاح، وهي معالم دعوة المسيح في القرآن، وليس في هذه الصورة دعوة إلى التثليث ولا القول بالقيامة من الموت التي تشكّل قلب الإيمان الكنسيّ (خاصة في الغرب).

ونقفل الحديث هنا بقول (برتن ل. ماك): «يتحدّى المصدر (Q) رواية العهد الجديد لأصول المسيحيّة برواية أخرى أكثر معقولية للأربعين سنة الأولى للمسيحية»(١)

اعتراض: . . لكنّ العلماء على خلاف في تاريخية الوثيقة (Q)!

الجواب: نحن لم نزعم الإجماع على وجود الوثيقة (Q)، وإنما نقول: إنّ عددًا كبيرًا من النقاد يرى تاريخيّتها. . ثمّ إنّ الأمر غير متعلّق فقط بوجود وثيقة أولى، وإنما بوجود مصدر ما قديم لإنجيلي متى ولوقا ـ أقدم من الأناجيل الأربعة ـ، سواء كان مشتركًا بينهما أم لا، يقدّم صورة لدعوة المسيح تطابق الصورة القرآنية لها، رغم أنّها صورة كانت منكرة في الحسّ العام في القرن السابع زمن البعثة.

والشواهد على صدق الخبر التاريخي للمسيح في القرآن في تنامٍ؛ ولذلك نشر الناقد الكتابي (روبرت شدنجر)(٢) منذ سنوات قليلة كتابه: «هل كانً يسوع مسلمًا؟»(٣) في بيان أنّ حقيقة المسيح بعيدة عن الصورة التي رسمتها له الكنيسة باعتباره داعية للهروب من الدنيا والخلاص الأخروي، وإنّما المسيح ـ

---

(١) Burton L. Mack, *The Lost Gospel: the book of Q and christian origins*, p.238.

(٢) روبرت شِدنجِر Robert Shedinger: أستاذ الدين في كليّة لوثر في ولاية أيوا الأمريكيّة. حاصل على الدكتوراه في تخصص الدراسات الدينية من جامعة تمبل من ولاية فيلادلفيا.

(٣) Robert Shedinger, *Was Jesus a Muslim?: Questioning Categories in the Study of Religion* (Minneapolis: Fortress Press, 2009).

كما يقول هذا الناقد ـ داعية إصلاح أرضي وعدالة بين الناس، وهو بذلك مسلم في دعوته لأنّ دعوة الإسلام تنشد صلاح الدنيا والآخرة، ولا تدعو إلى الهروب من الدنيا إلى الآخرة.

٣ ـ تفادي الأخطاء التاريخية:

كان الكتاب المقدس (وما دار في فلكه؛ كالتلمود والمدراشات...) المصدر الوحيد لخبر الأنبياء السابقين. والقارئ للقرآن بعين ناقدة فاحصة يلحظ بوضوح تعمّد النصّ القرآني عدم متابعة الدعاوى التاريخيّة للكتاب المقدّس في مقامات يقتضي فيها السرد التاريخي ذكر التفاصيل التوراتيّة أو الإنجيليّة؛ إذ كان «الحذف» القرآني لهذه التفاصيل غير متوقّع ممن يلحظ تطابق القصص القرآني والكتابي قبل «المحذوفات» وبعدها..

وقد أثارت مخالفة القرآن للتوراة والإنجيل في بعض الأحيان حيرة النقّاد والمستشرقين؛ فطفقوا يصنعون لذلك فروضًا ويبنون أوهامًا. ولو نظروا بعين النقد التاريخي الصارم لأدركوا أنّ الخيار القرآني المفاجئ والمدهش في الزمن القديم له تفسير تاريخي اليوم يظهر براعة النص القرآني في تأكيد براءته من التخليط التوراتيّ والإنجيليّ.. وذاك فتح جديد في باب الإعجاز التاريخي القرآني..

وهاك باقة..

الريح الشرقية في مصر:

جاء في وصف التوراة لحلم حاكم مصر: «ثم رأى سبع سنابل عجفاء قد لفحتها **الريح الشرقية** نابتة وراءها»[١]. وقد ذكر النقّاد أنّ الريح التي تهب في مصر فتجفف الثمر، هي رياح صحراوية **جنوبيّة**[٢]، أمّا الرياح الشرقيّة فهي التي في فلسطين. ويكشف هذا الخطأ جهل من أضاف هذا النص بطبيعة

---

(١) تكوين ٤١/٦.

(٢) Gordon Wenham, *Word Biblical Commentary, Volume 2: Genesis 16-50*, (Dallas, Texas: Word Books, 1998), CD edition.

بلاد مصر، وقد قال الناقد (جورج سبورل): إنّ الراوي هنا قد أشار إلى الريح المدمّرة في فلسطين (هوشع ١٣/ ١٥، يونان ٤/ ٨، حزقيال ١٧/ ١٠)[(١)].

ونعرض أمامك نص تكوين ٤١/ ٢ ـ ٧ ونص سورة يوسف، الآية ٤٣:

الرواية التوراتية لحلم فرعون	الرواية القرآنية لحلم فرعون
٢ ـ وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ حَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَسَمِينَةِ اللَّحْمِ؛ فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ.	إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
٣ ـ ٤ ـ ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحْمِ؛ فَوَقَفَتْ بِجَانِبِ الْبَقَرَاتِ الأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ وَالرَّقِيقَةُ اللَّحْمِ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَةَ الْمَنْظَرِ وَالسَّمِينَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ.	يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
٥ ـ ثُمَّ نَامَ فَحَلُمَ ثَانِيَةً: وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٍ فِي سَاق وَاحِدٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ.	وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ
٦ ـ ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا.	وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
٧ ـ فَابْتَلَعَت السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ السَّمِينَةَ الْمُمْتَلِئَةَ.	

الخلاف الحقيقي بين الروايتين، لا يمكن تفسيره بالصدفة وإنما هو من الدقة التاريخية المذهلة؛ فالروايتان تختلفان في مضمون الحلم (أو الحلمين) في أمور، الأولى فرع عن التفصيل المشترك، والأخرى ليست فرعًا عنه، علمًا أنّ زيادة خروج البقر من النهر ليست من أصل ما سيُفسَّر من الحلم.

(١) George Spurrell, *Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis*, p.291.

الاختلاف في ما هو فرع عن المشترك:

• وصف البقر بالقبح والجمال: وهذا فرع عن ضعفها وسمنتها؛ فلا زيادة.

• ابتلاع السنابل الرقيقة للسنابل السمينة، وهذه زيادة للمطابقة بين الحلم الأول والحلم الثاني.

الاختلاف في أصل الحلم:

• السنابل الرقيقة، موصوفة بأنها ملفوحة أيضًا بالريح الشرقية.

لم يتابع القرآن الكريم هنا التوراة في خطئها العلمي رغم أنّه قد نقل نفس الرؤيا التي رآها حاكم مصر؛ فلِمَ استثنى القرآن هذا الخطأ ونقل الباقي؟!

استعمال الجمال في زمن يعقوب عليه السلام:

جاء في العهد القديم ذكر الجِمال كوسيلة تستعمل للتنقل وحمل المتاع، من ذلك: «ثم جلسوا (أي: إخوة يوسف عليه السلام) ليأكلوا طعامًا فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد و**جمالهم** (גמליהם) حاملة كثيراء وبلسانًا ولاذنًا ذاهبين لينزلوا بها الى مصر»[1].

تكرَّر ذكر الجِمال كإحدى وسائل التنقّل؛ مما يعني: أنه قد تمّ تدجينها من طرف البشر في حياة (يعقوب) و(يوسف) و(موسى) عليهم السلام..

يعتبر هذا الادعاء خطأ تاريخيًّا كاشفًا لتأليف التوراة في صورتها الحالية بعد قرون من حصول الوقائع المؤرخة...

وقد جاء في الدراسة الكاثوليكية في هامش ترجمة (The New American Bible) تعليقًا على نصّ تكوين ١٢/١٦ الذي ذكر الجِمال كإحدى وسائل النقل في زمن (إبراهيم) عليه السلام: «الجِمال الأهليّة، ربما لم تعرف في الاستعمال العام في الشرق الأدنى القديم حتى آخر الألفية الأولى قبل الميلاد؛ ولذلك فإنّ

---

(١) تكوين ٣٧/ ٢٥.

الإشارة إلى الجمال في زمن الآباء (تكوين ٢٤/ ١١ ـ ٦٤؛ ٣٠/ ٤٣؛ ٣١/ ١٧، ٣٤؛ ٣٢/ ٨، ١٦؛ ٣٧/ ٢٥) تعتبر خطأ تاريخيًّا». وهو ما اعترف به إمام المحافظين في الدراسات الأركيولوجيّة الكتابيّة المعاصرة (ويليام فوكسول أولبرايت)[1] بقوله: إنّ الجمال لم تستعمل في زمن (يوسف) ولا قبله، منافحًا عن هذا الرأي بشدّة في أكثر من مؤلّف[2]، رغم ما عرف عنه من حماسة لإثبات تاريخيّة الأحداث المذكورة في العهد القديم!

ويحدد بعض الباحثين بداية تدجين الجمال في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، وربما بعد ذلك، وقد ظلّت الجمال على التحقيق غريبة على المصريين، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر من الساميين؛ فقد سافرت قبيلة (أبشاي) في الأسرة الثانية عشرة على الحمير، لا الجمال[3].

لم يذكر القرآن الكريم الجمال كوسيلة نقل في زمن (إبراهيم) و(يوسف) و(موسى) عليهم السلام.. وقد استعمل القرآن عبارة (العير) في حديثه عن رحلة إخوة (يوسف) إلى مصر..

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف: ٧٠].

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢].

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف: ٩٤].

وقد جاء تعريف (العَير) ـ بفتح العين ـ في (لسان العرب): «الحمار أيًّا كان أهليًّا أو وحشيًّا»[4]. وفي تعريف (العِير) ـ بكسر العين ـ: «... قال أَبو

---

(١) ويليام فوكسول أولبرايت William Foxwell Albright (١٨٩١ ـ ١٩٧١م): أركيولوجي ولغوي، ومستشرق. من أهم مؤلفاته: "From the Stone Age to Christianity".

(٢) W.F. Albright, *Archaeology and the Religion of Israel* (Baltimore: Johns Hopkins, 1942, 1953), pp. 96-102, 132, *From the Stone Age to Christianity* (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1940), pp. 120-196.

(٣) انظر: د. محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم ٢/ ٢٠٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب ٤/ ٦٢٠.

الهيثم في قوله: ولما فَصَلَت العِيرُ **كانت حُمُرًا**، قال: وقول من قال العِيرُ الإِبلُ خاصّة باطلٌ. العِيرُ: **كلُّ ما امْتِيرَ عليه من الإبل والحَمِير والبغال؛ فهو عِيرٌ**[1].
وفي معجم (مختار الصحاح) في تعريف «العَير»: «الحمار الوحشي والأهلي أيضًا»[2]. . وقال (الألوسي): «وقيل: العير **قافلة الحمير ثم تُوسِّع فيها حتى قيلت لكل قافلة** كأنها جمع عَيْر بفتح العين وسكون الياء وهو الحمار، وأصلها عير بضم العين والياء استثقلت الضمّة على الياء فحذفت ثم كسرت العين لثقل الياء بعد الضمّة كما فعل في بيض جمع أبيض وغيد جمع أغيد»[3]. . .

وكلمة (עיר) [عَير] باللغة العبرية تعني: «حمار»[4].

עיר (√of foll.; cf. Ar. عَارَ ,عير *go away, go hither and thither, escape through sprightliness,* whence عَيْرٌ *ass,* esp. *wild ass* De Jb (2). 149 Hom NS 121-123).

وقد استخدمت كلمة «عير» (עיר) في سفر إشعياء للدلالة على الحمير التي تحمل المتاع؛ حيث يقول النصّ ٣٠/ ٦: (ישאו על־כתף עירים חילהם) «يحملون على كتف حمير ثروتهم». واستدلّ المعجمي (جزنيوس) بهذا النص لبيان أنّ من معاني كلمة «عير» العبريّة: الحمير التي تستخدم «لحمل المتاع»[5].

استعمل القرآن الكريم في سورة يوسف أيضًا عبارة «بعير» ومن معانيها: «حمار» كما في «لسان العرب»: «قال ابن بري وفي البعير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة ابن حمدان وكان السائل ابن خالويه والمسؤُول المتنبي قال ابن خالويه: والبعير أَيضًا الحمار وهو حرف نادر أَلقيته على المتنبي بين يدي سيف الدولة، وكانت فيه خُنْزُوانَةٌ وعُنْجُهِيَّة؛ فاضطرب فقلت: المراد

(١) المصدر السابق ٤/ ٦٢٤.
(٢) الرازي، مختار الصحاح (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م)، ص١٩٤.
(٣) الألوسي، روح المعاني ١٣/ ٣٣.
(٤) The Brown, Driver, *Briggs Hebrew and English Lexicon* (Boston: Houghton, 1907), p. 746.
(٥) William Gesenius, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testamen* (Boston: Houghton, 1888), p.774.

بالبعير في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: ٧٢] الحمار؛ فكسرت من عزته، وهو أن البعير في القرآن الحمار، وذلك أن يعقوب وإخوة يوسف، عليهم الصلاة والسلام، كانوا بأرض كنعان وليس هناك إبل وإنما كانوا يمتارون على الحمير. قال الله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾؛ أي: حمل حمار»[١].

وقد ذكر (الطبري) في تفسيره عن (مجاهد) تلميذ (ابن عباس) رضي الله عنه وناقل تفسيره للقرآن الكريم أنّ البعير في قصة (يوسف) هي الحمير: «وَقَالَ ابْن جُرَيْج، قَالَ مُجَاهِد، ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾: حِمْل حِمَار. قَالَ: وَهِيَ لُغَة. قَالَ الْقَاسِم: يَعْنِي مُجَاهِد: أَنَّ الْحِمَار يُقَال لَهُ فِي بَعْض اللُّغَات: بَعِير»[٢].

وكذلك ذكره (مقاتل بن سليمان)[٣] في تفسيره[٤].

والبعير العربية، تقابل في اللغة العبريّة كلمة (בעיר) [بعير] التي تعني: الدابة عامة[٥]. وتعني كلمة «بْعِيرا» (ܒܥܝܪܐ) في السريانيّة الدابة إطلاقًا[٦]، والدابة التي يحمل عليها المتاع خاصة[٧]:

בְּעִיר m. *cattle*, *beasts*, so called from feeding, grazing, from r. בָּעַר no. 1. Comp. חַיָּה no. 2. Only in Sing. collect. like Lat. *pecus*, *-oris*, of every species of cattle, large and small, Ex. 22, 4. Num. 20, 4. 8. 11. Ps. 78, 48. Spec. of beasts of burden, Gen. 45, 17.—Syr. ܒܥܝܪܐ c. Ribbui as a mark of the plural, Arab. بَعِيرٌ id.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ٤/٧١.

(٢) الطبري، تفسير الطبري ١٣/١٢.

(٣) مقاتل بن سليمان (توفي سنة ١٥٠هـ): خراساني، نزيل مرو. أخذ الحديث عن (مجاهد بن جبر) و(عطاء بن أبي رباح) وغيرهما.

(٤) ابن منظور، لسان العرب ٤/٧١.

(٥) Gesenius, *Hebrew and English Lexicon of the Old Testament*, p149.

(٦) بنيامين حداد، الميزان، معجم الأصول اللغويّة المقارنة سرياني ـ عربي (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠٢م)، ص٦٤.

(٧) Carolo brockelmann, *Lexicon Syriacum* (Edinburgh: T. & T. Clark, 1895), p.43.

ويبدو ارتباط كلمة «بعير» (בעיר) بالدواب عامة في الفعل الثلاثي العبري (בער) [بعر] بمعني: «رعى» من «الرعي» وهو ما يشمل الدواب دون تخصيص؛ ولذلك قال المعجمي اليهودي (داود بن أبراهام الفاسي)[1] في معجمه التوراتي الشهير عبري ـ عربي «جامع الألفاظ» في تفسير نص (**ובער בשדה אחר**): «وبعير بسدي أحير»[2]: «أي أطلق دوابه في حقل غيره وأبعرت»[3].

والمثير أيضًا في هذا السياق أنّ التوراة قد استعملت في قصّة (يوسف) العبارة العبريّة «بعير»[4] التي استعملها القرآن، في الحديث عن دواب إخوة (يوسف).. وقد **صرّحت في مواضع أخرى أنّ إخوة (يوسف) قد استعملوا الحمير في سفرهم إلى مصر**[5].

وقد بحث (موريس بوكاي) في كتابه «موسى وفرعون» قضية «البعير» في سورة يوسف، وأشار إلى أنّ المستشرق (جاك بيرك) قد وضع في هامش ترجمته الفرنسيّة لمعاني القرآن الكريم إشارة إلى أنّ كلمة «بعير» تعني: الدابة التي تحمل المتاع، لا الجمل، وأضاف (بوكاي) قائلًا: «أنا عظيم السرور بسبب هذه الدقة للسبب الآتي: لاحظت أثناء قراءتي للترجمات المختلفة لسورة يوسف بالفرنسية والإنجليزية بالنسبة للآيتين ٦٥، ٧٢ من سورة يوسف، أنّه لم يترجم أي أحد الكلمة العربية «بعير» إلى غير كلمة جمل. يبدو لي أن هذا الأمر يعتبر خطأ تاريخيًّا ظاهرًا؛ لأنني أعلم أنه في مصر القديمة (وذلك على كامل المدى التاريخي السابق للعصر المسيحي) لم تُستعمل الجمال المدجّنة البتّة لحمل المتاع: قدمت تفاصيل وافية لهذا الموضوع في الجزء

---

(١) داود بن أبراهام الفاسي (القرن العاشر): نحوي، معجمي، يهودي من فرقة القرّائين.

(٢) الخروج ٢٢/ ٤.

(٣) David B. Abraham Al-Fasi, *Kitab Jami' Al-Alfaz*, ed. Solomon L. Skoss (New Haven: Yale University Press, 1936), 1/254.

(٤) نصّ تكوين ٤٥/ ١٧ قول فرعون (ليوسف): «اطلب من إخوتك أن يحملوا دوابهم بالقمح ويرجعوا إلى أرض كنعان»؛ فالدواب في الأصل العبري «بعير» كما هو مسطور في الأصل العبري:
(אמר אל־אחיך זאת עשו: טענו, את־בעירכם, ולכו־באו, ארצה כנען).

(٥) تكوين ٤٢/ ٢٦، ٤٣/ ١٨.

الكتابي الخاص بقصة يوسف. بدا لي أنا أيضًا بصورة واضحة أنّ إشارة الكتاب المقدس إلى الجمال التي تحمل المتاع في هذا العصر، خطأ تاريخي حقيقي (الترجمة السبعينية من القرن الثالث قبل الميلاد تضم هي أيضًا في اليونانية كلمة جمل)[1].

أثناء إقامتي في هقار[2] في نزهة عند مخيم للطوارق مع (هنري لاهوت) سألت هذا العالم المتخصص في هذه المناطق عن الزمن الذي بدأ فيه تدجين الإبل ـ ذات السنام الواحد والسنامين ـ؛ فأجابني بكل ثقة إنّه كان لا بد أن ننتظر العصر الروماني لنشهد استعمال هذا الحيوان كدابة نقل. بعد أن حصّلت هذه المعلومة حول الجمل من هذا المصدر القيّم، تساءلت عن المعنى الحقيقي للكلمة القرآنية «بعير» والتي ترجمت إلى «جمل» من طرف كل المترجمين ـ في حدود علمي ـ بمن في ذلك الشيخ «حمزة بوبكر»[3].

استعمل القرآن أثناء حديثه عن الجمل كلمة أخرى، كلمة جمل (في المفرد في سورة الأعراف الآية ٤٠، وفي الجمع في سورة المرسلات الآية ٣٣)، واستعمل كلمة «إبل» للدلالة على مجموع الجمال (سورة الأنعام الآية ١٤٤، سورة الغاشية الآية ١٧).

ما هو إذن معنى كلمة بعير في القرآن!

وجهتُ هذا السؤال إلى البرفسور (جاك بيرك)، بعد أن أعلمته بما أعرفه عن الجمال عبر التاريخ مما أخبرني به (هنري لاهوت)، ومن خلال ملاحظتي لغياب استعمال هذا الحيوان المدجن في مصر القديمة.

لما راجع (جاك بيرك) «لسان العرب»، وجد أن الكلمة تعني: «كل ما يحمل»؛ لذلك فإنه لا بد من استبعاد كلمة جمل من كل الترجمات، وهو ما سيظهر في ترجمته بعد عدة سنوات.

---

(١) (Καμελος) [كاميلوس].

(٢) منطقة في الجزائر.

(٣) حمزة بوبكر (١٩١٢ ـ ١٩٩٥م): كان إمامًا لمسجد باريس. له ترجمة فرنسيّة لمعاني القرآن الكريم.

أنصح القارئ أن يراجع الجزء الأول من هذا الكتاب الخاص بالرواية الكتابية لدخول مصر، حيث أشرت إلى استعمال كلمة «جمل» لا فقط في زمن يوسف، وإنما أيضًا في زمن إسحاق، في النص الذي بين أيدينا اليوم في العهد القديم، العبري واليوناني. دخل الخطأ التاريخي إلى النص من خلال محرري الكتاب المقدس أو نسّاخه... من الواضح أنه في زمن تبليغ القرآن إلى الناس، كان الجمل يعدّ أفضل دابة لحمل المتاع في السفر بين البلدان القاحلة.

ليس الجمل هو الذي يظهر في القرآن على أنّه الدابة التي تنقل المتاع في الشرق الأوسط قبل ألفي سنة في قصة يوسف. إنّ **القرآن ينقل لنا المعطيات التاريخية الدقيقة المتعلقة بنقل المتاع**»[(١)].

الخلاصة: صحيح أنّ القرآن الكريم قد وافق التوراة في قولها: إنّ إخوة (يوسف) قد استعملوا الحمير في سفرهم، لكنّ القرآن الكريم مع ذلك لم يتابع التوراة في زعمها أنّ الجمال قد دجّنت زمن الآباء (إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام)، رغم أنّ البيئة العربيّة كانت قد استقرّت على الاعتقاد أنّ الجمل هو «سفينة الصحراء»؛ فلا ينفع في الارتحال في الصحارى غيره.

الأخطاء التاريخية في الكتاب المقدس

أدرك أئمّة النصارى في القرون الأخيرة أنّ الكشوف التاريخية تهدّد أصالة كتابهم بدلالتها على زور كثير من تفاصيل قصص أسفارهم؛ فحاولوا أوّل الأمر الطعن بالهرطقة في المناهج «الليبرالية» المتعدّية على «كلمة الله»، غير أنّ توسّع هذه الدراسات في الجامعات الأوروبيّة ألجأهم إلى دخول معترك الجدل التاريخي؛ فظهر في القرن العشرين ما يُعرف «بالأركيولوجية البيبليّة»[(٢)] وإن كانت طلائعه قد ظهرت في القرن التاسع عشر. وهو علم يهتم في البحث

---

(١) Maurice Bucaille, *Moiïse et pharaon: les Heibreux en Eigypte*, pp. 209-210.

(٢) Biblical archaeology. وقد اقتُرحت تسميات أخرى لهذا الفن، من أهمها: Syro-Palestinian archaeology و Archaeology of the Holy Land.

الأركيولوجي «بتغطية كلّ البلاد المذكورة في الكتاب المقدس»[1]؛ أو «قراءة الكتاب المقدس في سياق زمانه وأشخاصه وأرضه؛ لإعادة تركيب تاريخه ودراسة أدبه ودينه بطريقٍ مقارنة»[2]. فهو بذلك عمل في الحفر والنبش للكشف عن المدن والحضارات التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس، وينصرف همّ النصارى واليهود المحافظين فيه إلى إثبات صدق الخبر التاريخي المذكور في الكتاب المقدس.

كان العالم الشهير (ويليام فوكسول أولبرايت)[3] نجم الأركيولوجيا البيبلية، وأهم من دافع عن تاريخية قصص الكتاب المقدس، وإن كانت جهوده منصبة حول إثبات صدق الصورة العامة للرواية لا تفاصيلها الدقيقة، وهو من الذين يعترفون بوجود أخطاء تاريخية في القصص التوراتي. وقد كان أثره عظيمًا في مجاله، لكن مع تطوّر الدراسات الكتابية وتوسّع الحفريات سقطت مدرسة (أولبرايت)، وصعدت تيارات مختلفة على الساحة.

انتهت الأركيولوجيا الكتابيّة اليوم إلى انقسام الباحثين إلى تيّارين اثنين، **الأوّل**: ، والمعروف بـ«Biblical minimalism» يرى أنّ الكتاب المقدس كتاب تبريري لرؤى دينية في قالب تاريخي؛ ولذلك فجلّ قصصه يقع خارج الإثبات التاريخي لأنه صناعة دينية وفولكلورية، وهذا الفريق هو المهيمن على الدراسات الأركيولوجية الشرق أوسطية، ويعبّر عن أطروحته اللاهوتي (توماس ل. تومبسون)[4] بقوله: «إنّ الأبحاث الجديدة التي توفّرت لدينا خلال ربع قرن مضى، قد فرشت أرضية صلبة تمكّننا الآن من صياغة تاريخ لإسرائيل

(١) وهو التعريف الذي قدّمه (ويليام ألبرايت).
Thomas W. Davis, *Shifting Sands: The Rise and Fall of Biblical Archaeology* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2004), p.111.

(٢) وهو تعريف (ج. إ. رايت) (G. E. Wright)، المصدر السابق، ص١١٢.

(٣) سبق تعريفه.

(٤) توماس ل. تومبسون Thomas L. Thompson (١٩٣٩م ـ): ناقد كتابي ولاهوتي من أصل كاثوليكي. أثارت أطروحته للدكتوراه: «تاريخيّة روايات الآباء: «البحث عن إبراهيم التاريخي» حفيظة المشرف الناقد (فتزماير)، وكانت سببًا في خصومته مع التيار غير الليبرالي. من مؤلفاته: "The Mythic Past: Biblical Archaeology And The Myth Of Israel".

مستقل عن البحث التوراتي. وليست الكتب والدراسات المنشورة حديثًا إلّا برهانًا واضحًا على أنّ كتابة مثل هذا التاريخ بشكل موضوعي وطريقة وصفيّة قد صارت ممكنة. فجميع هذه المؤلّفات تقريبًا تضع بين أقواس معترضة الأخبار التاريخية المقتبسة من التوراة (دلالة على الشكّ المبدئي في مضمونها). . إنّ مقدرتنا المتزايدة عل بناء تاريخ مفصّل لأصول إسرائيل، تجعل من الضروري، أكثر فأكثر، ترك الاعتماد على الروايات التوراتيّة كمصدر لكتابة التاريخ. وعلينا أن نتخلّى بشكل جذري وواع عن كلّ المسلّمات التي فرضت علينا من قبل النص التوراتي»[١]. **ويرى الفريق الآخر** الذي يعدّ أقليّة عددًا في أكاديميا الأركيولوجيا ـ والمنتصر لـ«Biblical maximalism» ـ صدق تاريخية قصص الكتاب المقدس، ولو في خطوطها العريضة. وبين هذا وذاك تيار وسط، وهو نفسه درجات، ومن أهم ممثليه الأركيولوجي الشهير (ويليام ج. دفر)[٢] الذي يُعتبر من أهم خصوم تيّار خرافية قصص العهد القديم، وهو مع ذلك يقول: إنّه يوافق جلّ العلماء في خرافية كثير مما ورد في أسفار التوراة الأربعة الأولى، واعتبارها إضافات لمحررين متأخرين[٣]. والذي يكاد ينتهي إليه جميع الأكاديميين في هذه التيارات الثلاث هو أنّ الكتاب المقدس لا يخلو من أخطاء تاريخية.

الفريق الأوّل متطرّف في حكمه لأنّه يتعجّل الحكم قبل استيفاء النظر والحفر، ويغالي في اعتبار صمت الآثار حجة على خرافية قصص التوراة[٤]، والفريق الثاني قد يغالي في محاولة استنقاذ تاريخية قصص الكتاب المقدس،

(١) Thomas L. Thompson, *Early History of the Israelite People*, pp.168 - 169 (نقله فراس السواح، آرام دمشق في التاريخ والتاريخ التوراتي د.م: دار علاء الدين، ١٩٩٥، ص٨).

(٢) ويليام ج. دفر William G. Dever (١٩٣٣م ـ): أركيولوجي أمريكي متخصص في تاريخ بني إسرائيل والشرق الأوسط الكتابي. أستاذ أركيولوجيا الشرق الأدنى في جامعة أريزونا.

(٣) William G. Dever, *What Did the Biblical Writers Know and When Did They Know It? What Archaeology Can Tell Us about the Reality of Ancient Israel (Grand Rapids: MI: Eerdmans, 2001)*, pp. 97-99.

(٤) انظر في تراكم الشواهد التاريخية المتفرقة لصالح صدق تفاصيل واردة في قصص أسفار العهد القديم: Kenneth Anderson Kitchen, *On the Reliability of the Old Testament* (Grand Rapids, Mich.; Cambridge: William B. Eerdmans, 2006).

والحق وسط بينهما، وهو أنّ العهد القديم يجمع بين خبر الأوّلين وأساطير السابقين، وهو ما اعترفت الدراسة الكاثوليكية المرافقة لترجمة «New American Bible Revised Edition» ـ وهي دراسة حاصلة على علامة «Nihil Obstat» التي هي اعتراف كاثوليكي رسمي أنها لا تتضمن أخطاء عقدية ـ بقولها عن حديث التوراة عن الآباء (إبراهيم، إسحاق، يعقوب...): إنّ هذه القصص قد تم تدوينها في التوراة بين ٩٠٠ و٤٠٠ قبل الميلاد (أي: بعد موسى عليه السلام الذي تنسب إليه التوراة عند أصوليي النصارى!)، وأنّ هذه القصص تتضمّن مفارقات تاريخية (anachronisms) ـ أي: أحداثًا وأسماء وضعت في غير زمنها ـ كثيرة، بما يُظهر أنّ هذه القصص قد كتبت بعد قرون كثيرة من الزمن الذي تدّعي وصفه(١).

ولا يمكن لمنصف اليوم أن ينكر أثر خرافات الأمم القديمة في القصص التوراتي، وهو ما يظهر ـ مثلًا ـ في اعتراف «الترجمة الفرنسية المسكونية» عند حديثها عن مصادر سفر التكوين: «لم يتردّد مؤلِّفو الكتاب المقدس، وهم يروون بداية العالم والبشريّة، أن **يستقوا معلوماتهم** بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من تقاليد الشرق الأدنى القديم، ولا سيّما من تقاليد ما بين النهرين ومصر والمنطقة الفينيقية الكنعانية. فالاكتشافات الأثرية من نحو قرن تدل على وجود كثير من الأمور المُشتركة بين الصفحات الأولى من سفر التكوين وبين بعض النصوص الغنائية والحكمية والليترجية الخاصة بسومر وبابل وطيبة وأوغاريت. ولا عجب في ذلك، عند من يعلم أن البلاد التي أقام فيها إسرائيل كانت منفتحة على المؤثرات الخارجية»(٢).

وأمّا العهد الجديد، فقد سبق الحديث عن موضوع «البحث عن يسوع التاريخي» وأزمة الكشف عن (يسوع الحقيقي). ومن عجائب الدفاعيين النصارى محاولتهم الاستعانة بكشوف الأركيولوجيا لإثبات مصداقية العهد

---

(١) Ronald A. Simkins, Biblical History and Archaeology: Old Testament, in *The Catholic Study Bible*, eds., Donald Senior, John Collins, Mary Ann Getty (Oxford: Oxford University Press, 2016), p.35.

(٢) نقلته الترجمة اليسوعية العربية للكتاب المقدس (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٦)، ص٦٦.

الجديد، يقول الدفاعي الشهير (كريج ل. بلمبرج)[١] ـ مثلًا ـ في هذا السياق: «يمكن لعلم الآثار أن يثبت أنّ الأماكن المذكورة في الأناجيل موجودة حقًّا، وأنّ العادات والظروف المعيشية والطوبوغرافيا والأثاث المنزلي وأماكن العمل والأدوات والطرق والقطع النقدية والمباني... تتوافق مع كيفية وصف الأناجيل لها. ويمكن أن يَظهر أنّ أسماء بعض الشخصيات في الأناجيل دقيقة عندما نجد نقوشًا لها في أماكن أخرى. الأحداث والتعاليم المسندة إلى يسوع تصبح مفهومة ومن ثمّ معقولة عند قراءتها بالمقارنة مع الحياة في فلسطين في الثلث الأول من القرن الأول»[٢].

ما يحتجّ به النصارى هنا لا يفيدهم بشيء لإثبات تاريخية أفعال المسيح وكلماته في الأناجيل؛ لأنّ النزاع ليس في أنّ الأناجيل قد كتبت بعد القرن الأول، أو أنّ مؤلّفيها على جهل تام بفلسطين؛ فتلك تهمة لا يتبنّاها غير قلّة قليلة من الغلاة الذين ينكرون الوجود التاريخي للمسيح عليه السلام.

إثبات تاريخية قصّة المسيح الإنجيلية يقتضي إثبات صدق ما فيها من أحداث وأقوال، وهو ما لم يفلح فيه الدفاعيون النصارى. وغاية ما أثبتته الأبحاث الأركيولوجيّة أنّ قصّة المسيح الإنجيلية تقدّم إطارًا تاريخيًّا عامًّا مقبولًا، وليس في ذلك كبير فضل فإنّ من الأناجيل الأبوكريفية ما يشارك الأناجيل القانونيّة ذلك. كما أنّ الأناجيل نفسها تخطئ في رسم بعض أصول قصّة المسيح ـ فضلًا عن التفاصيل ـ، ومن ذلك قول الناقد المعروف (كومل)[٣] في مقدمته الشهيرة للعهد الجديد. في حديثه عن كاتب إنجيل مرقس: «ليست للمؤلّف ـ بداهةً ـ معرفة شخصيّة بجغرافية فلسطين؛ كما تظهر ذلك الأخطاء الجغرافية الكثيرة»[٤]. وأمر مؤلفي الأناجيل لا يتجاوز جمع

---

(١) كريج ل. بلمبرج Craig L. Blomberg (١٩٥٥م ـ): ناقد متخصص في دراسات العهد الجديد. له مؤلفات كثيرة في الدفاع عن النصرانية. من كتبه: "The Historical Reliability of the New Testament".

(٢) Craig L. Blomberg, *The Historical Reliability of the Gospels*, second edition (Nottingham: Apollos, 2007), p.327.

(٣) فرنر جورج كومل Werner Georg Kümmel (١٩٠٥م ـ ١٩٩٥م): لاهوتي ألماني.

(٤) Werner Georg Kümmel, *Introduction to the New Testament* (Nashville, Tenn.: Abingdon Press, 1975), p.97.

القصص القديمة، دون تحقيق وتمحيص جادين، ولذلك قال الناقدان (و. د. ديفيس) و(إ. ب. سندرز)[1] بعد أن ذكرا اختلاف متى ولوقا في قصة طفولة المسيح: «ببساطة، لم يكونا يتكلّمان بعلم، وقادتهما في ذلك الإشاعات أو الأماني أو الافتراضات»[2].

البحث التاريخي أثبت عشرات الأخطاء التاريخيّة في العهدين القديم والجديد، **وسنكتفي هنا بالقليل منها:**

١ ـ مدينة «دان»:

«فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ». (تكوين ١٤/ ١٤).

مدينة «دان» لم توجد إلا بعد عصور من زمن (إبراهيم) عليه السلام؛ فهي لم تظهر إلا في عصر القضاة (القضاة ١٨/ ٢٩).. بل إنّ «دان» نفسه الذي سُمّيت المنطقة باسمه قد ولد بعد (إبراهيم) عليه السلام (تكوين ٣٠/ ٦).

٢ ـ ملوك إسرائيل:

«وَهؤُلَاء هُمُ الْمُلُوكُ الَّذِينَ مَلَكُوا فِي أَرْضِ أَدُومَ، قَبْلَمَا مَلَكَ مَلِكٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ». (تكوين ٣٦/ ٣١). يفهم من هذا النص أنّ سفر التكوين قد كُتب لما كان على الإسرائيليين ملوكٌ منهم، لكنّ سفر التكوين يُنسب إلى (موسى) عليه السلام، في حين أنّ أقدم زمن من الممكن أن نحيل إليه لملوك إسرائيل، هو زمن (شاؤول)/ (طالوت)؛ أي: بعد عصر (موسى) عليه السلام[3].

٣ ـ الآرامي:

«وَخَدَعَ يَعْقُوبُ قَلْبَ لَابَانَ الأَرَامِيِّ إِذْ لَمْ يُخْبِرْهُ بِأَنَّهُ هَارِبٌ» (تكوين ٣١/ ٢٠).

---

(١) إ. ب. سندرز E. P. Sanders (١٩٣٧م ـ): ناقد متخصص في دراسات العهد الجديد ومباحث «يسوع التاريخي». عضو الأكاديمية البريطانية.

(٢) W.D Davies and E. P. Sanders, 'Jesus from the Jewish point of view', in *The Cambridge History of Judaism* eds, William Horbury *et. al*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), 3/622.

(٣) Elwood Worcester, *The Book of Genesis in the Light of Modern Knowledge* (McClure, Phillips & Company, 1901), .p.30.

جاء في هامش ترجمة الكتاب المقدس «The New American Bible»: «آرامي: الإشارات الأولى إلى الآراميين خارج الكتاب المقدس تعود إلى زمن متأخر عن زمن يعقوب، وإذا كان يعقوب قد عاش منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد؛ فتلقيب لابان عندها بأنه آرامي وجعله يتحدّث الآرامية (العدد ٤٧) خطأ تاريخي ظاهر».

٤ ـ أرض العبرانيين:

قال (يوسف) عليه السلام لصاحبه في السجن: «لأَنِّي قَدْ سُرِقْتُ مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ» (تكوين ٤٠/ ١٥). المقصود هنا: أرض الكنعانيين، ولم تُسمّ تلك الأرض بأرض العبرانيين إلا بعد عصر (موسى) عليه السلام.

٥ ـ أور الكلدانيين:

«وَمَاتَ هَارَانُ قَبْلَ تَارَحَ أَبِيهِ فِي أَرْضِ مِيلَادِهِ فِي أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ» (تكوين ١١/ ٢٨).

«وَأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ، وَلُوطًا بْنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وَسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ؛ فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ» (تكوين ١١/ ٣١).

جاء في هامش ترجمة الكتاب المقدس «The New American Bible» لنص تكوين ١١/ ٢٨: «أور الكلدانيين: كانت أور مدينة قديمة جدًّا للسومريين (وفي وقت لاحق للبابليين) في جنوب بلاد ما بين النهرين. النص اليوناني «أرض الكلدان». في كلتا الحالتين، مصطلح الكلدان هو خطأ تاريخي؛ لأن الكلدانيين لم يُعرفوا في التاريخ حتى ما يقرب من ألف سنة بعد وقت إبراهيم»[١].

٦ ـ زمن استيلاء (سنحاريب) على مدن يهوذا:

جاء في ٢ ملوك ١٨/ ١: «وَفِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لِهُوشَعَ بْنِ أَيْلَةَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ

(١) وقعت على نسخة لنفس الترجمة تضع نفس مضمون التعليق السابق مع حذف كلمة «خطأ تاريخي». وهو تعليق يقرّ بالخطأ ـ ضمنًا ـ وينسب النص إلى كاتب من القرن السادس قبل الميلاد!

مَلَكَ حَزَقِيَّا بْنُ آحَازَ مَلِكِ يَهُوذَا». ثم بعد ذلك بقليل جاء النص التالي: «وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشَرَةَ لِلْمَلِكِ حَزَقِيَّا، صَعِدَ سَنْحَارِيبُ مَلِكُ أَشُّورَ عَلَى جَمِيعِ مُدُنِ يَهُوذَا الْحَصِينَةِ وَأَخَذَهَا» (٢ ملوك ١٨/١٣).

الإشكال في النصّين السابقين هو أنّ السنة الثالثة من حكم (هوشع) لا يمكن أن تكون أبعد من سنة ٧٢٨ ق.م، بما يعني: أنّ السنة الرابعة عشرة لحكم (حزقيا) ستكون في حدود سنة ٧١٤ ق.م، لكنّ (سنحاريب) استولى على مدن يهوذا سنة ٧٠١ ق.م، أي: بعد التاريخ الذي ادّعاه الكتاب المقدس بثلاث عشرة سنة.

وقد اعترف هامش ترجمة «The New American Bible» بالإشكال التاريخي في الفصل الثامن عشر من سفر الملوك الثاني، وأشار إلى أنّ علماء النصارى قدّموا عدّة اقتراحات لحلّ الإشكال، ومنها وجود خطأ نسخي (تحريف!). وختم أصحاب الهامش في هذه الترجمة تعليقهم بقولهم: «لم يفز أيّ من الحلول بالإجماع بين المؤرّخين»![١]

٧ ـ زمن (يَهُويَاقِيم) و(نَبُوخَذْنَاصَّر):

«فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ مُلْكِ يَهُويَاقِيمَ مَلِكِ يَهُوذَا، ذَهَبَ نَبُوخَذْنَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَحَاصَرَهَا». (دانيال ١/١).

السنة الثالثة لحكم (يَهُويَاقِيم) توافق سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، وعندها لم يكن (نَبُوخَذْنَاصَّر) بعدُ ملكًا لبابل. وقد غزا (نَبُوخَذْنَاصَّر) لأوّل مرة أورشليم سنة ٥٩٧م، وعندها كان (يَهُويَاقِيم) متوفّى.

٨ ـ مؤسّس مدينة (تدمر):

يزعم نص١ ملوك ١٨/٩ أنّ (سليمان) عليه السلام قد بنى (تدمر)، وهو زعم باطل؛ إذ إنّ الوثائق الآشوريّة، منذ أيام الملك الآشوري (تجلات بلاسر

---

(١) "None of the solutions has won a consensus among historians".

الأوّل) (١١١٦ ـ ١٠٩٠ق.م) ـ أي: قبل عصر (سليمان) ﷺ ـ تذكر (تدمر)[١].

٩ ـ حقيقة (بَيْلْشَاصَّر) و(نَبُوخَذْنَصَّر):

«بَيْلْشَاصَّرُ الْمَلِكُ صَنَعَ وَلِيمَةً عَظِيمَةً لِعُظَمَائِهِ الأَلْفِ، وَشَرِبَ خَمْرًا قُدَّامَ الأَلْفِ. وَإِذ كَانَ بَيْلْشَاصَّرُ يَذُوقُ الْخَمْرَ، أَمَرَ بِإِحْضَارِ آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا نَبُوخَذْنَصَّرُ **أَبُوهُ** مِنَ الْهَيْكَلِ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ» (دانيال ٥/١ ـ ٢).

قول صاحب سفر دانيال: إنّ (بَيْلْشَاصَّر) كان ملكًا، وأنه ابن (نَبُوخَذْنَصَّر)، خطأ واضح؛ فلا (بَيْلْشَاصَّر) كان ملكًا، ولا كان (نَبُوخَذْنَصَّر) أبًا له. والد (بَيْلْشَاصَّر) هو الملك (نبونيدوس)[٢].

١٠ ـ فناء «العماليق»:

جاء في ١صموئيل ١٥/٧ ـ ٨ أنّ شاؤول قد حارب العماليق، وقتل «جَمِيعَ الشَّعْبِ بِحَدِّ السَّيْفِ»، ولكننا نتفاجأ أنّ العماليق بعد ذلك بفترة قصيرة طائفة قوية استولت على غنائم كثيرة «مِنْ أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَمِنْ أَرْضِ يَهُوذَا». (١صموئيل ٣٠/١٦)؛ فغزاهم (داود) ﷺ و«ضَرَبَهُمْ دَاوُدُ مِنَ الْعَتَمَةِ إِلَى مَسَاءِ غَدِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا أَرْبَعَ مِئَةِ غُلَامٍ الَّذِينَ رَكِبُوا جِمَالًا وَهَرَبُوا». (١صموئيل ٣٠/١٧)!

١١ ـ العدد الخرافي للقتلى:

«فَانْهَزَم بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَمَام يَهُوذَا وَدَفَعَهُمُ اللهُ لِيَدِهِمْ. وَضَرَبَهُمْ أَبِيَّا وَقَوْمُهُ ضَرْبَةً عَظِيمَةً؛ فَسَقَطَ قَتْلَى مِنْ إِسْرَائِيلَ خَمْسُ مِئَةِ أَلْفِ رَجُل مُخْتَارٍ». (٢ أخبار الأيام ١٣/١٦ ـ ١٧).

القول: إنّ بني إسرائيل قد قُتل منهم نصف مليون رجل (دون النساء والأطفال) في معركة واحدة، أمر لا يصدقه مؤرخ جاد، خاصة أن بني إسرائيل لم ينقطع خبرهم بعدها!

---

(١) محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل، الحضارة، التوراة والتلمود (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م)، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) Nabonidus.

١٢ ـ العدد الخرافي للجيش:

«وَابْتَدَأَ أَبِيَّا فِي الْحَرْبِ بِجَيْشٍ مِنْ جَبَابِرَةِ الْقِتَالِ، أَرْبَعِ مِئَةِ أَلْفِ رَجُل مُخْتَارٍ، وَيَرُبْعَامُ اصْطَفَّ لِمُحَارَبَتِهِ بِثَمَانِ مِئَةِ أَلْفِ رَجُل مُخْتَارٍ، جَبَابِرَةِ بَأْسٍ» (٢ أخبار الأيام ١٣/٣).

يخبرنا النص السابق أنّ في فلسطين ـ قبل المسيح بقرون ـ كان هناك جيش يبلغ عدده مليون ومئتي ألف يهودي. وهذا منكر جدًّا من الناحية التاريخية، إذا علمنا أنّ جيش نابوليون العظيم الذي غزا روسيا كان قوامه ٥٠٠ ألف جندي.. ثم إنه يلزم من عدد الجنود وحده أن يكون سكان فلسطين عندها في حدود عشرة مليون يهودي!

١٣ ـ ثلاثة!:

«فَضْلًا عَنِ انْتِسَابِ ذُكُورِهِمْ مِنِ ابْنِ ثَلَاثِ سِنِينَ فَمَا فَوْقُ مِنْ كُلِّ دَاخِلِ بَيْتَ الرَّبِّ» (٢ أخبار الأيام ٣١/١٦). جاء في هامش الدراسة الكاثوليكية المرافقة لترجمة «New American Bible Revised Edition»: «ابن ثلاث سنين: ربّما هذا خطأ نسخي لـ«ثلاثين سنة». طبق سفر العدد ٤/٣، ٢٣، ٣٠، يخدم الرجال من العشائر الكهنوتية من سن الثلاثين إلى الخمسين»[١]. والحقيقة هي أنّ هذا الرقم خطأ من الكاتب، ولا تشهد المخطوطات لزلّة ناسخٍ.

١٤ ـ زمن ميلاد المسيح:

يخبرنا إنجيل متّى ٢/١ أنّ المسيح قد ولد فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِك. وقد انتهى حكم (هيرودس) سنة ٤ قبل الميلاد. في حين يخبرنا إنجيل لوقا ٢/٢ أنّ المسيح قد ولد عند الإحصاء السكاني الذي قام به «كِيرِينِيُوسُ وَالِيَ سُورِيَّةَ». ومعلوم أنّ هذا الإحصاء ـ كما يقول المؤرخون ـ قد تم سنة ٧ ميلاديًّا. وقد علّق الناقد (ريموند براون) بقوله: «يعترف جلّ النقاد بوجود

---

(١) *The Catholic Study Bible*, p.540.

خلط وتأريخ خاطئ عند لوقا»[1]. وأمّا الناقد (روبرت هـ. شتاين)[2]؛ فرغم أنّه قد أصرّ على الزعم أنه علينا أن نعتبر (لوقا) مؤرّخًا أمينًا، إلّا أنه انتهى إلى أنه لا حلّ لهذه المشكلة إلى الآن![3]

١٥ ـ المجزرة الوهمية:

«لَمَّا رَأَى هِيرُودُسُ أَنَّ الْمَجُوسَ سَخِرُوا بِهِ غَضِبَ جِدًّا. فَأَرْسَلَ وَقَتَلَ جَمِيعَ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ فِي بَيْتِ لَحْم وَفِي كُلِّ تُخُومِهَا، مِنِ ابْنِ سَنَتَيْنِ فَمَا دُونُ، بِحَسَب الزَّمَانِ الَّذِي تَحَقَّقَهُ مِنَ الْمَجُوسِ» (متى ٢/ ١٦).

لا يوجد أي توثيق لهذه المجزرة البشعة التي تنسب إلى (هيرودس)[4] رغم أنّ المؤرخ الشهير (يوسيفوس) الذي عاش في القرن الأول قد تحدث عن جرائم (هيرودس) في كتابه «تاريخ اليهود». وواضح أنّ مؤلف إنجيل متّى أراد أن يجعل قصة طفولة (عيسى) عليه السلام مشابهة بصورة كبيرة لقصة طفولة (موسى) عليه السلام في التفاصيل، ومنها خبر قتل الفرعون لأبناء بني إسرائيل (خروج ١/ ٢٢).

١٦ ـ التأريخ للثورة قبل وقوعها:

يذكر مؤلف أعمال الرسل أنّ (غَمَالَائِيل) قد خطب في المجمع اليهودي محذرًا قائلًا: «قَبْلَ هذِهِ الأَيَّام قَامَ ثُودَاسُ قَائِلًا عَنْ نَفْسِهِ إِنَّهُ شَيْءٌ، الَّذِي الْتَصَقَ بِهِ عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ نَحْوُ أَرْبَعِمِئَةٍ، الَّذِي قُتِلَ، وَجَمِيعُ الَّذِينَ انْقَادُوا إِلَيْهِ تَبَدَّدُوا وَصَارُوا لَا شَيْءَ» (أعمال الرسل ٥/ ٣٦).

وقف (غَمَالَائِيل) متحدثًا عن الثورات المسيحانية الفاشلة، وكان أوّل

---

(١) Raymond E. Brown, *An Adult Christ at Christmas: Essays on the Three Biblical Christmas Stories*, (Minnesota: Liturgical Press, 1988), p. 17.

(٢) روبرت هـ. شتاين: Robert H. Stein أستاذ تفسير العهد الجديد في "Southern Baptist Theological Seminary". أحد أبرز المتخصصين في الأناجيل الإزائيّة.

(٣) Robert H. Stein, *Jesus the Messiah: A Survey of the Life of Christ* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1996), pp.52-55.

(٤) Tom Harpur, *The pagan Christ: recovering the lost light* (Toronto: Thomas Allen Publishers, 2005), p. 126.

مثال يذكره هو ثورة (ثوداس) التي وقعت منذ مدّة، وقمعت. ولا يُعرف عن ثورة يهوديّة قادها شخص اسمه (ثوداس) غير تلك التي ذكرها (يوسيفوس) مؤرخ القرن الأول في مؤلفه «تاريخ اليهود»[(١)] والتي تقدّمها رجل ادّعى النبوّة اسمه (ثوداس) دعا الناس إلى أن يغادروا إليه بممتلكاتهم إلى نهر الأردن. وقد قبض الرومان على أتباعه، وقُطع رأس الثائر. خطاب (غَمَالَائِيل) المزعوم كان قبل سنة ٣٧م، في حين أنّ المؤرخ (يوسيفوس) قد ذكر أنّ ثورة (ثوداس) قد وقعت حوالي سنة ٤٥م[(٢)].

١٧ ـ الظلمة التي لم تُظلم على أحد:

ذكر مؤلّف إنجيل متّى أنه لما كان المسيح على الصليب «كَانَت ظُلْمَةٌ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ» لثلاث ساعات (متّى ٢٧/ ٤٥). النصّ يقول: «كل الأرض» (πασαν τηv γηv) [باسَن تِين جِين] ولكن لم يذكر أهل البلاد المجاورة لفلسطين هذه الظلمة التي دامت ثلاث ساعات. وإذا قيل: إن كل الأرض تعني: أرض فلسطين، أو أورشليم؛ فإنّه تبقى الشهادة قائمة ضد هذه الرواية لأن أمر هذه الظلمة العجيبة لم ينقله أحد من مؤرخي فلسطين في القرن الأول.

١٨ ـ عادة رومانية غير معروفة:

عادة إطلاق الأسرى: «وَكَانَ [بيلاطس] يُطْلِقُ لَهُمْ فِي كُلِّ عِيدٍ أَسِيرًا وَاحِدًا، مَنْ طَلَبُوهُ» (مرقس ١٥/ ٦).

يقول الأسقف (جون شلبي سبونج)[(٣)]: «يقينًا، قصّة إطلاق بيلاطس سراح مجرم مهم اسمه باراباس، وهو يعني: ابن الله (بار=ابن، أبّا=الله

---

(١) *Antiquities of the Jews*, 20.97-99.

(٢) Louis H. Feldman, *Jewish Life and Thought among Greeks and Romans: Primary Readings* (London: Continuum International Pub. Group, 1996) page 335.

(٣) جون شلبي سبونج John Shelby Spong (١٩٣١م ـ): لاهوتي. أسقف متقاعد في الكنيسة الأسقفية الأمريكية. من مؤلفاته: "Why Christianity Must Change or Die: A Bishop Speaks to Believers In Exile".

الآب)، خرافية»[1]. فهي دعوى من صاحب إنجيل مرقس ليس لها برهان من تاريخ الرومان في القرن الأول.

١٩ ـ تفاصيل محاكمة المسيح:

علّق الناقد (نينهام) على تفاصيل محاكمة المسيح أمام محكمة السنهدرين اليهودية كما في (مرقس ١٤/٥٣ ـ ٦٥): «ليس من السهل أن نتبيّن كيف نشأ هذا الجزء. ولقد كان السؤال حول قيمته التاريخيّة ـ ولا يزال ـ موضوعًا يتعرّض لمناقشات حيويّة. ومن الواجب أن نعرض الأسباب الرئيسة للشك في قيمته التاريخيّة، ونناقشها باختصار كما يلي:

١ ـ يصف القديس مرقس المحاكمة على أنّها حدثت أمام المجمع ـ أي: السنهدرين ـ وهو هيئة رسمية تتكوّن من واحد وسبعين عضوًا يرأسها رئيس الكهنة، وتمثّل السلطة الشرعيّة العليا في إسرائيل.

ولمّا كانت لائحة السنهدرين المذكورة في المشنا تبيّن الخطوات التفصيلية التي يجب اتّخاذها أمام تلك الهيئة؛ فإنّ المقارنة بين تلك الإجراءات وبين ما يذكره القديس مرقس عن محاكمة يسوع، تكشف عن عدد من التناقضات أغلبها جدير بالاعتبار.

٢ ـ ولكن، هل كان من الممكن أن يجتمع أعضاء السنهدرين، ولو حتّى لعمل مثل تلك الإجراءات القضائية الرسمية التي تسبق المحاكمة في منتصف ليلة عيد الفصح، أو إذا اعتبرنا أنّ تقويم القديس مرقس لأسبوع الأحداث غير دقيق؛ فهل كان يمكن أن يجتمعوا في منتصف الليلة السابقة لعيد الفصح.

إنّ محاكمة رسميّة في مثل ذلك الوقت تبدو شيئًا لا يمكن تصديقه، كما يشكّ أغلب العلماء تمامًا في عقد جلسة في مثل ذلك الوقت، ولو لعمل تحقيقات مبدئيّة»[2].

---

(١) John Shelby Spong, *Resurrection: myth or reality?: a bishop's search for the origins of Christianity* (New York: PerfectBound, 2004), p. 240.

(٢) نقله أحمد عبد الوهاب، النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، ص٣٩ ـ ٩٤.

٢٠ ـ قصة جماعة (الزمبي):

لما مات المسيح على الصليب «الأَرْض تَزَلْزَلَتْ، وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ، وَالْقُبُورُ تَفَتَّحَتْ، وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقِدِّيسِينَ الرَّاقِدِينَ وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ». (متّى ٢٧/ ٥١ ـ ٥٣)

هذا خبر خرافي؛ إذ لم يشهد أحد من المؤرخين لصحة هذه القصة العجيبة التي تخبرنا أنّ كثيرًا من الأموات قد قاموا من قبورهم المتشققة، في فلسطين. وقد أثارت تاريخية هذه القصة معركة كبيرة بين كبار الدفاعيين في أمريكا سنة ٢٠١١م إثر تقرير (مايكل لِكونا)[١] في كتابه الضخم في الدفاع عن قيامة المسيح من الموت أنّ قصّة قيامة القدّيسين لا يمكن قبولها بصورة حرفيّة، وإنّما هي ذات طابع مجازي[٢]. وقد هاجمه (نورمان جايزلر) و(ألبرت مولر)[٣] بشدّة لما قاله، واتّهماه بإنكار عقيدة عصمة النص المقدس من التحريف لأنّ ما قاله هو إقرار ضمني بخرافية قصة القائمين من الموت رغم وضوح اعتقاد مؤلف إنجيل متّى تاريخيّتها. وقد استقال (لكونا) إثر ذلك من الكلية اللاهوتية التي كان يدرّس فيها. ولا يزال صدى هذه الخصومة يتردّد بين الدفاعيين النصارى إلى الآن.

خلاصة النظر:

- البحث التاريخي يؤكّد أنّ القرآن وحي من الله لأسباب:

ـ السبق التاريخي.

ـ تصحيح القرآن الأخطاء التاريخية في الكتاب المقدسّ.

ـ تلافي القرآن أخطاء تاريخيّة في الكتاب المقدس رغم موافقته للكتاب المقدس تفاصيل أخرى للقصص ذاتها.

---

(١) مايك ر. لكونا Michael R. Licona (١٩٦١م ـ): دفاعي نصراني متخصص في دراسات العهد الجديد وقيامة المسيح من الموت. له مناظرات مع ملحدين ومسلمين في قيامة المسيح من الموت وألوهيته.

(٢) Michael R. Licona, *The Resurrection of Jesus: A New Historiographical Approach* (Downers Grove, Ill: InterVarsity Press, 2011).

(٣) ألبرت مولر Albert Mohler (١٩٥٩م ـ): لاهوتي أمريكي شهير، أستاذ اللاهوت المسيحي، ورئيس (Southern Baptist Theological Seminary).

• الأخطاء التاريخية في الكتاب المقدس كثيرة، وكاشفة ضعف المصداقية التاريخيّة لأسفاره.

مراجع للتوسع:

محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).

Maurice Bucaille, *Moiïse et pharaon: les Heébreux en EÉgypte: quelles concordances des livres saints avec l'histoire?* (Paris: Pocket, 2003).

Randel Helms, *Gospel Fictions* (Amherst, N.Y.: Prometheus Books, 1997)..

الفصل الحادي عشر

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

ليس ثمة أي مقياس مشترك بين السمة المحددة للأخبار التوراتية المجابهة للعلم، وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية الواردة في القرآن.

(الباحث والجراح الفرنسي Maurice Bucaille)

بين خيارين.. إعجاز أم اقتباس؟

لم تكن البلاد العربيّة زمن البعثة المحمّديّة عرضة للأفكار العلميّة المتطوّرة في الإمبراطوريتين الرومانيّة والفارسيّة، نتيجة غياب التواصل المعرفي بينهما عبر الوسائط المدرسيّة، وبساطة أنماط الحياة الصحراوية التي تعتمد على التجارة البينيّة ورعي الإبل وزراعة النخيل، والاعتقاد في الآلهة أنّها تورث الخصب والصحّة والثراء دون واسطة أساسيّة من سنن كونيّة؛ إذ في غضبها ورضاها تقدّم التفسير المباشر للظواهر الكونيّة في البشر والبيئة..

وكانت الثقافة العلميّة المهيمنة على المناطق الحضريّة المجاورة لمكّة تعتمد على مصدرين اثنين أساسيين بالإضافة إلى التفكير الشعبي الساذج، **وهما:**

- الثقافة العلميّة اليونانيّة ممثّلة أساسًا في التراث العلمي الأرسطي في الطب والتشريح وعلم الأرصاد الجويّة...
- الثقافة العلميّة التوراتيّة الممثّلة بين النصارى أساسًا في علم الفلك

الذي خالف ثقافة اليونان وفرض سلطانه في البيئة العلمية النصرانيّة لوضوح دلالات النصوص المقدّسة عليه بما قطع مع كثير من أفكار اليونان التي كان لها سلطان على الإمبراطورية الرومانية قبل تبنّي النصرانية. كما يظهر أثر الثقافة التوراتيّة في التراث الشفهي اليهودي في التفصيلات العلمية التلمودية، وهي واسعة الأبواب، تتضمن مباحثات في علوم الفلك والبيولوجيا والطب والتشريح والنبات... ولكن كان اليهود في بلاد العرب قلّة منعزلة لا سلطان لها على البيئة الوثنية المجاورة.

في ظلّ هذه الظروف، يستدعي العقل القول: إنّ «كتاب محمّد ﷺ» لن يجد حرجًا في نقل أفكار أهل الكتاب ما دامت لا تجد مخالفة من علم عربي ثابت في بيئة الصحراء، إن صحّ الزعم بدعوى الاقتباس من أسفار أهل الكتاب.. ولكن عند النظر فيما ورد في القرآن الكريم؛ يستبين الناظر أنّ القرآن خالف صراحة أو ضمنًا أفكارًا علميّة باطلة كثيرة في الكتاب المقدس..

تعديل القرآنُ أخطاءَ التوراة والإنجيل حجة لربانيّته لأنّ هذه التصويبات والمخالفات لم يُجزم بصدقها تاريخيًّا إلا بعد وفاة نبي الإسلام ﷺ.

هل هناك إعجاز علمي في القرآن الكريم؟

يذهب جمهور علماء المسلمين اليوم إلى القول: إنّ القرآن يتضمن أخبارًا علمية ما كان لمثل نبي الإسلام ﷺ أن يعلمها لولا عون الوحي لأنّها لم تكن معروفة زمنه (أو لم يكن الحسم لصحّتها علميًّا ممكنًا عندها)، وذهب بعض أهل العلم إلى أنّه لا يصحّ أن ينسب إلى القرآن الكريم إعجاز علمي لأسباب نسوقها هنا مع التعقيب:

اعتراض: القرآن ليس كتاب علم، وإنما هو كتاب هداية.

التعقيب: لا ينكر عاقل أنّ القرآن كتاب هداية، وليس كتابًا في الجيولوجيا ولا الفلك ولا التشريح. ولا يمنع ذلك من القول بوجود لفتات

علميّة في القرآن تدلّ على ربانيّته، وهذه اللفتات قليلة عددًا ولا تُخرج القرآن عن أصل رسالته المتمثّلة في بيان حقيقة أمر المعاش والمعاد وواجب الإنسان في سلوك طريق الصالحين.

اعتراض: إقحام القرآن في مجال العلوم يجعله عرضة لتطوّر العلوم وعدم استقرارها؛ فما يثبت العلم صحته اليوم قد يتغيّر الحكم فيه غدًا، وهو ما يؤول إلى الطعن في ربّانيّة القرآن.

التعقيب: القول بالإعجاز العلمي هو وجه لتفسير النص القرآني بمعنى ما يعتقد المفسّر جزمًا أنّه يُطابق الواقع، وإذا تبيّن أنّ الفهم العلمي للقرآن خطأ، لا يلزم عندها القول بخطأ القرآن، وإنما هو خطأ التفسير. وهذا الحكم يُقال في كلّ تفسير لكتاب الله، ولا موجب لاستثناء التفسير بالخبر العلمي من حكم أنواع التفسير الأخرى هنا.

اعتراض: القول بالإعجاز العلمي يلزم منه الطعن في فهم الصحابة لكتاب الله؛ إذ لم يهتدوا إلى ما يذكره أنصار الإعجاز العلمي.

التعقيب: اتّفق العلماء أنّ القرآن «كتاب لا تنقضي عجائبه»[(١)]، ولا يزال العلماء يكتبون التفاسير وكل جنس من مؤلفات علوم القرآن لاكتشاف كنوزه. والقول بحجيّة فهم الصحابة لا يلغي ما يفتح الله به على الأجيال التالية، خاصة أنّ هذه التفاسير توسّع المعنى أساسًا ولا يلزم منها خطأ فهم السلف. ومن كلام السلف في هذا قول (بشر بن السري): إنما الآية مثل التمرة، كلما مضغتها استخرجت حلاوتها. والقرآن نفسه يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى

(١) حديث: «كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبّار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه» ضعيف. قال (الترمذي) ـ وقد أخرجه في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (ح/٢٩٠٦) ـ: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ وَفِي الْحَارِثِ مَقَالٌ». ومعنى الحديث صحيح بإجماع أهل العلم.

ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٣]؛ ففي النظر في النفس والآفاق باب لإدراك أنّ القرآن حقٌّ.

اعتراض: خاطب القرآن الصحابة بما يعرفون من العلوم. والقول بغير ذلك طعن في حكمة النص القرآني.

التعقيب: القرآن خطاب للأمة كلّها لا الصحابة فقط. وهو ليس كتابًا في رسم ثقافة العصر، وإنما هو كتاب يهدي إلى الحق. وفي القرآن أخبار لا يمكن ردّها لثقافة العصر، كحديث القرآن عن الأصل الدخاني للكون في بدايته، وهو أمر لم يكن يعرفه الصحابة ولا قومهم عند نزول القرآن.

اعتراض: الكتابات والأبحاث الصادرة في الإعجاز العلمي فيها تكلّف في فهم النص القرآني أو ادعاءات علميّة ينكرها علماء الطبيعيات.

التعقيب: ظاهرة التعسّف والتكلّف في دراسات الإعجاز العلمي لا ينكرها باحث منصف، وهي ظاهرة ملحوظة أيضًا في بعض دراسات التفسير اللغوي والتفسير الفقهي والتفسير التربوي. وواجب أهل العلم تعديل المسير إذا انحرف عن جادة العلم لا إنكار أصل التفسير لفساد في التطبيق.

إنّ الطريق الأعدل في التعامل مع قضية «الإعجاز العلمي» هو أن **نترك القرآن يتحدّث**. . لا أن نكون أوصياء على خبره؛ فإذا جاء في القرآن خبر علمي، وكان على غير جادة المعرفة السائدة في القرون السابقة، وبيّن العلم بعد ذلك صدق الخبر القرآني؛ فعلينا أن نقول: هاهنا إعجاز!

وقد أحسن د. (صلاح عبد الفتاح الخالدي) إذ قال: «وإذا كنّا لا نجيز تفسير الآيات بالنظريّات العلمية فإننا نوجب تفسير الآيات بالحقائق العلميّة، التي استقرّت، وأصبحت حقائق قاطعة، وبدهيات مقرّرة، لا يمكن أن تبطل أو تُنقض، مهما تقدّمت علوم الإنسان ومكتشفاته ومعارفه»[1].

---

(١) صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص٣٩١. ولعلّ الأولى أن يُقال: الحقائق العلمية التي اطمئنّ الباحث المسلم إلى شهادة العلم لها ببراهين قويّة؛ إذ الجدل بين =

تعديل ضروري لمعنى مصطلح: «الإعجاز العلمي»:

التعريف الكلاسيكي للإعجاز العلمي هو: «سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة الى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكن العلوم المكتسبة من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزّل القرآن الكريم»[1].

التعريف السابق ضيّقَ واسعًا، ولم يراع طبيعة الخبر القرآني في بيئته الأولى؛ إذ لا يلزم من القول بالإعجاز العلمي ألا يكون مسبوقًا بذكر نفس الخبر العلمي، وإنما يتحقق هذا الإعجاز في كتاب يقرر أنه حق إلٰهي صرف بثلاثة طرق، **نذكرها من الأَولى إلى الأدنى:**

الطريق الأول: أن يكون القرآن قد سبق الجميع بالخبر العلمي. وهذا وجه لا اعتراض عليه.

الطريق الثاني: أن يكون الخبر العلمي القرآني شاذًّا في بيئته، يستنكره السامع وإن قال به قلّة، أو لا يكون معروفًا أو مشتهرًا في الجزيرة، وإن كان معروفًا خارجها. ووجه الإعجاز هنا يتبيّن من موافقة المرجوح المردود رغم أنّ الأصل في من يدّعي النبوّة زورًا أن يوافق معارف عصره العلمية ولا يشاكسها، خاصة أنّ دعوته لا علاقة لها بتقرير تصورات مادية جديدة للقوانين الكونية.

الطريق الثالث: أن يكون الخبر معروفًا، ولكنه محل خلاف كبير في الثقافات المؤثرة في البيئة العربية (اليهودية والنصرانية واليونانية). ووجه الإعجاز هنا هو موافقة الحق في كلّ القضايا العلميّة الخلافيّة زمن البعثة، في ما كان ظاهرًا، وما كان محلّ تردّد من أهل العصر.

= فلاسفة العلوم في إمكان العلم بالحقائق العلمية القطعية واسع، خاصة بعد ذيوع مذهب (كارل بوبر) (Karl Popper) الذي يقرّر أنّ العلم ينفي ولا يُثبت.

(١) زغلول النجار، قضية الإعجاز العلمي للقرآن وضوابط التعامل معها (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م)، ص٨٦.

طريق النظر في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم = النظر في مخالفات تقريرات القرآن لثقافة العصر العلمية النصرانية/ اليهودية/ اليونانية، معارضة كليّة للمعروف أو موافقة للشاذ المرفوض أو مطابقة للحق المتردَّدِ فيه.

سنقدّم لك في حديثنا التالي بيانات قرآنيّة علميّة تتّسم بالوضوح في لفظها ودلالتها، وسيتبيّن لك وجه الإعجاز فيها بقراءتها في بيئة القرن السابع، خاصة بمقارنتها بالدعاوى العلميّة لأهل الكتاب.

١ ـ تصحيح الأخطاء العلمية:

تضمّن القرآن تقريرات علميّة مخالفة للمستقرّ من المعارف العلميّة زمن البعثة، والمكتسب بعضها من نصوص التوراة والإنجيل. ومن هذه المعارف التي كانت سائدة في الجزيرة العربيّة:

مبدأ الكون:

الحديث في بداية الكون مرتع الخرافات والأوهام في الحضارات القديمة؛ حيث الفصول الأولى للبدايات[١] مجال خصب للحديث الملحميّ عن صولة الآلهة وجرائمها، وتفسير نشأة الأجرام تفسيرًا ساذجًا بدائيًّا.. وقد اقتحم القرآن باب بدايات الكون ـ وقد علِمتَ محاذيره ـ؛ ففتح المجال للناس ليختبروا صدق تقريراته[٢]. وكان الاختبار حرجًا لأسباب، منها:

• علمنا بالثقافة العلميّة الكونيّة السائدة في القرن السابع.

• الفساد الواضح للثقافة العلمية في هذا الباب، بما يمنع التباس الحقّ بالباطل.

---

(١) الحضارات القديمة وأسفارها المقدسة كانت تقول بأزليّة الكون. والمقصود بالبدايات هنا الأحداث الأولى للوجود لا بدء المادة.

(٢) بعد العلم بربانية القرآن، يكون القرآن حجّة على تقريرات العلم لأنه كلمةُ من أنشأ الكون وقوانينه.

• النجاحات العظيمة لعلم الكوسمولوجيا اليوم؛ بما يمنحنا فرصة تبيّن الحقّ من الزور والباطل.

والناظر في مواضيع البدايات، يلحظ إعجاز القرآن في الأخبار الآتية:

أ ـ أصل الكون: ماء أم نار؟

كان الاعتقاد السائد في كثير من الأمم القديمة أنّ أصل الكون ماء؛ فهو التصور المصري القديم وتصوّر حضارات بلاد ما بين النهرين، وهو كذلك قول أعظم فلاسفة اليونان (طاليس)[1] و(أنكسمندر)[2][3]. وهو التصوّر أيضًا الذي تبنّاه النصارى، ويظهر في كتابهم المقدس، ٢ بطرس ٣/ ٥: «السَّمَاوَاتِ كَانَتْ مُنْذُ الْقَدِيم، وَالأَرْضَ بِكَلِمَةِ اللهِ قَائِمَةً **مِنَ الْمَاءِ وَبِالْمَاءِ** εξ υδατος (υδατος και δι).

والأصل المائي للكون ظاهر في الكتاب المقدس حتّى إنّ عددًا من النصارى المحافظين اليوم يحاول الانتصار لهذا المفهوم ـ الذي حسم العلم أمر فساده ـ، ومن هؤلاء الفيزيائي (راسل همفريز)[4] في كتابه (Starlight and time: Solving the puzzle of distant starlight in a young universe) (١٩٩٦م).

العجيب هنا هو أنّ القرآن قد اختار مذهبًا مخالفًا للأسطورة القديمة ببيان أنّ السماء كانت دخانًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا

---

(١) طاليس Thales (٦٢٤ ـ ٥٤٦ ق.م): أحد أعظم عقول اليونان القدماء. عالم رياضيات وفلكي. اعتبره (سقراط) أوّل فلاسفة اليونان. تُنسب إليه «مبرهنة طاليس».

(٢) أنكسمندر Anaximander (٦١٠ ـ ٥٤٦ ق.م): تلميذ (طاليس). فيلسوف وفلكي وعالم رياضيات. من أوّل من نعرف من المفكرين المهتمين بالتفسير العلمي للظواهر الطبيعية. من مؤلفاته: «حول الطبيعة» (Περι φυσεως).

(٣) David Toshio Tsumura, *The Earth and the Waters in Genesis 1 and 2: A Linguistic Investigation* (Sheffield Academic Press, 1989), p.143.

(٤) راسل همفريز Russell Humphreys: فيزيائي أمريكي من أنصار التفسير الحرفي للتوراة، ودعوى الأرض الفتية (أي: أنّ عمر الأرض والكون ٦٠٠٠ سنة فقط). وهو عضو نشط في مؤسسة الأرض الفتية الأمريكية: "Creation Ministries International".

﴿وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصِّلَت: ١١]، والدخان كما نعرفه اليوم هو الآتي من النار، وكذلك كان عند العرب زمن البعثة، ولذلك قال صاحب «لسان العرب» في مادة «دخن»: «والدخان: العثان، دخان النار معروف».

وما جاء به القرآن ـ هنا ـ عجيب؛ لأنّه يسير بصورة مباشرة عكس ثقافة العصر؛ إذ يجعل أصل الكون نارًا لا ماءً!

لِمَ لَمْ يُتابع القرآن ـ المنسوب إلى محمّد ﷺ ـ ثقافة العصر، خاصة أنّ النبيّ ﷺ يسعى إلى استجلاب أهل الكتاب إلى دعوته، ووافق الكثير من قصصهم التاريخي والديني دون حرج؟

لن تجد جواب ذلك إلّا في شهادة العلم المعاصر؛ إذ يخبرك أنّ كوننا قد ظهر إلى الوجود بعد انفجار عظيم حام، وهو المعروف علميًّا «بالانفجار العظيم» (Big Bang)، أو بعبارة الفيزيائي (فرنسيس ب. كسافييه)[1]: «يتّفق جلّ الفيزيائيين والكوسمولوجيين اليوم أنّ الكون من المحتمل أنّه قد تطوّر عن **كرة ناريّة** من المادة مع انفجار أوّلي (الانفجار العظيم)، والكون منذ ذلك الحين في توسّع»[2]. مبدأ الكون ـ إذن ـ انفجارٌ، وما أعقبه هو أثر هذا الانفجار، وهو الدخان.

وفي لقاء للبروفسور (يوشيودي كوزان) ـ مدير مرصد طوكيو ـ مع الشيخ (عبد المجيد الزنداني)، قال: «إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود؛ فكل شيء أمامه مكشوف. إنّ الذي قال هذا القرآن، يرى كل شيء في هذا الكون، فليس هناك شيء قد خفي عليه».

قال الشيخ (الزنداني): سألناه عن الفترة الزمنية التي مرت بها السماء يوم أن كانت في صورة أخرى؛ فأجاب: لقد تضافرت الأدلة وحشدت وأصبحت الآن شيئًا مرئيًّا مشاهدًا. نرى الآن نجومًا في السماء تتكوّن من هذا الدخان الذي هو أصل الكون كما نرى في (هذا الشكل): هذه الصورة حصل

(١) فرنسيس ب. كسافييه Francis P. Xavier: أستاذ الفيزياء في (Loyola College) في الهند.

(٢) Francis P. Xavier, *God of the Atoms* (New Delhi: ISPCK and LIFE, 2006), p.94.

عليها العلماء أخيرًا بعد أن أطلقوا سفن الفضاء. إنها تصور نجمًا من النجوم وهو يتكوّن من الدخان. انظروا إلى الأطراف الحمراء للدخان الذي في بداية الالتهاب والتجمع وإلى الوسط الذي اشتدت به المادة وتكدست فأصبح شيئًا مضيئًا. وهكذا النجوم المضيئة كانت قبل ذلك دخانًا، وكان الكون كله دخانًا».

ثم علّق (كوزان) على من شبّه مادة الكون بالضباب لا الدخان بقوله: إنّ لفظ الضباب لا يتناسب مع وصف هذا الدخان؛ لأن الضباب يكون باردًا، وأما هذا الدخان الكوني فإنّ فيه شيئًا من الحرارة. نعم، الدخان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة. ويكون معتمًا. وهذا وصف الدخان الذي بدأ منه الكون. قبل أن تتكوّن النجوم كان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة وكان معتمًا. قال: وكذلك كان حارًّا؛ فلا يصدق عليه وصف الضباب، بل إنّ أدقّ وصف هو أن نقول: هو دخان.

وهكذا أخذ يفصل فيما عرض عليه من آيات وأخيرًا سألناه: ما رأيك في هذه الظاهرة التي رأيتها بنفسك، العلم يكشف بتقدّمه أسرار الكون؛ فإذا بكثير من هذه الأسرار قد ذكرت في القرآن أو ذكرت في السُّنَّة. هل تظن أنّ هذا القرآن جاء إلى محمد ﷺ من مصدر بشري؟ كما نرى هذه المحاورة معًا.

ردّ البروفيسور (يوشيودي كوزان): «وقبلنا كان هؤلاء الفلكيون المعاصرون يدرسون تلك القطع الصغيرة في السماء. لقد ركزنا مجهودنا لفهم هذه الأجزاء الصغيرة لأننا نستطيع باستخدام التلسكوب أن نرى كل الأجزاء الرئيسية في السماء، ولذلك أعتقد أنه بقراءة القرآن وبإجابة الأسئلة أنني أستطيع أن أجد طريقًا في المستقبل للبحث في الكون»[1].

---

(١) عبد المجيد الزنداني، عن تطابق بعض الكشوف الكونية مع الأخبار القرآنية، (١٧ يناير ٢٠١٣م). الموقع الرسمي لجامعة الإيمان التي يرأسها الشيخ (الزنداني):
<http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?selected_article_no=1510>.

ب ـ الماء أصل الوجود أم أصل الحياة؟

يخبرنا القرآن أنّ الماء أصل الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وبشهادة البيولوجي الملحد (ريتشارد داوكنز)[(١)]: «لا يمكن لحياتنا أن تستمر دون ماء سائل. وفي الحقيقة فإن العلماء المختصّين في البحث عن دليل لوجود الحياة خارج الأرض يفتّشون في السماء ـ بصورة عمليّة ـ عن علامات لوجود ماء»[(٢)].

لم يجعل القرآنُ الماءَ أصل الكون كما الكتاب المقدّس، وإنّما قصر أمره على وجود الحياة؛ إذ إنّ وجود الماء قرينة وجود الحياة؛ فقد أكّدت البحوث العلميّة أنّ الماء عنصر أساسيّ لقيام الأعضاء بوظائفها؛ فهو إمّا وسط، أو عامل مساعد، أو داخل في التفاعلات أو ناتج عنها[(٣)].

ت ـ عمر الأرض:

تتفّق الهيئات العلمية الكبرى على مجموعة من التقريرات التي تمثّل مكاسب عظيمة للعقل العلمي في القرنين العشرين والواحد والعشرين:

- مادة الكون بأرضه وسمائه وجدت في الانفجار العظيم.
- عمر الكون: ١٣,٧ بليون سنة، وعمر الأرض: ٤,٥ بليون سنة.
- تكوّنت الأرض في المدّة الأخيرة من عمر الكون.

والناظر في كتاب الله برويّة يجد تطابقًا مذهلًا مع مكتشفات العلم الحديث، ووجه الإذهال فيه أنه موافق بدقّة لأدقّ الدراسات العلمية الأحدث، وأنّه مخالف بشدّة لما جاء في التوراة والإنجيل.

مادة الكون: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

---

(١) ريتشارد داوكنز Richard Dawkins (١٩٤١م ـ): عالم سلوك الحيوان وبيولوجيا إنجليزي. أشهر رموز تيّار «الإلحاد الجديد». من مؤلفاته: "The God Delusion".

(٢) Richard Dawkins, *The God Delusion* (London: Bantam Press, 2006), p.135.

(٣) محمد محمد الحسيني، في معجزات الماء، سلسلة البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، ١/ ٨١، ٨٢.

فالسماوات والأرض من مادة واحدة، وجدتا أولًا، ثم حدث الانفصال؛ فتميّزت السماء عن الأرض.

عمر الكون والأرض: القراءة البسيطة غير المتكلّفة لآيات الخلق في القرآن تدلّ على **عدد من الأمور**:

• خلق الكون في ستة أيام: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالسماوات والأرض قد خلقتا في ستة أيام، في عبارة محكمة. والأيام هنا مدد من الزمن دون حصر، ولا قرينة على أنّها أيام من أيام الدنيا.

• أيام الخلق متساوية بصورة تامة؛ فقد قال تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ١٠]؛ فهي «سواء»؛ أي: متساوية زمنًا.

• السماء والأرض وجدتا معًا ثم فتقتا.

• الأيام الست في القرآن مقسمة على **الشكل التالي**:

أ ـ خلق الله الأرض في يومين، ومعنى الخلق هنا هو إيجاد المادة الأولى، ثم طبخها في الفرن الكوني: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت: ٩].

ب ـ تسوية السماوات في يومين، وهذا ليس خلقًا لمادة السماوات وإنما تشكيلها على صورة سبع سماوات، وذاك دال أنّ السماء تسبق الأرض في إحكام البناء، وإن تزامن خلق مادة السماء ومادة الأرض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

ت ـ فصل الأرض عن السماء؛ أي: الأجرام التي ستعلوها بعد ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا

مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]. بعد انفصال الأرض عن بقية الكواكب، بَسَطها الله سبحانه، وثبّتها، وذلك في يومين اثنين، وهذا هو سنّ أرضنا، أو قل: «عمرها الجيولوجي» ـ على حد تعبير الفيزيائي (منصور محمد حسب النبي) ـ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠]. فهذه الأيام الأربع تتضمّن اليومين الأوّلين لخلق الأرض، واليومين الآخرين لتثبيت القشرة الأرضية كما هو قول كثير من المفسّرين القدماء والمعاصرين(١). والقرآن يميّز في غير ما موضع بين «خلق» و«قدّر»؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢].

النتيجة: قرآنيًا، العمر الجيولوجي للأرض يساوي ٢/٦ عمر الكون؛ أي: ثلثه ١/٣، ونهايته هي اللحظة التي نعيشها الآن؛ فهو واقع في آخر العمر الكوني لكوننا.

اعتراض: رغم أنّ التفسير الذي قدّمتموه مُؤيَّد بنصوص القرآن، إلا أنّه مخالف لتفسير الصحابة، وأنتم بذلك تتعسّفون في استنطاق النصوص القرآنية لتوافق العلم الحديث!

الجواب: بل تفسيرنا موافق لتفسير الصحابة؛ فهو عين تفسير (ابن عباس) رضي الله عنه لآيات الخلق، ولم نخالفه إلا في مسألة واحدة فقط، وهي قوله: إنّ السماء خلقت بعد الأرض، لا مع الأرض؛ فقد فهم رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١، ١٢] على أنه مخبر بإنشاء السماء بين اليوم الثاني واليوم الثالث(٢) الذي بدأ فيه أمر تسوية السماوات إلى سبع. فقد استشكل رجل آيات ترتيب الخلق؛ فأجابه (ابن عباس) رضي الله عنه قائلًا: «خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في

(١) وهو نفسه قول (ابن عباس) رضي الله عنه ـ في ما أخرجه البخاري ـ ببيان تعلّق اليوم الأول والثاني والخامس والسادس بالأرض.

(٢) العبارة غامضة، فربما قصد (ابن عباس) رضي الله عنه نهاية اليوم الثاني أو بداية اليوم الثالث.

يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد، والآكام وما بينهما في يومين آخرين؛ فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٣٠]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾؛ فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السماوات في يومين»[1]. وبيان فهم (ابن عباس) رضي الله عنه لآيات الخلق في الجدول التالي:

اليوم ١ و٢	بين اليوم ٢ و٣: نهاية الثاني (!) أو بداية الثالث (!)	اليوم ٣ و٤	اليوم ٥ و٦
الأرض	خلق السماء (الدخان)	تسوية الدخان سبع سماوات	تهيئة الأرض للحياة

ما قرّره (ابن عباس) رضي الله عنه هو ظاهر القرآن، غير أنّ قوله: إنّ الله ـ سبحانه ـ قد خلق السماء بعد الأرض، ثم سوّاها سبع سماوات، بعيد؛ فالقرآن تحدّث عن تسوية السماوات في يومين، وليس في هذين اليومين خَلْقُها، والتسوية متأخّرة عن الخلق بداهة؛ فلزم أن يكون خلق السماوات في اليومين السابقين لليوم الثالث والرابع؛ أي: إنّ القرآن قد دلّ على خلق السماوات ضمنًا في اليومين الأوّلين بحديثه عن تسويتها سبع سماوات في المرحلة الثانية من الخلق؛ فالله ـ سبحانه ـ استوى إلى السماء الموجودة أصلًا على هيئة دخان في اليوم الثالث؛ فجعلها على هيئة سبع سماوات في يومين. ولا حجّة للقول: إنّ السماء قد خلقت في آخر اليومين الأوّلين من القرآن؛ إذ ليس في آيات ترتيب الخلق حديث صريح عن مرحلة خلق السماء؛ فيبقى الأمر على إطلاقه، وهو أنّ السماء خلقت في يومي خلق الأرض إلا بقرينة صارفة، ولا قرينة!

اعتراض: فلماذا لم يشر القرآن إلى خلق السماء مع الأرض؟

الجواب: بل أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فقد كانت السمٰوات

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب سورة حم السجدة.

والأرض كتلة واحدة، ثم تم فصلهما عن بعضهما، بالفتق، والفتق ضد الوصل؛ فسوّيت السمٰوات السبع، وهيّئت الأرض للحياة. قال (ابن كثير): «كان الجميع متّصلًا بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر؛ ففتق هذه من هذه؛ فجعل السمٰوات سبعًا، والأرض سبعًا»[1]. وقد صحّ تفسير الآية بفصل السماء عن الأرض عن التابعي الجليل المفسّر (قتادة السدوسي) (توفي ١١٨هـ)، والتابعي الجليل (الحسن البصري) (توفي ١١٠هـ)[2].

ترتيبنا للخلق قرآنيًّا

اليوم ١ و٢	اليوم ٣ و٤	اليوم ٥ و٦
خلق مادة السماوات والأرض	تسوية الدخان سبع سماوات	إنشاء الكرة الأرضية بما فيها
﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾	﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾	تهيئة الأرض بعد خلق السماء: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾. مدة خلق الكرة الأرضية: يومان، بعد حذف يومَي خلق المادة وطبخها بتكوين العناصر الأساسية من مجموع الأيام الأربعة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٥/٣٣٩.

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٦/٢٥٦.

ومن الناحية العلمية، يقدّر علماء ناسا رسميًّا عمر الكون على أنه ١٣,٧ بليون سنة، ويقدر العلماء عمر الأرض بـ٤,٥ بليون سنة[١]. وبحساب سُدسي عمر الكون؛ أي: يومين من حياته إذا قدّرنا أنه ستة أيام، تكون النتيجة بالضبط ٤,٥، بهذه الدقة وهذا الإعجاز![٢].

عمر الأرض بالنسبة إلى الكون علميًّا	عمر الأرض بالنسبة إلى الكون قرآنيًّا
٤,٥ بليون سنة/ ١٣,٧ بليون سنة	يومان/ ٦ أيام
٣/١	٦/٢ = ٣/١

والأمر الذي يقطع أنّ هذا التطابق بين القرآن والعلم ليس صدفة، حقيقة الـمُدَد التي قرّرها القرآن؛ فإنّه يجوز أن يقال: إنّ الأمر صدفة لو كان القرآن قد اختار القول: إنّ الأرض قد خلقت في يوم واحد؛ باعتبار أنّ الأرض شيء واحدٌ، خُلِق في يوم واحد، أو أن تكون مدة خلق الأرض ثلاثة أيام، باعتبار أنّ الكون هو «السماوات والأرض»؛ فللسماوات نصف مدة الخلق الإجمالية، وللأرض النصف الآخر، نصف المدة. وليس في القرآن ذلك!

القمر المضيء:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

قال (ابن عبّاس) رضي الله عنه: «كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾: السواد الذي في القمر»[٣].

---

(١) G. Brent Dalrymple, "The age of the Earth in the twentieth century: a problem (mostly) solved". *Special Publications, Geological Society of London,* 2001, 190 (1): 205-221.

(٢) أوّل من ربط بين المعطى القرآني والمعطى العلمي بهذه الدقة ـ في حدود علمي ـ هو الدكتور (منصور محمد حسب النبي)، علمًا أنه لم يكن متأكدًا من دقة الكشوف الحديثة لعمر الكون، وكان يرى أنّ «معظم الدلائل العلمية تشير الآن إلى أنّ عمر الكون يتراوح بين ١٢ إلى ١٥ مليار سنة، كأرقام معروفة الآن لدى علماء الفيزياء الكونية». (مقال له إلكتروني: الزمن بين العلم والقرآن)، فكيف لو علم مطابقة النص القرآني لكشوف العلم بالدقة المعروفة اليوم؟!

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٤/ ٥١٧.

واليوم يتّفق العلماء أنّ عمر القمر هو نفس عمر الأرض (٤,٥ بليون سنة)، ويذهب عامة العلماء إلى أنّ القمر في بدايته كان ملتهب السطح. يقول عالم الجيولوجيا (داغ ماكدوغال)[١]: «واحدة من أُولى وأهم الاكتشافات من دراسة الصخور التي جيء بها على يد علماء الفلك العاملين في برنامج أبولو هي أنّ كلّ الجزء الخارجي للقمر في بواكير حياته كان مصهورًا، أو بعبارة حرفيّة: بحرًا من الصهارة (magma). الصخور التي من المناطق العليا القديمة في القمر، هي بقايا القشرة التي كُوّنت كمحيط صهاريّ متبرّد ومبلور (crystallized). . . »[٢].

وقد سُئل (عليّ) رضي الله عنه عن السواد الذي في القمر؛ فقال: ذاك آية الليل مُحِيت[٣]. ويقول العلماء اليوم: إنّ المساحات التي تبدو لنا سوداء من الأرض هي أثر عن مناطق كانت ملتهبة، وإنّها طبقات من الحمم المتصلّبة مع تبرّد القمر. والعلم بذلك يشهد لصواب تفسير (عليّ) رضي الله عنه الذي أخذه ـ كما هو ظاهر ـ من الآية ١٢ من سورة الإسراء، علمًا أنّ (غاليليو) لمّا رأى هذه البقع السوداء بالتلسكوب، ظنّها بحيرات[٤]. وتُسمّى اليوم (maria)، وهي كلمة لاتينيّة تعني: «بحارًا»![٥]

نهاية الشمس:

تضمّن القرآن عددًا من الآيات في الإخبار عن خاتمة الأجرام السماويّة، وخاصة الشمس، وهي تتطابق مع ما انتهى إليه العلم في أمر طبيعة موت هذه الأجرام؛ فرغم أنّ الحديث القرآني في ما يكون عند نهاية

---

(١) دو ماكدوغال Doug Macdougall: أستاذ متقاعد من جامعة كاليفورنيا حيث قاد أبحاثًا في الجيوكيميا. من مؤلفاته: "Why Geology Matters: Decoding the Past, Anticipating the Future".

(٢) Doug Macdougall, *Why Geology Matters: Decoding the Past, Anticipating the Future* (Berkeley: University of California Press, 2011), pp.66-67.

(٣) رواه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٤/٥١٦.

(٤) Dinah L. Moché, *Astronomy: A Self-Teaching Guide* (Hoboken, N.J.: John Wiley, 2009), p.264.

(٥) Pierre-Yves Bely, Carol Christian, Jean-René Roy, *A Question and Answer Guide to Astronomy* (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 2010), p.97.

الزمان، إلّا أنّه يتعلّق في نفس الحين بنهاية عمر هذه الأجرام إذا آلت إلى الموت. . والملاحظ في مطابقة العلم الحديث لخبر القرآن، أمران، أوّلهما: دقّة الوصف القرآني، وثانيهما: أنّ القرآن خالف الكتاب المقدس في جلّ هذا الخبر؛ فتفرّد بالسبق العلمي، مع عدم متابعته الكتاب المقدّس على باطله:

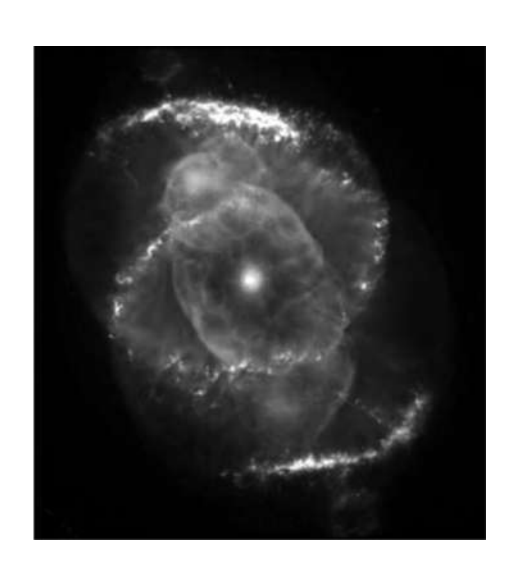
شكل الشمس عند أولى مراحل الموت: صوّر العلماء ما يُعرف بـ«سديم عين القط» (Cat's eye nebula) وهو سديم يتكوّن من نجم يحتضر، وهو بذلك يقدّم المرحلة النهائية لنجم شبيه بشمسنا. ويقول العلماء: إنّهم برؤيتهم خاتمة هذه النجم، بإمكانهم توقّع خاتمة شمسنا[(١)]. والصورة الملتقطة (والواضحة أمامنا) تشبه بصورة بيّنة صورة وردة، أو تحديدًا وردة حمراء. وقد قال السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾ [الرحمن: ٣٧] إنّها وردة حمراء: قال (قتادة): «هي اليوم خضراء، ولونها يومئذٍ الحمرة». قال (الطبري): «يقول تعالى ذكره: فإذا انشقَّت السماء وتفطَّرت، وذلك يوم القيامة؛ فكان لونها لون البرذون الورد الأحمر. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(٢)]. وقد اختلف السلف في معنى «دهان». قال (الطبري): «واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾ فقال بعضهم: معناه كالدهن صافية الحمرة مشرقة. . . . وقال آخرون: عني بذلك: فكانت وردة كالأديم، وقالوا: الدهان: جماع، واحدها دهن»[(٣)]. وكلا الوصفين ثابت في صورة «سديم عين القطّة». وإذا تفجّرت النجوم التي تملأ السماء، صار شكل السماء كأنّ السماء ورود من دهان؛ زيتيّة، حمراء.

---

(١) David L. Clements, *Infrared Astronomy-Seeing the Heat* (Boca Raton: CRC Press, Taylor & Francis Group, 2015), p.101.

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٢/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣) المصدر السابق ٢٢/٢٢٨.



اقتران الشمس والقمر: يقرّر العلماء أنّ الشمس ستتضخّم لتتحوّل إلى «العملاق الأحمر» (red giant) بسبب تحوّل أنوية ذرات الهيدروجين إلى هيليوم بطريق الاندماج النووي، وعندها تقوم الشمس بابتلاع «عطارد» و«الزهرة». ويرى العلماء أنّ هناك احتمالًا أن تبتلع الشمس أيضًا القمر والأرض[١]. وإذا صحّ ذلك؛ فسيكون تفسيرًا لصريح قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: ٧ ـ ٩].

تقلّص الشمس: ينتهي النجم بالتقزّم في ما يُعرف بظاهرة «القزم الأبيض» (white dwarf)؛ إذ ينكفئ على نفسه[٢]. وهو ما يطابق حديث القرآن عن تكوير الأرض: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١]. يقول (الطبري): «والتكوير في كلام العرب: جمع بعض الشيء إلى بعض، وذلك كتكوير العمامة، وهو لفها على الرأس، وكتكوير الكارة، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض، ولفها، وكذلك قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ إنما معناه: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوؤها»[٣].

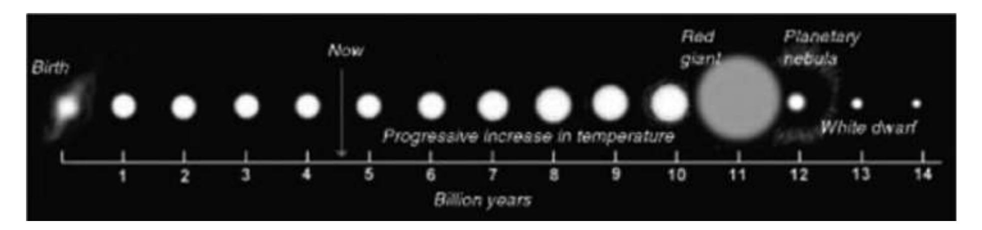
---

(١) Jonathan Weiner, *Planet earth* (Toronto; New York: Bantam Books, 1986), p.306.

(٢) David L. Clements, *Infrared Astronomy-Seeing the Heat* (Boca Raton: CRC Press, Taylor & Francis Group, 2015), p.101.

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٤/ ١٣١.

لوحة تاريخ الشمس[1]



ظلمة الشمس: يقرّر القرآن أنّ الشمس ستفقد إنارتها الذاتية ويطمس ضوؤها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [التكوير: ٢] و﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨﴾ [المرسلات: ٨]. وهذا ما يقرّر العلم بحديثه عن تحوّل الشمس إلى «قزم أسود» (black dwarf) بلا طاقة بعد تبرّد «القزم الأبيض»[2].

يوافق الكتاب المقدس القرآن في أنّ الشمس ستفقد إضاءتها، بأن تسودّ، لكنّه يضيف أنّ القمر سيتحوّل لونه إلى الأحمر القاني، لون الدمّ، على خلاف ظلمة الشمس، وهذا فاسد علميًّا:

يوئيل ٢/ ٣١: «تَتَحَوَّلُ الشَّمْسُ إِلَى ظُلْمَةٍ، وَالْقَمَرُ إِلَى دَمٍ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمُ الْمَخُوفُ».

الرؤيا ٦/ ١٢: «وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّادِسَ، وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ، وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ».

نهاية النجوم:

يخبرنا العهد الجديد أنّ من علامات الساعة وقيامة القيامة سقوط النجوم على الأرض، كما في سفر الرؤيا ٦/ ١٣: «وَنُجُوم السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ كَمَا تَطْرَحُ شَجَرَةُ التِّينِ سُقَاطَهَا إِذَا هَزَّتْهَا رِيحٌ عَظِيمَةٌ». وهذا يعكس تصوّرًا ساذجًا للنجوم كان سائدًا في الثقافات القديمة، وهو أنّ النجوم مجرّد أجرام صغيرة معلّقة في السماء، وهو ما يظهر في الفصل الأول من سفر التكوين ١/

(١) Pierre-Yves Bely, Carol Christian, Jean-René Roy, *A Question and Answer Guide to Astronomy*, p.41

(٢) Peter Coles, *The Routledge Critical Dictionary of the New Cosmology* (New York: Routledge, 1999), p.31.

١٤: «وَقَال اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ».

أمّا القرآن الحافل أكثر من التوراة والإنجيل بذكر علامات يوم القيامة فإنّه لم يذكر النجوم في الحديث عن علامات آخر الزمان ويوم القيامة سوى في آيتين:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ [المرسلات: ٨].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ٢].

وفي كلتا الحالتين يكتفي القرآن بالحديث عن ذهاب ضوء النجوم، دون إشارة إلى سقوطها على الأرض، علمًا أنّ لغة العرب لا تميّز بين ما يُعرف اليوم (بالنجم) الذي يشعّ بطاقة ذاتية، والكوكب (כּוֹכָב) [كوكاب] الذي يعكس إضاءة غيره، ولا تمييز ـ أيضًا ـ في التوراة العبرية.

ومن الملاحظ هنا: القرآن أردف الحديث عن ذهاب ضوء الشمس بقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ١ ـ ٢]. علمًا أنّ الكواكب لم تذكر في خبر آخر الزمان إلا في آية واحدة، وهي: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار: ٢]، وانتثار الكواكب؛ أي: تبعثرها، متعلّق بفوضى الأجرام السماوية يوم القيامة، ومنها اجتماع الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: ٧ ـ ٩].

كروية الأرض:

تضمّن الكتاب المقدس نصوصًا كثيرة تدلّ في مجموعها على ترسّخ اعتقاد أنّ الأرض منبسطة، وأنّ لها أركانًا أربعة، وحواش في نهاياتها:

■ دلّت النصوص في الكتاب المقدس على أنّ الأرض مسطّحة:

* «ثم أخذه إبليس أيضًا إلى قمة جبل عال جدًّا، وأراه جميع ممالك العالم وعظمتها» (متى ٤/٨).. أخذ إبليسُ المسيحَ إلى جبل[1] عال جدًّا تطل

(١) يبدو أنّ مؤلّف إنجيل لوقا قد انتبه إلى نكارة ما أورده مؤلّف إنجيل متّى من وجود جبل يطلّ على =

قمّته على جميع الأرض.. وهذا نظريًّا محال إلا أن تكون الأرض مسطّحة.. ولاحظ عبارة «عالٍ جدًّا» (υψηλον λιαν) للدلالة على أنّ المقصود هو العلو المادي الحقيقي الذي يمكّن صاحبه من أن يطلّ على جميع الأرض!

* «وهذه هي الرؤيا التي شهدتها في منامي: رأيت وإذا بشجرة منتصبة في وسط الأرض ذات ارتفاع عظيم، وقد نمت الشجرة وقويت حتى بلغ ارتفاعها السماء، وبدت للعيان حتى إلى أطراف الأرض» (دانيال ٤/ ١٠ ـ ١١).. ورد في هذه الرؤيا أن شجرة كانت في وسط الأرض(!) ولعظم علوها؛ فقد أطلت على جميع الأرض، حتّى أطرافها، ولا يمنع كونها رؤيا منامية، عكسها لتصوّر بدائيّ لشكل الأرض عند كاتب/ محرّر/ معدّل سفر دانيال!

■ صرح الكتاب المقدس أن للأرض أطرافًا:

* «يا رب عزي وحصني وملجإي في يوم الضيق إليك تأتي الأمم من **أطراف** الأرض..». (إرمياء ١٦/ ١٩).

* «ليمسك **بأطراف** الأرض فينفض الأشرار منها؟» (أيوب ٣٨/ ١٣) (الفاندايك).

* «تحت كل السماوات يطلقها كذا نوره إلى **أطراف** الأرض». (أيوب ٣٧/ ٣).. أَكُرَةٌ ذات أطراف؟![1].

= جميع العالم؛ ولذلك حذف ذكر الجبل، واكتفى بالقول إنّ المسيح قد «أُصعد» (αναγαγων)، لكنّه لم يستطع أن يفلت من الخطأ العلمي في تصوّر وجود مكان من الممكن أن يطلّ منه على جميع البلاد المسكونة، وقد وقع في الزلل العلمي رغم أنّه قد (ضيّق) العرض البصري من «ممالك العالم» (τας βασιλειας του κοσμου) (متّى ٤/ ٨) إلى «الممالك التي يسكنها البشر» (τας βασιλειας της οικουμενης) (لوقا ٤/ ٥)..!

(١) جاء الحديث في القرآن الكريم عن أطراف الأرض: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [الرعد: ٤١ ـ ٤٢]، و﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤٤].. والسياق هنا قاطع في دلالته على أطراف (حواشي) الأرض التي يُمَكَّن فيها أهل الباطل، وأنّها تنقص؛ لاستمرار أهل الكفر في الانحراف عن صراط الحقّ؛ قال (الزمخشري): «ننقص أرض الكفر ودار =

لقد جاءت ترجمة الفولجات دقيقة في ضبط معنى النصّ العبري: (extremis) و(extrema) و(terminos) في الدلالة على الحدود القصوى للأرض التي تمثّل أطرافها!

■ صرح الكتاب المقدس أن للأرض أركانًا أربعة:

«وينصب راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل ومشتتي يهوذا من أربعة **أطراف** الأرض» (إشعياء ١١/ ١٢) .. ثبوت الأطراف الأربعة؛ يثبت هندسيًّا الزوايا الأربع![١]

«وبعد هذا رأيت أربعة ملائكة واقفين على أربع **زوايا** الأرض، ممسكين أربع رياح الأرض لكي لا تهب ريح على الأرض ولا على البحر ولا على شجرة ما». (رؤيا ٧/ ١) (الفاندايك)

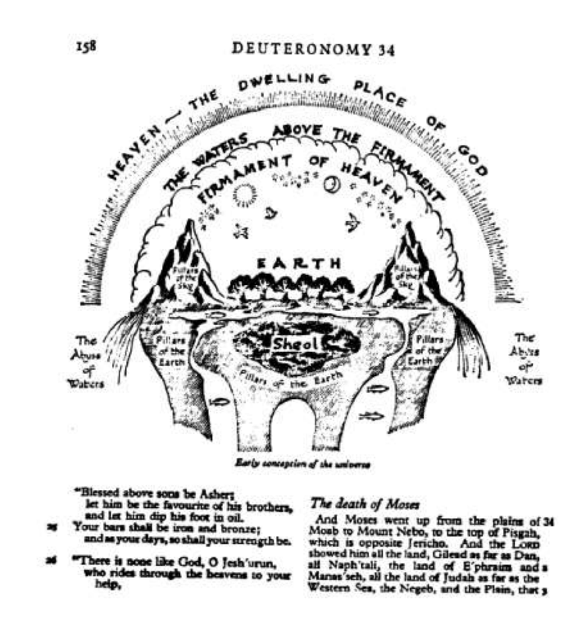
«فيخرج ليضلل الأمم في **زوايا** الأرض الأربع، يأجوج ومأجوج، ويجمعهم للقتال، وعددهم كثير جدًّا كرمل البحر!» (رؤيا ٢٠/ ٨).. كيف تكون الكرة بأطراف أو زوايا؟!!

= الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردّها دار إسلام». (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وفتحي حجازي، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ٤/ ١٤٧)، وقال (سيد قطب): «إنّ يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم، فهي تأتي الأمم القوية الغنية ـ حين تبطر وتكفر وتفسد ـ فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها؛ وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه، ولا بد له من النفاذ». (في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ط٣٤، ٤/ ٢٠٦٥).. وقال (ابن الأعرابي): الطَّرَف والطَّرْف: الرجل الكريم. قال (القشيري): وعلى هذا فالأطراف الأشراف. (أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ٥/ ٣٨٩).. فإذا قلنا: إنّ «أطراف» في الآيتين تعني «حواشي الشيء»؛ يكون المعنى بدلالة السياق: نقصان أرض الكفر، وأمّا إن فهمت كلمة «أطراف» بمعنى «أشراف الناس»؛ كان المعنى هو: هلاك الأشراف.. فليست هناك صلة سياقيّة بين (الأطراف) وحدود الأرض كشكل هندسي مسطّح له نهايات جانبيّة!

(١) اختارت الكثير من الترجمات الإنجليزية كلمة "corners" زوايا كـ: (*The King James Version*) و(*The Amplified Bible*) و(*The American Standard Version*) و(*The Darby Translation*) و(*English Standard Version*)، وهو نفس ما اختارته الترجمة الفرنسية (*La Bible de Semeur*) باعتمادها كلمة: (coins)...

وقد شنّع قديس الكنيسة (يوحنا ذهبي الفم) في تعليقه على الرسالة إلى العبرانيين ١/٨ على القائلين بكروية الأرض، بقوله: «أين هؤلاء الذين يقولون إنّ السماء تدور من حولنا؟ أين هؤلاء الذين يعلنون أنّها كروية؟ **هاتان الفكرتان قد هزمتا هاهنا!**» (Που τοινυν εισιν οι λεγοντεζ δινεισθαι τον ουρανον; που εισιν οι σφαιροειδη αυτον ειναι αποφαινομενοι; αμφοτερα γαρ ταυτα ανηρηται ενταυθα)[١].

صورة الكون كما هي متصوّرة في الكتاب المقدس، كما وردت في ترجمة
(The Revised Standard Version)[٢]


158 DEUTERONOMY 34

Early conception of the universe

"Blessed above sons be Asher;
let him be the favourite of his brothers,
and let him dip his foot in oil.
25 Your bars shall be iron and bronze;
and as your days, so shall your strength be.

26 "There is none like God, O Jesh'urun,
who rides through the heavens to your help,

The death of Moses

And Moses went up from the plains of 34 Moab to Mount Nebo, to the top of Pisgah, which is opposite Jericho. And the LORD showed him all the land, Gilead as far as Dan, all Naph'tali, the land of E'phraim and 2 Manas'seh, all the land of Judah as far as the Western Sea, the Negeb, and the Plain, that 3

جاء التصريح في المقابل بكروية الأرض في القرآن الكريم، ودلّت السُّنَّة الشريفة على نفس الأمر، وأجمع أهل الإسلام منذ القرون الأولى على هذه الحقيقة؛ يقول شيخ الإسلام (ابن تيمية): «ثبت **بالكتاب والسُّنَّة وإجماع** علماء

---

(١) John Chrysostom, '*Homily xiv on Hebrews*,' in *Nicene and Post-Nicene Fathers* (New York: The Christian Literature Company, 1890), 14/433.

(٢) نقله: أحمد عبد الوهاب، الإسلام والأديان الأخرى (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د.ت) ص٢١٣.

الأمة أن الأفلاك مستديرة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

قال (ابن عباس): في فلكة مثل فلكة المغزل. وهكذا هو في لسان العرب: الفلك الشيء المستدير، ومنه يقال: تفلك ثدي الجارية إذا استدار، قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، والتكوير: هو التدوير، ومنه قيل: كار العمامة، وكورها إذا أدارها، ومنه قيل للكرة كرة، وهي الجسم المستدير، ولهذا يقال للأفلاك: كروية الشكل (...) وقال النبي ﷺ للأعرابي الذي قال: إنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. فقال: «**ويحك! إن الله لا يُستشفع به على أحد من خلقه، إن شأنه أعظم من ذلك، إن عرشه على سماواته هكذا**»، وقال بيده مثل القبة: «**وإنه ليئط به أطيط الرحل الجديد براكبه**». رواه أبو داود وغيره من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إذا سألتم الله الجنة؛ فاسألوه الفردوس؛ فإنها أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفها عرش الرحمٰن**»؛ فقد أخبر أن الفردوس هي الأعلى والأوسط، وهذا لا يكون إلا في الصورة المستديرة؛ فأما المربع ونحوه؛ فليس أوسطه أعلاه، بل هو متساوٍ»[١]

وسئل رَحِمَهُ اللهُ عن رجلين تنازعا في «كيفية السماء والأرض» هل هما «جسمان كريان»؟ فقال: أحدهما كريان، وأنكر الآخر هذه المقالة وقال: ليس لها أصل وردها فما الصواب؟ فأجاب: «السمٰوات مستديرة عند علماء المسلمين، وقد **حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام**: مثل أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي أحد الأعيان الكبار من

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٥/١٩٣ ـ ١٩٤.

الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد وله نحو أربعمائة مصنف، وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد ابن حزم وأبو الفرج ابن الجوزي، **وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين**، وذكروا ذلك من **كتاب الله وسُنَّة** رسوله، وبسطوا القول في ذلك **بالدلائل السمعية**، وإن كان قد أقيم على ذلك أيضًا دلائل حسابية»[1].

اعتراض: . . ولكننا نعلم أنّ من علماء اليونان من قال بكروية الأرض قبل ظهور المسيح. فليس ما في القرآن بإعجاز لأنه مسبوق إليه!

الجواب: لقد آمن (أرسطو) وطائفة من أعلام اليونان قبل المسيح بكرويّة الأرض، لكنّ النصارى واليهود لم يأخذوا من اليونان هذا المذهب، بل ازدروه غاية الازدراء، ولا يُعرف عالم بارز من أعلام النصارى قبل البعثة ممن جزم بكروية الأرض[2]، والمشهور من الكبراء الجزم بتسطيحها؛ فهو قول (ترتليان)[3] (توفي ٢٢٠م) و(كلمنت السكندري)[4] (توفي ٢١٥م) و(لكتانتيوس)[5] (توفي ٣٢٥م)، وقديس الكنيسة (أثناسيوس) (توفي٣٧٣م)، والأسقف (ديودر الطرسوسي)[6]، و(سفريان الجبلي)[7] وهو قول جميع الآباء السريان الذين كان لهم صوت مسموع بين نصارى الجزيرة العربية. . وقد سُمع

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٦/ ٥٨٦.

(٢) قلّة من الآباء توقّفت في ذلك، ولم تحسم القول باختيار مذهب.

(٣) ترتليان: (١٦٠ ـ ٢٢٠م) من أوائل اللاهوتيين النصارى. عرف باهتمامه بالدفاع عن النصرانية والردّ على من اعتبرهم (هراطقة). يعتبر أحد المراجع اللاهوتية الكبرى للكنائس التقليديّة. يلقّبه الكثير من أعلام النصارى الأرثودكس المصريين بـ(العلّامة).

(٤) كلمنت السكندري Clement of Alexandria (١٥٠ ـ ٢١٥م): أحد آباء الكنيسة ولاهوتييها الأوائل الكبار. تأثّر بالفلسفة اليونانية بصورة واضحة.

(٥) لكتانتيوس Lactantius (٢٥٠ ـ ٣٢٥م): أوّل مستشار نصراني لإمبراطور روماني. سخر من القول بكروية الأرض بلغة حادة في كتابه: "Divinae Institutiones ".

(٦) ديودر الطرسوسي Diodore of Tarsus (ـ ٣٩٠م): لاهوتي. أحد أهم شخصيات مجمع القسطنطينية. كان له أثر علمي كبير في زمانه.

(٧) سفريان الجبلي Severian of Gabala (٣٨٠ ـ ٤٠٨م): أسقف جبلة في سوريا. معروف بانتمائه للمدرسة الحرفية في التفسير.

أقوى صوت ضد كروية الأرض في العالم النصراني في نفس القرن الذي ولد فيه نبي الإسلام، حيث أكّد (كوسماس إندكوبلوستيس)[1] في كتابه «الطبوغرافيا المسيحيّة» أنّ الأرض في الكتاب المقدس مسطحة.

صورة الأرض عند (كوسماس)



وسبب ذلك وضوح مذهب تسطيح الأرض في العهدين القديم والجديد[2]. فالقرآن إذن قد «ظهر» في القرن السابع في **بيئة** لا تعرف القول بكروية الأرض أو تزدريه غاية الازدراء؛ إذ لم يقل به اليهود وحاربه النصارى.

اعتراض: . . لكنّ القرآن يقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠]؛ فالأرض بذلك منبسطة لأنّها قد سُطحت!

---

(١) كوسماس إندكوبلوستيس Cosmas Indicopleustes: رحّالة سافر إلى الهند أكثر من مرّة. من أهم الذين رسموا خرائط للعالم.

(٢) David Presutta, *The Biblical Cosmos Versus Modern Cosmology: Why the Bible Is Not the Word of God* (Coral Springs, FL: Llumina Press, 2007), pp.98-126.

الجواب: الأرض التي نمشي عليها منبسطة حقيقية، ولولا ذلك لما طاب العيش فيها؛ فتسطيحها هو ما نراه ونحن نمشي عليها، وأمّا الكروية فوصف لكامل جُرم الأرض؛ فلا تعارض.. بل البسط هنا حجّة للكرويّة. قال (الرازي) ـ المتوفى منذ أكثر ثمانية قرون ـ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾: «سطحًا بتمهيد وتوطئة؛ فهي مهاد للمتقلّب عليها. ومن الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة وهو ضعيف؛ لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة يكون **كل قطعة منها كالسطح**»[1].

أعمدة السماء:

تعتبر الجبال في الكتاب المقدس أعمدة تحمل قبّة السماء حتى لا تقع على الأرض كما هو ظاهر في الصورة السابقة التي أوردتها ترجمة (The Revised Standard Version)، وهو نفس الاعتقاد الذي كان شائعًا في الأدبيات المصريّة القديمة والأكاديّة واليونانيّة...[2] أهمّ النصوص الكتابيّة الدالة على هذا الأمر ما جاء في سفر أيوب ٢٦/١١: «من زجره ترتعش أعمدة السماء وترتعد من تقريعه». ويقول التعليق على الكتاب المقدس (Eerdmans Commentary on the Bible) في هذا النص: «أعمدة السماء في العدد ١١ هي الجبال التي تحمل السماء»[3].

لا نجد البتّة في القرآن الكريم حديثًا عن دور الجبال في إمساك السماء، رغم وفرة الآيات التي تصف الجبال ووظائفها، وإنّما نجد في القرآن الكريم نفيًا لوجود أعمدة ماديّة تمسك السماء: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]، وأبلغ من ذلك جعل وظيفة الجبال أن تكون راسية فلا تميد.

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ٣١/١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) انظر التفصيل:

http://www.bibleandscience.com/bible/books/genesis/genesis1-pillarsheaven.htm (1/5/2010)

(٣) James D. G. Dunn and J. W. Rogerson eds. *Eerdmans Commentary on the Bible* (Michigan: W.B. Eerdmans, 2003), p.348.

الجبال:

يقرّر الكتاب المقدس أنّ الأرض قائمة على جبال تحملها من تحتها؛ فقد جاء في ١ صموئيل ٢/٨: «ينهض المسكين من التراب، ويرفع البائس من كومة الرماد، ليجلسه مع النبلاء، ويملكه عرش المجد؛ لأن للرب أساسات الأرض التي أرسى عليها المسكونة».

ولما وصف النبي (يونان) غرقه قال: «قَدِ اكْتَنَفَتْنِي مِيَاهٌ إِلَى النَّفْسِ. أَحَاطَ بِي غَمْرٌ. الْتَفَّ عُشْبُ الْبَحْرِ بِرَأْسِي. نَزَلْتُ إِلَى **أَسَافِلِ** الْجِبَالِ. مَغَالِيقُ الأَرْضِ عَلَيَّ إِلَى الأَبَدِ. ثُمَّ أَصْعَدْتَ مِنَ الْوَهْدَةِ حَيَاتِي أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهِي». (يونان ٢/ ٥ ـ ٦).. لقد وجد (يونان) نفسه تحت «أسافل» (קצבים) [قصبيم] ـ جمع «قاع» «أسفل» (קצב) [قصب][1] ـ الجبال؛ فالجبال هي مجرّد نتوء على وجه الأرض، وبإمكان المرء أن يرى قاع الجبل من البحر، إذ الأرض قائمة على المياه؛ فقد جاء في مزمور ١٣٦/٦: «الباسط الأرض فوق المياه؛ لأن رحمته إلى الأبد تدوم». ومزمور ٢٤/١ ـ ٢: «للرب الأرض وكل ما فيها. له العالم، وجميع الساكنين فيه؛ لأنه هو أسس الأرض على البحار، وثبتها على الأنهار».

وقد علّق الناقد (جوليوس أ. بور)[2] على نصّ يونان ٢/٦ بقوله: «**اعتقد اليهود أنّ الأرض مؤسّسة على محيط مائي أسفلها، المزمور ٢٤/ ٢، وأنّ نهايات الجبال، أعمدة الأرض، تمتد عمقًا إلى الأسس. انظر: مزمور ١٨/ ١٦**»[3].

الجبال في القرآن الكريم ليست أعمدة للسماء، وإنّما هي تمسك نفسها حتى لا تضطرب أو تميد:

---

(١) عرّفها المعجمي (ويليم جزنيوس) في هذا السياق بـ«نهاية» «أسفل»
William Gesenius, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament*, tr. Edward Robinson, ed. Francis Brown, Oxford: Clarendon Press, 1907, p.891.

(٢) جوليوس أ. بور Julius A. Bewer: أستاذ الفيلولوجيا الكتابيّة في (*Union Theological Seminary*) بنيويورك.

(٣) Julius A. Bewer, *A critical and Exegetical Commentary on Haggai, Zechariah, Malachi and Jonah, A Critical and Exegetical Commentary on Jonah* (New York: Charles Scribner, 1912), p.46.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٦، ٧].
﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦].
وهنا:

١ ـ وصف القرآن الكريم الجبال أنّها مثل الوتد، والوتد قطعة من الخشب أو الحديد تغرز في الأرض لتشدّ نفسها، ويكون جزؤها الأكبر مخفيًا تحت الأرض. فالوتد في (لسان العرب) هو: «ما رُزّ في الحائط أو الأرض من الخشب والجمع أوتاد».

يشهد العلم الحديث اليوم على دقّة هذا الوصف العجيب للجبال، والذي لم يُعرف إلا في الزمن المتأخر بعد دراسات جادة من العلماء المتخصصين؛ حتىّ قال الجيولوجي (سيمون لامب): «كان اكتشاف أنّ للسلاسل الجبليّة جذورًا عميقة [في الأرض] **واحدًا من أكبر الاكتشافات الجيولوجيّة في القرن التاسع عشر وبداية العشرين**»[(١)].

٢ ـ بيّن القرآن الكريم وظيفة الأوتاد، وهي حفظ نفسها من أن تميد[(٢)]. فالأصل في الوتد أن ينغرز في شيء ثابت فيثبّت نفسه أصالة، وقد يُثبّت غيره تبعًا[(٣)]. ولذلك فوتد الخيمة هو ما يشدّ نفسه أصالة، وهو المعنى الأوّلي

---

(١) Robert Dinwiddie; Simon Lamb and Ross Reynolds, *Violent Earth* (London; New York: DK, 2011), p.46.

(٢) الثابت علميًّا هو ما ذكرناه، وليس أنّ الجبال تثبّت الأرض.. ورغم تكرّر القول: إنّ العلم قد أثبت أنّ الجبال تثبّت القشرة الأرضيّة حتى لا تميد، إلا أنّ ذلك لم يثبت إلى الآن، ولعلّه ـ كما أخبرني ذلك أحد كبار علماء الجيولوجيا الغربيين ـ لا سبيل لأن يثبت مستقبلًا؛ لأنّ الجبال صغيرة جدًّا مقارنة بمساحة القشرة الأرضيّة.

(٣) وفي مصنّف ابن أبي شيبة بسنده عن عمرو بن ميمون: أوتد له وتد في حائط المسجد وكان إذا سئم من القيام في الصلاة أو شق عليه أمسك بالوتد يعتمد عليه.

فالوتد في الأثر السابق هو شيء صلب ثبت في الحائط فانغرز فيه، وليس هو لتثبيت شيء آخر؛ فمطلق المغروز في الحائط أو الأرض هو وتد. وفي شعب الإيمان للبيهقي بسنده عن أبي رافع قال: «وتّد فرعون لامرأته أربعة أوتاد ثم حمل على بطنها رحى عظيمة حتى ماتت». وأخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قصة قتل أبي رافع اليهودي: «... فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد». قال ابن حجر: «مسمرة على الباب فكيف تعلق على الوتد؟ قلت: يراد بها الأقاليد»، والأقاليد في لغة العرب: «المفاتيح».

الشاهد من الأثرين السابقين هو أنّ «الوتد» فيهما هو خشب مغروز في الأرض أو في الباب =

المقصود من كلمة «وتد». وقد اكتشف العلماء هذه الحقيقة على يد الفلكي (جورج إيري)[1] الذي بيّن أنّ الجبال تطفو على قشرة العليا للأرض، وتثبّت نفسها بانغراز جذرها الطويل في طبقة الوشاج بصورة تتناسب طرديًّا مع علوّها فوق قشرة الأرض، وهو ما يُعرف علميًّا بـ(isostasy)[2].

٣ ـ أظهر القرآن الكريم أنّ باطن الأرض يحمل طبيعة مضطربة غير ساكنة، قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك: ١٦]. والمور: «مار الشيء يمور مورًا: ترهيأ أي تحرّك وجاء وذهب كما تتكفأ النخلة العيدانة»[3].

المادة التي تحت القشرة الأرضية (crust) هي إذن ذات طبيعة لينة؛ فلو وضع عليها شيء غير راسٍ (لرقّة حجمه) فإنّه (أي: ما يوضع فوق الطبقة الدنيا) سيتحرّك ويضطرب ولن يستقر. والعلم قاطع اليوم في تصديق هذا الوصف العلمي الدقيق؛ فإنّ طبقة (الدثار) (mantle) التي تلي قشرة الأرض مباشرة من الأسفل موصوفة بأنّها أشبه بالسائل اللزج (viscous fluid)، لكنها لزوجة مرنة (elastic)، وبعيدة عن السيلان.

وفي المقابل، يفهم من التوراة أنّ الأرض راسية على الماء، وتمنعها الأعمدة السفلية من الغرق، وهو ما يكذّبه العلم! فالدّثار ليس سائلًا، وليس هو ماء ابتداء إذ هو طبقة تبلغ ثخانتها ٢٨٨٦ كيلومتر[4] تمثّل ٨٤٪ من حجم الكرة الأرضية، وتقع فوقها القشرة الأرضية التي لا يزيد حجمها على عشرات

= أو الجدار. وهو نفس المعنى لكلمة «يتد» (יתד) العبرية (كل ياء في عين الجذر العبري تقابلها واو في اللغة العربية).

(١) جورج بيدل إيري George Biddell Airy (١٨٠١ ـ ١٨٩٢م): عالم رياضيات وفلك وفيزياء بريطاني. شغل المنصب الرفيع في زمانه: "Astronomer Royal". طوّر عدة نظريات علميّة.

(٢) A.B. Watts, I*sostasy and flexure of the lithosphere* (Cambridge Univ. Press., 2001).

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (مور).

(٤) Sorokhtin, O.G.; Chilingarian, *Evolution of Earth and its climate birth, life and death of Earth* (Amsterdam: Elsevier Science Ltd, 2011), p. 137.

الكيلومترات. وتبلغ حرارة الجزء الملاصق للقشرة حدود ١٥٠٠ درجة، وهي الأقل بالنسبة لما تحتها. وهو مادة مرنة وتتكون من الألوفين وأحجار مماثلة لها، وهي بذلك أبعد شيء عن «الماء».

تكوّن الجنين من دم الحيض:

جاء في سفر الحكمة[١] ٢/٧: «وفي مدة عشرة أشهر تكوّنت في **الدم** من زرع رجل ومن اللذة التي تصاحب النوم».

المقصود هنا: هو أنّ مني الرجل عندما يلتقي بدم الحيض عند المرأة يحوله إلى كيان صلب متخثّر، ويشهد على ذلك النص السابق من سفر الحكمة ٢/٧، وهو المعنى الطبي الذي كان سائدًا في البيئة التي كتب فيها هذا السفر؛ ولذلك جاء تعليق ترجمة أورشليم للكتاب المقدس على هذا النص ـ وقد تبنّته ترجمة الرهبانيّة اليسوعيّة العربيّة ـ: «كان العلم الطبي القديم يتصوّر تكوّن الجنين كتجمّد دم الأم بتأثير عنصر الزرع»[٢]. (La science médicale antique se représentait la formation de l'embryon comme une coagulation du sang maternel sous l'influence de l'élément séminal)[٣].

وقد أكّد (ترتليان) المعنى السابق بقوله في كتابه «حول جسد المسيح» أنّ الزرع الذي يتكوّن منه الجنين ليس إلّا دمًا ولونًا، ويتخثّر هذا الدم بفعل منيّ الرجل[٤]. وهو ما أكّده أيضًا (كلمنت السكندري) في نفس القرن في كتابه (Προτρεπτικος προς Ελληνας) حيث ذكر المثال الأرسطي لتخثّر الحليب.

وجاء في سفر أيوب ١٠/٩ ـ ١١:

---

(١) سفر الحكمة: يؤمن بقداسته النصارى الكاثوليك والنصارى الأرثوذكس ويرفضه البروتستانت.

(٢) ترجمة الرهبانيّة اليسوعيّة، ص١٠٦٥.

(٣) *La Bible de Jerusalem*, (Cerf, 1973), p.664.

(٤) *De Carne Christi*. 19. 3.

<table>
<tr>
<td>أُذْكُر أَنَّكَ جَبَلْتَنِي كَالطِّينِ، أَفَتُعِيدُنِي إِلَى التُّرَابِ؟ أَلَمْ تَصُبَّنِي كَاللَّبَنِ، وَخَثَّرْتَنِي كَالْجُبْنِ؟ كَسَوْتَنِي جِلْدًا وَلَحْمًا؛ فَنَسَجْتَنِي بِعِظَامٍ وَعَصَبٍ.</td>
<td>זְכָרְנָא כִּיכַחֹמֶר עֲשִׂיתָנִי וְאֶלעָפָר תְּשִׁיבֵנִי הֲלֹא כֶחָלָב תַּתִּיכֵנִי וְכַגְּבִנָּה תַּקְפִּיאֵנִי הֲלֹא כֶחָלָב תַּתִּיכֵנִי וְכַגְּבִנָּה תַּקְפִּיאֵנִי</td>
</tr>
</table>

هذا هو النصّ المفضّل عند آباء الكنيسة لشرح تكوّن الجنين(١)، وقد لخّص الناقد «نورمن هابل»(٢) معناه بقوله: «شُكّل الجنين من الطين، صُبّ المني كالحليب، وجُمّد كالجبن، كسي بالجلد واللحم، وأخيرًا نُسِج بالعظام والأعصاب»(٣).

وجاء في (مدراش اللاويين ١٤/٩) الذي يعود إلى زمن البعثة، تعليقًا على أيوب ١٠/٩ ـ ١١: «عندما يمتلئ رَحِمُ المرأة بالدم المحتفظ به والذي يتقدّم إلى موضع حيضها، تأتي قطرة من مادة بيضاء بإذن الربّ فتقع عليه: وينشأ الجنين بذلك فورًا. ومن الممكن مقارنة ذلك بحليب يوضع في وعاء؛ فإذا أضفت إليه بعض المخمّرات تخثّر وتجمّد، وإلّا بقي الحليب سائلًا».

وقد هيمن هذا الاعتقاد على الطب اليهودي والنصراني واليوناني والهندوسي، وكان الاتّفاق بينهم حاصلًا على أنّ دم الحيض أساسيّ في تكوين الجنين؛ حتّى إنّ شرّاح أرسطو من المسلمين تبنّوا هذا الرأي(٤)، ولعلّ الإجماع على هذا القول سببه توقّف الحيض حين الحمل، مما يلزم منه برأي أهل تلك القرون أن يكون عنصرًا في نشأة الجنين.

وجاء في إنجيل يوحنا ١/١٣:

---

(١) انظر هامش:

Ante Nicene Fathers, (Buffalo: The Christian Literature Publishing Company, 1887), 3/538.

(٢) نورمن هابل Norman Habel (ولد سنة ١٩٦٤م): أستاذ في جامعة جنوب أستراليا، محرّر كتاب "The Earth Bible"

(٣) Norman Habel, *The Book of Job: a commentary* (Philadelphia: Westminster John Knox Press, 1985), p.119.

(٤) Samuel S. Kottek, "Embryology in Talmudic and Midrashic Literature" in *Journal of the History of Biology*, Vol. 14, No. 2 (Autumn, 1981), p.301.

οι ουκ εξ αιματων ουδε εκ θεληματος σαρκος ουδε εκ θεληματος ανδρος αλλ εκ θεου εγεννηθησαν	الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ، بَلْ مِنَ اللهِ.

الكلمة اليونانية الأصل هي «دماء» (αιματων) [هايمتون] في الجمع.

في المقابل:

• قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

• قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨].

• قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٩].

• قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

• قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

النصوص السابقة، تخالف منصوص الكتاب المقدس النصراني ومفهومه، وما أجمع عليه العصر بزعم أنّ الجنين يتكوّن من دم المرأة وماء الرجل، أو دم المرأة وماء الزوجين؛ إذ الجنين في القرآن والسُّنَّة يتكوّن ـ فقط ـ من نطفتَي الرجل والمرأة؛ فهو «نطفة أمشاج»؛ أي: نتيجة اختلاط النطفتين.

ومن العجيب أنّ الفهم اليهوديّ ـ النصرانيّ ـ الأرسطيّ قد بقي مهيمنًا على الساحة العلميّة حتّى قرون بعد البعثة في بلاد المسلمين؛ حتّى قال الإمام (ابن حجر) (توفي ٨٥٢هـ): «**وزعم كثير من أهل التشريح** أنّ مني الرجل لا أثر له في الولد إلّا في عقده، وأنّه إنّما يتكوّن من دم الحيض، وأحاديث

الباب (أي: الموضوع) تُبطل ذلك»[1].

استثناء دم الحيض من نشأة الجنين هو تقرير علمي قرآني مخالف بصورة كليّة لثقافة عصر التنزّل ومطابق بصورة مفاجئة لحقائق العلم.

السحب الصلبة والماء العلوي:

جاء في سفر أيوب ٢٦/٨: « يصرّ المياه في سحبه فلا يتخرق الغيم تحتها» .

جاء في شرح النص السابق في التعليق على الكتاب المقدس (Eerdmans Commentary on the Bible): «اعتُبرت السحب هنا كالسِّقاء (waterskin) الذي يحمل في داخله الماء، وبصورة خارقة لم يتمزّق»[2]. فالسحب عند كاتب هذا السفر تختزن الماء في داخلها كما يختزن السقاء المصنوع من جلد الحيوانات الماء، ثم تحمله إلى مسافات بعيدة دون أن يسقط منه شيء، بصورة معجزة. . !

ويؤكد الحبر اليهودي العَلَم (راشي) هذا المعنى في تعليقه على هذا النص بقوله عن الغيم: إنّه لا يتمزّق «أبدًا حتّى ينزل ماؤه جميعًا مع بعض» (מעולם שיפלו מימיו ביחד).

ويقرّر التلمود أنّ السحب ليست سوى أوعية للماء النازل من فوق السماء. يقول (أبراهام كوهن)[3] في شرح التصوّر التلمودي عن السحب ـ أو على الأقل أحد التفسيرات العلميّة له ـ بعد ذكر النصوص التلموديّة: «وهكذا

(١) ابن حجر، فتح الباري ١١/ ٤٨٠.

(٢) James D. G. Dunn and J. W. Rogerson eds., *Eerdmans Commentary on the Bible*, p.348.

(٣) أبراهام كوهن Abraham Cohen (١٨٨٧ ـ ١٩٥٧م): ناقد يهودي بريطاني. شارك في ترجمة التلمود والمدراشات.

كان يُعتقد أنّ السُّحب أوعية فارغة، وأنّ الماء يُصبّ فيها من السماء»[١].

في مقابل هذا التصوّر البدائي الساذج لطبيعة السحب، يقرر القرآن الكريم أنّ السحب تُنزل الماء مباشرة بعد تكوّنهِ فيها، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣]. يكشف استعمال حرف الفاء الذي يدل على التعاقب السريع، أنّه ما إن تتراكم السحب وتصبح ذات طبيعة ماطرة حتى ينزل (الودق)؛ أي: المطر؛ فأصل ماء المطر من السحاب، وليس من ماء فوقها![٢].

الندى النازل من السماء:

جاء في مزمور ١٣٣/٣: «مِثْلُ نَدَى حَرْمُونَ **النَّازِلِ** عَلَى جَبَلِ صِهْيَوْنَ؛ لأَنَّهُ هُنَاكَ أَمَرَ الرَّبُّ بِالْبَرَكَةِ، حَيَاةٍ إِلَى الأَبَدِ».

يقدّم لنا نص المزمور دعوى علمية تقول: إنّ الندى ينزل على الجبال؛ إذ الظن القديم هو أنّ الندى ينزل من فوق كنزول المطر؛ فكلاهما ماء، في حين أنّ الحقيقة العلمية تخبرنا أنّ الندى ليس ماءً نازلًا من السماء وإنّما هو أثر عن ملامسة بخار الماء لسطح بارد حرارته أدنى من الصفر، كما نراه أحيانًا على النوافذ البلوريّة للبيوت، وعلى السيارات في الصباح.

وقد كان الاعتقاد منذ القديم أنّ الندى ينزل من السماء، ومن ذلك ما جاء في كتاب «عن الكون» (Περι Κοσμου)، والذي ألّف في القرن الثالث قبل الميلاد (وينسب إلى أرسطو)[٣].

كلمة «ندى» في الأصل العبري لمزمور ١٣٣/٣ هي (טַל) [طَلْ]، وقد استعملت نفس الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ

---

(١) Abraham Cohen, *Everyman's Talmud: The Major Teachings of the Rabbinic Sages* (Shocken Books, 1949), pp.38-39.

(٢) قال الشيخ المفسّر (ابن عاشور): «وأكثر المفسرين على أن الودق هو المطر، وهو الذي اقتصرت عليه دواوين اللغة». (التحرير والتنوير ٩/٢٦١).

(٣) E. S.Forster, *De Mundo* (Oxford: Clarendon, 1914) , chap.3.

مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].
وقد فسّر عدد من المتقدّمين، كـ(ابن عباس) و(ابن جريج) و(السدي) «طل» في الآية بمعنى: الندى[١]. وهو أيضًا قول عكرمة[٢]. والملاحظ في الآية أنّها لا تذكر «النزول» وإنما تتحدث عن «إصابة» المطر والطل الأرض العالية، وهي بذلك نصٌّ خلوٌ من الخطأ العلمي الوارد في المزمور.

نشأة اللغات:

يفسّر الكتاب المقدّس تعدد لغات البشر، تفسيرًا خرافيًّا بقوله: «وَكَانَ أَهْلُ الأَرْضِ جَمِيعًا يَتَكَلَّمُونَ أَوَّلًا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ وَلُغَةٍ وَاحِدَةٍ. وَإِذِ ارْتَحَلُوا شَرْقًا وَجَدُوا سَهْلًا فِي أَرْضِ شِنْعَارَ فَاسْتَوْطَنُوا هُنَاكَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَيَّا نَصْنَعُ طُوبًا مَشْوِيًّا أَحْسَنَ شَيٍّ. فَاسْتَبْدَلُوا الْحِجَارَةَ بِالطُّوبِ، وَالطِّينَ بِالزِّفْتِ. ثُمَّ قَالُوا: هَيَّا نُشَيِّدْ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا يَبْلُغُ رَأْسُهُ السَّمَاءَ؛ فَنُخَلِّدَ لَنَا اسْمًا لِئَلَّا نَتَشَتَّتَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ كُلِّهَا.. وَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَشْهَدَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ شَرَعَ بَنُو الْبَشَرِ فِي بِنَائِهِمَا. فَقَالَ الرَّبُّ: إِنْ كَانُوا، كَشَعْبٍ وَاحِدٍ يَنْطِقُونَ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، قَدْ عَمِلُوا هَذَا مُنْذُ أَوَّلِ الأَمْرِ؛ فَلَنْ يَمْتَنِعَ إِذًا عَلَيْهِمْ أَيُّ شَيْءٍ عَزَمُوا عَلَى فِعْلِهِ. هَيَّا نَنْزِلْ إِلَيْهِمْ وَنُبَلْبِلْ لِسَانَهُمْ، حَتَّى لَا يَفْهَمَ بَعْضُهُمْ كَلامَ بَعْضٍ. وَهَكَذَا شَتَّتَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ كُلِّهَا؛ فَكَفُّوا عَنْ بِنَاءِ الْمَدِينَةِ، لِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْمَدِينَةُ بَابِلَ لأَنَّ الرَّبَّ بَلْبَلَ لِسَانَ أَهْلِ كُلِّ الأَرْضِ، وَبِالتَّالِي شَتَّتَهُمْ مِنْ هُنَاكَ فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ كُلِّهَا». (تكوين ١١/١ ـ ٩).

وهنا:

- تصوّر شنيع لصفات الخالق سبحانه: تظهر هذه القصّة الخرافيّة الإلٰه المعبود في مقام من يخشى أن يبلغ خلقه مرتبته في القوّة والسلطان إن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٤/٦٧٦.
(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب الرياء في الصدقة.

اجتمعوا واتّحدوا وقَوِيت بيضتهم. . وهذا تصوّر منكَر للألوهيّة قريب ممّا كان يرد في الأساطير اليونانيّة والشرقيّة حيث الحسد والصراع بين الآلهة فيما بينها، أو بين الآلهة والبشر!

- الفهم الخاطئ لمعنى اسم مدينة «بابل»: كلمة «بابل» (**בבל**) ليست من «بلل» (**בלל**) العبريّة ـ التي هي اختزال لكلمة «بلبل» (**בלבל**) العبريّة[1] ـ بمعنى «بلبل» و«مزج»، وإنّما هي تعني «باب إل» أي «باب الربّ»؛ وكما يقول (جرهارد فون راد)[2]: «هذا التفسير لكلمة «بابل» هو بداهة لا معنى له إتيمولوجيًّا، إنّه **اختلاق شعبي**؛ إذ إنّ بابل تعني «باب الله»[3]، وقد كان الاسم في الأكاديّة «باب إلو» بنفس المعنى السابق، قبل أن يسيء مؤلّف سفر التكوين فهمه، أو يزيّف معناه!»[4].

يقول الناقد (حسن ظاظا)[5]: «وقد **اتفق كل** الباحثين المحدثين، في أوروبا المسيحيّة، وفي الأوساط اليهوديّة المستنيرة، على اعتبار هذه القصّة **أسطورة شعبيّة** لا تحكي واقعًا تاريخيًّا بقدر ما تلتمس تعليلًا فنيًّا لاختلاف الألسنة واللغات. فالسير جيمس جورج فريزر يفرد لها فصلًا كاملًا في كتابه الكبير «الفلكلور في العهد القديم»؛ فيتتبع بالنقد والتحليل تطور هذه الأسطورة منذ الوثنيات القديمة، ويقول: إن العلاقة اللغوية بين أمم بابل وبين بلبلة الألسن ليست إلا من الخيال الشعبي، إذ إن الثابت علميًّا أن كلمة بابل أصلها في اللغة البابلية نفسها (باب ـ إلو)، ومعناها: باب الله، أو باب الآلهة؛ لأنّ

---

(١) George James Spurrell, *Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis*, p.118.

(٢) جرهارد فون راد Gerhard Von Rad (١٩٠١ ـ ١٩٧١م): لاهوتي ألماني. درّس العهد القديم في عدد من الجامعات الألمانية والأمريكية. من مؤلفاته: "Old Testament Theology".

(٣) Gerhard Von Rad, *Genesis: A Commentary* (Philadelphia: Westminster John Knox Press, 1972, 3rd edition), p. 150.

(٤) William Ricketts Cooper, *An Archaic Dictionary* (London: S. Bagster and Sons, 1876), p.116.

(٥) حسن ظاظا (١٣٣٧ ـ ١٤٢٠هـ/ ١٩١٩ ـ ١٩٩٩م): من أعلام المتخصصين العرب في الدراسات اليهوديّة. حصل على الماجستير في الأدب العبري والفكر اليهودي من الجامعة العبرية بالقدس في فلسطين، ودكتوراه الدولة من جامعة السربون. له عدد من الكتب والمقالات في اليهوديّة واللغات ونشأتها.

بابل كانت مدينة مقدسة، وكان سكان العراق القديم يحجون إلى معبدها الكبير؛ ولأن المعبد البابلي كان يتميز دائمًا ببرج ضخم مرتفع مبني في صحنه يسمى (زقورة) أو (زجورة)، ظن القدامى من الآراميين واليهود أن هذا البرج شيده الكفار تحديًا لله أو ـ كما ينقل عنهم فريزر ـ إنهم اعتقدوا أن بإمكانهم، من هذا البرج، أن يصوّبوا السهام والحراب التي تنطلق نحو السماء فتدمر مملكة الله العليا. وقد حكوا في ذلك خرافات نقلها فريزر عن لويس جنزبرج في كتابه (أساطير اليهود): منها أنهم زعموا أن بعض هذه السهام كان إذا أطلق نحو السماء عاد إلى الأرض مخضبًا بالدم. ومنها أن هؤلاء الكفار من سكان بابل كانوا يريدون أن يصل ارتفاع البرج إلى السماء ليضعوا أصنامهم مكان الله. ومنها أن برج بابل عندما تهدم غاص ثلثه في باطن الأرض، واحترق ثلث آخر بالنار، وبقي الثلث الأخير خرابًا، ومع ذلك فإن مكانه ـ كما زعموا ـ ما يزال محتفظًا بسر المعجزة؛ فكل من يمر عليه يفقد ذاكرته تمامًا وينسى كل شيء يعرفه. ومما لا شك فيه أن كل هذه الأساطير كان يبررها شيء واحد، هو غرابة هذه الصروح المعمارية البابلية الدينية في نظر أولئك البدو من الآراميين والعبريين؛ فربطوا ذلك بمحاولة تفسير تنوع اللغات الذي كان يبدو لهم غير متفق مع كون الجنس البشري كله يرجع إلى أب واحد وأم واحدة هما آدم وحواء»[1].

أمّا القرآن الكريم؛ فلا يتابع الكتاب المقدّس في شيء ممّا سبق، وإنّما يسوق أمر تعدد لغات الناس سَوق المنّ على البشر وإظهار فضل الله عليهم؛ بما ينفي بصورة تامة التفسير التوراتي الساذج؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢].. فتعدّد اللغات آية من آيات عظمة الخالق سبحانه.. وكفى.. وليس مظهرًا من مظاهر صراع الربّ مع البشر وخوفه من اجتماعهم ضدّه!

(١) حسن ظاظا، اللسان والإنسان، مدخل إلى معرفة اللغة (دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م)، ص٤٧ ـ ٤٨

في الخمر شفاء:

قال (بولس) في رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٥/ ٢٣: «لا تشرب الماء فقط بعد الآن. وإنما خذ قليلًا من الخمر مداويًا معدتك وأمراضك التي تعاودك كثيرًا».

هذا قول لا سند له من علم؛ فإنّ للخمر أضرارًا كثيرة جدًّا متلفة للبنيان الجسدي للإنسان؛ فضلًا عما تحدثه في أخلاقه وسلوكه من فساد، سواء أكان الشرب بكميات كبيرة أو صغيرة![١].

وقد جاء النص القرآني في تبشيع الخمر وتقبيحه قبح الميسر وعبادة الأصنام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠﴾ [المائدة: ٩٠]، وجاء الحديث النبوي الشريف حاسمًا في قوله: «**إنه ليس بدواء ولكنّه داء**»[٢]، وأنّ «**ما أسكر كثيره؛ فقليله حرام**»[٣].

النمل القائد:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨﴾ [النمل: ١٨]. تثبت الآية أنّ للنمل قائدًا يوجّهه. وهو أمر مُسَلَّمٌ يعلمه الجميع اليوم من خلال ما يرونه في البرامج الوثائقيّة على الشاشات، لكنّه يخالف تصريح الكتاب المقدس: «اِذْهَبْ إِلَى النَّمْلَةِ أَيُّهَا الْكَسْلاَنُ. تَأَمَّلْ طُرُقَهَا وَكُنْ حَكِيمًا، الَّتِي لَيْسَ لَهَا قَائِدٌ أَوْ عَرِيفٌ أَوْ مُتَسَلِّطٌ» (الأمثال ٦/ ٦ ـ ٧)!

---

(١) انظر الدراسة العلميّة الشرعيّة: محمد علي البار، الخمر بين الطب والفقه، (جده: الدار السعودية، د.ت).

(٢) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر (ح/ ١٩٨٤).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر (ح/ ٣٦٨١)، والترمذي، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام (ح/ ١٨٦٥)، وابن ماجه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام (ح/ ٣٣٩٢).

٢ ـ السبق العلمي في القرآن الكريم:

لم يكتفِ القرآن في حديثه العلمي بإثبات الاستقامة العلمية، وتصحيح ما عند أهل الكتاب من أخطاء، وإنّما تجاوز ذلك إلى تقديم حقائق علميّة ما كان يعرفها الناس زمن البعثة. **ومنها**:

شموس لا شمس واحدة:

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١]. والسراج هو الشمس في العرف القرآني:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٦].

ولذلك فسّر العلماء الذي قرؤوا: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ السراج بالشمس في جميع آي القرآن حيث جاءت الكلمة مفردة. قال صاحب «لسان العرب»: «والسراج: الشمس»[١].

كان الناس حتّى زمن قريب يعتقدون أنّ الكون ليس فيه غير شمسنا، ثمّ لمّا توسّع عمل المراصد الفلكيّة اكتشف العلماء أنّ الكون فيه بلايين النجوم؛ إذ إنّ جل طاقة الكون مصدرها هذه الشموس[٢]. وهي الحقيقة التي نبّه عليها القرآن بوضوح جليّ في آية ٦١ من سورة الفرقان في قراءة (حمزة) و(الكِسائيّ)، وهما قراءتان من القراءات السبع الثابتة التي أجمع عليها أهل السنّة. وقراءة «سرُجًا» بالجمع هي القراءة الأشهر في الكوفة في القرون الأولى، ومتلقّاة عن الصحابة عن رسول الله ﷺ.

ولمّا عجب المفسّرون من أمر هذا الجمع رغم أنّ الشمس ـ في ثقافتهم العلميّة ـ واحدة، وكانت الآية قد ذكرت القمر، لم يجدوا مخرجًا غير القول: إنّ السرج هنا هي النجوم رغم علمهم أن كلمة سراج في العرف القرآني تعني الشمس.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (سرج).

(٢) Rudolf Kippenhahn, *100 Billion Suns: The Birth, Life, and Death of the Stars* (New York: Basic Books, 1983).

والعجيب هنا هو أنّ المفسّرين أصابوا في قولهم دون قصد؛ إذ إنّ جلّ النجوم هي في حقيقتها شموسٌ أيضًا؛ إذ النجم هو جرم سماويّ ينير إنارة ذاتيّة، وينتج طاقته النوويّة في نواته[1]. فاعجب للدقّة القرآنيّة التي ألزمت المفسّرين أن يسبقوا عصرهم دون قصد!

قشرة الضياء

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧﴾ [يس: ٣٧].

قال (الزمخشري) (توفي ٥٣٨هـ): «سلخ جلد الشاة: إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه: سلخ الحية لخرشائها؛ فاستعير لإزالة الضوء أو كشفه عن مكان الليل وملقى ظله»[2]. وقال المفسّر (السمين الحلبي) (توفي ٧٥٦هـ): ««نَسْلَخُ» استعارةٌ بديعةٌ شبَّه انكشافَ ظلمةِ الليلِ بكَشْط الجِلْد عن الشاة»[3]. وقال المفسّر (أبو السعود) المتوفّى منذ خمسة قرون، بعبارة أدقّ: « ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ جملةٌ مبيِّنة لكيفيَّةِ كونِه آيةً؛ أي: نُزيله ونكشفُه عن مكانِه مستعارٌ من السَّلخِ وهو إزالةُ ما بين الحيوانِ وجلدِه من الاتِّصالِ. والأغلبُ في الاستعمالِ تعليقُه بالجلدِ يقال: سلختُ الإهابَ من الشَّاةِ وقد يُعكس ومنه الشَّاةُ المسلوخةُ ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧﴾؛ أي: داخلونَ في الظَّلامِ مفاجأةً وفيه رمزٌ إلى أنَّ الأصلَ هو الظَّلامُ والنُّورُ عارضٌ»[4].

ولو نظرت في التوراة؛ فستقرأ في تكوين ١/ ٢ ـ ٤ أنّ الكون كان مظلمًا ثمّ خلق الله النور، ثم «فصل الله بين النور والظلمة»؛ فالنور جزء من البناء الكوني، وليس مرتبطًا بوجود جرم من أجرام السماء (الشمس أو غيرها). **وكلّ ما تحت قبّة السماء منير في النهار**.

لماذا اختير التشبيه القرآني العجيب بالسلخ؟

(١) *Oxford Dictionary of Physics*, (Oxford: Oxford University Press, 2005, 5th ed.), p.501.

(٢) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٤/ ١٦.

(٣) نسخة إلكترونية للتفسير.

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ٧/ ١٦٧.

إنّك لن تجد جوابك إلا في حديث العلم الحديث لمّا اكتشف أنّ نهار الأرض على نصف مساحتها ليس إلا قشرة رقيقة من النور تعلوها، وكلّ ما فوق ذلك ظلام؛ ولذلك فذهاب النهار بضوئه كذهاب جلد الشاة؛ كل منهما رقيق. والناظر إلى صور إقبال الليل من الأقمار الصناعيّة يدرك عيانًا مبلغ رقة ضوء النهار في هذا الكون المظلم.

الموج الداخلي:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

قال (القرطبي) المفسّر: «﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾؛ أي: يعلو ذلك البحر اللجي موج، ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾؛ أي: من فوق الموج موج، ومن فوق هذا الموج الثاني سحاب»[(١)].

هذا وصف في غاية العجب، أن يكون في البحر موج تحته موج، ولعلّه في حس السابقين مجرّد صورة أدبيّة لتصوير البحر الهائج المظلم، لكنّ العلم اليوم أثبت بيقين أنّ هناك في البحار أمواجًا داخلية تتحرّك تحت موج السطح.

يقول الشيخ (الزنداني): «البروفيسور (درجا برساد راو) أستاذ في علم جيولوجيا البحار، وأستاذ الآن بجامعة الملك عبد العزيز بجدة. التقينا به وعرضنا عليه عددًا من الآيات المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة؛ فاندهش لما سمع ولما رأى وهو يقرأ معاني آيات القرآن في بعض الكتب المخصصة لذلك. كان مما تعرض لشرحه هو قول الله جلَّ وعلا: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠] قال: نعم، هذه الظلمات عرفها العلماء الآن بعد أن استعملوا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (بيروت: مؤسسة الرسالة) ١٥/ ٣٠١.

الغواصات وتمكنوا من الغوص في أعماق البحار، لا يستطيع الإنسان أن يغوص بدون آلة أكثر من عشرين إلى ثلاثين مترًا، الذين يغوصون من أجل اللؤلؤ في مناطق الخليج يغوصون في مناطق قريبة لا تزيد على هذا العمق. فإذا غاص الإنسان إلى أعماق شديدة حيث يوجد الظلام على عمق ٢٠٠ متر لا يمكن أبدًا أن يبقى حيًّا، وهذه الآية تتحدث عن ظاهرة توجد في البحار العميقة، ولذلك قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ ليس في أي بحر وصفت هذه الظلمات بأنها متراكمة بعضها فوق بعض، والظلمات المتراكمة والتي تتراكم في البحار العميقة تنشأ بسببين:

السببان يكونان نتيجة اختفاء الألوان في طبقة بعد طبقة؛ فالشعاع الضوئي مكون من سبعة ألوان؛ فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى الماء توزع إلى الألوان السبعة، نرى في هذا الشكل الذي أمامنا الشعاع في الماء؛ فالجزء الأعلى قد امتص اللون الأحمر في العشرة الأمتار السطحية العليا، لو أن غواصًا يغوص على عمق ثلاثين مترًا وجرح جسمه وخرج الدم وأراد أن يراه فلا يرى اللون الأحمر لأن الأشعة الحمراء غير موجودة وبعده يمتص اللون البرتقالي، وكما نرى في هذا الشكل الشعاع الضوئي وهو ينزل في أعماق الماء على مسافة ٥٠ مترًا يبدأ امتصاص اللون الأصفر، وعلى عمق ١٠٠ متر يكون امتصاص اللون الأخضر وهكذا. ونرى تحت مائتي متر يكون الامتصاص للون الأزرق؛ فإذًا ظلمة اللون الأخضر تحت عند عمق ١٠٠ متر وظلمة الأصفر تكون على عمق ٥٠ مترًا، وقبلها ظلمة اللون البرتقالي وظلمة اللون الأحمر؛ فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

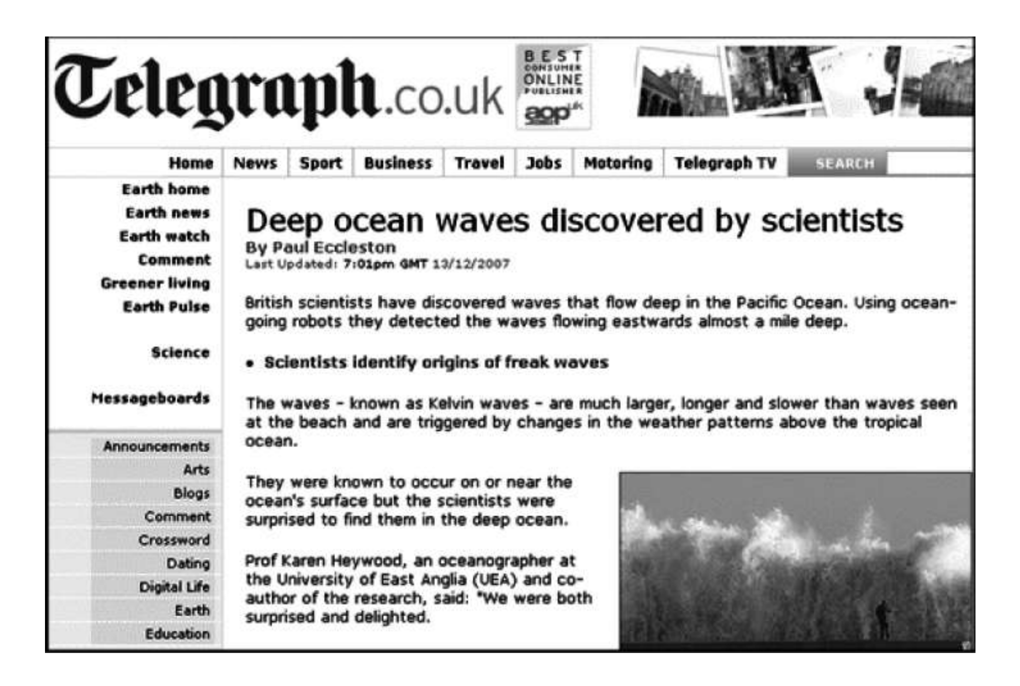
وأمّا السبب الثاني فيكون بسبب الحواجز التي تحجب الضوء؛ فالشعاع الضوئي الذي نراه هنا ينزل من الشمس فتمتص السحب بعضه وتشتت بعضه فتنشأ ظلمة تحت السحب، هذه الظلمة الأولى؛ فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى سطح البحر المتموج انعكس على سطح الموج فأعطى لمعانًا، ولذلك نرى إذا حدث موج في البحر كان اللمعان شديدًا على حسب ميل سطح الموج. فالموج إذًا يسبب عكسًا للأشعة؛ أي: يسبب ظلمة ثم ينزل الشعاع الضوئي

إلى أسفل، ونجد البحر هنا ينقسم قسمين، قسم سطحي وقسم عميق. أما السطحي فهو الذي يوجد فيه الظلام والبرودة، يختلف البحران في خصائصهما وصفاتهما ولكن يوجد موج فاصل بين البحر السطحي والبحر العميق، هذا الموج الداخلي لم يكتشف إلا عام ١٩٠٠م تحت الموج العميق الذي يفصل بين البحرين يوجد البحر العميق، ويبدأ الظلام حتى إن الأسماك في هذه المناطق لا ترى بأعينها بل لها مصدر للضوء يصدر من جسمها في هذه الظلمات التي تراكمت بعضها فوق بعض، جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ وإذا نظرنا أسفل الشكل نرى الظلام ونرى فوق الموج الأول الذي يفصل بين البحر السطحي والبحر العميق ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠]؛ أي: من فوق هذا الموج موج آخر، هو الذي يكون على سطح البحر ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ فوقهم ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمات هذه الحواجز وظلمات الألوان في طبقات بعضها فوق بعض ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ في هذه المناطق ظلام شديد، والغواصات تنزل إلى هذه المسافات فلا ترى شيئًا، وتستخدم مصادر للضوء والإضاءة حتى ترى طريقها.

فمن أخبر محمدًا ﷺ عن هذه الآيات؟ كان هذا مما حدّثنا عنه البروفيسور راو، ثم استعرضنا معه كثيرًا من الآيات المتعلقة بالبحار وفي مجال تخصصه، ثم قلنا له: ما هو تفسيرك يا أستاذ راو لهذه الظاهرة؟ ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة كيف أخبر محمد ﷺ بهذه الحقائق منذ ١٤٠٠ عام؟

فقال البروفيسور راو: ومن الصعب أن نفترض أن هذا النوع من المعرفة كان موجودًا في ذلك الوقت منذ ١٤٠٠سنة هجرية، ولكن بعض الأشياء تتناول فكرة عامة ولكن وصف هذه الأشياء بتفصيل كبير أمر صعب جدًّا، ولذلك فمن المؤكّد أن هذا ليس علمًا بشريًّا بسيطًا، لا يستطيع الإنسان العادي أن يشرح هذه الظواهر بذلك القدر من التفصيل، ولذلك فقد فكرت في

قوة خارقة الطبيعة خارج الإنسان، لقد جاءت المعلومات من مصدر خارق للطبيعة»[١]. .



Telegraph.co.uk

Home | News | Sport | Business | Travel | Jobs | Motoring | Telegraph TV

Earth home
Earth news
Earth watch
Comment
Greener living
Earth Pulse
Science
Messageboards

Announcements
Arts
Blogs
Comment
Crossword
Dating
Digital Life
Earth
Education

Deep ocean waves discovered by scientists

By Paul Eccleston
Last Updated: 7:01pm GMT 13/12/2007

British scientists have discovered waves that flow deep in the Pacific Ocean. Using ocean-going robots they detected the waves flowing eastwards almost a mile deep.

• Scientists identify origins of freak waves

The waves - known as Kelvin waves - are much larger, longer and slower than waves seen at the beach and are triggered by changes in the weather patterns above the tropical ocean.

They were known to occur on or near the ocean's surface but the scientists were surprised to find them in the deep ocean.

Prof Karen Heywood, an oceanographer at the University of East Anglia (UEA) and co-author of the research, said: "We were both surprised and delighted.

أطراف الأعصاب على الجلود:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النساء: ٥٦].

لمّا عُرضت الآية السابقة على البروفيسور (تاجاتات تاجاسون) (Tejatat Tejasen) ـ عميد كلية الطب بجامعة (شاينج ماي بتايلاند) ـ، وسُئِل في مجال تخصّصه: هل هناك مرحلة ينعدم عندها الإحساس بألم الحرق؟ نعم، إذا كان الحرق عميقًا ودمّر عضو الإحساس بالألم. حسنًا، ما رأيك إذن؟ إن القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ قبل من ألف وأربعمائة عام قد أشار إلى تلك الحقيقة العلمية عندما ذكر الطريقة التي سيعاقب الله بها الكافرين يوم القيامة،

(١) حوار فضيلة الشيخ عبد المجيد الزنداني مع البروفيسور ـ درجا برساد ـ أعماق البحار والمحيطات.
<http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1914>.

حيث يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ فالقرآن هنا يقرر أنه عندما ينضج الجلد يخلق الله للكفار جلدًا جديدًا؛ كي يتجدد إحساسهم بالألم، وذلك تأكيد من جانب القرآن على أن الأطراف العصبية التي تجعل الإنسان يشعر بالألم موجودة في الجلد. هذا أمرُ يدعو للدهشةِ والغرابة حقيقة؛ فتلك معرفة مبكرة جدًّا عن مراكز الإحساس والأعصاب في الجلد، ولا أدرى كيف ذكر قرآنكم هذا! ترى أيمكن أن تكون هذه المعلومات قد استقاها محمد نبي الإسلام من مصدر بشري؟ بالطبع لا؛ ففي ذلك الوقت لم تكن هناك معارف بشرية حول هذا الموضوع.

عاد (تاجاتات تاجاسون) إلى بلاده ليحاضر عن هذه الظاهرة القرآنية التي عايشها وتأثّر بها، حتى جاء موعد المؤتمر الطبي السعودي الثامن، واستمع في الصالة الكبرى التي خصصت للإعجاز على مدى أربعة أيام لكثير من العلماء ـ ولا سيما غير المسلمين ـ يحاضرون عن ظاهرة الإعجاز العلمي.. وفي ختام جلسات المؤتمر وقف البروفيسور (تاجاتات تاجاسون) يعلن:

«بعد هذه الرحلة الممتعة والمثيرة؛ فإني أؤمن أن كل ما ذكر في القرآن الكريم يمكن التدليل على صحته بالوسائل العلمية، وحيث أن محمدًا نبي الإسلام كان أميًّا؛ إذن لا بد أنه قد تلقى معلومات عن طريق وحي من خالق عليم بكل شيء، وإنني أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[(١)].

أصل البَرَد:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى

---

(١) مجلة الإعجاز (الصادرة عن الرابطة)، العدد الثاني. مقال: الإعجاز في عيونهم.

رابط شهادة (تاجاتات تاجاسون) صوت وصورة:

<https://www.youtube.com/watch?v=c4dZotwh8kA>.

ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣].

يقول الشيخ (الزنداني): «درسنا لمدة سنتين تقريبًا في جامعة الملك عبد العزيز مع قسم الأرصاد في جدة فعند الدراسة ظهرت لنا أن هناك أنواع متعددة من السحب، لكن الأنواع الممطرة ثلاثة أنواع فقط؛ فلما راجعت القرآن وجدت أن القرآن ذكر الأنواع الثلاثة بالضبط، ووصف كل نوع منها وصفًا دقيقًا هذا الوصف.. هذا الوصف لكل سحاب يختلف تمامًا عن وصف السحاب الآخر؛ فالسحب الممطرة ثلاث أنواع منها النوع الركامي، يقول الله ـ جلَّ وعلا ـ في السحاب الركامي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾؛ يعني: الآن يصنف لنا القرآن طريقة تكوين السحاب الركامي، ووجد أن السحاب الركامي يتكون هكذا، يزجي؛ أي: يسوق برفق يتكون «قزع» ثم يساق هذا «القزع» إلى خط تجمع السحاب فيساق برفق إلى خط هذا التجمع ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ ـ في هذا الخط ـ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ يقوم فوقه فوق بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ يعني: قطرات المطر تخرج متى؟ إذا حدث الركم ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ وصف كامل بالضبط لطريقة تكوين السحاب، للظواهر المصاحبة لتكوينه، للنتائج المترتبة عليه، قلنا يبدأ بالسوق، ثم بتأليف، ثم بالركم؛ فـ ـ وليس: ثم ـ فينزل المطر، تغير حرف العطف انظر الدقة على مستوى الحرف؛ لأن الفترة من فترة السوق إلى التأليف تأخذ زمن، ومن التأليف إلى نهاية الركم تأخذ زمن، لكن بعد أن ينتهي الركم إلى نزول المطر مفيش زمن، ولذلك كان الفارق في هذا الحرف (فاء) عبر بالفاء الذي يدل على التعقيب والترتيب، بسرعة، ولذلك قال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ﴾؛ يعني: بيقول لك شوف السماء ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.. ﴿مِن جِبَالٍ﴾ ما الجبال ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ إذن هي سحاب ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ لا يتكوَّن البرد إلا

في السحاب الركامي، الذي تختلف درجة حرارة قاعدته عن قمته، وبسبب هذا الشكل الجبلي للسحاب يتكوَّن البرد، الشكل الطبقي لا يتكوَّن فيه برد ولذلك قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ﴾ لازم يكون السحاب في شكل جبل، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الله، الضمير يرجع إلى البرد ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ أي: بالبرد، ﴿مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾.

هذا الشيء المذهل الذي رآه علماء الأرصاد يتكون البرد وينزل إلى قاعدة السحاب وفجأة تأتي تيار هوائي يصرفه ويعيده إلى وسط السحاب، يعيده، كيف تفهم ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ يصرفه يعني أيش؟ يعني كان متجهًا إلى قوم... فقال له ارجع اطلع فوق، وتتبع علماء الأرصاد ذلك... فوجدها دورة يدورها.. تدورها البردة تكون غلاف فلما تنزل البردة إلى الأرض شوف كم أغلفه يعرفون كم دورة دارت هذه البردة في جسم السحابة ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ سنا برقه يعني لمعان برقه، برقه ماذا؟ الكلام كله عن البرد ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ أي: بالبرد، ﴿مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ﴾؛ أي: يصرف البرد، ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ لمعان برقه، برق أيش؟ برق البرد، في عام ١٩٨٥م قُدِّم ولأول مرة في مؤتمر دولي أن البرد هو السبب الحقيقي لتكوين البرق فعندما يتحول البرد من سائل إلى جسم صلب تتكون الشحنات الكهربائية الموجبة والسالبة، عندما تدور حبة البرد توزع الشحنات الموجبة والشحنات السالبة، عندما يستمر الدوران تقوم بعملية التوصيل فالبرد.. فالبرق من البرد»[(١)].

اللؤلؤ والمرجان في المياه العذبة:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

(١) الحديث مكتوبًا، وصوتًا وصورة. قناة الجزيرة. برنامج الشريعة والحياة: ٢٤/٢/٢٠٠٢م.

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمٰن: ١٩ ـ ٢٢].

هل يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة؟ نقل (الرازي) حيرة المفسّرين في زمانه وقبله بقوله: «اللُّؤْلُؤُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنَ الْمَالِحِ فَكَيْفَ قَالَ: مِنْهُمَا؟ نَقُولُ: الْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: **أَحَدُهُمَا:** أَنَّ **ظَاهِرَ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى أَوْلَى بِالِاعْتِبَارِ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِي لَا يُوثَقُ بِقَوْلِهِ،** وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ وَهَبْ أَنَّ الْغَوَّاصِينَ مَا أَخْرَجُوهُ إِلَّا مِنَ الْمَالِحِ وَمَا وَجَدُوهُ إِلَّا فِيهِ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ لَا يُوجَدَ فِي الْغَيْرِ سَلَّمْنَا لِمَ قُلْتُمْ: أَنَّ الصَّدَفَ يَخْرُجُ بِأَمْرِ اللهِ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ إِلَى الْمَاءِ الْمَالِحِ وَكَيْفَ يُمْكِنُ الْجَزْمُ وَالْأُمُورُ الْأَرْضِيَّةُ الظَّاهِرَةُ خَفِيَتْ عَنِ التُّجَّارِ الَّذِينَ قَطَعُوا الْمَفَاوِزَ وَدَارُوا الْبِلَادَ فَكَيْفَ لَا يَخْفَى أَمْرُ مَا فِي قَعْرِ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ»[(١)].

وقد قطع العلم حيرة المفسّرين بإثبات صدق المعنى الحرفي المباشر لما جاء في القرآن. جاء في «المنتخَب في تفسير القرآن الكريم»: «قد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرًا للحلي، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك: أما اللؤلؤ فإنه، كما يُسْتَخْرَج من أنواع معينة من البحر، يُسْتَخْرَج أيضًا من أنواع معينة أخرى من الأنهار؛ فتوجَد اللآلئ في المياه العذبة في إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان. . .إلخ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة. ويدخل في ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس، الذي يُسْتَخْرَج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة. ويوجد الياقوت كذلك في الرواسب النهرية في موجوك بالقرب من بانالاس في بورما العليا. أما في سيام وفي سيلان فيوجد الياقوت غالبًا في الرواسب النهرية. ومن الأحجار شبه الكريمة التي تُسْتَعْمَل في الزينة حجرُ التوباز، ويوجد في الرواسب النهرية في مواقعَ كثيرةٍ ومنتشرةٍ في البرازيل

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب (بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ)، ٢٩/٣٥٢.

وروسيا (الأورال وسيبريا)، وهو فلورسيليكات الألمونيوم، ويغلب أن يكون أصفرَ أو بُنّيًّا. والزيركون (circon) حَجَرٌ كريمٌ جذابٌ تتقارب خواصه من خواص الماس، ومعظم أنواعه الكريمة تُسْتَخْرَج من الرواسب النهرية»[١].

تجربة الاقتراب من الموت:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٢].

تعتبر الظاهرة المسمّاة «تجربة الاقتراب من الموت» (Near-Death Experience) من أهمّ الأدلّة الحديثة التي يستدلّ بها المفكّرون النصارى واليهود في الغرب للردّ على الإلحادي المادي وبيان أنّ في الإنسان عنصرًا غير مادي، وهو الروح[٢]، غير أنّ هؤلاء اليهود والنصارى لا يستدلّون لهذه الظاهرة بشيء من كتبهم المقدّسة لأنها لا تخبر عنها.

«تجربة الاقتراب من الموت» هي معايشة «رؤى» وأحاسيس خاصة أثناء الموت الإكلينيكي أو الإغماءة المتقدّمة..

يتفرّد القرآن بتقريره أنّ روح الإنسان تخرج منه في حال فقد وعيه بالنوم، ثم تعود إليه بعد ذلك، رغم أنّ المعروف عند أهل الكتاب زمن البعثة أنّه بمغادرة الروح للبدن يُتوفّى الإنسان، ويصير في عداد الأموات.

ظاهرة «تجربة الاقتراب من الموت» صدرت فيها مؤلفات كثيرة جدًّا في

---

(١) لجنة القرآن والسُّنَّة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المنتخب في تفسير القرآن الكريم (الدوحة: دار الثقافة)، ص٦٤٥.

(٢) انظر: الدراسة المبسطة للفيلسوف المعروف (ج. ب. مورلند) المتخصص في مبحث الوعي وأصله، مستعينًا بأحدث الدراسات النفسية والعصبية (ونحن لا نؤيد الزعم أنه بالإمكان إدراك وجود الروح بالرصد المباشر، وإنما نقول: إنّ القرائن تدلّ على أنه لا يصحّ علميًّا اختزال الإنسان ووعيه في العمل الآلي للمادة):

J. P. Moreland, *The Soul: How We Know It's Real and Why It Matters* (Chicago: Moody Publishers, 2014).

الغرب، منها كتب صادرة عن دور نشر أكاديمية، ومقالات علميّة في مجلّات محكّمة. وقد حاول الماديون تفسيرها بشتى الوسائل التي تمنع ردّها إلى غير أسباب مادية، غير أنّهم فشلوا في تفسير ظاهرتين أساسيّتين، **الأولى**: ظاهرة بقاء الوعي في من عاش التجربة رغم شهادة الآلات الطبيّة أنّ دماغه لا يعمل، **والثانية**: أنّ من عاش التجربة شهد أنّه رأى أو سمع أو التقى بأشخاص يمنع استلقاؤه في المشفى فاقدًا للوعي أن يدركها، ومن ذلك أنّ أحد العميان رأى ما أحاط به لما كان فاقدًا الوعي أثناء التجربة(١)، وامرأة تصف خروج روحها ورؤيتها حذاء أزرق فوق سقف المستشفى، ثم بارتقاء السقف وُجد الحذاء نفسه(٢)، وأخرى أُجريت لها عملية على دماغها وهي فاقدة للوعي وعيناها مغلقتان، ثم هي تصف بعد ذلك تفاصيل العملية والآلات (التي كانت مغطاة) وحوارات الأطباء(٣)(٤).

ومن المهم هنا الإشارة إلى أنّ هذه الظاهرة العجيبة قد قادت أكاديميين ملاحدة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر بعد اقتناعهم أنّ الإنسان أكثر من مادة، ومن هؤلاء (ريموند أ. مودي)(٥) و(بِم فان لومل)(٦). وهي التجربة التي

---

(١) Gary Habermas & J.P. Moreland, *Beyond Death: Exploring the Evidence for Immortality* (Wheaton, IL: Crossway, 1998), 158.

(٢) Jeffrey Long and Paul Perry, *Evidence of the Afterlife: The Science of Near-Death Experiences* (New York: HarperCollins, 2009), pp. 72-73.

(٣) J. Steve Miller, *Near-Death Experiences as Evidence for the Existence of God and Heaven* (Acworth, Ga.: Wisdom Creek, 2012), p.54.

(٤) نحن لا نصدّق كلّ ما يقال عن هذه التجربة، ونجزم أنّ كثيرًا من الشهادات الشخصية حولها محلّ شك وريبة، ونعلم أنّ هناك من يزعم أنّه التقى شخصيات نصرانية أو يهودية أو إسلامية في غيبة وعيه.. وكلّ ذلك قد يكون من أثر الوهم أو الكذب أو تلاعب الشياطين بأصحاب هذه التجارب. ولكن يبقى أنّ التفسير المادي عاجز عن تفسير بقاء الوعي بعد موت المخ، وحصول أمور لا يمكن لمن عاش التجربة أو يدركها بدماغه.

(٥) ريموند أ. مودي Raymond A. Moody (١٩٤٤م ـ): عالم نفس وطبيب ورئيس قسم دراسات الوعي في (جامعة نِفادا). من أغزر العلماء تأليفًا في تجربة الاقتراب من الموت. كتابه "Life After Life" هو في سرد قصص من عاشوا التجربة، وقد بلغ مرتبة (الكتب الأكثر مبيعًا) بعد صدوره (١٣ مليون نسخة) منه.

(٦) بِم فان لومل Pim van Lommel (١٩٤٣ ـ): طبيب قلب وباحث في تجربة الاقتراب من الموت. من مؤلفاته: "Near-death experience in survivors of cardiac arrest: a prospective study in the Netherlands".

جعلت الفيلسوف (أ. ج. آير)[1] ـ رأس إحدى أهم المدارس الفلسفية الإلحادية في القرن العشرين[2] ـ يقول بعد تجربته الخاصة إثر توقّف قلبه عن النبض لمدة أربع دقائق: «تجاربي القريبة أضعفت بصورة قليلة قناعتي أن موتي الحقيقي ـ والذي سيكون قريبًا ـ هو نهايتي»[3]. فهو على عناده أقرّ بأثر التجربة فيه.

الإعجاز العلمي في السُّنَّة النبوية:

الخبر العلمي في السُّنَّة النبويّة واسع جدًّا؛ فمنه ما هو متعلّق بالتطبّب، ومنه ما هو متعلّق بالتشريح، ومنه ما هو متعلّق بالوقاية، ومنه ما هو متعلّق بالظواهر الكونيّة السماوية، وهو خبر أوسع مادة مما جاء في العهدين القديم والجديد، وقد ظهر في بيئة ضعيفة الصلة بالنظرة السُّنَنيّة للكون. وقد جاءت السُّنَّة النبويّة مخالفة لذلك؛ إذ تجمع بين الإيمان بسلطان الله، وحقيقة أثر السنن الكونيّة والعلّل المادية. وإذا كان جلّ ما جاء من خبر علميّ في السُّنَّة قد لا يدخل في باب السبق العلميّ، إلا أنّ مجموعه يأبى أن يُردّ إلى اجتهاد رجل أميّ في أمّة صحراوية جاهلة وساذجة[4].

وأمّا إذا أردت شيئًا من الإعجاز العلمي؛ **فسنعرض لك مثالين اثنين.**

١ ـ عن الحبة السوداء: «**ما من داء إلا في الحبّة السوداء منه شفاء، إلا السام**»[5].

حيّر الحديث السابق شرّاحه من السابقين؛ إذ كيف تكون الحبّة السوداء

---

(١) أ. ج. آير A. J. Ayer (١٩١٠ ـ ١٩٨٩م): فيلسوف بريطاني. درّس الفلسفة والمنطق. ورأس "Aristotelian Society for the Systematic Study of Philosophy" الفلسفية.

(٢) الوضعية المنطقية.

(٣) المقال الذي نشره (آير) في "Spectator" بتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٨٨م:
<http://www.philosopher.eu/others-writings/a-j-ayer-what-i-saw-when-i-was-dead/>.

(٤) انظر مثلًا: محمد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلمي في الإسلام: السُّنَّة النبوية (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

(٥) رواه مسلم، كتاب السلام، باب التداوي بالحبة السوداء (ح/ ٢٢١٥).

دواء كلّ مرض مع علمنا أنّ الرسول ﷺ لم يتداو بها من كلّ أذى، كما أنّها لا تبرئ من يتعاطاها مباشرة إثر كلّ عطب!

وأخذُ الحديث على ظاهره يقتضي أنّ الحبّة السوداء سبب عام في دفع الأمراض، وهو ما اهتدى إليه العلم اليوم بعد معرفة أنّ الجهاز المناعي (المعقّد) هو الذي يعمل على دفع الأجسام الغريبة الغازية.

يُعتبر الدكتور (أحمد القاضي) وزملاؤه في الولايات المتحدة الأمريكية أهم من اعتنوا بالقيمة العلاجيّة والوقائيّة للحبّة السوداء. وقد أثبتت إحدى تجاربه أثر الحبّة السوداء في تقوية جهاز المناعة؛ إذ ازدادت نسبة الخلايا اللمفاوية التائية المساعدة إلى الخلايا التائية الكابحة إلى ٧٢٪ في الوسط. وتحسّن نشاط خلايا القاتل الطبيعي بنسبة ٧٤٪ في المتوسط، وكذلك لوحظ تحسّن ٤٢٪ في نشاط خلايا القاتل الطبيعي. وهو ما أكّدته أبحاث علميّة أخرى في مجلّات محكَّمة غربيّة[١].

٢ ـ قال الرسول ﷺ: «**ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين؟**»[٢].

هل يرجع البرق بعد نزوله؟

هذا ما انتهى إليه العلم المعاصر؛ إذ تبدأ الضربة الراجعة على شكل موجه موجبة بسرعة أكثر من ١٠٠ ألف كيلو متر في الثانية، بالتوجه نحو الأعلى وينتج عنها تيار كهربائي يستغرق مدّة ١ مايكرو ثانية للوصول إلى ٣٠ ألف أمبير وسطيًّا، ويُنتج هذا البرق الراجع أكثر من ٩٩٪ من الإضاءة وهو ما نراه فعلًا؛ أي: نرى رجوع البرق[٣].

---

(١) أحمد القاضي وأسامة قنديل، الحبة السوداء شفاء من كل داء (هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة ـ رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢١هـ).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (ح/ ١٩٥).

(٣) عبد الدائم الكحيل، مرور البرق بين العلم والإيمان، من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة بتركيا ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

الأخطاء العلمية في الكتاب المقدس:

أزمة العلم والأسفار المقدسة شكلت محنة كبرى للعقل النصراني منذ القرن التاسع عشر، ولذلك اضطرّ البابا (ليو الثالث عشر)[١] إلى أن يصرّح سنة ١٨٩٣م في وثيقة «حول دراسة الأسفار المقدسة» (Providentissimus Deus) أنّ المسائل الطبيعية والعلميّة في الكتاب المقدس تقع خارج مجال عقيدة عصمة الكتاب المقدس من الزلل. وقد حاول البابا أن يقفز فوق المشكلة بالقول: إنّ ما يبدو من أخطاء علمية في الكتاب المقدس هو أثر عن نقل المؤلّف أمور العالم كما تبدو للإنسان العادي. وهو مذهب التفافي يستنكره الإنسان اليوم ـ على حدّ تعبير الناقد الكتاب النصراني (ريموند براون) ـ، خاصة أنه يفترض أن الكاتب له معرفة تتجاوز عصره، لكنه اختار التعبير بصورة خطأ توافق ثقافة العصر[٢].

وقد تطوّر الأمر في الكنيسة الكاثوليكيّة إلى تصريح كبار الرموز الدينيّة أنّ الكتاب المقدس غير بريء من الخطأ والزلل، ومن ذلك قيام الكاردينال (كوينج)[٣] في مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م) ليسرد على السامعين الأخطاء العلمية والتاريخية في الكتاب المقدس، مؤكدًا أنّ «أسفار الكتاب المقدس ضعيفة في دقتها فيما يتعلّق بكلّ المسائل التاريخيّة والعلمية»[٤]. وقد كانت الغاية من ذلك رفع العبء الثقيل عن الكنيسة التي بذل أنصارها جهدًا عظيمًا دفاعًا عن عصمة النص المقدس، ليبوء هؤلاء المجتهدون بالفشل البيّن في مسعاهم ـ على قول الناقد (بول أكتماير)[٥] ـ.

كما تبرّأ بابا الفاتيكان (يوحنا بولس الثاني) من تاريخية قصة الخلق

---

(١) ليو الثالث عشر Leo XIII (١٨١٠ ـ ١٩٠٣م): إيطالي. تولّى البابوية من ١٨٧٨ إلى ١٩٠٣م. كان له اهتمام خاص بجدل الكنيسة والمعارف العصرية.

(٢) Raymond Brown, *The Critical Meaning of the Bible* (London: Geoffrey Chapman: Cassell, 1982), p.15.

(٣) فرنو كوينج Franz König (١٩٠٥ ـ ٢٠٠٤م): رئيس أساقفة فيينا، ومن دعاة الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية.

(٤) Raymond Brown, *The Critical Meaning of the Bible,* p.16.

(٥) Paul J. Achtemeier, *The inspiration of Scripture: problems and proposals* (Philadelphia: Westminster Press, 1980).

التوراتية، زاعمًا أنّها ذات دلالة روحية محضة، وذلك في رسالته إلى «الأكاديمية البابوية للعلوم» (٣ أكتوبر ١٩٨١م)؛ إذ كتب: «أثار كلٌّ من علم نشأة الكون وعلم تطوّره دائمًا اهتمامًا كبيرًا بين الشعوب والأديان. يحدّثنا الكتاب المقدس نفسهُ عن أصل الكون وتكوينه، لا من أجل تزويدنا بأطروحة علمية، ولكن من أجل تقرير العلاقات الصحيحة للإنسان بالله وبالكون. وتَودّ الأسفار المقدسة ببساطة أن تعلن أن العالم قد خلق من قبل الله. ومن أجل تعليم هذه الحقيقة، **تعبّر الأسفار المقدسة عن نظرتها بعبارات الكوسمولوجيا المتداولة زمن حياة المؤلّف**»[١].

وقد تواتر عن كثير من أعلام اللاهوت والعلم من متديّني النصارى البراءة من الحرفيّة العلميّة لقصّة الخلق التوراتية، ومن هؤلاء اللاهوتي والفيزيائي الكاثوليكي المعروف (ستانلي جاكي)؛ إذ برئ من علميّة قصة الخلق؛ حتّى إنه اختار القول: إنّها صياغة ما بعد السبي لبداية الكون[٢].

سأكتفي هنا بعرض مجموعة من الأخطاء العلمية تغني عن تطلّب الإطالة:

١ ـ زرقة السماء بالماء:

«وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ» فَعَمِلَ الله الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ». (تكوين ١/ ٦ ـ ٧).

يعكس سفر التكوين الاعتقاد القديم لكثير من الأمم السابقة بأنّ زرقة السماء تكشف وجود ماء فوق قبّة السماء؛ إذ إنّ لون السماء أزرق كلون البحر، وذاك برهان أنّ ما يعلو السماء هو نفسه ما تحمله البحار: الماء. ولتفسير استقرار الماء فوق الأرض دون أن ينهمر كله على الأرض ذهب سفر التكوين إلى أنّ الله قد صنع قبة تفصل بين الماء الذي فوق الأرض والأرض، وهي قبّة السماء.

---

(١) <http://www.ewtn.com/library/PAPALDC/JP2COSM.HTM>

(٢) Stanley L Jaki, *Genesis 1: through the ages* (Royal Oak, Michigan: Real View Books, 1998).

وقد جاء في هامش «ترجمة أورشليم» الفرنسية للكتاب المقدس: «كان «جلد» السماء الظاهر عند الساميين الأوّلين عبارة عن قبّة متينة تحبس المياه المجتمعة فوقها»[1]. ومن الأحبار من فسّر كلمة «سماوات» (שמים) [شمايم] العبرية بمعنى (שם מים) [شم مايم]؛ أي: «ثمّة ماء»[2].

٢ ـ السماء الصلبة:

«فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ». (تكوين ١/ ٧).

كلمة «جَلَد» في الأصل العبري هي (רקיע) [رَقِيَعْ] تدلّ على أنّ السماء قبّة معلّقة فيها النجوم. جاء في هامش ترجمة (The New American Bible): «القبّة[3]: تشير الكلمة العبريّة إلى قبّة معدنيّة ضخمة. تمّ إدخال القبّة في وسط الكيان العظيم المائي لتكوين منطقة جافة من الممكن أن تظهر فيها الأرض. ترجمة الفولجات اللاتينية تستعمل (firmamentum) = «أداة لتعتمد عليها (المياه العلويّة)».

٣ ـ النور والنهار قبل الشمس:

«وَقَالَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ». (تكوين ١/ ١٤ ـ ١٦).

يخبرنا نص تكوين ١/ ١ أنّ الله خلق النور في اليوم الأوّل، لكنّنا نقرأ أنّ الشمس لم تخلق إلا بعد ذلك، وهذا تناقض؛ إذ كيف يظهر النور قبل سببه؟!

---

(١) نقلته «الترجمة اليسوعية العربية»، ص٦٨.

(٢) P. I. Hershon, *Genesis: With a Talmudical Commentary* (London: Samuel Bagster and Sons, 1883), p.8.

(٣) ترجمة "The New American Bible" تعتمد كلمة «قبّة» "dome" في مقابل كلمة «رقيع» العبرية.

وقد علّق الناقد التوراتي (ناحوم م. سارنا)[1] بقوله: «مفهوم الضوء المستقل عن الشمس يظهر مرة أخرى في إشعياء ٣٠/٢٦ وأيوب ٣٨/١٩ ـ ٢٠. هذه الدعوى هي على الأرجح مستمدّة من الملاحظات الساذجة لكون السماء تضيء حتى في الأيام الغائمة عندما تُحجب الشمس وأنّ سطوع النور يسبق ارتفاع الشمس»[2]..

«وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلًا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا». (تكوين ١/٥).

ظهور الليل والنهار قبل ظهور الشمس باطل علميًّا لأنّ نور الليل والنهار أثرٌ عن دوران الأرض حول الشمس.

٤ ـ الزرع قبل خلق الشمس:

«فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ» (تكوين ١/١٢).

يفهم من نص تكوين ١/١٢ أنّ النبات على الأرض بعامة أنواعه قد ظهر في اليوم الثالث، وهذا باطل علميًّا لأنّه لا إنبات دون شمس؛ إذ لا يستغني النبات عن الطاقة لحياته، وهو يكتسب طاقته من طاقة الشمس، والشمس قد ظهرت في اليوم الرابع (تكوين ١/١٦).

«نصّ (قصّة الخلق في سفر التكوين) يستند إلى علم لا يزال في عهد الطفولة؛ فلا حاجة إلى التفنّن في إقامة التوافق بين هذه الصور وعلومنا العصريّة». (La Bible de Jérusalem).

---

(١) ناحوم م. سارنا Nahum M. Sarna (١٩٢٣ ـ ٢٠٠٥م): ناقد كتابي يهودي، درّس في أكثر من جامعة أمريكية. كتب شروحات لأكثر من سفر من أسفار العهد القديم.

(٢) N.M.Sarna, *Genesis. English and Hebrew; commentary in English. The JPS Torah commentary* (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1989), p.7.

٥ ـ الحيّة الواقفة، آكلة التراب:

«فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ» (تكوين ٣/ ١٤).

لعن الربّ الحيّة لأنّها أغوت (آدم) و(حواء)، وجعلها لذلك تسعى على بطنها وتأكل التراب.. ومعلوم اليوم أنّ الحيّات لا تأكل التراب، ولا معنى لمعاقبة الحيّة بأن تسعى على بطنها!

يشرح لنا الناقد الكتابي (ناحوم م. سارنا) الخلفية العلميّة الساذجة لنص تكوين ٣/ ١٤:

«على بطنك: هذا يعكس فكرة شعبية غالبًا ما تمثّل في فن الشرق الأدنى القديم وهي أنّ الثعبان كان في الأصل يمشي منتصبًا. بعد أن كانت الحيّة متغطرسة في تحدٍّ لله، هي الآن محكومة بشكل دائم بوضعية فيها إذلال صارخ.

وترابًا تأكلين: تضمّن التعدّي (على حكم الله) الأكل، وكذلك كان أمر العقوبة. أثناء سعي الحيّة في طريقها، يبدو تردّد لسانها وكأنها تلعق التراب»[1].

وهنا رأينا تبنّي التوراة لأسطورة مشرقيّة وضلالة علميّة.

٦ ـ الأرنب المجتر:

جاء في سفر اللاويين ١١/ ٢ ـ ٦: «كَلِّمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: هذِهِ هِيَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ: كُلُّ مَا شَقَّ ظِلْفًا وَقَسَمَهُ ظِلْفَيْنِ، وَيَجْتَرُّ مِنَ الْبَهَائِمِ؛ فَإِيَّاهُ تَأْكُلُونَ. إِلَّا هذِهِ فَلَا تَأْكُلُوهَا مِمَّا يَجْتَرُّ وَمِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ: الْجَمَلَ؛ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لَا يَشُقُّ ظِلْفًا؛ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. **وَالْوَبْرَ**؛ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لَا يَشُقُّ ظِلْفًا؛ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. **وَالأَرْنَبَ؛ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لَا يَشُقُّ ظِلْفًا؛ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ**».

---

(١) المصدر السابق، ص٢٧.

يصف هذا النصّ الـ(أرنب) (ארנבת) [أَرْنِبِت] بأنّه حيوان (مجتر)، وهو خطأ فجّ لأنّ الأرنب لا يجتر طعامه، وقد أخطأ مؤلّف هذا النصّ لأنّه ظنّ أنّ حركة فكّ الأرنب التي تشبه الاجترار، اجترارًا حقيقيًّا للطعام.

كان هذا الخطأ مصدر إشكال كبير لمفسّري التوراة مع بداية تطوّر علم التشريح، وقد حاول عدد من علماء النصارى آنذاك الزعم أنّه بالإمكان من واقع التجربة إثبات أنّ الأرنب يجتر[١]، لكن علماء اليوم قد حسموا المسألة بصورة قاطعة لتخطئة ما جاء في هذا النصّ؛ فقد اعترف ـ مثلًا ـ واضعوا ترجمة الآباء اليسوعيين (العهد القديم لزماننا الحاضر) أن التوصيف التوراتي خطأ علمي، وإليكم نص كلامهم: «تصنيف الأرنب في المجترّات تصنيف غير علمي؛ فإنهم كانوا يحكمون بحسب الظواهر». كما اعترف هامش الترجمة الكاثوليكية (The New American Bible) أنّ الوبر[٢] والأرنب لا يجترّان!

٧ ـ جناح النسر مركب:

«كمَا يُحَرِّكُ النَّسْرُ عُشَّهُ وَعَلَى فِرَاخِهِ يَرِفُّ، وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ وَيَأْخُذُهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنَاكِبِهِ، هكَذَا الرَّبُّ وَحْدَهُ اقْتَادَهُ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلهٌ أَجْنَبِيٌّ» (التثنية ٣٢/ ١١ ـ ١٢).

النسر (נֶשֶׁר) [نِشِر] لا يحمل فراخه على جناحه ويطير إلّا في كرتون (ديزني لاند)!

٨ ـ وحم الخراف:

«فَأَخَذَ يَعْقُوبُ لِنَفْسِهِ قُضْبَانًا خُضْرًا مِنْ لُبْنَى وَلَوْزٍ وَدُلْبٍ، وَقَشَّرَ فِيهَا خُطُوطًا بِيضًا، كَاشِطًا عَنِ الْبَيَاضِ الَّذِي عَلَى الْقُضْبَانِ. وَأَوْقَفَ الْقُضْبَانَ الَّتِي قَشَّرَهَا فِي الأَجْرَانِ فِي مَسَاقِي الْمَاءِ حَيْثُ كَانَتِ الْغَنَمُ تَجِيءُ لِتَشْرَبَ، تُجَاهَ الْغَنَمِ، لِتَتَوَحَّمَ عِنْدَ مَجِيئِهَا لِتَشْرَبَ. فَتَوَحَّمَتِ الْغَنَمُ عِنْدَ الْقُضْبَانِ، وَوَلَدَتِ الْغَنَمُ مُخَطَّطَاتٍ وَرُقْطًا وَبُلْقًا». (تكوين ٣٠/ ٣٧ ـ ٣٩).

---

(١) George Bush, *Notes, Critical and Practical, on the Book of Leviticus* (New York: Ivison, Phiney, 1842), p.100.

(٢) Rock hyrax.

لمّا أراد (يعقوب) النبيّ أن تلد الغنم غنمًا مخططة، أوقفها أمام قضبان منتصبة، وهي تشرب؛ حتّى تتوحّم على (مشهد مخطّط!)، وفعلًا ولدت الغنم غنمًا مخطّطة. وهذا تصوّر بالغ السذاجة عن الصفات المكتسبة عند الحيوانات؛ إذ ظنّ الكاتب أنّ الحيوان إذا رأى منظرًا طبيعيًّا أثناء حمله، يلزمه الوحم أن يلد مثله!

وقد اندهش القسيس والناقد الكتابي (جون روجرسون)[١] من هذا التصوّر الساذج؛ فقال: إنّه «من الصعب تصوّر كيف أنّ هناك أحدًا من الناس أمكنه أن يؤمن» بهذا التصوّر غير العلمي[٢].

٩ ـ الحيّة تقتل بلسانها:

«سَم الأَصْلَالِ يَرْضَعُ. يَقْتُلُهُ لِسَانُ الأَفْعَى». (أيوب ٢٠/ ١٦).

يؤمن مؤلّف سفر أيوب أنّ الأفعى تقتل بلسانها، مستعملًا كلمة «لسان» (לָשׁוֹן) [لشون]. ويُخبرنا (جون ثومبسون)[٣] تعليقًا على النص السابق أنّه «في الزمن القديم كان يُعتقد أنّ لسان الأفعى المفرّع الدقيق هو «إبرة»»[٤].

١٠ ـ الطير الماشي على أربع:

«سَائِرُ دَبِيبِ الطَّيْرِ الَّذِي لَهُ أَرْبَعُ أَرْجُل فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ». (لاويين ١١/ ٢٣).

هذا النص ورد في مقام التشريع وتنبيه بني إسرائيل ألّا يأكلوا الطيور التي لها أربعة أرجل. الإشكال هنا هو أنه لا يوجد طير واحد (ولو كان

---

(١) جون روجرسون John W. Rogerson (١٩٣٥م ـ): قسيس إنجليزي ورئيس قسم متقاعد من جامعة شفيلد. عالم متخصص في دراسات العهد القديم ضمن أنساق علمية مختلفة، لاهوتية وتاريخية ولغوية وفلسفية. من مؤلفاته: "Myth in Old Testament Interpretation".

(٢) John W. Rogerson, *A Theology of the Old Testament: Cultural Memory, Communication, and Being Human* (London: SPCK, 2012), p.74.

(٣) جون كلاودسلي ثومبسون John Cloudsley-Thompson (١٩٢١ ـ ٢٠١٣م): عالم طبيعة بريطاني مشهور. متخصص في علم الحيوان. رَأَسَ "British Naturalists' Association". من مؤلفاته: "Land Invertebrates".

(٤) John L. Cloudsley-Thompson, *The Diversity of Amphibians and Reptiles: An Introduction* (Berlin; New York: Springer, 1999), p.223.

حشرة[1]) له أربع أرجل. والنص واضح في عبارته (אֲשֶׁר־לוֹ) (الذي له) [أَشِرْلُو] (אַרְבַּע) (أربعة) [أَرْبَعْ] (רַגְלָיִם) (أرجل) [رَجْلايِم]».

وقد حاول دعاة النصرانية الخروج من هذا الإشكال بكلّ سبيل، دون أن يقدّموا الحل الأسهل، وهو اسم طائر له أربعة أرجل!

١١ ـ الحلزون الذائب:

«كَمَا يَذُوبُ الْحَلَزُونُ مَاشِيًا. مِثْلَ سِقْطِ الْمَرْأَةِ لَا يُعَايِنُوا الشَّمْسَ». (مزمور ٥٨/٨).

انتبه النصارى إلى الخطأ العلمي في هذا النص، ولذلك غيّروا «الحلزون» (שַׁבְּלוּל) في النص العبري إلى «شمع»، كما هو الترجمة السبعينية اليونانية: (κηρος)، والبشيطا السريانية: (ܫܥܘܬܐ) والفولجاتا اللاتينية: «cera»!

وقد حاول بعضهم التملّص من المعنى المباشر للنص السابق، غير أنّ الداعية النصراني الشهير «تشارلز سبرجيون» اعترف أنّه «لا شكّ... أنّ صاحب المزمور لمّا كتب سلسلة الإدانة الشديدة التي يقع فيها هذا المقطع، كان في ذهنه الاعتقاد الشعبي المتعلق بالخسارة التدريجيّة للحلزون من جسده وهو يمشي»[2].

١٢ ـ مكان أرام:

«فَجَاءَ أُنَاسٌ وَأَخْبَرُوا يَهُوشَافَاطَ قَائِلِينَ: «قَدْ جَاءَ عَلَيْكَ جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنْ عَبْرِ الْبَحْرِ مِنْ **أَرَامَ**، وَهَا هُمْ فِي حَصُّونَ تَامَارَ». هِيَ عَيْنُ جَدْيٍ» (٢ أخبار الأيام ٢٠/٢).

غيّرت الترجمة الرهبانيّة اليسوعيّة كلمة «أرام» (אֲרָם) في الأصل العبري، والتي في السبعينيّة (سوريا) (συριας)، إلى (أدوم)؛ لأنّ (أرام) لا

(١) أقلّ ما تملكه الحشرات ستة أرجل.
(٢) Charles Haddon Spurgeon, *The Treasury of David* (Funk & Wagnalls, 1882), 3/71.

تقع بالقرب من أيّ بحر، وهي تقع في الشمال بعيدًا عن البحر الميت، وهو العيب الذي تتجاوزه منطقة (أدوم) التي تقع في جنوب وجنوب شرق البحر الميت[1].. وهو خطأ اعترف به الكثير من النقاد كـ(آدم كلارك)[2]. وقد تكرّر هذا الخطأ أكثر من مرّة، أو بتعبير عالم الأركيولوجيا البروفسور (يوحنان أهاروني)[3]: «تبادل المواضع بين هذين الاسمين (أرام وأدوم) هو خطأ شائع في النصّ [العبري] الماسوري»[4].

١٣ ـ عندما يكون الولد أكبر من أبيه!

جاء في ٢ الأيام ٢١/ ٢٠ عن (يهورام): «كَانَ **ابْنَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً** حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ **ثَمَانِيَ سِنِينَ** فِي أُورُشَلِيمَ، وَذَهَبَ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ».

٢ الأيام ٢٢/ ١ ـ ٢: «وَمَلَّكَ سُكَّانُ أُورُشَلِيمَ أَخَزْيَا ابْنَهُ الأَصْغَرَ عِوَضًا عَنْهُ... فَمَلَكَ أَخَزْيَا بْنُ يَهُورَامَ مَلِكِ يَهُوذَا. كَانَ أَخَزْيَا **ابْنَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً** حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ سَنَةً وَاحِدَةً فِي أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ عَثَلْيَا بِنْتُ عُمْرِي».

إذا كان (يهورام) قد بدأ ملكه لما كان سنّه ٣٢ سنة، وقد حكم حتّى موته لمدّة ٨ سنوات؛ فإنّه يكون قد مات لما كان سنّه ٣٩ سنة (حكم لما كان سنّه ٣٢ ـ إلى ٣٩ = ٨ سنوات). وبالنظر إلى أنّ ابنه قد ملك لمّا كان سنه ٤٢ سنة؛ فإنّه يكون الولد أكبر من أبيه بثلاث سنوات!

الجدول يوضّح الأمر إذا بدأنا في التأريخ من سنة ميلاد (يهورام).

---

(١) Edward Curtis, *Albert Madsen, A Critical and Exegetical Commentary on the Books of Chronicles* Edinburgh: T. & T. Clark, 1994), p. 405

(٢) Adam Clark, *The Holy Bible, Containing the Old and New Testaments: Joshua to Esther* (New York: Mason, 137), 2/670.

(٣) يوحنان أهاروني Yohanan Aharoni (١٩١٩ ـ ١٩٧٦م): كان رئيسًا لقسم الأركيولوجيا ودراسات الشرق الأدنى، ورئيسًا لمؤسسة الأركيولوجيا في جامعة تل أبيب.

(٤) Yohanan Aharoni, *The Land of the Bible* (London, 1979), p. 294.

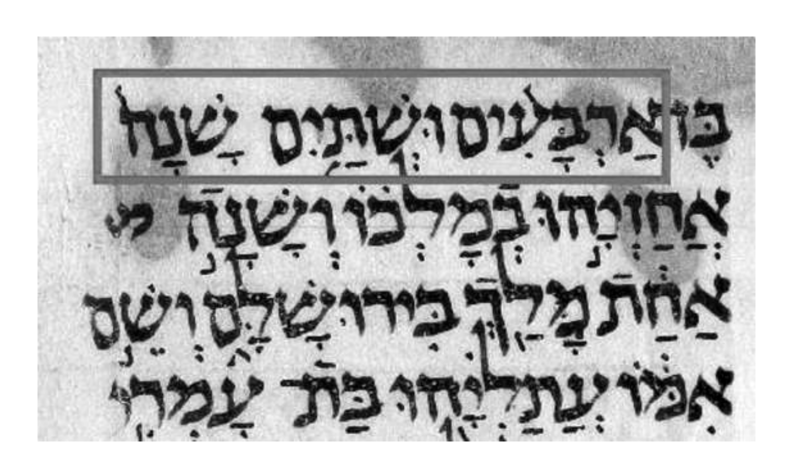
	من الميلاد إلى بداية الحكم	بداية الحكم	العمر عند الوفاة
يهورام (الأب)	١ إلى ٣٢	٣٢	٣٩ من ميلاد (يهورام)
أخزيا (الابن)	؟	٤٢ من ميلاد (يهورام)	

وقد اضطرّت ترجمة «الترجمة العربية المشتركة» إلى تحريف نص ٢ الأيام ٢٢/٢ ليكون: «وكانَ أخَزْيا ابنَ **عِشرينَ سنَةً** حينَ ملَكَ، وملَكَ سنَةً واحدَةً بِأورُشليمَ، وكانَ اسمُ أُمِّهِ عثَلْيا بِنتَ عَمري» للخروج من الإشكال، مع مخالفة الأصل العبري!

مخطوطة حلب (أفضل مخطوطة للعهد القديم) القرن العاشر

٢ الأيام ٢٢/٢

اثنان وأربعون سنة (אַרְבָּעִים וּשְׁתַּיִם שָׁנָה)



١٤ ـ عدد الأواني ٢٤٩٩ أم ٥٤٠٠؟

عزرا ١/٩ ـ ١١: «فَكَانَتْ فِي جُمْلَتِهَا ثَلاَثِينَ طَسْتًا مِنْ ذَهَبٍ، وَأَلْفَ طَسْتٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَتِسْعَةً وَعِشْرِينَ سِكِّينًا وَثَلاَثِينَ قَدَحًا مِنْ ذَهَبٍ، وَأَرْبَعَ مِئَةٍ وَعَشْرَةً مِنَ الأَقْدَاحِ الْفِضِّيَّةِ، وَأَلْفًا مِنَ الآنِيَةِ الأُخْرَى. فَكَانَ مَجْمُوعُ آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ خَمْسَةَ آلافٍ وَأَرْبَعَ مِئَةٍ».

الخطأ: ٣٠ + ١٠٠٠ + ٢٩ + ٣٠ + ٤١٠ + ١٠٠٠ = ٢٤٩٩.. في حين يخبرنا نصّ عزرا ١/ ١١ أنّ العدد هو ٥٤٠٠!

١٥ ـ بلايين الطيور:

جاء في سفر العدد أنّ الربّ قد قرّر أن يعطي بني إسرائيل لحمًا حتى يصابوا بالتخمة: «فَيُعْطِيكُمُ الرَّبُّ لَحْمًا فَتَأْكُلُونَ. تَأْكُلُونَ لا يَوْمًا وَاحِدًا وَلا يَوْمَيْنِ وَلا خَمْسَةَ أَيَّامٍ وَلا عَشَرَةَ أَيَّامٍ وَلا عِشْرِينَ يَوْمًا، بَل شَهْرًا مِنَ الزَّمَانِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ مَنَاخِرِكُمْ وَيَصِيرَ لَكُمْ كَرَاهَةً» (العدد ١١/ ١٨ ـ ٢٠). وليبلّغهم طيور السلوى، أرسل الربّ ريحًا «سَاقَتْ سَلْوَى مِنَ الْبَحْرِ وَأَلْقَتْهَا عَلَى الْمَحَلَّةِ، نَحْوَ مَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ هُنَا وَمَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ هُنَاكَ، حَوَالَيِ الْمَحَلَّةِ، وَنَحْوَ ذِرَاعَيْنِ فَوْقَ وَجْهِ الأَرْضِ» (العدد ١١/ ٣١).

يقدّر العلماء مسيرة يوم بعشرين ميلًا، وهو ما يعني أنّ قطر المنطقة التي غطّتها طيور السلوى تبلغ ٤٠ ميل، بما يعني أنّ مساحتها تبلغ ١٢٥٦ ميل مربع؛ أي: ما يزيد على ٢٠٠٠ كم مربع. وإذا حسبنا عدد الطيور المطلوبة لتغطي هذه المنطقة نحو ذراعين من الأرض، كان كلّ طير من طيور السلوى سيشغل ٠,٧ قدم مكعّب؛ فسيحتاج الأمر عندها إلى ما يقارب ١٥٠ بليون طيرًا من طيور السلوى.

وبالنظر في سياق القصّة، وأنّ الربّ لم يخلق هذا الرقم الخرافي من الطيور ليطعم به بني إسرائيل، وإنما جمع هذا العدد الموجود أصلًا، يبدو أنّ وجود هذا الرقم الهائل جدًّا لنوع واحد من الطيور دعوى فاسدة، كما أنّه بقسمة هذا العدد من الطيور على بني إسرائيل الذين لا تتجاوز أعدادهم مئات الآلاف؛ فسيكون نصيب الواحد منهم في شهر واحد آلاف الطيور!

١٦ ـ النجوم تحدّد قدَر الناس:

«جَاءَ مُلُوكٌ. حَارَبُوا. حِينَئِذٍ حَارَبَ مُلُوكُ كَنْعَانَ فِي تَعْنَكَ عَلَى مِيَاهِ

مَجِدُّو. بِضْعَ فِضَّةٍ لَمْ يَأْخُذُوا. مِنَ السَّمَاوَاتِ حَارَبُوا. الْكَوَاكِبُ مِنْ حُبُكِهَا حَارَبَتْ سِيسَرَا» (القضاة ٥/ ١٩ ـ ٢٠).

كاتب سفر القضاة يؤمن بخرافة «التنجيم» (Astrology)، أي إنّ النجوم تحدّد قدر الخلق، وتنصر أقوامًا وتهزم آخرين. وقد جاء في معجم الكتاب المقدس (Zondervan Illustrated Bible Dictionary): «نص القضاة ٥/ ٢٠ يشير **دون ريب** إلى تأثير النجوم على حياة الناس»[١].

١٧ ـ أصغر البزور:

«قَدَّم لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ قَائِلًا: «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَل أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ، وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُورِ. وَلكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ الْبُقُولِ، وَتَصِيرُ شَجَرَةً، حَتَّى إِنَّ طُيُورَ السَّمَاءِ تَأْتِي وَتَتَآوَى فِي أَغْصَانِهَا» (متى ١٣/ ٣١ ـ ٣٢).

يعترف كل الدفاعيين النصارى أنّ حبّة الخردل ليست هي «أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُورِ»[٢]، وقد حاولوا حلّ المعضلة بأكثر من صورة، لكنّهم فشلوا لأنَّ النصّ لم يصرّح أنّ حبّة الخردل هي من أصغر البزور أو أصغر البزور عند الحواريين، وإنّما أطلق الحكم وهو أنّ حبّة الخردل هي (١) الأصغر بين (٢) (جميع) البزور؛ فهي (أصغر) لا (صغيرة) أو (من الأصغر)، و(جميع) لا (بعض)..

هذا خطأ علمي في الكتاب المقدس مشهور ألجأ إحدى الكليّات اللاهوتية أن ترفض عقيدة عصمة الكتاب المقدس من الخطأ، باعتراف

---

(١) J. D. Douglas and Merrill Chapin Tenney, *Zondervan Illustrated Bible Dictionary* (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2011.), p.137.

(٢) انظر مثلًا:
James Montgomery Boice, *Dealing with Bible Problems: Alleged Errors and Contradictions in the Bible* (Fort Washington, PA: CLC Publications, 2013), John Ankerberg and John Weldon, *Handbook of Biblical Evidences* (Harvest House Publishers, 2008), p.310; Ken Ham, *Demolishing Supposed Bible Contradictions, Volume 1* (New Leaf Publishing Group, 2010), pp.98-99.

(نورمان جايزلر)[1] الذي يعدّ أبرز المدافعين عن عصمة الكتاب المقدس في الغرب في العقود الأخيرة[2]، ذلك أنّ الكليّة الإنجيلية اللاهوتيّة الشهيرة (Fuller Theological Seminary)، وعدد من رموزها مثل القسيس (دافيد ألان هبارد)[3] و(دانيال فولر)[4] قد اتّخذوا هذا النص بعينه حجّة صريحة لنفي عصمة الكتاب المقدس[5].

١٨ ـ عبرَ بيت فاجي:

جاء في مرقس ١١/١: «وَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ، إِذْ وَصَلُوا إِلَى قَرْيَةِ بَيْتِ فَاجِي وَقَرْيَةِ بَيْتِ عَنْيَا، عِنْدَ جَبَلِ الزَّيْتُونِ، أَرْسَلَ يَسُوعُ اثْنَيْنِ مِنْ تَلَامِيذِهِ».

كان المسيح في أريحا قبل أن يتوجّه إلى أورشليم، والصواب جغرافيًّا أن يمرّ أولًا عبر بيت عنيا ثم بيت فاجي، قبل أن يصل إلى أورشليم. لكننا نلاحظ أنّ مؤلف إنجيل مرقس يجعل المسيح يعبر من بيت فاجي إلى بيت عنيا؛ أي: إنّه يبتعد من أورشليم لمّا كان ذاهبًا إليها!

وقد أشار الناقد (دنيس إريك نينهام) في تعليقه على إنجيل مرقس إلى الإشكال الكبير في مرقس ١١/١ وأنّ «بيت فاجي وبيت عنيا قد قدّما بصورة مقلوبة» وقرّر أنّه «علينا أن نفترض أنّ القديس مرقس لم يكن يعرف العلاقة

---

(١) نورمان جايزلر Norman Geisler (١٩٣٢م ـ): أحد أشهر الدفاعيين النصارى في النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. لاهوتي، وفيلسوف. تتلمذ على يديه أشهر الدفاعيين النصارى في أمريكا مثل (ويليام لين كريج) و(رافي زكريا) و(فيل فرنندس). ألَّف أكثر من موسوعة ومعجم في الدفاع عن النصرانية والكتاب المقدس.

(٢) "Sadly, this error was influential in a major seminary's rejection of the inerrancy of Scripture" Norman L. Geisler, William C. Roach, *Defending Inerrancy: Affirming the Accuracy of Scripture for a New Generation* (Grand Rapids, MI: Baker Books, 2011), p.336.

(٣) دافيد ألان هبارد David Allan Hubbard (١٩٢٨ ـ ١٩٩٦م): ناقد متخصص في دراسات العهد القديم. الرئيس الثالث لكلية "Fuller Theological Seminary".

(٤) دانيال فولر Daniel Fuller (١٩٢٥م ـ): لاهوتي. ابن مؤسس الكلية. درّس فيها، وعمل عميدًا لـ"School of Theology".

(٥) John Warwick Montgomery, *Fighting the Good Fight: A Life in Defense of the Faith* (Eugene: Wipf and Stock Publishers, 2016), p.56-57.

المكانيّة للقريتين على طريق أريحا»[١].

١٩ ـ الجبل الذي يطلّ على الأرض كلّها:

جاء في متّى ٤/٨: «ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا». هذا النصّ نابع من ثقافة تعتقد (١) أنّ الأرض مسطحة لا مكوّرة (٢) وأنّه يوجد جبل عالٍ جدًّا يطلّ على جميع الأرض!!

النصّ اليوناني لا يحتمل التأويل في أنّ الإشارة هي إلى جبل عالٍ يرى الواحد من أعلاه جميع الأرض:

ορος υψηλον λιαν

ορος: جبل

Υψηλον: عال

Λιαν: جدًّا

πασας τας βασιλειας του κοσμου

πασας: كلّ

τας βασιλειας: ممالك

του κοσμου: العالم

فالجبل عال جدًّا إلى درجة أنه يطلّ على العالم كلّه، ولو قيل: إنّه يطلّ على فلسطين فقط؛ لكان باطلًا؛ لأنّ النصّ صريح أنّ (قمّة) الجبل تطل على جميع/كلّ ممالك العالم.. كما أنّ كلمة (κοσμου) [كُوزْمُوس] لم تستعمل البتّة للدلالة على (فلسطين) ـ كما يقول الناقد (جون أ. برودس[٢])[٣]. ثمّ إنّه لا يوجد جبل يطلّ على كامل فلسطين!

لقد ذهب التراث النصراني إلى القول: إنّ هذا الجبل موجود في منطقة

---

(١) D. E. Nineham, *Saint Mark* ´Harmondsworth, Middx.: Penguin, 1972), p. 295

(٢) جون أ. برودس John A. Broadus (١٨٢٧ ـ ١٨٩٥م): قسيس. أستاذ تفسير العهد الجديد، ورئيس الكليّة اللاهوتية: "Southern Baptist Theological Seminary". من مؤلفاته: "Harmony of the Gospels".

(٣) John Albert Broadus, *Commentary on Matthew* (Grand Rapids, Mich.: Kregel Publications, 1990), p.67.

(أريحا)[١]. . وهي محاولة للفهم لا شكّ في فشلها في ضوء الواقع (الجغرافي)!

٢٠ ـ الكسوف المستحيل:

«وَأَظْلَمَتِ الشَّمْسُ، وَانْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ مِنْ وَسْطِهِ. وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا أَسْلَمَ الرُّوحَ». (لوقا ٢٣/ ٤٥ ـ ٤٦).

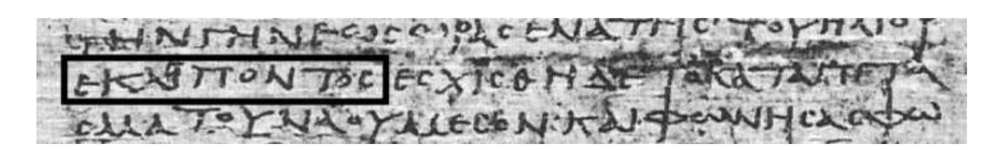
حرّف النصارى نص لوقا ٢٣/ ٤٥ مغيّرين «كسفت» (εχλιποντος) [إكلِبونتوس] إلى «أظلمت» (εσχοτισθη) [إسكُتِيسثي]، ذلك أنّه من المحال أن يحدث كسوف للشمس عندما يكون القمر بدرًا. وتابعتهم ترجمة الفاندايك العربية التي نقتبس منها ذلك.

ومن شهادات النقاد على هذا الخطأ العلمي قول الناقد (جورج كيرد) في تفسيره لإنجيل لوقا: «إنّ حدوث كسوف للشمس (حسب رواية لوقا) بينما يكون القمر بدرًا عند الفصح، كما كان وقت الصلب، إنما هو ظاهرة فلكيّة مستحيلة الحدوث. . .

ولقد كان الشائع قديمًا أنّ الأحداث الكبيرة المفجعة يصحبها نذر سوء، وكأنّ الطبيعة تواسي الإنسان بسبب تعاسته»[٢].

البردية ٧٥ (القرن الثالث)

وفيها: «كسفت» (εχλιποντος)



(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) نقله أحمد عبد الوهاب، مناظرة بين الإسلام وخصومه (الرياض: دار الحرمين، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م)، ص١٠٣.

مخطوطة بيزا (القرن الخامس)

وفيها: «أظلمت» (εσχοτισθη)

خلاصة النظر:

• القرآن ـ كتاب الله المقروء ـ يوافق حقائق الطبيعة ـ كتاب الله المنظور ـ.

• ظهور الانحرافات في أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن لا تمنعنا من تصحيح المسير، والتزام الصرامة في التأصيل والتمثيل.

• لا يمكن أن نفهم القيمة العلمية للتقريرات الكونية للقرآن دون معرفة التصور العلمي لليهود والنصارى زمن البعثة النبوية.

• صحّح القرآن كثيرًا من الأخطاء العلمية في الكتاب المقدس رغم أنّ الوجه الأول لإعجاز القرآن موافقته للكتاب المقدس لا مخالفته له.

• في القرآن والسُّنَّة أوجه كثيرة للسبق العلمي.

• الكتاب المقدس يتضمّن أخطاء علمية كثيرة في مختلف العلوم، وقد اعترف بذلك كثير من العلماء النصارى، كما أنه أمر يتوافق مع عقيدة الكنيسة الكاثوليكية اليوم في عصمة الكتاب المقدس.

الختام في كلمة

هذا الكون البديع، الجميل، والشائق يستحثّ عقولنا وقلوبنا إلى أن ننظر فيما وراءه؛ فإنّ اكتناز أرجائه بالمعنى برهانٌ بيّن أنّه أثرٌ عن إرادةٍ وحكمة.. ولا يمكن أن تكتمل الحكمة حتّى يستمر سيل دفقها بالإخبار عن غاية الوجود؛ فإنّ رحمة الصانع من كماله.. ورحمته تظهر في هداية الخلق إلى غايات النشأة.. ومن أعظم سُبل الهداية طريق اجتباء الصالحين من البشر ليكونوا مبلّغين في النظريّات وقدوات في العمليّات..

وطريق معرفة النبيّ الحق ـ حيث لا التباس ولا إلباس ـ هو في النظر في سيرة داعي النبوّة ودعوته وبيّناته، وهي أوجه إذا تضافرت شهاداتها وتكثّفت منطوقاتها أعقبت العقل بصرًا من حديد، وغطّت على القلب ببرد اليقين.

ولقد نظرنا في كتابنا هذا في السيرة المحفوظة لنبيّ الإسلام ﷺ؛ فإذا هي دالة بشهادة الصديق والخصيم على نبوّته، ولا سبيل لردّ ذلك إلا بإنكار صدق هذا المحفوظ، ولذلك عرضنا منهجيّة توثيق السيرة على سُنَّة علماء الحديث، ومنهج المخالفين؛ فاستبانت لنا عبقريّة منهج الأوّلين، ولم نسمع من المنكرين غير همهمات للمستشرقين لا تكاد تُبين؛ وهي شكوك ووساوس لم تنتظم في منهج علمي متين..

ونظرنا في حقيقة الدعوة؛ فوجدناها تهدي إلى التوحيد؛ فلا تعطيل ولا تنديد، وهي تعرّف الناس ربّهم بأعظم عبارة وأطهر معنى بما يرضي العقل

ويمسح بيد السكينة على الصدر.. وهي في كلّ خبرها، وأمرها ونهيها تشهد لنفسها بالصدق ومنافرة الكذب والوهم.. فلا تُخبر بمحالات، ولا تنهى عن شيء إلا كان شرًّا، ولا تأمر بأمر إلا أعقبَ خيرًا..

وتأمّلنا في آيات نبيّ الإسلام ﷺ فإذا هي كثيرة عددًا، مختلفة مخرجًا، تتجدّد في كلّ عصر، وكلّما نظر المرء فيها طلبًا للهدى، اكتشف فيها أبوابًا مُشرعة للحقّ والجمال..

ووضَعنا النصرانية وأسفارها في نفس الموازين التي نصبناها للقرآن؛ فإذا هي تشهد على نفسها كلّ مرّة بالباطل، وتسفر عند كلّ اختبار عن بشريّة أرضيّة لا تكاد تتّصل بخبر السماء.

عصارة المختصر: محمّد ﷺ آيةٌ للنبوة في خُلُقه، ومضمون رسالته.. والخوارق التي جرت على يديه وتتجدّد في كتابه تزيد المرء يقينًا أنّه النبيّ الحقّ، قد جاء بالهدى، وصَدَّق المرسَلين.

كلمة في الختام

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

[الأنعام: ١٤]

المراجع

الكتب العربية:

١ ـ ابن آدم، محمد، **شرح ألفية السيوطي في الحديث**، مكتبة الغرباء الأثرية، د.ت.

٢ ـ ابن إسحاق، تحقيق: محمد حميد الله، **سيرة ابن إسحاق**، معهد الدراسات والأبحاث، د.ت.

٣ ـ أرنولد، توماس، تعريب وتعليق: حسن إبراهيم حسن وغيره، **الدعوة إلى الإسلام**، القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٧١م.

٤ ـ الأشقر، عمر سليمان، **أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السُّنَّة والجماعة**، عمان: دار النفائس، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، ط٢.

٥ ـ الأعظمي، محمد مصطفى، **مغازي رسول الله ﷺ برواية أبي الأسود يتيم عروة**، الرياض: مكتبة التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨١م.

٦ ـ الأندلسي، أبو حيان، **البحر المحيط**، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٧ ـ البار، محمد علي، **الخمر بين الطب والفقه**، جده: الدار السعودية، د.ت.

٨ ـ البار، محمد علي، **المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم**، دمشق: دار القلم، ١٩٩٠م.

٩ ـ باشنفر، سعيد، **دلائل النبوة**، جدة: دار الخراز، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٠ ـ بايه، البير، تعريب: عادل العوا، **أخلاق الإنجيل، دراسة سوسيولوجية**، دمشق: دار الحصاد، ١٩٩٧م.

١١ ـ بدوي، عبد الرحمٰن، **الموسوعة الفلسفية**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٤.

١٢ ـ بدوي، عبد الرحمٰن، **دفاع عن القرآن ضد منتقديه**، القاهرة: دار الجليل، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٣ ـ بدوي، عبد الرحمٰن، ت: كمال جاد الله، **دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه**، القاهرة: الدار العالميّة للكتب والنشر، ١٩٩٩م.

١٤ ـ بدوي، عبد الرحمٰن، **موسوعة المستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣م.

١٥ ـ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

١٦ ـ البنعلي، أحمد بن حجر آل بوطامي، **الردّ الشافي الوافر على من نفى أميّة سيّد الأوائل والأواخر**، ضمن مجموعة الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي رحمه الله، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٧ ـ البهوتي، **كشاف القناع**، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

١٨ ـ بوكاي، موريس، **التوراة والإنجيل والقرآن والعلم**، بيروت: دار الكندي، ١٩٧٨م.

١٩ ـ بينتون، رولاند، ترجمة: القس عبد النور ميخائيل، **مواقف من تاريخ الكنيسة**، دار الثقافة المسيحية.

٢٠ ـ البيهقى، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، **دلائل النبوة**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

٢١ ـ الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل**، بيروت، دار المعرفة، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٢٢ ـ ابن عاشور، الطاهر، **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٢٣ ـ **الترجمة اليسوعية العربية للكتاب المقدس**، بيروت: دار المشرق، ١٩٨٦م.

٢٤ ـ تسوكر، موشيه مردخاي، تحقيق: أحمد محمود هويدي، **التأثير الإسلامي في التفاسير اليهودية الوسيطة**، القاهرة: مركز الدراسات الشرقيّة جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م، المقدمة.

٢٥ ـ تواضروس الثاني، **مفتاح العهد الجديد**، القاهرة: بطريركية الأقباط الأرثوذكس، ٢٠١٣م.

٢٦ ـ ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، **النبوات**، الرياض: أضواء السلف، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٧ ـ ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، **الصفدية**، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٦هـ.

٢٨ ـ ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، **منهاج السُّنَّة**، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦هـ.

٢٩ ـ ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٣٠ ـ جب، هاملتون، تحقيق، إحسان عباس وآخرين، **دراسات في حضارة الإسلام**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤م.

٣١ ـ عبد الجبار، نهى، **نقد العهد القديم بين الإسلام والعلمانية، ابن حزم، رينان**، القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠١٦م.

٣٢ ـ جرار، بسام، **إعجاز الرقم ١٩ فى القرآن الكريم، مقدمات تنتظر النتائج**، بيروت: المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٣٣ ـ الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، **الرسالة الشافية في الإعجاز**، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمّاني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني، القاهرة: دار المعارف، د.ت.

٣٤ ـ الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، **التعريفات**، القاهرة: دار الفضيلة.

٣٥ ـ ابن تيمية، شرح الأصبهانية، تحقيق: محمد السعوي، الرياض: دار المنهاج، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م

٣٦ ـ الجندي، أنور، **موسوعة مقدمات العلوم والمناهج**، القاهرة: دار الأنصار.

٣٧ ـ ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرحمٰن عثمان، **الموضوعات**، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٣٨ ـ الجوزية، ابن قيم، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوى وأشرف أحمد، **بدائع الفوائد**، مكة المكرمة: نزار، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٣٩ ـ الحاكم، **المستدرك على الصحيحين، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي**، القاهرة: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٠ ـ ابن حجر، **النكت على ابن الصلاح**، المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٤١ ـ ابن حجر، تحقيق:عبد الحميد سبر، **نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر**، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٤٢ ـ ابن حجر، **نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر**، تحقيق: عبد الله الرحيلي، الرياض: ١٤٢٢هـ.

٤٣ ـ ابن حجر، **فتح الباري**، القاهرة: مطبعة الحلبي.

٤٤ ـ حداد، بنيامين، **الميزان، معجم الأصول اللغويّة المقارنة سرياني ـ عربي**، بغداد: المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠٢م.

٤٥ ـ الحراني، أبو عبد الله محمد بن جابر، **كتاب الزيج**، تحقيق: كَرْلو نالّينو (روما: ١٨٩٩م).

٤٦ ـ ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، القاهرة: مطبعة السعادة.

٤٧ ـ ابن حزم، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمٰن عميرة، **الفصل في الملل والنحل**، بيروت: دار الجيل، د.ت.

٤٨ ـ حمادة، فاروق، **مصادر السيرة النبوية وتقويمها**، دمشق: دار القلم، ٢٠٠٤م.

٤٩ ـ حميد الله، محمد، **مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، بيروت: دار النفائس، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٥٠ ـ أبو حيان، **تفسير البحر المحيط**، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٥١ ـ الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **تهافت فرقان متنبئ الأمريكان أمام حقائق القرآن**، عمّان: مؤسسة الفرسان للنشر، ٢٠٠٥م.

٥٢ ـ ابن خالويه، **مختصر شواذ القرآن**، دار الهجرة، عن طبعة ليبزج، ١٩٣٤م، للمستشرق برجستراسر.

٥٣ ـ الخطراوي، محمد العيد، ومستو، محيي الدين، **ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، المدينة المنورة: مكتبة دار التراث..

٥٤ ـ خليل، صموئيل يوسف، **المدخل إلى العهد القديم**، القاهرة: دار الثقافة، ٢٠٠٥م، ط٢.

٥٥ ـ داود، عبد الأحد، **محمد فى الكتاب المقدس**، الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥٦ ـ دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم**، الكويت: دار القلم، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٥٧ ـ دراز، محمد عبد الله، تحقيق: محمد عبد العظيم علي، **مدخل إلى القرآن الكريم**، الكويت: دار القلم، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٥٨ ـ دراز، محمد عبد الله، تعريب: عبد الصبور شاهين، **دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظريّة في القرآن**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٥٩ ـ الذهبي، تحقيق: علي البجاوي، **ميزان الاعتدال**، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

٦٠ ـ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٦١ ـ الرازي، **مختار الصحاح**، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٦٢ ـ الرازي، **مفاتيح الغيب**، بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ.

٦٣ ـ الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٦٤ ـ رستم، أسد، **مصطلح التاريخ**، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٦٥ ـ الروبي، آمال، **الرد على كتاب باتريشيا كرون**، تجارة مكّة وظهور الإسلام، نسخة إلكترونية.

٦٦ ـ روسو، جان جاك، **دين الفطرة**، تعريب: عبد الله العروي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢.

٦٧ ـ روزنثال، فرانز، تعريب: صالح أحمد العلي، **علم التاريخ عند المسلمين**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣هـ، ط٢.

٦٨ ـ الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٦٩ ـ الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، **البرهان في علوم القرآن**، القاهرة: دار التراث، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٧٠ ـ الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وفتحي حجازي، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٧١ ـ زيدان، عبد الكريم، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميّة**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ط١٥.

٧٢ ـ السباعي، مصطفى، **من روائع حضارتنا**، بيروت: دار القرآن الكريم، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٧٣ ـ سبيع، عبد العظيم عبد العزيز، **ولماذا أكون مسلمًا؟** القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٧م.

٧٤ ـ السخاوي، **فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث**، تحقيق: عبد الكريم الخضير ومحمد آل فهيد، الرياض: دار المنهاج، ١٤٢٦هـ.

٧٥ ـ السعدى، تحقيق: عبد الرحمٰن اللويحق، **تيسير الكريم الرحمٰن فى تفسير كلام المنان**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٧٦ ـ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٧٧ ـ سعيدة، رءوف، **من إعجاز القرآن**، القاهرة: دار الهلال.

٧٨ ـ السقا، أحمد حجازي، **المسيّا المنتظر** ﷺ، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٧٩ ـ سلامة، محمد يسري، **مصادر السيرة النبوية، ومقدمة في تدوين السيرة**، القاهرة: دار الجبرتي، ١٤٣١هـ.

٨٠ ـ سلطان، صلاح، **نفقة المرأة وقضية المساواة**، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٨١ ـ السموأل، تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، **بذل المجهود في إفحام اليهود**، بيروت: دار الجيل، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٨٢ ـ السواح، **آرام دمشق في التاريخ والتاريخ التوراتي**، د.م: دار علاء الدين، ١٩٩٥م.

٨٣ ـ السيوطي، **الخصائص الكبرى** بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٨٤ ـ الشافعي، **اختلاف الحديث**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.

٨٥ ـ الشرقاوي، محمد عبد الله، **في مقارنة الأديان.. بحوث ودراسات**، بيروت: دار الجيل، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٨٦ ـ شلبي، عبد الجليل، **مفتريات المبشرين على الإسلام**، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م، ط٢.

٨٧ ـ شنودة، **تأملات في حياة القديسين يعقوب ويوسف**، القاهرة: ١٩٩٦م.
٨٨ ـ أبو شهبة، محمد، **الوسيط في علوم الحديث**، جدة: عالم المعرفة، ١٩٨٣م.
٨٩ ـ الشهرستاني، **الملل والنحل**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
٩٠ ـ الشوكاني، **فتح القدير**، بيروت: دار الفكر، د.ت.
٩١ ـ ابن الصلاح، **المقدمة**، باكستان، فاروقي كتب خانة.
٩٢ ـ ظاظا، حسن، **اللسان والإنسان، مدخل إلى معرفة اللغة**، دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٩٣ ـ عامري، سامي، **مشكلة الشر ووجود الله**، الرياض: مركز تكوين، ٢٠١٦م.
٩٤ ـ عامري، سامي، **استعادة النص الأصلي للإنجيل في ضوء قواعد النقد الأدنى، إشكاليات التاريخ والمنهج**، الرياض: مركز الفكر الغربي، ٢٠١٧م.
٩٥ ـ عامري، سامي، **العالمانية طاعون العصر، كشف المصطلح وفضح الدلالة**، الرياض: مركز تكوين، ٢٠١٧م.
٩٦ ـ عامري، سامي، **المرأة بين إشراقات الإسلام وافتراءات المنصرين**، دار البصيرة، ٢٠١٤م.
٩٧ ـ عامري، سامي، **هل اقتبس القرآن الكريم من كتب اليهود والنصارى**، دار البصيرة، ٢٠١٤م.
٩٨ ـ العباد، عبد المحسن، **دراسة حديث: «نضّر الله امرءًا سمع مقالتي..»**، رواية ودراية، رسالة ماجستير مطبوعة.
٩٩ ـ عبد الجبار، تحقيق: عبد الكريم عثمان، **تثبيت دلائل النبوة**، بيروت: دار العربية، د.ت..
١٠٠ ـ عبد الصمد، محمد كامل، **الإعجاز العلمي في الإسلام: السُّنَّة النبوية**، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
١٠١ ـ عبد الوهاب، أحمد، **اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطوّرات هامة في المسيحيّة**، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٠٢ ـ عبد الوهاب، أحمد، **الإسلام والأديان الأخرى** القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د.ت.
١٠٣ ـ عتر، حسن ضياء الدين، **المعجزة الخالدة**، بيروت: دار البشائر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٠٤ ـ ابن أبي العز، **شرح الطحاوية**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد الله بن المحسن التركي بيروت: الرسالة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
١٠٥ ـ عطار، أحمد عبد الغفور، **الديانات والعقائد فى مختلف العصور**، مكة المكرمة: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
١٠٦ ـ ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، الدوحة: ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٧م.
١٠٧ ـ العلاونة، أحمد، **ذيل الأعلام**، جدة: دار المنارة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
١٠٨ ـ عمارة، محمد، **الإسلام في عيون غربيّة**، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.
١٠٩ ـ العمري، أكرم ضياء، **السيرة النبوية الصحيحة**، المدينة المنوّرة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ط٦.
١١٠ ـ العمري، أكرم ضياء، **مرويات السيرة النبوية**، بين قواعد المحدثين، وروايات الإخباريين، نسخة إلكترونية.
١١١ ـ عورتانى، ورود عادل، **أحكام ميراث المرأه في الفقة الإسلامي**، رسالة ماجستير مخطوطة.
١١٢ ـ عوض، إبراهيم، **القرآن والحديث مقارنة أسلوبية**، القاهرة: مكتبة الزهراء، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
١١٣ ـ عياض، القاضي، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
١١٤ ـ الغزالي، أبو حامد، **معارج القدس في مدارج معرفة النفس**، بيروت: دار الآفاق، ١٩٧٥م.
١١٥ ـ فلاتة، عمر، **الوضع في الحديث**، بيروت: مناهل العرفان، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
١١٦ ـ الفندى، محمد جمال الدين، **الإسلام وقوانين الوجود**، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢م.
١١٧ ـ فوك، يوهان، تعريب: عمر لطفي، **العالم تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربيّة والإسلاميّة في أوروبا حتى بداية القرن العشرين**، بيروت: المدار الإسلامي، ٢٠٠١، ط٢.
١١٨ ـ ابن قتيبة، ت: عبد الله الجبوري، **غريب الحديث**، بغداد: مطبعة العاني، ١٣٩٧هـ.

١١٩ ـ القرضاوى، يوسف، **شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كلّ زمان ومكان**، القاهرة: دار الصحوة، ١٩٩٣م، ط٢.
١٢٠ ـ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: مؤسسة الرسالة.
١٢١ ـ قرم، جورج، **تعدد الأديان وأنظمة الحكم**، بيروت: دار الفارابى، ٢٠١١م.
١٢٢ ـ قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ط٣٤.
١٢٣ ـ ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، بيروت: دار المعرفة، د.ت.
١٢٤ ـ ابن القيم، تحقيق: يحيى بن عبد الله الثمالي، **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، دار عالم الفوائد، ١٣٢٨هـ.
١٢٥ ـ كاهين، كلود، تعريب: أحمد الشيخ، **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**، القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٥م.
١٢٦ ـ الكتاني، تحقيق: شرف حجازي، **نظم المتناثر من الحديث المتواتر**، مصر: دار الكتب السلفية.
١٢٧ ـ فانديك، كرنليوس، **اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، أشهر التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية**، مصر: مطبعة التأليف، ١٨٩٦م.
١٢٨ ـ ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجيزة: هجر، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
١٢٩ ـ ابن كثير، **البداية والنهاية**، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
١٣٠ ـ ابن كثير، تحقيق: سامي السلامة، **تفسير القرآن العظيم**، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
١٣١ ـ ابن كمونة، **تنقيح الأبحاث للملل الثلاث**، القاهرة: دار الأنصار، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.
١٣٢ ـ الكناني، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله الصديق، **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**، بيروت: دار الكتب العلمية.
١٣٣ ـ كوبلستون، فريدريك، تعريب: إمام عبد الفتاح ومحمود سيد أحمد، **تاريخ الفلسفة**، من فشته إلى نيتشه، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦م.
١٣٤ ـ الكيرانوي، رحمت الله، تحقيق: محمد ملكاوي، **إظهار الحق**، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية للإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤١٠هـ.
١٣٥ ـ لجنة القرآن والسُّنَّة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، الدوحة: دار الثقافة.

١٣٦ ـ لوبون، غوستوف، تعريب: عادل زعيتر، **حضارة العرب**، ٢٠١٣م.
١٣٧ ـ لؤي فتوحي وشذى الدركزلي، **التاريخ يشهد بعظمة القرآن، تاريخ بني إسرائيل المبكر**، لندن: دار الحكمة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
١٣٨ ـ المباركفوري، **تحفة الأحوذي**، بيروت: دار الكتب العلميّة، د.ت.
١٣٩ ـ محاسنة، محمد، **أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين**، العين: دار الكتاب الجامعي، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١م.
١٤٠ ـ عبد المحسن، عبد الراضي محمد، **المعتقدات الدينية لدى الغرب**، الرياض: مركز الملك فيصل، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.
١٤١ ـ المسعودي، **التنبيه والأشراف**، ت: م. ج. دو غوج، ليدن: بريل، ١٨٤٣م.
١٤٢ ـ المصلح، عبد الله، **المنح الإلٰهية في إقامة الحجة على البشرية**، د.ن.، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.
١٤٣ ـ المطيري، عبد المحسن، **الطاعنين في القرآن الكريم**، بيروت: دار البشائر، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
١٤٤ ـ ابن معين، **تاريخ ابن معين، رواية الدوري**، دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٠هـ.
١٤٥ ـ ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، **الآداب الشرعيّة**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
١٤٦ ـ مقدسي، جورج، نشأة الكليات، **معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب**، تعريب: محمود سيّد محمّد، القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٥.
١٤٧ ـ ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، د.ت.
١٤٨ ـ مهران، محمد بيومي، **بنو إسرائيل، الحضارة، التوراة والتلمود**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م.
١٤٩ ـ مهران، محمد بيومي، **دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم**، بيروت: دار النهضة العربيّة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ط٢.
١٥٠ ـ ميماريس، يني، **كتالوج المخطوطات العربية المكتشفة حديثًا بدير سانت كاترين المقدس بطور سيناء**، أثينا: الهيئة القومية اليونانية للبحوث، ١٩٨٥م.
١٥١ ـ النجار، زغلول، **قضية الإعجاز العلمي للقران وضوابط التعامل معها**، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م.

١٥٢ ـ نخلة، أمين، **في الهواء الطلق**، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
١٥٣ ـ ابن النديم، **الفهرست**، بيروت دار المعارف، د.ت.
١٥٤ ـ النووي، **شرح النووي على مسلم**، دار الخير، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
١٥٥ ـ هونكه، زيجريد، **الله ليس كذلك**، القاهرة: دار الشروق، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
١٥٦ ـ هونكه، سيجريد، تعريب: فؤاد حسنين علي، **شمس الله تشرق على الغرب، فضل العرب على أوروبا**، القاهرة: دار العالم العربي، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م، ط٢.
١٥٧ ـ الهيثمي، ت: عبد الله محمد الدروي، **مجمع الزوائد**، ت: عبد الله محمد الدرويش، بيروت: دار الفكر، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
١٥٨ ـ وات، مونتجمري، تعريب: حسين أحمد أمين، **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**، القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
١٥٩ ـ ولفنسون، إسرائيل، **موسى بن ميمون، حياته ومصنفاته**، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف، ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م.
١٦٠ ـ وهيبة، عبد الفتاح محمد، **جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع**، الإسكندرية، منشئة المعارف، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
١٦١ ـ الباقلاني، **إعجاز القرآن**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م.
١٦٢ ـ الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، **إعجاز القرآن**، مصر: دار المعارف، ١٩٩٧م.
١٦٣ ـ البغدادي، الخطيب، **الكفاية في معرفة أصول علم الرواية**، القاهرة: دار الهدى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.
١٦٤ ـ يوسف، صموئيل، **المدخل إلى العهد القديم**، القاهرة: دار الثقافة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣.
١٦٥ ـ خوان، فيرنيت، **فضل الأندلس على ثقافة الغرب**، تعريب: نهاد رضا، دمشق: إشبيلية للدراسات والنشر، ١٩٩٧.

الكتب الإنجليزية:

1- Achtemeier, Paul J,. **The inspiration of Scripture: problems and proposals,** Philadelphia: Westminster Press, 1980.

2- Adler, Marcus N., **The Itinerary of Benjamin of Tudela: Critical Text, Translation and Commentary,** London: Henry Frowde, 1907.

3- Aharoni, Yohanan, **The Land of the Bible,** London, 1979.

4- Albright, W.F,. **From the Stone Age to Christianity,** Baltimore, The Johns Hopkins University Press, 1940.

5- Albright, W.F,. **Archaeology and the Religion of Israel,** Baltimore: Johns Hopkins, 1942, 1953.

6- Al-Fasi, David B. Abraham, **Kitab Jami' Al-Alfaz,** ed. Solomon L. Skoss, New Haven: Yale University Press, 1936.

7- Andrew White, **A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom,** New York: Appleton, 1901.

8- Ankerberg, John and Weldon, John, **Handbook of Biblical Evidences,** Harvest House Publishers, 2008.

9- Ankori, Zvi, **Karaites in Byzantium: The Formative Years, 970-1100,** New York, 1959.

10- Arberry, Arthur John, **The Koran Interpreted,** Oxford: Oxford University Press, 1982.

11- Armstrong, Karen, **A History of God,** New York: Random House Publishing Group, 2011.

12- Armstrong, Karen, **Fields of Blood: Religion and the History of Violence,** New York: Alfred A. Knopf, 2014.

13- Armstrong, Karen, **Muhammad: a biography of the prophet,** New York: HarperCollins, 1993.

14- Armstrong, Karen, **The Gospel According to Woman,** London: Fount, 1996.

15- Astren, Fred, **Karaite judaism and Historical Understanding,** Columbia, S.C.: University of South Carolina Press, 2004.

16- Avalos, Hector, **The Bad Jesus: The Ethics of New Testament Ethics,** Sheffield: Sheffield Phoenix Press, 2015.

17- Aydin, Mahmut, **Modern Western Christian Theological Understandings of Muslims Since the Second Vatican Council**, Washington: The Council for Research in Values and Philosophy, 2002.

18- Azami, Muṣṭafa, **On Schacht's Origins of Muhammadan Jurisprudence,** Riyadh: King Saud University, 1985.

19- B Lewis, V L Menage, Ch. Pellat & J Schacht, eds**. Encyclopedia Of Islam,** London: E. J. Brill, 1971.

20- Baer, Yitzhak, **History of the Jews in Christian Spain,** Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1967.

21- Baskin, Judith R., Seeskin, Kenneth, eds. **The Cambridge Guide to Jewish History, Religion, and Culture,** Cambridge: Cambridge University Press, 2010.

22- Bauer, Walter, **Orthodoxy and Heresy in Earliest Christianity,** Philadelphia: Fortress, 1971.

23- Bely, Pierre-Yves, Christian, Carol, Roy, Jean-René, **A Question and Answer Guide to Astronomy,** Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 2010.

24- Bewer, Julius A,. **A critical and Exegetical Commentary on Haggai, Zechariah, Malachi and Jonah, A Critical and Exegetical Commentary on Jonah,** New York: Charles Scribner, 1912.

25- Biale, David, ed,. **Cultures of the Jews: A New History,** New York: Schocken, 2002.

26- Bird. Michael F**., Jesus and the Origins of the Gentile Mission,** New York: T & T Clark International, 2006.

27- Black, Matthew and Smalley, William A., eds. **On Language, Culture, and Religion: In Honor of Eugene A. Nida,** Paris: Miton, 1974.

28- Block, Corrie, **The Qur'an in Christian-Muslim Dialogue: Historical and Modern Interpretations,** Hoboken: Taylor and Francis, 2013.

29- Blomberg, Craig L,. **The Historical Reliability of the Gospels, second edition,** Nottingham: Apollos, 2007.

30- Bock, Gisela, **Women in European History,** Oxford; Malden, Mass.: Blackwell Publishers, 2002.

31- Boice, James Montgomery, **Dealing with Bible Problems: Alleged Errors and Contradictions in the Bible.** Fort Washington, PA: CLC Publications, 2013.

32- Bradlaugh, Charles, **Theological Essays,** A. and H. Bradlaugh Bonner, 1895.

33- Briffault, Robert, **Making of Humanity,** London: George Allen, 1919.

34- Broadus, John Albert, **Commentary on Matthew,** Grand Rapids, Mich.: Kregel Publications, 1990.

35- Brockelmann, Carolo, **Lexicon Syriacum,** Edinburgh: T. & T. Clark, 1895.

36- Bromiley, Geoffrey W., ed. **The Encyclopedia of Christianity, Tr. Erwin Fahlbusch,** Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1999.

37- Bromiley, Geoffrey W,. **International Standard Bible Encyclopedia,** Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1982.

38- Brown, Driver, Brigg, **Hebrew and English Lexicon,** Boston: Houghton, 1907.

39- Brown, Raymond E**., An Adult Christ at Christmas: Essays on the Three Biblical Christmas Stories,** Minnesota: Liturgical Press, 1988.

40- Brown, Raymond E**., An Introduction to New Testament Christology,** New York: Paulist, 1994.

41- Brown, Raymond E**., The Birth of the Messiah,** New York: Doubleday, 1993

42- Brown, Raymond E,. **The Gospel According to John (XIII-XXI): Introduction, Translation, and Notes,** New York: Doubleday, 1970.

43- Brown, Raymond E, **The Critical Meaning of the Bible,** London: Geoffrey Chapman: Cassell, 1982.

44- Bucaille, Maurice, **Moses and Pharaoh, The Hebrews in Egypt,** Tokyo: NTT Mediascope, 1994.

45- Bucaille, Maurice, **Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations,** New York: St. Martin's Press, 1990.

46- Bush, George, **Notes, Critical and Practical, on the Book of Leviticus,** New York: Ivison, Phiney, 1842.

47- Callahan, Tim, **Bible Prophecy: failure or fulfillment?,** Altadena, Calif.: Millennium Press, 1997.

48- Carabine, Deirdre, **The Unknown God: Negative Theology in the Platonic Tradition: Plato to Eriugena,** Louvain: Peeters Press; Grand Rapids, Mich.: W.B. Eerdmans, 1995.

49- Carlyle, Thomas, **Heroes: Hero-worship and the Heroic in History,** New York: John Aladen, 1883.

50- Carson, D. A. and J. Moo, Douglas, **An Introduction to the New Testament** (Grand Rapids, Mich.K Zondervan, 2009.

51- Chafer, Lewis Sperry, **Systematic Theology,** Dallas: Dallas Seminary Press, 1947.

52- Christys, Ann, **Christians in Al-Andalus, 711-1000,** Richmond: Curzon Press, 2002.

53- Chrysostom, John**, The Homilies on the Gospel of Saint Matthew,** Oxford: J.H. Parker, 1844.

54- Clark, Adam, **The Holy Bible, Containing the Old and New Testaments: Joshua to Esther,** New York: Mason, 137.

55- Clark, Adam, **The New Testament of our Lord and Saviour,** Philadelphia: Thomas, Cowperthwait, 1844.

56- Clements, David L., **Infrared Astronomy-Seeing the Heat,** Boca Raton: CRC Press, Taylor & Francis Group, 2015.

57- Cloudsley-Thompson, John L,. **The Diversity of Amphibians and Reptiles: An Introduction,** Berlin; New York: Springer, 1999.

58- Cohen, Abraham**, Everyman's Talmud: The Major Teachings of the Rabbinic Sages,** Shocken Books, 1949.
59- Coles, Peter, **The Routledge Critical Dictionary of the New Cosmology,** New York: Routledge, 1999.
60- Comfort, Philip W,. **A Commentary on the Manuscripts and text of the New Testament,** Grand Rapids: Kregel, 2015.
61- Cranfield, C. E. B,. **The Gospel According to St. Mark, Cambridge Greek Testament Commentary,** Cambridge: CUP, 1959.
62- Crone, Patricia and Cook, Michael, **Hagarism: The making of the Islamic world,** Cambridge: Cambridge University Press, 1976.
63- Curtis, Edward, Albert Madsen, A Critical and Exegetical Commentary on the Books of Chronicles, Edinburgh, T. & T. Clark, 1994.
64- Daniel, Norman, **The Arabs and Mediaeval Europe,** Longman Group, London, 1975.
65- Davenport, John, **An Apology for Mohammed and the Koran,** London: J. Davy, 1881.
66- Davies, W. D,. **A Critical and Exegetical Commentary on the Gospel according to Saint Matthew,** London; New York: T&T Clark International, 2004.
67- Dawkins, Richard, **River Out of Eden: A Darwinian View of Life,** New York, NY: Basic Books, 2008.
68- Del Tonto, Douglas, **Jesus' Words Only,** Infinity Pub, 2006.
69- Delon, Michel, ed**. Encyclopedia of the Enlightenment,** Chicago, IL; London: Fitzroy Dearborn Publishers, 2001.
70- Dever, William G**., What Did the Biblical Writers Know and When Did They Know It? What Archaeology Can Tell Us about the Reality of Ancient Israel,** Grand Rapids: MI: Eerdmans, 2001.
71- Dinwiddie, Robert; Simon Lamb and Ross Reynolds, Violent Earth, London; New York: DK, 2011.
72- Doane, Thomas William, **Bible Myths and their Parallels in Other Religions,** New York: J. W. Bouton, 1884, 3rd edition.
73- Donaldson, J,. **Woman; Her Position and Influence in Ancient Greece and Rome, and Among the Early Christians,** London: Longmans, Green, 1907.
74- Douglas, J. D. and Tenney, Merrill Chapin, **Zondervan Illustrated Bible Dictionary,** Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2011.
75- Dozy, Reinhart, **Essai sur l'Histoire de l'Islamisme,** Leyde, Paris: 1879.
76- Dozy, Reinhart, **Spanish Islam: a history of the Muslims in Spain,** tr. Francis Griffin Stokes, London: Chatto & Windus, 1913.
77- Dunn, James D. G. and Rogerson,J. W. eds**. Eerdmans Commentary on the Bible,** Michigan: W.B. Eerdmans, 2003

78- Dunn, James, **Jesus Remembered,** Grand Rapids; Cambridge: William B. Eerdmans Publishing Company, 2003.

79- Edwards, John, **Socinianism Unmask 'd,** London: J. Robinson, 1696.

80- Ehrman, Bart D,. **Forged: Writing in the Name of God: Why the Bible's authors are not who we think they are,** New York: HarperOne, 2011.

81- Ehrman, Bart D**., Lost Christianities: The Battle for Scripture and the Faiths We Never Knew,** New York: Oxford University Press, 2003.

82- Ehrman, Bart, **Peter, Paul and Mary Magdalene: The Followers of Jesus in History and Legend**, Oxford: Oxford Univ. Press, 2008.

83- Ellerbe, Helen, **The Dark Side of Christian history,** Orlando, Fla.: Morningstar and Lark, 1998.

84- Ellingworth, Paul, **The New International Greek Testament Commentary: The Epistle to the Hebrews,** Grand Rapids, MI: Wm. B. Eardmans, 1993.

85- Fagan, Brian M**., From Stonehenge to Samarkand: an anthology of archaeological travel writing,** New York: Oxford University Press, 2006.

86- Fahlbusch, Erwin and Bromiley, Geoffrey William, eds. **The Encyclopedia of Christianity,** Grand Rapids, Mich. Cambridge: UK Eerdmans 2008.

87- Feldman, Louis H,. **Jewish Life and Thought among Greeks and Romans: Primary Readings,** London: Continuum International Pub. Group, 1996.

88- Forster, E. S,. **De Mundo,** Oxford: Clarendon, 1914.

89- France, R. T,. **Matthew: An introduction and commentary, Tyndale New Testament Commentaries,** Nottingham, England: Inter-Varsity Press, 1985.

90- Freed, Edwin D,. **The New Testament: A Critical Introduction,** Belmont, CA: Wadsworth/Thomson Learning, 2001.

91- Friedman, Jerome, **Michael Servetus: A Case Study in Total Heresy,** Geneève: Droz, 1978.

92- Friedman, Richard, **Who Wrote the Bible?,** London: Jonathan Cape, 1987.

93- Geiger, A,. **Judaism and Islam,** New York: Ktav Publishing House Inc, 1970.

94- Geisler, Norman L. and Watkins, William D**., Perspectives: understanding and evaluating today's world views,** Wipf and Stock Publishers, 2003.

95- Geisler, Norman L., Roach, William C,. **Defending Inerrancy: Affirming the Accuracy of Scripture for a New Generation,** Grand Rapids, MI: Baker Books, 2011.

96- Geivett, R. Douglas and Habermas, Gary R., eds. **In Defense of Miracles: A Comprehensive Case for God's Action in History,** Downers Grove, Ill: InterVarsity Press, 2002.

97- Gesenius, William, **A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament,** Boston: Houghton, 1888.

98- Gesenius, William, **A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament,** tr. Edward Robinson, ed. Francis Brown, Oxford: Clarendon Press, 1907.
99- Gibbon, Edward, **The Decline and Fall of the Roman Empire,** London: Henry G. Bohn, 1854.
100- Glasee, Cyril, **The Concise Encyclopedia of Islam,** San Francisco: Harper and Row, 1989.
101- Gottheil, Richard James Horatio, **A Christian Bahira Legend,** New York: 1903.
102- Graham, Mark, **How Islam Created the Modern World,** Beltsville, Md.: Amana Publications, 2006.
103- Gray, John, **Straw Dogs,** London, Granta Books, 2002.
104- Green, Joel B., *et. al,* eds,. **Dictionary of Jesus and the Gospels,** Downers Grove, IL: InterVarsity Press, Feb 18, 1992.
105- Griffith, Sidney, **The Church in the Shadow of the Mosque, Christians and Muslims in the World of Islam,** N. J.: Princeton University Press, 2008.
106- H. A. R. Gibb and J. H. Kramers, **Shorter Encyclopaedia of Islam,** New York: Cornell University Press, 1905.
107- Habe,Norman, **The Book of Job: a commentary,** Philadelphia: Westminster John Knox Press, 1985.
108- Hafeez, Shaikh Muhammad, **A Muslim's Response to Christian Criticism of Islam,** Islamabad: Interfaith Publication, 1997.
109- Ham, Ken, **Demolishing Supposed Bible Contradictions, Volume 1,** New Leaf Publishing Group, 2010.
110- Hammer, Reuven, **The Torah Revolution: Fourteen Truths That Changed the World,** Readhowyouwant, 2014.
111- Harpur, Tom, **The pagan Christ: recovering the lost light,** Toronto: Thomas Allen Publishers, 2005.
112- Harris, William, **Ancient Literacy,** MA: Harvard University Press, 1989.
113- Hastings, James, eds**. A Dictionary of the Bible,** New York: C. Scribner's sons, 1911.
114- Herbermann, Charles George, ed,. **The Catholic encyclopedia,** Universal Knowledge Foundation, 1913.
115- Hershon, P. I**., Genesis: With a Talmudical Commentary,** London: Samuel Bagster and Sons, 1883.
116- Hick. John, **The Metaphor of God Incarnate: Christology in a pluralistic age,** London: Westminster John Knox Press, 2006.
117- Hirschfeld, Hartwig, **New Researches into the Composition and Exegesis of the Qoran,** London: Royal Asiatic Society, 1902.

118- Hodgkin, Thomas, **Italy and Her Invaders**, New York: Russell & Russell, 1967.

119- Horbury, William *et. al,* eds**. The Cambridge History of Judaism,** Cambridge: Cambridge University Press, 1984.

120- Horne, Thomas Hartwell, **An Introduction to the Critical Study and Knowledge of the Holy Scriptures,** New York: R. Carter & Brothers, 1852.

121- Hourani, Albert, **Islam in European Thought,** New York: Cambridge University Press, 1991.

122- Houtsma, M.Th., *et. al*, eds. **E. J. Brill's first Encyclopaedia of Islam, 1913-1936**, Brill, 1993.

123- Hoyland, Robert G., **Seeing lslam as Others Saw It. A Survey and Evoluation of Christian, Jewish and Zoroastrian writings on Early Islam**, Princeton, NJ: The Darwin press, 1997.

124- Hughes, Thomas Patrick, **The Dictionary of Islam, being an Encyclopedia of the doctrines, rites, ceremonies, and customs, together with the technical and theological terms, of the Muhammadan religion,** London: W.H. Allen, 1895.

125- Hume, David, **An Inquiry Concerning Human Understanding,** London: T. Cadell, 1772.

126- Ibn al-Fayyumi, Nathanael, **The Bustan Al-ukul,** tr. David Levine, Columbia University Press, 1908.

127- Ira Maurice Price, **The Ancestry of Our English Bible,** Philadelphia: The Sunday School Times Company, 1920, 7th edition.

128- Isaacs, Alan, **Oxford Dictionary of Physics,** Oxford: Oxford University Press, 2005, 5th ed.

129- Isteero, Albert, **'Abdullah Muslim Ibn Qutayba's Biblical Quotations and their Source: An inquiry into the earliest existing Arabic Bible Translations,** manuscript.

130- Jaki, Stanley L,. **Genesis 1: through the ages,** Royal Oak, Michigan: Real View Books, 1998.

131- Jaki, Stanley, **Miracles and Physics,** Front Royal. VA.: Christendom Press, 1989.

132- Jeffery, Arthur, **Foreign Vocabulary of the Qur'an,** Lahore: Oriental Institute, 1933.

133- John W. Rogerson, **A Theology of the Old Testament: Cultural Memory, Communication, and Being Human,** London: SPCK, 2012.

134- Kachouh, Hikmat, **The Arabic Versions of the Gospels, The Manuscripts and their Families,** manuscript.

135- Keil and Delitzsch, **Commentary on the Old Testament,** Peabody, Massachusetts: Hendrickson Publishers, 2011.

136- Keil, Carl Friedrich, **The Twelve Minor Prophets,** Edinburgh: T. & T. Clark, 1868.

137- Kenyon, Frederick G,. **Our Bible and The Ancient Manuscripts,** London: Eyre and Spottiswoode, 1898, 3rd edition.

138- Khan, Wahiduddine, **God Arises,** New Delhi: Goodword Books, 2001.

139- Kippenhahn, Rudolf, **100 Billion Suns: The Birth, Life, and Death of the Stars,** New York: Basic Books, 1983.

140- Kitchen, Kenneth Anderson, **On the Reliability of the Old Testament,** Grand Rapids, Mich.; Cambridge: William B. Eerdmans, 2006.

141- Kitchin, S.B,. **A History of Divorce,** Cape Town, London, Juta Chapman & Hall, 1912.

142- Kloppenborg, John S,. **Q, the Earliest Gospel: An Introduction to the Original Stories and Sayings of Jesus,** Louisville: Westminster John Knox Press 2009.

143- Koehler, Ludwig and Baumgartner, Walter, **The Hebrew and Aramaic lexicon of the Old Testament,** London: Brill, 2001.

144- Koester, Helmut, **Ancient Christian Gospels,** SCM Press, 1990.

145- Krasšovec, JozÓe, **ed. Interpretation der Bible,** England: Sheffield Academic Press, 1998.

146- Kümmel, Werner Georg, **Introduction to the New Testament,** Nashville, Tenn.: Abingdon Press, 1975.

147- Lachs, Samuel Tobias, **A Rabbinic Commentary on the New Testament: the Gospels of Matthew, Mark, and Luke,** New Jersey: KTAV Publishing House, Inc., 1987.

148- Law, David R,. **Inspiration,** Continuum International, 2010.

149- Lazarus-Yefeh, Hava, **Interwined Worlds, medieval Islam and Bible criticism,** New Jersey: Princeton University Press, 1992.

150- Lecky, W**., History of European Morals From Augustus to Charlemagne,** New York: D. Appleton, 1921.

151- Levenson, Jon D,. **Esther, a Commentary,** London: Westminster John Knox, 2004.

152- Lewis, Bernard, **Islam in History: Ideas, People, and Events in the Middle East,** Chicago: Open Court, 1993.

153- Lewis, C.S,. **Mere Christianity,** New York: Zondervan, 2001.

154- Lewis, Hubert and Lloyd, John Edward, **The Ancient Laws of Wales,** Buffalo, N.Y.: W.S. Hein, 2000.

155- Licona, Michael R,. **The Resurrection of Jesus: A New Historiographical Approach,** Downers Grove, Ill: InterVarsity Press, 2011.

156- Loftus, John W., ed**. Christianity in the Light of Science: Critically Examining the World's Largest Religion,** Prometheus Books. Kindle Edition.

157- Luz. Ulrich, **Matthew 1-7: A commentary on Matthew 1-7, tr. Wilhelm C. Linss,** Minneapolis, MN: Fortress Press, 1989.

158- Lyons, Jonathan, **The House of Wisdom: How the Arabs Transformed Western Civilization,** London: Bloomsbury Publishing, 2009.

159- Macdougall, Doug, **Why Geology Matters: Decoding the Past, Anticipating the Future,** Berkeley: University of California Press, 2011.

160- Mack, Burton L,. **The Lost Gospel: the book of Q and christian origins,** San Francisco: HarperSanFranciscoCollins, 1994.

161- Mark, Powelson and Riegert, Ray, **The Lost Gospel Q: The Original Sayings of Jesus,** Berkeley: Group West, 1999.

162- Massey, Edmund, **Sermon Against the Dangerous and Sinful Practice of Inoculation,** Michigan: University of Michigan Library, 1730.

163- Mathews, Shailer and Smith, Gerald Birney, eds. **A Dictionary of Ethics,** Detroit, Gale Research, 1973.

164- May, Herbert G. and Metzger, Bruce M., eds. **The New Oxford Annotated Bible With Apocrypha,** New York: Oxford University, 1973.

165- McClintock, John and Strong, James, **Cyclopaedia of Biblical, theological, and ecclesiastical literature,** New York: Harper & Brothers, 1894.

166- McDonald, Lee Martin, **Forgotten Scriptures: the selection and rejection of early religious writings,** Louisville, KY: Westminster John Knox Press, 2009.

167- McKinsey, Dennis, **The Encyclopedia of Biblical Errancy,** N.Y: Prometheus Books, 1995.

168- Menocal, Maria Rosa, Raymond P. Scheindlin and Michael Anthony Sells, eds. **The Literature of Al-Andalus,** Cambridge: Cambridge University Press, 2000.

169- Metzger, Bruce, **The Bible in Translation,** Grand Rapids: Baker Academic, 2001.

170- Metzger, Bruce, **The Canon of the New Testament: Its Origin, Development, and Significance,** Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, 2009.

171- Metzger, Bruce, **The Early Versions of the New Testament: their origin, transmission, and limitations,** Oxford: Oxford University Press, 1977.

172- Meyboom, Hajo Uden, **A History and Critique of the Origin of the Marcan Hypothesis, 1835-1866,** tr. John J. Kiwiet, Louvain, Belgium: Peeters; Macon, Ga.: Mercer, 1993.

173- Miller, Leo, **John Milton Among the Polygamophiles,** New York: Loewenthal, 1974.
174- Moché, Dinah L,. **Astronomy: A Self-Teaching Guide,** Hoboken, N.J.: John Wiley, 2009.
175- Montgomery, John Warwick, **Fighting the Good Fight: A Life in Defense of the Faith,** Eugene: Wipf and Stock Publishers, 2016.
176- Moreland, J. P,. **The Soul: How We Know It's Real and Why It Matters,** Chicago: Moody Publishers, 2014.
177- Muir, William, **The Life of Mahomet: From Original Sources,** London: Smith, 1877.
178- Nestle, Eberhard, **Introduction to the Textual Criticism of the Greek New Testament,** New York, Williams and Norgate, 1901.
179- Newby, Gordon, **A Concise Encyclopedia of Islam,** New York: Oneworld Publications, 2013.
180- Nietzsche, Friedrich, **On the Genealogy of Morals,** tr. Walter Kaufmann, New York: Random House, 1989.
181- Nietzsche, Friedrich, **The Gay Science: With a Prelude in Rhymes and an Appendix of Songs,** tr. Walter Kaufmann, New York: Vintage books, 1974.
182- Olshausen & Wiesinger. **Biblical Commentary on the New Testament by Dr. Hermann Olshausen,** New York: Sheldon, Blakeman, & Co, 1857-1859.
183- Paine, Thomas, **The Age of Reason,** London: B. D. Cousins, 1839.
184- Palmer, E. H., **tr. The Qur'an**, Oxford Clarendon Press, 1900.
185- Parker, D. C,. **An Introduction to the New Testament Manuscripts and their Texts,** Cambridge: Cambridge University Press, 2008.
186- Paul II, John, ed. Vittorio Messori, **Crossing the Threshold of Hope,** New York: Random House, Inc., 1995.
187- Petrie, W. M. F. and Griffith, F. Ll,. **Tanis,** Trübner & Co: London, 1888.
188- Pinnock, William Henry, **An Analysis of New Testament History,** Cambridge: J. Hall & Son, 1854, 4th edition.
189- Polliack, Meira, **The Karaite Tradition of Arabic Bible Translation,** Leiden: Brill, 1997.
190- Porter, Stanley E**., The Criteria for Authenticity in Historical-Jesus Research,** London; New York: T & T Clark International, 2004.
191- Presutta. David, **The Biblical Cosmos Versus Modern Cosmology: Why the Bible Is Not the Word of God,** Coral Springs, FL: Llumina Press, 2007.
192- Quinn, Frederick, **The Sum of All Heresies: The Image of Islam in Western Thought,** Oxford: Oxford University Press, 2008.
193- Rappaport, Philip, **Looking Forward: A Treatise on the Status of Woman and the Origin and Growth of the Family and the State,** Chicago: C.H. Kerr, 1908.

194- Reddish. Mitchell, **An Introduction to The Gospels,** Nashville, Tenn. Abingdon Press, 1997.

195- Reynolds, Gabriel Said, ed,. **New Perspectives on the Qur'an: The Qur'an in Its Historical Context 2,** New York: Routledge, 2011.

196- Reynolds, Gabriel Said, ed,. **The Qur'an in its Historical** Context, New York: Routledge, 2007.

197- Roberts, Alexander, *et. al,* **Ante-Nicene Fathers,** New York: C. Scribner's Sons, 1890, 1903.

198- Robertson, Jesse E.,**The Death of Judas: The Characterization of Judas Iscariot in Three Early Christian Accounts of His Death**, Ph.D dissertation, manuscript.

199- Ross, Hugh, **The Fingerprint of God, Recent Scientific Discoveries Reveal the Unmistakable Identity of the Creator, Reasons To Believe. Kindle Edition.**

200- Rowe, William, **Philosophy of Religion: An Introduction,** Encino, Calif.: Dickenson, 1978.

201- Salm, René, **The Myth of Nazareth: The invented town of Jesus,** Cranford, N.J.: American Atheist Press, 2008.

202- Sarfati, Jonathan, **Refuting Compromise,** Green Forest, AR: Master Books, 2004.

203- Sarna, N.M.**, Genesis. English and Hebrew; commentary in English. The JPS Torah commentary,** Philadelphia: Jewish Publication Society, 1989.

204- Sarton, George, **History of Science and New Humanism,** New Bruns, NJ: Transaction Books, 1988.

205- Sayce, Henry, **The Early History of the Hebrews,** London: Rivingtons, 1899.

206- Schaff, Philip and Wace, Henry, **Nicene and Post-Nicene Fathers,** New York: The Christian Literature Company, 1890,

207- Schnelle, Udo, **History and Theology of the New Testament Writings,** London: SCM, 1998.

208- Schoeler, Gregor, **The Biography of Muhammad: Nature and Authenticity,** New York, NY: Routledge, 2011.

209- Segal, Alan F., **Life After Death: A history of the afterlife in the religions of the West,** New York: Doubleday, 2004.

210- Senior, Donald, Collins, John, Getty, Mary Ann, eds,. **The Catholic Study Bible,** Oxford: Oxford University Press, 2016.

211- Serinity Young, **Encyclopedia of Women and World Religion,** New York, N.Y: Macmillan Reference USA, 1999.

212- Shahid, Irfan, **Byzantium and the Arabs in the Sixth Century,** Washington: Dumbarton Oaks, 2002.

213- Shedinger, Robert, **Was Jesus a Muslim?: Questioning Categories in the Study of Religion,** Minneapolis: Fortress Press, 2009.
214- Shoulson, Mark, **The Torah: Jewish and Samaritan versions compared,** Westport: Evertype, 2008.
215- Skolnick, Arlene S., ed**. Family Transition,** Boston: Pearson Education.
216- Smallwood, E. Mary, **From Pagan Protection to Christian Oppression,** Belfast: Queen's univ., 1979.
217- Smith, Benjamin Bosworth, **Mohammed and Mohammedanism,** London: John Murray, 1889.
218- Smith, William, ed**. A Dictionary of the Bible,** London, John Murray, 1893.
219- Soggin, J. Alberto, **Introduction to the Old Testament: from its origins to the closing of the Alexandrian canon,** London: SCM Press, 1980.
220- Sorokhtin, O.G. and Chilingarian, G.V**., Evolution of Earth and its climate birth, life and death of Earth,** Amsterdam: Elsevier Science Ltd, 2011.
221- Spinoza, Benedict, **Tractatus Theologico-Politicus,** London: Trubner, 1862.
222- Spong, John Shelby, **Resurrection: myth or reality?: a bishop's search for the origins of Christianity,** New York: PerfectBound, 2004.
223- Spurgeon, Charles Haddon, **The Treasury of David,** Funk & Wagnalls, 1882.
224- Spurrell, George James, **Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis,** Oxford: Clarendon Press, 1887.
225- Stanton, Elisabeth Cady, Anthony, Susan and Gage, Matilda Joslyn, **History of Woman Suffrage,** New York: Fowler & Wells, 1881.
226- Stein, Robert H,. **Jesus the Messiah: A Survey of the Life of Christ,** Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1996.
227- Stillman, Norman A., ed**. Encyclopedia of Jews in the Islamic World,** Executive Editor Online edition.
228- Stimpson, George W,. **A Book about the Bible,** New York: Harper & Brothers, 1945, 4th edition.
229- Stuard, Susan Mosher, ed. **Women in Medieval Society,** Philadelphia: University of Pennsylvania Press, Inc., 2012 p.14.
230- Sweeney, Emmet John, **The Genesis of Israel and Egypt,** Algora Publishing, 2008.
231- Taylor, Isaac, **Ancient Christianity and the Doctrines of the Oxford Tracts,** Philadelphia: Herman Hooker, 1840.
232- **The Catholic Encyclopedia,** New York: The Universal Knowledge Foundation, INC., 1913.
233- **The Jewish Encyclopedia,** ktav, 1925.
234- **The World Book Encyclopedia,** Chicago: World Book, 2001

235- Thomas Paine, **The Theological works of Thomas Paine,** Boston: Boston Investigator, 1858.

236- Thomas W. Davis, **Shifting Sands: The Rise and Fall of Biblical Archaeology,** Oxford; New York: Oxford University Press, 2004.

237- Tisdall, St,. **The Original Sources of the Qur'an,** London: Society For The Promotion Of Christian Knowledge, 1911.

238- Tsumura, David Toshio, **The Earth and the Waters in Genesis 1 and 2: A Linguistic Investigation,** Sheffield Academic Press, 1989.

239- Tzortzis, Hamza Andreas, *The Divine Reality: God, Islam & the Mirage of Atheism* (FB Publishing, 2016).

240- Vaglieri, Laura Veccia, **An Interpretation of Islam,** Zurich: Islam. Found., 1980.

241- Von Rad, Gerhard, **Genesis: A Commentary,** Philadelphia: Westminster John Knox Press, 1972, 3rd edition.

242- Vööbus, Arthur, **Early Versions of the New Testament: Manuscript Studies,** Uppsala, Estonian theological society in exile (J. Aunver), 1954.

243- Walzer, Michael et al., eds**., The Jewish Political Tradition: Membership,** Yale University Press, 2006.

244- Watt, W. Montgomery, **Muhammad at Mecca, Oxford: Clarendon Press., 1953.**

245- Watt, W. Montgomery, **Muhammad: Prophet and Statesman,** Oxford University Press, 1961

246- Watt, W. Montgomery. **Muhammad at Madina,** Oxford University Press,1981.

247- Watts, A.B,. **Isostasy and flexure of the lithosphere,** Cambridge Univ. Press., 2001.

248- Weeramantry, C. G,. **Islamic Jurisprudence: An International Perspective,** Basingstoke u.a.: Macmillan, 1988.

249- Weiner, Jonathan, **Planet earth,** Toronto; New York: Bantam Books, 1986.

250- Wells, George, **Belief and Make-Believe: Critical Reflections on the Sources of Credulity,** New York: Open Court, 1991.

251- Wenham, Gordon, **Word Biblical Commentary, Volume 2: Genesis 16-50,** Dallas, Texas: Word Books, 1998.

252- Whately, Richard, **Historic Doubts Relative to Napoleon Buonaparte,** New York, R. Carter & Bros., 1871.

253- White, Jon Manchip, **Everyday Life in Ancient Egypt**, Courier Dover Publications, 2003.

254- William Ricketts Cooper, **An Archaic Dictionary,** London: S. Bagster and Sons, 1876.

255- Worcester, Elwood, **The Book of Genesis in the Light of Modern Knowledge,** McClure, Phillips & Company, 1901.
256- Würthwein, Ernst, **The Text Of The Old Testament,** tr. Erroll F. Rhodes, Michigan, William B Eerdmans Publishing Company, 1995.
257- Xavier, Francis P**., God of the Atoms,** New Delhi: ISPCK and LIFE, 2006.
258- Zwemer, Samuel Marinus, **The Muslim Doctrine of God: an essay on the character and attributes of Allah according to the Koran and Orthodox tradition,** New York: Young People's Missionary Movement, 1905.

الكتب الفرنسية:

1- Berque, Jaques, **Relire le Coran**, Paris: Albin Michel, 1993.
2- Bonnard, Pierre E,. **L'Evangile selon saint Matthieu,** Geneève: Labor et Fides, 2002.
3- Bucaille, Maurice, **Moïse et pharaon: les Heìbreux en Eìgypte: quelles concordances des livres saints avec l'histoire?,** Paris: Pocket, 2003.
4- Descartes, René, **Les Méditations Métaphysiques,** Paris: Pierre Huet, 1724.
5- Le Bon, Gustave, **La Civilisation des Arabes,** Paris: Firmin-Didot et cie, 1884.
6- Leblois, Louis, **Les Bibles et les Initiateurs Religieux de L'Humanite,** Paris: Librairie Fischbacher, 1888.
7- Casanova, Paul, **Mohammed et la Fin du Monde:** eìtude critique sur l'Islam primitif, Paris: Geuthner, 1911.
8- Castries, Henry de, **L'Islam: impressions et etudes,** Paris: Armand Colin, 1907, 4e edition.
9- Mardrus, Joseph Charles Victor, **Le Koran qui est la Guidance et le Diffeìrenciateur; Traduction litteìrale et complete des Sourates Essentielles,** Paris: Eugene Fasquelle, 1926.
10- Meyerhof, Max, **Le Monde Islamique,** Paris: Rieder, 1940.
11- Noblecourt, Christiane Desroches, **Ramsès II-La véritable histoire,** Paris: Pygmalion, 1996.
12- Voltaire, **Essai Sur Les Mœurs,** Paris: Lebigre, 1834.
13- Voltaire, **Oeuvres complètes de Voltaire, Discours d'un Turc,** Paris: Furne, 1837.

ترجمات الكتاب المقدس:

1- La Bible de Jerusalem
2- La Bible de Semeur
3- The American Standard Version
4- The Amplified Bible

5- The Darby Translation
6- The English Standard Version
7- The King James Version
8- The New American Bible

المقالات العربية:

١ ـ أحمد القاضي وأسامة فنديل، **الحبة السوداء شفاء من كل داء**، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة ـ رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢١هـ.
٢ ـ رشدي البدراوي، **موسى وهارون** عليهما السلام من هو فرعون موسى؟ نسخة إلكترونيّة.
٣ ـ عبد الدائم الكحيل، **مرور البرق بين العلم والإيمان**، من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز.
٤ ـ عبد الكريم الفهدي، **الاستفادة من الأبحاث في القرآن والسُّنَّة في كل النواحي**، نسخة إلكترونية.
٥ ـ قسطاس إبراهيم النعيمي، **قصص الأنبياء**، نسخة إلكترونية.
٦ ـ محمد بن عبد الله العوشن، **تحقيق دعوى ردّة عبيد الله بن جحش**، مجلّة البيان، السنة السابعة عشرة، العدد ١٨٢، شوال ١٤٢٣هـ، ديسمبر ٢٠٠٢م.
٧ ـ منصور محمد حسب النبي، **الزمن بين العلم والقرآن**، نسخة إلكترونية.
٨ ـ ناصر الدين الألباني، **حادثة الراهب المسمى (بحيرا) حقيقة لا خرافة**، مجلة التمدن الإسلامي، ٢٥.

المقالات الإنجليزية:

1- Marilyn R. Waldman, **New Approaches to 'Biblical' Materials in the Qur'an**, The Muslim World, January 1985, V. 75, N.1.
2- Crawford H. Toy, **The New Testament as Interpreter of the Old Testament**, The Old Testament Student, Vol. 8, No. 4 Dec., 1888.
3- D.Landsborough, **'St Paul and temporal lobe epilepsy'**, in *J Neurol Neurosurg Psychiatry*. 1987 Jun; 50(6): 659-664.
4- Ghada Osman, **Pre-Islamic Arab Converts to Christianity in Mecca and Medina: An Investigation into the Arabic Sources**, Muslim World, Jan2005, Vol. 95, Issue 1.
5- Hugh Kennedy, **Reviewed Work: Meccan Trade and the Rise of Islam by Patricia Crone**, *Middle East Studies Association Bulletin*, Vol. 22, No. 1 (July 1988).

6- John Wansbrough, **Review of Hagarism, by Crone and Cook**, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 41) 1978.
7- S. V. McCasland, **Matthew Twists the Scripture**, JBL 80 (1961).
8- Sidney H Griffith, **The Gospel in Arabic: An Enquiry Into Its Appearance In The First Abbasid Century**, in Oriens Christianus, 1985 Volume 69.
9- Wael Hallaq, **The authenticity of Prophetic Hadith: A pseudo-problem,** Studia Islamica, No: 89 (1999).
10- Frank R. Freeman, **A Differential Diagnosis of the Inspirational Spells of Muhammad the Prophet of Islam, Epilepsia,** vol. 17:423-7.
11- Halim Sayoud, **Author discrimination between the Holy Quran and Prophet's statements,** Literary and Linguistic Computing, Vol. 27, No. 4, 2012.
12- Hamza Andreas Tzortzis, **God's Testimony: The Inimitability & Divine Authorship of the Qur'an.**
13- Hava Lazarus-Yafeh, **Some Neglected Aspects of Medieval Muslim Polemics against Christianity**, The Harvard Theological Review, Vol. 89, No. 1 (Jan., 1996).
14- Khâlid al-Khazrâjî and others, **The Prophet's Wives Teaching the Bible?**
15- Michael Philip Penn, Monks, Manuscripts, and Muslims: Syriac textual changes in reaction to the rise of Islam, Hugoye: Journal of Syriac Studies, Vol. 12.2.
16- R. B. Serjeant, **Review: Meccan Trade and the Rise of Islam: Misconceptions and Flawed Polemics**, *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 110, No. 3 (Jul. - Sep., 1990), pp.472-486.
17- Samuel S. Kottek, **Embryology in Talmudic and Midrashic Literature**, Journal of the History of Biology, Vol. 14, No. 2 (Autumn, 1981).
18- Stanley E. Porter, **Pauline Authorship and the Pastoral Epistles: Implications for Canon**, Bulletin for Biblical Research 5 (1995).

المقالات الفرنسية:

1- Beaufils Vincent (2008), **Le pape ou le Coran.**
2- Clément Huart, **Une nouvelle source du Qorân**, Journal Asiatique, Juilet-aout, 1904.
3- Ernest Renan, **Mahomet et les Origines de l'Islamisme**, Revue des Deux Mondes, Nouvelle période, tome 12, 1851.